دراسة وشرح

زوائد مسائل الجاهلية

للعلامة المحدث عبدالله بن محمد بن أحمد الدويش
١٣٧٣ - ١٤٠٩هـ

إعداد
هيلة بنت ضيف الله بن غانم اليوسف

الجزء الأول

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد / فقد قرأت الكتاب الموسوم بـ " دراسة وشرح زوائد مسائل الجاهلية " للباحثة/ هيلة بنت ضيف الله اليوسف.

فوجدته كتاباً ممتعاً بذلت فيه الباحثة جهوداً علمية تشكر عليه، جمعت فيه بين المسائل العلمية النظرية والتطبيقية لمسائل الجاهلية في التحذير منها وعدم مشابهة المشركين وأهل الكتاب وقد حققت مراد المؤلف رحمه الله شيخنا الشيخ المحدث/ عبدالله بن محمد بن أحمد الدويش رحمه الله وقد أيدت شرحها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مؤيدةً ذلك بالنقل والتوثيق من أهل العلم المعتبرين الذين تؤخذ عنهم الفتيا في أمور الدين.

فهذه الرسالة هي من الرسائل العلمية التي بذلت فيها جهود للتحذير من مشابهة المشركين وأهل الكتاب سائلاً المولى جلت قدرته أن ينفع بها كما نفع بأصولها، إذ رسالة الشيخ/ عبد الله امتداد لما كتبه أهل العلم في ذلك كشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في كتابه العظيم "اقتضاء الصراط المستقيم" وما جاء متفرقاً في بطون كتب أهل العلم أو رسائل مفردة ككتاب الذهبي –رحمه الله– "تشبه الخسيس بأهل الخميس" ورسالة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– "مسائل الجاهلية" إذ تعتبر أصلاً في ذلك لإيضاح الجانب العقدي في الحكمة من النهي عن التشبه بالكفار وغيرهم وكتاب الشيخ العلامة حمود التويجري –رحمه الله– "الإيضاح والتبيين".

فرحم الله أهل العلم على حرصهم على حراسة العقيدة وحمايتها لأن هذا من أعظم وأجل وجوه الإصلاح وبيان الحق، معرفة حقيقة مخالفه، وقدر مخالفته خاصة إذ جعل هذا الشيء من العامة، ووجد من يلبس الحق بالباطل، أو يهونه ويقلل أثره.

فإن من أعظم عدم العمل بالحق التلبيس بضره،وأن تغيب صورة الشر،في سبيل إيضاح الحق بدليله.

نفع الله بهذا الكتاب كما نفع بأصوله من كتب أهل العلم في هذا الباب، وأن يجزي الباحثة خيراً وأن يغفر الله لنا ولوالدينا وجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه/ عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن حمود المشيقح

حرر في مدينة بريدة حرسها الله

وبلاد المسلمين من كل سوء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمدهُ، ونستعينهُ، ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم إن الله تعالى أنزل كتابه على نبيه محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، ففتح الله به أعينًا عميًا، وآذانا صمًا، وقلوبًا غُلفًا، وبصَّر به من العماية، وأرشد به من الغواية،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: (٧٠ – ٧١).

فحصل ببركة نبوته الخير العظيم، والنفع العميم.

وكان الناس الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، قد حادوا عن الصراط المستقيم، فتفرقت بهم السبل، واجتالتهم الشياطين، فكثر فيهم الفساد، وأصبحوا على جهلٍ بالحق وعمايةٍ عنه.

فكان همّ النبي ﷺ وغاية مراده، العودة بالناس إلى ما فطرت عليه أنفسهم من عبادة الله وحدة، ونبذ كل ما يعارض ذلك، والقضاء على آثار الجاهلية العمياء، والتحذير من إحياء سننها، أو التشبه بأهلها، أو موافقتهم في شيء منها، حتى ترك أمته عليه الصلاة والسلام على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، ثم تبعه على ذلك أصحابه ﷺ، مستجيبين لأمره، متبعين لسنته، ولما ابتعد الناس عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ دبت فيهم البدع، فصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وغدت البدع سننا، والسنن بدعا، متشبهين في ذلك بأهل الجاهلية الأميين والكتابيين، فوقعوا فيما حذر منه النبي ﷺ. حينها هبَّ علماء المسلمين في كل قرن لبيان الحق من الباطل، وتحذير الناس من مغبة ما وقعوا فيه من المخالفات الشرعية التي كان عليها أهل الجاهلية ومعلوم أن من أهم مسائل العقيدة التي يجب على المسلم أن يتحلى بها مخالفة أهل الجاهلية على اختلاف مللهم ونحلهم؛ ولهذا دأب علماء المسلمين - خلفًا عن سلف - على تصنيف الكتب، والرسائل التي اشتملت على صور من الجاهلية، لتحذير الناس من الوقوع فيها؛ ومن هذه الكتب ما ألفه الشيخ العلامة عبد الله بن محمد الدويش – رحمه الله -: «زوائد مسائل الجاهلية»، وقد جمع الشيخ – رحمه الله – في كتابه هذا عددًا من مسائل الجاهلية التي ينبغي على

كل مسلم أن يخالف فيها أهل الجاهلية.

ولما كانت هذه المسائل التي ذكرها الشيخ – رحمه الله – من المسائل التي ظهرت على أرض واقعنا المعاصر بين الكثير من المسلمين، فإني استعنت بالله تعالى على شرحها، وبيان معانيها، والاستدلال لها، خاصة أني لا أعلم أحدًا قد تعرض لشرحها من قبل.

وليقيني بوجوب تنبيه الناس وتحذيرهم من الوقوع في أي صورةٍ من هذه الصور الجاهلية التي ذكرها الشيخ – رحمه الله – في كتابه.

وليخرج القارئ لهذه الرسالة - بإذن الله تعالى - بحصيلةٍ علمية مفادها أن للجاهلية صورًا مختلفة قد تتجدد، وتختلف بحسب الزمان، والمكان التي ظهرت فيه، وبحسب أحوال من ظهرت فيهم، فهي ليست محصورة بزمان، أو مكان، أو أشخاص معينين؛ لذلك كان من المهم وجود دراسة تعتني بمسائل الجاهلية بالتقرير والشرح والإيضاح؛ تحذيرًا للأمة من الوقوع فيها.

أهداف البحث:

١ – الكشف عن الكثير من أمور ومسائل الجاهلية، الموجودة في عصرنا، وبيان فسادها، وآثارها السيئة، والتحذير منها.

٢ – جمع مسائل أهل الجاهلية، وبيانها، والتحذير من مغبة التشبه.

٣ – التعريف بالشيخ عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش – رحمه الله – ومكانته وآثاره العلمية.

٤ – دراسة المسائل الواردة في كتاب الزوائد على مسائل الجاهلية دراسة عقدية وشرحها.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١ – إن معرفة مسائل الجاهلية يزيد المؤمن تمسكًا بسنة رسول الله – عليه الصلاة والسلام –، ويقوي جانب الإيمان، ويشد من أزره.

٢ – أهمية التنبه إلى صور الجاهلية الحادثة، وبيان مفهومها، وتجلية حقيقتها في جميع الجوانب؛ سواء الجانب العقدي، أو الأخلاقي، أو الاجتماعي، وغيرها من الجوانب.

٣ – إن مسائل الجاهلية تتجدد، وتظهر في كل زمان بحسب أحوال أهله، لذلك من المهم وجود دراسة تعتني بمسائلها بالتقرير، والشرح والإيضاح، وتحذير الأمة من الوقوع فيها.

٤ – لم أطلع على دراسة علمية لكتاب (زوائد على مسائل الجاهلية) للشيخ عبد الله بن محمد الدويش – رحمه الله –، وكذلك لم أجد – حسب علمي – دراسة علمية مفردة لمسائل الجاهلية التي لم يتناولها الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله –.

الدراسات السابقة:

أولاً: كتاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – (المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية) وهو كتاب قد اشتمل على مسائل الجاهلية من البدع والمخالفات التي وقعت في العصر الذي ظهر فيه الشيخ – رحمه الله –، وذِكْرُ الشيخ لهذه المسائل إنما هو على سبيل التذكر لما ظهر في عصره من البدع، والمخالفات، وليس على سبيل الحصر، ويظهر هذا من خلال عنوان كتابه، فهو لم يذكر أنه جمع كل ما عليه أهل الجاهلية، ولم يلتزم ذلك.

وهناك مؤلفان على كتاب شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – (المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية) وهما:

أ – شرح العلامة أبي المعالي محمود بن شكري الألولسي، في عام ١٣٠٦هـ الناشر مكتبة المعارف في الطائف، وهو شرح مختصر جدًا، بل إنه ترك كثيرًا من المسائل دون شرح لها.

ب – (المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية) دراسة وتحقيق وشرح: رسالة ماجستير قدمها الباحث: يوسف بن محمد السعيد، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٦هـ وهي مطبوعة. علمًا بأن هذه الرسالة تناولت مسائل الجاهلية التي أوردها الشيخ محمد بن عبد الوهاب دون غيرها.

ثانيًا: رسالة ماجستير في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بعنوان: الجاهلية في القديم والحديث، للطالب عبد الله بن سليمان العميريني، والباحث لم يتناول هذا الجانب ولم يتوسع فيه.

ثالثًا: كذلك يوجد شرح للشيخ صالح بن فوزان الفوزان على مسائل الجاهلية.

إلا أنني لم أطلع على دراسة علمية أقيمت على كتاب (زوائد مسائل الجاهلية) للشيخ عبد الله بن محمد الدويش – رحمه الله – لذلك أحببت أن أسهم بجهد المقل، وأقوم بدراسة وشرح مسائل كتاب الزوائد.

خطة البحث:

تشتمل على مقدمة، وتمهيد، وقسمين، وخاتمة، ثم الفهارس الفنية.

١ – **المقدمة**: وتشتمل على أهمية الموضوع، وأهدافه، وأسباب اختياره،

والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجي فيه.

٢ - **التمهيد**: وفيه:

- نبذة موجزة عن كتاب (مسائل الجاهلية) للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -.
- نبذة موجزة عن كتاب الزوائد على مسائل الجاهلية للشيخ عبد الله بن محمد الدويش - رحمه الله -.
- السبب في تأليف الكتاب، وسبب تسمية الكتاب بهذا الاسم.

٣ - **القسم الأول: الدراسة، وتشتمل على ثلاثة فصول:**

الفصل الأول: ترجمةٌ للمؤلف، وحياته العلمية.

الفصل الثاني: مفهوم الجاهلية، وأنواعها، وأحكامها، وصورها، وآثارها.

الفصل الثالث: موازنة بين المؤلفات في هذا الباب.

٤ - **القسم الثاني: شرح الزوائد على مسائل الجاهلية:**

ويتضمن دراسة وشرح الزوائد الواردة في الكتاب، والتي بلغ عددها إحدى عشرة ومائتي مسألة، وذلك حسب المنهج العلمي المتبع.

٥ - **الخاتمة**، وفيها النتائج والثمرات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

٦ - **الفهارس الفنية.**

منهج البحث:

سيكون المنهج المتبع بعون الله - تعالى - هو المنهج الاستقرائي والتحليلي.

المنهج المتبع في الشرح:

أولاً: عرض المسائل حسب ترتيب المؤلف لها، ثم بيان مراد المؤلف منها إجمالاً.

ثانيًا: بيان معاني بعض المفردات في بعض المسائل، والتي تحتاج إلى بيان، وترك البعض الآخر دون بيان؛ نظرًا لوضوح معانيها.

ثالثًا: هناك مسائل متقاربة إلى حد كبير جدًا، فإني أشرح المسألة أول ورودها شرحًا يغني عن إعادتها مرة أخرى في المسألة المشابهة، وحين أبلغ تلك المسألة، أحيل القارئ على المسالة الأولى، ولما كان هناك مسائل يكمل بعضها بعضًا، وهي متوالية الترتيب، فإني أجمعها، وأتكلم عليها بكلام واحد، يفهم القارئ المراد من كلٍ.

رابعًا: إثبات وجود الخصلة عند أهل الجاهلية مع التمييز بين ما كان من خصال الأميين والكتابيين، وأعتمد في ذلك على ما أجده في كلامهم، أو كتبهم، فإذا لم أجد فإني أعتمد في ذلك على الأدلة من كتاب الله – تعالى – وسنة رسول الله ﷺ، وأقوال الصحابة، وعلماء الإسلام.

خامسًا: بيان كيفية مخالفة الشارع لأهل الجاهلية في هذه المسائل.

أبتدئ بإيراد أدلة المؤلف التي استدل بها على مخالفة الشارع في بعض هذه المسائل لأهل الجاهلية؛ سواء كان دليله من القرآن، أو السنة؛ ثم إيراد ما أجده من أدلة تثبت هذه المخالفة؛ سواء كان بالتصريح أو التلميح.

سادسًا: بيان وجود هذه الخصلة في العصر الحاضر – إن وجد –، وذلك من خلال كلام، وكتب من تجلت فيهم هذه الخصلة أو من عاش واقعهم أو بينهم، أو باستفاضة وجود هذه الخصلة عند الكثير من الناس.

سابعًا: عزو الآيات إلى سورها وذكر رقم كل آية.

ثامنًا: تخريج الأحاديث والآثار، والحكم عليها، ومنهجي في ذلك:

١ - إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، فإني أخرجه منهما، وأكتفي بذلك عما سواهما.

٢ - إذا لم يكن الحديث في الصحيحين، فإني أخرجه من السنن، وأكتفي بذلك عما سواها.

٣ - إذا لم يكن الحديث في السنن، فإني أتوسع في تخريجه قدر ما أستطيع من كتب المسانيد، والمصنفات، والأجزاء الحديثية وغيرها.

٤ - أذكر الحكم على الحديث من كلام الأئمة المتقدمين والمتأخرين ما أمكن.

٥ - عند تخريج الحديث، أذكر اسم المؤلف، ثم اسم الكتاب والباب، ورقم الحديث، ثم رقم الجزء والصفحة.

تاسعًا: عزو الأبيات الشعرية.

عاشرًا: ترجمة الأعلام، فقد قمت بترجمة جميع الأعلام الواردة في البحث، عدا الأنبياء، والأعلام الأحياء نظرًا لصعوبة الحصول على تراجم لهم غالبًا.

الحادي عشر: الإفادة من المصادر ابتداءً بالأقدم، وأن تشتمل هذه الإفادة في أول ورود لها على اسم الكتاب كاملاً، ثم اسم مؤلفه، وناشره، ومكان نشره، ورقم الطبعة، وتاريخها، والجزء والصفحة.

وبعد... فإني إذ أقدم عملي هذا أعترف مسبقًا بالتقصير، فما تهيا إيراده

ويسره الله لي عبر هذه الرسالة، لابد أن يشوبه النقص والعثرات، سنة الله – جل وعلا – في خلقه، فالكمال لله تبارك – وتعالى –، فمن وجد فيه خلة أو نقصًا فليسدّه، فما هو إلا من نفسي ومن الشيطان، ومن وجد فيه أمرًا محمودًا فليقبله، فهو من توفيق الله وحده وعونه، فالله المستعان.

هذا وأسأل الله الواحد الأحد الصمد الذي في السماء عرشه، وفي كل مكان رحمته وسلطانه، ومصير كل أحد إليه، ورزق كل أحد عليه، أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من كتبه وقرأه، فله تعالى الحمد السرمد، حمدًا لا يحصيه العدد، ولا يقطعه الأبد، حمدًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي له أن يحمد، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ﷺ.

* * *

التمهيد

أولاً: نبذة موجزة عن كتاب (المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية) للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] - رحمه الله -

صنف الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - كتابًا سماه: (المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية)، وقد اشتمل كتابه هذا على مائة وثمان وعشرين مسألة، استخلصها - رحمه الله - من الكتاب، والسنة، وأقوال أهل العلم، وقد كان هدفه من وراء ذلك: تنبيه المسلمين، لكي يجتنبوا هذه المسائل التي هي من خصال أهل الجاهلية، والتي حرص النبي ﷺ على مخالفتهم فيها، وحث أمته على ذلك.

وقد كان اقتصار الشيخ على هذا العدد من المسائل لعدة أسباب تبينت للدكتور يوسف السعيد من خلال استعراضه لكتب الشيخ ورسائله،

---

(١) هو: الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي، ولد في العينية عام (١١١٥هـ)، نشأ في بيت علم ودين حفظ القرآن صغيرًا، كان والده قاضي العيينة ومفتيها، وجده سليمان مفتي بلاد نجد عامة، من شيوخه عبد الله بن إبراهيم بن سيف، والشيخ محمد حياة سندي، له مؤلفات عدة: كتاب التوحيد، كشف الشبهات، مسائل الجاهلية، توفي رحمه الله عام (١٢٠٦هـ). انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام: دار العاصمة. الرياض، (ط١)، ١٣٩٨هـ (١/ ١٢٥)، من مقدمة شرح مسائل الجاهلية: للشيخ محمد بن عبد الوهاب. شرح وتحقيق ودراسة د. يوسف السعيد، دار المؤيد. الرياض (ط١)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م (٢٣).

وشرحه لكتاب الشيخ مسائل الجاهلية فقال عن ذلك: (لم يكن المراد منه الحصر، وإنما لكون هذه المسائل كانت منتشرة في زمانه كثيرًا، ولأنه قصد من وراء تأليف هذا الكتاب معالجة الأوضاع الخاطئة التي كان يعيشها أهل زمانه)[١].

وقد قام العلامة أبو المعالي الألوسي[٢] - رحمه الله - بشرح بعض مسائل الشيخ محمد ابن عبد الوهاب شرحًا مقتضبًا جدًا، ثم قام الدكتور يوسف بن محمد السعيد بدراسة، وشرح جميع هذه المسائل وبيان معانيها والاستدلال عليها ضمن رسالةٍ علميةٍ تقدم بها إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نال بها درجة الماجستير.

كما شرح هذه المسائل الشيخ الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان - حفظه الله - ضمن دروس علمية، كان يلقيها في المسجد، وقد جُمعت في كتاب مطبوع.

---

(١) شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٤١ - ٤٤).

(٢) هو: العلامة الكبير محمود بن شكري بن عبد الله الألوسي، ولد سنة (١٢٧٣هـ) في بغداد، عالم بالأدب والدين، من دعاة الإصلاح، أخذ العلم عن أبيه وجده، كان سلفي المعتقد من مؤلفاته: غاية الأماني في الرد على النبهاني، شرح مسائل الجاهلية. توفي - رحمه الله - عام (١٣٤٢هـ). انظر: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية: لعمر رضا كحالة. مكتبة المثنى. بيروت، ودار إحياء التراث. بيروت (١٢/ ١٦٩ - ١٧٠)، الأعلام قاموس تراجم الأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت (ط٥)، ١٩٨٠م، (٧/ ١٧٢ - ١٧٣).

ثانيًا: نبذة موجزة عن كتاب (زوائد مسائل الجاهلية) للشيخ عبدالله ابن محمد الدويش - رحمه الله -:

في القرن الرابع عشر الهجري قام الشيخ العلامة عبد الله بن محمد الدويش - رحمه الله - بزيادة على ما جاء في مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - حيث قام بجمع مسائل الجاهلية المذمومة التي لم يتطرق إلى ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه، فجمعها في كتاب سماه: (زوائد مسائل الجاهلية)، واشتمل كتابه هذا على إحدى عشرة ومائتي مسألة استخلصها - رحمه الله - من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، وعلماء الإسلام، ومما هو منتشرٌ في هذا العصر.

وقد نهج الشيخ - رحمه الله - في تأليف هذا الكتاب منهج الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في كتابه: (مسائل الجاهلية) والذي تمثل في النقاط التالية[١]:

أولاً: الإيجاز في الكلام على المسائل.

ثانيًا: الاستدلال على بعض المسائل، دون بعضها الآخر.

ثالثًا: الاعتماد في الاستدلال على نصوص الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، وعلماء الإسلام.

رابعًا: ذكر المسائل على غير ترتيبٍ موضوعي، فقد سردت سردًا.

خامسًا: وجود مسائل متقاربة، مع وجود فرق بينهما، كأن يكون بين

---

(١) منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه مسائل الجاهلية من كتاب شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد، (٤٠).

المسألتين مثلاً عموم وخصوص، مثال: مسألة إيذاء الأنبياء، ومسألة الاستهزاء بالأنبياء، فالأولى أعم من المسألة الثانية.

السبب في تأليف الكتاب:

لقد ذكر الشيخ عبد الله الدويش – رحمه الله – في مقدمة كتابة السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب، رغم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – قد ألف كتابًا في مسائل الجاهلية، فقال عن ذلك: (إذا عُرف أن ما عليه أهل الجاهلية مذموم إلا ما وافق الشرع؛ فالواجب على كل مسلم معرفة ذلك، لئلا يقع فيه وهو لا يشعر، وقد جمعت أشياء من ذلك، وهي عامة لأهل الجاهلية من أهل الكتاب، وغيرهم. فإن قيل ألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – مسائل الجاهلية، فما فائدة ما جمعته؟

فالجواب: أن هذه ما ذكرها الشيخ؛ ثم ليعلم أن هذا ليس استدراكًا عليه؛ لأنه لم يذكر أنه جمع كل ما عليه أهل الجاهلية، وإنما ذكر أمورًا خالفهم فيها رسول الله ﷺ، فلم يّدع الحصرَ حتى يقال إن هذا استدراك عليه)[(١)].

لقد بيّن الشيخ – رحمه الله – في كلامه السابق الأسباب التي دعته إلى تأليف كتابه الزوائد، وهي تعريف الناس بأن ما كان عليه أهل الجاهلية مذموم إلا ما وافق الشرع، وتنبيههم إلى مسائل كثيرة من مسائل الجاهلية قد تخفى على الكثير منهم، فيقعُ فيها أحدهم وهو لا يشعر.

---

(١) مقدمة زوائد مسائل الجاهلية ص(٩).

كما أن هناك سبباً آخر علاوةً على السبب السابق الذي ذكره الشيخ - رحمه الله- وأن لم يصرح به ؛إلا أنهُ كان ظاهرٌ لكل من يقرأ مقدمة الشيخ السابقة، ومسائل الجاهلية التي ذكرها في كتابه وهو حرصه الشديد – رحمه الله – على التحذير من التشبه بأهل الجاهلية في عباداتهم وعاداتهم.

سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم:

إن سبب تسمية الشيخ كتابه (زوائد مسائل الجاهلية) لأنه جمع فيه مسائل زادت على مسائل الجاهلية التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – في كتابه بإحدى عشرة ومائتي مسألة، لم يتطرق إلى ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه مسائل الجاهلية.

* * *

القسم الأول

الدراسة

وتشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ترجمة للمؤلف، وحياته العلمية.

الفصل الثاني: مفهوم الجاهلية، وأنواعها، وأحكامها، وصورها، وآثارها.

الفصل الثالث: موازنة بين المؤلفات في هذا الباب.

الفصل الأول
ترجمة المؤلف

اسمه، ونسبه، ومولده:

هو الشيخ عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد الدويش، أصلهم من العرينات من قبيلة سبيع - تصغير سبع - وأمراؤهم من آل شويه، ومكان إقامتهم بلدة (العطار) من بلدان سدير، فقدم جدهم محمد من (العطار)، واستوطن الزلفي، فصارت أسرة الشيخ في بلد الزلفي إحدى بلدان سدير الغربية مما يلي القصيم.

وُلد الشيخ عبد الله في عام ١٣٧٣هـ بمدينة الزلفي، وقد تربى في كنف والده، إذ توفيت والدته وهو رضيع، ثم ترعرع ونشأ نشأة مباركة، عُرف من خلالها بالصفات الحميدة، والأخلاق الطيبة من العفاف، والطهارة، وحسن الخلق.

وقد كان - رحمه الله - ملازمًا لوالده، وفي خدمته منذ الصغر.

كان - رحمه الله - آية في سرعة الحفظ، والفهم مع الذكاء المتوقد، مما كان دافعًا له إلى طلب العلم والمعرفة من مظانها.

طلبه العلم، ورحلاته فيه، وشيوخه:

تاقت نفس الشيخ - رحمه الله - إلى طلب العلم منذ صغره، مستغلاً سنيه الأولى التي تتميز عادةً بالصفاء الذهني، وقوة الحافظة، فدأب على طلب العلم بجد، واجتهاد، مجانبًا للدعة والكسل، فبدأ رحلته في طلب العلم بانتقاله إلى مدينة بريدة عام ١٣٩١هـ، نهل فيها من شتى العلوم على أيدي العلماء العاملين، راضيًا بما يواجهه لأجل طلب العلم، فقد نزل في

إحدى غرف مسجد شيخه محمد بن صالح المطوع[1] – رحمه الله – مواظبًا على دروسه، فكان في كل مراحل طلبه للعلم بارزًا ونابغًا.

فأدرك العلم في وقت قصير، وكان سعيه دائمًا في تحصيل العلم وإدراكه، واقتناء المؤلفات النادرة والجيدة في شتى مصادر العلوم الشرعية، كالفقه، والحديث ومصطلحه ورجاله، والتفسير وأصوله وغير ذلك.

وقد كان – رحمه الله – مكبًا على كتب السلف الصالح رحمهم الله، ككتب العقيدة والفقه والحديث ولذلك تجده – رحمه الله – شديد التأثر بهم وبأحوالهم، وذلك ظاهر في سلوكه، وطريقته في حفظ الوقت، ومعاملة الطلاب، وغير ذلك من السلوك المستقيم.

وكان تأثره بشيخي الإسلام ابن تيمية[2]، ومحمد بن عبد الوهاب كبيرًا، وتلاميذهما من أئمة هذه الدعوة.

---

(١) هو: الشيخ محمد بن صالح بن سليمان المطوع، ولد عام ١٣١٢هـ في مدينة بريدة، نشأ – رحمه الله – نشأة صالحة منذ طفولته، قرأ القرآن، وتعلم مبادئ الكتاب، تولى إمامة مسجد عودة ببريدة قرابة خمسين سنة، جلس للطلبة في مسجده، واستمر في التدريس أربعين سنة، كان عابدًا عالمًا ورعًا متعففًا، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، من شيوخه الشيخ عمر بن سليم – رحمه الله -. توفي رحمه الله عام ١٣٩٩هـ في بريدة. انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٦/ ١٣).

(٢) الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، شيخ الإسلام، مفتي الفرق، الفارق بين الفرق ولد سنة (٦٦١هـ) من كبار أئمة أهل السنة والجماعة، من مؤلفاته: منهاج السنة النبوية في الرد على الرافضة والقدرية، الفتاوى، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. توفي سنة (٧٢٨هـ). انظر: البداية والنهاية: لابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت (١٣/ ٣٠٣)، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: محمد ابن أحمد بن قدامة المقدسي. ت: محمد حامد الفقي. دار الكاتب العربي. بيروت، (١٨).

وكان - رحمه الله - واسع الأفق شديد الفهم لما يقرأ ويُلقى عليه، سريع الحفظ، فقد حفظ الأمهات الست وغيرها من كتب الحديث والمتون، ولذلك كان يحرّض طلابه على أخذ العلم من المتون، ثم يشرع الطالب بدراسة غيرها، كما قيل: «من حفظ المتون حاز الفنون»، وقد كان عنده من كل فن علمًا؛ لأنه كان مكبًا على دراسة هذه الفنون، فكان عالمًا بالعقيدة، والتوحيد، والفقه، والتفسير، والنحو.

ومن الشواهد على حفظه - رحمه الله - أنه سئل في إحدى المرات، فقيل له: يقولون إنك تحفظ الأمهات الست، فأجاب رحمه الله بتواضع، وكأنه لا يود أن يشتهر عنه في حياته «كما هي عادة السلف»، فقال: نعم، ولكن صحيح مسلم يحتاج إلى تربيط.

ومن شيوخه:

الشيخ صالح بن أحمد الخريصي(١) - رحمه الله تعالى -، والشيخ عبد الله بن محمد بن حميد(٢) - رحمه الله -، والشيخ صالح بن عبد الرحمن

---

(١) هو: الشيخ صالح بن أحمد بن عبد الله الخريصي، ولد عام (١٣٢٨هـ) في مدينة بريدة، حفظ القرآن وهو صغير، شب على طلب العلم، كان من شيوخه: عبد الله بن سليم، وعمر بن سليم، عمل - رحمه الله - مدرسًا وإمامًا في أحد مساجد منطقة بريدة، وتولى القضاء في الدلم. من تلاميذه: صالح البليهي، عبد الرحمن بن عبد الله العجلان، وغيرهم كثير. توفي الشيخ عام (١٤١٥هـ) رحمه الله رحمة واسعة. انظر: علماء نجد (٢/ ٤٣٧).

(٢) هو: الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حميد، ولد رحمه الله عام (١٣٢٩هـ) في الرياض، كف بصره رحمه الله وهو صغير، إلا أن ذلك لم يمنعه من طلب العلم من شيوخه: الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ، وسعد العتيق، وصالح آل الشيخ، وغيرهم من العلماء، تولى القضاء في الرياض ثم في عدة مدن، ومن مؤلفاته: الدعوة إلى الجهاد في الكتاب والسنة، دفاع عن =

السكيتي[١] - رحمه الله -، والشيخ محمد ابن صالح المطوع - رحمه الله -، والشيخ صالح بن إبراهيم البليهي[٢] - رحمه الله - وغيرهم.

تلاميذه:

جلس الشيخ - رحمه الله - للتدريس من عام ١٣٩٥هـ، وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا، فكانت مدة جلوسه حوالي أربعة عشر عامًا، بهذه المدة التف حوله طلاب كثيرون من طلبة العلم[٣].

طريقة الشيخ في التدريس:

تتميز طريقة الشيخ عبد الله في التدريس بأنها على الطريقة التي أخذ بها متقدمو العلماء العلم عن مشايخهم، فكان الطالب يقرأ عليه المتن من كتب

= الإسلام. توفي رحمه الله (١٤٠٢هـ) ودفن بمكة. انظر: علماء نجد (٤/ ٤٣١).

(١) هو: الشيخ صالح بن عبد الرحمن بن إبراهيم السكيتي، ولد عام (١٣٣١هـ) في مدينة بريدة، عمل إمامًا ومدرسًا لمسجد في بريدة مدة خمسين عامًا، وعمل مدرسًا في المعهد العلمي ببريدة، من شيوخه: عمر بن سليم، وصالح الكريديس. توفي عام (١٤٠٤هـ). انظر: علماء نجد (٢/ ٤٧٨).

(٢) هو: الشيخ صالح بن إبراهيم بن محمد البليهي ولد عام (١٣٣١هـ) في قرية الشماسية وهي إحدى قرى القصيم، عمل مدرسًا في المعهد العلمي ببريدة، وإمامًا لمسجد الوزان، من شيوخه: عمر بن سليم، وصالح الخريصي، ومحمد صالح المطوع، ومن تلاميذه: الشيخ إبراهيم الدباسي، والشيخ صالح الفوزان وغيرهم. من مؤلفاته: عقيدة المسلمين والرد على الملحدين، يا فتاة الإسلام، توفي - رحمه الله - عام (١٤١٠هـ). انظر: علماء نجد (٢/ ٤٣٠).

(٣) ومن تلاميذه الدكتور عبد الرحمن بن سليمان الشمسان، والدكتور عبد السلام بن برجس البرجس، والدكتور عبدالله بن فهد السلوم، والشيخ عبد العزيز بن أحمد المشقيح، وعبد الله بن إبراهيم السعوي وغيرهم.

الفقه، فيقوم بإيضاح غوامضه، وتحليل ألفاظه، والاستدلال على ذلك من الكتاب أو السنة، أو من كلام أهل العلم - رحمهم الله تعالى -، وكل ذلك مع الأدب والخشية. أما إذا كان الطالب لا يقرأ في متن كأن يقرأ في كتب الشروح، فهو يكتفي بكشف ما يخفي على الطالب من الألفاظ ويخرج أدلته.

وقد كان الشيخ - رحمه الله - يجلس للتدريس محتسبًا على نشر العلم وتعليمه، فكانت له عدة جلسات يومية في المسجد المجاور لبيته من بعد صلاة الصبح حتى طلوع الشمس بوقت طويل، ثم يخرج إلى بيته وقتًا قصيرًا، ثم يعود فيجلس للتدريس.

كما تولى - رحمه الله تعالى - التدريس صباحًا في مدرسة خيرية متبرعًا.

وفي يوم الخميس كان الشيخ يجلس في بيته مستقبلاً طلاب العلم من باحثين ومسترشدين ومستفيدين منه، ثم يخرج إلى المسجد قبل أذان الظهر، ويصلي، ثم يجلس للتدريس حتى أذان العصر، كما يجلس من قبل أذان العشاء ويبقى حوالي ساعة ونصف، ثم ينتهي بعد ذلك عمله اليومي، ومع هذا الجهد الطويل، فإن ذلك لم يمنعه من التأليف والعبادة.

صفاته:

كان - رحمه الله - هينًا لينًا في غير ضعف مهابًا سمحًا كريمًا حليمًا ذا نخوةٍ وشهامة، محبوبًا متقربًا للطالبين والفقراء والمساكين، صبورًا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم.

كان كثير العبادة من الصلاة والصيام وغيرهما، معرضًا عن القيل والقال، دائم الصمت إلا فيما ينفع، قليل الكلام، حسن السمت، دائم

البشر، مبتسمًا.

كما كان - رحمه الله - عفيفًا، صالحًا، حسن الأخلاق، شديد الخشية، كثير الإحسان، قنوعًا في مسكنه، وملبسه، ومطعمه.

مؤلفاته:

صنف الشيخ - رحمه الله - مصنفات عدة، دلت على سعة علمه، وقوة فهمه واستنباطه، وأنه لم يكن مجرد جماع لما في بطون الكتب، بل كان يكتب عن علم وبصيرة.

وقد تميز الشيخ - رحمه الله - في تأليفه بأنه ركز على معالجة الكثير من المخالفات التي ظهرت عند أهل هذا العصر، فمن مؤلفاته - رحمه الله - التي طبعت.

١ - التوضيح المفيد لشرح مسائل كتاب التوحيد.
٢ - الألفاظ الموضحات لأخطاء دلائل الخيرات.
٣ - دفاع أهل السنة والإيمان عن حديث خلق آدم على صورة الرحمن.
٤ - المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال.
٥ - التنبيهات النقيات على ما جاء في أمانة مؤتمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب.
٦ - تنبيه القاري على تقوية ما ضعفه الألباني.
٧ - الكلمات المفيدة على تاريخ المدينة.
٨ - إرسال الريح القاصف على من أجاز فوائد المصارف.
٩ - مختصر بدائع الفوائد.
١٠ - التعليق على فتح الباري.

وقد قام أحد طلاب الشيخ – رحمه الله –، وهو الشيخ عبد العزيز بن أحمد المشيقح بالإشراف على طباعة هذه المؤلفات وتصحيحها.

(هذا وللشيخ – رحمه الله – مؤلفٌ واحد لم يطبع بعد وهو كتاب «الرد الرشيد على أهل الغلو والتشديد» كما له مؤلفات أخرى، وافته المنية – رحمه الله – قبل أن يكملها)[١].

وفاته:

توفي الشيخ ـ رحمه الله ـ في مساء يوم السبت الموافق ٢٨/ ١٠/ ١٤٠٩هـ إثر مرض لزمه حوالي خمسة عشر يومًا، وكان عمره حين وفاته ما يقارب أربعة وثلاثين عامًا قضاها في العلم والتعليم، والعبادة، وقد كان لوفاته أسى شديد ومصابه عظيم على أقاربه ومشايخه وتلاميذه، وكل من عرفه، وقد خلف الشيخ مكتبة علمية عامرة بالكتب النفيسة، فرحمه الله رحمة واسعة، ورضي عنه، وأسكنه الفردوس الأعلى[٢].

---

(١) أفادني عن هذا الكتاب تلميذه الشيخ عبد العزيز بن أحمد المشيقح – حفظه الله –.

(٢) انظر: علماء نجد (٤/ ٣٨٦)، سيرة الشيخ في مقدمة كتابه، والتوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد، ويليه زوائد مسائل الجاهلية، ويليه دفاع أهل السنة والإيمان عن حديث خلق آدم على صورة الرحمن. بقلم عبد العزيز بن أحمد المشيقح. دار العليان للنشر. بريدة (ط١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م (٩ – ١٨)، من أعلام القرن الرابع عشر، والخامس عشر. لإبراهيم بن عبد الله الحازمي. دار الشريف للنشر. الرياض (ط١)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. (١/ ١٢٠ – ١٢٢)، معجم الكتاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية. شركة الدائرة للإعلام المحدودة. الرياض (ط٢)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م (٥٩ – ٦٠)، موسوعة أسبار للعلماء والمتخصصين في الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية. أسبار للدراسات والبحوث والأعلام. الرياض، (ط١)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م (٢/ ٧٣٩ – ٧٤٠).

الفصل الثاني
مفهوم الجاهلية، وأنواعها، وأحكامها، وصورها، وآثارها

أولاً: التعريف اللغوي:

الجاهلية في اللغة: من «جهل»؛ الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خلاف العلم، والأخر: الخفة، وخلاف الطمأنينة.

فالأول: الجهل نقيض العلم، ويقال للمفازة التي لا علم بها مجهلة.

والثاني: قولهم للخشبة التي يحرك بها الجمر مجهلٌ، ويقال: استجهلت الريح الغُصن إذا حركته فاضطرب[(١)].

قال الراغب الأصفهاني[(٢)]:

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس. ت: عبد السلام محمد هارون. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر (ط٢)، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م (١/ ٤٨٩)، تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. ت: محمد خفاجي ومحمد فرج. الدار المصرية للتأليف. مطابع سجل العرب ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م (٦/ ٥٦)، لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور الإفريقي. دار صادر، بيروت، (ط٣)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١١/ ١٢٩)، القاموس المحيط: لمجد الدين الفيروزآبادي. دار الجيل. بيروت (ط١)، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، (٣/ ٣٦٣)، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ إعداد مجموعة من المختصين بإشراف الشيخ د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن ملوح. دار الوسيلة، جدة، (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م (٩/ ٤٣٦٦).

(٢) هو: الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الراغب الأصفهاني. أحد أعلام العلم ومشاهير الفضل. له التفسير الكبير، ومفردات القرآن. توفي سنة (٥٠٢هـ). انظر: البلغة: لمحمد بن =

والجهل على ثلاثة أقسام:

الأول: وهو خلو النفس من العلم، وهذا هو الأصل. يقال له: جهل بسيط.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، يقال له: جهل مركب.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يترك الصلاة متعمدًا(١).

الجاهلية في الاصطلاح:

لقد وردت عدة تعاريف في بيان المراد بالجاهلية، فمن هذه التعاريف:

التعريف الأول: الجاهلية هي الحال التي كانت عليها العرب قبل

= يعقوب الفيروز آبادي. ت: محمد المصري. جمعية التراث. الكويت (ط١)، ١٤٠٧هـ، ص(٩١)، كشف الظنون: لمصطفى القسطنطيني. دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، (٢/ ١٧٧٣).

(١) المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. ت: محمد خليل. دار المعرفة. بيروت. لبنان، (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ص(١٠٩)، وللاستزادة انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مطابع دار العربية. بيروت. لبنان (ط٢)، ١٣٩٨هـ، (٧/ ٥٣٩ – ٥٤٠)، التعريفات: لعلي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب المصري. القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، (ط١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص(٩٣)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. لأبي البقاء أيوب الكفوي، مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان، (ط٣)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م (٣٥٠)، كشاف إصطلاحات الفنون: لمحمد بن علي التهانوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، (١/ ٣٤٤)، التعريفات الاعتقادية: السعد بن محمد آل عبد اللطيف. دار الوطن. الرياض، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص(١٤٥).

الإسلام من الجهل بالله سبحانه، ورسله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكبر، والتجبر، وغير ذلك[١].

التعريف الثاني: الجاهلية هي حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدي الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله[٢].

التعريف الثالث: الجاهلية هي الانحراف عن منهج الله الذي رسمه لعباده، سواء كانت قبل الإسلام أو بعده، وهي لا تختص بقوم دون قوم، بل تعم كل من حاد عن شريعة الله في القديم والحديث[٣].

التعريف الرابع: الجاهلية: هي الحال التي تكون عليها أمة من الأمم قبل مجيئها هدي الله، والحالة التي تمتنع فيها أمة من الأمم، أو بعض أمة من الاستجابة لهدي الله[٤].

ومن خلال هذا العرض للتعاريف التي عُرفت بها الجاهلية، أخلص إلى أن المراد بالجاهلية هي: «الحال التي تكون عليها أمة من الأمم، أو بعضها على غير هدي الله».

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج: شرح الإمام محيي الدين بن شرف النووي. طبعة منقحة بزيادات الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. دار ابن حزم. بيروت. لبنان (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م (٨٧)، لسان العرب (١١/ ٣٢٣)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي. جامعة بغداد، (ط٢)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص(٤٠).

(٢) جاهلية القرن العشرين: محمد قطب. مكتبة وهبة. مصر، (١١).

(٣) الجاهلية في القديم والحديث. رسالة علمية قدمها الباحث عبد الله بن سليمان العميري، ص(١٨).

(٤) شرح مسائل الجاهلية (٥٩).

ولعل هذا التعريف هو التعريف المختار نظرًا إلى أنه أخصر، وأشمل.

أنواع الجاهلية:

لقد سبق التعريف بالجاهلية بأنها الحال التي تكون عليها أمة من الأمم، أو بعضها على غير هدي الله -عز وجل-.

ومعلومٌ أن البارئ - عز وجل - قد شمل بهداه جميع جوانب الحياة لكل أمةٍ من الأمم، فمتى ما حادت أي أمةٍ من هذه الأمم عن الحق في أي جانبٍ من هذه الجوانب، فإن في هذه الحالة سيظهر للرائي نوع من أنواع الجاهلية؛ وبناءً عليه سيكون للجاهلية أنواع مختلفة، نظرًا إلى اختلاف الجوانب التي ظهرت فيها، فمن هذه الأنواع:

أولاً: جاهلية الاعتقاد: وهي الجاهلية الواقعة في جانب الأحكام المتعلقة في العقائد؛ سواء في باب أسماء الله، وصفاته، أو الملائكة، أو الرسل، أو اليوم الآخر. وغيرها من جوانب الاعتقاد.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة الحادية عشرة: الشك في الدار الآخرة، وما ورد في المسألة العشرين: نسبة الصاحبة لله تعالى وغيرها من المسائل.

ثانيًا: جاهلية العبادات: وهي الجاهلية الحاصلة في جانب العبادات؛ سواء في باب الصلاة، أو الصيام، أو الحج، أو الزكاة، وغيرها من أنواع العبادات.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة الثالثة والثلاثين: الزيادة في الصيام، وما ورد في المسألة الرابعة والتسعين: تأخير المغرب حتى تشتبك النجوم وغيرها من المسائل.

ثالثًا: جاهلية المعاملات: وهي الجاهلية القائمة في جانب تعاملات

الخلق بعضهم مع بعض؛ سواء في باب النكاح، أو البيع، أو الجوار... ونحوها.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة الثامنة والستين: نكاح الاستبضاع، وما ورد في المسألة الثانية والثلاثين بعد المائة: استحلال الربا وتشبيهه بالبيع، وغيرها من المسائل.

رابعًا: جاهلية الأخلاق(١): وهي الجاهلية الحاصلة بفقدان إحدى مكارم الأخلاق التي حث الشارع عباده عليها، أو بعدم القيام بها على وجهها الصحيح كالصدق، والحياء، والتواضع، والقناعة، والأمانة... وغيرها من مكارم الأخلاق.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة التاسعة والعشرين: نقض العهد، وما ورد في المسألة الثلاثين: إلقاء العداوة بين المسلمين... وغيرها من المسائل.

خامسًا: جاهلية الحكم: وهي الجاهلية القائمة في جانب التحكيم لدى الولايات العامة، كالحكام، والأمراء، والقضاة... وغيرهم.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة الثامنة: تأمير النساء، وما ورد في المسألة الحادية والسبعين: التوعد بسجن من خالفهم ولو كان محقًا... وغيرها من المسائل.

سادسًا: جاهلية السياسة(٢): وهي الجاهلية البارزة في تعاملات الدول بعضها مع بعض كاعتداء بعض الدول القوية والظالمة على ملكيات الدول

---

(١) انظر: شرح مسائل الجاهلية، ص(٦٤)، جاهلية القرن العشرين، ص(١٧٩).

(٢) انظر: جاهلية القرن العشرين، ص(١١٥).

الضعيفة لسلب ثرواتها،... وغيرها.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة الثانية عشرة: تقتيل الأبناء، واستحياء النساء، وما ورد في المسألة السادسة عشرة بعد المائة: إفسادهم في الأرض وتسميته صلاحًا.

سابعًا: جاهلية العلوم: وهي الجاهلية الحاصلة في بعض العلوم الدنيوية عند معارضتها للنصوص الشرعية، كعلم الاستنساخ، وعلم السحر والشعوذة... وغيرها.

مثال ذلك: ما ورد في المسألة الحادية بعد المائتين، والثانية بعد المائتين: القول بثبوت الشمس، والقول بدوران الأرض.

إن هذه بعضٌ من أنواع الجاهلية، وقد ذكر الدكتور يوسف السعيد – حفظه الله – أنواعًا أخرى للجاهلية، تختلف بحسب اعتباراتها. فقال عن ذلك: «الجاهلية تتنوع أنواعًا بحسب اعتبارات مختلفة، فهي تتنوع من حيث الإطلاق والتقييد، ومن حيث الفترة الزمنية، ومن حيث متعلقها، ومن حيث الحكم...»[(١)].

ثم بين – حفظه الله – المراد بكل نوع فقال:

أنواع الجاهلية من حيث الإطلاق والتقييد:

النوع الأول: (جاهلية مطلقة، ويراد بها الجاهلية العامة، وهذا النوع من الجاهلية تُطلق على الفترة التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ؛ أما بعد بعثته

---

(١) انظر: شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد، ص(٦٠ – ٦٥).

فلا)[١]، لقوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس)[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: (.... فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ[٣].

النوع الثاني: (جاهلية مقيدة، قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، وإن كان في دار الإسلام، وقد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين، كما في قوله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية...»[٤] ونحو ذلك)[٥].

وهذا النوع من الجاهلية يكون حتى بعد بعثة النبي ﷺ.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق وتعليق: أ. د: ناصر ابن عبدالكريم العقل، دار الفضيلة. الرياض. السعودية، (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م (١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب – باب (٢٨)، برقم (٣٦٤٠، ٣٦٤١)، بمثله، وفي كتاب الاعتصام – باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون) برقم (٧٣١١) بمثله، وفي كتاب التوحيد – باب قوله تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه) برقم (٧٤٥٩) بمثله (٧٤٦٠) بنحوه (٢٩٧، ٦٠٩، ٦٢٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإمارة – باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم) برقم (٤٩٥٠، ٤٩٥١) بنحوه (٤٩٥٤) بمثله (١٠٢١) موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة صحيح البخاري، صحيح مسلم، جامع الترمذي، سنن أبي داود، سنن النسائي، سنن ابن ماجة. بإشراف الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. دار السلام للنشر والتوزيع. الرياض، (ط٣)، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٥٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز – باب التشديد في النياحة، برقم (٢١٦٠) بمثله (٨٢٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١٥٨).

وأنواع الجاهلية من حيث الفترة الزمنية:

النوع الأول: جاهلية قبل مبعث النبي ﷺ[(١)]. وقد أطلق الشارع عليها الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[(٢)].

النوع الثاني: جاهلية بعد مبعث النبي ﷺ[(٣)]، أي بمشابهتم في بعض الجوانب، كما ورد في حديث: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية..».

وأنواعها من حيث متعلقها: تتنوع الجاهلية من حيث متعلقها أنواعًا كثيرة جدًا، يصعب حصرها، فمنها جاهلية الأخلاق، ومنها جاهلية الاقتصاد ومنها جاهلية الفن... إلخ)[(٤)].

أحكام الجاهلية[(٥)]:

الأول: جاهلية حكمها الكفر والشرك، وهي ما تتعلق بالعقائد،

---

(١) المنهاج (٨٧)، لسَان العربَ (١١/ ١٢٩)، الاقتضاء (١٥٧)، المفصل في تاريخ العرب (٤١)، معجم متن اللغة (٥٩١)، الهادي إلى لغة العرب (١/ ٣٨٣).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٣٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٥٧)، جاهلية القرن العشرين (١١)، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر: محمد قطب، دار الوطن. الرياض، (ط١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (١٧).

(٤) انظر: شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٦٠ – ٦٥).

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٥٨)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. لابن قيم الجوزية. ت: أحمد فخري الرفاعي وعصام فارس الحرستاني. دار الجيل. بيروت (١/ ٣٧٦ – ٤٠٣)، حسن التنبه لما ورد في التشبه للإمام: نجم الدين محمد بن محمد الغزي. رسالة ماجستير مقدمة من قِبل عدد من الباحثات: الرسالة المقدمة من الباحثة دولة بنت محمد العسيري (١/ ٦٧، ٧١، ٧٦)، والرسالة المقدمة من الباحثة منى بنت عبد الرحمن الشنيفي (٣٧ – ٤٣)، شرح مسائل الجاهلية (٦٤ – ٦٥).

وبعض العبادات مثل: تكذيب الرسل الذي أرادوا منه في الحقيقة جحد الحق، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(١)، ومنها التبرك بالصليب، والاستغاثة بأصحاب القبور.

الثاني: (جاهلية حكمها الفسق والمعصية، وهي ما تكون بترك واجب، أو فعل محرم دون الكفر)(٢)، فهذه لا يكفر صاحبها على معتقد أهل السنة والجماعة، ومن هذا النوع: النياحة على الميت، والفخر بالأحساب، وحلق اللحى، ونحو ذلك.

الثالث: جاهلية حكمها الكراهة، وهي ما تردد حكمها بين الإباحة والتحريم، كمن قام عنده هذا النوع من الجاهلية من غير تعمد ولا قصد، كترك الشيب دون صبغه، وعدم إحفاء الشوارب، فهذا النوع من الجاهلية مكروهه؛ لئلا تكون ذريعة إلى التشبه بأهل الجاهلية.

صور الجاهلية:

إن لكل نوعٍ من أنواع الجاهلية صورًا شتى، عجز جهابذة العلم على مر العصور عن حصرها في مؤلف واحد، لعلمهم باختلاف صورها، وتجددها باختلاف الزمان والمكان والأشخاص، لهذا سأعمد - بعون الله تعالى - على التعريج على الجوانب الأساسية التي انبثقت عنها شتى أنواع

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٣٣).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري للإمام: أحمد بن حجر العسقلاني. تصحيح وتعليق محب الدين الخطيب، بإشراف: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله. نشر وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية (١/ ٨٥).

الجاهلية، والتي منها برزت هذه الصور للجاهلية على وجه الاختصار، ثم أحيل القارئ إلى مظانها التي نقلت منها هذه الجوانب الأساسية.

فأقول مستعينة بالله:

إن لكل نوعٍ من أنواع الجاهلية ملامح خاصة، كان لها الأثر الأكبر في بروز كل صورةٍ من صور الجاهلية، وفي سيادتها، وعلى استمراريتها، فقد برزت صور عدة للجاهلية من جانب الاعتقاد، نتيجةً للانحراف عن المنهج الحق تجاه نصوص الاعتقاد، والذي برز بسبب الغلو في مسألة إعمال العقل، والعمل على إخضاع كل ما يرد على البشر من العلوم والمعارف الشرعية إلى التجربة، والحس، والمشاهدة، أو نتيجة لمتابعة الهوى في أمور الاعتقاد، مما نجم عن ذلك ظهور مسوغات وهمية لشركيات وقع فيها الكثير من البشر.

كما وقد ظهرت صور أخرى للجاهلية، من جوانب عدة، كجانب الأخلاق والسلوك، وجانب الاقتصاد، وجانب الشرائع، وجانب السياسة(١). وغيرها من الجوانب التي تمثلت فيها الجاهلية، وتمثل عنها ما نراه من صور للجاهلية، ولعل الدافع الذي أدى إلى أن تتمثل الجاهلية في هذه الجوانب يعود لسببين رئيسين، هما:

أولاً: تعطيل النصوص إما بالتأويل أو بالتحريف.

ثانيًا: تحكيم الأهواء والشهوات في جميع الأمور، وفي جميع مجالات

---

(١) للاستزادة: انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢٧ – ٢٨)، جاهلية القرن العشرين (٦٣ – ٢٣٥)، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر (٣٠ – ٦٣)، شرح مسائل الجاهلية ص(٦٤).

الحياة العلمية والعملية.

وسوف يتجلى - بإذن الله تعالى - ضمن «دراسة وشرح زوائد مسائل الجاهلية» التي ذكرها الشيخ عبد الله الدويش - رحمه الله - في كتابه هذا عدد كبير من صور الجاهلية، والمندرجة تحت الجوانب السابقة؛ سواء كانت تحت جانب جاهلية الاعتقاد، كما في مسألة السجود للشمس، ومسألة نسبة الصاحبة لله سبحانه - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا -، ومسألة اتحاد المخلوق بالخالق.

أو: تحت جانب جاهلية الأخلاق والسلوك، كما في مسألة إتيان الذكور، وترك إتيان الإناث، ومسألة الحسد، وتبرج النساء، وأمرهم للناس بالخير ونسيان أنفسهم.

أو: تحت جاهلية الاقتصاد، كما في مسألة نقص المكيال والميزان، واستحلال الربا، واكتساب المال بالميسر.

أو: تحت جاهلية الشرائع، كما في مسألة الزيادة في الصيام، والاختصار في الصلاة، وترك الختان، وتفضيل الميتة على المذكاة، والاحتفال بأعياد مبتدعة.

أو: تحت جاهلية السياسة، كما في مسألة تأمير النساء، واتباع السادة والكبراء فيما خالف الحق.

وغيرها من صور الجاهلية التي عمل الشيخ - رحمه الله - على جمع بعضٍ منها في كتابه هذا على سبيل الذكر لا الحصر، وصورٍ أخرى جمعها الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - أيضًا في كتابه مسائل الجاهلية، وغيرها من صور الجاهلية التي وردت ضمن كتب العلماء السابقين -

رحمهم الله - المؤلفة في تأصيل عقيدة أهل السنة والجماعة، أو في كتب الردود أو البدع والحوادث، أو في بيان أنواع الذنوب من صغائر وكبائر.

كما وقد حرص العلماء - رحمهم الله تعالى - في جميع كتبهم قديمًا وحديثًا على بيان الأحكام المترتبة على هذه الصور من الجاهلية للتحذير منها، والقضاء عليها.

آثارها:

إن لجميع أنواع الجاهلية في شتى صورها آثارًا نكدة خطيرة، لا تقتصر على فردٍ من الأفراد، ولا على زمن من الأزمان، فكثيرٌ من صور الجاهلية يتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، لاسيما إذا لم يظهر من ضمن هذه الأجيال من يتولى مهمة القضاء على هذه الصور، والعمل على إصلاح ما أفسدته.

فمن أهم آثار الجاهلية تأليه العقل، والمبالغة في إشباع الجسد، هذان الأثران اللذان يعدان من أهم دعائم الجاهلية الوثنية، التي جعلت لنفسها أساسًا تنطلق منه في سبيل تحقيق جميع أهدافها، وهذا الأساس قائمٌ على تمرد الإنسان على خالقه، وقد تولد عن هذين الأثرين آثار كثيرة، أقولها على وجه الاختصار:

المبالغة في إعمال العقل في جميع ما يرد على البشر من علوم ومعارف، وجعله هو المحكِّم في الأمور كلها، وهو المرجع الذي تنتهي إليه المعرفة من جميع جوانبها، مما أدى إلى الإعراض عن اتباع الحق، والعمل على طمس معالمه، وذلك من خلال إقصاء كثير من شرائع الدين وعقائده، فاستبيح على إثر ذلك كثيرٌ من المحرمات، واندثر كثيرٌ من المبادئ والأخلاق السامية، فدبَّ الخلاف بين الأفراد والجماعات، وحصلت الفرقة.

كما نتج عن ذلك التخبط والخلط بين الحق والباطل، فاختلفت المفاهيم لدى البعض ممن جهلوا الحق، أو ممن تجاهلوا وتعاموا عن الحق، ففقدوا على إثر ذلك الطمأنينة والسعادة، ورضخوا للذل والهوان من قِبل عدو داخلي من شيطان، وشهوةٍ، وهوى نفس، ومن قبل عدو خارجي من شياطين الإنس والجن، ولا عجب من ذلك، فهذا مصداقٌ لما توعد به الشارع عز وجل كل من أعرض عن الحق الذي أنزله على عباده(١) ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢)، **وقال أيضًا عز من قائل:** ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(٣)، **وقال تعالى :** ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾(٤).

---

(١) للاستزادة. انظر: جاهلية القرن العشرين: محمد قطب (٦٣ – ٢٣٥)، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر: محمد قطب (٣٠ – ٦٣)، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة: لعلي بن نجيب الزهراني. تقديم الشيخ: محمد قطب، دار طيبة للنشر. مكة المكرمة، (ط٢)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، (٢/ ١١١ – ٣٠٨).

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: (٤٤، ٤٥).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٥٣).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).

الفصل الثالث
موازنة بين المؤلفات في هذا الباب
«مفهوم الجاهلية وأنواعها وأحكامها وصورها وآثارها»

إن محاولة الحديث عن كل ما يتعلق بالجاهلية مفهومها، وأنواعها، وأحكامها، وصورها، وآثارها هي من المحاولات التي سعى إليها أكثر العلماء الجهابذة من هذه الأمة قديمًا وحديثًا، حين شرعوا بتأليف مؤلفاتهم التي تناولوا فيها الحديث عن عامة ما يتعلق بالجاهلية، أو عن جانبٍ من جوانبها.

وقد كان دافعهم إلى ذلك حرصهم الشديد على حماية هذا الدين، والدفاع عنه، وعن أهله، والقضاء على كل ما من شأنه أن يحل عرى هذا الدين، أو أن يبعد أهله عنه، ولمناصحة المسلمين أيضًا، وبيان ما خفي على أكثرهم من صور الجاهلية، وتحذيرهم من شؤم تمثل هذه الصور فيهم، وبيان سوء عاقبتها.

إلا أن القارئ حين يطلع على هذه المؤلفات، يندر أن يجد كتابًا قد جُمع فيه كل ما يتعلق بالجاهلية من مفهومها، وأنواعها، وأحكامها، وصورها، وآثارها، نظرًا إلى أن محاولة حصر الكلام عن كل ما يتعلق بالجاهلية في مؤلف واحد هي محاولة لحصر ماء البحر في قدح ماء، فالكلام عن الجاهلية وما يتعلق بها بابٌ واسع محالٌ أن يُحصر الكلام عنها، وعما يتعلق بها في مؤلفٍ واحد لعدة أسباب:

أولاً: لاختلاف العلماء في مفهوم الجاهلية والمراد بها.

ثانيًا: اختلاف العلماء في أحكام الجاهلية.

ثالثًا: كثرة صور الجاهلية، واختلافها من زمنٍ لآخر، ومن شخص لآخر، ومن مكان لآخر.

رابعًا: اختلاف الآثار المترتبة على كل صورة، نظرًا لاختلاف الأشخاص المتمثلة فيهم هذه الصور، والظروف المحيطة بهم.

لذا فالقارئ لمؤلفات العلماء المتقدمين، والمتأخرين في هذا الموضوع، يجد أن هناك بعضًا من هذه المؤلفات قد بذل فيها مؤلفوها ما في وسعهم في سبيل محاولة الكلام عن غالب ما يتعلق بالجاهلية - مفهومها، وأنواعها، وأحكامها وصورها، وآثارها -، ومن أفضل ما وقفت عليه في ذلك من مؤلفات العلماء المتقدمين: كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» هذا الكتاب الذي برع فيه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بأسلوبه العلمي الرصين، واستدلاله القوي الواضح القائم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، متبعًا في ذلك منهج أهل السنة والجماعة؛ ليجعل القارئ على بصيرة بمفهوم الجاهلية، وأنواعها، وأحكامها، وغالب صورها وآثارها.

وقد وفق الله عز وجل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه هذا لموافقة الحق؛ فقد استطاع - رحمه الله - في هذا الكتاب أن يُجلي للقارئ معظم ما يتعلق بالجاهلية مفهومها، وأنواعها، وأحكامها، وعاداتها، وآثارها، ومآثرها التي محاها الإسلام، ليخرج القارئ من هذا الكتاب بحصيلة علمية تتضمن أسباب الوقاية عن الوقوع في كل ما يتعلق بالجاهلية، وذلك بالتمسك بكتاب الله تعالى، واتباع سنة رسوله ﷺ، واقتفاء أثر السلف

الصالح، والحذر من الابتداع في الدين، واتقاء أسباب الضلالة والغواية.

هذا وقد وُجِد من العلماء المتأخرين الذين برزوا في عصرنا الحاضر من اقتفى أثر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان بعض صور الجاهلية، وأحكامها، وبيان آثارها، وهو الشيخ حمود بن عبد الله التويجري(١) - رحمه الله - في كتابه «الإيضاح والتبين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين».

فقد امتاز هذا الكتاب عن غيره من الكتب الموجودة في هذا العصر بغزارة مادته العلمية، المعززة بالأدلة الشرعية الواضحة من الكتاب، والسنة، والموشحة بالكثير من كلام السلف الصالح، وأئمة الإسلام لبيان الحق بدليله، وتزييف الباطل، وإقامة الحجة عليه.

وقد حرص الشيخ - رحمه الله - في كتابه هذا على بيان جملة كبيرة من صور الجاهلية التي تمثلت لدى الكثير من المسلمين، والتي شابهوا فيها أهل الجاهلية، وعلى بيان حكم كل صورة، والآثار المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، معضدًا جميع ما يقوله بأدلةٍ من الكتاب والسنة، أو من أحدهما،

---

(١) هو: الشيخ حمود بن عبد الله بن حمود التويجري، ولد في مدينة المجمعة عام (١٣٣٤هـ) حفظ القرآن صغيرًا ولم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، من شيوخه: الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري، قرأ عليه شتى العلوم في التوحيد والتفسير والفرائض والأصول وغيرها، من مصنفاته: إثبات علو الله على خلقه، الرد على من أباح الربا الجاري في بعض البنوك، من تلاميذه: عبد الله الرومي، عبد الله بن محمد بن حمود، ناصر الضريري، زيد الغانم، وابنه عبد الله، وقد أجاز عددًا من العلماء منهم: الشيخ سفر الحوالي والشيخ ربيع المدخلي والشيخ سليمان العودة. كان - رحمه الله - تقيًا صالحًا مقبلاً على الله متواضعًا، توفي رحمه الله (١٤١٣هـ) في الرياض. انظر: علماء نجد (٢/ ١٤١).

وبكلام أئمة الإسلام – رحمهم الله –.

وقد تميز أسلوب الشيخ – رحمه الله – ومنهجه في هذا الكتاب (بوضوح العبارات والاعتناء بالأدلة، والعلل المهمة، والحكم الشرعية، والأضرار الكثيرة الناجمة عن الاقتداء بأهل الجاهلية في خصالهم، لاسيما في هذا العصر الذي قد استحكمت فيه غربة الإسلام، وفشت فيه البدع والمنكرات، وقل فيه العلم وغلب فيه الجهل)(١)، وهذا الكتاب جيدٌ في بابه، إلا أن رأيه في بعض الصور لا يوافق عليه؛ لأنه يراها من التشبه وهي من المباحات التي ليست من خصائصهم.

وقد وجد أيضًا مؤلفات أخرى لعلماء آخرين، تحدثوا فيها عن غالب ما يتعلق بالجاهلية(٢)، ولكني اقتصرت على ذكر هذين الكتابين لاعتقادي أنهما من أفضل المؤلفات في هذا الباب، لأمرين وهما:

أولاً: سلامة المنهج، **ثانيًا**: مقاربة الشمولية.

إن ظهور مثل هذه المؤلفات التي بذل فيها بعض علماء الإسلام ما في وسعهم في محاولة الحديث عن غالب ما يتعلق بالجاهلية، لم تكن هي طريقة

---

(١) للاستزادة: انظر تقريض الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز رحمه الله ص(٣)، في كتاب الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، تأليف: حمود بن عبد الله التويجري، مؤسسة النور. الرياض (ط١)، (١٣٨٤هـ).

(٢) انظر: كتاب: حسن التنبه لما ورد في التشبه للإمام نجم الدين الغزي، وكتاب الجاهلية في القديم والحديث: لعبدالله بن سليمان العميري، وكتاب الجاهلية قديمًا وحديثًا دراسة في ضوء القرآن والسنة والفكر الإسلامي: لأحمد أمين عبد الغفار، وكتاب جاهلية القرن العشرين: لمحمد قطب.

كافة العلماء التي تناولوا فيها الجاهلية بالتأليف، إذ إن هناك البعض منهم اقتصر في تأليفه عن الجاهلية على الحديث عن أبرز جوانبها، وهو جانب الصور دون التطرق إلى الكلام عن أي جانب آخر من جوانب الجاهلية.

والمؤلفات في هذا الباب كثيرة ومختلفة، فهي متفقة من حيث إنها كتبٌ اختصت بعرض صورة الجاهلية، ولكنها مختلفة في الكيف، والكم؛ حيث قام بعض العلماء في مؤلفاتهم – في هذا الباب – بعرض صورٍ لنوع واحد أو نوعين من أنواع الجاهلية، مع الإسهاب في الاستدلال على تحريم هذه الصور، أو على كراهتها(١).

بينما هناك البعض من العلماء قد شرعوا في مؤلفاتهم في هذا الباب بعرض أكبر عددٍ ممكن من صور الجاهلية، ولأغلب أنواع الجاهلية مع الإسهاب في حديثهم عن هذه الصور، وفي الاستدلال على تحريمها، إذ إنهم اقتصروا على عرض الصور المحرمة فقط(٢)، في حين أن هناك البعض الآخر من العلماء قد حرصوا في مؤلفاتهم على جمع أكبر عددٍ ممكن من صور الجاهلية، ومن مختلف أنواعها وأحكامها، وقد تميزت هذه المؤلفات عن غيرها من مؤلفات العلماء التي اختصت بعرض صور الجاهلية بعدة أمور، وهي على النحو الآتي:

أولاً: كثرة صور الجاهلية المعروضة.

---

(١) انظر: كتاب البدع والنهي عنها: لابن وضاح، وكتاب الحوادث والبدع للطرطوشي، وكتاب الباعث على إنكار البدع والحوادث: لأبي شامة.

(٢) مثال ذلك: كتاب الكبائر: للذهبي، الزواجر عن اقتراف الكبائر: لابن حجر الهيثمي.

ثانيًا: محاولة الاستقصاء لجميع أنواع الجاهلية.

ثالثًا: اختلاف صور الجاهلية من حيث الحكم، والنوع.

رابعًا: الاستدلال أحيانًا على بعض الصور بأدلةٍ من الكتاب، أو السنة، أو أقوال العلماء تدل على وجودها، أو على مخالفة الشارع لأهلها.

خامسًا: تميز هذه المؤلفات عن غيرها من المؤلفات المؤلفة في هذه الباب بالاختصار في العرض، والسهولة في الأسلوب، والشمولية في الأنواع.

فمن مؤلفات العلماء المتقدمين في ذلك كتاب الإمام الذهبي(١) «تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين»، وقد اقتصر الإمام الذهبي - رحمه الله - في كتابه هذا على عرض بعض صور الجاهلية من خلال الأدلة الشرعية الدالة على وجوب المخالفة، أو الدالة على ثبوت وجود هذه الصور عند أهل الجاهلية، وقد سرد الإمام الذهبي - رحمه الله - هذه الصور سردًا موضوعيًا مختصرًا جدًا، ومن غير ترقيم.

ومن مؤلفات العلماء المتأخرين في ذلك كتاب شيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - «مسائل الجاهلية التي خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية» واقتفى أثره من العلماء المعاصرين الشيخ عبد الله بن محمد الدويش في كتابه «الزوائد على مسائل الجاهلية»، وقد عمد

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. الإمام العلامة الحافظ. ولد سنة (٦٧٣هـ). أتقن الحديث، ورجاله. من مصنفاته: تاريخ الإسلام، سير أعلام النبلاء، وطبقات الحفاظ، توفي عام ٧٤٨هـ. انظر: الوافي بالوفيات: لصلاح الدين الصفدي. ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء التراث. بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (٢/ ١١٥).

كُلٌ من الشيخين - رحمهما الله - في تأليفهما لهذين الكتابين إلى سرد صور الجاهلية مع الاستدلال على بعضٍ منها بأدلة من الكتاب أو السنة دالة على إثبات وجود هذه الصور عند أهل الجاهلية، أو على مخالفة الشارع لأهل الجاهلية في هذه الصور بأخصر العبارات.

وقد حرص كلٌ من الشيخين - رحمهما الله - عند تأليف كتابه على محاولة استقصاء أكبر عددٍ ممكن من صور الجاهلية، وذلك كان على سبيل الذكر لا الحصر.

إذ لا يخفى على علم أحدٍ منهما أن صور الجاهلية محالٌ حصرها نظرًا لاختلاف الزمان، والمكان، والأشخاص، واستمرار حدوثها.

هذا وقد تميز أسلوب كلٍ من الشيخين - رحمهما الله - في عرضهما لصور الجاهلية ببساطة الأسلوب، وقوة الاستنباط، ودقة الفهم التي برزت في القدرة على استخراج هذه الصور، كما تبين من خلال استدلال الشيخين على هذه الصور سعة علمهما - رحمهما الله جميعًا -.

وقد وفق البارئ عز وجل كلاً من الشيخين - رحمهما الله - في هذين الكتابين لموافقة الحق في الوقوف على كثيرٍ من صور الجاهلية، ويعود ذلك إلى حرصهما الشديد على تنبيه الأمة لمثل هذه المخالفات، والتحذير من الوقوع فيها، والعمل على القضاء عليها.

أخيرًا: فإن المؤلفات التي تناول فيها مؤلفوها الحديث عن بعضٍ صور الجاهلية كثيرةٌ جدًا، إلا أنه لا مجال لحصرها في هذه العجالة، فليس هذا موضع استقصائها. فقد حرصت على الاقتصار على ذكر الكتب التي - في نظري - قد شملت أكبر قدرٍ ممكن من صور الجاهلية، والتي انتهج فيها

مؤلفوها منهج أهل السنة والجماعة في العرض والاستدلال، والتي تميزت بالاختصار، وقوة الأسلوب في العرض وسهولته، الأمر الذي جعلها من المؤلفات التي يسهل على مختلف القراء الاستفادة منها، والله أعلم.

* * *

شرح الزوائد على مسائل الجاهلية

المسألة الأولى

إتيان الذكور وترك إتيان الإناث كفعل قوم لوط

يبين المؤلف – رحمه الله – في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية إتيان الذكور، وترك إتيان الإناث، وهو فعل قوم لوط عليه السلام.

وقد اشتهرت هذه الفاحشة باسم فاحشة اللواط.

(فقيل في تعريفها في اللغة: من لاطَ الرجل لِواطًا أي عَمل عَمَل قوم لُوطٍ)[١].

وعُرف في الاصطلاح:

بأنه إيلاج الحشفة في دبر ذكر[٢].

وقيل: هو فعل الفاحشة في دبر ذكر[٣].

وقد أُطلق على هذا الفعل عدة تسميات:

١ – عمل قوم لوط نسبة إلى قوم لوط؛ لأنهم أول من ابتدع هذا الفعل، فلم يفعلها قبلهم أحد من العالمين، كما بين الله عز وجل في محكم كتابه:

---

(١) لسان العرب، (٧/ ٣٩٦)، القاموس المحيط: لفيروزآبادي، (٢/ ٣٩٨).

(٢) تحفة الحبيب على شرح الخطيب المعروف بالإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع. لمحمد الشربيني الخطيب. مكتبة مصطفى البابي. الطبعة الأخيرة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م (٤/ ١٤١)، الفواكه الدواني. لأحمد بن غنيم سالم النفرواي المالكي، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٥هـ (١/ ١١٨).

(٣) الشرح الممتع على زاد المستقنع. للحجاوي. شرحه الشيخ محمد بن عثيمين، دار الأنصار. مصر (ط١)، ٢٠٠٣م (٦/ ١١١).

﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١][٢].

٢ – الفاحشة وهي كل ما استفحش ذكرهُ[٣]، وقبح مسموعه، وهي العمل المفرط في القبح[٤].

قال تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٥].

٣ – اللواط نسبة إلى قوم لوط الذين اشتهروا بهذا الفعل.

٤ – الشذوذ الجنسي، لأنه انحراف وفساد في الفطرة السوية[٦]، وصاحب هذا الفعل قد شذ بفعله عن الفطرة السوية.

٥ – الجنسية المثلية، وهو الميل نحو الجنس نفسه[٧].

٦ – المدابرة، كناية عن إتيان الرجال في أدبارهم[٨].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٨٠).

(٢) الفتاوى، (١١/ ٥٤٢).

(٣) تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن. لأبي جعفر الطبري. دار الكتب العلمية. بيروت (ط١)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م (٢/ ٨٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن. تفسير القرطبي لأبي عبد الله بن محمد القرطبي. دار الكتاب العربي. بيروت (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م (٧/ ١٨٠).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (٨٠).

(٦) في ظلال القرآن. لسيد قطب. دار الشروق. بيروت، القاهرة، (ط٩)، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، (٣/ ١٣١٥).

(٧) العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية. للدكتور: أحمد علي المجذوب. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة، (ط١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص(٣٢٦).

(٨) الفاحشة عمل قوم لوط. لمحمد الحمد. دار ابن خزيمة. الرياض (ط١)، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ص(١٥).

ولعل اصح هذه التسميات تسميتها بعمل قوم لوط، فهي التسمية الواردة في أحاديث الرسول ﷺ: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط»[(١)]، وقال في حديث آخر «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»[(٢)]، أما تسميتها بالفاحشة، فيشمل هذا التعريف فاحشة الزنا، كما أن تسميتها باللواط هو اشتقاق من اسم النبي لوط عليه السلام لفعلٍ قد تبرأ منه عليه السلام. فالأولى أن ينسب الاسم إلى من فعل هذا الفعل، وتسميتها بالجنسية المثلية والشذوذ الجنسي قد يشمل فاحشة السحاق[(٣)]، وتسميتها بالمدابرة قد يمثل إتيان الرجل زوجته في دبرها.

وقد ذم الله عز وجل في كتابه هذه الخصلة الجاهلية، وعاب من فعلها، مما يدل على عظم تحريمها، وذلك حين ذم قوم لوط عليه السلام على فعلهم لهذه الفاحشة، وعاقبهم بالرجم، وطمس الأعين، وقلب ديارهم عليهم، كما ورد في محكم كتابه قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٨١٧) بمثله وزيادة في أوله وبأرقام (٢٩١٥، ٢٩١٦، ٢٩١٧) بنحوه مع زيادة في أوله، وأخرجه بإسناد صحيح (٤/ ٢٩٣، ٣٢٦، ٣٢٧)، شرحه ووضع فهارسه أحمد شاكر، دار المعارف. مصر، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م، أخرجه النسائي في سننه الكبرى، أبواب التعزيرات، باب من عمل عمل قوم لوط برقم (٧٣٣٧) (٤/ ٣٢٢).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه في كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي برقم (١٤٥٧) بمثله، ص(١٨٠٠)، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط برقم (٢٥٦٣) بمثله (٢٦٣٠)، موسوعة الحديث الشريف، دار السلام للنشر بالرياض (ط٣)، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. وقد حسنه الإمام الألباني . سنن ابن ماجه التي حكم على أحاديثها واثارها وعلق عليها الأمام محمد بن ناصر الدين الألباني.مكتبة المعارف.الرياض(ط١) .

(٣) وهو إتيان المرأة المرأة.

مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[4] وقيل في تفسير هذه الآية: (أي أنها فاحشة لا تفيد إلا مجرد قضاء الشهوة، فكانوا بذلك كالبهائم)[5].

وقوله تعالى في ذمها: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾[6].

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين أكد

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: (٨٠، ٨١).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٧٤).

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: (١٦٥، ١٦٦).

(٤) سورة النمل، الآيتان: (٥٤، ٥٥).

(٥) تفسير الطبري (٥/ ٥٤٠).

(٦) سورة العنكبوت، الآيتان: (٢٨، ٢٩).

على حرمتها وقبحها بلعن فاعلها ثلاث مرات في موضعٍ واحد كما وأمر بقتله كما هو واردٌ في السنة عنه عليه الصلاة والسلام حين قال ﷺ: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط» قال أحد العلماء عن اللعن الوارد في الحديث: «فلم يجئ عنه عليه الصلاة والسلام لعنة الزاني ثلاث مراتٍ في حديث واحدٍ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرةً واحدةً، وكرر لعن اللوطية وأكده ثلاث مراتٍ»(١).

وقال أيضًا ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط».

وقد أجمع العلماء على تحريم اللوط، واتفقوا على أن وطء الرجل الرجل جُرمٌ عظيمٌ(٢).

وأجمع الصحابة رضوان الله عليهم على أن حد اللوطي قتله محصنًا كان أو غير محصن، مستدلين بحديث الرسول ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(٣).

---

(١) انظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم الجوزية. تحقيق: سعيد اللحام. مكتبة المعارف. الرياض (ط١)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م (٢٥٣)، قرع السياط في قمع أهل اللواط السفاريني. تحقيق: راشد الغفيلي، دار الطحاوي. الرياض (ط١)، ص(٤٥).

(٢) المغني لابن قدامة.هجر للطباعة(ط١)١٤١٠هـ\١٩٩٠م (١٢/ ٣٤٨)، مراتب الإجماع. لابن حزم الظاهري، دار ابن حزم. بيروت (ط١)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، (٢١٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٧٢٧) بنحوه وزيادة في أوله وأخره، برقم (٢٧٣٢) بلفظه، وقال إسناده صحيح (٤/ ١٣٧، ٢٥٨)، دار المعارف. مصر (ط٤)، ١٣٧٣هـ، أخرجه أبو داود في سننه كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط برقم (٤٤٦٢) بمثله (١٥٤٩)، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي برقم (١٤٥٦) بمثله (١٨٠٠)،
=

إلا أنهم اختلفوا في صفة القتل فمنهم من قال: يقتل بالرجم بكرًا كان أو ثيبًا، وقيل: يرمى من أعلى جدار في القرية، وقيل: يحرق، وقيل: يلقى عليه جدارٌ حتى يموت تحت الهدم(١).

والراجح ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أن اللوطي يقتل الفاعل والمفعول به، محصنين أو غير محصنين، حرين أو مملوكين، أو كان أحدهما مملوكًا والآخر حرًا، إذا كانا بالغين، فإن كان أحدهما غير بالغ عوقب بما دون القتل، وقتلهما بالرجم)(٢).

وقد استدل - رحمه الله - بحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»، وبما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -(٣) في البكر يوجد على اللوطية قال:

=

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط برقم (٢٥٦١) بمثله (٢٦٣٠) موسوعة الحديث، وصححه الألباني.

(١) انظر.ذم اللواط للدوري. وتحريم اللواط للآجري. ت. خالد علي محمد. مكتبة الصفحات الذهبية (ط١)، ١٤٠٩هـ (٦٦، ٧٧)، ذم الهوى لابن الجوزي، دار الكتب الحديثة. بيروت (ط١)، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م (٢٠٧)، المغني لابن قدامة (١٢/ ٣٤٩، ٣٥١)، الكبائر. للذهبي. ت. محمد بشير عيون. دار البيان، دمشق، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م (٤٨)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية. مطابع المدينة. جدة (١٠٤)، الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥)، الجواب الكافي (٢٦١).

(٢) الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥)،وانظر.جامع الرسائل لابن تيمية. ت: محمد رشاد سالم. دار العطاء. الرياض (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م (٢/ ٢٩٨).

(٣) هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، ولد قبل الهجرة بخمس سنوات. دعا له الرسول ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، وكان حبر الأمة. توفي سنة

=

«يرجم»(١). وما روي عن علي(٢) بن أبي طالب - رضي الله عنه - «أنه رجم لوطيًا»(٣).

وقال – رحمه الله – في موضعٍ آخر: (وقد شرع سبحانه وتعالى في شريعة أهل التوراة، وشريعة أهل القرآن رجم الزاني المحصن بالحجارة كما رجم الله أهل هذه الفاحشة أمّا أهل الفاحشة واللوطية فيرجمان سواء كان بكرين أو ثيبين عند جمهور العلماء. كما رجم الله قوم لوط، وليس في الذنوب ما يعاقب أهله بالرجم إلا أهل هذه الفاحشة)(٤).

ولهذه الفاحشة أضراراً كثيرة قد ذكرها العلماء رحمهم الله قديمًا

=

٦٨هـ في الطائف، كان ترجمان القرآن قال مجاهد. ما سمعت أحسن فتيا من فتيا ابن عباس.انظر: الاستيعاب لأبي عمر القرطبي (٢/ ٣٤٤). الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٢٢)، المكتبة التجارية. مطبعة مصطفى محمد. مصر، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط برقم (٤٤٦٣)، ص(١٥٤٩)، موسوعة الحديث. صححه الألباني بسند موقوف.في سنن الأمام أبي دواد التي حكم على أحاديثها وأثارها وعلق عليها الأمام محمد بن ناصر الدين الألباني.مكتبة المعارف.الرياض(ط١).

(٢) هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي أبو الحسن، ابن عم رسول الله ﷺ كان من أول الناس إسلامًا، شهد المشاهد كلها عدا تبوك، تزوج ابنة رسول الله فاطمة رضي الله عنها، فأنجبت منه الحسن والحسين سيدي شباب الجنة. توفي سنة ٤٠هـ. انظر: الاستيعاب (٣/ ٢٦)، الإصابة (٢/ ٥٠١).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب تحريم الفروج وما يجب من التعفف عنها، برقم (٤٣٩٠) (٤/ ٣٥٨)، دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان، (ط١)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٤) الاستقامة. لابن تيمية. ت: محمد رشاد سالم. مكتبة ابن تيمية (ط٢)، ١٤٠٩هـ (٢/ ١٩١).

وحديثًا، فمما قيل عن ذلك: (إن لهذه الفاحشة أضرارٌ كثيرة تعود على صاحبها وتتعداه، فهي توجب الفقر، وتقصر العمر، وتكسو صاحبها سواد الوجه، وتورث المقت بين الناس، كما أن مثل هذه الفاحشة تشتت القلب وتمرضه إن لم تمته، وتجلب الهم والحزن والخوف، علاوةً على الأمراض الجسدية التي يصاب بها كل من يمارس مثل هذه الرذيلة...، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، لهذا شُرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها)(١).

ولا عجب أن يكون لهذه الفاحشة كل هذه الأضرار، فالمتأمل للآيات الواردة في ذم أصحاب هذه الفاحشة يجد أن الله وصفهم أوصافًا عدةً وفي عدة مواضع. فقد وصفهم بالفساق، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾(٢) أي: (مخالفين لأمر الله خارجين عن طاعته)(٣).

ووصفهم بأنهم مسرفون، قال تعالى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾(٤)، ووصفهم بالمفسدين، فقال تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٥)، وسماهم بالظالمين، قال تعالى:

---

(١) الجواب الكافي (٢٥١) للاستزادة انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٥)، وفقه السنة. للسيد سابق. دار الأصفهاني للطباعة، جدة (ط٢)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، (٢/ ٥٧٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٧٤).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ٤٧).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٨١).

(٥) سورة العنكبوت، الآية: (٣٠).

﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾[1]، والمتأمل لهذه الأوصاف والتسميات يجد أنها أوصاف وأسماء لازمة لكل من عمل بمثل عمل قوم لوط في أي زمان ومكان.

وأخيرًا: فرغم قبح هذه الفاحشة إلا أنها قد ظهرت في العصر الحاضر في أوروبا وأمريكا، وتجلت بوضوح، فما يحصل الآن في تلك البلاد من انحراف وشذوذ جنسي، وحماية هؤلاء الشاذين، وإقامة معاهد خاصة بهم، إنما هو دليلٌ صريح على إقرارهم لهذه الفاحشة، ودعوة في الوقت نفسه لنشر هذا الانحراف والانتكاس الفطري.

* * *

(١) سورة العنكبوت، الآية: (٣١).

المسألة الثانية
توعدهم أنبياءهم بالإخراج من بين أظهرهم

الأنبياء والرسل هم عباد الله المصطفون الأخيار، فهم صفوة الخلق، اختارهم الله عز وجل للدعوة إلى عبادة الله وحده، فتعرضوا في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وحده للابتلاء والإيذاء من أقوامهم، إلا أنهم ثبتوا، وتحملوا ما نزل بهم حتى كان لهم النصر.

ففي هذه المسألة نص المؤلف - رحمه الله - على جانب من جوانب الابتلاء الذي تعرض له الأنبياء والرسل من أقوامهم، ليوقفنا على ما وقع فيه أهل الجاهلية من الأميين(١) وأهل الكتاب(٢) من أعمالٍ جاهلية تجاه أنبيائهم، والتي منها توعدهم لأنبيائهم بالإخراج من أوطانهم، إن لم يكفوا عن هذه الدعوة.

فالتوعد في اللغة: من الوعْدِ، ويستعمل في الخير والشر، يقال وعَدْتُهُ: خيرًا، ووعدْتُهُ شرّاً، ففي الخير يقال: الوَعْدُ، وفي الشر يقال: الإيعادُ والوَعِيدُ(٣).

---

(١) الأميون: هم من ليس لهم كتاب، وهم ما عدا اليهود والنصارى. الملل والنحل: لأبي الفتح الشهرستاني. دار مكتبة المتنبي. بيروت - لبنان، (ط٢)، ١٩٩٢م، ص(٩٣).

(٢) المراد بهم اليهود والنصارى. انظر: المصدر السابق.

(٣) مختار الصحاح: للإمام محمد أبي بكر الرازي. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص(٦٤٦).

الإخراج لغة: الإجلاء والإخراج، أي جلوا عن أوطانهم، وجلاهم غيرهم[(١)].

أظهرهم: تستعمل في الإقامة بين القوم مطلقًا[(٢)].

وقال الدكتور محمد عبد القادر والمراد بهذه الخصلة: (أي إجلاء الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين، وإخراجهم من مكان إقامتهم في أوطانهم بين القوم إلى خارج أوطانهم، فالنفي والتشريد عن الأوطان والديار شيمةٌ من شيم أولياء الشيطان بأولياء الرحمن، فلا همّ لهم إلا التضييق عليهم، ومطاردتهم، وإرغامهم على ترك الأوطان والديار)[(٣)].

وما هذا إلا ليضعفوا همتهم عن الدعوة، فيتركوها، أو ليدخلوا في ملة أهل الكفر، وقد ذكر الله عز وجل ذلك في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[(٤)].

قال ابن جرير[(٥)] في معنى هذه الآية: (يقول عز ذكره: وقال الذين

---

(١) المصدر السابق (١٨).

(٢) لسان العرب (٤/ ٥٢٣).

(٣) الابتلاء والمحن في الدعوه: محمد عبد القادر أبو فارس. دار الفرقان. عمان الأردن (ط٢)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٨م، ص(١٢٤، ١٢٥).

(٤) سورة إبراهيم، الآيتان: (١٣، ١٤).

(٥) هو: الحبر البحر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. صاحب كتاب التفسير المعروف جامع البيان في تأويل القرآن، وكتاب تاريخ الملوك والأمم، وله مصنفات عديدة في الأصول =

كفروا بالله لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، حين دعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وفراق عبادة الآلهة والأوثان، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ يعنون: من بلادنا، فنطردكم عنها، ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ يعنون: إلا أن تعودوا في ديننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام. وأدخلت في قوله ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ ، «اللام» وهو في معنى شرطٍ، كأنه جوابٌ لليمين، وإنما معنى الكلام: لنخرجنّكم من أرضنا، أو تعودون في ملتنا)[١].

وقد قال القرطبي[٢] رحمه الله عن «اللام» في ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم ﴾: (هي

وغيرها، كان مجتهدًا لا يقلد، قال عنه إمام الأئمة ابن خزيمة ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، كان حافظًا لكتاب الله عارفًا بالقراءات، والسنة، والناسخ والمنسوخ، وأقوال الصحابة والتابعين، فقيهًا بأحكام القرآن، بصيرًا بالمعاني. ولد في آمل طبرستان ٢٢٤هـ، توفي سنة ٣١٠هـ في بغداد. انظر: الكامل في التاريخ: لأبي الحسن ابن الأثير. تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ (٧/ ٩)، العبر في خبر من غبر: لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. ت: د. صلاح المنجد. مطبعة حكومة الكويت - الكويت، (ط٢)، ١٩٨٤م، (٢/ ١٥٢).

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٢٥).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، توفي سنة ٦٧١هـ كان إمامًا عالمًا بالتفسير ومعاني الحديث، حسن التصنيف، من مصنفاته: جامع أحكام القرآن، وهو من أجل الكتب، وكتاب التذكرة. انظر: شذرات الذهب: لعبد الحي بن أحمد العكبري الحنبلي. ت: عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير. دمشق، (ط١)، ١٤٠٦هـ، (٥/ ٣٣٥)، كشف الظنون: (١/ ٥٣٣)، طبقات الحنفية. لعبد القادر أبي الوفاء القرشي. ت: محمد كتبه خان. كراتشي (١/ ٤٤٢)، وطبقات المفسرين للداودي. أحمد بن محمد الأدونه الدوادي. ت: سليمان صالح الخزي. مكتبة العلوم والحكم. السعودية. (ط١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، (١/ ٢٩٦).

لام قسم، أي والله لنخرجنكم. ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا، فقد خيّر الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده)[١].

فما من نبي إلا وتعرض للإيذاء من قومه، أما الإيذاء بالتوعد بالإخراج، فقد تعرض له عدد من الأنبياء ذكرهم الله لنا في محكم كتابه، وأخبر عنهم وعما توعدتهم به الأمم الكافرة من التهديد بالإخراج من أرضهم، ونفيهم من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب عليه السلام له ولمن آمن به، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[٢]، وكما قال قوم لوط عليه السلام للوط، قال تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٣].

وفي موضع آخر قال تعالى عن قوم لوط ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٤]، كما أخبر تعالى عن توعد مشركي قريش لنبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٢٩٥).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٨٨).

(٣) سورة النمل، الآية: (٥٦).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٨٢).

ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾(١).

وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢)، و﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾(٥).

إن الآيات السابقة لهي براهين ساطعة عما لاقاه رسل الله وأنبياؤه في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه من الأوثان، واجتناب ما حرم الله من الفواحش، فما من آية من الآيات السابقة. إلا وقد صورت لنا أدق وأوضح صورة ما كانت عليه تلك الأقوام الكافرة من التكذيب والعناد والاستكبار عن قبول الحق، كقوم مدين، وقوم لوط... وغيرهم من الأقوام الكافرة. فقيل عن قوم مدين: (إنهم قوم كانوا كفارًا

(١) سورة الأنفال، الآية: (٣٠).
(٢) سورة التوبة، الآية: (١٣).
(٣) سورة التوبة، الآية: (٤٠).
(٤) سورة محمد، الآية: (١٣).
(٥) سورة الممتحنة، الآية: (١).

يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، فكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما)[١].

لهذا بعث الله شعيبًا - عليه السلام - ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، والالتزام بأمره، والانتهاء عما نهى عنه، فكان موقفهم كما جاء في الآيات السابقة العناد، والاستكبار، وتوعد شعيب عليه السلام بالإخراج، قال المفسرون في تفسير الآيات السابقة:

لقد بعث الله إلى قوم مدين شعيبًا - عليه السلام - ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، والانتهاء إلى أمره تعالى، بأن يُكمِلوا إيمانهم بالالتزام بالشرائع الفرعية اللازمة على عبادتهم لله وحده لا شريك له؛ فما كان جواب قومه إلا أن عدلوا عن قبول الحق إلى إقصاء شعيب عليه السلام وأتباعه عن بلادهم، خشية ظهور دعوته بين قومهم، وبث اتباعه بين الناس، فلم يكتفوا بعدم الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا الحد بأن أقسموا بقوله ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾ ، أو الدخول في ملتهم الكفرية[٢].

وما توعدهم هذا إلا لجهلٍ منهم بحقيقة الإيمان التي خالطت بشاشتها قلب شعيب عليه السلام وقلوب أتباعه المؤمنين، ظنًا منهم أن بتخييرهم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير في التاريخ. تحقيق: محمد النجار. مطبعة الفجالة الجديدة (١/ ٢٠١).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٣)، تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٣)، تفسير ابن كثير: لأبي الفداء ابن كثير القرشي. دار الفكر. بيروت. لبنان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م (٢/ ٢٣٣)، التفسير الكبير: لفخر الدين الرازي. دار التراث العربي. بيروت. لبنان، (ط٢)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، (٥/ ٣١٦).

لشعيب عليه السلام وأتباعه بين الإخراج أو العودة للكفر، سوف تضعف قلوبهم التي لن يصدق عليها ظنهم، ومصداق ذلك قوله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يُلقى في النار أحبَّ إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه»(١).

فمحال من وجد حلاوة الإيمان في قلبه أن يفرط بها خوفًا من النفي والإخراج، أو الإيذاء بشتى أنواعه، ويؤكد هذا ما ذكره الإمام البيهقي(٢) في كتابه شعب الإيمان عن هذا الحديث قال: (فهنا بيّن لنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث أن الشح من الإيمان؛ لأن ذكر الحلاوة مثل الإيمان، وأراد أن الشحيح بدينه كالمتطعم بالشيء الحلو، فكما أن الراغب في الإيمان لا يسلم له مقصوده منه إلا أن يكون شحيحًا به، فإنه إذا شح بالإيمان لم يأت بما يفسده عليه، كما أن من وجد حلاوة الحلو لم يأت بما يبطلها عليه. ويدخل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان. باب حلاوة الإيمان برقم (١٦) بنحوه، وباب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان. برقم (٢١) بمثله، وفي كتاب الأدب. باب الحب في الله برقم (٦٠٤١) بمثله، وفي كتاب الإكراه. باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر برقم (٦٩٤١) بنحوه. ص(٣، ٥١١، ٥٧٩)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان برقم (١٦٧)، ص(٦٨٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) هو: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الشافعي البيهقي، كان حافظًا عفيفًا زاهدًا، إمامًا في الحديث والفقه على المذهب الشافعي، من شيوخه أبو الحسن العلوي، ومن كتبه: السنن الكبير، بلغت تصانيفه ألف جزء. ولد سنة ٣٨٧هـ. وتوفي سنة ٤٥٨هـ في نيسابور. انظر: الكامل في التاريخ (٨/ ٣٧٧)، والعبر في خبر من غبر (٣/ ٢٤٤).

في هذا الباب ما قصه الله سبحانه وتعالى علينا من خبر شعيب عليه السلام حين هدده قومه بالإخراج، أو العودة إلى ملتهم، فكان لموقف شعيب عليه السلام ورده عليهم عدة معان؛ مرجعها كلها إلى الشح في الدين. أحدها: أن شعيبًا عليه السلام سمَّى مهانته المستكبرين من قومه نجاة، وقد علم أن ضد النجاة الهلكة، ومن كان عنده أن الكفر هلكة والإيمان نجاة لم يكن إلا شحيحًا على دينه، الثاني: أنه أشار عليه السلام عند الرد عليهم برفض الرجوع إلى الكفر بقوله: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾(١).

فقوله عليه الصلاة والسلام: (على الله توكلنا) فيه إشارة أخرى على شحه على دينه، وأنه قد فوض أمره إلى الله تعالى، فإن عصمه من الجلاء عن الوطن فذلك فضله، وإن جلاءهم، وما يهمون به من إخراجهم بالجلاء أحب إليه من مفارقة الدين، وهذا من الشح بالدين؛ لأن الله تعالى جعل الجلاء عن الوطن بمرتبة القتل، والثالث: أن شعيبًا عليه السلام فزع إلى الله تعالى واستنصره ودعاه، كما يدعو في الشدائد إذا عرضت له، والخطوب إذا نزلت، فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾(٢))(٣). أ هـ.

وقد رد الله عز وجل عاقبة هذه الخصلة من قوم شعيب عليهم بأن

(١) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

(٣) شعب الإيمان للإمام أبي بكر البيهقي، (٢/ ٢٣٦).

عاقبهم بالرجفة، قال أحد المفسرين في تفسير الآية الواردة في ذلك: (إن هذا التهديد والتوعد كان عاقبته على قوم شعيب أنفسهم، فقد كانت عقوبة قوم شعيب موافقة لتهديدهم، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[(١)] فقابل تعالى الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة)[(٢)].

هذا وقد جاء بعد قوم شعيب عليه السلام قوم لوط - عليه السلام - الذين لم يكونوا أقل سوءًا من قوم شعيب، فيقول الطبري - رحمه الله - في بيان ذلك (كما أن قوم لوط عليه السلام كان موقفهم من لوط عليه السلام لا يقل سوءًا عن موقف قوم شعيب عليه السلام، فكما أجمع قوم شعيب على إخراجه، كذلك أجمع قوم لوط على إخراجه.

وما قولهم هذا إلا لأن لوطًا عليه السلام ومن تبعه، أناس يتنزهون عما يفعله قومه من إتيان الرجال في الأدبار، وإتيان النساء كذلك، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[(٣)])[(٤)].

وقد اشتمل موقف قوم لوط من لوط - عليه السلام - على السفاهة والعتو والاستكبار عن قبول عن الحق، وقد بيّن المفسرون ذلك فقالوا: لقد سعى قوم لوط في إخراج لوط - عليه السلام - حين نهاهم عن العمل

(١) سورة الأعراف، الآية: (٧٨).
(٢) البداية والنهاية: لابن كثير (١/ ٢٠٤).
(٣) سورة النمل، الآية: (٥٦).
(٤) تفسير الطبري (٥/ ٥٤١).

الذي يشتهونه، ويريدونه من إتيان الذكران، ولم يكتفوا بذلك، بل وعابوهم بغير عيب بأنهم أناسٌ يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء[١]. والشاهد على سفاهة عقولهم، وعنادهم كما بينه أحد المفسرين فقال عن ذلك: (أن جعلوا غاية المدح ذمًا يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد، فطّهر الله لوطًا وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج)[٢].

وقد قيل أيضًا: «إن قول قوم لوط - عليه السلام - كان إما للتنكيل بلوط - عليه السلام - وأتباعه، أو عن طريق السخرية والاستهزاء»[٣].

ولا عجب من فعل قوم لوطٍ هذا حين يقف القارئ على دوافعهم التي وراء قيامهم بهذا الفعل، وقد بينها أحد المفسرين فقال عنها: (إن هذا شأن من يشعرون بفساد حالهم الممنوعين بشهواتهم عن الإقلاع عن سيئاتهم، المصممين على مداومة ذنوبهم، فإن صدورهم تضيق عن تحمّل الموعظة، وأسماعهم تصم لقبولها، ولم يزل من شأن المنغمسين في الهوى تجهّم حلولِ من لا يشاركهم بينهم)[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣١)، التفسير الكبير (٥/ ٣١٠).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ١٩٣).

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. للشيخ محمد بن علي بن محمد الشوكاني. راجعه يوسف الغوش، دار المؤيد. الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (٢/ ٢٧٨).

(٤) انظر.التحرير والتنوير: لمحمد طاهر عاشور. دار سحنون. تونس، ١٩٩٧م، (٥/ ٢٣٤). بتصرف .

وهذا هو حال المكذبين الذين اتصفوا بالعناد والاستكبار عن قبول الحق في أي زمان ومكان. ويتجلى ذلك من خلال مالاقاه نبي هذه الأمة؛ نبينا محمد ﷺ من قريش، فمـا لاقاه - عليه الصلاة والسلام - من قريش لم يكن أقل سوءًا مما لاقاه لـوط، وشعيب - عليهما السلام - من قوميهما.

يقول الدكتور عادل أبو العلا عن ذلك: (إن شبهات وأساليب عناد كفار قريش في مواجهتهم لدعوة النبي ﷺ لم تختلف عما فعله السابقون مع الرسل الكرام عليهم السلام، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[1] فالضمير في قوله ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴾ راجع إلى مشركي قريش)[2].

وقد ذكر ابن جرير - رحمه الله - ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ ﴾ فقال: (أي أأوصى هؤلاء المكذبين من قريش محمدًا ﷺ، على ما جاءهم به من الحق أوائلهم وآباؤهم الماضون من قبلهم، بتكذيب محمد ﷺ فقبلوا ذلك عنهم، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ما أوصى هؤلاء المشركون آخرهم بذلك، ولكنهم قوم متعدّون طغاة عن أمر ربهم، لا يأتمرون لأمره، ولا ينتهون عما نهاهم عنه)[3]. أ. هـ.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: (٥٢، ٥٣).

(٢) الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف: د. عادل محمد أبـو العـلا. مكتبـة الملـك عبد العزيز العامة، الرياض، (ط١)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص(٥٥١).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٤٧٤).

فكأنّ هؤلاء المكذبين قد توارثوا جيلاً بعد جيل موقفهم من دعوة أنبيائهم من التكذيب باللسان تارة، وتارة الإيذاء باليد بالضرب، والطرد والتشريد عن الأوطان، والمكر بهم.

وقد قال العلماء عن ذلك: يظهر ذلك من خلال مكر كفار قريش بالرسول ﷺ، فقد ائتمروا على أن يثبتوه، أو يقتلوه، أو يخرجوه من وطنه من بين أظهرهم، لكن الله دفع كيد المشركين من كفار قريش عنه، فنصره الله وقواه ليفسد بذلك ما كان يهدف إليه المشركون من وراء هذه الخصلة، فضاع عليهم فعلهم، وظهر نصر الله تعالى لنبيه ﷺ الذي حين خرج من مكة التفت إليها قائلاً: «اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنتِ أحبّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهلكِ أخرجوني لما خرجت منك»(١)، كما واسى الله - عز وجل - نبيه - عليه الصلاة والسلام - حين بيّن له: بأن يا محمد كم قرية هي أشد قوة من قريتك، وأكثر جمعًا، وأعد عديدًا من أهل قريتك - مكة - أهلكتهم فلا ناصر لهم الآن من عذاب الله ينصرهم(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب، باب فضل مكة، برقم (٣٩٢٥، ٣٩٢٦) بنحوه، وقال حديث حسن غريب صحيح (٢٠٥٢)، وأخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب المناسك، باب فضل مكة. برقم (٣١٠٨) ص(٢٦٦٥)، موسوعة الحديث. وصححه الألباني في سنن الأمام الترمذي التي حكم على أحاديثها وآثارها وعلق عليها الأمام محمد بن ناصر الدين الألباني.مكتبة المعارف.الرياض(ط١).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٢٢٧، ٣٣١) (١١/ ٣١٣)، تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٨) (١٦/ ٢٠٠) (١٧/ ٥٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٢)، فتح القدير (٢/ ٣٨٠)، التحرير والتنوير (٥/ ١٢٧)، السيرة النبوية لابن هشام ت. مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار المعرفة. بيروت - لبنان (ط٣)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، (١/ ٤٣٧)، البداية والنهاية لابن كثير =

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة من طرق عدة نص عليها البارئ – عز وجل – في محكم كتابه عبر الآيات التي ورد فيها ذكرُ هذه الخصلة بسياق الذم، أو في الآيات التي وردت في ذكر ما لاقاه الأنبياء عليهم السلام من أقوامهم.

فمن هذه الطرق ما يأتي:

أولاً: تأييد الله – عز وجل – لرسله، وإظهاره لهم ونصرتهم، وذلك بأن جعل لهم بسبب هذا الإخراج أنصارًا، وأعوانًا، في حين كان هذا هو الأمر الذي كانت تخشاه أقوامهم في حال بقائهم بينهم.

ثانيًا: الوعيد الشديد الذي رتبه الشارع – عز وجل – في الدنيا والآخرة لمن تمثلت لديهم هذه الخصلة. وفي ذلك قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[2]، كما قال عز من قائل: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[3]، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ

=

(٣/ ١٩٢)، الصراع بين الحق والباطل (٥٩٦).

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: (١٣ – ١٤).

(٢) سورة الصافات، الآيات: (١٧١ – ١٧٣).

(٣) سورة المجادلة، الآية: (٢١).

يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١)، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى في نصرة نبيه محمد ﷺ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾(٣).

ثالثًا: صرح الشارع عز وجل في مواضع عديدة من كتابه - عز وجل - بفرضية الإيمان بالرسل، وذلك حين نص على أنه أحد ركائز الإيمان، وذلك من خلال قرنه الإيمان بالرسل بالإيمان به تعالى، كما في آخر آيةٍ من سورة البقرة، ومعلومٌ أن الإيمان بهم يقتضي التصديق بهم، والمتابعة، والمحبة، والمناصرة، والتوقير...

قال تعالى في تقرير ذلك: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾(٥).

وعن ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن من حقوق

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٢٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٣٧).

(٣) سورة الفتح، الآيات: (١ - ٣).

(٤) سورة النساء، الآية: (٦٤).

(٥) سورة النساء، الآية: (٨٠).

الأنبياء تعزيرهم، وتوقيرهم، ومحبتهم محبةً مقدمة على النفس والأهل، والمال، وإيثار طاعتهم، ومتابعة سنتهم)(١).

أخيرًا: فقد ختم الله النبوة بنبينا محمد ﷺ، فليس هناك ثمة أنبياء ورسل سيتعرضون لما تعرض له الأنبياء والرسل السابقون من أقوامهم من الإيذاء، والتوعد بالإخراج... وغيرها من وسائل الإيذاء؛ إلا أن هذه الخصلة لا تزال حتى هذا العصر الحاضر ظاهرة عند البعض من أهل الضلال والكفر، ممن يمارسون هذه الخصلة مع ورثة الأنبياء من العلماء، والمصلحين، والدعاة في شتى بقاع الأرض، فما نراه في هذا الزمن، وما نسمع به من تهجير الكثير من علماء المسلمين والدعاة، والمصلحين من أهل السنة والجماعة إلى خارج بلادهم، لهو مثالٌ حي لهذه الخصلة.

فهاهم المسلمون في فلسطين يتعرضون للتهجير من قِبل اليهود، وهاهم علماء أهل السنة في العراق يتعرضون للتهجير من قِبل الشيعة، وغيرهم من المسلمين الذين هجروا عن بلادهم وكل ذنبهم في نظر هؤلاء العتاة إما لأنهم مسلمون، أو لأنهم من أهل السنة والجماعة.

فالله المستعان.

* * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٤٤٨).

المسألة الثالثة

نقص المكيال والميزان كفعل أصحاب الأيكة

ينص المؤلف - رحمه الله - هنا على خصلة من خصال الجاهلية، ظهرت جليةً في قوم شعيب عليه السلام، علاوة على شركهم بالله.

علمًا أن هذه الخصلة ما زالت متوارثة بين الأميين وأهل الكتاب، حتى وصلت ليومنا هذا، وهي التطفيف في المكيال والميزان.

وقد برزت هذه الخصلة في جانب البيع والشراء، عند من يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل في البيع والشراء، وسائر معاملاتهم.

النقصُ في اللغة: هو الخسران في الحظ، والنقصان يكون مصدرًا، ويكون قدر الشيء الذاهب من المنقوص(١).

المكيال في اللغة: ما يُكال به، حديدًا كان أو خشبًا(٢).

الميزان في اللغة: مفردٌ من الموازين، وهي الآلة التي يوزن بها الأشياء من تمرٍ، وحجارة، وحديد، ونحوه مما يوزن(٣).

---

(١) انظر. لسان العرب لابن منظور (٧/ ١٠٠)، القاموس المحيط (٢/ ٣٣٢)، مختار الصحاح ص(٦٠٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٦٠٤).

(٣) انظر. لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٤٦)، مختار الصحاح ص(٦٣٨).

الأيكة: من الأيك، وهو الشجر الكثير الملتف، وهو اسم لقرية قوم شعيب - عليه السلام -[١].

وقيل إن المراد بالتطفيف في المكيال والميزان: (وهو الإنقاص في الكيل والوزن في حال البيع للغير، وفي حال شراء الشخص لنفسه فإنه يطلب حقه كاملاً بدون مراعاة أو مسامحة، أو بطلب الزيادة على حقه، وقد حرم الله عز وجل هذا العمل وذم من فعله وعاب عليه.

فقد أهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان)[٢].

والآيات الواردة في النهي عن هذه المعصية كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ

(١) انظر.البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢٠١)، مختار الصحاح ص(٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٨٥).

وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾(١).

وقال تعالى على لسان شعيب مخاطبًا قومه: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝١٨٣ ﴾(٢).

فجميع الآيات السابقة نصت على نهي قوم شعيب - عليه السلام - بصورة خاصة عن نقص المكيال والميزان، ذلك لأنهم اشتهروا بهذه المعصية، كما تضمنت الآية نهيًا لازمًا لكل من سولت له نفسه اقتفاء أثر قوم شعيب في مثل هذه المعصية، لهذا توعد الله - عز وجل - كل المطففين، فقال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عن وجود هذه الخصلة: (إنه لما قدم الرسول ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله ويل للمطففين، فأحسنوا الكيل)(٤).

وقد توعد الشارع - عز وجل - المطففين على هذه الخصلة، قال

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٤).
(٢) سورة الشعراء، الآيات: (١٨١ - ١٨٣).
(٣) سورة المطففين، الآيات: (١ - ٦).
(٤) أخرجه الإمام الطبري في تفسيره، برقم (٣٦٥٧٧) (١٢/ ٤٨٢).

المفسرون عن ذلك: لقد بدأت السورة بكلمة (ويل)، وهي كلمة زجر ووعيد، والويل واد يسيل من صديد أهل جهنم في أسفلها الذين ينقصون الناس، ويبخسونهم حقوقهم في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء[1].

لهذا أمر الله - عز وجل - بمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أمر بالعدل والقسط عند الكيل والوزن وحث عليه، فقال تعالى في ذلك: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[4].

قال الطبري في المراد بهذه الآية: (أي لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم، ولكن أوفوهم حقوقهم، وإيفاؤهم ذلك، إعطاؤهم حقوقهم تامة ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل)[5].

---

(١) انظر. تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٣)، تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٤)، فتح القدير (٢/ ٢٨١)، في ظلال القرآن (٦/ ٤٨٣)، تفسير القرآن الكريم: لابن عثيمين. دار الثريا. الرياض (ط٣)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص(٩٣).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٥٢).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٣٥).

(٤) سورة الرحمن، الآية: (٩).

(٥) تفسير الطبري (٥/ ٣٩٤).

كما خالف الرسول ﷺ في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة، ودعا إلى مخالفتهم وحذر من موافقتهم في هذه الخصلة مما يدل على شدة حرمتها، فقال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا: «لم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم»(١).

قال أحد العلماء والمراد من قوله: (لم ينقص قوم المكيال والميزان... إلخ): للتحذير؛ لأن نقص المكيال والميزان سبب للجدب، وشدة المؤنة، وجور السلاطين(٢).

وقد قيل: (أنها نتائج لازمة عن هذه المعصية، فمنقص المكيال والميزان مطفف لا يوفى غيره بتطفيفه)(٣).

إن شدة وعيد الله للمطفف يدل على عظم تحريم هذا العمل، ودخوله تحت كبائر الذنوب، وقد بين الإمام الذهبي ذلك فقال: (إن المطفف في وزنه وكيله قد ارتكب كبيرة من الكبائر بتطفيفه في المكيال والميزان، بدليل

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات بزيادة في أوله وآخره برقم (٤٠١٩) ص(٢٧١٨)، موسوعة الحديث، وقال عنه الحاكم في مستدركه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٤/ ٥٨٣)، مستدرك الإمام الحاكم، ت. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، وحسنه الألباني.

(٢) نيل الأوطار وشرح منتقى الأخبار: محمد الشوكاني. نشر وتوزيع إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد، كتاب الاستسقاء (٣/ ٢٧).

(٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان. (ط٢)، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، نيل الأوطار. (٤/ ٢٦)، الجواب الكافي ص(٦٩)، سبل السلام شرح بلوغ المرام. للصنعاني، ت: خليل شيحا. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م (١/ ١٢٣).

شدة وعيد الله تعالى الوارد في سورة المطففين لمن أنقص المكيال والميزان، فالتطفيف ضربٌ من السرقة والخيانة، وأكلٌ للمال بالباطل)[١].

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (كما أن الله حرم قتل النفس بغير حقها، كذلك حرم أكل أموال الناس بالباطل، إما بالغصب، أو الربا، كالبيوع والمعاملات التي نهى عنها ﷺ، وكذلك قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وتطفيف المكيال والميزان، والإثم والبغي بغير الحق)[٢].

وقال في موضع آخر من الفتاوى: (بخس المكيال والميزان من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب، والإصرار على ذلك من أعظم الكبائر، وصاحبه مستوجب تغليظ العقوبة، وينبغي أن يؤخذ منه ما بخسه من أموال المسلمين على طول الزمان، ويصرف في مصالح المسلمين، إذا لم يمكن إعادته إلى أصحابه. فالكيَّال والوزَّان الذي يبخس الغير هو ضامن محروم مأثوم، وهو من أخسر الناس صفقة، إذ باع آخرته بدنيا غيره، ولا يحل أن يُجعل بين الناس كيالاً أو وزانًا يبخس أو يحابي، كما لا يحل أن يكون بينهم مقوم يحابي، بحيث يكيل أو يزن أو يقوم لمن يرجوه أو من يخاف من شره، أو يكون له جاه ونحوه، بخلاف ما يكيل أو يزن أو يقوم لغيره، أو

---

(١) الكبائر. للإمام الذهبي. (١٢١)، للاستزادة انظر:الإشاعة لأشراط الساعة: لمحمد بن رسول الشهرزوري. ت: سيد زكريا. مكتبه نزار مصطفى الباز. الرياض. مكة. (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٩٧).

(٢) الفتاوى (٣/ ٤٢٥).

يظلم من يبغضه، ويزيد من يحبه قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٢])[٣]. أ. هـ.

لذا فيلزم على رجال الحسبة العمل على القضاء على هذه الكبيرة، ببيان عظم إثمها، وشدة وعيد الله لمن عمل بها، وتعزير من اقترفها.

وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، وتلميذه ابن القيم على أنه يلزم على المحتسب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن ينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان، والغش في الصناعات، والبيعات، ويتفقد أحوال المكاييل والموازين، وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ[٤].

وقد يتساءل البعض: هل لهذه المعصية حد؟ فعلى مثل هذا أجاب شيخ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٥٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٣٥).

(٣) الفتاوى (٢٩/ ٤٧٤).

(٤) للاستزادة انظر.الفتاوى (٢٨/ ٧١)، الاستقامة (٢/ ٢١)، الحسبة في الإسلام. لابن تيمية. ت: محمد زهري النجار. المؤسسة السعدية. الرياض. مطابع الرجوى. القاهرة، ص(٣٩)، الجواب الكافي، ص(٧٥)، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية. لابن قيم الجوزية. خرج آياته زكريا عميران. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص(١٨٦).

الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فقال: (فتطفيف المكيال والميزان من المعاصي التي ليس فيها حدٌ مقدر، ولا كفارة، لذا يعاقب المطففون تعزيرًا وتنكيلاً وتأديبًا، بقدر ما يراه الوالي، وعلى حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقلته، فإذا كان كثيرًا زاد في العقوبة، بخلاف ما إذا كان قليلاً، وعلى حسب حال المذنب، فإن كان من المدمنين على الفجور زيد في عقوبته، بخلاف المقل من ذلك)(١).

وذلك لأن الوفاء بالكيل من حقوق العباد الواجب على العباد الوفاء بها، والدليل على ذلك أن الله قرن الأمر بالوفاء بالكيل، بالأمر بعبادة الله وحده، لأن في كلا الأمرين إعطاءٌ لكل ذي حقٍ حقه، من غير نقص، فكما أن هناك جانب عبادات يجب القيام بها خير قيام، كذلك هناك جانب معاملات يجب الالتزام والوفاء بها كما أمرنا الله تعالى.

لهذا فمن أخل بهذا الجانب من العبادات، فقد وصفه الشارع بصفات اشتملت على الذم. فالمطفف بتطفيفه في المكيال والميزان اتصف بعدة صفات، منها ما نص عليه الله - عز وجل - في محكم كتابه، ومنها ما تضمنته معاني الآيات ضمن معانيها التي دلت عليها، ومنها ما ذكره علماء السلف - رحمهم الله -.

فمن صفاته الشك بالبعث، أو أن يكون لديه يقين بالبعث إلا أنه مسوف بفعله الدال على عدم يقينه، ودل على هذه الصفة قوله تعالى عن

(١) السياسة الشرعية. لابن تيمية، ص(١١٢).

المطففين ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(١)، قال القرطبي في معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ (إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالهم، ولا يُخمنون تخمينًا ﴿ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ ومسئولون عما يفعلون. والظن بمعنى اليقين؛ أي ألا يُوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن)(٢).

وقال أحد المفسرين في معنى هذه الآية: والآية فيها تنبيه لما يجب عليهم فعله من التأهب والاستعداد لذلك اليوم، وهذا عام في كل مسوّفٍ ومتساهل(٣).

كما أن من صفات المطفف الاتباع للهوى في حُبه الفاسد، والمفرط لأمرٍ زائل، وهو المال، حتى ينشغل قلبه عن ذكر الله، بكسب المال بأي طريقة كانت، وإن لم تكن مباحة كالتطفيف، ليكون بذلك عبدًا لهذا المال.

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (فلا ننكر أن الطباع تحب المال، لأنه سبب بقاء الأبدان، لكن أن يزيد حبهُ في القلوب حتى يصير محبوبًا لذاته، ويكون غاية القصد، وشغل القلب الشاغل، حتى يشغله عن ذكر ربه وعبادته، كان بذلك معرضًا عن عبودية الله تعالى وطاعته ومحبته، ومبتلىً بعبودية هذا المال، فأصبح عبدًا لهذا المال بمحبته له،

---

(١) سورة المطففين، الآيتان: (٤، ٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٢٢).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. لمحمد أمين الشنقيطي. طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، (٩/ ٩٨).

وخدمته له عن محبة الله تعالى وخدمته، وكان كالكير[١] يُنفخ بطنه، ويعصر أضلاعه في نفع غيره، وهذا حال من أعرض عن أمرٍ من أوامر الله تعالى، وانغمس في المحرمات والشبهات)[٢].

يقول الإمام ابن القيم[٣] - رحمه الله - كذلك: (قوم شعيب إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرطُ محبتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب)[٤].

كما أن من صفات المطفف الخيانة، إذ أن المسلم مؤتمن من الله تعالى على أداء حق نفسه، وحق غيره، وبتطفيفه قد تجاوز الحد في حقه باستلاب حقوق غيره من غير وجه حق.

---

(١) الكِيرُ: هو كِيرُ الحدّاد، وهو زِقّ أو جلد غليظ ذو حافاتٍ ينفخ فيه الحدّاد. انظر: لسان العرب (٥/ ١٥٧).

(٢) الوصية الصغرى. لابن تيمية. ت: محمد إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة. الرياض. (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص(٣١٠)، للاستزادة انظر: صيد الخاطر. لابن الجوزي، ت: سيد زكريا. مكتبة نزار مصطفى الباز. مكة. الرياض. الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٢١٤).

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، كان تلميذًا لشيخ الإسلام ابن تيمية، أمّ بمدرسه الجوزية، ودرس الفرائض على يد أبيه، والأصول على يد ابن تيمية، كان واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، لازم شيخ الإسلام حتى توفي، من مصنفاته: أعلام الموقعين، الفوائد، الروح، ومات سنة ٧٥١هـ. (شذرات الذهب، (٦/ ٢٠٨)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لأحمد بن حجر العسقلاني. ت: محمد عبد المعيد. مجلس دائرة المعارف. حيدر آباد. الهند (ط٢)، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، (٥/ ١٣٧).

(٤) روضه المحبين ونزهة المشتاقين. لابن قيم الجوزية. دار اليقين. المنصورة. مصر، (ط١)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص(٢١٠).

يقول الإمام ابن رجب[١] - رحمه الله - عن ذلك: (إن المطفف خائن بتطفيفه، فالخائن هو الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، أي يعني لا يقدر على خيانة ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر إليها، واغتنمها، ويدخل في ذلك التطفيف في المكيال والميزان)[٢].

وقال أحد أهل العلم عن ذلك:إن المطفف بعمله هذا في الحقيقة، غالبًا لا يطلع عليه الطرف الآخر، في حين أن الله تعالى يكون هو المطلع على فعله فهو الذي سيحاسبه، ويناقشه قال تعالى محذرًا: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾[٣]، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٤] لأنه خان الله الذي لا تخفى عليه خافية، لذا لم يقل الله يوم يقتص لكل إنسان من غريمه، ويستوفى كل ذي حق حقه وإنما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٥][٦].

---

(١) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، ولد عام (٧٣٦هـ)، الإمام الحافظ، له كتاب الجنائز، وله شرح على الترمذي. مات سنة ٧٥٩هـ. انظر: البدر الطالع: لمحمد الشوكاني، دار المعرفة. بيروت، (١/ ٣٢٨)، الدر الكامنة (٣/ ١٠٩)، المقصد الأرشد. لبرهان الدين بن مفلح. تحقيق: عبد الرحمن بن عثيمين. مكتبة الرشد. ط(١)، ١٤١٠هـ، (٢/ ٨١).

(٢) التخويف من النار. لابن رجب الحنبلي. مكتبة دار البيان. دمشق. (ط١)، ١٣٩٩هـ، ص(٢٠٣).

(٣) سورة المطففين، الآية: (٤).

(٤) سورة المطففين، الآية: (٦).

(٥) سورة المطففين، الآية: (٦).

(٦) أنظر.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٩/ ٩١).

وقد ظهرت هذه الخصلة كثيرًا في هذا الزمن عند كثيرٍ من الباعة ممن أعمت الدنيا قلوبهم وعقولهم، فأشربوا بها حتى أعمتهم عن مراقبة الله تعالى في سائر أعمالهم الظاهرة والباطنة... فأسأل الله لنا ولهم الهداية إلى الحق والثبات عليه.

*　　*　　*

المسألة الرابعة

نسبة الأنبياء إلى الكذب كقول أصحاب الأيكة وغيرهم

الأنبياء هم صفوة الخلق ونخبتهم، عصمهم الله تعالى عن الخطأ في التبليغ، وحَبَاهم العلم والمعرفة، بل إن الله فضَّل بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[(١)]. وفضلهم على سائر العالمين.

فالأنبياء أصحاب رسالات مؤتمنون عليها لما حباهم الله تعالى من جميل الصفات وأكملها التي يستطيعون من خلالها أداء رسالتهم أداءً صحيحًا.

فهم القدوة لتكامل شخصيتهم من كل جانب من جوانب الحياة، فهم شامخون كقمم الجبال بإيمانهم، ترنو إليهم العيون، وتتطلع إليهم العقول، وتجب لهم القلوب، فيقلدهم أتباعهم في أفعالهم وأقوالهم وإشارتهم، لذا كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة لمن دعوهم.

يريد المؤلف - رحمه الله - بهذه المسألة بيان ما وقع فيه أهل الجاهلية من الأميين وأهل الكتاب من تكذيبهم لأنبيائهم، قال تعالى عن ذلك: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٥٣).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٤٤).

قيل: إن المعنى المراد بهذه الآية: (أي أرسلناهم مترادفين يتبع بعضهم بعضًا غير متواصلين، فكلما جاءهم رسول كذبوه)[١].

فمعلوم أن الكذب صفة من الصفات المذمومة، التي يأبى صاحب الطبع الكريم أن يتصف بها، فكيف لهؤلاء العصاة أن ينسبوها لصفوة الخلق!!.

وقد جاءت آيات كثيرة دلت على وجود هذه الخصلة لدى الأمم السابقة، وعلى ذمهم عليها، مما يدل على ذمها، فقد ذمهم الشارع ضمن خطاب واحد قال تعالى عن ذلك: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[٢].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (أخبر الله سبحانه أن كل واحد من هؤلاء المذكورين كذّبوا رسل الله الذين أرسلهم، فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، فحل بهم العذاب والنقمة)[٣].

كما قال تعالى أيضًا: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا

---

(١) تفسير البغوي معالم التنـزيل. للإمام أبي محمد الحسين البغوي. ت. محمد النمر، عثمان ضميرية، سليمان الخراشي، دار طيبة. الرياض، (ط٤)، (٨/ ٤١٨).

(٢) سورة ق، الآيات: (١٢ – ١٤).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٤١٣).

﴿ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾[(١)]. قال الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (أي ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسل الله، فوجب عليهم عقاب الله إياهم)[(٢)].

وقد جاءت آيات أخرى نص فيها الشارع على وجود هذه الخصلة في كل أمة من هذه الأمم ضمن خطاب خاص بها جاء في سياق الذم لهم.

فقال تعالى عن قوم نوح خاصة: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[(٣)]، وقال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[(٤)]، وقال تعالى عن قوم صالح - عليه السلام -: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[(٥)]، وقال تعالى عن قوم لوط - عليه السلام -: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[(٦)]، وقال تعالى عن قوم شعيب - عليه السلام -: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(٧)]، وقال تعالى عن موقف قوم تبعّ[(١)]: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ

---

(١) سورة ص، الآيات: (١٢ - ١٤).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٥٥٧).

(٣) سورة الشعراء، الآية: (١٠٥).

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: (١٢٣ - ١٢٤).

(٥) سورة الشعراء، الآيتان: (١٤١، ١٤٢).

(٦) سورة الشعراء، الآية: (١٦٠).

(٧) سورة الأعراف، الآية: (٩٢).

وَقَوۡمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾(٢).

هذا وقد صور لنا القرآن الكريم هذه الخصلة في موقف قريش مع نبينا محمد ﷺ الذي لم يكونوا فيه أقل سوءًا من مواقف الأقوام السابقة مع رسلها، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾(٣)، وقال أيضًا عنهم في موضع آخر: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ۝٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾(٤)، قال أحد المفسرين عن معاني هذه الآيات: (جاءت هذه الآيات لمواساة وتسلية نبينا محمد ﷺ حين قابله قومه بالتكذيب، وذلك بذكر ما لاقاه الأنبياء والرسل من قبله من أقوامهم ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ ﴾(٥)) (٦).

وقال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: أي أنهم لا يكذبونك فيما أتيتهم به من وحي الله، ولكنهم يجحدون حقيقته قولاً، فلا يؤمنون به عنادًا

=
(١) قال الطبري هو رجل صالح كان قومه يعبدون الأوثان.
(٢) سورة ق، الآية: (١٤).
(٣) سورة فاطر، الآية: (٢٥).
(٤) سورة القمر، الآيتان: (٢٥، ٢٦).
(٥) سورة الأنعام، الآيتان (٣٣، ٣٤).
(٦) تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبد الله النسفي، دار الفكر، (٢/ ١١).

وحسدًا[(١)].

كما أن جعل نبينا محمد ﷺ شاهدًا على أمته، وأمته شهداء على الأمم السابقة، لهو دليلٌ على وقوع التكذيب من أمته، ومن تلك الأمم السابقة بالحجج القائمة عليهم، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[(٢)]. وقد بيّن النبي ﷺ المراد بهذه الآية فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك، فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون لهم بالبلاغ، ثم أشهد عليكم»[(٣)]. وفي رواية أخرى قال ﷺ: «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ود أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل»[(٤)].

قال بعض أهل العلم والمراد: أي أنهم شهداء على قوم نوح، وقوم

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٨٠)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس) برقم (٤٤٨٧) ص(٣٦٨) وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه) برقم (٣٣٣٩)، ص(٣٦٩)، وفي كتاب الاعتصام، باب (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا) برقم (٧٣٤٩) ص(٦١١) بمثله موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩٥) من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وغيرهم بأن رسلهم بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم[(١)].

كما وقد جاء عنه - عليه الصلاة والسلام - ما يدل على تكذيب قومه له، وذلك في سياق ثنائه على خديجة[(٢)] - رضي الله عنها - حين ذكرت عنده فقال: «صدقتني إذ كذبني الناس...» [(٣)]، كذلك فيما روي من أن رجلاً من الأنصار تكلم بكلمة فيها موجدة[(٤)] على النبي ﷺ فقال - عليه الصلاة والسلام -: «قد آذوا موسى عليه السلام بأكثر من ذلك فصبر، ثم أخبر أن نبيًا كذبه قومه وشجوه حين جاءهم بأمر الله فقال وهو يمسح الدم عن وجهه: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(٥)].

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٧٢)، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي. للفقيه أبي العلا محمد بن عبد الرحمن المباركفوري. قدمه وخرج أحاديثه رائد بن صبرى أبى علفة. بيت الأفكار الدولية. عمان، (٢١٩٠، ٢١٩١).

(٢) هي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشية الأسدية، زوجة النبي ×، وأول من صدقت به، كانت تدعى بالطاهرة، تزوجها الرسول قبل البعثة ورزق منها أولاده كلهم إلا إبراهيم. توفيت في السنة العاشرة من البعثة عن عمر ٦٥ سنة، آزرت الرسول × بمالها ونفسها، توفيت في نفس العام الذي توفي فيه عم الرسول أبو طالب فسمي عام الحزن. انظر: الاستيعاب (٤/ ٢٧١)، الإصابة (٤/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٣٧٦) ص(٢٥٣٨٧).

(٤) الموجدة من وجَدَ عليه في الغضب، يقال يَجُدُ ويَجِدُ وجدًا وجِدَةً وواجدنًا: غضب. لسان العرب، (٣/ ٤٤٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٤٣٣١)، ص(٣٣٩).

أيضًا ما رواه طارق المحاربي[١] - رضي الله عنه - حين قال: «رأيت رسول الله ﷺ مرتين بسوق ذي المجاز[٢]، وعليه جبة حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل[٣] يتبعه بالحجارة قد أدمى كعبيه وقدميه، وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوه، فإنه كذاب»[٤]، وفي رواية أخرى يقول عنه: «إنه صابئ كذاب»[٥].

لهذا أمرنا الله عز وجل بمخالفة أهل الجاهلية حين أمرنا بالتصديق بالرسل، وقرن الإيمان بالرسل بالإيمان به تعالى، فكان الإيمان بالرسل أحد

---

(١) هو: طارق بن عبد الله المحاربي من محارب خَصَفة، صحابي نزل الكوفة، روى عن أبي الشعثاء وربعى، قال ابن البراق إن له حديثين. الاستيعاب (٢/ ٢٢٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٢١٢).

(٢) ذو المجاز: سوق خلف عرفة، كانت تقوم فيه الجاهلية ثمانية أيام من كل عام. انظر: معجم البلدان. للحموي. دار الفكر. بيروت (٥/ ٥٩).

(٣) عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم كنى بأبي لهب لإشراق وجهه، امرأته أم جميل التي سماها الله حمالة الحطب لحملها الشوك ووضعها إياه في طريق الرسول ×، وقد نزل في أبي لهب قرآن يتلى هو وزوجته وعن عذابهما. سيرة ابن هشام (١/ ٣٢٩).

(٤) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، برقم (١٦٠) (١/ ٨٢). المكتب الإسلامي، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم. للإمام الحافظ أبي القاسم هبة أبي الحسن اللالكائي. ت:د. أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة. الرياض، (ط٨)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، برقم (١٤١٣) (٤/ ٨٣٨)، ورواه الحاكم بسند آخر عن يزيد، وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٦١١ - ٦١٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦١٢٢)، ص(١١١٦)، وبرقم (١٦١١٩)، ص(١٦١٢٠) وبرقم (١٩٢١٣، ١٩٢١٤)، ص(١٣٧٣) بمثله، شرح أصول الاعتقاد للالكائي، (٤/ ٨٣٩).

أصول وأركان الإيمان، وعلى هذا فالتكذيب بالرسل أو بأحد منهم، أو حتى عدم التصديق والتكذيب يُعد كفرًا يخلد صاحبه في النار، قال تعالى في ذلك: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١).

قال الحافظ ابن كثير(٢) - رحمه الله - في تفسير الآية: أي أن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله... وآمن بالكتب وبأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين(٣).

فقال تعالى مؤكدًا على ذلك: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٧٧).

(٢) هو: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الفقيه الشافعي، ولد سنة (٧٠٠هـ)، صحب ابن تيمية. من مصنفاته: كتابه التنبيه، والبداية والنهاية، والتفسير المعروف بتفسير ابن كثير، كان جيد الفهم كثير الحفظ، محدث مفتي بارع. توفي سنة (٧٧٤هـ). انظر: شذرات الذهب (٦/ ٢٣١)، الدرر الكامنة (١/ ٤٤٥).

(٣) انظر. تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٩).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٥).

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾[١].

ومن السنة حديث جبريل الطويل حين سأل الرسول ﷺ عن الإيمان، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث»[٢].

وقد اتفق العلماء على أن النبوة حق، وأنه كان أنبياء كثير، منهم من سمى الله تعالى في القرآن، ومنهم من لم يسمِّ لنا، وأن جميع الأنبياء الواردة أسماؤهم في القرآن حق، وبوجوب الإيمان والتصديق بجميع ما جاءت به الرسل من عند الله، وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانًا لا يسع أحدًا مما أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه قال تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[٣]، ومما يجب اعتقاده والتصديق به أن الأنبياء والرسل بشر من خلق الله عز وجل، أكرمهم الله سبحانه وتعالى واصطفاهم برسالته، وأن جميعهم جاءوا بأصل واحد، وهو الدعوة إلى الله - عز وجل -، وإخلاص العبادة له، وإن

---

(١) سورة النساء، الآيتان: (١٥٠ – ١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي × عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة برقم (٥٠)، ص(٦)، وفي كتاب التفسير، باب قوله (إن الله عنده علم الساعة) برقم (٤٧٧٧)، ص(٤٠٥) بمثله، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى برقم (٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧) وفي كتاب الإيمان ما هو وبيان خصاله، برقم (٩٧) وفي باب الإسلام ما هو وبيان خصاله برقم (٩٩)، ص(٦٨١، ٦٨٢) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٣) سورة النحل، الآية: (٣٥).

اختلفت في الفروع، إلا أن هذه الشرائع والمناهج قد نسخت ببعثة محمد ﷺ، فلا شرعه إلا شرعة الإسلام، قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[1]، كما اتفق العلماء على أن من شك في النبوة أو في محمد ﷺ، أو في حرف مما أتى به عليه السلام، أو جحد شيئًا مما ذُكر، فمات على ذلك، فإنه كافرٌ مشرك مخلدٌ في النار أبدًا[2]. أ هـ.

وفي بيان ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: (إن معنى قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[3] إخبار منه سبحانه وتعالى أن كل واحد من هؤلاء المذكورين فرعون وغيره، كذب الرسل كلهم، إذ لم يؤمنوا ببعضٍ ويكفر

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٢) انظر: المسائل والرسائل. لأحمد بن حنبل. ت. عبد الإله الأحمدي. دار طيبة. الرياض (ط٢)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م (٢/ ٣٢٥)، شرحه السنه للبربهاري. دار السلف. الرياض (ط٣) ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ص(٦٦)، الشرح والأبانة لابن بطة العكبري. دار العلوم والحكم. الرياض (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص(٢٣٢)، الإيمان لابن منده. دار الفضيلة. الرياض، (ط٤)، ١٤٢١هـ، ص(١٢٥)، ومراتب الإجماع لابن حزم (٢٧٠ – ٢٧٣)، شرح الأصول الثلاثة. لمحمد بن عثيمين. دار الثريا. الرياض (ط٤)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٩٨)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، والرد على أهل الشرك والإلحاد. د. صالح بن فوزان الفوزان. دار العاصمة. الرياض، (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص(٢٣٥).

(٣) سورة ق، الآيات: (١٢ – ١٤).

ببعض كاليهود والنصارى، بل كذبوا الجميع، وهذا أعظم أنواع الكفر، فكل من كذب رسولاً فقد كفر، ومن لم يصدقه فقد كفر، فكل مكذبٌ للرسول كافرٌ به) [١].

ولا عجب من شدة هذا الوعيد والحكم على من كذب بالرسل؛ نظرًا إلى أن الدافع في تكذيبهم لم يكن هو الجهل، وإنما الكبر والحسد، أو حب العلو والرئاسة، أو لوقع فسادٍ في فطرهم، وغيرها من الأسباب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مبينًا ذلك:(وكما أن آياته القولية زعم المكذبون أنها ليست كلامه ولا منه، بل هي من قول البشر وزعموا أن الرسول افتراها.. فكذلك الآيات الفعلية زعم المكذبون أنها ليست آية منه وعلامة ودلالة على أن الرسول رسوله ؛بل مما يفعله الرسول فيكذب، وهذه من فعل المخلوقين)[٢]، ثم قال في موضعٍ آخر: (إن عامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم، وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، أو إرادتهم العلو والرياسة، أو لإفساد الأبوين الفطرة الحنيفية، أو مكابرةً وجحودًا، أو طاعة للكبراء... وغيرها من الأسباب الداعية لهؤلاء المكذبين لتكذيب رسلهم، فيرون أن باتباع الرسل تركٌ لأهوائهم المحبوبة إليهم، أو حصول لأمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم)[٣].

---

(١) جامع الرسائل. لابن تيمية (١/ ٢٠٩).

(٢) النبوات. لابن تيمية. ت: محمد عبد الرحمن عوض. دار الريان. للتراث. مصر (ط١)، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص(٢٦٠).

(٣) الفتاوى. لابن تيمية (٧/ ١٩١) (١٦/ ٣٤٥)اللاستزادة انظر: لرسائل الشخصية. الرسالة =

أخيرًا فبعد أن تم بيان فساد هذه الخصلة، وشدة الوعيد المترتب عليها، والحكم المترتب على من قام بها، إلا أن هناك من كذب الرسل، مع العلم أن هؤلاء المكذبين للرسل في القديم والحديث ليسوا على وتيرةٍ واحدة في التكذيب، فمنهم من أنكر واسطتهم في التبليغ، ومنهم من أنكر جنس النبوة، ومنهم من آمن بالبعض من الرسل وكذب بالبعض. وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هؤلاء: (المكذبون للرسل والأنبياء على أقسام: قسم أنكروا توسطهم بتبليغ الرسالة، فكذبوا بالكتب والرسل، مثل قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وقوم فرعون، وقسم كذبوا جنس الرسل، ومن هؤلاء منكرو النبوات من البراهمة[1]، وفلاسفة الهند[2] المشركين وغيرهم، وقسم كذبوا ببعض الرسل دون بعضهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ

=

السابعة والثلاثون. للشيخ محمد بن عبدالوهاب. ت. عبد العزيز زيد الرومي، ود. محمد بلتاجي، ود. سيد حجاب. مطابع الرياض (ط١)، (١/ ٢٥٥)، صور من تأذي الرسول × في القرآن. لعثمان قدري. دار ابن حزم، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(١) هي إحدى فرق الهند، انتسبوا إلى رجل يقال له إبراهيم، وهي فرقة تنكر النبوات، فيرون أن أكبر الكبائر اتباع رجل مثلك في الرسالة، وأن العقل دل على الخالق، فلا يتعبد الخالق إلا بما دل عليه العقل. انظر: الملل والنحل. الشهرستاني (٢٤٦).

(٢) ويقال لهم حكماء الهند، وهم أتباع قلانوس تلميذ فيثاغورس، يرون أن الباري تعالى نور محض، قد يتلبس في جسد حتى لا يراه إلا من استأهل رؤيته واستحقها، ويرون أن التناسل في هذا العالم خطأ هو لذة جسدية يثيرها شهوة حيوانية، والبعض قال إنها طريق حلال. انظر: الملل والنحل (٢٥٤).

بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾[1]، وقوم كذبوا بالنبوات بجعلها من جنس المنامات، وجعلوا مقصودها التخييل، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[2]، وهؤلاء المكذبون بالنبوات، وهم الفلاسفة[3]، والباطنية[4]. فكل من كذب محمدًا، أو المسيح، أو سليمان، أو داود، أو غيرهم من الأنبياء ممن بعثوا بعد موسى فهو كافر قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾[5])[6].

* * *

(١) سورة النساء، الآيتان: (١٥٠ – ١٥١).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٥).

(٣) الفلاسفة كلمة مأخوذة من كلمة فلسفة، أي محب الحكمة، فهم يرون أن العلم على أقسام ثلاثة: علم ما، وعلم كيف، وعلم كم، فما يطلب فيه الماهيات هو العلم الإلهي وما يطلب فيه بكيف العلم الطبيعي وما يطلب بكم هو أو الرياضي، والفلسفة علم يوناني، فمنهم حكماء الهند منكرو النبوات، وحكماء العرب، وهم شرذمة. وحكماء الروم فهم يرون أن للعالم مبدعًا لا تدرك صفته. انظر: الملل والنحل (١٥١).

(٤) الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وانكار البعث ولكنهم لايظهرون ذلك، ويعرفون بالباطنية لحكمهم بأن لكل باطنٍ ظاهر، ولكل تنزيل تأويل، وهم نفاة للصفات. انظر: الملل والنحل (٨٢)تلبيس إبليس لابن الحوزي(١٢٤).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٨٧).

(٦) الفتاوى (٤/ ٦٧) (٢٧/ ٢٨١)، النبوات (٢٤٠، ٢٥٢)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية. مطبعة المدني. القاهرة. مصر، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م (٢/ ٦٨).

المسألة الخامسة

استعجالهم العذاب كقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾[١]، وقوله عن قوم لوط ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٢].

إن مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل على اختلاف العصور لم يختلف بعضها عن بعض، على العكس، بل كانت جميعها متشابهةً إلى حدٍ كبير جدًا، فتكذيب الرسل كان ديدنهم جميعًا، والعناد والاستكبار كانت السمة السائدة بين جميع المكذبين.

وهنا في هذه المسألة يذكر المؤلف - رحمه الله - صورةً لموقفٍ من مواقف الأمم السابقة مع رسلهم، برزت فيها إحدى خصال الجاهلية التي تحمل في طياتها الكفر، وتتجلى فيها شدة العناد والاستكبار عن قبول الحق، وذلك باستعجالهم العذاب من الله.

الاستعجال في اللغة: هو الاستحثاث، وطلب العجلة، وأعجَله وعجّله تعجيلاً: إذا استحثه يقال: استعجلته: أي طلبت عجلته، أي تقدمه، وأمره أن يعجل، ومَرّ يستعجل أي مرّ طالبًا ذلك من نفسه متكلفًا

---

(١) سورة الحج، الآية: (٤٧)، سورة العنكبوت، الآية: (٥٣).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: (٢٩).

إياه[١].

والمراد أن الكافرين المعاندين لدعوة الرسل، استحثوا أنبياءهم واستعجلوهم بطلبهم إنزال العذاب.

يقول الحافظ ابن كثير عن هؤلاء: (يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فقد كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة)[٢]. وقد نص القرآن الكريم على الأقوام التي استعجلت عذاب الله تعالى، فقال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٤]. قال المفسرون والمراد بهذه الآية: أي ائتنا بها تعدنا وتحذرنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان، إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعِد[٥]. ومن الأقوام التي استعجلت العذاب أيضًا قوم صالح عليه السلام، فقال تعالى

---

(١) انظر.لسان العرب لابن منظور (١١/ ٤٢٥)، مختار الصحاح للرازي، ص(٣٧٦)، القاموس المحيط للفيروزآبادي (٤/ ١٢).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٥).

(٣) سورة هود، الآية: (٣٢).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٧٠).

(٥) انظر.تفسير الطبري (٥/ ٥٢٨)، تفسير القرطبي (٧/ ٢١٢)، التفسير الكبير (٥/ ٣٠٢).

عنهم: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١)، قال المفسرون أي: جئنا يا صالح بما تعدنا من عذاب الله ونقمته، استعجالاً منهم للعذاب، إن كنت لله رسولاً إلينا، فإن الله ينصر رسله على أعدائه(٢).

كما وقد نهج قوم لوط - عليه السلام -، وقوم شعيب عليه السلام الطريقة نفسها في الإعراض والعناد، والتكذيب، فقوم لوط - عليه السلام - بعد أن دعاهم لوط لعبادة الله، وترك فاحشة إتيان الرجال في أدبارهم، وكرر النهي عليهم، وشدد عليهم الوعيد، وقفوا أمام دعوته متحدّين مستكبرين مستبعدين، ومكذبين بهذا الوعيد.

قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٣).

كذلك قوم شعيب حين نهاهم عن عبادة ما سوى الله، وعن التطفيف في الكيل والميزان، ودعاهم للعدل والقسط، لم يكونوا أقل حظًا في التكذيب من غيرهم من الأقوام السابقة، فقال عز من قائل عنهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٤). قال المفسرون في تفسير هذه الآيات: أي إن كنت صادقًا فيما تقول بأنك رسول الله كما تزعم، فأسقط علينا قطعًا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٧٧).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٥/ ٥٣٨)، تفسير القرطبي (٧/ ٢١٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠)، التفسير الكبير (٥/ ٣٠٧).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٢٩).

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: (١٨٦، ١٨٧).

من السماء، وما تحديهم هذا، إلا لأن شعيبًا - عليه السلام - كان يتوعدهم بالعذاب إن استمروا على تكذيبهم ومبالغتهم في الجحود والإنكار(١).

أيضًا ما لاقاه سيد الأنبياء والمرسلين من مشركي كفار قريش من الكفر والعناد، لا يقل عما لاقاه نوح، وصالح، وشعيب، ولوط، وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من أقوامهم المكذبين. فقد طلب كفار قريش من الرسول ﷺ أن ينـزل عليهم العذاب إن كان ما يدعو إليه هو الحق. وقد نص القرآن الكريم على قولهم هذا، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٢).

يقول الإمام الطبري في سبب نزول هذه الآية: (نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ابن كلدة(٣)، حين قال: اللهم إن كان ما يقول محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم! قال الله ﴿ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، أي إن كان ما جاء به محمد هو الحق فأمطر علينا حجارة كما أمطرتها على قوم لوط، ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ببعض ما

(١) تفسير الطبري (٩/ ٤٧٢) للاستزادة انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٢٤)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٧)، التفسير الكبير (٨/ ٥٢٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٢).

(٣) النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، يكنى أبا قائد، كان أشد قريش تكذيبًا للنبي ﷺ، وأذىً له، قتل على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالأثيل. انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٥)، الكامل في التاريخ (١/ ٥٩٤).

عذبت به الأمم قبلنا»[١].

وقد بيّن الحافظ ابن كثير سبب قيام هذه الخصلة، فقال عن ذلك: (هذا من كثرة جهلهم، وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[٢]، و﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾[٤]) [٥]، فحين سألوا الله أن ينـزل عليهم الحجارة، أو يأتيهم بعذاب أليم قال لهم عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[٦]) .

قال الإمام الطبري في تفسير الآية السابقة من سورة الأنفال: (عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: ما كان الله - عز وجل - يعذب قومًا

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٣١).
(٢) سورة العنكبوت، الآية: (٥٣).
(٣) سورة ص، الآية: (١٦).
(٤) سورة المعارج، الآيات: (١ – ٣).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٥).
(٦) سورة الأنفال، الآية: (٣٣).

وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فمنهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار، ثم قال: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ فعذبهم يوم بدر بالسيف[(١)].

وقد بيّن المفسرون المراد بالعذاب الذي لا يحل بهم والرسول بينهم، فقالوا عن ذلك: والمراد بالعذاب الذي لا يحل بهم ورسول الله بينهم هو عذاب الاستئصال، وهو الإهلاك دفعة واحدة، لهذا اقتضت الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية، ألا يجابوا إلى ما سألوا، لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك، فيعاجلهم بالعذاب[(٢)].

وقال أحد المفسرين أيضًا: (كما أن إيقاف العذاب عنهم هو إكرامًا للنبي ﷺ، ولوجود من يستغفر الله - عز وجل - بين أظهرهم، رغم استحقاق هؤلاء الكفار المعاندين للعذاب)[(٣)].

لعل الناظر لمقالات هؤلاء الكفار الذين أشربت قلوبهم بالكفر والعناد والجحود، يجدهم بكل سفاهة يطالبون بتبديل آيات الأنبياء وبراهينهم التي أيّدهم الله بها، بعقوبات عاجلة من خلال دعائهم السابق بتعجيل العذاب.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٥).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٦/ ٢٣١)، تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٦)، البداية والنهاية (٣/ ٥٧)، فتح القدير (٢/ ٣٨١)، أضواء البيان (٢/ ١٩٠)، التفسير الكبير (٥/ ٤٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٣٣٤).

مع العلم أن الدعاء عبادةٌ يتعبد بها العبد لله - عز وجل - بسؤاله ما هو مأمور به، كأن يسأل الله الجنة، أو تفريج الكرب ونحوه، ومنه ما هو مباح، كأن يسأل أمرًا من الأمور المباحة، ومنه ما هو محرم، كسؤال الكفار الجاحدين السابق ولشيخ الإسلام - رحمه الله - كلام نفيس في هذا فقال: (شهود ألوهية وربوبية الله عز وجل من خلال عبادة الدعاء، ذلك أن السائل لله إما أن يسأل ما هو مأمور به، وهذا حال المؤمنين السعداء الذين حالهم كما قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(١)، أو أن يسأل ما هو مباح له، أو أن يسأل ما هو منهي عنه، وهذا حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان وإن كانوا كفارًا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(٢)، فهم مؤمنون بربوبيته، مشركون في عبادته، وعلى هذا قيل: إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(٣)، والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته، وأما إجابة دعائه، وإعطاؤه سؤاله، فقد يكون منفعة، وقد يكون مضرة كما بينه الشارع في قوله: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: (٥).

(٢) سورة يوسف، الآية: (١٠٦).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٨٦).

أَجَلُهُمْ ﴾[١]، وقال تعالى عن المشركين: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[٣]، وقال النبي لما دخل على أهل جابر فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»[٤][٥].

فالواجب على العبد أن يتحرى الصواب في دعائه، وسؤاله الله عز وجل، وعليه أن يصبر ويحتسب في حال دعائه، فلا يسأل الله عز وجل ما عُلم شرعًا النهي عن سؤاله، كسؤال الموت لضرٍ، نزل به، أو ضائقة مر بها، فحقيقة الإيمان تتجلى وتتمثل في الصبر والاحتساب، والرضا بكل ما يحل بالعبد من نوائب الدهر[٦].

* * *

---

(١) سورة يونس، الآية: (١١).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٢).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز. باب إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر، برقم (٢١٣٠) بزيادة في أوله وآخره، ص(٨٢٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ٣٥).

(٦) للاستزادة. انظر: المناهي اللفظية. للشيخ محمد بن عثيمين، دار ابن الجوزي. مصر. ص(٤٢)، معجم المناهي اللفظية ويليه فوائد الألفاظ. د. بكر أبو زيد. دار العاصمة، الرياض. (ط٣)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص(١٢٩).

المسألة السادسة

ترك العمل بالحق وجحده مع العلم به، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾(١)

يبين المؤلف – رحمه الله – ما وقع فيه أهل الجاهلية الأميون والكتابيون قديمًا وحديثًا، من ترك العمل بالحق، وإنكاره، مع العلم أنهُ الحق من الله تعالى.

وما كان حجتهم في تركهم العمل بالحق وجحده، وجود شبهةٍ فيه، أو لطلب برهانٍ عليه، أو عدم اقتناعٍ به؟ إنما كان تركهم العمل بالحق وجحده من باب الكبر والتعالي على الحق.

وهذا يعدُ أشرُ أنواع الكبر، الذي يمنع صاحبه من الاستفادة من العلم، وقبول الحق والانقياد له. وما سرى هذا الكبر في قلوب هؤلاء، إلا لمرضٍ في أنفسهم، أو حُبًا لمصالحَ دنيوية تتعارض مع الحق الذي عرفوه، فتركوا العمل به وجحدوه.

والجحد في اللغة: جَحَدَ جحودًا: نقيض الإقرار، كالإنكار والمعرفة، جَحَدَهُ، يَجْحَدَهُ، جحدًا وجحودًا.

---

(١) سورة النمل، الآية: (١٤).

قال الجوهري[١] عن الجحود: (هو الإنكار مع العلم)[٢].

وقال الراغب عن معنى الجحود: (الجحود نفى ما في القلب ثباته، أو إثبات ما في القلب نفيه، يقال جحد جحودًا وجحدًا، قال - عز وجل -: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ ، وقال - عز وجل -: ﴿ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ويجحد يختص بفعل ذلك، يقال رجل جحد شحيح قليل الخير، يظهر الفقر، وأرض جحدة قليلة النبت، يقال جحد له ونكدا، وأجحد صار ذا جحد)[٣].

وقال أحد العلماء: (إن الجحد هو إنكار ما سبق له وجود، وهو خلاف النفي، إذًا هو إنكار وجود المدعى، والجحد يقال فيما ينكر باللسان لا بالقلب، وفي المصباح: الجحد: الإنكار، وجحد حقه: أنكره، ولا يكون إلا على علم من الجاحد به)[٤].

وقال ابن القيم أيضًا في معنى الجحد: (لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

---

(١) هو: إسماعيل بن حماد أبو النصر الفارابي الجوهري، صاحب كتاب الصحاح في اللغة، وكتاب النحو، وعروض الورقة، يضرب فيه المثل في الحفظ والكتابة، مات مترديًا من سطح دار بنيسابور سنة ٣٩٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. ت: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة. بيروت، (ط٩)، ١٤١٣هـ، (١٧/ ٨٠)، وفيات الأعيان للصفدي (٩/ ٦٩).

(٢) انظر.لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٠٦)، القاموس المحيط (١/ ٢٩١).

(٣) المفردات في غريب القرآن: ص(٨٨).

(٤) التعريفات (١/ ٢٣٢).

أَنفُسُهُمْ ﴾[١]، ومنه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٢]، عقيب قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٥]، وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها، لأن المذكر قد يكون محقًا فلا يسمى جاحدًا)[٦].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في كتابه الفتاوى حكم هذه الخصلة حين بيّن الحكم في تارك مباني الإسلام الخمس؛ وما يقاس عليها من الحقِ الثابت بالكتاب والسنة مما يجب الإقرار به، والعمل به.

فقال – رحمه الله – عن ذلك: (إن مباني الإسلام الخمس المأمور بها، وإن كان ضرر تركها لا يتعدى صاحبها، فإنه يقتل بتركها في الجملة عند جماهير العلماء، ويكفر أيضًا عند كثير منهم، أو أكثر السلف، وأما فعل المنهى عنه الذي لا يتعدى ضرره صاحبه فإنه لا يقتل به عند أحد من الأئمة، ولا يكفر به إلا إذا ناقض الإيمان، لفوات الإيمان، وكونه مرتدًا،

---

(١) سورة النمل، الآية: (١٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٣٣).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٣٣).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (٤٩).

(٥) سورة العنكبوت، الآية: (٤٧).

(٦) بدائع الفوائد: لابن القيم الجوزية. المكتبة العصرية. بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٤/ ١٣٥).

أو زنديقًا)[١].

كما وقد بيّن كذلك في حكم تارك الصلاة الجاحد لها بأنه الكفر والقتل، وأنهُ يقاس عليها كل حقٍ ثابت في الكتاب والسنة مما يجب علينا الإقرار به، والعمل به.

فقال عن ذلك: (إن جحد وجوبها فهو كافر بالاتفاق، وإن لم يجحد ولكن امتنع عن فعلها كبرًا وحسدًا، فهو كافرٌ بالاتفاق، ومن أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها، فيكون الجحد عنده متناولاً للتكذيب بالإيجاب، ومتناولاً للامتناع عن الإقرار والالتزام، كما قال تعالى عن ذلك: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٢]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٣] وإلا فمتى لم يقر ويلتزم فعلها قتل وكفر بالاتفاق)[٤]. أ هـ.

ومراد شيخ الإسلام - رحمه الله - أن الجاحد من كذب بالحق، وامتنع عن الإقرار به والالتزام به، فهو كافرٌ بالاتفاق. والله أعلم.

وقد قال أحد العلماء: (من كتم الحق مع العلم بصدقه فقد كفر كفر

(١) الفتاوى: لابن تيمية (٢٠/ ٩٥).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٣٣).
(٣) سورة النمل، الآية: (١٤).
(٤) الفتاوى: (٢٠/ ٩٧، ٩٨).

الجحود والكتمان)(١).

وقال الإمام سفيان بن عيينة(٢) - رحمه الله - في بيان ذلك (من ترك خلةً من خلال الإيمان كان بها عندنا كافرًا، ومن تركها كسلاً وتهاونًا بها أدبناه، وكان بها عندنا ناقصًا، هكذا السنة أبلغها عنى من سألك من الناس)(٣).

كما قال أيضًا: (وترك الفرائض من غير جهلٍ، ولا عذر هو كفر. وبيان ذلك في أمر إبليس وعلماء اليهود الذين أقرُّوا بنعت النبي ﷺ، بلسانهم ولم يعملوا بشرائعه)(٤).

وقال أيضًا الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن ذلك: (من ترك العمل بالحق وجحده مع العلم به فقد كفر كفر تكذيب باللسان، لجحده لهذا

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. للحافظ بن أحمد الحكمي. المطبعة السلفية. مصر (٢/ ٢٢).

(٢) هو: سفيان بن عيينة بن أبي عامر، الإمام الكبير الحافظ، شيخ الإسلام، أبو محمد الهلالي الكوفي المكي، ولد سنة ١٠٧هـ. وتوفي سنة ١٩٨هـ طلب الحديث، وانتهى إليه علو الإسناد.
قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهب علم الحجاز. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٦٠)، النجوم الزاهرة. لجمال الدين أبي المحاسن الأتابكي. وزارة الثقافة. مصر، (٢/ ١١٥٨).

(٣) الشريعة. لأبي بكر الأجرى. ت: عبد الرازق المهدي. دار الكتاب. بيروت. (ط١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص(١٠٩).

(٤) جامع العلوم والحكم. لابن رجب. دار طيبة. الرياض. (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٨٣).

الحق، وكفر إباءٍ واستكبار؛ لأنه عرف الحق ولم ينقد له إباءً واستكبارًا)(١).

ثم قال في موضع آخر: (إن من عرف الحق، وتمكن من معرفته، وتركه وأعرض عنه، فهو مفرطٌ تاركٌ للواجب عليه، لا عذر له عند الله، وسيقضي الله بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولن يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(٢)، فمن عرف ما جاء به الرسول ﷺ بأنه الحق، وتمكن من معرفته، فهنا تكون قد قامت عليه الحجة، فإن عاند هذه الحجة بعد قيامها عليه، وترك إرادة موجبها من العمل، فهو كافر، كفر عناد قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣)) (٤).

ونخلص بهذا أن كل تارك للعمل بالحق الثابت بالكتاب والسنة مع العلم به فهو كافرٌ باتفاق العلماء.

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة بوصف من قامت بهم هذه الخصلة بصفات مذمومة للتنفير منها، والحذر من الوقوع بها، فمما وصف به الشارع هؤلاء التاركين العمل بالحق والجاحدين له بالظلم، والعلو، والفساد كما ورد في محكم كتابه قال تعالى:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (١/ ٣٧٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (١٥).

(٣) سورة الزخرف، الآية: (٧٦).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين. لابن القيم الجوزية. تحقيق: حازم القاضي. مكتبة نزار مصطفى الباز. مكة، الرياض، (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٣٤٨).

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ الجحود: التكذيب بها. وقوله: ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ يقول: وأيقنتها قلوبهم، وعلموا يقينًا أنها من عند الله، فعاندوا بعد تبينهم الحقّ، ومعرفتهم به. وقوله: ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ الظلم: الاعتداء، والعلو: الكبر، كأنه قيل اعتداء وتكبرًا.

وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ماذا حل بهم من إفسادهم في الأرض ومعصيتهم فيها ربهم، وكيف كان عاقبة تكذيبهم»[٢].

وقد أظهر الإمام الفخر الرازي[٣] في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ لطائف نفيسة، فقال عن ذلك - رحمه الله -: (هي للمبالغة في الإيقان، أي أنهم جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم، والاستيقان أبلغ من الإيقان، أما قوله تعالى: ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ فأي ظلم

---

(١) سورة النمل، الآية: (١٤).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٥٠٢).

(٣) هو: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي بن الإمام، فخر الدين الرازي القرشي البكري. ولد سنة ٥٤٤هـ من تلاميذه البغوي، من تصانيفه: المحصول في أصول الفقه، وشرح الأسماء الحسنى، وإعجاز القرآن، وتأسيس التقديس. اشتغل بعلم الكلام، وندم على ذلك. قال: ليتني لم اشتغل بعلم الكلام. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ت: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، (ط١)، ١٣٩٦هـ، ص(١١٦)، شذرات الذهب (٥/ ٢١).

أفحش من ظلم، من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى، ثم كابر بتسميتها سحرًا بينًا. وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى - عليه السلام -)[١].

كما قال الحافظ ابن كثير عن تفسير هذه الآية: (أي لما جاءتهم الآيات بينة واضحة ظاهرة - المراد فرعون وقومه - علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي ظلمًا من أنفسهم سجية ملعونة، وعلوًا أي استكبارًا عن إتباع الحق، وقوله: ﴿ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ عاقبة أمر المكذبين الجاحدين)[٢].

وقد ذمهم أيضًا حين وصفهم بالظالمين، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[٣].

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي ما يكذب بها، ويبخس حقها، ويردها إلا الظالمون، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق، ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[٤])[٥].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٨/ ٥٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٨).
(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٤٩).
(٤) سورة يونس، الآيتان: (٩٦، ٩٧).
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٨).

أيضًا مما وصف الله تعالى الجاحد للحق وصفه بأنه غادرٌ، وكفور، ودل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[١].

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (الختار هو الغدار. والختر: أسوأ الغدر، قال الجوهري: الخَتْر الغدر. وجحد الآيات إنكار أعيانها. والجحد بالآيات إنكار دلائلها)[٢].

كذلك وصف الله تعالى الجاحد للحق (بالكفر)، كما جاء في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾، وأيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: (أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات)[٤].

ومعلومٌ أن هذه الخصلة ما قامت لشبهة، أو لطلب برهان كما وسبق أن بينت ذلك في بداية المسألة، إنما قامت عند أصحابها لامتلاء قلوبهم بحب الدنيا وأعراضها من مال أو جاه... حتى صاروا عبيدًا لأهوائهم، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ

(١) سورة لقمان، الآية: (٣٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٧٤).
(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٤٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٨).

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[١]. قال الرازي في تفسيره لهذه الآية: (هؤلاء بتركهم للعمل بالحق وجحده تركوا متابعة الهدى، وأقبلوا على متابعة الهوى، فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه)[٢].

قال بعض العلماء: أن من يجترئ على ترك العمل بالحق، ويجحده مع العلم بأنه هو الحق من الله - عز وجل -، هو صاحب قلبٍ محبٍ للشهوات والرئاسة، ولديه رغبة في العظمة والملك والسلطان[٣] ويدل على ذلك قوله تعالى عن فرعون حين رد الحق وجحده زعمًا منه أن ما جاء به موسى - عليه السلام - إنما هو لرغبة منه في الحصول على الكبرياء في الأرض، أي الملك، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]. قال القرطبي والمراد بالكبرياء: (أي الملك)[٥].

ومن ترك العمل بالحق وجحده مع العلم به هو مقلدٌ مذموم متبعٌ لهواه قد شابه في ذلك حال اليهود والنصارى تجاه الحق.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك في مواضع عدة فقال عن ذلك: (الشخص الذي يترك اتباع الحق الذي يجب عليه اتباعه هو

(١) سورة الجاثية، الآية: (٢٣).

(٢) التفسير الكبير (٩/ ٦٧٨).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٣٢٧)، المستفاد من قصص الدعوة والدعاة (١/ ٣٢٧).

(٤) سورة يونس، الآية: (٧٨).

(٥) تفسير القرطبي (٨/ ٣٢٧).

مقلد مذموم، وهذه حال اليهود والنصارى)، كما قال في موضع آخر: (فاليهود كانوا عالمين بالله، ونبوة محمد ﷺ، إلا أنهم كفروا عنادًا وبغيًا وحسدًا). ثم قال في موضعٍ آخر أيضًا: (كما أن أهل البدع والأهواء في هذه الأمة تركوا الحق، واتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق، فتارك الحق مع علمه بأنه الحق من الله - عز وجل - إنما هو اتباعٌ للهوى، وهذا هو حال المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه)(١)، وقال أيضًا: (وهذه حال عامة المكذبين، مثل مكذبي محمد وموسى عليهما السلام وغيرهما، فإنهم علموا صدقهما علمًا يقينًا، لما ظهر من آيات الصدق، ودلائله الكثيرة، لكن اتباع الهوى صدهم)(٢).

ويُعدُ تارك العمل بالحق، والجاحد له مع العلم به – مسفسطٌ(٣)، بل هو أشر السوفسطائين، قال عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (كل من جحد حقًا معلومًا، وموه ذلك بباطل فهو مسفسط في هذا الموضع، وإن كان مقرًا بأمور أخرى، وهو معاند سوفسطائي إذا علم ما

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٠٠)، (٧/ ١٤٦)، (٤/ ٢٠١).

(٢) النبوات. لابن تيمية، ص(٢٥٨).

(٣) السفسطة هو لفظ اصطلاحي في علم المنطق، معرب عن اليونانية، وأصله سفسط بمعنى غالط، وأتى بحكمة مضللة، وكلام مموه، ويقال أصلها من سوفسقيا أي حكمة مموهة، فإن (سوفيا) باليونانية أي الحكمة لهذا يقال فيلسوف: أي محب الحكمة. انظر: تلبيس الجهمية. لابن تيمية. دار القاسم. الرياض، (ط٢)، ١٤٢١هـ (١/ ٣٢٢)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: د. مانع الجهني. دار الندوة العالمية. الرياض، (ط٤)، ١٤٢٠هـ، (٢/ ١٠٧١).

أنكره، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ فهؤلاء سوفسطائيون في هذا الجحود، وإن كانوا مقرين بأمور أخرى، ولهذا كان جمهور من كذب بالحق الذي بعث به رسله من ذوي التمييز، هم من الجاحدين المعاندين، وهم من شر السوفسطائيين)[١].

هذا وقد خالف البارئ – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة أيضًا، حين حذر الجاحدين للحق من مغبة عملهم هذا، وذلك في مواضع عديدة من كتابه، كما في قول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[٢].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (أي فاليوم نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة، وكما كانوا بآيات الله يجحدون، ويكذبون ولا يصدقون بشيء من حججه التي احتج بها عليهم)[٣].

كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[٤].

قال الطبري – رحمه الله –: (فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء من مجازاتنا

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٢٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٥١).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٥١١).

(٤) سورة فصلت، الآية: (٢٨).

إياهم النار على فعلهم جزاء منا بجحودهم في الدنيا بآياتنا التي احتججنا بها عليهم)[١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٢].

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية السابقة: (يقول تعالى ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها مالم نعطكم مثله، ولا قريبًا منه، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، أي أحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به، ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة)[٣].

إن جميع الآيات السابقة اشتملت على التحذير من وعيد الله المترتب على ترك العمل بالحق وجحده، وليس لأحد أن يقول هي خاصة بأشخاص أو أقوام معينين، فالوعيد الوارد في الآيات رتبه الله - عز وجل

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٠٥).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: (٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٦٣).

- لذات المعصية، وليس لذات الأقوام، أو الأشخاص الذين جحدوا الحق، فنـزلت بهم هذه الآيات، إنما أنزل الله هذه الآيات محذرًا من الوقوع بمثل ما وقعوا فيه، ومبينًا الوعيد المترتب على من وقع بمثل هذه المعصية.

لهذا دعا الشارع عباده إلى الاستقامة على الحق، والدعوة إليه، فقد أمر نبيه ﷺ بذلك، وامتدح عباده المؤمنين بهذه الصفة، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[١]، وقال أيضًا مخاطبًا نبيه: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[٢]، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات: (أي استقم أنت ومن تبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله - عز وجل، مخالفًا المشركين فيما كذبوا واختلفوا، ومصدقًا بجميع الكتب، وحاكمًا بما أمر الله به)[٣].

كذلك حث الشارع عباده على العمل بالحق، والدعوة إليه ضمن مفهوم الآيات التي امتدح فيها عباده المؤمنين العاملين بالحق، والداعين إليه، والتي بيّن فيها العاقبة الحميدة التي أعدها لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٤]، وقال عز من قائل أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ

---

(١) سورة فصلت، الآية: (٦).

(٢) سورة الشورى، الآية: (١٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١١).

(٤) سورة الأحقاف، الآية: (١٣).

ﭐلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[(١)].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآيات: (أي أخلصوا العمل لله؛ وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم)[(٢)].

هذا وقد خالف نبينا محمد ﷺ بهديه القولي والفعلي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «قل آمنت بالله ثم استقم»[(٣)].

قال أحد العلماء عن هذا الحديث: (إن هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾[(٤)] أي: وحَّدوا الله وآمنوا به؛ ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد، والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن تُوفُّوا على ذلك)[(٥)].

وقال الإمام ابن رجب - رحمه الله - موضحًا المراد بالاستقامة: (والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيّم من غير تعريج عنه يَمنةً ولا يسرةً، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلّها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعةً لخصال الدين

---

(١) سورة فصلت، الآية: (٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، برقم (١٥٩) بمثله (٦٨٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) سورة فصلت، الآية: (٣٠).

(٥) المنهاج (١٤٧).

كُلِّها)(١).

وعلى هذا، فإن جميع النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنة الدالة بالنص أو بالتضمن على وجوب الإيمان والتصديق بالله – عز وجل – وبرسله، واتباع ما جاء به رسوله ﷺ هي نصوص دالة على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وداعية إلى ذلك. لهذا نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يعلمون الحق ويعملون به، ويدعون إليه.

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (٣٧٦).

المسألة السابعة

السجود للشمس من دون الله كقوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾(١) الآية، وكذلك القمر لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾(٢)

يريد المؤلف - رحمه الله - بهذه المسألة بيان ما وقع فيه أهل الجاهلية من السجود للشمس والقمر من دون الله تعالى، فالسجود لهما من دون الله تعالى هي صورة من صور الانحراف العقدي الضال الذي وقع فيه أهل الجاهلية وغيرهم.

والسجود لغة: من سَجَدَ سجودًا، وضع جبهته بالأرض، وقوم سُجدٌ، وسُجُودُ الصلاة وهو وضع الجبهة على الأرض، وأسجد أي طاطأ رأسه وانحنى(٣).

فالسجود من شعائر العبادات البدنية العظيمة لله - عز وجل -، فعلى هذا يحرم صرف هذه العبادة لغير الله تعالى.

ويدل على ذلك الآيات الواردة في محكم كتاب الله - عز وجل -

---

(١) سورة النمل، الآية: (٢٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: (٣٧).

(٣) انظر.لسان العرب (٣/ ٢٠٤)، مختار الصحاح ص(٢٦٣)، القاموس المحيط (١/ ٣١١).

بالاستنكار والذم على من سجد للشمس أو القمر من دون الله، والنص على أن السجود لا يكون إلا لله تعالى وحده، ولا يكون لغيره، فهو عبادةٌ من العبادات البدنية لله وحده، لهذا ذم الله عز وجل قوم سبأ لصرفهم هذه العبادة للشمس من دون الله ليخالف بذلك أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أخبر الهدهد(٢) سليمان عليه السلام بعذر تغيبه، بأنه وجد مملكة سبأ(٣) تملكها امرأة، ووجد هذه المرأة وقومها يسجدون للشمس، فيعبدونها من دون الله، وهذا من تحسين الشيطان لهم، بأن حسن لهم عبادتهم وسجودهم للشمس من دون الله، ومنعهم بتزيينه ذلك العمل عن اتباع الطريق المستقيم، وهم بذلك لا يهتدون لسبيل الحق، وهو السجود لله وحده، ولا يسلكونه، فقال مستنكرًا: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾(٤) فقوله: ﴿ أَلَّا ﴾ في موضع الجزم، أي ألا يا هؤلاء

---

(١) سورة النمل، الآية: (٢٤).

(٢) الهدهد طائر معروف يشبه الحمام. لسان العرب (٣/ ٤٣٤).

(٣) نسبة لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، سميت مدينة مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، وقد كانت امرأة تملكهم اسمها بلقيس بنت شراحيل، كان أبوها ملك لأرض اليمن، وكانوا قومًا مجوسًا يعبدون الشمس.
انظر: تفسير الطبري (٩/ ٥١٠)، تفسير القرطبي (١٣/ ١٦٨).

(٤) سورة النمل، الآية: (٢٥).

اسجدوا لله تعالى)[(١)].

وقال القرطبي - رحمه الله - أيضًا في تفسير هذه الآية: (كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس، لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى، وقيل كانوا مجوسًا يعبدون الأنوار، ففي قوله ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ﴾، أي فهم لا يهتدون لأن يسجدوا لله، وقوله: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ﴾ بمعنى ألا يا هؤلاء اسجدوا، فالأمر يقتضي وجوب السجود لله - عز وجل -، وأن من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها: أن الله تعالى خصّ الهدهد من المعرفة بتوحيده، ووجوب السجود له، وإنكاره عليهم سجودهم للشمس، وإضافته للشيطان، وتزيينه لهم ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان)[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ﴾: (أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها. كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[(٣)])[(٤)].

وهذه الآية التي ذكرها ابن كثير - رحمه الله - ضمن تفسيره للآية التي

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٥١٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) سورة فصلت، الآية: (٣٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٢).

ورد فيها ذم قوم سبأ هي آيةٌ صريحة نص فيها الشارع على بطلان هذه الخصلة الجاهلية، وذلك حين نص في هذه الآية على عبودية سائر الكواكب له تعالى وحده فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيرها: (من حجج الله تعالى على خلقه الشمس والقمر، فلا تسجدوا أيها الناس لهما، فله تعالى أسجدوا، وإياه فاعبدوا دونهما، إن كنتم تعبدون الله)(٢).

وقال القرطبي - رحمه الله - في المراد من قوله تعالى: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ : (نهى عن السجود لهما)(٣).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حذر من عبادة غير الله، كالشمس والقمر في حديث رؤية الله الطويل فقال - عليه الصلاة والسلام -: «فإنكم ترون ربكم كذلك يوم القيامة» قال: فيقال: «من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فتبع الذين كان يعبدون الشمس الشمس، فيتساقطون في النار، ويتبع الذين كانوا يعبدون القمر القمر فيتساقطون في النار...»(٤) قال العلماء - رحمهم الله - عن مراد النبي ﷺ في هذا الحديث

---

(١) سورة فصلت، الآية: (٣٧).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ١١٣).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣١٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان، باب فضل السجود برقم (٨٠٦)، ص(٦٤)، =

حين نص على الشمس والقمر مع العلم أنهما داخلان مع سائر ما عُبد من دون الله: بأن المراد من التنصيص على ذكر الشمس والقمر مع دخولهما فيمن عبد من دون الله تنويهًا بذكرهما لعظم خلقهما(١).

إن السجود من العبادات البدنية، المتضمنة لغاية الخضوع والذل لله وحده، فهو المعبود بحق، فمن صرفها لغير الله فقد أشرك.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حكم هذه الخصلة فقال: (إن السجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لغاية الخضوع والذل، وكل مخلوق قد تواضع لعظمة الله، وذل لعزته، واستسلم لقدرته)(٢).

وقال أيضًا في موضع آخر: (إن القيام والقعود والسجود حق للواحد المعبود خالق السموات والأرض، وما كان حقًا خالصًا لله لم يكن لغيره فيه نصيب، لهذا لم يصلح السجود إلا لله، فمن سجد لغيره فهو مشرك، ومن لم

=

وفي كتاب الرقاق. باب الصراط جسر جهنم برقم (٦٥٧٣)، ص(٥٥٠)، وفي كتاب التوحيد باب قوله تعالى: (وجوه يؤمئذ ناظرة إلى ربها ناظرة) برقم (٧٤٣٧)، ص(٦١٩)، بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية برقم (٤٥١)، ص(٧٠٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) انظر. فتح الباري (١١/ ٤٤٨)، عمدة القارئ: لبدر الدين محمود العيني. دار إحياء التراث. بيروت، (٢٣/ ١٣٣).

(٢) جامع الرسائل (١/ ٢٧).

يسجد له فهو مستكبر عن عبادته)[١].

وقال ابن قيم الجوزية عن حكم هذه الخصلة: (إن من أبواب الشرك، الشرك في الأفعال، كالسجود لغير الله، إذ أن السجود من خصائص الإلهية، فمن سجد لغير الله فقد شبه الخالق بالمخلوق)[٢].

كما قال أحد العلماء أيضًا عن حكم هذه الخصلة: (لقد جعل الله للعبادة له أنواعًا: اعتقادية، ولفظية، وبدنية، فالعبادات البدنية كالقيام والركوع، والسجود، ... فكلها لا تكون إلا لله - عز وجل -، ومن فعل ذلك لمخلوق حي أو ميت أو جماد أو غيره، فهو شرك في العبادة، وصار عابدًا لهذا المخلوق)[٣].

وقد قال الفقهاء أيضًا عن حكمها: (خمسة لغير الله شرك: الركوع، والسجود، والنذر، والذبح واليمين)[٤].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - عن ذلك: (ومعلوم أن من أقبح وأفحش أحوال الإنسان أن يشرك بالله، والتي منها السجود

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية (٢٧/ ٩٣)، (٢٣/ ١٤٥).

(٢) انظر الجواب الكافي (١٩٩، ٢٠٣) بتصرف.

(٣) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد. للمحدث محمد بن إسماعيل الصنعاني. دار الوطن للنشر والإعلام. مطابع الازدهار الحديثة، ص(٦ - ٩) بتصرف.

(٤) عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين. جمع عبد الله بن سعد الغامدي العبدلي. تقديم الشيخ عبد العزيز بن باز. دار الطرفين (ط١)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م). الرسالة الأولى الانتصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين. لمفتي الديار النجدية في القرن الماضي. عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين، ص(٤٢).

للشمس أو القمر)[١].

لهذا أمر الشارع بمخالفة أهل الجاهلية حين نهى عن السجود لغيره، وجعلها عبادةً خاصة له، كذلك حرص النبي ﷺ في هديه على مخالفة أهل الجاهلية حين حذر أمته من الشرك، ودعا إلى عبادة الله وحده وليس هذا وحسب، إنما عمل على سد الباب أمام جميع الذرائع الموصلة إلى الشرك. كنهيه ﷺ أمته عن تأخير الصلوات المكتوبة، والنافلة إلى وقت طلوع الشمس وغروبها، حرصًا منه عليه الصلاة والسلام على عدم مشابهة الكفار في عبادتهم، لأنه الوقت الذي يسجد فيه الكفار للشمس كما في قوله ﷺ: «لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها» [٢].

وقد أجمعت الأمة على كراهة صلاة لا سبب لها في هذه الأوقات، واتفقوا على جواز الفرائض المؤداة فيها[٣].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كلامًا عن ذلك، فقال:

---

(١) عقيدة الموحدين. الرسالة الثانية. مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب. المتوفى سنة ١٢٠٦هـ، ص(٧٧) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة. باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس بمثله، برقم (٥٨٢)، ص(٤٧)، وفي باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس بنحوه، برقم (٥٨٥)، ص(٤٨) وفي كتاب التهجد، باب مسجد قباء بنحوه (١١٩٢)، ص(٩٢) وفي كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده بنحوه، وزيادة في آخره برقم (٣٢٧٣)، ص(٢٦٥)، أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وفضائل القرآن، باب الأوقات المنهي عن الصلاة فيها برقم (١٩٢٤) بنحوه برقم (١٩٢٥) بمثله وزيادة في آخره، ص(٨٠٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج للنووي (٦٦٧).

(نهى نبينا ﷺ عن الشرك دقه وجله، حتى أنه تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة، فتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع، وتارة عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب، ويذكر أنها إذا طلعت بين قرني الشيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، فنهى عن الصلاة في ذلك الوقت لما فيه من مشابهة صورة المشركين كونهم يسجدون للشمس في هذا الوقت، فكان النهي عن المشابهة في الصورة لئلا يفضي إلى المشاركة في القصد، فإذا قصد العبد السجود للشمس وقت طلوعها ووقت غروبها كان أحق بالنهي والذم والعقاب، ولهذا يكون كافرًا)[(١)].

وقال ابن القيم - رحمه الله - أيضًا: (نهى - عليه الصلاة والسلام - عن الصلاة في تلك الأوقات سدًا لذريعة الشرك، لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس، ودعائها، وسؤالها، كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب، فلو صلى الموحدون لله - عز وجل - في تلك الساعة، صار في ذلك نوع مشابهة للمشركين، وقد جاء النهي لفطم النفوس عن مشابهة الكفار حتى في وقت العبادة)[(٢)].

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية (٢٧/ ٩٤)،للإستزاده انظر. الرد على الاخنائي. لابن تيمية. المطبعة السلفية. مصر ص(٦١)، الجواب الباهر في زوار المقابر. لابن تيمية. المطبعة السلفية. مصر، ص(٦٣)، الجواب الكافي ص(١٩٩)، مفتاح دار السعادة : لابن قيم الجوزية. دار العهد الجديد للطباعة. مصر، (٢/ ١٠٣).

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. لابن تيمية. مطبعة معارف لاهور، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص(٢٢، ٢٣)،للإستزادة انظر. الفتاوى (١/ ٦٤) (٢٣/ ٢١٤) (٢٧/ ٩٤، ٤٠٥)، الجواب =

ولا يخفى على صاحب البصيرة أن السجود للشمس أو القمر أو غيرهما من الكواكب إنما هـو ضلال مبين ناتجٌ عن عدم تقدير العبد لربه التقدير الحـق، وقد قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[1]. فإذا كان هذا حال السموات والأرض التي هي أعظم المخلوقات، في يمين الله، فكيف هو حال الشمس والقمر!!

أخيرًا فبعد أن تبين لنا أن السجود من العبادات البدنية، والتي تُعد من الخصائص الإلهية التي يحرم صرفها لغير الله تعالى، إلا أن هناك من خالفوا وعُرف عنهم السجود للشمس، وهم المشركون من اليونان والروم وغيرهم، وعبدة الشمس في الهند، ويطلق عليهم الدينكينية[2] أي عباد الشمس، وعبدة القمر في الهند، ويطلق عليهم الجندريكنسية[3]، وأصل

= الصحيح (١/ ١٢٠)، اقتضاء الصراط المستقيم: لابن تيمية. مكتبة دار الإيمان. المنصورة. مصر (ط١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، (١٣٦)، الجواب الكافي (١٩٩)، مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٣)، إغاثة اللهفان: لابن قيم الجوزية. مراجعة: محمد الفاضلي. المكتبة العصرية. بيروت، (ط٢)، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، (١/ ١٦٥)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص(٥٩).

(١) سورة الزمر، الآية: (٦٧).

(٢) هي فرقة تزعم أن الشمس ملك من الملائكة. ولها نفس وعقل، ومنها نـور الكواكـب. ضـياء العالم، اتخذوا لها صنمًا. له بيت وسدنه. انظر: الملل والنحل (٢٥١)، إغاثـة اللهفـان (٢/ ١٧٤، ١٧٥).

(٣) هي فرقة زعمت أن القمر ملك من الملائكة، وإليها تدبير العالم السفلي والأمور الحزينة، اتخـذوا له صنمًا على شكل عجل يجره أربعة يسجدون له، ويصومون ولا يفطرون حتى يطلـع القمـر، =

هذه المذاهب يعود لمشركي الصابئة[١].

قال شيخ الإسلام عن هؤلاء: (أن أولئك المشركين من اليونان والروم وغيرهم كانوا يسجدون للشمس والأوثان)[٢].

وقال الإمام الألوسي – رحمه الله - عن ذلك: (إن من مسائل أهل الجاهلية، سواء كانوا أميين أو كتابيين، قد فرقوا دينهم، وتغايروا في الاعتقاد، فكان عباد الأصنام كل قوم لهم صنم يدينون له، ولهم شرائع مختلفة في عبادتها، فمنهم من كان يعبد كوكبًا، ومنهم من كان يعبد الشمس)[٣].

كما أن هناك من المخالفين من كان يرى أن السجود للشمس أو القمر

= فيأخذون باللعب والرقص بين يدي القمر والصنم، انظر: الملل والنحل (٢٥١)، تلبيس إبليس: لأبي الفرج بن الجوزي البغدادي. دراسة وتحقيق: د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان، (ط٢)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (٧٨)، إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٤، ٤٧٥)، شرح كتاب التوحيد. سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. مكتبة الرياض الحديثة. الرياض (٣٨٧)، معارج القبول (٢/ ٤٧٠).

(١) الصابئة هم عبدة الكواكب، يقولون بالحاجة إلى متوسط لمعرفة الله روحاني لا جسماني، إما كوكب أو ملك، فأقاموا تماثيل وعبدوها. الملل والنحل (٥).

(٢) منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية: لابن تيمية. المطبعة الكبرى الأميرية. بولاق. مصر، (ط١)، ١٣٢١هـ، (١/ ٨٧).

(٣) مسائل الجاهلية التي خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية. محمد بن عبد الوهاب. ت. محمود شكري الألوسي. الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة، ١٣٩٦هـ، ص(١٠٥).

أو الصنم ليس بكفر في نفسه، ولكنه علامة، وقد قال بهذا فرقة التومنية[(١)] أتباع أبي معاذ التومني، وهذه الفرقة هي أحد فرق المرجئة[(٢)]، بل هي مرجئة خالصة، ومعلوم بطلان قولهم هذا بنصوص الآيات السابقة معنا.

* * *

(١) أتباع معاذ التومني يزعمون أن الإيمان هو ماعصم من الكفر، وهم أحد فرق المرجئة، بل هي المرجئة الخالصة، ويرون أن الإيمان اسم لخصال إذا تركها التارك كفر، وهي المعرفة، والمحبة، والتصديق، والإخلاص، والإقرار بما جاء به الرسول ﷺ، وإن الإيمان تصديق بالقلب واللسان معًا، والكفر هو الجحود، أما السجود للشمس، أو القمر، أو الصنم، فليس كفرًا بنفسه، ولكنه علامة كفر. انظر: الملل والنحل (٦٢)، الفرق بين الفرق للبغدادي. دار الآفاق الجديدة. بيروت، (ط٢)، ١٩٧٧م، ص(٩٢)، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية: لطاهر الإسفراييني. ت: كمال يوسف الحوت. عالم الكتب. لبنان (ط١)، ١٤٠٣هـ، ص(٩٨)، المواقف لعضد الدين الإيجي. ت: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل. بيروت. (ط١)، ١٤١٧هـ (٣/ ٧٠٦).

(٢) أول من أحدث القول بالقدر والإرجاء هو غيلان الدمشقي، وهي فرقة ترى بتأخير العمل عن النية والقصد، وترى أن الإيمان لا تضر معه المعصية، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنه لا يدخل النار المؤمن، ويرون بتأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة. الملل والنحل (٦٠، ٦١).

المسألة الثامنة

تأمير النساء لقوله في الحديث الصحيح لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة ملكهم: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»(١)

يذكر المؤلف - رحمه الله - في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية التي ظهرت عند الفرس، والتي انتقلت عبر العصور لتظهر جليةً في عصرنا الحاضر، وهي تأمير النساء، وتوليتهن المهام الخاصة بالرجال، من الإمارة، والحكم، والوزارة ونحوها، مما ينادى به في هذا العصر، ومما عُمل به في الكثير من البلدان.

فالتأمير في اللغة: تولية الإمارة، أي جعله أميرًا(٢).

ولوا من الولاية: والوِلاية لغة: بالكسر بمنـزلة الإمارة والسلطان، يقال أوليته الأمر، وليته إياه. يقال تولى العمل أي تقلده(٣). وهو من يلي القوم بالتدبير والأمر والنهي(٤).

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب كتاب النبي × إلى كسرى وقيصر برقم (٤٤٢٥) ص(٩١٣)، وأخرجه في كتاب الفتن، باب رقم (١٨) برقم (٧٠٩٩)، وكلاهما بلفظه.

(٢) انظر.لسان العرب (٤/ ٣١)، مختار الصحاح، ص(٣٢).

(٣) انظر.لسان العرب (١٥/ ٤٠٧)، مختار الصحاح، ص(٦٥٣)، القاموس المحيط (٤/ ٤٠٤).

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون: للتهانوي الحنفي، (٤/ ٣٨٩).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالتحذير منها، والدليل على ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: «لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»، قال القاضي أبو بكر(١) بن العربي في بيان المراد من هذا الحديث (هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه. أما ما روي عن عمر أنه قدّم امرأة على حسبة السوق(٢) ولم يصح، فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث)(٣).

وقد استشهد الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - بحديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «لن يفلح...» في معرض تفسيره لآية القوامة الواردة في سورة النساء، فقال - رحمه الله -: (قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾(٤) أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها، وكبيرها، والحاكم

(١) هو: أبو بكر العربي محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي ولد سنة (٤٦٨هـ)، وهو الإمام الحافظ أحد الأعلام، وعالم أهل الأندلس ومسندهم في نشر العلم والتفسير والحديث. من مصنفاته: كتاب أحكام القرآن، المقتبس من القراءات، توفي عام (٥٤٣هـ). انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٥٢)، العبر في خبر من غبر (٤/ ١٢٥)، كشف الظنون (٢/ ١٧٩٢).

(٢) المراد بالحسبة قمع المخالفين، وإزالة مخالفاتهم سواء في الغش، أو أخذ مال الغير ونحو ذلك. انظر: تفسير القرطبي، (١٣/ ١٦٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي. لأبي بكر العربي. ت: محمد عبد القادر عطا. دار الفكر للطباعة. لبنان، (٣/ ٤٨٢).

(٤) سورة النساء، الآية: (٣٤).

عليها، ومؤدبها إذا اعوجت ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[(١)] لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة، لهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم، لقول الرسول ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وكذا منصب القضاء وغير ذلك)[(٢)].

إن استشهاد ابن كثير – رحمه الله – بحديث النبي ﷺ السابق في معرض تفسيره يعني أن آية القوامة شاهد من الشواهد الدالة ضمنًا على مخالفة الشارع لأهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك لنص الشارع في هذه الآية على الحكمة في تولي الرجال للقوامة على النساء، وقد بيّن المفسرون ذلك في معرض تفسيرهم لهذه الآية.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: (أي يقومون بالنفقة عليهن، والذب عنهن، وأيضًا فإن فيهم الحكام، والأمراء، ومن يغزو، وليس ذلك في النساء)[(٣)].

وقال الشيخ ابن سعدي[(٤)] – رحمه الله – في تفسيره: (قوامون عليهن

---

(١) سورة النساء، الآية: (٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٢).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ١٦٢).

(٤) هو: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن حمد آل سعدي، ينتهي نسبه إلى آل مفيد، أحد قبائل بني تميم. من إحدى قرى قفار، إحدى قرى حائل. ولد عام ١٣٠٧هـ نشأ يتيم الأب والأم، وكان والده واعظًا وإمامًا، نشأ نشأة صالحة، عرف عنه الصلاح والتقى، حفظ القرآن وعمره ١٢ سنة. من مصنفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والدلائل القرآنية في العلوم العصرية، والمواهب الربانية، وانتصار الحق، ومنظومة في السير إلى الله. توفي سنة ١٣٧٦هـ.
=

بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفاسد والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضا بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات، كالجهاد، والأعياد، والجُمع، وبما خصهم الله به من العقل، والرزانة، والصبر، والجلد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال، ويتميزون عن النساء)[١].

لهذا فقد حذر كافة علماء أهل السنة والجماعة من هذه الخصلة، واستدلوا على بطلانها، والقطع بعدم جواز تولية المرأة الحكم في منصب الولاية العظمى التي تُعَنى بحراسة الدين، وسياسة الدنيا، وفي عدم جواز تولي المرأة لمنصب القضاء، وإمامة المصلين من الرجال بحديث النبي ﷺ السابق.

ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حين نص على التحذير من طاعة النساء في مسألة أعياد الكفار فقال : (وليحذر العاقل من

=

انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، (٣/ ٢١٨).

(١) تفسير ابن سعدى. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر بن سعدي. ت: عبد الرحمن اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان، (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص(١٧٦، ١٧٧).

طاعة النساء في ذلك؟... فإن أكثر ما يفسد الملك، والدول طاعة النساء، قال ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[(١)] فالمتأمل لكلام الشيخ - رحمه الله- يجد أنه قد حذر وبشده من طاعة النساء في مسألة أعياد الكفار فكيف بطاعتهن في مسألة أعم من الأعياد وهي الولاية والحكم.

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية عن حديث النبي ﷺ السابق: (إنما ورد هذا الحديث في الولاية والإمامة العظمى والقضاء)[(٢)].

وقال الإمام ابن حجر[(٣)] – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث نقلاً عن أحد العلماء:(في هذا الحديث إن المرأة لا تلي الإمارة، ولا القضاء، ولا تلي العقد على غيرها)[(٤)].

وقال الإمام ابن العربي – رحمه الله – في بيان الحكمة في عدم جواز تولية المرأة للحكم، فقال: (إن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، (٢٢٤).

(٢) إعلام الموقعين: لابن قيم الجوزية. ت: محمد يحيى بن عبد الحميد. دار الفكر. بيروت، (ط٢)، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، (٢/ ٣٥٧).

(٣) هو: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر، نسبة إلى آل حجر، ولد عام ٧٧٣هـ، مصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، حفظ القرآن صغيرًا، كان علامة العلماء، وحجة الأعلام، ومحيي السنة. من تصانيفه: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تعجيل المنفعة، تهذيب التهذيب. توفي عام (٨٥٢هـ).
انظر: شذرات الذهب (٧/ ٢٧٢)، أبجد العلوم لصديق بن حسن القنوجي. ت: عبد الجبار الزكار. دار الكتب العلمية. بيروت، ١٩٧٨م، (٣/ ٩٥).

(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ١٢٨)، صحيح البخاري بشرح الكرماني، (١٦/ ٢٣٢).

تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها، وكلامها، وإن كانت متجالة-الكبيرة في السن- برزة[١] لم يجمعها والرجال مجلس واحد، تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم، ولن يفلح قط من تصور هذا، ولا من اعتقده)[٢]. كما قال في موضع آخر: (إن الإمامة الكبرى الغرض منها حفظ الثغور، وتدبير الأمور، وحماية البَيْضة، وقبض الخراج، ورده إلى مستحقه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل)[٣].

وقد ذكر الإمام النسائي[٤] هذا الحديث في سننه الكبرى في ترك استعمال النساء على الحكم.

كما ذكره الإمام البيهقي في سننه الكبرى تحت باب لا يولي الوالي امرأة، ولا فاسقًا ولا جاهلاً أمر القضاء[٥].

كذلك ذكره القرطبي – رحمه الله – عند بيانه الشروط اللازم توافرها في من يؤم المصلين، فقال عن ذلك: قال علماؤنا: لا تصح إمامتها للرجال

---

(١) البرزة: هي المرأة إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم. انظر: لسان العرب (٥/ ٣١٠).

(٢) أحكام القرآن: لابن العربي، (٣/ ٣٧٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) هو: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، ولد سنة ٢٢٥هـ، كان عابدًا عالمًا نبيلاً، من مصنفاته: السنن الكبرى، والسنن الصغرى. توفي عام ٣٠٣هـ. انظر: الكامل في التاريخ، (٦/ ٤٩٠)، العبر في خبر من غبر، (٢/ ١٢٩)، شذرات الذهب، (٢/ ٢٣٩).

(٥) سنن البيهقي الكبرى، (١٠/ ١١٧).

ولا للنساء، وقيل يجوز إمامتها للنساء، والشافعي[(١)] يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة[(٢)].

وقال أحد العلماء أيضًا: (فلا يأتم رجل بامرأة، ولا يصح اقتداء الرجال بالمرأة، لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾[(٣)]،.... ولحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» لأن المرأة عورة، وفي إمامتها بالرجال فتنة)[(٤)].

وقال الخطيب الشربيني[(٥)] عن ذلك: (لا تصح قدوة ذكر بامرأة...، لأن الأنثى ناقصة عن الرجل...، لحديث: «لن يفلح...»)[(٦)].

وعلى هذا فتصح إمامة المرأة للنساء دون الرجال.

---

(١) هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد سنة (١٥٠هـ). قال عنه الإمام أحمد بن حنبل لإسحاق ابن راهويه: تعال أريك رجلاً لم تر عينك مثله، قال إسحاق: فأقامني عند الشافعي. من مصنفاته: الأم، الرسالة.
انظر: الكامل في التايخ (٥/ ٤٥٣)، العبر في خبر من غبر (١/ ٣٤٣)، شذرات الذهب (٢/ ١٠).

(٢) انظر.تفسير القرطبي (٢/ ٣٩٨).

(٣) سورة النساء، الآية: (٣٤).

(٤) كفاية الأخيار: لتقي الدين أبي بكر الدمشقي. ت: علي عبد الحميد بلطحي، ومحمد وهبي. دار الخير. دمشق، (ط١)، ١٩٩٤م، ص(١٣٢).

(٥) هو: شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، شارح كتاب الإقناع لشهاب الدين الأصفهاني المسمى بغاية الاختصار، وشرح كتاب المنهاج. توفي سنة (٩٧٧هـ). انظر: كشف الظنون (٢/ ١٨٧١).

(٦) مغني المحتاج: لمحمد الخطيب الشربيني، دار الفكر، بيروت، (١/ ٢٤٠).

كما قال الخطيب الشربيني في موضعٍ آخر عن ولاية القضاء: (ويشترط لتولية القاضي أن يكون ذكرًا، فلا تولى امرأة للحديث «لن يفلح...» لأن النساء ناقصات عقل ودين)(١).

قال العلماء في بيان المراد من قول (ناقصات عقل ودين): أما نقص العقل فلأن شهادتها نصف شهادة الرجل؛ لأن النساء قليلات الضبط، وأما نقص الدين فلتركهن الصلاة والصوم في زمن الحيض(٢).

وقال الإمام الشوكاني(٣) - رحمه الله - كلامًا نفيسًا في بيان العلة في عدم جواز تولية المرأة للحكم، فقال عن ذلك: (قد وصف رسول الله ﷺ النساء بأنهن ناقصات عقل ودين -في قوله ﷺ: «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم قلن: بلى، قال: فذلك نقصان دينها»(٤)- ومن كان بهذه المنزلة لا

---

(١) مغني المحتاج، (٤/ ١٢٩).

(٢) انظر.المنهاج، (١٧٧)بتصرف.

(٣) هو: محمد بن علي الشوكاني الصنعاني اليمني. توفي سنة ١٢٥٥هـ صاحب كتاب فتح البيان، وفتح القدير، وأدب الطلب. انظر: أبجد العلوم الفنتوجي، (٣/ ١٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحيض. باب ترك الحائض الصوم برقم (٣٠٤)، ص(٢٦) بمثله، وفي كتاب الزكاة على الأقارب برقم (١٤٦٢)، ص(١١٥) بنحوه. وفي كتاب الصوم، باب الحائض تترك الصلاة والصوم برقم (١٩٥١)، ص(١٥٢) بنحوه، وفي كتاب الشهادات. باب شهادة النساء برقم (٢٦٥٨)، ص(٢١٠) بنحوه، وأخرجه مسلم في صحيحه =

يصلح لتولي الحكم بين عباد الله، وفصل خصوماتهم بما تقتضيه الشريعة المطهرة، ويوجبه العدل، فليس بعد نقصان العقل والدين شيء، ولا يقاس القضاء على الرواية، فإنها تروي ما بلغها، وتحكي ما قيل لها، وأما القضاء فهو يحتاج إلى اجتهاد أصحاب الرأي، وكمال الإدراك، والتبصر في الأمور، والتفهم لحقائقها، وليست المرأة في ورد ولا صدر من ذلك، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث: (لن يفلح قوم...)، فليس بعد نفي الفلاح شيء من الوعيد الشديد، ورأس الأمور هو القضاء بحكم الله - عز وجل -، فدخولها فيها دخولاً أوليًا)[١].

كما قال أيضًا - رحمه الله - في ذكره لشروط الأئمة. (أما كونه ذكرًا فوجهه أن النساء ناقصات عقل ودين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كان كذلك لا يصلح لتدبير أمر الأمة، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه> لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة<)[٢].

وقال بعض أهل العلم أيضًا في بيان الحكمة بعدم الجواز: لأن المرأة

= في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات. باب إطلاق لفظة الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق برقم (٢٤١)، ص(٦٩٢) بنحوه. موسوعة الحديث الشريف.

(١) السيل الجرار. لمحمد بن علي الشوكاني. ت. محمد بن إبراهيم زايد. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٠٥هـ، باب القضاء (٤/ ٢٧٣).

(٢) المرجع السابق (٤/ ٥٠٥).

غير أهل لحضور مجتمع الرجال، ومحافل الخصوم[١].

ويتضح من جميع هذه الأقوال أن الذكورية شرط في الولاية العظمى والقضاء والتزوج وغيرها إن الذكورية شرطٌ من الشروط اللازم توفرها فيمن يتولى منصب الإمامة العظمى وهو من يقوم بخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسية الدنيا، وفيمن يتولى مهمة إمامة المصلين، ومهمة القضاء والفصل بين الخصومات.

قال الإمام الشوكاني – رحمه الله – في اشتراط الذكورية في مسألة التأمير وعن عدم جواز تأمير المرأة: (قول النبي ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم إمرأة» فيه دليل على أن المرأة ليست من أهل الولايات ولا يحل لقوم توليتها لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب. قال في الفتح وقد اتفقوا على اشتراط الذكورة في القاضي إلا عند الحنفية واستثنوا الحدود، وأطلق ابن جرير ويؤيد ما قاله الجمهور إن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي ورأي المرأة ناقص ولا سيما في محافل الرجال)[٢].

وقال أحد العلماء أيضًا: (فيه دليلٌ على عدم جواز تولية المرأة شيئًا من الأحكام العامة بين المسلمين... إخبار عن عدم فلاح من ولى أمرهم امرأة.

---

(١) انظر: الكافي في فقه ابن حنبل. لعبد الله بن قدامة المقدسي. المكتب الإسلامي. بيروت (٤/ ٤٣٣)، المبدع. لإبراهيم بن محمد بن عبد الله الحنبلي أبو إسحاق. المكتب الإسلامي. بيروت. ١٤٠٠هـ (١٠/ ١٩)، كشاف القناع. لمنصور يونس البهوتي. ت. هلال بن مصلحي مصطفى هلال. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ، (٦/ ٢٩٤).

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، (٩/ ١٦٨).

وهم منهيون عن جلب عدم الفلاح لأنفسهم، مأمورن باكتساب ما يكون سببًا للفلاح)[١].

وقال آخر: (في شروط الإمام الأعظم، وهو القائم بخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا...، كونه ذكرًا؛ ليتفرغ ويتمكن من مخالطة الرجال، فلا تصح ولاية امرأة لما في الصحيح: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»)[٢].

وبعد هذا فإن الشارع قد ولى المرأة ولايةً عظيمة - على لسان رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئولٌ عنهم، والمرأة راعيةٌ على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته»[٣]. ليخالف بذلك هذه الخصلة الجاهلية، وما يدعو إليه الجهلاء قديمًا وحديثًا، فولاية المرأة المشروعة لها تكون بإدارة شئون بيتها، وتربية أبنائها تربية صالحة، وبحسن تبعلها لزوجها، فهذه الولاية من أسمى الولايات في حق المرأة،

---

(١) سبل السلام، (٤/ ١٩٠).

(٢) مغني المحتاج، ص(١/ ٢٤٠)، وانظر: حاشية البجيرمي. لسليمان البجيرمي. المكتبة الإسلامية. ديار بكر. تركيا، ص(٤/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة في باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم. برقم (٤٧٢٤)، ص(١٠٠٦). موسوعة الحديث الشريف.

لأنها ولايةٌ تتناسب مع فطرتها وطبيعتها. فمن طالب بولاية المرأة على الإمارة العظمى، أو القضاء، أو الإمامة، فهو مطالب لها بالسفور، والاحتكاك بالرجال، والظهور، وهذا مخالفةٌ صريحة لقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[١].

ومعلوم أن ديننا الإسلامي قد قرر حقوق المرأة كاملةً غير منقوصة، ولو كان من حقوقها ولاية الإمارة، أو القضاء، أو الإمامة ونحوها من الولايات اللازم على إثرها الظهور للرجال، والاحتكاك بهم، لوجد من نساء الرعيل الأول نساء الرسول ﷺ، أو نساء الصحابة، من قامت بشيء من هذه الولايات، إلا أننا لم نجد شيئًا من هذا البتة.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز[٢] - رحمه الله - عن ذلك: (لقد حرص الإسلام أن يبعد المرأة عن جميع ما يخالف طبيعتها، فمنعها من تولى الولاية العامة، كرئاسة الدولة، والقضاء، وجميع ما فيه مسئوليات عامة لقوله ﷺ:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٣).

(٢) هو: الإمام العلامة المجدد عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله آل باز، ولد في الرياض ١٣٣٠هـ، وكان بصيرًا في أول طلبه للعلم، فقد بصره وعمره عشرون عامًا، حفظ القرآن قبل بلوغه، كان من شيوخه محمد ابن عبد اللطيف آل الشيخ، وصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وسعد بن عتيق، كان متواضعًا حليمًا، كريمًا يعلوه السكينة، وصاحب ذاكرة قوية، من مؤلفاته: الفوائد الجلية في المباحث الفرضية، التحذير من البدع، العقيدة الصحيحة وما يضادها توفي عام ١٤٢٠هـ. انظر: كتاب جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - رواية الشيخ محمد بن موسى الموسى. إعداد: محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة. الرياض، (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

«لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، ففتح الباب لها بأن تنـزل إلى ميدان الرجال يعتبر مخالفًا لما يريده الإسلام من سعادتها واستقرارها، فالإسلام يمنع تجنيد المرأة في غير ميدانها الأصيل. والخلاصة أن استقرار المرأة في بيتها، والقيام بما يجب عليها من تدبيره بعد القيام بأمور دينها، هو الأمر الذي يناسب طبيعتها، وفطرتها، وكيانها، وفيه صلاحها، وصلاح المجتمع، وصلاح الناشئة، فإن كان عندها فضل ففي الإمكان تشغيلها في الميادين النسائية، كالتعليم للنساء، والتطبيب والتمريض لهن)[1]. أ هـ.

إلا أن هذه الخصلة تتجلى صريحة في هذا الزمن حين نلتفت يمنةً ويسرة فنجد أن الكثير من بلدان العالم قد ولوا نساءهم مناصب للحكم، ومناصب وزارية، ومناصب القضاء، معلنين بذلك عن انتكاس فطرتهم، ومخالفتهم الصريحة لها، ولكن تندى القلوب حين يطرق أسماعنا ما تنادي به بعض نساء المسلمين في الكثير من البلاد الإسلامية والعربية، من المطالبة بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها في تولي مناصب وزارية، والإدلاء بالأصوات في الانتخابات ونحوها... هذا وأسأل الله لي ولهن الهداية والسداد، وأن يبصرنا الحق، ويرزقنا اتباعه.

* * *

---

(١) انظر: مجلة المجتمع، العدد (٨٩٠)، بتاريخ خمسة لربيع الثاني من العام ١٤١٩هـ ضمن مقال بعنوان: موقف الإسلام من تولي المرأة للولايات العامة، والرد على من قال بجواز ذلك، وكتاب التبرج وخطره: للشيخ عبد العزيز ابن باز – رحمه الله –، ص(٣٣).

المسألة التاسعة

التشاؤم بالرسل وأتباعهم كقول قوم صالح ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[١] الآية

يبين المؤلف - رحمه الله - أن من خصال أهل الجاهلية، سواء كانوا أميين أو كتابيين، التشاؤم بخير الخلق وهم الرسل، وأتباعهم المؤمنين.

والمراد بالتشاؤم هو التطير، والتطير في اللغة: مصدر تطير طيرة، وهو اسم الطيرة، وهو الحظ، يقال عند العرب: الطائر الحظ، طائرهم: حظهم وبختهم، وطائر الإنسان عمله الذي قلدّه، وقيل: رزقه، وقيل: الحظ من الخير والشر، يقال ميمون طائره أي مبارك حظُه، وقيل الطيرة هو ما يتشاءم به من الفأل الرديء، والفرق بين الطيرة والتطير أن التطير هو الظن السيئ، والطيرة هو الفعل المترتب عليه.

وقد كان التطير قديمًا عند العرب بالسوانح[٢]، والبوارح[٣] من الظباء والطير وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع، وأبطله

---

(١) سورة النمل، الآية: (٤٧).

(٢) هو: ما مر عن اليمين من الطيور أو الوعول والظباء، يسمى عند العرب سانحًا. انظر: السبك الفريد شرح كتاب التوحيد. لمحمد بن عبد الوهاب، شرح الشيخ عبد الله بن جبرين. دار الوطن. الرياض (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م (٢/ ٦٩).

(٣) هو ما مر عن الشمال من الطيور أو الوعول والظباء يسمى عند العرب بارحًا. انظر: المرجع السابق.

ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع، ولا دفع ضرٍ[١].

والتطير بالأنبياء والرسل وأتباعهم هو ديدنٌ لكل مستكبرٍ عن قبول الحق، فقد بين الله تعالى في كتابه تطير أهل الجاهلية بالأنبياء والصالحين، فقال تعالى مخبرًا عن قوم صالح - عليه السلام - أنهم قالوا: ﴿ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ ﴾[٢].

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحـدًا منهم سـوء إلا قالوا: هـذا من قبل صالح وأصحابه)[٣].

وقال تعالى – مخبرًا عن تطير فرعون وآله بموسى عليه السلام: - ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾[٤].

قال ابن جرير - رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (﴿ يَطَّيَّرُواْ ﴾ أي يتشاءموا بهم، ويقولوا ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا والرخاء مذ جاء موسى - عليه السلام -)[٥].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله – أيضًا في تفسيرها: (أي ما أصابهم

---

(١) انظر.لسان العرب (٤/ ٥١١، ٥١٢)، مختار الصحاح، ص(٣٦٤)، فتح الباري، (١٠/ ٢١٢)، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، (٣/ ٩٩١).

(٢) سورة النمل، الآية: (٤٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٨).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٣١).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٣١).

من جدب وقحط فبسبب بموسى وأتباعه، وما جاءوا به)[١].

وقال تعالى مخبرًا عن تطير أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون برسلهم: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ ﴾[٢].

قال ابن كثير مفسرًا هذه الآية: (أي: تشاءمنا منكم، فلم نر على وجوهكم خيرًا)[٣].

ثم قال تعالى مخبرًا عن تطير قريش بالنبي محمد ﷺ وتشاؤمهم به: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ ﴾[٤]. قال المفسرون في تفسير هذه الآية: أي: إذا حل بهم العافية والرخاء قالوا نحن أحق بها، وإن أصابهم بلاء وعقوبة قالوا: هذا بشؤمك[٥].

وقد خالف هدى رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فنهى عن التطير قائلاً: «لا عدوى، ولا طيرة... الحديث»[٦]، وليس هذا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠).

(٢) سورة يس، الآية: (١٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨).

(٤) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٥) انظر.تفسير الطبري (٤/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٨)، معارج القبول، (٣/ ٩٩١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الطب. باب لاهامة برقم (٥٧٥٧)، ص(٤٩٢) وفي باب الجذام برقم (٥٧٠٧) وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حضر لأنواء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح برقم (٥٧٨٩) وبرقم (٥٧٩٥)، ص(١٠٧٢)، موسوعة الحديث الشريف.

وحسب؛ بل وشدد في النهي عنها حين نص على أنها شرك، وقال: «الطيرة شرك، ولكن الله يذهبه بالتوكل»(١).

وقد عدّ النبي ﷺ الطيرة من الشرك نظرًا لمنافاتها للتوحيد من وجهين(٢):

أولاً: أن المتطير قطع توكله على الله، واعتمد على غيره.

ثانيًا: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، فأي رابطة بين ما تطير به، وبين ما يحصل له وهذا لاشك أنه يخل بالتوحيد وينافيه؛ ذلك لأن المتطير لا يخلو من إحدى حالين:

أ - إما أن يحجم، ويستجيب لهذه الطيرة، ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

ب - أو أن يمضي، لكن في قلق وهم، يخشى من تأثير هذا المتطير به، وكلا الأمرين نقص في التوحيد، وضرر على العبيد.

لهذا جاء الرد من الله عز وجل على تطير أهل الجاهلية بالأنبياء وأتباعهم في سياق الاستنكار والذم، لعملهم هذا، وبيان أن ما يصيبهم من

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب ما يقول الرجل إذا رأى غا برقم (٩٠٩)، ص(٢٦٨)، دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. ت. محمد حامد الفقي. دار الجيل، بيروت (ط١)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص(٣١٤، ٣١٥) للاستزادة انظر. القول المفيد على كتاب التوحيد. شرح الشيخ محمد بن عثيمين. دار العاصمة. الرياض، (ط١)، ١٤١٥هـ، (٢/ ٧٨).

رخاء وشدة إنما هو بقضاء الله وقدره، وأنه جزاء لهم على جنس أعمالهم.

فكان الرد من الله - عز وجل - كما قال العلماء - رحمهم الله -: بيان أن ما أصابهم من الجدب أو القحط أو النقص في المال ونحوه، إنما هو من عند الله تعالى، فقال تعالى ردًا على من تطيروا بموسى: ﴿ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] أي: ما لحقكم بسبب ذنوبكم، لا من عند موسى وأتباعه[2].

وكما أجاب على من تطيروا بصالح - عليه السلام - فقال تعالى لهم: ﴿ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾[3] . قال المفسرون في تفسير الآية: أي: أن ما أصابكم بسبب كفركم[4].

وأجاب الشارع أيضًا على من تطيروا بالرسول ﷺ فقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ ﴾[5].

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: أي: ما أصابهم من رخاء وشدة ونصر وظفر كل ذلك من عند الله، وبقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٣١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠).

(٣) سورة النمل، الآية: (٤٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٣١)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٨).

(٥) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٦) تفسير الطبري (٤/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٨).

كما وقد أجاب الشارع على كل من تشاءموا بالرسل فقال تعالى عن ذلك: ﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾(١) . قال المفسرون: أي: أن شؤمكم معكم وهو الكفر(٢).

وقال تعالى أيضًا عن ذلك: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلۡزَمۡنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾(٣) قال مجاهد: (أي مكتوب في ورقة عنقه شقي أو سعيد)(٤).

وقال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (فقد فسر الطائر بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم، فبين الله سبحانه أن طائرهم وهو الأعمال وجزاؤها هو من عند الله، وهو معهم فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى(وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)، وهو من الله، لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم فمن عنده، تتنزل عليهم المصائب جزاء على أعمالهم، لا بسبب الرسل وأتباعهم، وفى هذا يقال إنهم إنما يجزون بأعمالهم لا بأعمال غيرهم)(٥).

كما قال في موضعٍ آخر: (ففي هذا ردٌ على من أعرض عن طاعة

---

(١) سورة يس، الآية: (١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤٣٢)، تفسير القرطبي (١٥/ ١٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨)، التحرير والتنوير (١١/ ٣٦٣).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (١٣).

(٤) تفسير الطبري (٨/ ٤٨) للاستزادة انظر. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، (٢/ ٦٣٠).

(٥) الحسنة والسيئة لابن تيمية، ت: محمد جميل غازي، مطبعة المدني. القاهرة، (٣٥)للاستزادة انظر. الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ٢٥٣).

الرسول ﷺ لئلا تصيبه تلك المصائب، وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول، ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول، ونسبها إلى ما جاء به الرسول)[١].

وقال أيضًا: (فما جاء به الرسول ﷺ ليس سببًا لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الرسول قط سببًا لمصيبة؛ بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة، ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم، لا بما أطاعوا فيه الله ورسوله، وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم، لكن امتحنوا به، ليتخلصوا مما فيهم من الشر، ولتكفر سيئاتهم، وترفع درجاتهم)[٢].

ويقول الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله - في كتابه الإرشاد عن التطير: (فالتطير بالرسل حاصلٌ حين انتكست قلوب المشركين وعقولهم، فاعتقدوا أن الشر بمن هو مصدر الخير، وهم الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، وما ذلك إلا لتمكن الضلالة في نفوسهم، وانتكاس فطرهم، وإلا فالخير والشر كلاهما بقضاء الله وقدره، ويجريان حسب حكمته وعلمه تفضلاً أو عدلاً، فالخير تفضل منه وجزاءٌ على فعل الطاعة، والشر عدل منه وجزاءٌ وعقوبة على فعل المعصية)[٣].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ٢٥٤).

(٢) الحسنة والسيئة لابن تيمية، ص(٣٣) للاستزادة انظر. الفتاوى (١٤/ ٢٥٥).

(٣) الإرشاد إلى صحيح الأعتقاد (١٣٦).

قال أحد العلماء: أن حصول المصائب بهؤلاء المشركين يلزم أن يكون مسببًا عن أسباب فيهم لا في غيرهم، فبهم من العماية والضلالة ما يبقيهم منصرفين عن معرفة الأسباب الحقيقية، لذلك كان التطير من شعار أهل الشرك، فهو مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها[1].

فمعلوم أن وظيفة الرسل هي أداء الرسالة، لا إحداث الخير، ولا إحداث السوء، فالإنشاء والخلق والإحداث من خصائص الألوهية، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[2].

قال أحد المفسرين في تفسير هذه الآية: (أي فما أصاب العبد من سوء، فمن عند نفسه، بسبب تنكبه عن منهج الله، والإعراض عن هدايته)[3].

ولعل هذه الخصلة تبرز لدى الكثير من دعاة الضلال، ومن الجهلاء وضعفاء الإيمان الذين يتطيرون من الحق وأهله، وذلك حين يبتلون بأنواعٍ من الابتلاءات التي حلت بهم بعد أن التزموا باتباع الحق في بعض جوانب حياتهم.. فالله أسأل لي ولهم الهداية والسداد.

* * *

---

(١) انظر. التحرير والتنوير (٥/ ٦٦) بتصرف.

(٢) سورة النساء، الآية: (٧٩).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧١٩).

المسألة العاشرة

إعمال المكر في قتل الأنبياء كقوله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ ﴾[١] الآية

إن المكر صفة خفية لكل مفسد، يطوي في نفسه الضغينة والحقد، ويتربص بمن يبغض السوء، حتى يُلحق به الشر، ليُسر فؤاده بهذا الشر الذي ألحقه بمن مكر به.

فهنا يبين المؤلف - رحمه الله - بهذه المسألة، أن أهل الجاهلية سعوا إلى القضاء على الأنبياء والرسل عليهم - الصلاة والسلام -، والتخلص منهم، بكل ما استطاعوا من الوسائل، والحيل الظاهرة والباطنة، فتارة بالإخراج من الديار، والحبس والإيذاء بالقول والعمل، كالتشنيع عليهم، ودعوى أنهم كاذبون مفترون، والتشاؤم بهم وبأتباعهم، وغير ذلك.

وتارة يعمدون إلى إعمال الحيل الباطنة، من التدبير لهم في الخفاء، والمكر بهم لقتلهم.

وقد وقع في هذه الخصلة الأميون والكتابيون على حد سواء، وزاد الكتابيون على الأميين حتى عُرف عنهم بأنهم قتلة الأنبياء والرسل.

والمكر في اللغة: هو احتيال في خُفية، وقيل الاحتيال والخديعة، يقال:

---

(١) سورة النمل، الآية: (٤٩).

مَكَرَ، يمكرُ، مكرًا، ومَكَرَ به، ويقال رجُلٌ مكارٌ ومكورٌ: ماكر(١).

المكر في الاصطلاح: صرف الغير عما يقصده بحيلةٍ، وقيل: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر(٢).

فإن كان ذلك الغير مستحقًا لهذا الشر، كان مكرًا حسنًا، وإن كان هذا الغير غير مستحقٍ لهذا المكر كان المكر مذمومًا، وإن كان ذلك الشر الواصل حقًا لمظلوم، كان ذلك المكر واجبًا في الشرع على الخلق، وواجبًا من الله بحكم الوعد(٣).

فعلى هذا يظهر لنا أنواع المكر:

أحدها: مكرٌ محمود، وهو أن يتحرى بذلك فعلاً جميلاً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾(٤).

والآخر: مكرٌ مذموم، وهو أن يتحرى به فعلاً قبيحًا قال تعالى عن

---

(١) انظر. مقاييس اللغة. لابن فارس، (٥/ ٣٤٥)، لسان العرب (٥/ ١٨٣)، مختار الصحاح (٥٦٠)، القاموس المحيط (٢/ ١٤١)، موسوعة نضرة النعيم، (١١/ ٥٥٥٦).

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية. ت: حسنين مخلوف. دار المعرفة. بيروت. (ط١)، ١٣٨٦هـ (٣/ ٢١٤) للإستزاده انظر. كبائر الذنوب للذهبي (٦١)، الفوائد لابن قيم الجوزية. دار المعرفة. بيروت. (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٢١٠)، المفردات في غريب القرآن (٤٧١)، بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز. للفيروزآبادي. المكتبة العلمية. بيروت (٤/ ٥١٦)، موسوعة نضرة النعيم (١١/ ٥٥٥٦)، التعريفات للجرجاني (٢٣٩)، الإنسان بين السمو والهبوط في سورة يوسف. دراسة موضوعية. رسالة دكتوراه. د. سميرة محمد عبد الله جاليه، ١٤٢٦، ٢٠٠٥هـ (٢٧٤).

(٣) انظر. موسوعة نضرة النعيم (١١/ ٥٥٥٦)، السمو والهبوط في سورة يوسف (٢٧٤ – ٢٧٥).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٥٤).

ذلك: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾(١)، وكما في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾(٢)، وقال تعالى في الأمرين: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾(٣)(٤).

قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾(٥) قال الإمام البغوي(٦) - رحمه الله - في تفسير الآية: (والمكر من الله: هو استدراجهم من حيث لا يعلمون، والله سبحانه وتعالى يوصف بالمكر، ولا يوصف بالاحتيال، لأن المحتال من يقلب الفكرة ليهتدي إلى وجه ما يُرِيُد، والماكر الذي يستدرجُ فيأخذُ من وجه غفلة من المستدرج)(٧).

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٤٣).

(٢) سورة النمل، الآية: (٥١).

(٣) سورة النمل، الآية: (٥٠).

(٤) الفتاوى الكبرى (٣/ ٢١٤) للإستزاده انظر. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/ ٥١٦)، موسوعة نضرة النعيم (١١/ ٥٥٥٦)، الإنسان بين السمو والهبوط، (٢٧٤ - ٢٧٥).

(٥) سورة النمل، الآية: (٥٠).

(٦) هو: الإمام الحافظ المحدث أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المعروف بابن الفراء، يقال له محيي السنة، له كتاب شرح السنة، كان إمامًا في التفسير والفقه والحديث، ورعًا قانعًا. توفي سنة ٥١٦هـ بخراسان. انظر: طبقات الفقهاء: لإبراهيم بن علي الشيرازي. ت: خليل الميس، دار القلم. بيروت، (٢٥٢)، المعين في طبقات المحدثين: لمحمد بن أحمد قايماز الذهبي. ت: د. همام عبد الرحيم، دار الفرقان. عمان. الأردن، (ط١)، ١٤٠٤هـ، (١٥١)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٢٣).

(٧) شرح السنة. لإمام البغوي. ت: شعيب الأرناؤوط. وزهير الشاويش. المكتب الإسلامي، دمشق، (ط١)، ١٤٠٠هـ، (١٤/ ٣٥٤).

وقد ذكر الله تعالى في كتابه مكر الكفار بالأنبياء والرسل لقتلهم، فقال تعالى عن مكر قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[١].

قال مجاهد[٢] في تفسير الآية: (تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم جميعًا)[٣].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح - عليه السلام - من لقيه ليلا غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم)[٤].

كما قال تعالى عن مكر بني إسرائيل بعيسى - عليه السلام -: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٥].

قال الطبري في تفسير الآية: (أي: ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل

---

(١) سورة النمل، الآية: (٤٩).

(٢) مجاهد بن جبير المكي أبو الحجاج القرشي المخزومي. أحد أئمة التابعين والمفسرين، كان من أخص أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقيل مرتين، أقفه عند كل آية وأسأله عنها. مات وهو ساجد سنة ١٠٠هـ، وقيل ١٠٢هـ. انظر: المنتظم: لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي. دار صادر. بيروت. (ط١)، ١٣٥٨هـ (٧/ ٩٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٨).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٥٤).

وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحس منهم الكفر...وكان مكرهم الذي وصفهم الله به ، مُواطاة بعضهم بعضاً على الفتك بعيسى وقتله)(١).

كما قال تعالى عن مكر قوم إبراهيم عليه السلام به: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾(٢).

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي: أنهم أرادوا بنبي الله كيدًا، فكادهم الله، ونجاه من النار)(٣).

كما قال تعالى عن مكر كفار قريش بالنبي محمد ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾(٤).

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: أي: يذكر الله ائتمار وتشاور مشركي قريش لحبس النبي، أو نفيه، أو قتله عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة في دار الندوة بمكة، واتفاقهم على قتله(٥).

وقال تعالى عن مكر كفار الأقوام السابقة: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٣/ ٢٨٧).

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: (٦٨ – ٧٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٥).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٣٠).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٢٢٨)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣).

فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾(١).

قال القرطبي – رحمه الله -: (أي: من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل، وكادوا لهم وكفروا بهم)(٢).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن مكر بعض المنافقين بالرسول ﷺ: (حين قفل راجعًا من معركة تبوك إلى المدينة، فتآمروا أن يطرحوه من عقبةٍ في الطريق، فلما بلغها أرادوا سلوكها معه، فأخبر خبرهم)(٣). كذلك حين تحايل اليهود لقتله فقيل عن ذلك: (تحايل اليهود في محاولتهم لقتل النبي ﷺ في المدينة حين صعدوا فوق سطح، وأخذوا رَحاً أرادوا طرحها عليه، وهو جالس في ظل حائط، فأتاه الوحي فقام منصرفًا، وحين مكروا لقتله بالسُّم، حين جاءت يهودية(٤) إليه بشاةٍ مسمومةٍ)(٥).

وقد دلت النصوص على تحريم المكر السيئ، وعدّه من الكبائر، وأن

---

(١) سورة الرعد، الآية: (٤٢).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢٨٥).

(٣) مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد. لابن قيم الجوزية، تأليف: محمد بن عبد الوهاب. ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. (ط٦)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٢٠٣).

(٤) حديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الهبة في باب قبول الهدية من المشركين برقم (٢٦١٧) ص(٢٠٦)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الآداب، باب السم برقم (٢١٩٠)، ص(١٠٦٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. لابن تيمية (١/ ٢٧٧) للإستزاده انظر. إغاثة اللهفان(٢/ ٢٥٧).

ووباله عائدٌ على صاحبه لهذا قال تعالى متوعدًا الماكرين: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[(١)].

وفي تفسير الآية قال ابن كثير: (أي: وما يعود وبال ذلك المكر إلا عليهم أنفسهم)[(٢)].

وعن ذلك قال: محمد بن كعب القرظي[(٣)]: (ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينـزل به من مكر أو بغي أو نكـث وتصديقها في كتاب الله تعـالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[(٤)]، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾[(٥)]، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾[(٦)]، وقوله عز وجل: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[(٧)]أي: يفسد ويبطل ويظهر زيف سريرة الماكر، وما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر)[(٨)].

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٤٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٣).

(٣) هو: محمد بن كعب القرظي المدني، ولد سنة ١٧هـ، وتوفي ١٠٨هـ. أبو حمزة، له روايات كثيرة عن كبار الصحابة، كوفي المولد والمنشأ، كان عالمًا بالتفسير، صالحًا عابدًا ورعًا. انظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٥٧)، العبر في خبر من غبر (١/ ١٣٤).

(٤) سورة فاطر، الآية: (٤٣).

(٥) سورة يونس، الآية: (٢٣).

(٦) سورة الفتح، الآية: (١٠).

(٧) سورة فاطر، الآية: (٤٣).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(١٠/ ٣١٨٧)وانظر. تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٠).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالتحذير، وبيان الوعيد المترتب عليها فقال ﷺ: «المكر والخديعة في النار» [(١)].

إن الناظر لوعيد الشارع الذي رتبه على المكر السيئ في الأدلة السابقة لا يعجب من شدته حين يعلم ما ينتج عن هذا الفعل الذي يعد كبيرة من كبائر الذنوب من آثار سيئة على الماكر نفسه وآثار سيئة متعدية لغيره فمما قيل في ذلك:إن المكر السيئ من الكبائر الباطنة التي يُذم العبد عليها أعظم مما يذم على الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ونحوها من كبائر البدن. وذلك لعظم مفسدته، وسوء أثره ودوامه، فإن آثار مثل هذه الكبيرة ونحوها تدوم، بحيث تصير حالاً وهيئة راسخةً في القلب، بخلاف آثار معاصي الجوارح، فإنها سريعة الزوال، تزول بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فالمكر من مداخل الشيطان على ابن آدم، فهو عدو الإنسان المبين، فلا يقنع الشيطان بإفساد ظاهر الإنسان، بل يسعى إلى إفساد أشرف ما في الإنسان وهو قلبه، فلذلك وجب وجوبًا عينيًا على كل مكلف حماية قلبه عن إفساد الشيطان، باللجوء إلى الله وذكره، وتذكر الآخرة[(٢)].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٥٢٦٧) (٤/ ٣٢٤)، وبرقم (٦٩٧٨) (٥/ ٣٦٧) وقال سنده ضعيف من حديث أبي هريرة، وبرقم (١١١٠٦)، (٧/ ٤٩٤) من حديث قيس بن سعد، وأخرجه الحاكم في مستدركه برقم (٨٧٩٥) في (٤/ ٦٥٠) من حديث أنس بن مالك، وأخرجه في صحيح الجامع برقم (٦٦٠١)، وقال الألباني صحيح، كما أخرجه في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٥٧) من حديث قيس بن سعد، وهو صحيح.

(٢) للاستزادة انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر: لابن حجر المكي الهيثمي. ت: عبد اللطيف =

لهذا فقد ورد في السنة النهي عن المكر، وعن إعانة الماكر، فقال عليه الصلاة والسلام ناهيًا عن ذلك: «لا تمكر، ولا تُعِن ماكرًا، فإن الله يقول: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1]»[2].

وعلى هذا فقد دلت جميع النصوص الشرعية، على أن المكر السيئ مردودٌ على صاحبه، وأن صاحبه متوعدٌ عليه بوعيد شديد، مما يدل على تحريمه. وقد علق الإمام ابن قيم الجوزية على ذلك فقال: (وقال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[3] فأخبر تعالى أنه مكر بمن مكر بأنبيائه ورسله، وكثير من الحيل هذا شأنها، يمكر بها على الظالم والفاجر)[4].

* * *

=

حسن عبد الرحمن. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص(١٤٤ - ١٢١). بتصرف.

(١) سورة فاطر، الآية: (٤٣).

(٢) أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد برقم (٦٧٦) (١/ ٥٧١) مرسل عن الزهري بلفظ (لا تمكروا ولا تعن ماكرًا) ذكره بلفظه الزيلعي في نصب الراية في تخريج الأحاديث والآثار برقم (١٠٦٦) (٣/ ١٥٧).

(٣) سورة النمل، الآية: (٥٠).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين. لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٠٢).

المسألة الحادية عشرة

الشك في الدار الآخرة وقد تقدم في كلام الشيخ[١] أنهم مكذبون بيوم القيامة وبلقاء الله، وأما هذه المسألة فهي في الشك، ولا يخفى ما بينهما من الفرق

الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، بل هو الركن الخامس منها، كما أن الإيمان باليوم الآخر أصلٌ من أصول دين الإسلام، وركيزة من ركائزه الأساسية التي يقوم عليه بناء العقيدة بعد قضية التوحيد، فلا يمكن معرفته إلا بالوحي.

لهذا صرحت به جميع الكتب السماوية، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين، فكل رسول أرسله الله أخبر أمته بهول ذلك اليوم العظيم، ودعاهم للاستعداد والتزود له.

فهنا يذكر المؤلف - رحمه الله - أن من خصال الجاهلية التي ذكرها الإمام محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في كتابه المسائل التي خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية - عدم الإيمان باليوم الآخر، والتكذيب بيوم القيامة، وبلقاء الله. ويذكر المؤلف هنا أن من خصال أهل الجاهلية أيضًا الشك في الدار الآخرة.

---

(١) المسألة السابعة بعد المائة. المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية. محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، (٢/ ٧٧٥).

ومعلومٌ أن مراد الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – فيما ذكره يختلف عن مراد الشيخ عبد الله بن محمد الدويش – رحمه الله –، إذ أن الخصلة التي ذكرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب المراد بها عدم الإيمان باليوم الآخر، وإنكاره غاية الإنكار، أما مراد الشيخ عبد الله ابن محمد الدويش رحمه الله فهو، كما سيأتي خلال شرح هذه المسألة إن شاء الله تعالى.

فالشك في اللغة: مصدر شكَّ في الأمر، يشك شكًّا، إذا التبس، وهو نقيض اليقين، وجمعه شُكوكُ، لأن الشاك كأنَّه شُك لهُ الأمران في مشك واحد، وقيل الشك الارتيابُ(١).

والشك في الاصطلاح: هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عنده في النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشك ضرب من الجهل، وأخص منه، لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسًا، فكل شك جهل، ولا عكس.

والريب: مالم يبلغ درجة اليقين، وإن ظهر نوع ظهور. يقال: شك مريب، ولا يقال: ريب مشكك، والشك سبب الريب، كأنه شك أولاً، فيوقعه شكه في الريب، فالشك مبدأ الريب، كما أن العلم مبدأ اليقين(٢).

وقال الجرجاني في تعريف الشك: (الشك هو التردد بين النقيضين، بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل الشك ما استوى طرفاه،

---

(١) لسان العرب (١٠/ ٤٥١ – ٤٥٢).

(٢) الكليات. لابن البقاء الكفوي، ص(٥٢٨).

وهو الوقوف بين الشيئين، لا يميل القلبُ إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما، ولم يطرح الآخرُ فهو ظنٌّ، فإذا طرحه، فهو غالب الظن، وهو بمنـزلة اليقين)[(١)].

والمراد بالدار: اسم جامع للعرصة والبناء والمحلة، وكل موضع حل به قوم فهو دارهم، والدنيا دار الفناء، والآخرة دار القرار، ودار السلام[(٢)].

والمراد بالدار الآخرة يقول الطبري - رحمه الله -: أما الآخرة فإنها صفة للدار، وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى كانت قبلها وصارت آخرة للأولى، لتقدم الأولى أمامها، وقد يجوز سُميت آخرة لتأخرها عن الخلق، كما سميت الدنيا «دنيا» لدُنُوها من الخلق[(٣)].

فالإيمان بالدار الآخرة عقيدة أساسيةٌ لابد للعبد أن يدين لله بها، لهذا حفل القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر، واهتم بتقريره، وتقرير عقيدة الإيمان به في كل موقع، ونبه إليه في كل مناسبة، وبعدة أساليب وعدة مسميات، فمن أسماء الدار الآخرة الواردة في كتاب الله، يقول الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله - في كتابه الإرشاد عنها: (هو يوم الحساب، يوم التغابن، يوم الحسرة، الحاقة، القارعة، الواقعة، الغاشية، يوم الجمع، القيامة، الساعة، يوم البعث وغيرها)[(٤)].

---

(١) التعريفات، (١٢٨).

(٢) انظر.لسان العرب (٤/ ٢٩٨)، الكليات لأبي البقاء الكفوي (٤٥٠).

(٣) انظر.تفسير الطبري (١/ ١٣٨).

(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص(٣٤٣).

والمراد بالإيمان باليوم الآخر: هو التصديق الجازم بإتيانه، والعمل بموجب ذلك على الوجه الذي بينه الله ورسوله ﷺ، ويدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها، وبالموت وما بعده، وبالنفخ في الصور، وخروج الخلائق من القبور، وتفاصيل الحشر، ونشر الصحف، ونصب الموازين، والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار[١].

ومن الآيات الدالة على ثبوت اليوم الآخر ووجوب الإيمان به:

ما ذكره تعالى في معرض ثنائه على المؤمنين المصدقين باليوم الآخر قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٢].

قال الطبري في تفسير الآية:(الذي وصف الله جل ثناؤه به المؤمنين بما أنزل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إلى من قبله من المرسلين من إيقانهم به من أمر الآخرة فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين من البعث والنشور والثواب والعقاب والحساب ...وغير ذلك مما أعد الله

(١) للاستزادة انظر.شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الدمشقي. ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة. بيروت. (ط٢)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م (٢/ ٦١٩)، نواقض الإيمان القولية والعملية: د.عبدالعزيز محمد العبد اللطيف. دار الوطن. الرياض. (ط٣)، ١٤١٥هـ، ص(٢١٩)، الإيمان أركانه وحقيقته ونواقضة: د.محمد نعيم ياسين. دار الوفاء. مصر، ص(٧٤)، العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام: لعبدالعزيز بن باز، دار الوطن، ١٤١٣هـ، ص(١٧)، عقيدة أهل السنة والجماعة: لمحمد بن صالح بن عثيمين. مطابع القصيم، ١٤٠٦هـ، ص(٢٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٤).

لخلقه يوم القيامة)[١].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[٢].قال قتادة: (البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب)[٣].

وقوله تعالى في تقرير هذه العقيدة على لسان الراسخين في العلم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[٤]. قال الطبري عن مراد قوله تعالى- لا ريب فيه-: (أي لاشك فيه)[٥].

وقد أكد الشارع هذا اليوم بالقسم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[٦].

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: وهنا قسم من الله أنه سيجمع الأولين والآخرين في يوم لا شك في حقيقته[٧].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾[٨] . قال ابن كثير

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٣٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٧٧).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ١٠٠).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٩).

(٥) تفسير الطبري (٣/ ١٨٩).

(٦) سورة النساء، الآية: (٨٧).

(٧) انظر.تفسير الطبري (٤/ ١٩٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٣).

(٨) سورة الحج، الآية: (٧).

في تفسيرها: (أي كائنة لاشك فيها ولا مرية)[١].

فكل هذه الآيات وغيرها من الآيات التي لا سبيل لحصرها تدل على ثبوت الدار الآخرة، وأنه لاشك فيها.

وكما أن القرآن قد قرر هذه العقيدة في مواضع كثيرة، فلم تخلُ السنة كذلك من هذا الأمر، فمن هذه الأحاديث الدالة على ثبوت اليوم الآخر:

ما ورد في حديث جبريل عليه السلام المشهور حين سأل النبي ﷺ ما الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث»[٢]. والناظر لهذا الحديث يجد أن لفظ (تؤمن) أعادهُ النبي ﷺ فقط حين نص على الإيمان بالبعث، وقد علل ذلك الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله - فقال: «وكأن الحكمة في إعادة لفظ «وتؤمن» عند ذكر البعث الإشارة إلى أنه نوع أخر مما يؤمن به، لأن البعث سيوجد بعد، وما ذكر قبله موجود الآن، وللتنويه بذكره لكثرة من ينكره من الكفار»[٣].

أيضًا من الأدلة ما ورد في حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله متى الساعة قائمة؟ قال: ويلك وما أعددت لها: قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال: إنك مع من أحببت»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٠٩).

(٢) سبق تخريجه، ص(٧٤).

(٣) فتح الباري، (١/ ١١٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب ما جاء في قول الرجل. ويلك برقم (٦١٦٧)

=

وعلى هذا فمعلومٌ أن أهل الحق والبصيرة من أهل الدين والسنة مؤمنون بكل ما أخبر به الشارع – عز وجل – عن اليوم الآخر، ويقرون به إقرارًا لاشك فيه، ومن ذلك ما قاله أحد العلماء في تقرير ذلك: (يؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت يوم القيامة، وبكل ما أخبر الله به سبحانه من أهوال ذلك اليوم الحق، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هناك في ذلك اليوم الهائل، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[(٣)])[(٤)].

وقال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – في إثبات وتقرير هذه العقيدة: (إثبات المعاد والجزاء اتفقت عليه الكتب السماوية، والرسل العظام

=

في كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه برقم (٣٦٨٨)، ص(٣٠٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن والملاحم، باب قرب الساعة برقم (٧٤١٠)، ص(١١٩٠)، موسوعة الحديث الشريف.

(١) سورة الحج، الآية: (٧).

(٢) سورة التغابن، الآية: (٧).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٤٧).

(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث: للإمام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني. دار العاصمة. الرياض (ط٢)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص(٨٥، ٨٦).

وأتباعهم... فكم أقام الله عليه من الأدلة الحسية المشاهدة ما يدل أكبر الدلالة عليه، وأشهد عباده في هذه الدار نماذج من الثواب والعقاب... فأبطل الله كل شبهة يُقدح بها في المعاد)[١].

وقال أحد العلماء عن ذلك: فحكم الإيمان باليوم الآخر ركنٌ من أركان الإيمان الستة، وهو الركن الخامس منها، لا يصح الإيمان إلا به وعلى هذا فهو فريضةٌ واجبة على كل شخص يؤمن بالله وملائكته...»[٢].

وبعد: فبعد أن تم تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وحقيقة ذلك اليوم ثبت أن اليوم الآخر آت لا شك فيه، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة المطهرة وأقوال العلماء إلا أنه وجد هناك من خالف في ذلك، يقول الدكتور إسماعيل جودة عن سبب ضلال هؤلاء: (إلا أن هناك الشكّاك الظانين الذين أعملوا عقولهم واعتمدوا عليها في المسائل السمعية، التي كان الأحرى بهم في مثل هذه المسائل أن يستنيروا بضياء الشرع الحنيف، فصار موقفهم من اليوم الآخر والبعث والحساب أن وقفوا بين الإثبات والنفي، أي في منطقة الشكّ، فصاروا بذلك ليسوا بالمستيقنين من البعث، ولاهم من المكذبين به، وإنما هم يتشككون في حقيقته)[٣].

---

(١) الفتاوى السعدية: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي. مكتبة المعارف. الرياض، (ط٢)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص(٣٩، ٤٠).

(٢) شرح العقيدة الواسطية: للشيخ محمد بن عثيمين. دار ابن الجوزي. الدمام، (ط٤)، ١٤٢٤هـ، (٢/ ١٠٥) بتصرف.

(٣) عقيدة الإيمان بالبعث: د. لإسماعيل منصور جودة: (ط١)، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص(٦٣).

وممن خالف في هذه العقيدة اليهود والنصارى والقرامطة[1] محتجين بحجج مردودةٍ عليهم، كما أنها على خلاف ما كانوا يتصورون، فهي شاهدة ودالةٌ على إثبات ذلك اليوم. وعن ذلك قال أحد أهل العلم: هناك من الملاحدة ومن تابعهم من اليهود والنصارى والقرامطة من قال إن هذا إبراهيم عليه السلام على جلالة قدره قد استراب في البعث حتى طلب رؤية الكيفية ليطمئن قلبه بنفي الاسترابة، وهذا معلومٌ بطلانه، فإبراهيم عليه السلام مؤمن مصدق، وإنما أراد أن يرى الكيفية فقط، ويعتبر بذلك، فما شك إبراهيم عليه السلام في أن الله يحيى الموتى، وإنما أراد أن يرى الهيئة ليرى العجب الذي يتمثله، ولم تقع عليه حاسة بصره، فإن الشك في البعث كفر صراح بالإجماع من كل أمة، وما ملئت طباق جهنم إلا من هذا الصنف الشاك فيما جاءت به الرسل عليهم السلام[2].

إذن فلا يشك في ثبوت الدار الآخرة إلا منافق يُظهر الإيمان والتصديق، ويبطن الكفر والتكذيب والشك، لهذا فقد وردت أدلةٌ كثيرة في كتاب الله ذم فيها الشارع هؤلاء المنافقين الشاكين في الدار الآخرة، ووبخهم على ذلك، وبيّن سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة ليخالف بذلك أهل الجاهلية في هذه الخصلة.

---

(١) القرامطة حركة باطنية هدامة تنسب لحمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، ظاهرها التشيع، وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، (١/ ٣٧٨).

(٢) انظر.الفصل في الملل: لابن حزم الظاهري. مكتبة الخانجي. القاهرة (٤/ ٦)، وتنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء: لأبي الحسن السبتي الأموي. ت: محمد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر. لبنان، (ط١)، ١٤١١هـ، (١/ ٩٦).

فقال تعالى في ذم هؤلاء الشاكين ووصفهم بالعماية: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾(١).

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ ﴾ أخبر الله عن المشركين أنهم من الساعة في شك فقال بل هم في شك، بل هم منها عمون)(٢).

وقال تعالى في ذمهم على اتباعهم لإبليس في شكهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾(٣).

قال ابن كثير: (أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك)(٤).

وقال تعالى متوعدًا: ﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴾(٥).

قال الطبري في تفسير الآية: (والمراد: أي حيل بين هؤلاء المشركين

---

(١) سورة النمل، الآية: (٦٦).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٨-٩).

(٣) سورة سبأ، الآية: (٢١).

(٤) تفسير ابن كثير(٣/ ٥٣٧).

(٥) سورة سبأ، الآية: (٥٤).

حين عاينوا بأس الله وبين الإيمان ،أنهم كانوا قبل في الدنيا في شك من نزول العذاب الذي نزل بهم وعاينوه)[١].

كما قال تعالى في موضع آخر مبينًا خسارة هؤلاء الشاكين في الآخرة: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (أي ليجمعنكم الله، أيها العادلون بالله، ليوم القيامة الذي لا ريب فيه لينتقم منكم بكفركم به)[٣].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٤].

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: (والمراد: أي إذا قال لكم المؤمنون ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ ﴾ قلتم: لا نعرفها ﴿ إِن نَّظُنُّ ﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهمًا أي مرجوحًا (وما نحن بمستيقنين) أي: بمتحققين،.. وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة (وحاق بهم)أي:أحاط بهم (ما كانوا به يستهزئون)أي:من العذاب والنكال)[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٣٩٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٢).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٥٧).

(٤) سورة الجاثية، الآيتان: (٣٢، ٣٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٣).

وفي موضع أخر يبين الله الفرق بين حال هؤلاء المشككين وبين حال المصدقين المؤمنين بالآخرة بذكر حوارهم مع المؤمنين يوم القيامة قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(١).

قال ابن كثير في المراد بالآية: (ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات... فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين بلى قد كنتم معنا، (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم..)قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات، و(تربصتم)أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.. و(ارتبتم)أي: بالبعث بعد الموت)(٢).

وللإمام ابن القيم كلام نفيس في وصف حال هؤلاء الشاكين، فيقول عن ذلك: (أعظم الخلق غرورًا من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضى بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد(٣)، والآخرة نسيئة(٤)، والنقد أحسن من النسيئة، ويقول بعضهم: درة منقودة، ولادرة موعودة، ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك، وهذا من أعظم تلبيس الشيطان

---

(١) سورة الحديد، الآية: (١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٠).

(٣) خيراتها عاجلة.

(٤) أفضالها مؤجلة.

وتسويله، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه[١] وهو ينظر إليه وهو بين مصدق ومكذب)[٢].

حين يؤمن العبد بهذه العقيدة تسكن نفسه وتطمئن، وعن ذلك يقول أحد العلماء: (إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خُلقه، وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره، وهو شر كله، لا يؤمن جانبه، ولا يُطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير، وينابيع الفضيلة والكمال البشري، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٣])[٤].

* * *

---

(١) على هلكته.

(٢) الجواب الكافي، ص(٥٥).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٦٢).

(٤) عقيدة المؤمن: لأبي بكر جابر الجزائري. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة، (ط١)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص(٢٠٧) للاستزادة انظر: الآثار الواردة عن السلف في الإيمان باليوم الآخر في تفسير الطبري: لسعود عبدالعزيز العقيل. إشراف: أ. د. ناصر عبد الكريم العقل، ١٤٢٣هـ.

المسألة الثانية عشرة

تقتيل الأبناء واستحياء النساء كما ذكر الله عن فرعون وآله

يقف المؤلف – رحمه الله – هنا على خصلة من خصال الجاهلية التي ظهرت بين الأميين والكتابيين، وهي قتل الأبناء، واستحياء النساء، تلك الخصلة التي كان يمارسها الطاغية فرعون وقومه مع بني إسرائيل، وها هي تظهر جليةً على أرض واقعنا المعاصر.

قال تعالى مبينًا هذه الخصلة في خطابه لبني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[١].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسيره : ((يذبحون أبناءكم)أمر– فرعون – ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت (ويستحيون نساءكم)أي: يسترقون نساءكم)[٢].

وقال تعالى عن هذه الخصلة في آية أخرى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٤٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٠٩– ٣١٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٢٧).

قال الطبري في المراد بالآية: (قال جماعة من قوم فرعون أتدع موسى من بني إسرائيل ليفسدوا في الأرض كي يفسدوا خدمك وعبيدك عليك في أرض من مصر(سنقتل أبناءهم)أي:سنقتل أبناءهم الذكور،(ونستحي نساءهم)أي:نستبقي إناثهم)(١).

وقال تعالى عن ظلم فرعون واستبداده وممارسته لهذه الخصلة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾(٢).

قال الطبري المراد: (يحملونكم أقبح العذاب وسيئه، ويقتلون أبناءهم الذكور ويستبقون الإناث)(٣).

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أيضًا في تفسيره لهذه الآية: (لقد كان قصد فرعون من ذلك إذلال بني إسرائيل وقهرهم، فقد مارس هذا الظلم من قبل ولادة موسى عليه السلام، ثم مارسه مرة أخرى بعد بعثة موسى - عليه السلام -)(٤).

وقال أحد المفسرين عن مراد فرعون في استبقاء النساء: (وكان الغرض من إبقاء النساء ليكن سراري وخدمًا لهم)(٥).

إن هذه الخصلة المذمومة مثلت المأساة التي تعرض لها بنو إسرائيل على

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٦ – ٢٧).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٤١).
(٣) تفسير الطبري (٦/ ٤٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠).
(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٥٩).

يد فرعون وقومه، وها هي فصولها تتكرر على مدار التاريخ، ولكن مع غير بني إسرائيل. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾(١).

لهذا لما نزلت الآية التي قال تعالى فيها: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ «قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: أعوذ بوجهك، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا أهون – أو هذا أيسرُ»(٢).

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير الآية: (أي يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب)(٣).

وقال بعض المفسرين: عُنى بها المسلمون من أمة محمد ﷺ، وقال آخر: المراد أي الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك دماء بعضهم بعضًا(٤).

كما قال القرطبي – رحمه الله – في تفسيره: (أي يقوى عدوّكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبسكم،...(ويذيق بعضكم بأس بعض)أي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم) برقم (٤٦٢٨)، ص(٣٨٢) وفي كتاب الاعتصام باب قوله: (أو يلبسكم شيعًا) برقم (٧٣١٣)، ص(٦٠٩)، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (كل شيء هالك إلا وجهه) برقم (٧٤٠٦)، ص(٦١٦). موسوعة الحديث الشريف، فتح الباري (٨/ ١٩٣).

(٣) انظر.تفسير الطبري (٥/ ٢١٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٤).

(٤) انظر.تفسير الطبري (٥/ ٢١٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٤).

بالحرب والقتل في الفتنة،...فإنه المشاهد في الوجود، فقد لَبِسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضًا، واستباحة بعضنا أموال بعض)[1].

وقد ظهرت الخصلة في هذا الزمان، ويتجلى ذلك في ما يحصل الآن في واقعنا المعاصر من استباحة دماء المسلمين في أرض البلقان، والعراق، وأفغانستان، وفلسطين، وكشمير، والصومال، وغيرها من البقاع التي يسكنها المسلمون، فهي خير شاهد على بقاء هذه الخصلة الجاهلية، فهاهي الإمبراطورية الشيوعية في روسيا تهتك أعراض نساء الشيشان، وتقتل أطفالهم ورجالهم، وهاهم أطفال البوسنة يذبحون على مرأى ومسمع آبائهم وأمهاتهم، وها هي نساء البوسنة تستباح أعراضهن أمام أعين أزواجهن وأبنائهن، وليس هذا وحسب، وإنما تبقر بطون الأمهات لقتل الأبناء وهم في بطون أمهاتهم، إن ما يصنعه الصرب الصليبيون بنساء المسلمين وبأطفالهم في البوسنة، وما يصنعه النصارى واليهود على أرض فلسطين والعراق وأفغانستان، ليس بأهون مما صنعه فرعون بني إسرائيل، فانتهاك أعراض المسلمين، وقتل أطفالهم ورجالهم، والتمثيل بهم، مسألة شائعة في الحضارة الغربية في زمننا الحاضر[2].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٢).

(٢) انظر: محنة المسلمين في البلقان: لد. علي حوت، الشيشان صقور الجبال البيضاء: جمال الحوش، واغتصاب الأرض والعرض في البوسنة.

وقد علق على هذه الخصلة الشيخ محمد بن عثيمين[(١)] - رحمه الله - فقال عن ذلك: (إن ما يقع في هذه الأمة أعظم من ذلك، وشر من ذلك، فكلما اشتد الإيمان اشتد عداء الأعداء، فهذا بلاء عظيم ينبغي الصبر عليه والمجاهدة، فذبح الأبناء، واستحياء النساء، ما كان من العدو إلا لتكون له تمام السيطرة على المؤمنين، لتضعف الأمة، وتهلك، فتضطر النساء المسلمات إلى رجال العدو. وهذا هو غاية الإذلال، فهذا من تسليط الله بعض الناس على بعض، كما سلط الله فرعون على بني إسرائيل)[(٢)].

* * *

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي. ولد في عنيزة سنة ١٣٤٧هـ في عائلة عرف عنها الاستقامة والدين. حفظ القرآن في صغره، من أول شيوخه ابن دامغ وابن سعدى وابن باز ومحمد الشنقيطي. له مصنفات عدة، مصطلح الحديث، الأصول في علم الأصول، القواعد المثلى، اشتهر بروعة التأصيل، والإخلاص في عمله وعلمه، ذو همة عالية، والورع والزهد في الدنيا. توفي سنة ١٤٢١هـ. ودفن في مكة.
انظر: ابن عثيمين: الإمام الزاهد. لـد. ناصر مسفر الزهراني. دار ابن الجوزي، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، الرياض.

(٢) شرح سورة الأنعام، الآية: (٦٥) للشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله-.

المسألة الثالثة عشرة
تبرج النساء لقوله تعالى:
﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾(١)

لقد عني الإسلام بزينة النساء عناية عظيمة، فقد وضع الله - عز وجل - في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ القواعد والضوابط التي تجعل الزينة تلبي فطرة النساء، وتناسب أنوثتهن من جهة، وتحفظ هذه الزينة لتسير في مسارها الصحيح بلا إفراط ولا تفريط من جهة أخرى.

ومتى فقدت هذه الزينة مسارها الصحيح، والاتجاه المرسوم لها شرعًا، صارت من أعظم أسباب الفتنة والفساد.

فهنا يذكر المؤلف - رحمه الله - خصلة من خصال الجاهلية التي ظهرت في نساء الأميين والكتابيين ونسائنا في العصر الحاضر، وهي خصلة «التبرج».

التبرج في اللغة: من بَرَجَ، وهو كل ظاهر مرتفع، وقيل للبُروج بُروج لظهورها وبيانها وارتفاعها، وقيل البَرَجُ: سعة العين في شدة بياض صاحبها، يقال امرأة برجاءُ: بينة البَرَجِ، ومنه ثوب مُبرجٌ للمعين من الحُلَلِ.

والتبرج: هو إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال، يقال تبرجت المرأة:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٣).

أظهرت وجهها، وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها، والتبرج هو إظهار الزينة، وما يُستدعى به شهوة الرجل، وقيل: إنهن كن النساء يتكسرن في مشيهن ويتبخترن، فالتبرج هو إظهار الزينة للناس الأجانب وهو مذموم(١).

والتبرج في الاصطلاح كما ذكره المفسرون في تفسير الآية التي نهى فيها الشارع عن التبرج حين قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(٢).

قال الطبري في معنى التبرج: (قيل هو التبختر والتكسر...وقيل هو إظهار الزينة وإبراز المرأة محاسنها للرجال)(٣).

وقال مجاهد – رحمه الله -: (كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجـال، فذلك تبـرج الجاهلية)(٤).

وقال آخر في المراد بالتبرج: (إذا خرجتن من بيوتكن، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهى الله تعالى عن ذلك)(٥).

كما قال آخر في المراد بالتبرج: (التبرج أن تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك

---

(١) انظر.لسان العرب (٢/ ٢١٢)، مختار الصحاح، ص(٥١).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٣٣).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٣).

(٥) المرجع السابق (٣/ ٤٨٣).

التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج)[١].

وقد نقل القرطبي - رحمه الله - قولاً عن أحد العلماء في بيان مقصود الشارع من إيراد هذه الآية:(...إن المقصود من الآية مخالفة من قبلهن من المشية على تغنج وتكسر، وإظهار محاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعًا،...فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذل، وتستر تام)[٢].

قال الطبري والمراد بالجاهلية الأولى: (جائز أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى فيكون معنى ذلك ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام)[٣].

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - في المراد بالنهي عن التبرج: (أي لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى)[٤].

كما علق الشيخ ابن باز - رحمه الله - تعليقًا وافيًا على الآية فقال: (في الآية نهي من الله عز وجل لنساء النبي ﷺ أمهات المؤمنين، وهن من خير النساء وأطهرهن عن تبرج الجاهلية، وهو إظهار الزينة والمحاسن كالرأس والوجه والعنق والصدر والذراع والساق ونحو ذلك من الزينة، لما في ذلك من الفساد العظيم، والفتنة الكبيرة، وتحريك قلوب الرجال إلى تعاطي أسباب الزنا، وإذا كان الله سبحانه يحذر أمهات المؤمنين من هذه الأشياء

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٤٨٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ١٦٠).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩٥).

(٤) تفسير ابن سعدي، ص(٦٦٤).

المذكورة مع صلاحهن وإيمانهن وطهارتهن، فغيرهن أولى، وأولى بالتحذير والإنكار والخوف عليهن من أسباب الفتنة)[١].

وعلى هذا يستدل على أن حكم التبرج محرمٌ شرعًا لما فيه من الفتنة والفساد، ولأنه من أمور أهل الجاهلية التي ذمها الشارع في محكم كتابه، ونهى عنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (النساء مأمورات بالاستتار والاحتجاب، وترك التبرج والظهور، وغير ذلك مما هو من أسباب الفتنة بها ولها)[٢].

وقال أيضًا في موضع آخر: (أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلالم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها. ومعلومٌ أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ فإن ذلك ذم للتبرج، وذم لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة)[٣].

ومما يدل على تحريم التبرج أن الله - عز وجل - حين أباح للنساء القواعد أن يضعن خمارهن، أن يضعنها غير متبرجات، فقال تعالى: ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾[٤]. قال القرطبي عن ذلك:والمراد: أي لا حرج على

(١) للاستزادة انظر: رسالة الشيخ عبد العزيز بن باز في التبرج وخطره.

(٢) الفتاوى (٢٢/ ١٤٩)، الاستقامة (١/ ٣٦٢).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ص(٦٩).

(٤) سورة النور، الآية: (٦٠).

النساء اللواتي قعدن عن الولد من الكبر أن يضعن أرديتهن إذا لم يُردن بوضع ذلك عنهن، أن يبدين ما عليهن من الزينة للرجال ليُنظر إليهن، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق، فالتبرج هو التكشف والظهور للعيون، وقيل لعائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخِضاب والصِّباغ والتمائم والقُرطين والخلخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب؟ فقالت: يا معشر النساء، قصتكن قصة امرأة واحدة، أحلّ الله لُكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكُن أن يروا منكن مُحرَّما. وقال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: نساء كاسيات عاريات»[1] قال ابن العربي: وإنما جعلهن كاسيات لأن الثياب عليهنّ، وإنما وصفهن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رقّ يصفهن ويبدي محاسنهنّ، وذلك حرام، وقيل كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى الذي قال تعالى عنه: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[2]، وهذا التأويل هو اللائق بهن في هذه الأزمان، وخاصةً الشوابّ، فإنهن يتزيّن ويخرجن متبرجات، فهن كاسيات بالثياب، عاريات من التقوى حقيقة، ظاهرًا وباطنًا، حيث تُبدي زينتها، ولا تبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهن، وذلك مشاهد في الوجود منهنّ، فلو كان

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأداب، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات برقم (٢١٢٨) ص(١٠٥٨)، وفي كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ص(١١٧٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٦).

عندهنّ شيء من التقوى لما فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك[١].

وقال الذهبي في حكم إظهار المرأة زينتها من تحت حجابها: (إن من الأفعال التي تلعن عليها المرأة: إظهارها الزينة والذهب واللؤلؤ من تحت النقاب، وتطيبها بالمسك والعنبر ونحو ذلك إذا خرجت)[٢].

وللشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - تعقيب نفيس في رسالته عن التبرج فقال عن ذلك: (إن التبرج يفضي إلى الفتنة بالمتبرجة، ولو كانت عجوزًا، فكيف يكون الحال بالشابة والجميلة إذ تبرجت، لاشك أن إثمها أعظم، والجناح عليها أشد، والفتنة بها أكبر، فإن ما ذكره الله سبحانه في حق القواعد، وتحريم وضعهن الثياب إلا بشرطين، وهما كونهن لا يرجون النكاح، والثاني عدم التبرج بالزينة، حجة ظاهرة، وبرهان قاطع على تحريم سفور النساء وتبرجهن بالزينة)[٣].

لهذا يلزم على ولي أمر المسلمين منع النساء من التبرج، وسد الذرائع الموصلة له، والوسائل الموصلة إليه، كاختلاط النساء بالرجال، أو سفرهن من غير محرم، أو خلوة الرجال بهن.

وقد ذكر الإمام ابن القيم الجوزية كلامًا وافيًا بهذا الخصوص، فقال عن ذلك: (ومن ذلك أن ولي الأمر يجب عليه أن يمنع اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والفُرج، ومجامع الرجال،...قال ﷺ: «ما تركت

---

(١) انظر.تفسير القرطبي (١٢/ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥)بتصرف.

(٢) الكبائر: الذهبي، ص(٦٨).

(٣) للاستزادة انظر: رسالة ابن باز في التبرج وخطره.

بعدي فتنة أضرُّ على الرجال من النساء»[١]،... فيجب عليه منع النساء من الخروج متزينات متجملات، ومنعهن من الثياب التي يكنّ بها كاسيات عاريات، كالثياب الواسعة والرقاق، ومنعهن من حديث الرجال في الطرقات، ومنع الرجال من ذلك، وإن رأى وليّ الأمر أن يفسد على المرأة إذا تجملت وتزينت وخرجت ثيابها بحبر ونحوه فقد رخص في ذلك، بعض الفقهاء....وله أن يحبس المرأة إذا أكثرت الخروج من منزلها، ولا سيما إذا خرجت متجملة، بل إقرار النساء على ذلك إعانة لهن على الإثم والمعصية، والله سائل ولي الأمر عن ذلك...ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، أصل كل بلية وشر، وهو أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة....فمن أعظم أسباب الموت العام: كثرة الزنا، بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشي بينهم متبرجات متجملات)[٢].

أخيرًا: إن ما يرى في هذا الزمن الحاضر من بعض نساء المسلمين هداهن الله من بهرجتهن للحجاب، وصبغه بأنواعٍ من الأصباغ، ورسم الصور عليه، وتطعيمه بالأحجار اللامعة ونحوها، بل وتعدى الأمر ذلك من خلال اجتراء البعض منهن على التقصير في غطاء موضع جمالهن، وهو الوجه، لهو التبرج بعينه. فأسأل الله لي ولهن الهداية والسداد إلى الحق.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح: باب ما يتقي من شؤم المرأة. برقم (٥٠٩٦) بمثله، ص(٤٤١). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، ص(٢١٧ - ٢١٨).

المسألة الرابعة عشرة

اتباع السادة والكبراء فيما خالف الحق وقد ذكر الشيخ اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا ولعل هذه المسألة المذكورة هنا أعم

يشير المؤلف – رحمه الله – في هذه المسألة إلى نوع من أنواع الشرك الأكبر، المخرج من الملة، وهو شرك الطاعة.

وقد ورد تخصيص هذه المسألة في رسالة مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله في المسألة السابعة والثلاثين، إلا أن الشيخ عبد الله الدويش رحمه الله هنا عمم مسألة الاتباع فيما خالف الحق بجميع السادة والكبراء.

وقد عرج الشيخ - رحمه الله - هنا على مشكلة تواجه البشرية على اختلاف الزمان والمكان، وهي مشكلة التبعية، فالبشرية لا تتخلى عن المتابعة، والتبعية، فلابد أن يكون في كل زمان ومكان متبوعون مطاعون من السادة والكبراء، والقادة والزعماء، وأن يكون فيها أتباع لهؤلاء المتبوعين، والأتباع هم القطاع الكبير من الشعوب، والرعايا التي تتبع سادتها وكبراءها. وحيث إن هذه المشكلة قائمة في الماضي قبل نزول القرآن، فقد أخبرنا القرآن عن الأتباع والمتبوعين الضالين الكافرين، حيث بقيت هذه المشكلة حتى عصرنا الحاضر، فقد كان أهل الجاهلية: الأميون والكتابيون على حد سواء، يتبعون سادتهم وكبراءهم وأحبارهم ورهبانهم فيما يخالف الحق.

فالمراد بالسادة: هو جمع السيد، وهو الذي يملك تدبير السواد الأعظم[١]، وقال ابن كثير – رحمه الله –: (هم الأشراف والأمراء)[٢].

وقال أيضًا المراد بالكبراء: (هم العلماء والمشيخة)[٣].

والأتباع في اللغة: تَبِعَ الشيءَ تَبَعًا وتَباعًا في الأفعال، وتَبِعتُ الشيء تُبوعًا: سرت في إثرة، يقال تَبْعْت القوم تَبَعًا وتَباعةً، بالفتح، إذا مشيت خلفهم أو مرُّوا بك فمضيت معهم[٤].

والمراد بهذه الخصلة أي طاعة الأمراء، والمشيخة من العلماء في كل ما يخالف الحق، سواء كان بتحليل حرام، أو تحريم حلال، ودل عليها ما ذكره الله عز وجل في محكم كتابه، فقال تعالى على لسان الأتباع: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[٥].

قال الطبري في تفسير الآية والمراد: (أي أطعنا أئمتنا في الضلالة، وكبراءنا في الشرك فأضلونا السبيل ؛ فأزالوانا عن محجة الحق، وطريق الهدى، والإيمان بك، والإقرار بوحدانيتك، وإخلاص طاعتك في الدنيا)[٦].

---

(١) التعريفات: الجرجاني ص(١٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٠).

(٤) لسان العرب (٨/ ٢٧).

(٥) سورة الأحزاب، الآية: (٦٧).

(٦) تفسير الطبري (١٠/ ٣٣٥).

وقال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة، أي أطعناهم في معصيتك وما دعونا إليه، (فأضلونا السبيلا) أي عن السبيل وهو التوحيد)(١).

وقال ابن كثير في تفسيرها: (أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء)(٢).

وعن هذه الخصلة قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن أكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض، والموالاة، والمعاداة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ الآية(٣)، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾(٤) فكثير من المتفقهة وأجناد الملوك، وأتباع القضاة، والعامة المتبعة لهؤلاء يشركون شرك الطاعة وقد «قال النبي ﷺ: لعدي ابن حاتم لما قرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٠).

(٣) سورة لقمان، الآية: (٢١).

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: (٦٦، ٦٧).

ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[١] فقال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: ما عبدوهم، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم»[٢]. فنجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه، والحرام ما حرمه، والحلال ما حلله، والدين ما شرعه، إما دينًا، وإما دنيا، وإما دينًا ودنيا...)[٣].

بل إن البعض قد يتجاوز بهذا الاتباع إلى قبول قول المتبوع في مسائل الإيمان والاعتقاد، فيكون هذا قد أشرك في الإيمان والقبول، وفي مثل هؤلاء يقول شيخ الإسلام - رحمه الله -:

(كثير من أتباع المتكلمة والمتفلسفة، بل وبعض المتفقهة والمتصوفة؛ بل وبعض أتباع الملوك والقضاة، يقبل قول متبوعه فيما يخبر به من الاعتقادات الخبرية، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضها، ومدح بعضها، وبعض القائلين، وذم بعض، بلا سلطان من الله، ويخاف ما أشركه في الإيمان والقبول، ولا يخاف إشراكه بالله شخصًا في الإيمان به، وقبول قوله بغير سلطان من الله وبهذا يخرج من شرع الله تصديقه من المرسلين والعلماء المبلغين والشهداء الصادقين وغير ذلك)[٤].

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن. باب تفسير من سورة براءة. برقم (٣٠٩٥)، ص(١٩٦٤) وقال عنه حديث حسن غريب، موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(٣) الفتاوى (١/ ٩٨)للاستزادة انظر. جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٣٢٨).

(٤) الفتاوى (١/ ٩٨).

إن الإسلام قد حدد السلطة التي تملك التحليل والتحريم، فانتزعها من أيدي الخلق أيًا كانت درجتهم في دين الله، أو بين الناس، فجعلها من حق الرب تعالى وحده، فلا أحبار ولا رهبان ولا ملوك أو سلاطين يملكون أن يحرموا شيئًا، أو يحلوا شيئًا على عباد الله، فبحكم ربوبيته تعالى لهم، يُشرع لهم ويحكم عبوديتهم له، ويقبلون أحكامه، فمن قبل تشريعًا غير تشريع الله فقد أشرك بالله .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك فقال : (...ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهدا قصده إتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله لا سيما أن اتبع في ذلك هواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ولهذا اتفق العلماء على أنه- المتبع- إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه)[١].

وقد بوب الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في كتاب التوحيد بابًا ترجم له بقوله: (باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو

---

(١) الفتاوى(٧/ ٧١)وللاستزاده انظر.الإيمان. لابن تيمية، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر. دمشق، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص(٥٧ – ٥٨).

تحليل ما حرمه، فقد اتخذهم أربابًا)[١]، فذكر فيه حديث عدي بن حاتم السابق.

وقد بيّن أحد العلماء الحكم في طاعة هؤلاء فيما خالف الحق، فقال: (إن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وقد عمت البلوى قديمًا وحديثًا بطاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمت به البلوى في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرًا)[٢]

وقد برزت هذه الخصلة عند اليهود والنصارى وعند من وافقهم في ذلك من الفرق الضالة، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بعض من برزت عندهم، فقال: (وبالجملة فهؤلاء وأشباههم أعداء الرسل وسوس الملل وخطاب القرآن لهم كثير جدا فإنهم أئمة لأتباعهم وهم من السادة والكبراء....،وكان فرعون موسى من أكابر ملوك هؤلاء، وقد ذكر الله تعالى في قصته في القرآن الكريم ما فيه عبرة)[٣].

أما عن وجودها عند اليهود وعند النصارى، فقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ذلك، فقال: (إن أكثر اليهود تركوا الإيمان بالنبي محمد ﷺ طاعةً لأحبارهم الذين يعرفون نبوة النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم)[٤].

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص(٣٨٨).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص(٣٩٤ – ٣٩٥).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٧٧).

(٤) هداية الحيارى. لابن قيم الجوزية، ت: رضوان جامع رضوان. الناشر مكتبة نزار مصطفى =

وقال عن النصارى (...استنادهم في دينهم إلى أصحاب المجامع الذين كفر بعضهم بعضًا وتلقيهم أصول دينهم عنهم...)[١].

كما وقد ظهرت هذه الخصلة عند الأميين، وتمثلت في طاعة كبرائهم ومما يدل على ذلك إنساءهم الأشهر الحرم، وطاعة عمرو بن لحي فيما ابتدعه من الشرك بالله، وتبحير البحائر، وحماية الحامى[٢]، وجعل ما ابتدعه من مخالفة الحق دينًا اتبعوه عليه. لهذا خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة فأنكر الله عليهم صنيعهم فقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[٣].

وقد بيّن البارئ سبحانه وتعالى لعباده عاقبة من فعل ذلك في الآخرة فقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا

=

الباز. مكة المكرمة، (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٢٨).

(١) المرجع السابق، ص(٢١١).

(٢) شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد، ص(١/ ٤١٢).

(٣) سورة الشورى، الآية: (٢١).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٦٦).

فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢)، وقد خالف هدي نبينا محمد ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بيّن لأمته الضابط في طاعة المخلوق لأي مخلوق مثله كائنًا من كان فقال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(٣).

إلا أن هذه الخصلة قد برزت وانتشرت انتشارًا واسعًا في هذا العصر في دولٍ نحت شريعة الله جانبًا، وما ذلك إلا طاعةً لساداتهم وكبرائهم من الحكام، أو الوزراء حين وضعوا لهم قوانين وأحكامًا وضعية باسم التقدم،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٣٨).

(٢) سورة سبأ، الآيات: (٣١ – ٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أخبار الآحاد، باب إجازة خبر الواحد برقم (٧٢٥٧)، ص(٦٠٤) بنحوه، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب وجوب الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية. برقم (٤٧٦٥)، ص(١٠٠٨) بنحوه. موسوعة الحديث الشريف.

والحضارة، والرقي، وليس هذا وحسب؛ بل وجعلت مخالفة هذه القوانين الوضعية جريمةً يعاقب عليها القانون، فتجرأ بعض الناس على المحرمات وتساهلوا فيها، كالربا، والزنا، والغناء ونحوها، وكل هذا تحت مظلة وحماية هذه القوانين الوضعية، كما أعطيت هذه المحرمات مسميات غير أسمائها، فسمت الربا بالفوائد، والزنا بالعلاقات الودية، حرصًا على ترويجها بين ضعاف النفوس، وحتى تنطلي على من يجهل الأحكام الشرعية لها.

* * *

المسألة الخامسة عشرة

إيذاء الأنبياء كما قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾(١)

المسألة السادسة عشرة

نسبتهم إلى الجنون

كقول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(٢)، **وقوله تعالى:** ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾(٣)

المسألة السابعة عشرة

الاستهزاء بالرسل وأتباعهم

المسألة الثامنة عشرة

قولهم في النبي ﷺ إنه شاعر

إن إيذاء الأنبياء واتهامهم بما يشينهم، ويقلل من مكانتهم، رذيلةٌ لا تكاد تخلو منها أمةٌ من الأمم، فجميع الرسل – عليهم السلام – واجهوا من أممهم شتى أنواع الأذى والتهم والافتراءات الكاذبة، وهذه التهم لا

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٦٩).

(٢) سورة الشعراء، الآية: (٢٧).

(٣) سورة سبأ، الآية: (٨).

تكون من المكذبين إلا عند عجزهم عن مواجهة أنبيائهم الذين أيدّهم الله بالحجج والآيات والمعجزات الباهرة، عندئذ يلجأ أهل الباطل إلى إيذاء أنبيائهم برميهم بالضلال والسفاهة والكذب والسحر والكهانة والجنون، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم، وغير ذلك من أنواع التهم والأذى التي يحاولون إلحاقها وإلصاقها بالأنبياء، وهم أبعد ما يكونون عنها، بل هم صفوة الخلق، اصطفاهم الله لإبلاغ شرعه وهدايته.

إن في هذه المسائل التي ذكرها المؤلف - رحمه الله تعالى - بعضًا من وسائل أهل الجاهلية من الأميين والكتابيين، التي كانوا يؤذون أنبياء الله تعالى بها.

فقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على المسألة الأولى بالآية التي أخبر فيها الشارع - عز وجل - عن أذى بني إسرائيل لموسى - عليه السلام -، والتي تضمنت في نفس الوقت النهي عن الوقوع في مثل هذه الخصلة الجاهلية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ ﴾(١).

ووجه الاستدلال من ذلك أنه لما قسم الرسول ﷺ ذات يوم قسمًا، فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر للرسول ﷺ ما قاله هذا الرجل، فاحمر وجهه وقال: « رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »(٢).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه برقم (٢٤٤٧)، (٢٤٤٨) بمثله ص(٨٤٥، ٨٤٦). موسوعة الحديث الشريف.

قال المفسرون: جاءت هذه الآية التي ينهى الله فيها أصحاب الرسول ﷺ من إيذائه بقولٍ يكرهه منكم، أو بفعل لا يحبه منكم، وأن لا يكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله(١).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية عما تضمنته هذه الآية من معانٍ: (فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً وأسلافهم وخيارهم، قد أخبرنا الله سبحانه عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبه بهم)(٢).

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على – إيذاء أهل الباطل لأنبيائهم عليهم السلام، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ ﴾(٣)، وقال تعالى على لسان أنبيائه: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾(٤). قال ابن كثير والمراد بهذه الآيات: (أي من الكلام السيئ والأفعال السخيفة)(٥).

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾(٦)، كما قال تعالى عن إيذاء المنافقين للرسول ﷺ:

---

(١) انظر. تفسير ابن جرير الطبري (١٠/ ٣٣٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٢).
(٢) هداية الحيارى، ص(٣١).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (٣٤).
(٤) سورة إبراهيم، الآية: (١٢).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٦).
(٦) سورة الصف، الآية: (٥).

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾[١].

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي من قال له شيئًا صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا)[٢]. وقد نهى الله - عز وجل - عن إيذاء الرسول وتوعده باللعن، وبيّن أن من آذاه بشيء فقد آذى الله - عز وجل -، وما ذلك إلا تعظيمًا لحقه - عليه الصلاة والسلام - فقال تعالى عن ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[٣].

قال ابن كثير – رحمه الله – عن الآية: (يقول تعالى متهددا ومتوعدا من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسوله بعيب أو تنقص، عياذا بالله من ذلك)[٤].

ومن إيذاء الأمم لرسلهم ما سجله القرآن الكريم – من اتفاق الطواغيت، وإجماعهم على اتهام جميع الرسل بالجنون، والتشكيك في قدراتهم العقلية، وما ذلك إلا لتشويه صورتهم، وتفريق الناس من حولهم والتشكيك فيما جاءوا به، قال تعالى عن عموم زعم هؤلاء: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[٥] ثم نص على

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٦١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٧).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٥٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٨).

(٥) سورة الذاريات، الآية: (٥٢).

موقف قوم نوح عليه السلام حين اتهموه بالجنون، فقال تعالى عنهم: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾[(١)]، كما قال أيضًا عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[(٢)]، وقال أيضًا عن اتهام فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[(٣)]، كما قال في آية أخرى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[(٤)]، ثم انتقل هذا الأسلوب في الإيذاء إلى كفار مشركي قريش، حين اتهموا الرسول ﷺ بالجنون، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[(٥)]، وقال أيضًا: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[(٦)]، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾[(٧)]. قال ابن كثير عن المراد بالآية: «أي لا يدري ما يقول»[(٨)].

إن إيذاء الأنبياء، ورميهم بالجنون، ليس بغريبٍ على من ألجم الحق ألسنتهم، وقامت عليهم الحجج الواضحة، والأدلة المقنعة، فقد عُرف عنهم العناد والاستكبار، وعدم قبول الحق.

---

(١) سورة القمر، الآية: (٩).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٢٥).

(٣) سورة الشعراء، الآية: (٢٧).

(٤) سورة الذاريات، الآية: (٣٩).

(٥) سورة الحجر، الآية: (٦).

(٦) سورة الدخان، الآية: (١٤).

(٧) سورة المؤمنون، الآية: (٧٠).

(٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥١).

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله – عن هؤلاء: (إن المستحق للطعن في عقله ودينه من جعل المستقيم أعوج، وزاغ عن سواء المنهج، وتناقض فيما يقول وجعل غيره هو المتناقض... ثم قال أيضًا عن اتهام الأقوام أنبياءهم بالجنون: (إن هذا من افتراء المكذبين على الرسل، لما خرجوا من عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون)[١].

هذا وقد شرع أهل الجاهلية في أسلوبٍ آخر من أساليب الإيذاء لأنبيائهم، مبالغةً منهم في العتو والاستكبار عن قبول الحق، فعمدوا إلى أسلوبٍ نفسي منحل في الإيذاء، مع أساليبهم السابقة، وذلك حين عمدوا إلى السخرية والاستهزاء بالرسل وأتباعهم لهدفٍ يصيبون إليه يقول الدكتور محمد عبد القادر عن ذلك: (حتى لا يكون لكلامهم تأثير في نفوس من حولهم، ولأن الشخص الذي يهزأ به ويسخر منه في عرف أهل الجاهلية، ضعيف العقل، قليل الإدراك، لا يسمع إليه، ولا يكترث بكلامه، ومن ثم يضعف حماس الأنبياء عن دعوتهم، ويتراجعون عن دعوة الناس)[٢].

فما من نبي إلا وسخر منه قومه واستهزءوا به، قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٣].

---

(١) الفتاوى (١٦/ ٣٣٦)للإستزاده انظر. بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٢٥).

(٢) انظر: الابتلاء والمحن في الدعوات: د. محمد عبد القادر أبو فاس.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: (٦، ٧).

والمراد بهذه الآية يقول ابن كثير: (أي يكذبونه ويسخرون به)[١].

وقال تعالى مواسيًا نبيه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٣].

وقال تعالى عن سخرية قوم نوح عليه السلام منه فقال: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[٤]. قال ابن كثير: والمراد: (أي يهزءون ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق)[٥].

كذلك ما ذكره الله – عز وجل – عن سخرية قوم شعيب عليه السلام منه حين قال عنهم: ﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[٦].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: (يقولون له ذلك على سبيل التهكم)[٧].

وقال تعالى عن سخرية كفار قريش من النبي محمد ﷺ واستهزائهم

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٤).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٠).
(٣) سورة الحجر، الآية: (١١).
(٤) سورة هود، الآية: (٣٨).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٦).
(٦) سورة هود، الآية: (٨٧).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٧).

به وبأتباعه: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾(٢)، وقال تعالى عن سخرية هؤلاء الكافرين بأتباع الأنبياء ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(٣).

وقد كان أبو جهل(٤) فرعون هذه الأمة شديد الاستهزاء بالرسول والسخرية منه، ومن القرآن الكريم، قال يومًا عن شجر الزقوم لقريش أتدرون ما هو؟ إنه عجوة يثرب بالزبد(٥).

وقد كان الرسول ﷺ إذا جلس في المسجد، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه هزأت بهم قريش، وقالوا: (أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه)(٦). وغيرها من المواقف التي تدل على شدة استهزاء قريش بالرسول،

---

(١) سورة الصافات، الآية: (١٢).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (٤١).

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: (١١٠ - ١١١).

(٤) هو أبو جهل واسمه عمرو وكان يكنى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ويطلق عليه فرعون هذه الأمة، كان من أشد كفار قريش عنادًا وإيذاءًا للرسول ﷺ. انظر: السيرة لابن هشام (١/ ٢٥٢).

(٥) السيرة: لابن هشام (١/ ٣٢٥).

(٦) السيرة: لابن هشام (١/ ٣٦٠).

وسخريتهم منه ومن أتباعه المؤمنين، وإيذائهم لهم[١].

هذا وقد بالغت قريش في إيذائها للرسول ﷺ، ويتجلى ذلك حين أغرت سفاءهم بالرسول ﷺ، ليكذبوه، ويؤذوه، ويرموه بالجنون كما حصل معه في الطائف، ورموه بالكهانة والسحر[٢] . ولم يقف أذاهم عند هذا الحد، وإنما تجاوزوا ذلك أيضًا حين رموه بالشعر، قال تعالى عن قولهم هذا: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾[٣]، وقال أيضًا عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾[٤]، وقالوا: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله — عن ذلك: (كان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله ﷺ، مجتهدين بكل طريق يمكن، فتارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذي القرنين...، وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيشبهونه بمن ليس مثله لمجرد شبه ما، مع ظهور الفرق، فتارة يقولون: مجنون، وتارة، يقولون: ساحر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر، إلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون هم، وكل عاقل سمعها أنها

---

(١) للاستزادة المرجع السابق.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٣).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٥).

(٤) سورة الطور، الآية: (٣٠).

(٥) سورة الصافات، الآية: (٣٦).

افتراء عليه)[١].

كما قال أيضًا في موضعٍ آخر: (فلما كان في الأمم كفار ومنافقون يكفرون ببعض الرسالة دون بعض إما في القدر وإما في الوصف كما أن فيهم كفار ومنافقون يكفرون بأصل الرسالة، وكان في الكفار بأصل الرسالة من قال: إن الرسول شاعر، وساحر، وكاهن، ومعلم، ومجنون...)[٢].

كما قال: (وقد علم بالتواتر أنه ﷺ قد دعا قريشًا خاصة، والعرب عامة، وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وآذوه، وآذوا الصحابة، وقالوا فيه أنواع القول، مثل قولهم هو ساحر، وشاعر، وكاهن، ومعلم، ومجنون، وأمثال ذلك، وعلم أنهم كانوا يعارضونه، ولم يأتوا بسورة من مثله، وذلك يدل على عجزهم عن معارضته)[٣].

وقد نهى الشارع – عز وجل – في محكم كتابه عن الاستهزاء بالرسل، وتوعد من قام بذلك مخالفًا بذلك أهل الجاهلية فقال تعالى عن ذلك: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ ﴾[٤].

وعلى هذا فإن ما يحصل في العصر الحاضر من الاستهزاء بالرسل عامة،

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٧٤).

(٢) الفتاوى (١٢/ ٣٤٣).

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية: لشيخ الإسلام ابن تيمية. ت: سعيد بن نصر بن محمد. مكتبة الرشد. الرياض، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص(٢٠٨).

(٤) سورة التوبة، الآيتان: (٦٥ – ٦٦).

وبالنبي محمد ﷺ خاصة، والافتراء عليهم، ومحاولة الانتقاص من مكانتهم، والاستخفاف بشأنهم بشتى الوسائل والطرق، قد ظهر جليًا عند أهل الكتاب من النصارى واليهود وأتباعهم، كتقديم أقوال الأحبار والرهبان على أقوال الرسل، بل ومناقضتها، أو بما نسبوه إليهم من المعايب، والنقائص، والفواحش ولم يكتفوا بقول ذلك بألسنتهم، بل وسطروها في كتبهم المقدسة كما يزعمون، إن هذا لهو أمرٌ قد بلغ عنان الكفر والفجور والفسق، كما أن ما نراه اليوم ونسمعه من أهل الكتاب والمستشرقين، ومن سار على نهجهم في العمل على إيذاء الرسول ﷺ، وتشويه صورته، كالزعم بأن حياته حياة شهوة ولذة، استدلوا على ذلك بتعدد زوجاته، وأنه بُعث للإصلاح وبيان الأمور العبادية، ولا علم لهُ بالقيادة السياسية، فصار مقاتلاً، وقد كان يميل إلى القتل وسفك الدماء، وغيرها من التهم التي لاحصر لها، شبيهٌ بإيذاء أهل الكتاب والمشركين لرسلهم قديمًا(١).

ومعلومٌ الحكم فيمن قام بمثل هذه الخصال، وهو الكفر، فمن استهزأ بالله، أو كتابه، أو رسله فهو كافر، لأن المراد من الاستهزاء هو الاستنقاص من شأن وأمر المستهزأ به.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - عن ذلك: (لا يشك مسلم أن الاستهزاء بسيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، وقائد الغر المحجلين، إنها لجرأة تحزن كل مسلم، وتدمي قلب كل مؤمن،

---

(١) للاستزادة انظر: القرآن والمستشرقون: لمحمد عزه دروزة، إسلامنا: د. مصطفى السباعي، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي: د. عماد الدين خليل.

وتوجب اللعنة والعار والخلود في النار، وغضب العزيز الجبار، والخروج من دائرة الإسلام، والإيمان إلى حيز الشرك والنفاق والكفران لمن قاله، أو رضي به، ولقد نطق كتاب الله الكريم بكفر من استهزأ بالرسول العظيم، أو بشيء من كتاب الله المبين وشرعه الحكيم، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾[(١)].
فهذه الآية نص ظاهر، وبرهان قاطع على كفر من استهزأ بالله العظيم، أو رسوله الكريم، أو كتابه المبين، فقد أجمع علماء الإسلام في جميع الأعصار والأمصار على كفر من استهزأ بالله، أو رسوله، أو كتابه، أو شيء من الدين، وأجمعوا على أن من استهزأ بشيء من ذلك وهو مسلم أن يكون بذلك كافرًا مرتدًا عن الإسلام يجب قتله)[(٢)].

* * *

(١) سورة التوبة، الآيتان: (٦٥، ٦٦).

(٢) رد الشيخ ابن باز – رحمه الله – على ما نشر حول الاستهزاء بالنبي وزوجاته التسع في صحيفة صوت الإسلام بالقاهرة في العدد ٢٩ يناير عن صحيفة المساء.

المسألة التاسعة عشرة
التحريق لمن دعاهم إلى الحق كما فعلوا مع إبراهيم فأنجاه الله عز وجل وكما في قصة الأخدود

إن إحراق البشر وهم أحياء فعلٌ يتصف بالوحشية، ويُعد من أفظع ألوان التعذيب وأشدها. ويتصف فاعلوه بالجمود والتحجر، قد غطى الضلال والكفر قلوبهم حتى امتلأت هذه القلوب بالشر، ونزعت منها الرحمة، فأصبحوا لا يفرقون بين قريبٍ ولا بعيد، ولا محقٍ أو معتدٍ.

فبقسوتهم هذه، واستكبارهم عن قبول الحق، سينال كل من يخالفهم، أيـًا كان منهجه، عقوبة الإحراق من غير ذنبٍ اقترفه، غير أنه خالفهم في منهجهم الباطل بدعوته لهم إلى الحق.

فهنا يذكر المؤلف - رحمه الله - في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية التي ظهرت عند الكتابيين والأميين، خصلةٌ تدل على انعدام الإنسانية في قلب من يمارسها، وهي التحريق، كما حصل مع نبي الله إبراهيم عليه السلام حين دعا والده آزر(١)، وقومه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة

---

(١) هو: تارح بن ناهور بن ساروغ بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح، كان أزر عابد للأصنام وصانعًا لها ويبيعها. انظر: تاريخ الطبري للملوك والأمم. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م (١/ ١٤٢)، قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، القرشي الدمشق. ت: د. عبد الحي الفرماوي. دار الطباعة والنشر الإسلامية. مدينة نصر. دار اليقين، المنصورة - مصر، (ط١)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، (١٦٧).

الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، حينها اتفقوا على إحراقه بالنار، فقال تعالى عنهم: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾(١). وقال تعالى أيضًا: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾(٢)، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾(٣). قال الطبري – رحمه الله – عن المراد بالجحيم عند العرب: (جمر النار بعضه على بعض، والنار على النار)(٤).

وقال في تفسيره لهذه الآيات: (فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إذ قال لهم اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إلا أن قال بعضهم لبعض اقتلوه أو حرّقوه بالنار، ففعلوا فأرادوا إحراقه بالنار، فأضرموا له النار، فألقوه فيها، فأنجاه الله منها،ولم يسلطها عليه بل جعلها عليه بردًا وسلامًا)(٥).

وقال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره للآية: لما دحَض حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: حرقوه، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، فأضرموا نارًا، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها وجعلوا إبراهيم – عليه

(١) سورة الأنبياء، الآية: (٦٨).
(٢) سورة العنكبوت، الآية: (٢٤).
(٣) سورة الصافات، الآية: (٩٧).
(٤) تفسير الطبري (١٠/ ٥٠٤).
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ١٣٢).

السلام - في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا[(١)].

وقد ذكر تعالى أيضًا مثالاً آخر لمن قُتلوا على نحو هذه الخصلة، وهم أصحاب الأخدود[(٢)]. فقد ذكر الشارع قصتهم في محكم كتابه فقال تعالى عنهم: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ ﴾[(٣)].

قال المفسرون عن المراد بهذه الآيات: لُعن أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود[(٤)].

وقال القرطبي - رحمه الله - في المعنى المراد من الآية: (قال علماؤنا: أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وَحَّد قبلهم من الشدائد ليؤنسهم بذلك...، فكثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا في دينهم)[(٥)]. وقد حث النبي ﷺ أمته على الصبر على مثل هذا الابتلاء،

---

(١) انظر. تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٤، ١٨٥، ٤١٠) بتصرف وللإستزاده انظر. قصص الأنبياء لابن كثير (١٧٩).

(٢) المراد بالأخدود هو الشق في الأرض، يحفر مستطيلاً وجمعه أخاديد، والمراد بأصحاب الأخدود هم قوم كفار أحرقوا المؤمنين بالنار، وقد وردت قصص متعددة في هؤلاء القوم، منها شيء في الشام، ومنها شيء في اليمن، والمقصود أن هؤلاء الكفار حاولوا بالمؤمنين أن يرتدوا عن دينهم، ولكنهم عجزوا، فحفروا أخدودًا، حُفرًا ممدودة في الأرض كالنهر، وجمعوا الحطب الكثير، وأحرقوا المؤمنين بها. انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٢٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٤)، تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٣)، التفسير الكبير (١١/ ١١٠)، تفسير جزء عم لابن عثيمين (١٢٦).

(٣) سورة البروج، الآيتان (٤،٥).

(٤) انظر. تفسير الطبري (١٢/ ٥٢٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٣).

(٥) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٦).

ودليل ذلك ما جاء في السنة من أن رجلاً أتى إلى الرسول ﷺ فقال له: أوصني، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تشرك بالله شيئًا، وإن قطعت أو حُرقت بالنار...» [١].

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن هناك من المسلمين من سيمتحن بالتحريق بالنار، لهذا حرص النبي ﷺ على توصية أمته بالبقاء على التوحيد.

وقد قال القرطبي - رحمه الله - عمن امتحنوا بذلك من أصحاب رسول الله ﷺ، وعن موقفهم تجاه هذا الفعل: (لقد امتُحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك)[٢].

كما قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (كما أن الصحابة - رضوان الله عليهم - حين جاؤا يشكون للرسول ﷺ، ويطلبون أن يستنصر الله لهم، فيدعو لهم، فقال - عليه السلام -: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، فما يصده ذلك عن دينه» [٣]... وفي حديث قصة أصحاب

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب بر الوالدين. فصل في عقوق الوالدين برقم (٧٨٦٥) (٦/ ١٨٨)، وقال إسناده ضعيف، لأن مكحولاً لم يدرك أم أيمن وروى عنها مرسلاً.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٦١٢) بمثله.

=

الأخدود قال - عليه الصلاة والسلام -: «وأن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا، فلم يرجعوا، حتى إن المرأة التي أرادت أن ترجع أنطق الله صبيها، وقال: اصبري يا أماه فإنك على الحق...» (١)...ومعلوم أن هذا إنما ذكره النبي ﷺ في معرض الثناء على أولئك لصبرهم وثباتهم، وليكون ذلك عزة للمؤمنين من هذه الأمة، وقد دل على ذلك أيضًا ما ذكره الله في قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج)(٢).

وقد مارست قريش صورًا شتى في تعذيب المسلمين في مكة، وبشتى ألوان العذاب، فجعلوا يعذبونهم بالحبس، والجوع، والعطش، وبوضع أجسادهم على رمضاء مكة إذا اشتد الحر كما حصل مع بلال(٣) - رضي الله عنه -، وكما حصل مع خباب(٤) - رضي الله عنه - الذي أشعل الكفار

=

ص(٢٩٤)، في كتاب مناقب الأنصار. باب ما لقى رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين في مكة برقم (٣٨٥٢) بمثله (٣١٢)، وفي كتاب الإكراه من احتكار الضرب والقتل والهوان على الكفر برقم (٦٩٤٣) بمثله. ص(٥٧٩) موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقاق. باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام. برقم (٧٥١١) بقصة طويلة (١١٩٧). موسوعة الحديث.

(٢) انظر.الاستقامة (٢/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) هو: بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، شهد بدرًا وأحدًا، سمع رسول الله ﷺ خشف نعاله في الجنة صحابي جليل، لقي في سبيل إسلامه العذاب والهوان، أعتقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه. توفي ٢١هـ. انظر: الإصابة ومعه الاستيعاب (١/ ١٤٦).

(٤) هو: خباب بن الأرت بن جندله، التميمي، ويقال الخزاعي، سبي في الجاهلية، عُذب عذابًا شديدًا في سبيل إسلامه، روى عن الرسول ﷺ، شهد بدرًا، مات سنة ٣٧هـ قال عنه علي رضي الله عنه رحم الله خبابًا، أسلم راغبًا، وهاجر طائعًا، وعاش مجاهدًا، وابتلى في جسمه أحوالا ولن

=

له نارًا حتى أصبحت جمرًا، ثم وضعوه على ظهره عليها، حتى أطفأ ودك ظهره النار، كما أن سيدته كانت تأخذ الحديدة وقد أحمتها، فتضعها على رأسه[١]، ومع هذا وذاك فقد صوروا أعظم الصور في الصبر والثبات على الحق.

كما وقد كان هناك من امتحن في دينه، فألقي في النار من هذه الأمة، فلم تؤثر به، وهو أبو مسلم الخولاني[٢]، فقد عمد أبو الأسود العنسي مدعي النبوة في اليمن، إلى إحـراق أبي مسلم الخولاني حين رفض أن يشهد له بالنبوة، فأنجاه الله - عز وجل -.

أيضًا فإن هذا النوع من التعذيب مارسه أهل الكتاب، ويظهر ذلك في ما لقيه النصارى الأوائل في القرون الوسطى من أرباب الكنائس، فقد تضمنت تلك الحقبة من الزمن جميع أنواع التعذيب، والتي من ضمنها الإحراق بالنار لكل من يخالف أحكام الكنائس، أو يخرق شيئًا من قوانينها

=

يضيع الله أجره. انظر: الإصابة والاستيعاب (١/ ٤١٦).

(١) انظر.الإصابة في تمييز الصحابة والاستيعاب في أسماء الأصحاب (١/ ١٤٦)، (١/ ٤١٦)، السيرة لابن هشام (١/ ٢٩٧)، الابتلاء والمحن في الدعوات (٩٦، ٩٧).

(٢) هو: أبو مسلم الخولاني اليمني، اسمه عبد الله بن ثوب، إمام زاهد تابعي، كان عابدًا له كرامات وفضائل، أنجاه الله من النار التي ألقاه فيها أبو الأسود العنسي مدعي النبوة في اليمن في خلافة أبي بكر. توفي سنة ٦٢هـ.

انظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٠٢)، الوافي بالوفيات (١٧/ ٥٥)، النجوم الزاهرة (١/ ١٥٦)، تاريخ مدينة دمشق: لأبي القاسم علي بن الحسن الشافعي. ت: محب الدين أبي سعيد العمري. دار الفكر. بيروت، ١٩٩٥، (٢٧/ ١٩٠).

الوضعية الجائرة(١).

كما أن مثل هذا النوع من التعذيب ظهر كثيرًا في عصرنا الحاضر، فقد أحرق عشرات المسلمين في تايلاند لمجرد أنهم طالبوا بإقامة مرافق عامة لهم، وشُن عليهم العداء من قِبل حكومتهم، كذلك أحرق عشرة علماء من علماء مقديشو لما أعلنوا حكم الله في إلغاء أحكام الدين في الصومال، كالإرث والحياة الأسرية، فقام طواغيت الصومال الشيوعيون بإحراقهم إحياء(٢).

وفي أرض البوسنة والهرسك أحرق الرجال والنساء والأطفال المسلمين وهم أحياء، وما حصل كذلك من إحراق الهنود المسلمين في بيوتهم ومساجدهم، وإحراق طلبة المدارس الابتدائية في مدارسهم، وإحراق لحى الشيوخ حتى إذا شوهت وجوههم أطفأوا النار بأبوالهم، وما قامت به إسرائيل في عام ١٩٨٨م بإحراق أربعة عشر فلسطينيًا وهم أحياء، وغيرها من الصور المأساوية التي تنم عن الحقد الدفين في قلوب هؤلاء الطغاة ضد الحق وأهله(٣).

يقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن العبرة في ممارسة هذه

---

(١) للاستزادة انظر: تاريخ التعذيب وأصول تحريمه في الإسلام: لمحمد بن ظارية وعباس عروة ويوسف بجاوي. مركز الراية للتنمية الفكرية. جدة. (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) انظر: جوانب من سيرة الشيخ عبد العزيز بن باز (٥٤٦).

(٣) انظر: جوانب من سيرة الشيخ عبد العزيز بن باز (٥٤٦)، تاريخ التعذيب وأصول تحريمه في الإسلام، زعماء الشر في القرآن الكريم. رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب من: سميرة محمد عبد الله جاليه، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

الخصلة: (إن الله سبحانه وتعالى قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله - عز وجل - الكفار على المؤمنين، وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، فلله في ذلك حكمة، وهؤلاء الكفار المعتدون أملى الله لهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، فهؤلاء الكفار لم يأخذوا المسلمين بذنب إلا شيئًا واحدًا، وهو أنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد، وهذا ليس بذنب، بل هذا هو الحق، ومن أنكره فهو الذي ينكر عليه)[١]. وقد توعد الشارع - عز وجل - من يقومون بهذا الفعل الشنيع الخالي من الإنسانية إن لم يتوبوا عن فعلهم هذا بالعذاب في جهنم، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾[٢]. قال الطبري في المراد بهذه الآية: (أي حرقوا المؤمنين والمؤمنات)[٣].

* * *

(١) تفسير القرآن الكريم (جزء عم) الشيخ محمد بن عثيمين، (١٣١).

(٢) سورة البروج، الآية: (١٠).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٥٢٧).

المسألة العشرون

نسبة الصاحبة إليه - تعالى عن ذلك وتنزه -

إن توحيد الله في أسمائه وصفاته يتضمن إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال والجلال، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله من صفات النقص، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

وهنا يبين المؤلف - رحمه الله - في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين أنهم ينسبون لله تعالى ما لا يليق به من النقص، فقد نسبوا له الصاحبة: أي «الزوجة»، والتي يراها البعض من أهل الجاهلية أن التنـزه عنها من الكمال، ومن هؤلاء رجال الدين عند النصارى حيث كانوا يرون أن من الكمال ترك الزواج، واتخاذ الصاحبة، لأن اتخاذ الصاحبة والزواج في نظرهم منافٍ للكمال، فعجبًا لهؤلاء كيف لهم أن ينـزهوا أنفسهم عن الصاحبة، ويعدون اتخاذها منافيًا للكمال في حقهم، ثم ينسبونها لله تعالى! فأي عاقلٌ يقبل بذلك؟!.

إن من أهل الجاهلية الأميين والكتابيين من صرح بنسبة الصاحبة والولد لله تعالى، كالنصارى، ومنهم من كان كلامه مستلزمًا لنسبة الصاحبة لله تعالى، وذلك بنسبة الولد له، كقول اليهود عزير ابن الله، وقول المشركين

---

(١) سورة الشورى، الآية: (١١).

الملائكة بنات الله، وأن الله صاهر الجن. لقد نسب أهل الجاهلية لله تعالى بأقوالهم تلك نقصًا يتنـزه عنه، لهذا نجد أن النبي ﷺ قد خالف في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد أبطل تعالى على لسان نبيه هذه الخصلة، واجتث أصولها، فكان مما أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ تنـزيه نفسه الكريمة عما نسبه إليها أهل الجاهلية، فكانت النصوص الواردة في نفي الصاحبة عن الله تعالى وتنـزيهه عنها: إما بتصريح نفي نسبة الصاحبة له، كقوله تعالى على لسان الجن: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾[١]، قال الطبري: (..علا ملك ربنا وسُلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفًا، ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وِقاع شيء يكون منه ولد...إنهم نزهوا الله عن اتخاذ الصاحبة والولد بقوله(وأنه تعالى جد ربنا)...وقوله (ما اتخذ صاحبة) يعني زوجة ولا ولدا)[٢].

وقال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (أنه تعالى جلال رِّبنا أن يتخذ صاحبة وولدًا للاستئناس بهما والحاجة إليهما)[٣].

أو بنفي نسبة الصاحبة لله تعالى بطريق الاستلزام من خلال نفي نسبة الولد له المستلزم لوجود صاحبة له.

فوجود الولـد لله تعالى يستلزم منه وجـود مـا يتولد منه، وهي

(١) سورة الجن، الآية: (٣).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٢٦١).

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١٢).

الصاحبة، قال تعالى عن ذلك: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (تنـزه الله وعلا وارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه، في ادعائهم واختراقهم له بنين وبنات) (٢) وذلك لأن الولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة، فيكون له ولد.

وقال ابن كثير - رحمه الله - أيضًا في تفسيرها: (لأن الولد إنما يكون متولدًا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه، ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد)(٣).

أيضا قال ابن قيم الجوزية – رحمه الله – عن ذلك: (..وأما منافاة عدم المصاحبة للولد فظاهر أيضا لأن الولد إنما يتولد من أصلين فاعل ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصًا. فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد)(٤).

وقال الشيخ ابن سعدي عن هذه المسألة: (كما أن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي عظمة الله وكماله، ويضاد غناه تعالى)(٥).

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: (١٠٠، ١٠١).
(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٩٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦١).
(٤) بدائع الفوائد (٤/ ١٧٥).
(٥) تفسير ابن سعدي (٨٩٠).

أيضًا ومن النصوص التي نزه الله بها نفسه عن الصاحبة قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[(١)]. قال القرطبي في تفسير هذه الآيات: (أي الواحد الوتر الذي لا شبيه له ولا نظير له، ولا صاحبة، ولا ولد، ولا شريك)[(٢)].

قال مجاهد - رحمه الله - في المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي: (صاحبة)[(٣)].

وقال تعالى منـزهًا نفسه عما ينسب إليه من النقائص: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[(٤)]. قال القرطبي: (أي نزه الله سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون... وهو رب العزة...من الصاحبة والولد)[(٥)].

وقال تعالى أيضًا في تنـزيه نفسه: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾[(٦)].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (لو أردنا أن نتخذ زوجة وولدًا لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكنا لا نفعل ذلك، ولا يصلح لنا فعله،

---

(١) سورة الإخلاص، الآيتان: (٣، ٤).
(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٥).
(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٧٤٥)للإستزاده أنظر.أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان: لعبد العزيز عبد الله المبدل. دار التوحيد للنشر. الرياض، (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (١/ ١٠٣).
(٤) سورة الصافات، الآية: (١٨٠).
(٥) تفسير القرطبي (١٥/ ١٢٤).
(٦) سورة الأنبياء، الآية: (١٧).

لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولد، ولا صاحبة)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: في تفسر (لهوًا): (أي لهوًا بالولد والمرأة وباللعب، فتضمنت هذه الآية تنـزيه الله عز وجل عن أن يتخذ ما يُلهي به، كالمرأة والولد، وعن اللعب مطلقًا)(٢).

أيضًا مما يدل على بطلان هذه الخصلة ما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيدهُ كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا»(٣).

قال ابن حجر - رحمه الله - في بيان المراد بهذا الحديث: (سماه تعالى شتمًا لما فيه من التنقيص؛ لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه، ويستلزم ذلك سبق النكاح، والناكح يستدعي باعثًا له على ذلك، والله سبحانه منـزه عن جميع ذلك)(٤).

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ١١).

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٢٠، ٢١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير. باب (وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه) برقم (٤٤٨٢) ص(٣٦٨)، موسوعة الحديث الشريف، كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق ابن منده الأصبهاني. ت: محمد بن حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص(٧٧).

(٤) فتح الباري، (٨/ ١٦٨).

ومن الأدلة كذلك على نفي هذه الخصلة ما ورد في حديث الرؤية الطويل من حديث أبي سعيد الخدري(١) - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «... فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عُزيرًا ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ من صاحبةٍ ولا ولدٍ... ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نُعُبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبةٍ ولا ولدٍ...»(٢).

والذي عليه أهل السنة والجماعة خلفًا عن سلف: القول بأن الله - عز وجل - لا شريك له، ولا ضدّ له، ولا ندّ، ولا شبيه له، إله واحد صمد لم يتخذ صاحبة، ولا ولدًا، ولم يشرك في حكمه أحدًا.

وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - الكلام في المسألة في مواضع عدة، فقال عن ذلك: (وأما الذين كانوا يقولون من العرب أن الملائكة بنات الله، وما نقل عنهم أنهم قالوا إنه صاهر الجن، فولدت له الملائكة، فقد نفاه الله تعالى عنه بامتناع الصاحبة، وبامتناع أن يكون منه جزء، فإنه صمد، وبقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ﴾(٣)) (٤).

---

(١) هو: سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، كان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم. روى الكثير من الأحاديث. توفي سنة ٧٤هـ وقيل ٦٤هـ. انظر: الاستيعاب، (٢/ ٤٤)، الإصابة (٢/ ٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب معرفة طريقة الرؤية برقم (٤٥٤)، ص(٧١٠)، موسوعة الحديث الشريف.

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٠١).

(٤) الفتاوى (١٧/ ٢٧٢).

أيضًا مما قاله الشيخ: (..ولهذا ذهب طوائف من النصارى إلى أن مريم امرأة الله، وزوجته، وقالوا أبلغ من ذلك، حتى ذكروا شهوته للنكاح)[(١)].

ومعلومٌ أن كمال غنى الله - عز وجل - يستلزم كمال ملكه لما في السموات وما في الأرض، ويستلزم كمال تفرده بالملك، كما يستلزم نفي الولد والصاحبة والشريك.

وعن ذلك يقول شيخ الإسلام - رحمه الله -: (إن ما في السموات وما في الأرض ملكه وحده، لا يشاركه فيه مشارك، وهذا يتضمن انفراده بالملك الحق، والملك العام لكل موجود، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته، وتوحيد إلهيته، فتضمن نفي الولد والصاحبة والشريك؛ لأن ما في السموات وما في الأرض إذا كان ملكه، وخلقه؛ لم يكن له فيهم، ولد، ولا صاحبة، ولا شريك. قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ ﴾[(٢)])[(٣)].

فجميع الأدلة التي نزه الله فيها نفسه عن الولد هي أدلةٌ توجب تنزيهه عن الصاحبة في الوقت نفسه، والعكس كذلك؛ لأنهم إن زعموا أن له ولدًا، فهو زعمٌ في الوقت نفسه بأن له صاحبة.

وعن ذلك يقول شيخ الإسلام - رحمه الله -: (ولهذا كان قول النصارى أن المسيح ابن الله – تعالى الله عن ذلك – مستلزمًا لأن يقولوا: إن

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٤٨٢).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٠١).
(٣) الفتاوى (٤/ ١٣٠ - ١٣١).

مريم صاحبة الله، فيجعلون له زوجة وصاحبة، كما جعلوا له ولدًا، وبأي معنى فسروا كونه ابنه، فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى، والأدلة الموجبة تنـزيهه عن الصاحبة، توجب تنـزيهه عن الولد)(١).

وقد توعد الله - عز وجل - كل من وصفه تعالى بما لا يليق به، أو نسب لله تعالى ما تنـزه عنه من النقائص، كنسبة الصاحبة والولد والشريك له، أو من كفر به؛ بالإبعاد عن رحمة الله والعذاب المهين فقال تعالى متوعدًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٢).

قال القرطبي - رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (اختلف العلماء في أذِيّةَ الله بما تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر، ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود لعنهم الله: يد الله مغلولة، والنصارى: المسيح ابن الله، والمشركون: الملائكة بناته، والأصنام شركاؤه)(٣).

أخيرًا: فإذا كان اليهود والنصارى والأميون قد نسبوا – الصاحبة لله تعالى – فإن لهم اليوم بقيةً ورثوا عنهم هذه الخصلة، وقلدوهم فيها من طوائف الضلال بل وزادوا عليهم كفرًا وطغيانًا، ومن ذلك ما زعمه

---

(١) الفتاوى (١٧/ ٢٦٨).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٥٧).

(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ٢١١، ٢١٢).

القاديانيون[١] من كونه – تعالى – يجامع، ويباشر، ويولد له، وذلك أنهم زعموا أن الله – تعالى – جامع وباشر نبيهم، ويولد له أولاد خلافًا لنصوص كتاب الله وسنة رسول ﷺ[٢]، وعلى هذا يقال للقاديانية على هذه العقيدة التي يعتقدونها ما قاله الله – عز وجل -: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٣]. والله أعلم.

* * *

(١) القاديانيون: حركة نشأة سنة ١٩٠٠م في الهند بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي، قادها مرزا غلام أحمد القادياني ١٨٣٩ –١٩٠٨م، كان وفيًا للاستعمار مطيعًا له، قاد دعوةً ضالة، ليست من الإسلام بعقيدة تخالف الإسلام في كل شيء، أفتى العلماء بكفرهم. انظر: القاديانية دراسات تحليلة: لإحسان إلهي ظهير. إدارة ترجمان السنة باكستان. (ط٣)، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، والموسوعة الميسرة في الأديان، (١/ ٤١٩).

(٢) انظر: القاديانية دراسات تحليلية، (٩٩)، مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد، (٤٤٠).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٣٠).

المسألة الحادية والعشرون
أنهم يخوفون من دعاهم إلى الله بمعبوداتهم كما في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[١]

يبين المؤلف – رحمه الله – في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند الأميين وأهل الكتاب، والصابئة، ومن وافقهم في مثل هذه الخصلة من أصحاب المذاهب الضالة من الصوفية[٢]، وعباد القبور، وغيرهم، والتي تمثلت في تخويف من دعاهم إلى عبادة الله بمعبوداتهم من دون الله من الأوثان، والطواغيت، أو الجن وغيرها من المعبودات الباطلة.

المراد بالخوف: هو توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب عن أمارةٍ مظنونة أو معلومةٍ[٣].

إن القارئ لكتاب الله تعالى، ولكتب السير يجد أن لأهل الجاهلية أسلوبين في تخويف من دعاهم إلى الله بمعبوداتهم، وهما: إما بالنص على ذلك في خطاباتهم بعبارات التحذير والإنذار، أو بلازم مفهوم الخطاب، كما

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٣٦).

(٢) هي: حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي، تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، وهي خليط من عقائد الفلسفة اليونانية، ورهبانية النصرانية، فمن عقائدهم الغلو في الأولياء والرسل، والحلول والاتحاد. انظر: تلبيس إبليس، (١٩٩)، هذه هي الصوفية: د. لعبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العلمية، (ط٣)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص(١٩ – ١٧٤)، الموسوعة في الأديان، (١/ ٢٤٩).

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني (١١٤)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (٨٥).

سيرد في قصة تخويف قوم هود لهود - عليه السلام -.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله – على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية الأميين بمقالة كفار قريش للرسول ﷺ حين دعاهم إلى عبادة الله وحده، فخوفوه صراحةً من أوثانهم، قال تعالى في ذلك: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ .

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (أي يخوفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها، ومعيبك لها)[1].

وقال القرطبي في تفسيرها أيضًا: (أي لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك، أو تصيبنك بسوء)[2].

وقد نص الشارع على وجود هذه الخصلة الجاهلية عند قوم هود – عليه السلام – حين خوفوه بأوثانهم عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده، فقال تعالى عنهم: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[3].

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابتك

(١) تفسير الطبري (١١/ ٧).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٦).
(٣) سورة هود، الآية: (٥٤).

بجنون، وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها، وعيبك لها)[١].

هذا وقد ظهرت هذه الخصلة عند قوم إبراهيم - عليه السلام - حين ناظرهم، وحاجهم في معبوداتهم الباطلة، فخوفوه من هذه المعبودات، قال تعالى عن ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ﴾[٢].

إن من يتمثلون بالقيام بمثل هذه الخصلة لم يقتصروا في تخويفهم على الأنبياء والرسل فقط؛ بل عمدوا حتى إلى تخويف كل من اتبع الأنبياء، وآمن بالله، قال تعالى عن ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[٣] كذلك ما ورد في كتب السيرة حين بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد[٤] ليكسر صنم العزى[٥]، فعمد المشركون إلى تخويفه منها حين قال له أكبر

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٠).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٨١).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٧٣).

(٤) هو: خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، أسلم في السنة السابعة، وتوفي سنة (٢١هـ) لقبه رسول الله ﷺ بسيف الله. انظر: الاستيعاب (١/ ٤٠٥)، الإصابة (١/ ٤١٢).

(٥) هي أعظم أصنام قريش، توجد بنخلة الشامية، وكان سدنتها بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم. انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٩٧).

سدنتها[١]: احذركها يا خالد، فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد رضي الله عنه إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس[٢]...

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة في آيات كثيرة، وبأساليب عدة، فتارةً بالنص على النهي عن الخوف من غير الله تعالى، وأن الخوف لا يكون إلا من الله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣]. وتارةً بالثناء منه تعالى على عباده المؤمنين به لخوفهم منه تعالى وحده، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[٤]، وقال أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[٥]، وتارةً ببيان الوعد المترتب لمن عبد الله على خوف، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[٦]، وتارةً أخرى بإبطال مزاعم أهل الجاهلية في قدرة معبوداتهم على النفع أو الضر، قال تعالى عن ذلك: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[٧]، وبعد فإن الآيات في تقرير هذه

---

(١) السدنة هم الذين يقومون بأمر الأصنام، وأمر ما يتقرب به عندها من الذبائح ونحوها. انظر: سير ابن هشام (١/ ٦٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٧)، تفسير ابن كثير (١٥/ ٢٢٦)، سيرة ابن هشام (٤/ ٣٧٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٧٥).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (٥٧).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: (٦٠).

(٦) سورة الرحمن، الآية: (٤٦).

(٧) سورة المائدة، الآية: (٧٦).

العبادة لله تعالى وحده كثيرة جدًا، ولا عجب في ذلك، فهي عقيدة يتدين بها العبد لربه، ولمثل هذا أرشد نبي هذه الأمة عليه الصلاة والسلام أمته، ليخالف بذلك أهل الجاهلية، فقال عليه الصلاة والسلام مقررًا هذه العقيدة: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (١).

وقد حذر العلماء رحمهم الله جميعًا من هذه الخصلة، فعمدوا إلى بيان أقسام الخوف، وبيان متى يكون الخوف منافيًا للتوحيد، ومتى يكون خوفًا طبيعيًا ليكون الناس على بصيرة بما هم واقعون به.

فقال أهل العلم في بيان ذلك: إن من الخوف ما هو طبيعي، ومنه ما هو خوفٌ منافٍ لكمال التوحيد، ومنه ما هو خوفٌ منافٍ للتوحيد كخوف السِّرِّ – وهو الوارد في هذه المسألة – وهو بأن يخاف العبد من غير الله من وثنٍ، أو طاغوت، أو ميتٍ، أو غائبٍ من جنٍّ، أو إنسٍ أن يصيبه بما يكره... وخوف السِّرِّ هذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، بيت الأفكار الدولية. الأردن. طبعة جديدة ومنقحة برقم (٢٦٦٩، ٢٨٠٤) بمثله وبرقم (٢٧٦٣) بنحوه، ص (٢٢٥، ٢٣٢، ٢٣٥)، وأخرجه الإمام الترمذي في سننه. كتاب صفة القيامة. باب حديث حنظلة برقم (٢٥١٦) بمثله (١٩٠٤)، قال الترمذي حديث حسن صحيح. موسوعة الحديث الشريف. وصححه الألباني في نسخة سنن الإمام الترمذي المحققة.

ويُخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها، وأُمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد(١).

وهذا النوع من الخوف معلوم البطلان بصحيح النقل، وصريح العقل، وقد بيّن إبراهيم عليه السلام بطلان هذا النوع من الخوف في مناظرته لقومه لما حاجوه وخوفوه بآلهتهم.

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على من وقعوا بمثل هذا الخوف، فقال عن ذلك: (عمار المشاهد مشركون يخشون غير الله، فيخشون الموتى ولا يخشون الله؛ إذ عبدوه عبادة لم ينـزل بها سلطانًا، ولا جاء بها كتاب، ولا سنة، كما قال الخليل عليه السلام في مناظرته للمشركين لما حاجوه وخوفوه آلهتهم، قال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٣))(٤).

أما الخوف المنافي لكمال التوحيد، فيُعد من أنواع الشرك، وفي بيان ذلك قال أهل العلم: أما الخوف المنافي لكمال التوحيد، كأن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفًا من بعض الناس، وهذا محرم، وهو نوع من الشرك، قال

---

(١) انظر: فتح المجيد (٣٤٧)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (٨٤ - ٨٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٨١).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٨٢).

(٤) الفتاوى (٢٧/ ١٦٨ - ١٦٩).

تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(١)، ومن ذلك ما ورد التحذير منه، كما في الحديث: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذا رأيت المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشية الناس؟ فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى» (٢)

أما الخوف الطبيعي، فهذا لا يذم عليه العبد، كالخوف من العدو، أو من سبع، أو غير ذلك لا يذم عليه كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾(٣).(٤)

إن عبادة العبد لله على خوف تُعد من العبادات العظيمة التي من خلالها يقف العبد على أمر الله، وينتهي عن نواهيه خوفًا من عقابه، وسعيًا لنيل رضاه.

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن منزلة الخوف: (إن من منازل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٥) منزلة الخوف، وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض عين على كل أحد، قال

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٧٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، برقم (١١٢٧٥) (٤/ ٨٠)، وابن ماجة في سننه في كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برقم (٤٠٠٨)، ص(٢٧١٨). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف.

(٣) سورة القصص، الآية: (٢١).

(٤) انظر. فتح المجيد (٣٤٨)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (٨٦، ٨٧).

(٥) سورة الفاتحة، الآية: (٥).

تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[٢])[٣].

هذا وبعد أن تبين لنا الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على بطلان هذه الخصلة، وكيفية مخالفتها، إلا أن هناك من خالف أهل الحق بامتثال هذه الخصلة من أهل الكتاب والصابئة، والصوفية، وعباد القبور وغيرهم، وقد بين العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- كيفية تمثل هذه الخصلة لدى هؤلاء المخالفين وذلك ببيانهم إلى أن ما يقوم به أهل الكتاب عند قبور أنبيائهم، وعند تماثيل القديسين، والأماكن التي يعظمونها، وما يفعله الصابئة عند هياكلهم، وعباد الشمس، وعباد القمر من التعظيم، وتقديم القربات، ما يفعله غلاة الصوفية، والروافض[٤] عند القبور، وبين يدي أئمتهم ومشايخهم من التعظيم، وتقديم القربات داخلٌ في خوف السِّرِّ لاعتقادهم بأنها تجلب النفع لهم، وأنها تدفع الضر عنهم[٥].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٧٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٤٠).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٦٤).

(٤) الروافض هم الذين ادعوا مشايعة عليًا، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووحيًا، وقالوا بعصمة الأنبياء والأئمة ووقعوا في الصحابة طعنًا وتكفيرًا، وأولوا الآيات لصالحهم، من عقائدهم الرجعة والبداء والتقية، سبب تسميتهم روافض لرفضهم إمام زيد بن علي، وقيل لرفضهم إمامة الشيخين وخلافتهما. انظر: الملل والنحل، (٦٨ – ٦٩) وللاستزادة انظر. الموسوعة الميسرة، (٢/ ١٠٥٩).

(٥) وللاستزادة انظر. الفتاوى، (٢٧/ ١٧٥، ١٧٦)، فتح المجيد (٣٤٨)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (٨٦، ٨٧).

وعن ذلك قال أحد العلماء: قالت الصابئة عن هياكلهم التي صَورها لتُعبر عن الكواكب التي يعبدونها إن لهذه الهياكل قوة في تصريف الأجسام، وتقليب الأجرام، ولها تأثيرات على العالم السفلي، فهي وسيلة إلى حضرة القدس، فصنعوا لها الخواتيم، وقدموا لها العزائم والدعوات، وسموها أربابًا آلهة (١)... ثم قال عن عبدة الأصنام في موضع آخر: أيضًا ما يفعله عبدة الأصنام الذين عكفوا على التوجه إليها، والتقرب إليها بالهدايا والذبح ونحوها، زعمًا منهم أنها تقضي الحاجات وأنها عظيمة القدر(٢) وأنها تنفع وتضر، ومثل هذا كثيرٌ في عصرنا، كما في بلاد الهند والصين وغيرها.

وقال ابن قيم الجوزية – رحمه الله – محذراً من الوقوع في مثل هذه الخصلة ومبيناً أنها من كيد الشيطان، ومرشداً إلى كيفية التخلص من هذه الخصلة: (ومن كيد الله تعالى أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر ،وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان...فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم...)(٣).

* * *

(١) انظر.الملل والنحل، (١٢٦، ١٤٠)بتصرف.

(٢) المرجع السابق (٢٥٢)بتصرف.

(٣) إغاثة اللهفان، (١/ ١٠١).

المسألة الثانية والعشرون
اشمئزاز قلوبهم إذا ذكر الله وحده

المسألة الثالثة والعشرون
استبشارهم إذا ذكر الذين من دونه

إن الطريق إلى تحصيل سعادة الدنيا والآخرة، والفوز بالدرجات العالية، ونيل رضا الحق جل وعلا، بمدوامة ذكره سبحانه وتعالى، وإجلال القلب وتعظيمه له تعالى، وأن يدرك العبد يقينًا أنه لا زكاة لقلبه، ولا صلاح له، إلا بأن يكون الله عز وجل هو محبوبه، وغاية مطلوبه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفته سبحانه، والمواظبة على ذكره.

يريد المؤلف - رحمه الله تعالى - بهاتين الخصلتين أن يبين أن من شأن أهل الجاهلية اشمئزاز قلوبهم إذا ذكر الله وحده، واستبشارهم إذا ذكر الذين من دونه.

والاشمئزاز في اللغة: من شمز: تقبض، اشمأز اشمئزازًا: انقبض واجتمع بعضه على بعض.

والشمز: هو نفور النفس من شيء تكرهه. والمشمئز: هو النافر الكاره للشيء[1].

---

(١) لسان العرب (٥/ ٣٦٢).

والاستبشار في اللغة: من البشر، وهي الطلاقة، يقال أبشَرَ وَتَبشَّرُ وبَشِرَ: فَرِحَ[١].

قال القرطبي - رحمه الله - في معنى الاشمئزاز: (هو النفور والازورار، ثم قال في معنى الاستبشار: هو ظهور البشر والفرح والسرور على الوجه)[٢].

وقد نص الشارع على وجود هذا الخصلة عند أهل الجاهلية قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (وإذا أفرد الله جل ثناؤه بالذكر فدعي وحده، وقيل لا إله إلا الله اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالمعاد والبعث بعد المات، وعنى بقوله (اشمأزت) نفرت من توحيد الله، (وإذا ذكر الذين من دونه) يقول وإذا ذكر الآلهة التي يدعونها من دون الله مع الله... يستبشرون بذلك ويفرحون)[٤].

قال مجاهد: (اشمأزت: أي انقبضت)[٥].

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي إذا قيل لا إله إلا

---

(١) لسان العرب (٤/ ٦١).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٣١).
(٣) سورة الزمر، الآية: (٤٥).
(٤) تفسير الطبري (١١/ ١١).
(٥) تفسير الطبري (١١/ ١١)،للاستزادة انظر. فتح الباري (٨/ ٥٤٩).

الله(اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة)... ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي من الأصنام والأنداد يفرحون ويسرون)[(١)].

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - في تفسير الآية: (يذكر الله في هذه الآية حالة المشركين وما الذي اقتضاه شركهم أنهم يشمئزون وينفرون، ويكرهون الدعوة إلى توحيد الله، وترك ما يُعبد من دونه أشد الكراهة، وإذا ذكرت الأصنام والأنداد ومدحت فرحوا لموافقة المدح أهواءهم، وهذه الحال أشد الحالات وأشنعها)[(٢)].

فمعلومٌ أن المؤمن يلين قلبه لذكر الله، ويخاف منه فيفعل ما أُمر به، ويترك ما نهى عنه، وهذا يُعد من مخالفة أهل الحق لأهل الجاهلية في هذه الخصلة، وقد أرشد الشارع عباده المؤمنين إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من حالٍ عند ذكر الله ليخالفوا بذلك أهل الجاهلية فقال تعالى عن صفة المؤمنين إذا ذكر الله عز وجل: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[(٤)].

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي هذه صفة الأبرار عند سماع الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف(ثم

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦، ٥٧).

(٢) تفسير ابن سعدي (٧٢٦).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٢)، وسورة الحج، الآية: (٣٥).

(٤) سورة الزمر، الآية: (٢٣).

تلين جلودهم..) لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار...)[(١)].

وهذا يُعد من علامات الإيمان، فمن علامات الإيمان في قلب العبد المؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يستبشر العبد بذكر الله - عز وجل -، ويشمئز قلبه عن ذكر ما سواه، كما أنه يُعد علامة من علامات محبة العبد لله - عز وجل -، فمن أحب شيئًا استبشر بسماعه وسماع خبره، ومن أبغض شيئًا اشمئز من ذكره.

قال ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين... فإخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[(٢)])[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١،٥٢).

(٢) سورة الزمر، الآيات: (٤٣، ٤٤، ٤٥).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٤٩، ٥٠).

وعلق ابن قيم الجوزية - رحمه الله – على ذلك فقال: (إن من آثار المحبة وشواهدها إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وأن لا يؤثر على المحبوب غيره، وأن لا يتولى أمورك غيره، فالمحبة هي لهج اللسان بذكر المحبوب على الدوام...) (١) ثم ذكر -رحمه الله- بعضاً من الأسباب الجالبة للمحبة فقال عن ذلك:(دوام ذكر المحبوب على كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر... لهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾(٢) فهنا أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا فهذا ندٌ في المحبة)(٣).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة كذلك حين أنكر في الآية السابقة على من اتخذوا أندادًا يحبونهم كحب الله عز وجل، فكيف بمن كان ظاهر فعلهم يستدل به على عدم محبتهم ذكر الله، ونفورهم منه، واستبشارهم إذا ذكر غيره.

كما خالف رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على أهم الركائز والأسباب لتذوق حلاوة الإيمان في القلب وإيجادها حين قال

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٤، ٢٣، ٢٨)للاستزادة انظر: قاعدة في المحبة: لابن تيمية. ت: محمد رشاد سالم. مكتبة التراث الإسلامي. القاهرة، (٦٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٦٥).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٤، ٢٣، ٢٨) للاستزادة انظر: قاعدة في المحبة: لابن تيمية. ت: محمد رشاد سالم. مكتبة التراث الإسلامي. القاهرة، (٦٩).

رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»[١].

وقال ابن القيم – رحمه الله – في علامة هذه المحبة: (المحبة هي التي تبعث على إيثار الحق على غيره، أي لكمالها وقوتها، فإنها تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لهجًا بذكره، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره)[٢].

وبناء على هذا يستدل الناظر من تعظيم النصارى لعيسى - عليه السلام -، وتعظيم عباد الأصنام، والأوثان لأصنامهم، وأصحاب القبور لقبورهم، والصوفية لمشايخهم وأوليائهم

كما يزعمون، وتعظيم بعض الفرق الضالة لقياساتهم الفاسدة أنه داخلٌ في هاتين المسألتين.

فعند دعوة هؤلاء لتجريد التوحيد، وإخلاصه لله تعالى، وإبطال ما هم عليه من الشركيات، نجد أن موقفهم من هذه الدعوة هو الاشمئزاز والنفور، أما من يدعوهم إلى تعظيم هذه الأوثان أو القبور، أو الأولياء والمشايخ، فيلاقون دعوته بالفرح، والقبول، والاستبشار لموافقة دعوته أهواءهم وضلالاتهم.

يقول ابن القيم - رحمه الله - عن المشركين حين دعاهم الرسول ﷺ

---

(١) سبق تخريجه، ص(٥١).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٣).

إلى التوحيد، وبيّن عدم نفع أو ضرر هذه الأوثان: (عظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم، وأبوا ذلك كله، وادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم، فلهم نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1]) [2].

وقال أيضًا في موضع آخر: (وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرًا من مخانيث تلاميذ الجهمية[3]، والمبتدعة إذا سمعوا شيئًا من آيات الصفات، وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم، رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حُمُرٌ مستنفرة، فرت من قسورة. ويقول مخنثهم: سدوا عنا هذا الباب، وأقروا شيئًا غير هذا، وترى قلوبهم مولية، وهم يجمحون لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم، وكذلك المشركون على اختلاف شركهم، إذا جُرِّد لهم التوحيد، وتليت عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم)[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٤٥).

(٢) الروح لابن قيم الجوزية. دار الرشد. الرياض، (٢٦٣، ٢٦٤)، وانظر: فتح المجيد، (٢٢١).

(٣) أصحاب الجهم بن صفوان، وهو من الجبرية، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم بن أهوز، وافق المعتزلة في نفي وتعطيل الصفات الأزلية، من أقواله أن من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن، والإيمان لا يتبعض. انظر: المسائل والرسائل، (٢/ ٢٠٦)، الملل والنحل: للشهرستاني، (٣٦)، معارج القبول، (٣/ ٩٩٣).

(٤) أعلام الموقعين (١/ ١٥٢).

فحـال هؤلاء الضالين ينطق بمخالفة حـال أهل الإيمان الذين قال عنهم تعالى ممتدحًا: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾[1].

يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (إذا أردت أن تعرف حقيقة الحال، فانظر إلى وجوه القوم، وشمائلهم عند استماع آيات الصفات وأخبارها... فأهل الإيمان كلما سمعوا نصوص الوحي زادتهم إيمانًا وفرحًا واستبشارًا، وأما الذين في قلوبهم مرض فتزيدهم رجسًا إلى رجسهم)[2].

أخيرًا: إن هذه الخصال تظهر كثيرًا وللأسف بين الناس، فكثيرًا ما تطرق أسماع الناصحين والمذكرين بالله في المجالس العامة، أو المناسبات الخاصة وغيرها عبارات تحمل في

طياتها الاشمئزاز مما سيذكرون به في حين ما أن تُطرق مجالسهم بأحاديث قد اشتملت على اللهو، أو المجون، أو الغيبة تجد أن لها رواجًا بين بعض هؤلاء. فالله المستعان.

* * *

(١) سورة التوبة، الآية: (١٢٤).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن قيم الجوزية. ت: الدكتور علي بن محمد الـدخيل الله. دار العاصمة. الرياض، (ط٣)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، (٣/ ١١٦٨).

المسألة الرابعة والعشرون

سؤالهم أمور دنياهم دون آخرتهم كما قال تعالى:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[(١)]

التوازن والاعتدال من سمات الدين الإسلامي في كل الآفاق والنواحي، سمةٌ تليق بهذه الرسالة العامة والخالدة، التي جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمن بشريعةٍ شرعت لشتى الأجناس والطبقات والأفراد، وفي مختلف شؤون الحياة، حين عملت على الجمع باعتدال وتوازنٍ بين أشواق الروح وحقوق الجسد، وبين بواعث الدين، ومطالب الدنيا، وبين العمل لهذه الحياة الدنيا والعمل لما بعدها من الحياة الآخرة.

لهذا عمد المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة إلى بيان خصلةٍ من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين والمتمثلة في اقتصارهم على مصالح الدنيا وأمورها دون الآخرة، وما ذلك إلا حبًا لمتاعها الزائل، وتمكنها من قلوبهم فصارت هي غاية مرادهم وسؤالهم، دون التفكر بالدار الآخرة.

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على ذلك بقوله تعالى الذي ذم فيه أهل الجاهلية على هذه الخصلة، وتوعدهم عليها: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٠٠).

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: إنه كان من عادات أهل الجاهلية بعد قضاء مناسكهم يقولون: اللهم ارزقنا إبلاً، اللهم ارزقنا غنمًا، فهم صنف قد حجوا للدنيا، والمسألة، لا يريدون الآخرة، ولا يؤمنون بها، لذا يطلبون مصالح لدنياهم ولا يطلبون للآخرة شيء[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي ليس له في الآخرة من نصيب ولا حظ، وتضمن الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك)[(٢)].

وقال أحد المفسرين في تفسير الآية: ((من خلاق) نصيب؛ لأنه همه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة، والمعنى: أكثروا ذكر الله ودعاءه؛ لأن الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا، وبين مكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين)[(٣)].

وقد دعا الشارع عباده إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين جاء النهي عن هذه الخصلة بصيغة الإخبار عن خصال العرب في الجاهلية، وبالوعيد بقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - في ذلك: (قيل :كانت العرب في الجاهلية تدعوا في مصالح الدنيا فقط...ولا يطلبون الآخرة إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها فنُهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم، ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضا

---

(١) انظر.تفسير الطبري (٢/ ٣١١)، تفسير القرطبي (٢/ ٤٢٨)، التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٥).

(٣) تفسير النسفي (١/ ١٠٣).

إذا قصر دعواته في الدنيا، وعلى هذا فماله في الآخرة من خلاق أي كخلاق الذي يسأل الآخرة والخلاق النصيب)(١).

كما قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (قد عاب الله على من يقتصر على طلب الدنيا بقوله: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ فأخبر أن من لم يطلب إلا الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب)(٢).

لهذا فلابد للعبد أن يجعل همه في هذه الدنيا في كيفية الوصول إلى الدار الآخرة، والفوز بها، وأن يوقن أن وجوده في هذه الدنيا إنما هو لغاية وهدف، وهو عبادة الله وحده ببذل هذه الدنيا في سبيل تحصيل الآخرة.

وعن ذلك يقول الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: (لابد أن يكون أكبر همّ المرء وغاية علمه ومراده الدار الآخرة، أما من جعل الدنيا أكبر همه، وغاية علمه ومراده، فقد كان مآله إلى الشقاء)(٣).

والشقاء يكون في الدنيا والآخرة، فيكون بالدنيا بطول همه وحزنه، وفي الآخرة كما بيّن تعالى في نهاية الآية بأنه لا خلاق له في الآخرة، لأن حظه ونصيبه من الطيبات قد عجل له في الدنيا، قال تعالى عن ذلك: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٢٨).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٥٢).

(٣) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: لعبد الرحمن بن ناصر بن سعدي. منشورات المؤسسة السعدية. الرياض. مطبعة الكيلاني، مصر، (٢١٢).

عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾[١] وقال تعالى عن طالب الآخرة: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[٢].

يقول الإمام ابن القيم عن هذه الآية: (أي من كانت الدنيا مراده، ولها يعمل في غاية سعيه، لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده، ولها عمل، وهي غاية سعيه، فهي له)[٣].

ويقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - محذرًا عن مثل ذلك: (إن القلب قد يغمره فيستولى عليه ما يريده العبد ويحبه، فهو فيما يغمره عما أنذر به، فيغمر قلبه حب المال والبنين عن ذكر الله والدار الآخرة، وما فيها من النعيم عن المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة)[٤].

إن حب العبد للدنيا وإيثاره لها على الآخرة قد يؤدي به إلى زوال التصديق والإيمان من القلب، فيكون ممن قال تعالى عنهم: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾[٥]، والسبب في هذا كما بيّن تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[٦].

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه الآيات: (هنا بيّن تعالى أن

(١) سورة الإسراء، الآية: (١٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (١٩).

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لابن قيم الجوزية. ت: الشحات أحمد الطحان، مكتبة زمزم للنشر. المنصورة - مصر، (ط١)، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص(١٧٨).

(٤) الفتاوى (١٠/ ٥٩٦).

(٥) سورة هود، الآية: (٢٢).

(٦) سورة النحل، الآية: (١٠٧).

هؤلاء استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم الذي كان سببه حب الدنيا على الآخرة، وقد جعل تعالى استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران، وبأنه ماله في الآخرة من خلاق)(١).

فتعلق قلب العبد بالدنيا والاقتصار بطلبه عليها هو رأسٌ لكل خطيئة، وأصلٌ لكل مفسدة وللإمام ابن القيم - رحمه الله - كلام نفيس في ذلك فيقول: (قد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا، وأصلها، ومفسد للدين من عدة وجوه: أن حبها يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، ثانيها: أن الله لعنها، ومقتها، وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله، ومقته، وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه، وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه، وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر، وقلب الحكمة، حيث جعل الوسيلة غاية، وجعل التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس)(٢).

كما قال في موضعٍ آخر: (كما أن المقتصر على طلب الدنيا دون الآخرة إما أن يكون عادمًا للإيمان، أو فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه، ذلك لأن المقتصر في طلبه على الدنيا دون الآخرة إما أن يكون مصدقًا بأن هناك ما هو أشرف من هذه الدنيا وأفضل وأبقى، إما أن لا يصدِّق بذلك، فإن لم يكن مصدقًا بأن الآخرة أفضل من الدنيا وأشرف كان هذا عادمًا للإيمان

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٦٠).

(٢) عدة الصابرين (٢٣٢).

رأسًا(١)، وإن كان مصدقًا بفضل الآخرة على الدنيا وشرفها عليها، ومع هذا لم يُؤثِرها، كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه. وقد يكون المؤثر للدنيا الفانية الناقصة على الآخرة الباقية لأحد سببين: إما لعدم تبيُّن الفضل له، أو لعدم رغبته في الأفضل، وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة)(٢).

فمعلومٌ أن الخير كله في السعي لله والدار الآخرة، والشر كله في السعي وراء حطام الدنيا الزائل.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: عن هذا: (مفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شرٍّ حب الدنيا وطول الأمل)(٣).

فمن هنا أثنى الله عز وجل على أهل الإيمان لمخالفتهم أهل الجاهلية في هذه الخصلة بسؤالهم لربهم الحسنة في الدنيا، والحسنة في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٤).

يقول الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (إن الله جل ثناؤه أخبر عن قوم من أهل الإيمان يسألون ربهم الحسنة في الدنيا، والحسنة في

---

(١) أي من أساسه.

(٢) للاستزادة انظر: الفوائد: لابن القيم (١٢٩).

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لابن قيم الجوزية. ت: خليل شيحا، دار الكتاب العربي. بيروت. (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص(٥٠).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٠١).

الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار)[١].

ويقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عن ذلك: (هذه دعوة جمعت كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر)[٢].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية حيث كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»[٣].

قال أحد العلماء: (هذا لابد للعبد أن يربي نفسه، ويدربها على طلب الآخرة، وإيثارها على الدنيا، وأن يصرف حب الدنيا عن قلبه، لأنها تلهي العبد عن آخرته، وتجعل سعيه لها، فتمنعه من حظ الآخرة، وتدفع العبد للركون إليها)[٤].

ويذكر الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - صورًا لهذه الخصلة من واقعنا المعاصر، فيقول عن ذلك: (وهذا هو الواقع في حال كثير من الناس في وقتنا الحاضر، فقد أصبح الكثير منا من يتشوف لزهرة الحياة الدنيا وزينتها من المساكن، والثياب، والمآكل، والمشارب ويباهون بهذا كله،

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣١٣).

(٢) تفسير ابن كثير، (١/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير، باب (منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) برقم (٤٥٢٢)، ص(٣٧١) وفي كتاب الدعوات برقم (٦٣٨٩)، ص(٥٣٧) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الذكر والدعاء. باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار برقم (٦٨٤٠) ورقم (٦٨٤١) بمثله، ص(١١٤٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أدب الدنيا والدين. للماوردي، ت: مصطفى السقا. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (ط٤)، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، (١١٤).

ويعرضون عما ينفعهم في الآخرة)[١].

وبعد فقد ظهر جليًا من خلال الآيات السابقة ما دعا إليه الشارع من الوسطية في طلب الدنيا وأمورها، وحث العباد على الحرص على طلب الآخرة والسعي إليها خلافًا لما كان عليه العرب في الجاهلية، بيد أن هناك البعض من المسلمين الذين تعلقت قلوبهم في الدنيا، خالفوا ما نص عليه الشارع في ذلك، فامتثلت لديهم هذه الخصلة قلبًا وقالبًا، كذلك تمثلت هذه الخصلة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين غلوا في أمر الدنيا، فلا نكاد نجد للروحانية في أسفارهم أثرًا، ولا نكاد نرى للآخرة مكانًا، فالوعد والوعيد في أسفارهم، إنما يتعلقان بأمور دنيوية من الصحة والثراء وطول العمر، أو الهزيمة والمرض والموت والفقر للذين يعرضون عن الشريعة، فمن نصوصهم: (احترامو آباءكم وأمهاتكم لتعمروا طويلاً في الأرض... اعبدوا ربكم وهو يبارك خبزكم ودماءكم ويبعد عنكم العلل والأدواء، إذا أطعتم أمري وحفظتم وصيتي فسأبعث عليكم الأمطار في أوقاتها، فتخرج الأرض ثمرتها وأشجارها... إلخ)[٢] وغيرها من النصوص الدالة على أن غاية مطالبهم متعلقة بالدنيا، وليس للآخرة مكان في قلوبهم.

---

(١) شرح رياض الصالحين للنووي، شرح الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين. مكتبة الأنصار. مصر، (ط١)، (٢/ ٢٥٠).

(٢) انظر: الكتاب المقدس العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل). المصدر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى. سفر الخروج (٢٣: ٢٥)، وسفر الثنية (٧: ١٣).

المسألة الخامسة والعشرون

البطـر والفـرح إذا أذاقهم الله رحـمة منه كما قـال تعـالى:

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾(١)

إن العبد المؤمن بالله تعالى إذا أصابه خيرٌ حمد الله وأثنى عليه، ولم يخالطه بطرٌ للنعمة، ولا تكبرٌ على الناس، ليقينه بأن النعمة تستحق الحمد لمن أنعم بها عليه، وهو رب العالمين، وتجافى عن الاستعلاء على الناس؛ لأن الذي وهبها، وهو الله عز وجل، قادرٌ على أن ينـزعها منه، إن هو لم يحسن تلقيها، إزاء واهبها بالبطر، أو إزاء الناس بالاستعلاء عليهم.

لذا فقد أورد المؤلف رحمه الله تعالى هنا أحد خصال أهل الجاهلية: الأميين والكتابيين، والتي تمثلت في موقفهم تجاه إنعام الله عليهم ورحمته بهم، والتي كان حقها الشكر والحمد، إلا إنهم فرحوا بها فرحًا مذمومًا، وبطروا بها.

والبطرُ في اللغة: قلة احتمال النعمة، وقيل: الطغيان في النعمة، يقال: بَطِرَ بَطَرًا. فهو بَطِرُ والبطرُ: الأشر، وهو شدة المَرَح، وهو الطغيان عند النعمة وطول الغنى(٢).

والبطر في الاصطلاح: هو - مُحركًا - دهشٌ يعتري الإنسان من سوء

---

(١) سورة الشورى، الآية: (٤٨).

(٢) لسان العرب (٤/ ٦٩)انظر.موسوعة نضرة النعيم (٩/ ٤٠٦٩).

احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفه إلى غير وجهها، وقيل سوء احتمال الغنى، والتقصير في شكره(١).

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - عن البطر: (هو التقوية بنعم الله عز وجل، وما ألبسه من العافية على المعاصي)(٢).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه بإيراد آيات كثيرة تضمنت النهي عن هذه الخصلة والتحذير من الوقوع فيها، فمن هذه الآيات ما استدل به المؤلف - رحمه الله - على إثبات هذه الخصلة.

فقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على وجود هذه الخصلة وعلى ذمها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾(٣).

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: إذا أعطيناه من الغنى ورزقناه من السعة وكثرة المال بطر به(٤).

كما قال أحد المفسرين في المراد بالبطر: (البطر هو إعجاب المرء بما هو فيه من نعمة، والاستكبار والفخر بها)(٥).

إن العبد حين تحل عليه النعمة لا ريب أنه سيفرح بها، وفرح العبد في هذه الحال على أحد حالين: إما أن يفرح فرحًا محمودًا، وهو الفرح الذي

(١) موسوعة نضرة النعيم (٩/ ٤٠٦٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٢٨).

(٣) سورة الشورى، الآية: (٤٨).

(٤) انظر.تفسير الطبري (١١/ ١٦١)، تفسير القرطبي (١٦/ ٤٣).

(٥) التحرير والتنوير (٦/ ٣٣) (١٢/ ١٣٥).

يدفعه إلى شكر المنعم على إنعامه، وبذل هذه النعمة فيما يرضي الله عز وجل، وهذا هو المطلوب والمفروض على كل عبد.

أو أن يفرح فرحًا مذمومًا، وهو الفرح الذي يدفعه إلى الطغيان بهذه النعمة، وعصيان المنعم بها، وترك شكره، وليس هذا وحسب، وإنما الاستعلاء بها على عباد الله تعالى وهذا هو المنهي عنه، لهذا لابد أن يحذر هذا الفرح من مثل هذه النعمة التي قد يكون فيها استدراج له ومكر به، وخير شاهدٍ على هذا قصة قارون حين قال تعالى عنه: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾(١) . لقد أخبرنا الله عز وجل عن قارون أنه استكبر بما تفضل الله عليه به من النعم، ونسب هذه النعم لنفسه، ولم ينسبها لله، فبطر بنعمة الله عليه، فكانت سببًا في هلاكه.

كما وقد حذرنا الشارع أيضًا من هذه الخصلة بما أورده في محكم كتابه عن قصة خروج كفار قريش يوم بدر بطرًا وبغيًا، فكانت عليهم العاقبة وقد ذكر تعالى هذه القصة في سياق منه يفيد النهي عن هذه الخصلة، والتحذير منها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا ﴾(٢)، كذلك ما أخبر به تعالى محذرًا من هذه الخصلة ضمن قصة القرى التي أهلكها لبطرها بنعمة الله عليهم فقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾(٣).

---

(١) سورة القصص، الآية: (٧٦).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٤٧).

(٣) سورة القصص، الآية: (٥٨).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق)[١].

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - في تحذير من يفرح فرحًا مذمومًا: (إن الفرحَ بالنعمة قد يُنسيه المنْعِمَ. فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه، فيطفح عليه السرورُ، حتَّى يغيب بنعمتِهِ عنه، وهنا يكون المكْر إليه أقربُ من اليد للفم. إذا أنه غاب عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضلِهِ، وأنه محضُ مِنتهِ عليه، وأنه به وحدهُ، ومنه وحده، فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[٢]. ومما يدل على أن هذا الفرح من أسباب المكر قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[٣]، وما ورد في قارون ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[٤] فالفرح متى كان بالله وبما منّ الله به مقارنًا للخوف والحذر لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك ضره ولابد)[٥].

فالعبد مطلوبٌ منه الصبر في حالة الضُر لكي لا يجزع، ومطلوبٌ منه الصبر في حال حلت عليه النعمة حتى لا يبطر بها. فلابد للعبد أن يصبر في

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٦).

(٢) سورة النحل، الآية: (٥٣).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٤٤).

(٤) سورة القصص، الآية: (٧٦).

(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٢٣/ ١٢٤).

حال السراء والضراء.

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به، وترك السيئ المحظور. ويدخل في ذلك الصبر على الأذى، وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر)[١].

وقال عن ذلك أيضًا الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (والصبر بأن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر، والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله)[٢].

قال النعمان بن بشير[٣]: (إن للشيطان فخوخًا ومصالي[٤]، وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبرياء على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله)[٥].

والبطر ناشئ عن الكبر، والكبر هو أصلٌ من أصول الأخلاق المذمومة، وكبيرةٌ من الكبائر لذا ذم رسول الله ﷺ المرء البطر المتكبر دعوةً

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ١٥٣).

(٢) عدة الصابرين (٦٧).

(٣) هو: النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي، أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة. روى أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تولى قضاء دمشق في زمن معاوية رضي الله عنهم. توفي سنة ٦٥هـ. انظر: الاستيعاب (٣/ ٥٢٢)، الإصابة (٣/ ٥٣٠).

(٤) المصالي شبيهة بالشرك تنصب للطير وغيرها وهي ما يصيد به الناس من الآفات التي يستفزهم بها من زينة الدنيا وشهواتها. انظر: لسان العرب (١٤/ ٤٦٨).

(٥) روضة المحبين لابن قيم الجوزية (٤٠٧).

منه لمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطرًا ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...» حتى قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»(١).

قال أهل العلم في المراد ببطر الحق: أي رده وعدم قبوله، وغمط الناس أي احتقارهم(٢).

وبعد لقد ثبت من ظاهر النصوص تحريم البطر، وسوء عاقبته، إلا أن هناك من تلبس بمثل هذه الخصلة، فما يحصل في عصرنا من بطر بعض الأغنياء، وبعض أصحاب المناصب والجاه والمكانة الاجتماعية، داخلٌ ضمن هذه الخصلة.

وما يكون من أهل الكتاب من اليهود والنصارى من طغيانهم بنعم الله عليهم وبطرهم بها يدخل ضمن هذه الخصلة أيضًا.

* * *

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه. كتاب اللباس، باب من جر ثوبه خيلاء برقم (٥٧٨٨) بنحوه ص(٤٩٤)، أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان، باب تحريم من الكبر وبيانه برقم (٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧) بنحوه (٦٩٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر: الاستقامة لابن تيمية (١/ ٤٤٤)، والزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٩٧).

المسألة السادسة والعشرون

الكآبة والقنوط إذا أصابتهم شدة كما قال تعالى:

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (١)

إن من أعظم أسباب السعادة في حياة العبد المؤمن، الإيمان بالله تعالى، والعمل الصالح، إيمانًا صحيحًا يثمر عنه عملاً صالحًا مصلحًا للقلب والخُلق في الدنيا والآخرة، بحيث يتلقى بهذا الإيمان الراسخ جميع ما يرد عليه من أسباب السرور، وأسباب القلق والهم والأحزان، بقبولٍ للنعم، وشكر الله عليها، واستعمالها فيما ينفعه، وبقبولٍ للمكاره والمضار والهموم والغموم، والرضى بها، والصبر عليها، واحتساب الأجر بها لينال بذلك فضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة. خلافًا لمن لم يعمل بمقتضى إيمانه تجاه نعم الله عليه، والمحن التي تمر به، فتجده يتلقى النعم بأشرٍ وبطرٍ وطغيان، ويتلقى المحن بيأسٍ وقنوط وجزع فيخسر بذلك حظ الدنيا والآخرة.

لذا يورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أحد خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين وهي الكآبة والقنوط إذا أصابتهم الشدائد، ومرت عليهم النوائب والمحن.

والقنوط لغة: من قنط يقنَطُ قُنُوطًا وهو قانِطٌ: يئس، والقُنُوط: اليأس،

---

(١) سورة الروم، الآية: (٣٦).

واليأس نقيض الرجاء(١).

والقنوط اصطلاحًا: استبعاد الفرج واليأس منه. والقنوط يقابل الأمن من مكر الله. وكلاهما ذنب عظيم، ومنافيًا لكمال التوحيد؛ ذلك لأن القنوط يأس من رحمة الله، وهو ضد الرجاء، والمؤمن يسير إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء(٢).

الكآبة في اللغة: من كئب يكأب كأبا وكآبة، فهو كئب، أي حزن واغتم وانكسر(٣).

الكآبة في الاصطلاح: تغيير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن(٤).

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - بآية من كتاب الله تدل على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية، وعلى عدم جوازها، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾(٥)، ففي هذه الآية ذم الله - عز وجل - الذين إذا أصابتهم المصيبة قنطوا ويئسوا من رحمته تعالى.

---

(١) انظر.لسان العرب (٦/ ٢٦٠) (٧/ ٣٨٦)، مختار الصحاح (٤٩٢)، موسوعة نضرة النعيم (١١/ ٥٣٤٤).

(٢) انظر.الفتاوى (١٥/ ٤٠٥)، فتح المجيد (٣٦٢ - ٣٦٣).

(٣) لسان العرب (١/ ٦٩٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: لأبي السعادات المبارك بن الجزري. ت: طاهر الزاووي ومحمود محمد الطناحي. المكتبة العلمية. بيروت، ١٣٩٩هـ، (٤/ ١٣٧).

(٥) سورة الروم، الآية: (٣٦).

وقال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (والمراد بهذه الآية أي إذا أصابهم شدة من جدب وقحط وبلاء في الأموال والأبدان، بما أسلفوا من سيئ الأعمال بينهم وبين الله أصابهم القنوط وهو اليأس)(١).

وقال ابن كثير في تفسيرها: (هنا إنكار على الإنسان الذي إذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية)(٢).

وقال القرطبي عن المراد بالقنوط في الآية: (هو ترك فرائض الله سبحانه وتعالى في السرّ)(٣).

وقال أحد المفسرين في المراد من الآية: (المراد بهذه الآية تنبيههم إلى أن ما يصيبهم من حالة سيئة في الدنيا إنما سببها أفعالهم التي جعلها الله أسبابًا لمسببات مؤثرة، لا يحيط بأسرارها ودقائقها إلا الله تعالى، فما على الناس إلا أن يحاسبوا أنفسهم، ويجروا أسباب إصابة السيئات، ويتداركوا ما فات، فذلك أنجى لهم من السيئات، وأجدر من القنوط)(٤).

وقد وردت آياتٌ كثيرة في النهي عن القنوط، والاستنكار على القانطين، وفي دعوة العباد إلى محاسبة أنفسهم دومًا، وأن ما أصابهم إنما هو من جراء اقترافهم للمعاصي، أو تقصيرهم في الطاعات، أو تمحيصًا لهم، فعلى العبد الرضا والتسليم لحكم الله.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٥).
(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ١٠١).

ومن الآيات التي استنكر فيها الله - عز وجل - على القانطين من رحمته، ووصفهم بعدة أوصاف: فوصفهم تارةً بالضلال، وتارةً بالكفر، وتارةً باليأس، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾[(٢)]، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾[(٥)].

ومن الآيات أيضًا التي نهى الله - عز وجل - فيها عن القنوط، واليأس من رحمته نهيًا صريحًا قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[(٦)]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴾[(٧)]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ ﴾[(٨)]. كما وقد شدد النبي ﷺ في التحذير من هذه الخصلة حين نص على أنها من كبائر الذنوب؛ وذلك حين سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر

(١) سورة الحجر، الآية: (٥٦).
(٢) سورة فصلت، الآية: (٤٩).
(٣) سورة يوسف، الآية: (٨٧).
(٤) سورة هود، الآية: (٩).
(٥) سورة الإسراء، الآية: (٨٣).
(٦) سورة الزمر، الآية: (٥٣).
(٧) سورة الحجر، الآية: (٥٥).
(٨) سورة يوسف، الآية: (٨٧).

الله»[(١)].

وقال عبد الله بن مسعود[(٢)] - رضي الله عنه -: الهلاك في شيئين: (العجب، والقنوط. فالسعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى)[(٣)].

ومن الآيات الواردة التي دعا الله عز وجل فيها عبادة في حال أصابتهم الشدة أن يعلموا بأنها بما كسبت أيديهم، أو تمحيص لإيمانهم، أو رفع لدرجاتهم، وليُعلم المؤمن من المنافق، فيعودوا إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة والرضى بما قسمه الله تعالى على عباده، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ

---

(١) رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر، فقال ابن معين ثقة، ولينه أبو حاتم، وقال ابن كثير في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا، فتح المجيد (٣٦٤).

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلي، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، صحابي جليل روى كثيرًا من أحاديث الرسول ﷺ، شهد بدرًا والمشاهد بعدها، لازم الرسول ﷺ، هو أول من جهر بالقرآن. قال رسول الله: «من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» توفي سنة ٣٣هـ. انظر: الاستيعاب (٢/ ٣٠٨)، الإصابة (٢/ ٣٩١).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، ت: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، (ط٢)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (٧/ ٣٤٨)، مختصر منهاج القاصدين: لابن قدامة المقدسي. دار المؤيد. الرياض، (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص(٢٢١).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢١٤).

أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٤). والآيات في ذلك كثيرة، فجميع الآيات الواردة في الحث على الصبر، وكذلك النصوص الواردة في السنة في الحث على الصبر والرضا وإحسان الظن بالله هي أحاديث تدعو إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وقد حث شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على محاسبة الأنفس، وبالذات عند حلول المصائب فقال: (من المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق، وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال)(٥).

فعلى هذا لا يجوز للعبد أن يقنط من رحمة الله، أو أن يُقنط أحدًا من

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٦٥).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٤٢).
(٣) سورة النساء، الآية: (٧٩).
(٤) سورة العنكبوت، الآيتان (٢ - ٣).
(٥) الاستقامة (٢/ ٢٣٤).

رحمة الله كما فعل الراهب من بني إسرائيل[١] الذي أفتى القاتل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا بأن الله لا يغفر له.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – في حكم القنوط أو التقنيط من رحمة الله: (لا يجوز أن يقنط أحد، ولا يُقنط أحدًا من رحمة الله، فإن الله نهى عن ذلك)[٢].

إن القنوط من رحمة الله - كما تبين من خلال ما سبق - كبيرةٌ من الكبائر، إذ إنه يتنافى مع ما يجب على العبد من حُسن الظن بالله.

وقال بعض أهل العلم في حكم القنوط: إن اليأس كبيرةٌ بالاتفاق؛ لأنه يستلزم تكذيب النصوص القطعية، ولأنه تصميم من القانط على عدم وقوع المرحمة[٣].

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن حكم القنوط: (لا يجوز القنوط من رحمة الله، لأنه سوء ظن بالله - عز وجل - من وجهين:

أولاً: أنه طعن في قدرته تعالى، لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئًا على قدرة الله.

ثانيًا: أنه طعن في رحمته سبحانه، لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد

(١) انظر: الفتاوى (١٦/ ٢٠).

(٢) الفتاوى (١٦/ ٢٠، ٢١).

(٣) انظر.الكبائر للذهبي (١٢٢)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٣٠).

أن يرحمه الله سبحانه، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً)[١].

لهذا فأشهر من عُرف عنهم القنوط هم اليهود، فقد قنطوا في زمن موسى - عليه السلام - حين توعدهم فرعون بالعذاب بسبب إيمانهم بموسى - عليه السلام -، فقالوا لموسى - عليه السلام -: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾[٢] فدعاهم موسى - عليه السلام - إلى الصبر لينالوا النصر.

كما لا يخفى أن القنوط الحاصل ممن يستأخرون إجابة دعائهم، كذلك من بعض المرضى عافاهم الله، أو ممن يمرون بضوائق مالية ونحوها... داخلٌ ضمن هذه الخصلة الجاهلية هذا والله أعلم. فنسأل الله لنا ولهم الصبر والرضا.

* * *

(١) القول المفيد (٢/ ٢٠٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٢٩).

المسألة السابعة والعشرون

ظهور الكراهة عليهم إذا بُشروا بالإناث كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾(١)

لقد كرم الإسلام الأنثى غاية التكريم، فساوي بينها وبين الرجل في الأمور العقائدية والعبادية، والأخلاقية، والحرية الاقتصادية، والمحافظة على الشرف، والعفاف، والمدوامة على ذكر الله، بعد أن كانت تعيش حياة البؤس والشقاء، وتُعامل معاملة سقط المتاع، فلا حقوق ولا كرامة، فبعد أن كانت مصدرًا للهم والحزن، وإيذانًا بالعار وسوء السمعة لمن ولدت له أنثى، جعلها الإسلام شقيقة الرجل، وبانية الأجيال.

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أن من خصال أهل الجاهلية الأميين، أنهم كانوا يكرهون الإناث، فمن ولدت له أنثى يصيبهُ الهم والحزن، ويشعر بالخوف من العار وسوء السمعة، أو يخشى أن يصيبه الفقر. فجاء الإسلام ليقضي على هذه الخصلة الجاهلية، فها هو القرآن الكريم يسجل تلك المشاهد المأساوية في تاريخ الأنثى المنكوبة، ولينتصر لها، ويدافع عن إنسانيتها، فقد جاءت آياتٌ في كتاب الله تعالى تنادي في مجتمع العرب آنذاك مستنكرًا أعرافهم ومواقفهم، ومدافعًا عن إنسانية

(١) سورة النحل، الآية: (٥٨).

المرأة وكرامتها.

فمن الآيات التي صورت لنا هذه الخصلة الجاهلية ما استدل به المؤلف - رحمه الله تعالى - في ذمهم على هذه الخصلة وتوبيخهم عليها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. قال المفسرون في المراد بهذه الآية: أي إذا بشر أحد هؤلاء المشركين بولادة الأنثى له، ظل وجهه مسودًا من كراهته لها، وهو حزينٌ، قد كظم حزنه وامتلأ غمًا بولادتها له[1].

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي كئيبًا من الهم وساكتٌ من شدة ما هو فيه من الحزن، يكره أن يراه الناس)[2].

وقال غيره من المفسرين: (أي مغتمًا مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس، ومملوءًا حنقًا على زوجته)[3].

فالآيات التي ورد فيها ذكر هذه الخصلة جاءت في سياق التوبيخ والاستنكار لمن هذا صنيعه، ودعوةً إلى الرضا بقضاء الله على العبد، وإخبارًا لهم بصنيع أهل الجاهلية ليجتنبوه، وينتهوا عنه[4]. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[5].

---

(١) انظر. تفسير الطبري (٧/ ٥٩٩)، تفسير القرطبي (١٠/ ١٠٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٤).

(٣) تفسير النسفي (٢/ ٢٩٠).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٥٩٩).

(٥) سورة الزخرف، الآية: (١٧).

فهذه الآية فيها استنكار وتوبيخ لهؤلاء المشركين الذين يأنفون من الإناث، ثم ينسبونها لله، فكيف ينسبونها لله تعالى وهم يأنفون منها؟!.

وقد خالف الرسول ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين قرر فضل الإحسان إلى البنات حين قال - عليه الصلاة والسلام -: «من ابتلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن، كن له سترًا من النار» (١). وقد ترتب على الإحسان إلى البنات والنفقة عليهن، والصبر عليهن وعلى سائر أمورهن فضلٌ وأجرٌ عظيم، كما دل عليه الحديث السابق بأنهن سيكن سترًا على المحسن لهن من النار.

قال أحد أئمة العلم في شرح الحديث: (ويلاحظ في قوله ﷺ: «من ابتلى» ذلك لأن الناس يكرهونهن في العادة، كما قال تعالى عنهم ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ... ﴾، لذلك بيّن - عليه الصلاة والسلام - فضل من أحسن إليهن بالنفقة عليهن، والصبر عليهن، وعلى سائر أمورهن لهذا سماه ابتلاء(٢)؛ ولأن ما كان مستلزمًا للصبر على هذا النحو فهو ابتلاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه الخصلة الجاهلية: (لقد كانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم، حتى كان منهم من يئد

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب البر باب فضل الإحسان إلى البنات. برقم (٦٦٩٣)، ص(١١٣٦) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) شرح صحيح مسلم. لأبي زكريا يحيى النووي. دار إحياء التراث. بيروت، (ط٢)، ١٣٩٢هـ، (١٧٩/١٦).

البنات ويدفنها وهي حية، وكانوا لا يورثون الإناث)[١].

وقال أيضًا في موضوعٍ آخر: (فهم لا يحبون أن تكون لأحدهم أنثى، لا بنت ولا أخت؛ بل إذا كان الأب يكره أن تكون له بنت فالأخت أشد كراهة له منها، فتبين فرط جهلهم وظلمهم؛ إذ جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم)[٢]. وعلق ابن القيم على قبح هذه الخصلة فقال: (ويكفي دلالةً على قبح كرههن أن العبد يكره ما رضيه الله - عز وجل - لعبده)[٣].

ولأن هذه الخصلة الجاهلية قد بلغت الغاية من القبح، والتجرد من جميع معاني الإنسانية، فإن الإسلام عمل على القضاء عليها بشتى الأساليب ابتداءً بالتوبيخ والاستنكار على من قام بهذه الخصلة، ثانيًا بالعمل على المساواة بين الذكر والأنثى في كثير من الأمور، كالمساواة في الجزاء على الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[٥] ومن خلال المساواة في أمور العبادات والأخلاق،

---

(١) النبوات (٣٦٣).

(٢) الفتاوى (٢٧/ ٣٦٤)للاستزادة انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٤).

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود. لابن القيم. ت: عبد القادر الأرنؤوط. دار البيان. دمشق. (ط١)، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص(٢١ - ٢٧).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٩٥).

(٥) سورة النساء، الآية: (١٢٤).

وحرية الاقتصاد وغيرها كما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] فهذه الآيات وغيرها كثير تدل على تقرير فضل للإناث ومكانة، أيضًا قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾[2] فالذكر والأنثى كلاهما هبةٌ وإكرامٌ من الله - عز وجل - لعباده.

قال الإمام البيهقي - رحمه الله - معلقًا على ذلك: (لقد امتن الله علينا بأن أخرج من أصلابنا أمثالنا، وأخبر أن الأنثى من الأولاد موهبة وعطية كالذكر منهم، وذم قومًا تسوؤهم البنات، فيتوارون من القوم لئلا يذكروهن لهم؛ فكل من ولد له من المسلمين ذكر أو أنثى، فعليه أن يحمد الله جل ثناؤه على أن أخرج من صلبه نسمة مثله تدعى له، وتنسب إليه، فيعبد الله لعبادته، ويكثر به في الأرض أهل طاعته)[3].

أخيرًا: فبعد أن تم عرض ما أولاه الشارع للأنثى من التكريم والتشريف لها تحت مظلة هذا الدين الحنيف، إلا أن هناك من طبعت

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٥).
(٢) سورة الشورى، الآية: (٤٩).
(٣) شعب الإيمان. للبيهقي (٦/ ٣٨٩).

الجاهلية على قلبه وعقله، فما يحصل في هذا العصر الحاضر عند البعض من الناس الذين نجد فيهم نزعةً جاهلية تجاه الأنثى، فما أن يبشر أحدهم بولادة أنثى له حتى تجده قد جزع وقنط من ذلك، فصار يتلفظ بألفاظٍ مخالفةٍ معارضًا فيها قضاء الله وقدره. كما أن هناك من غلا في هذه الخصلة، ووافق أهل الجاهلية الأميين باستباحة قتل الإناث، وهذا ما يحصل الآن لدى طائفة الهندوس[(١)] في هذا العصر، اعتقادًا منهم إن قتل الإناث سببٌ في ولادة الذكور بعدهن[(٢)]، فنسأل الله العافية والسلامة.

* * *

(١) الهندوسية ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، يقدسون البقر ويعبدونها، ولهم عقائد عدة؛ لأنهم خليط من العقائد النصرانية واليهودية والوثنية. انظر: موسوعة الأديان (٢/ ٧٣٠).

(٢) للاستزادة انظر: المرأة في الهند بين الوأد والبرلمان: د. ظفر الإسلام خان. باحث هندي.

المسألة الثامنة والعشرون

قتل أولادهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾(٢)

إن الأبناء هبةٌ من رحمان السموات والأرض، ومنةٌ امتن الله عز وجل بها على كل أبٍ وأم، لذا يلزم على كل والدٍ أن يحمد الله ويشكره على هذه المنة، وفي الوقت نفسه عليه أن يعلم أن هذه المنة بقدر ما هي منة هي في الوقت نفسه أمانةٌ في أعناق الآباء والأمهات، فعليهم أن يصونوا هذه الأمانة، ويحافظوا عليها، ويقوموا على رعايتها الرعاية الصالحة، وتنشئتها وفق الأصولِ والقواعد الشرعية الموجودة في ديننا الحنيف، لينشأ لنا رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها.

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين، تلك الخصلة التي تمثلت بإزهاق تلك الأرواح البريئة، أرواح الأبناء من البنين والبنات، لا لشيء إلا لخوفٍ من الفقر، أو العار، وتبعًا لأعرافٍ وعاداتٍ جاهلية، أو تقربًا لمعبوداتهم من الأوثان والأصنام من دون الله تعالى، وقد استدل المؤلف رحمه الله تعالى على هذه الخصلة بما سجله القرآن الكريم عن تلك المشاهد المأساوية في تاريخ

---

(١) سورة النحل، الآية: (٥٩).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٥١).

مشركي العرب وغيرهم حين تولد لهم البنات، أو حين يخشون الفقر عندما يولد لهم، قال تعالى مستنكرًا عليهم وموبخًا لهم على هذه الخصلة: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾(١). قال الطبري في المراد بهذه الآيات بقوله ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ (أي يئد(٢) ابنته)(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآيات: (أي يكره أن يراه الناس من سوء ما بشر به من ولادة الأنثى له، فإن أبقاها أبقاها مهانة، لا يورثها، ولا يعتني بها أو يئدها بدفنها وهي حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية)(٤).

كما استدل بقوله تعالى الذي قال فيه مستنكرًا وموبخًا أهل الجاهلية على هذه الخصلة: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾(٥).

والإملاق في اللغة: من الافتقار، يقال رجلٌ أمْلَقَ إذا افتقر(٦).

قال الطبري - رحمه الله - والمراد من هذه الآية: (أي لا تئدوا أولادكم فتقتلوهم من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم، فإن الله هو رازقكم

---

(١) سورة النحل، الآية: (٥٨).

(٢) أي يدفنها وهي حية. لسان العرب (٣/ ٤٤٢).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٦٠٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٤) للاستزادة انظر: تفسير النسفي (٢/ ٢٩٠).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٥١).

(٦) لسان العرب (١٠/ ٣٤٨)انظر. فتح الباري (٨/ ٣١٣).

وإياهم، ليس عليكم رزقهم، فتخافوا بحياتهم على أنفسكم العجز عن أرزاقهم وأقواتهم)[١].

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (أي قتلهم أبناءهم خشية من فقركم الحاصل، وخوفًا من الفقر في الآجل)[٢].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرها أي: (أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار)[٣].

ومن الآيات الواردة أيضًا في التشنيع على هذه الخصلة مخالفةً لأهل الجاهلية فيها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾[٤].

قال ابن كثير في تفسيرها: (أي شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة)[٥]، وقوله تعالى أيضًا الذي بيّن فيه خسران من قام بهذا العمل الشنيع ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا ﴾[٦]. قال ابن كثير في تفسيرها: (أي قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٩١). انظر: فتح المجيد (٢٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٩).
(٣) المرجع السابق.
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٣٧).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٠).
(٦) سورة الأنعام، الآية: (١٤٠).

في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم في الدنيا، وبالعذاب في الآخرة)(١).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾(٢).

فهنا بينت الآية مخالفة الرسول ﷺ أيضًا لأهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بايع النساء على ترك خصالٍ عدة منها هذه الخصلة.

قال القرطبي - رحمه الله - عن هذه الآية: (لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه، فأمر أن يأخذ عليهن أن لا يشركن، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يئدن الموؤدات ولا يُسقطن الأجنة)(٣).

كما قد خالف الرسول ﷺ أهل الجاهلية بهذه الخصلة حين نهى عن قتل الأبناء، واستنكر أشد الاستنكار على من فعل مثل هذا الفعل، قال ﷺ: «حين سئل عن أي الذنب أعظم. فذكر منها: وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك...» (٤). وقد خالف عليه الصلاة والسلام كذلك حين دعا أمته إلى الإكثار من النسل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٢).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: (١٢).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٦٤ - ٦٥)للاستزادة انظر. معارج القبول (٢/ ٧١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب قتل الولد خشية أن يأكل معه برقم (٦٠٠١)، ص(٥٠٨) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب (فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون) برقم (٤٤٧٧) بمثله، (٣٦٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب الشرك أقبح الذنوب برقم (٢٥٧) وبرقم (٢٥٨) بمثله، ص(٦٩٣). موسوعة الحديث الشريف.

إن قتل الأنفس كبيرة من الكبائر، حرمها الشارع عز وجل فكيف إذا كانت هذه الأنفس، أنفس الأبناء فلذات الأكباد، فقال تعالى معظمًا شأن من أحيا نفسًا، وشأن من قتلها: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[١]، وقال عن المؤدة ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[٢][٣].

فنهي الشارع عن قتل الأبناء خشية الإملاق، لا يعني تخصيص النهي فقط بمن خشي الفقر، إنما هو دالٌ على غيره من الأسباب بطريقٍ أولى، فتخصصه بخشية الفقر ليس إلا لأنه كان هو الواقع في ذلك الحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في ذلك: (إذا نُهي عن قتل الأولاد مع الإملاق، فنهيه عن ذلك مع الغنى واليسار أولى وأحرى)[٤].

وقال أحد العلماء أيضًا: ولأن الغالب فيهم قتلهم بسبب الفقر، وإلا فمعلومٌ تحريم القتل لغير ذلك أيضًا[٥].

أن قتل الأطفال خصلة جاهلية ظهرت عند مشركي العرب، وعند اليهود كذلك حين نحروا أبناءهم تقربًا للأوثان.

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣٢).

(٢) سورة التكوير، الآية: (٨ - ٩).

(٣) انظر .الكبائر للذهبي (١٠)، والزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٨).

(٤) الفتاوى (٢١/ ٢٠٩) (٢٤/ ٣٣٢).

(٥) شرح النووي لصحيح مسلم (١٠/ ٢٦).

قال ابن تيمية - رحمه الله - عن هذا: (قتلوا بنيهم وبناتهم حسب ما شهد الله عليهم على لسان داود - عليه السلام - في كتاب الزبور في مزمور مائة وخمسة يقول: [ذبحوا بنيهم وبناتهم للشياطين وأراقوا دمًا زكيًا، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوا للمنحوتات بكنعان...] [(١)].

لهذا حرم الشارع قتل الأبناء، وشنع في ذلك كما تبين من خلال الأدلة السابقة، ومع ذلك فقد ظهرت عدة صور لقتل الأبناء فإن ما يجرى الآن من تحديد النسل في الصين، وقتل ما زاد عن العدد الذي حُدد لهم بقوانين وضعية، كذلك ما يحصل الآن في أوروبا وأمريكا من قتل الأطفال، إما بالإجهاض، أو بإلقائهم بعد ولادتهم في سلال المهملات للتخلص من العار، أو خوفًا من العجز عن الإنفاق عليهم[(٢)] لهو صورةٌ حية شاهدة على وجود هذه الخصلة الجاهلية في هذا الزمن الحاضر عند هذه الدول التي تزعم تقدمها فكريًا وحضاريًا، الأمر الذي دفع بعقلائهم إلى إنشاء هيئات لحماية حقوق هؤلاء الأطفال، تلك الحقوق التي كُفلت لدينا منذ أربعة عشر قرنًا في ظل شريعتنا وديننا الإسلامي الحنيف. فلله الحمد والمنة.

* * *

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٤٤).

(٢) انظر: المرأة في الهند بين الوأد والبرلمان: د. ظفر الإسلام خان. حركة تحديد النسل: لأبي الأعلى المودودي (٩، ١٠، ١١).

المسألة التاسعة والعشرون

إنهم يعاهدون على أن يؤمنوا فإذا كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم

إن المؤمن الحق صادقٌ في حديثه، وفيٌّ في عهده ووعده، أمينٌ على ما ائتمن، فلا عجب أن تكون هذه صفات المؤمنين بالله تعالى.

ذلك لأن الإيمان الصحيح قائمٌ على الصدق والإخلاص، قوي البصيرة والعزيمة، فهو إيمانٌ بالله ورسوله، مستمد، من كتاب الله تعالى وسنة رسوله، مصدق بوعد الله ووعيده في كل الأحوال والظروف، سواءً في السراء أو الضراء، بخلاف من كان إيمانه محددًا بفترةٍ زمنية، أو معمولاً به في ظرف وحالٍ معينة دون حال.

إلا أن من خصال أهل الجاهلية – سواء كانوا أميين، أو كتابيين – إذا حلت بهم الشدائد عاهدوا الله على الإيمان به في الشدة والرخاء، فما أن يحل عليهم الرخاء حتى يعمدوا إلى نقض العهود والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم بالإيمان بالله، فعادوا لكفرهم وشركهم بالله تعالى الذي كانوا عليه قبل العذاب والشدة، وعادوا لمعاصيهم التي اعتادوا أن يعصوا الله بها قبل أن يحل عليهم العذاب.

فالعهد في اللغة: كل ما عُوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهدٌ، وهو الموثق واليمين التي تستوثق بها ممن يعاهدك[1].

---

(١) لسان العرب (٣/ ٣١١).

والنكث: هو النقض، يقال نكثه نكثًا فانتكَثَ، وتناكث القوم عهودهم: أي نقضوها يقال نكث العهد أي نقض العهد(١).

والعهد اصطلاحًا: هو حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال(٢). ونقض العهد هو عدم حفظ الشيء، وعدم الوفاء به.

وقد سجل القرآن الكريم مشاهد كثيرة لمن عاهدوا الله - عز وجل - في حال الشدة على الإيمان به، ولكن ما أن يكشف الله عنهم الشدة والعذاب حتى يتبين كذبهم في عهدهم، إذ أنهم ينكثون العهد الذي عاهدوا الله عليه، فيعودون لكفرهم وعصيانهم، لهذا جاءت الآيات من الشارع لتأكيد وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية، ولتوبيخهم وبيان الوعيد المترتب عليها..

فمن هؤلاء ما كان من فرعون وقومه مع موسى فقال تعالى عنهم: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾(٣).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآيات: (أي لما نزل بهم عذاب الله، وحل بهم سخطه، عاهدوا الله، ونبيه موسى - عليه السلام - لئن

---

(١) لسان العرب (٢/ ١٩٦).

(٢) التعريفات للجرجاني (١٧٢).

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: (١٣٤، ١٣٥).

رفعت عنا العذاب لنصدقن بما جئت، فلما رفع الله عنهم العذاب نقضوا عهودهم التي عاهدوا ربهم وموسى عليها، وأقاموا على كفرهم وضلالهم)[١].

قال الشيخ ابن سعدي عن مرادهم في هذه العهود في الحقيقة: (وهم بتلك العهود، كذبة لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رُفع لا يصيبهم غيره)[٢].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[٣].

قال الطبري في تفسير هذه الآيات: (أي إذا أصابكم سقم في أبدانكم، وعلة عارضة، وشدة من عيش، فإلى الله تصرخون بالدعاء والاستغاثة، ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض ومن الشدة، وفرج البلاء عنكم، إذا جماعةٌ منكم جعلوا لله شريكًا في عبادتهم)[٤].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أيضًا في تفسير الآية: (أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالة الضر إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه، وتلحون في الرغبة إليه، مستغيثين، ثم إذا كشف عنكم الضر

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٤١ – ٤٢).
(٢) تفسير ابن سعدي (٣٠١).
(٣) سورة النحل، الآيتان: (٥٣ – ٥٤).
(٤) تفسير الطبري (٧/ ٥٩٧ – ٥٩٨).

كفرتم وجحدتم نعمة الله عليكم)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أيضًا في تفسيره للآية السابقة: (الإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر، وأما في حال النعمة فهو ساكن، إما شاكر وإما كفور ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[٢]، وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه، وإسباغ النعماء عليه، فيضيف العبد - بعد ذلك - الإنعام إلى غيره، ويعبد غيره تعالى، فقد ذم الله - عز وجل -: من يدعونه في الضراء، ويتضرعون إليه، ويتوبون إليه في الضراء، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه، وأشركوا به، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[٣])[٤].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - عن حال أمثال هؤلاء ممن تلبسوا بهذه الخصلة: (هذا هو حال المشركين الأولين، فإنهم كانوا يشركون في الرخاء، ويخلصون لله وحده في الشدائد، بخلاف مشركي زماننا، فهم أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب، ومن قبلهم، فهم يشركون في الرخاء والشدة، حيث إنهم إن أصابتهم شدة أخلصوا الدعاء

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٣).

(٢) سورة النحل، الآية: (٥٤).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٦٧).

(٤) الفتاوى (١٤/ ٣٧٠ - ٣٧١)للاستزادة انظر. الحسنة والسيئة (١٢٠).

لغير الله معتقدين أنهم أسرع فرجًا لهم من الله)[١].

ومن الآيات الواردة أيضًا في الاستنكار على هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[٢]:

قال المفسرون في تفسير الآية: أي لما رفع عنهم العذاب الذي نزل بهم غدروا بالعهد الذي عاهدونا عليه، وهو أنهم إن كُشف عنهم العذاب اهتدوا لسبيل الحق، فلما كُشف عنهم العذاب أصروا على ضلالهم، وتمادوا في غيهم، فهم في كل مرةٍ ينكثون ما عاهدوا الله عليه[٣].

قال الإمام ابن رجب - رحمه الله - عمن اشتهر عنهم ممارسة هذه الخصلة: (إن نكث العهد خصلةٌ اشتهرت بها اليهود، وهي خصلةٌ من خصال النفاق، والمراد بالنفاق هو اختلاف السِّرِّ والعلانية، والقول والعمل والمدخل والمخرج)[٤].

لهذا فقد نهانا الشارع عن نقض العهد في محكم كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ في آيات كثيرة، وبأساليب مختلفة، وذلك إما بالنهي الصريح عن نقض العهد، أو بالأمر بالوفاء بالعهد، أو ببيان عقوبة ناقض العهد.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[٥]، وقال

(١) فتح المجيد (٤١).

(٢) سورة الزخرف، الآية: (٥٠).

(٣) انظر تفسير الطبري (١١/ ١٩٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٣٠)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٨٥).

(٤) جامع العلوم والحكم (٧٩٦).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٣٤).

أيضًا: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾(٢).

قال بعض العلماء في تفسير هذه الآيات: أي كبر بغضًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون فإنه تعالى يبغض هذا الشيء ويحب الموفين بالعهد إذا عاهدوا(٣).

وقد دعا النبي ﷺ أمته إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنص على أن هذه الخصلة من خصال النفاق كما هو واردٌ عنه - عليه الصلاة والسلام - حين قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصـلة منهن كانت فيه خصـلة من النفاق حتى يدعها - فذكر منها - وإذا عاهد غدر...» (٤).

وقال أيضًا محذرًا ومتوعدًا: «لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يُعرف به»(٥).

---

(١) سورة النحل، الآية: (٩١).

(٢) سورة الصف، الآيتان: (٢، ٣).

(٣) انظر.تفسير القرطبي (١٨/ ٧٣)، شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتـاب الإيـمان، بـاب علامـات النفـاق بـرقم (٣٤)، ص(٥) بمثله، وفي كتاب المظالم. باب إذا خاصم فجر بـرقم (٣٤٥٩)، ص(١٩٣) بمثلـه، وفي كتـاب الجزية والموادعة. باب إثم من عاهد ثم غدر برقم (٣١٧٨)، ص(٢٥٧) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب خـصال المنـافق بـرقم (٢١١)، ص(٦٩٠) بمثلـه. موسـوعة الحديث الشريف.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجزية والموادعـة. بـاب إثـم الغـادر للـبر والفـاجر بـرقم =

وقد ذكر الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - أنواع العهد فقال عن ذلك: (والعهد هو ما يعاهد الإنسان به غيره، وهو نوعان:

النوع الأول: عهدٌ مع الله تعالى، بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ لأنه ربهم وخالقهم.

النوع الثاني: عهدٌ مع عباد الله، وهي العهود التي تقع بين الناس، ويجب الوفاء به)[1].

وقد أوجب الله - عز وجل - الوفاء بالعهود بين الناس، سواء بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو بين المسلمين وغيرهم من الكفار، وحرم نقض العهد بينهم، وشدد في النهي عنه، وفي تحريمه، فإذا كان هذا التشديد من الله - عز وجل - في حق الخلق، فيكون في حق الله أولى وأعظم، وأشد تحريمًا ونهيًا.

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - عن ذلك: (يجب الوفاء لله - عز وجل - بما يعاهد العبدُ ربه عليه)[2].

إن معاهدة العبد لله - عز وجل - بالإيمان في حال نزول العذاب أو الضُر فقط، دون حال الرخاء، فإنها داخلةٌ في الإنابة لربوبيته تعالى، وهي

=

(٣١٨٦-٣١٨٧)، ص(٢٥٨) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد. باب تحريم الغدر برقم (٤٥٣٦)، ص(٩٨٦) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين (٢/ ٢٩٧).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٨٠١).

الإنابة التي تشترك فيها جميع المخلوقات، ويشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، فهي إنابة وجدت، لوجود العذاب والضر فقط.

وفي هذه يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (من أنواع الإنابة، إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾[(١)] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام؛ بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[(٢)] فهذا حالهم بعد إنابتهم)[(٣)].

وقال أيضًا في موضعٍ آخر: (وأملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار)[(٤)].

وقال أحد العلماء عن حال المؤمن في السراء والضراء: (وهذا خلافًا لحال المؤمن، فالمؤمن قد عاهد الله - عز وجل - على الإنابة إليه في حال السراء والضراء، وفي السر والعلن، وبجسده وروحه، خلافًا لما عليه أهل الشرك والنفاق والكفر، لأنه صادقٌ في نيته وإرادته، وفي عزمه ووفائه بعهده وعمله، قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ

(١) سورة الروم، الآية: (٣٣).

(٢) سورة الروم، الآية: (٣٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٧٩).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١٤٩).

ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾[١])[٢].

لهذا فالواجب على العبد المؤمن الوفاء بجميع أنواع العهود ليصدق عليه لفظة الإيمان، أما ما نراه في عصرنا من لجوء الكثير من الناس إلى الله تعالى ممن ابتلوا، وامتحنوا بأموالهم، أو أبدانهم، أو نحوها من الابتلاءات فتجدهم قد قطعوا العهود على أنفسهم بالتوبة والرجوع والإنابة إلى الله، لكن ما أن يرفع البلاء عنهم، نجد أنهم قد نكثوا تلك العهود، فإذا بهم في طغيان وعصيان لله بأجسادهم وأموالهم، ببذل الأموال والصحة فيما حرم الله عز وجل إلا من رحم الله . فهؤلاء قد اندرجوا ضمن مصاف المنافقين دون أن يشعروا بذلك.

* * *

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٢٣).

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين بتصرف (٣٥١ – ٣٥٢).

المسألة الثلاثون

إلقاء العداوة بين المسلمين فأنزل الله فيه ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[1]

لقد أرسى الإسلام دعائم الود والمحبة بين المسلمين، حيث تجلت في المجتمع الإسلامي صور المحبة في الله والتآلف والتراحم والتعاطف والتعاون امتثالاً لهدي القرآن والسنة، ولاشك في أن صور التلاحم تلك كانت ولا زالت هدفًا من أهداف العدو المتربص بالأمة، الذي يحيك المؤامرات من حين لآخر لتقويض هذا البناء الإسلامي الأخوي المتماسك. فهناك منهم من اندس داخل المسلمين، ولبس لباسهم، وآخرون صرحوا بعدائهم، وكلهم عملوا على هدم وتخريب العلاقات بين المسلمين، ونشر العداوة بينهم بشتى الوسائل.

وقد بين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية إلقاء العداوة بين المسلمين، فهم لا يودون لهم الخير والهداية والاجتماع، وإنما يهدفون من وراء ذلك تفريق المسلمين، وإضعاف قوتهم وإضلالهم عن الحق، والحامل لهم على ذلك كله الحسد الذي تحملهُ قلوبهم على المسلمين. وهذه الخصلة من خصال الأميين، والكتابيين، وقد دل على ذلك كتاب الله تعالى وواقعهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٠).

وقد استدل المؤلف على وجود هذه الخصلة بالآية التي وبخ فيه الشارع أصحاب هذه الخصلة وأتباعهم: ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾.

قال الطبري في تفسير الآية: (والمراد: أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله، إن تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتاب من أهل التوراة والإنجيل، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به، يُضِلُّوكم فيردّوكم بعد تصديقكم رسول ربكم، وبعد إقراركم بما جاء به من عند ربكم، كافرين؛ لأنهم كما علمهم تعالى أنهم لهم منطوون على غل وغش وحسد وبغض)(١).

والآيات في التحذير من هذه الخصلة كثيرة جدًا، فقد حذر الله - عز وجل - في مواضع كثيرة في كتابه عباده المؤمنين، ممن يسعون إلى الإفساد بين المسلمين، وإلقاء العداوة بينهم، سواءً كانوا من أهل الكتاب أو المنافقين ليدعوهم إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، قال تعالى عن ذلك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾(٢).

قال ابن كثير في تفسيرها: (وهنا في هذه الآية تحذير من الله - عز وجل - لعباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٧٢).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٤٩).

في الدنيا والآخرة)[١].

ذلك لأن أمثال هؤلاء لا يسعون إلى جلب الخير للمسلمين، إنما يسعون إلى نشر العداوة والفتنة، وإحداث الشقاق والفرقة بين المسلمين حسدًا من عند أنفسهم.

فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٤]، وقال تعالى عن اليهود: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾[٦]. كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٧]، وقال تعالى في شأن

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤١٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٠٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٦٩).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٧٢).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٦٤).

(٦) سورة النساء، الآية: (٤٤).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٧).

المنافقين: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾[٢]، وقال تعالى عنهم أيضًا: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ ﴾[٣].

قال الإمام ابن القيم عن هؤلاء المتلبسين لهذه الخصلة: (هم أعداء الإسلام في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علمٌ وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد)[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾[٦]، وقال تعالى في شأن الأميين: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١١).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٤).

(٤) صفات المنافقين: لابن القيم، ت: بشير محمد عيون. مكتبة دار البيان. دمشق. بيروت. دار المؤيد، الرياض، (ط١)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، (٤).

(٥) سورة البقرة، الآيتان: (٢٠٤، ٢٠٥).

(٦) سورة الشعراء، الآيتان: (١٥١، ١٥٢).

دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾(٢).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فإن الرسل جميعًا - عليهم السلام - يدعون إلى الله تعالى، وإلى الالتزام بجميع ما أمر الله به، واجتناب ما حرم الله من السوء وأهله، ودعوتهم إلى التمسك بدينه، والحذر من العدو الأول واتباعه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾(٣)، وبيّن لهم تعالى أن الفلاح والفوز بإتباع ما جاء به الله ورسوله، وباجتماعهم، وفي الوقت نفسه نهاهم عن التنازع؛ لأنه يؤدي إلى الافتراق، قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾(٤)، وعن التباغض بينهم في غير الله قال ﷺ: «ولا تباغضوا...»(٥).

(١) سورة البقرة، الآية: (٢١٧).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: (٢).

(٣) سورة البقرة، الآيتان: (١٦٨ - ١٦٩).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٤٦).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع برقم (٥١٤٣) بنحو (٤٤٥)، وفي كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر برقم (٦٠٦٤) (٦٠٦٥) بنحوه، وفي باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن) برقم (٦٠٦٦) بنحوه (٥١٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب البر، باب تحريم الظن والتجسس والتناجش ونحوها برقم (٦٥٣٦، ٦٥٣٨، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠) بمثله (١١٢٧). موسوعة الحديث الشريف.

كما دعا إلى إصلاح ذات البين في حال حصول خصومةٍ أو اعتداء من أحد من المسلمين على الآخر، ورتب عليه الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾[1]، وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[2].

كذلك حرص الشارع - عز وجل - على القضاء على كل الذرائع الموصلة لهذه الخصلة، كتحريم النميمة، والخمر، والحسد.. وغيرها. وعن تحريم الخمر قال الإمام ابن رجب: (وحرم كل ما من شأنه أن يؤدي إلى العداوة وإيقاع العداوة والبغضاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[3]»[4].

ومما حرمه الشارع - عز وجل - في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ النميمة؛ لأن لها دورًا عظيمًا في إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، لهذا قال تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾[5].

قال الذهبي عن حكم النميمة: (فالنميمة[6] كبيرة من الكبائر؛ لهذا حذر الرسول ﷺ منها حين وقال: «تجد من شرار الناس ذا الوجهين، هو

---

(١) سورة الحجرات، الآية: (٩).
(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٠).
(٣) سورة المائدة، الآية: (٩١).
(٤) جامع العلوم والحكم (٦١٠).
(٥) سورة القلم، الآية: (١١).
(٦) هي نقل الكلام بين الناس بقصد الإفساد بينهم.

الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجه» وفي لفظ: «تجد شرار الناس ذا الوجهين»[(١)] [(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حرمة الحسد: (كما حذر النبي ﷺ من الحسد الذي يدفع صاحبه إلى الوصول إلى غايته بأي طريقة، وإن كانت ساقطة كإلقاء العداوة»[(٣)] ويقول الإمام ابن القيم أيضًا عن حال الحاسد: (إن الحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، فهو عدو النعمة، متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾[(٤)]) [(٥)].

لهذا حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من مخالطة كل من تمثلت بهم هذه الخصلة، فيقول أحد العلماء عن ذلك: (وكما حذرنا رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى والمنافقين، حذرنا من أهل الأهواء والبدع والضلالات، فقد نُهينا عن مجالستهم ومخالطتهم؛ لما فيه من الضلال والفرقة. فهم سلكوا مسلك المشركين في ألقابهم لأهل السنة، وما هذا إلا لنشر العداء والتفريق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب ما قيل في ذي الوجهين برقم (٦٠٥٨)، ص(٥١٢) وفي كتاب المناقب. باب المناقب برقم (٣٤٩٤)، ص(٢٨٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر. باب ذم الوجهين بأرقام (٦٦٣٠، ٦٦٣١، ٦٦٣٢)، ص(١١٣٢) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) الكبائر للذهبي (٩٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٦).

(٤) سورة النساء، الآية: (٨٩).

(٥) الروح (٢٥٢).

بين المسلمين)[١].

وقد ظهرت هذه الخصلة في هذا العصر الحاضر لدى الشيعة[٢] الذين يتحينون الفرص لتفريق المسلمين، ونشر العداوة بينهم، أما اليهود والنصارى فعداؤهم قديم، وليس بجديدٍ على المسلمين، لكن صور دخولهم على المسلمين في هذا العصر ليس بنفس صور عدائهم الذي عُرف عنهم سابقًا، فقد أدخلوا على المسلمين من يقوم بمهمتهم بنشر العداوة ممن هم من أبناء المسلمين، ولكنهم يحملون قلوب اليهود والنصارى، كالبهائية والبابية[٣]، أو بإقامة حركات تحمل شعارات براقة، وهي تهدف إلى نشر العداوة بين المسلمين، وإسقاطهم، والسيطرة عليهم، مثل الحركة الماسونية، وهي حركة يهودية والتي من أهدافها: بث روح الإلحاد والإباحية والعداوة بين الشعوب، فالماسونية[٤] العالمية تعمل جاهدة بشتى الوسائل لنشر

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. اللالكائي. (٣/ ٧٠١) (٧/ ١٥٤١)،عقيدة السلف وأصحاب الحديث، ص(٣٠٦).

(٢) انظر: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية عرض ونقد لد. ناصر القفاري. دار الرضا. مصر. (ط٣) ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، (٣/ ١٤٨٠).

(٣) البابية هي أحد الفئات الضالة الخارجة عن الإسلام، من عقائدهم إنكار أن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء، وادعاؤهم بأن الروح حل بهم، وإنكار العقوبات الألهية، لها اسم آخر وهي البهائية. أسسها الميرزا علي محمد الشيرازي تحت رعاية الاستعمار الروسي اليهودي، تقطن هذه الفئة في إيران، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين. انظر: البابية والبهائية لإحسان إلهي ظهير. موسوعة الأديان (١/ ٤٠٩).

(٤) هي منظمة يهودية سرية هدامة إرهابية، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، مؤسسها هيردوس، تقوم على المكر والتمويه والحقد، يعملون على تقويض الأديان كلها. انظر: موسوعة =

الإباحية والتحلل الأخلاقي والعداوة[١]. فمن أهدافهم الأساسية أنه لابد من تمزيق وحدة المسلمين والعرب والحيلولة دون وحدتهم، ولا يكون هذا إلا بنشر العداوة بينهم لتقوم الحروب الأهلية. وقد قالوا في أحد بروتوكولاتهم: لابد من إنهاك الدول والشعوب النامية بالهزاهز الداخلية (الحروب الأهلية)، علينا أن لا نلتفت إلى ما هو أخلاقي لنشر الفساد، فالغاية تبرر الوسيلة... لابد من خلق الهزاهز والفتن والاضطراب[٢].

* * *

= الأديان (١/ ٥١٠)، الماسونية وموقف الإسلام منها د. حمود بن أحمد الرحيلي.

(١) للاستزادة انظر: القاديانية والبابية: لإحسان إلهي ظهير، الصهيونية: لد. حمود الرحيلي (٣١)، الماسونية وموقف الإسلام منها، (٣٩).

(٢) برتوكولات حكماء صهيون (٣١، ٣٧، ٣٩).

المسألة الحادية والثلاثون

زخرفة المساجد كما قال ابن عباس: (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى)(١) وفي الحديث: (ما أمرت بتشييد المساجد)(٢)

المساجد هي بيوت الله عز وجل، قد أضافها الله عز وجل إلى نفسه إضافة تعظيم وتشريف، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾(٣)، وهي أحب البقاع إليه، وقد حث رسول الله ﷺ وحض على بناء المساجد، ووعد مشيديها بالثواب الجزيل، والأجر العظيم، لعظم مكانتها في الإسلام، وحاجة المسلمين إليها في سائر البلاد والأزمان، لهذا لابد من عمارتها وتشييدها وصيانتها، وإكرامها عن كل مالا يليق بها، ويناسب شرفها.

فمن هنا يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين عند عمارتهم للمساجد والمتمثلة في مبالغتهم في زخرفة المساجد وتزويقها، مما يخرج المسجد عن طبيعته ووظيفته بوصفه مكانًا لعبادة الله، حيث أصبح معرضًا للتفنن في الزينة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصلاة. باب بنيان المساجد، ص(٣٨) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب المساجد برقم (٤٤٨)، ص(١٢٥٦). بمثله موسوعة الحديث الشريف. صححه الألباني.

(٣) سورة الجن، الآية: (١٨).

والزخرفة التي تشغل المصلين عن الخشوع في صلاتهم.

والزخرفة في اللغة: الزينة، يقال زَخرَفَ البيت: أي زينه وزوقه[١].

والمساجد في اللغة: واحد المسجد، وهو كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد، جمعها مساجد، وهي مصلى الجماعات[٢].

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على وجود هذه الخصلة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى بقول ابن عباس - رضي الله عنه - الذي حذر فيه من هذه الخصلة حين قال: (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى)، ذلك لأن اليهود والنصارى زخرفوا مساجدهم، وزينوها بأنواع الزينة والزخرفة، بعد تحريفهم لكتبهم، وتركهم العمل بما ورد فيها، فطلبوا الدنيا بالدين، فيُخشى على المسلمين أن يسلكوا مسلكهم، فيكون الهدف من بنائهم للمساجد المراءاة ببنائها وزخرفتها، والمباهاة بتشيدها، فيتجرد هذا العمل من الإخلاص لله تعالى، ويكون عملاً دنيويًا.

كذلك تمثلت هذه الخصلة عند مشركي العرب حين زخرفوا الكعبة بأنواعٍ من النقوش والتصاوير، والتي كانت بالذهب أيضًا لهذا خالف الرسول ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وأمر بمخالفتهم، وقد استدل المؤلف على ذلك بالحديث الذي قال فيه - عليه الصلاة والسلام -: «ما أمرت بتشييد المساجد»، والمراد: (بالتشييد هو رفع البناء وتطويله)[٣].

---

(١) لسان العرب (٩/ ١٣٢).

(٢) لسان العرب (٣/ ٢٠٤).

(٣) معالم السنن. للخطابي. شرح سنن أبي داود. المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، (ط٢)، =

ومن الأحاديث الدالة أيضًا على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في خصالهم حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع»(١).

قال أحد العلماء في المراد بهذا الحديث: (والمراد بهذا الحديث النهي عن اتباع أهل الكتاب وغيرهم، فقد اتبع كثير من أمته سنن فارس في شيمهم ومراكبهم وملابسهم، وإقامة شعارهم في الحروب وغيرها، وأهل الكتابين في زخرفة المساجد)(٢).

وبناءً على هذا قال العلماء في حكم هذه الخصلة: يكره زخرفة المساجد، وتزويقها ونقشها، لأن فيها تشبهًا بالكفار، ؛ ولأنه مما يُلهي في الصلاة، ولأنه من أشراط الساعة(٣).

=

١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، (١/ ١٤١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٥٦)، ص(٢٨٢)، وفي كتاب الاعتصام. باب قوله «لتتبعن سنن...» برقم (٧٣٢٠)، ص(٦١٠) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم. باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٦٧٨١)، ص(١١٤٢) بمثله موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير. للعلامة المناوي. مطبعة مصطفى محمد. مصر. (ط١)، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م، (٥/ ٢٦١).

(٣) انظر.نيل الأوطار (٢/ ١٧٣)، إعلام الساجد بأحكام المساجد. للإمام بدر الدين الزركشي. دار الكتب العلمية. بيروت (ط١)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص(٢٣٧)، وانظر: الإشاعة في أشراط الساعة للشهرزوري (١٠٣).

وقد حذر السلف من هذه الخصلة فمن ذلك ما قال أبو الدرداء[١] - رضي الله عنه -: (إذا حليتم مصاحفكم، وزخرفتم مساجدكم فالدمار عليكم)[٢].

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: (إن القوم إذا زينوا مساجدهم، فسدت أعمالهم)[٣].

وقد أمر عمر بن الخطاب[٤] - رضي الله عنه - ببناء المساجد وفي الوقت نفسه حذر مما يدخل في زخرفتها فقال: (أكن[٥] الناس من المطر، وإياك أن تحمِّر أو تصفر فتفتن الناس). وقال أنس[٦] - رضي الله عنه -:

(١) قيل هو: عامر، وقيل عويمر بن مالك، وقيل ابن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا الدرداء، أسلم يوم بدر، وشهد أحد، قال عنه الرسول ﷺ نعم الفارس عويمر. توفي سنة ٣٢هـ. انظر: الإصابة (٣/ ٤٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٤٣)، المصنف. لعبد الرزاق. المكتب الإسلامي. بيروت. (ط٢)، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م (٣/ ١٥٤)، المحلى لابن حزم. بيت الأفكار الدولية. عمان، الأردن، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٤٢٣).

(٣) المصنف (٣/ ١٥٤)، المحلى (٤٢٣).

(٤) هو: عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي. يكنى أبا حفص أمير المؤمنين، دعا الرسول بقوله اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، يقصد أبا جهل أو عمر بن الخطاب، فأصبح عمر بن الخطاب ابنته زوجة رسول الله حفصة رضي الله عنها. توفي مقتولاً على يد أبي لؤلؤة المجوسي ٢٣هـ. انظر: الاستيعاب (٢/ ٤٦٢)، الإصابة (٢/ ٥١٢).

(٥) أسترهم.

(٦) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، خدم رسول الله عشر سنوات، سكن البصرة ومات فيها سنة ٩٠هـ. انظر: الاستيعاب (١/ ٤٣)، الإصابة (١/ ٨٤).

(يتباهون بها، ثم لا يعمرونها إلا قليلاً)[١].

وبعد هذا فقد دلت السنة ودعت إلى بناء المساجد، وأفادت بكراهة المبالغة في تزيينها وزخرفتها، لأن المبالغة في الزخرفة والتزيين تشغل المصلين عن الخشوع في صلاتهم كما يُخشى منها أن تُوقع أصحابها في الرياء والمباهاة بها، إلا أن هناك من العلماء من أباح زخرفة المساجد وتزيينها إذا كان على سبيل التعظيم لها، وأن لا يكون من بيت مال المسلمين.

وعن ذلك قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: (من احتج بإباحة ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾[٢] يعني تعظم، وقد روي عن عثمان[٣] - رضي الله عنه - أنه بنى مسجد النبي ﷺ بالساج[٤] وحسّنه)[٥].

كما قال الإمام أبو حنيفة: (لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب على سبيل التعظيم، ولم يقع الصرف على ذلك من بيت المال)[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد، ص(٣٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) سورة النور، الآية: (٣٦).

(٣) هو: عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي، أمير المؤمنين، ثالث الخلفاء الراشدين، لُقب بذي النورين لأنه تزوج ابنتي الرسول ﷺ: رقية، فلما ماتت تزوج أم كلثوم رضي الله عنهما، وهو أحد المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها. توفي مقتولاً رضي الله عنه. انظر: الإصابة (٢/ ٤٥٥).

(٤) شجر عظيم الحجم، يكاد لا يبلى. انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ٢٤٣).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٤٣).

(٦) انظر. تفسير القرطبي (١٢/ ٢٤٣)، فتح الباري (١/ ٥٤١).

وقال بعض أهل العلم: إن ما زخرف به المسجد من التحمير والتصفير فيطمس بالآجر الأبيض كذلك الصور والكتابة على الحيطان (١).

ويدخل في هذه المسألة ما يحصل في مساجد المسلمين في وقتنا الحاضر التي بلغ ببعضها حد السرف والمبالغة في الزخرفة والتزيين، كتعليق قناديل الذهب والفضة في بعض الدول، ولا خلاف في أن هذا مظهر من مظاهر الترف المخالف للمقصد الشرعي الذي أقيمت لأجله هذه المساجد، فلابد من تعظيم المساجد بالحرص على نظافتها وصيانتها وبنائها بما يتوافق مع كونها دورًا للعبادة، وأن تُعمر بالعبادات لا بالمبالغة بكثرة زخارفها ونقوشها ،إذ لا مانع من زخرفتها وتزيينها باعتدال وتوسط.

* * *

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية. لعبد الرحمن بن قاسم النجدي. (ط٧)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٤/ ٢٧٠).

المسألة الثانية والثلاثون
الاختصار في الصلاة فورد النهي عنه، وقالت عائشة[(١)] (إنه من فعل اليهود في صلاتهم)[(٢)]

إن حال الصلاة حال يناجي فيه العبد ربه تعالى، حيث تتجلى فيها معاني الانكسار والتذلل من العبد لله - عز وجل -، وهي حالٌ يفتخر فيها العبد أن يقف بين يدي جبار السموات والأرض. فلابد أن تكون هيئة العبد في هذا الموقف هيئةً تملؤها الرغبة بوعد الله، والرهبة من وعيده وعذابه.

ويبين المؤلف - رحمه الله - هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الكتابيين، وهي وضع أيديهم على خواصرهم حال الصلاة.

والمراد بالاختصار: التخصر، والخصر، وهو وضع اليد على الخصر، وهو المستدق فوق الورك وأعلى الخاصرة، وهو ما فوق الطفطفة والشراسيف، والطفطفة أطراف الخاصرة، والشراسيف أطراف الضلع الذي يشرف على البطن، وهذا هو الصحيح الذي عليه المحققون

---

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق. زوجة رسول الله ﷺ أم المؤمنين. تزوجها الرسول بكرًا وعمرها تسع سنوات، والدها أبو بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ، برأها الله في حادثة الإفك بقرآن يتلى. توفيت سنة (٥٨هـ) انظر: الاستيعاب (٤/ ٣٤٥)، الإصابة (٤/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٥٨) بمثله (٢٨٢)، موسوعة الحديث الشريف.

والأكثرون من أهل اللغة والحديث والفقه[١].

وقد خالف رسول الله ﷺ اليهود في هذه الخصلة بالنهي عنها، وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على مخالفة الرسول ﷺ لليهود في هذه الخصلة «بنهيه ﷺ أن يصلي الرجل متخصرًا»[٢]، وقد جاء تعليل هذا النهي كما ورد في حديث عائشة - رضي الله عنها -: (بأنه فعل اليهود، ولأنها تكثر من فعله في صلاتهم، فنهى عنه لأنه تشبهٌ بهم)[٣].

وقد كره ابن عباس - رضي الله عنه - وضع اليد على الخاصرة في الصلاة، وقال: (الشيطان يحضره)[٤].وذلك لأنه فعلٌ لا يليق بالصلاة، ولأنه مانعٌ من الخضوع والخشوع وعلامة على الكبر، وعن ذلك قال بعض أهل العلم: إنه فعل الكفار، أو المتكبرين، وراحة أهل النار، فلا يليق في الصلاة؛ لأنه فعل اليهود، وقيل: فعل الشيطان، فنهي عنه كراهة للتشبه باليهود والشيطان، ولأنه يمنع الخضوع والخشوع[٥].

---

(١) انظر.فتح الباري (٣/ ٨٩)، المنهاج (٥١٤)، شرح فتح القدير. لكمال الدين ابن الهمام. دار الفكر. بيروت، (ط٢)، (١/ ٤١٠)، عون المعبود على سنن أبي داود. لمحمد شمس الدين آبادي. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط٢)، ١٩٩٥م، (٣/ ١٢)فيض القدير(٦/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العمل في الصلاة. باب الخصر في الصلاة برقم (١٢١٩، ١٢٢٠) بمثله، ص(٩٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد، باب كراهة الاختصار في الصلاة برقم (١٢١٨)، ص(٧٦٢) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (٣/ ٨٩).

(٤) المحلى (٣٣٦).

(٥) انظر.المبسوط للسرخسي. لشمس الدين السرخسي. دار المعرفة. بيروت (١/ ٢٦)، وحاشية =

ويقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - عن العلة في النهي عن هذه الخصلة: (لأنه فعل اليهود، ولأنه في الغالب يأتي في حال انقباض الإنسان، وكأنه يفكر في شيء)[١].

وعلى هذا فقد اتفق العلماء على النهي عن أن يصلي المسلم متخصرًا[٢]؛ لأن حال الصلاة حال مناجاة العبد لربه يكون بتذلل وانكسار، والتخصر كما ظهر معنا سابقًا أنه فعل المتكبرين، ولا يليق بالصلاة، ولأنه فعلٌ لليهود في صلاتهم، وقد نهينا عن التشبه بهم.

* * *

=

الروض المربع شرح زاد المستقنع. للشيخ عبد الرحمن النجدي الحنبلي، مطبعة إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد، (ط٣)، ١٤٠٥هـ، (٢/ ٩٢).

(١) انظر.الشرح الممتع (١/ ٥٧٣)، الملخص الفقهي. د. صالح بن فوزان الفوزان. دار ابن الجوزي. الرياض. الدمام، (ط١٤)، ١٤٢١هـ، (١/ ١٠٠).

(٢) انظر. المجموع .للإمام النووي.دار الفكر .بيروت ١٩٩٧م (١٠٨).

المسألة الثالثة والثلاثون
أنهم زادوا في صيامهم فورد الشرع بالنهي عن تقدم رمضان وصيام عيد الفطر لئلا نشابههم

صوم شهر رمضان ركن من أركان الإسلام، وفرض من فروض الله معلوم من الدين بالضرورة. ويبدأ وجوب صيام شهر رمضان إذا علم دخوله برؤية هلال رمضان، بأن يشهد أحد العدول برؤيته، أو إكمال عدة شهر شعبان ثلاثين يومًا، وذلك حينما لا يرى الهلال ليلة الثلاثين من شعبان.

وهنا يبين المؤلف - رحمه الله - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من أهل الكتاب، وهي تقديم رمضان بصيام يوم أو يومين، وصيام يوم عيد الفطر.

والمراد بالصيام: هو إمساك جميع النهار عن المفطرات من إنسان مخصوص مع النية(١) قال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾(٢). وقد أُمر أهل الكتاب في شرعهم بالرؤية إلا أن تحريفهم وتبديلهم لشرائعهم أدى إلى إلغائهم لها.

---

(١) المبدع .إبراهيم بن محمد الحنبلي .المكتب الإسلامي .بيروت ١٤٠٠هـ (٣/ ٨) للاستزادة انظر.الشرح الممتع على زاد المستقنع (٣/ ٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٧).

وعن ذلك قال شيخ الإسلام: (لقد أُمرا أهل الكتاب بالرؤية في صومهم وعبادتهم، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[1]، لكنهم تأولوا وبدلوا، فأصبحوا يقدمون رمضان بصيام يوم أو يومين)[2]. وليس هذا وحسب؛ بل وزاد أحبارهم عليهم الصيام حتى صار خمسين يومًا، ونقلوا صيامهم من الحر لفصل آخر.

لهذا دعا الرسول ﷺ إلى مخالفتهم، فنهى عن تقديم صيام رمضان بيوم أو يومين، وجعل شرطه رؤية الهلال، إلا في حالة أن يُغم على الناس.

ونهى عن صيام يوم الفطر والأضحى، وعن صيام أيام التشريق للحاج الذي لم يجد الهدي، وعن تخصيص السبت أو الجمعة بالصوم، وما ذلك إلا مخالفة لأهل الكتاب، قال تعالى نصًا على الرؤية: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[3].

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيرها: (حتى ندخل العبادة بيقين، ونخرج عنها بيقين)[4].

وقال رسول الله ﷺ في النهي عن هذه الخصلة: «لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يومٍ أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم صومًا، فليصم

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٨٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ص(٧٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢/ ٢٨٩).

ذلك اليوم»(١) أي اعتاد أن يصوم تطوعًا، أو عليه قضاء.

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يومًا قبله أو بعده»(٢).

وقال في نهيه عن صيام يومي العيد: «نهى ﷺ عن صوم يوم الفطر والنحر»(٣).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن ذلك: (ونُهي عن صوم يوم الشك، وما ذاك إلا لئلا يتخذ ذريعة إلى أن يلحق بالفرض ما ليس منه، وحرم صيام يوم العيد لئلا يكون ذريعة الزيادة في الواجب كما فعلت النصارى)(٤).

وقال - عليه الصلاة والسلام - عن أيام التشريق: «هي أيام أكلٍ وشرب»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصوم. باب لا يتقدم رمضان بيوم أو يومين برقم (١٩١٤) بمثله ص(١٤٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام باب لا تقدموا رمضان بصوم بيوم أو يومين برقم (٢٥١٨)، ص(٨٥١) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم. باب صوم يوم الجمعة برقم (١٩٨٥)، ص(١٥٥) بمثله، أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصيام، باب كراهية أفراد الجمعة بصوم لا يوافق عادته برقم (٢٦٨٣ - ٢٦٨٤)، ص(٨٦١) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم. باب صوم يوم الفطر برقم (١٩٩١) بمثله، ص(١٥٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام، باب تحريم صوم يومي العيد برقم (٢٦٧٤)، ص(٨٦٠) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أعلام الموقعين (٣/ ١٥٥).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب تحريم صيام أيام التشريق برقم (٢٦٧٧)، =

وقد قالت طائفة من العلماء عن حكم صيام يوم الشك: لا يصام ذلك اليوم عن فرض، ولا تطوع[١].

وقال الشعبي[٢]: (لو صمت السنة كلها لأفطرتُ يوم الشك، وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا، فحوّلوه إلى الفصل الشمسي، لأنه قد كان يوافق القيظ فعدوا ثلاثين يومًا، ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم، فصاموا قبل الثلاثين يومًا وبعدها يومًا)[٣].

كما قال الإمام البغوي - رحمه الله - عن الحكم في هذه المسألة: (أتفق أهل العلم على أن صوم يوم العيد لا يجوز، ولو نذر صومه لا ينعقد عند أكثر العلماء، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة، لم يكن يصوم يوم الأضحى والفطر، ولا يرى صيامها، كما اتفق العلماء على أن صيام أيام التشريق لا يجوز لغير المتمتع، والكراهية في تخصيص يوم السبت بالصوم لأنه يوم تعظمه اليهود)[٤].

=

ص(٨٦٠) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) شرح السنة للبغوي (٦/ ٢٤٢).

(٢) هو: أبو عمرو عامر بن شراحيل بن معبد الشعبي الكوفي، إمام حبر علامة، نسب إلى جبل في اليمن. ولد في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. توفي عام ١٠٤هـ. انظر: تاريخ بغداد. للخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية. بيروت (١٢/ ٢٢٨)، العبر في خبر من غبر (١/ ١٢٧)، شذرات الذهب (١/ ١٢٦).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٢٧١).

(٤) شرح السنة للبغوي (٦/ ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٦١).

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - عن ذلك أيضًا: (لا يتقدم رمضان بصوم يوم يعد منه بقصد الاحتياط له، فإن صومه مرتبط بالرؤية، فلا حاجة إلى التكلف)(١).

وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - على تحريم صيام يومي العيد، سواء النذر، أو الكفارة، أو التطوع، أو القضاء، أو التمتع(٢).

وعلى هذا نستدل على أنه لا يصح صيام يومي العيد، وكذا لا يحل صيام يوم الشك، أو التطوع فيه لمن لم يكن هي عادةٌ له التطوع. والحكمة في ذلك كما قال شيخ الإسلام: (لأن المشكوك في وجوبه لا يجب فعله، ولا يستحب، بل يستحب ترك فعله احتياطًا)(٣).

وبعد أن تبين لنا من خلال عرض الأدلة السابقة، وأقوال العلماء حرمة صيام يومي العيد، والنهي عن تقديم رمضان بصيام يوم أو يومين، إلا أن هناك من خالف هذه الأدلة الصريحة وهم الروافض، فقد ضاهوا اليهود والنصارى في هذه الخصلة، فعمدوا إلى تقديم رمضان بصيام يومين، والفطر قبل الناس بيومين كذلك(٤).

* * *

---

(١) فتح الباري (٤/ ١٢٨، ٢٣٩).

(٢) انظر: مراتب الإجماع (٧٠)، المنهاج (٨٥٥)، تحفة الأحوذي (١/ ٩٥٧).

(٣) القواعد النوارانية الفقهية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية. القاهرة، (ط١)، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، (٩٣).

(٤) للاستزادة انظر: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية. لابن تيمية. ت: محمد رشاد سالم. دار الفضيلة. الرياض، ١٤٢٤هـ، (٣/ ٣٠٥).

المسألة الرابعة والثلاثون
أنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم

يبين المؤلف رحمه الله تعالى هنا بهذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب أنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم.

والنَعِل في اللغة: يَنْعَل نعلاً، وتَنَعَّل وانتَعلَ: لبس النعل، وهو ما وقيت به القدم من الأرض، والنعل هو الحذاء(١).

والخُف في اللغة: هو ما أصاب الأرض من باطن قدمَهِ، والخُفُّ أغلظ من النعل، وهو الذي يُلبس، والجمع من كل ذلك أخفافٌ، وخِفافٌ(٢). فالخف ما يلبس على القدم، ويستر القدم كاملاً، فيكون فوق الكعبين، أما النعل فهو ما يلبس أسفل القدم متصلاً بأعلاه بشراك فوق عرش القدم.

وقد خالف الرسول ﷺ أهل الكتاب في هذه الخصلة بقوله وفعله، ودعا إلى مخالفتهم، والشاهد على ذلك حين سئل أنس بن مالك رضي الله عنه: (أكان رسول الله ﷺ يصلي في النعلين؟ قال: نعم)(٣).

قال أحد العلماء عن دلالة الحديث: (فالحديث فيه دليلٌ على جواز

---

(١) انظر. لسان العرب (١١/ ٦٦٩)، القاموس المحيط (٤/ ٦٠).

(٢) انظر. لسان العرب (٩/ ٨١)، القاموس المحيط (٣/ ١٤٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد باب الصلاة في النعلين بـرقم (١٢٣٦)، ص(٧٦٣) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

الصلاة في النعال والخفاف)[١].

أيضًا ما ورد عنه حين قال - عليه الصلاة والسلام -: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا في خفافهم»[٢].

قال أهل العلم عن دلالة هذا الحديث: والحديث دل على استحباب ذلك من جهة قصد المخالفة المذكورة[٣].

وبعد: فإن هذين النصين نُقلا عنه ﷺ في مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، فالنص الأول نقلٌ عن فعله عليه الصلاة والسلام، والنص الآخر اشتمل على أمرٍ منه ﷺ بمخالفة أهل الكتاب، وذلك بالصلاة بالنعال والخفاف.

فالصلاة في النعل وبدونه واردةٌ في فعله ﷺ، فقد ورد «أنه صلى متنعلاً وحافيًا»[٤]. كما أنه ﷺ قد أجاز المسح على الخف، وعد المسح على الخف رافعًا للحدث، ورفع الحدث شرطٌ للصلاة، مما يدل على جواز الصلاة به، فلو لم تجز الصلاة بالخف لما ارتفع الحدث بالمسح عليه.

---

(١) المنهاج (٥١٧).

(٢) أخرجه أبي داود في سننه. كتاب الصلاة. باب الصلاة في النعل برقم (٦٥٢)، ص(١٢٧١) بمثله موسوعة الحديث الشريف. وصححه الألباني.

(٣) تحفة الأحوذي (١/ ٦٩٦)، الآداب الشرعية والمنح المرعية. لمحمد بن مفلح الحنبلي. دار ابن حزم. بيروت، (ط١)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص(٨٦٣).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة. باب الصلاة في النعل برقم (٦٥٣)، ص(١٢٧١) بمثله. موسوعة الحديث الشريف، وصححه الألباني.

قال بعض أهل العلم عن ذلك: (إن رفع الحدث شرطٌ للصلاة مع القدرة، فلو لم يحصل بالمسح لما صحت الصلاة به)[١]. فمتى كان الخف طاهرًا ومباحًا جاز المسح عليه، والصلاة به.

وقد قال أحد أهل العلم عن ذلك: (رخص النبي ﷺ المسح على الخفين بشرط أن يكون لبسهما بعد كمال طهارة بالماء للمقيم يوم وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن، ويشترط لهذا الخف أن يكون طاهرًا ومباحًا)[٢].

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن المراد من الصلاة في النعال: (أمر النبي ﷺ بترك التشبه بأهل الكتاب، فتضمن مجانبتهم في الهدي الظاهر والباطن حتى في النعال، فأمر - عليه الصلاة والسلام - الأمة بالصلاة في نعالهم مخالفة لأهل الكتاب)[٣].

وعلى هذا فالصلاة بالنعال من الأعمال المباحة في الصلاة، والمتضمنة لمخالفة أهل الكتاب.

* * *

(١) الروض المربع (١/ ٢١٤).

(٢) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل. لشرف الدين موسى المقدسي الحجاوي. تصحيح عبد اللطيف السبكي. المطبعة المصرية بالأزهر، (١/ ٣٢ - ٣٣).

(٣) أحكام أهل الذمة. لابن قيم الجوزية. دار العلم للملايين. بيروت (ط٢)، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، (٢/ ٧٤٨، ٧٥٥).

المسألة الخامسة والثلاثون

أنهم يجمعون الكناسة بأفنيتهم فأمر بالنظافة مخالفة لهم

لقد حث ديننا الإسلامي الحنيف على نظافة أفراده في كل الأوقات والأماكن، فالمسلم نظيف في بدنه وثوبه، ومأكله ومشربه، ونظيفٌ في بيته، وعمله، حتى في دابته، فالنظافة صورة تبعث في النفس السرور والنشاط.

هنا عمد المؤلف – رحمه الله تعالى – إلى ذكر أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود أنهم يجمعون الكناسة في دورهم.

والكناسة في اللغة: من كنس: الكَنْسُ: كسح القُمام عن وجه الأرض، كنسًا: كَسَحَ القمامة عنه، والكُناسَة: ما كُنِسَ؛ كُناسة البيت ما كُسِحَ منه من التراب فأُلقي بعضه على بعض. والكُناسة أيضًا مُلقَى القُمَام(١).

والأفنية: هي ساحة البيت وقبالته(٢).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي اليهود في هذه الخصلة، وأمر أمته بمخالفتهم فقال ﷺ عن ذلك: «إن الله طيب يُحب الطيب، نظيف يُحب النظافة، كريم يحب الكرم، جوادٌ يحب الجـود، فنظفوا – أراه قال – أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود» (٣)، وقال – عليه السلام –: «نظفوا أفنيتكم

---

(١) انظر.لسان العرب (٦/ ١٩٧)، القاموس المحيط (٢/ ٢٥٦).

(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ٢١٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب الآداب. باب ما جاء في النظافة برقم (٢٧٩٩) ص(١٩٣٣)
=

ولا تشبهوا باليهود تجمع الأكباء» (١). والأكباء: الكناسة.

وقد ظهر حرص النبي ﷺ على النظافة في قوله وفعله، فقد كان محبًا للطيب والتجمل وقد دعا أمته لذلك حين حثهم على الاهتمام بنظافة لباسهم، وأبدانهم، ودورهم، ومساجدهم.

فشرع لنا الوضوء عند الحدث، والاغتسال عند الجنابة، وليوم الجمعة، وحث عليه السلام على الطيب، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «الغسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم وأن يستن وأن يمس طيبًا إن وجد» (٢).

فالنظافة في البدن مستلزمة لنظافة اللباس والمأكل والمشرب والمسكن، وهي علامةٌ على كرامة النفس وسموها، ودلالةٌ على حياة قلبه وإيمانه، وعلامةٌ

=

وقال عنه الترمذي: هذا حديث غريب. فيه خالد بن الياس يُضعف. موسوعة الحديث الشريف. وضعفه الألباني. موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه سعد في مسنده برقم (٣١)، ص(١/ ٧١). مسند سعد بن أبي وقاص. تأليف: لأحمد بن إبراهيم الدورقي. ت. عامر صبرى. دار البشائر الإسلامية. بيروت، (ط١)، ١٤٠٧هـ، كما أخرجه البزار في مسند برقم (١١١٤)، ص(٣/ ٣٢٠)، مسند البزار. لأبي بكر أحمد البزار. ت: د. محفوظ الرحمن زين الله. مؤسسة علوم القرآن، (ط١)، ١٤٠٩هـ، وأخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٧٩١)، ص(١٢٢). مسند أبي يعلى لأحمد بن علي التميمي. ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث. دمشق. (ط١)، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٤٢)، كشف الخفاء للعجلوني، ت. أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط٤)، ١٤٠٥هـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجمعة. باب فضل الغسل يوم الجمعة بمثله برقم (٨٨٠)، ص(٦٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الجمعة. باب وجوب الغسل يوم الجمعة برقم (١٩٥٧)، ص(٨١٠) بنحوه. موسوعة الحديث الشريف.

على حرص الشخص على أن يبدو بصورةٌ لا يؤذي بها غيره ممن يجالسه.

وقد بيّن الحكيم الترمذي(١) - رحمه الله - في كتابه نوادر الأصول المراد من قوله ﷺ: «نظفوا أفنيتكم فإن اليهود لا ينظفون»(٢). قائلاً: (ذلك لأن الفقير صاحب الفاقة إذا كان حي القلب، صاحب تقوى، وجدته في نظافة وهيئة من نظر إليه: لم يوحشه، ومن جالسه لم يثقل عليه ولم يتأذ به، يأخذ شعره، ويقلم أظفاره، ويغسل أدرانه، ويبيض أثوابه، ويتطيب وينظف مجلسه، ويكنس بيته، وليس لذلك كثير مؤنة، وإنما يهملها من يهملها لنذالة النفس ودناءتها، لا لأنه لا يجد، والقلب إذا مات لم يلتمس النظافات والطهارات، فالرسول ﷺ كان يربط على بطنه من الجوع، ولا يترك الطيب، ويعاهد أحوال نفسه، وكان إذا أراد أن يخرج إلى الناس نظر في ركوة فيها ماء فيسوي من لحيته وشعر رأسه، ويقول: إن الله جميل يحب الجمال)(٣). أ هـ.

(١) أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي. له مصنفات وفضائل، من مصنفاته ختم الولاية، وعلل الشريعة. توفي سنة ٤١٢هـ. سير أعلام النبلاء. للذهبي. مؤسسة الرسالة. بيروت، (ط٩)، ١٤١٣هـ. بيروت. ت. شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوس (١٣/ ٤٣٩).

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول. ت. عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م (٤/ ١٣)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير في أحاديث البشير. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (١ - ٢/ ١٣٢٦) برقم (٥٢٧٩). قال الألباني: حسن في صحيح الجامع الصغير وزيادته. للألباني. المكتب الإسلامي. بيروت، (ط٢)، ١٣٩٩هـ/ ١٨٧٩م، (٤/ ١٥)، برقم (٣٨٣٠).

(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول (٤/ ١٣).

إلا أن البعض في زماننا هذا تراه في هيئةٍ رثه، لا يبالي بنظافة لباسه وبيته ونفسه، وليس هذا لفاقة، وإنما كما ذكر عنه الإمام الترمذي.

فالطيب والنظافة في البدن واللباس والدار خُلقٌ يبعث على السرور والبشاشة في وجه صاحبها، ودلالةٌ على طيب وسمو وكرامة نفس صاحبها، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في ذلك: (وفي الطيب من الخاصية، أن الملائكة تُحبه، والشياطين تنفر عنه، وأحب شيءٍ إلى الشياطين الرائحة المنتنة الكريهة، فالأرواح الطيبة تُحب الرائحة الطيبة... وكل روح تميل إلى ما يناسبها، وهذا في النساء والرجال، ويتناول الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب، والملابس، والروائح إما بعموم اللفظ أو بعموم معناه[1]) [2].

لهذا فالمؤمن تجده دومًا يتحرى نظافة هندامه، ودابته، وبيته لعلمه أن الله طيب لا يقبل إلا ما كان طيبًا، أيضًا حرصًا منه على إدخال السرور على من يحادثه ويجالسه، فهو كريم اليد والخُلق، حسن المظهر والمخبر.

وقد حضّ أحد العلماء على ذلك فقال: (طيبوا كل ما أمكن تطييبه، ونظفوا كل ما سهل تنظيفه، حتى أفنية الدار فهي كناية عن نهاية الكرم والجود، فإن ساحة الدار إذا كانت واسعة ونظيفة طيبة كانت أدعى لجلب الضيفان)[3].

---

(١) حديث الغسل يوم الجمعة... سبق تخريجه، ص(٢٤٨).

(٢) الطب النبوي. لابن قيم الجوزية. ت. بشير عيون. مكتبة دار البيان. مكتبة المؤيد (ط٣)، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص(٢٠٢).

(٣) تحفة الأحوذي (٢/ ٢١٠٢).

المسألة السادسة والثلاثون
أنهم لا يصبغون فأمر بمخالفتهم

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، وهي أنهم لا يصبغون الشيب الظاهر في شعورهم؛ سواء في لحاهم أو شعور رؤوسهم.

والصبغ في اللغة: من صَبَغَ يَصبُغ صباغ، وهو الغمس والدهن، أي يقال صبغ الثوب والشيب، والصِّبغةُ: ما يلون ويصبغ به الثياب والشيب، وجمعها أصباغٌ وأصبغةٌ. والصَّبْغ: التغيير، وهو تغيير لون الثياب والشيب[(١)].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الكتاب في هذه الخصلة، ودعا إلى مخالفتهم، فقال عليه السلام: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[(٢)].

فسن – عليه السلام – أن يُغير لون الشيب إلى اللون الأحمر أو الأصفر، وكره أن ينتف الشيب، كما حرم – عليه الصلاة والسلام – أن يُصبغ الشيب باللون الأسود، فقال – عليه السلام –: «غيروا هذا بشيء

---

(١) لسان العرب (٨/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٦٢)، ص(٢٨٢) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس والزينة. باب مخالفة اليهود في الصبغ برقم (٥٥١٠)، ص(١٠٥٤). بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

واجتنبوا السواد»(١).

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (أما خضابه بالحمرة والصفرة فسنة مستحبة، وقد تخضب النبي ﷺ)(٢).

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - أيضًا عن ذلك: (الذي نهى عنه النبي ﷺ من تغيير الشيب أمران: أحدهما نتفه، والثاني خضابه بالسواد، والذي أذن به هو تغييره بغير السواد، كالحناء والصفرة، وهو الذي عمله الصحابة - رضوان الله عليهم -، وسر النهي عن ذلك أن المشابهة في الهدي الظاهر ذريعةٌ إلى الموافقة في القصد والعمل)(٣).

وقد بيّن الإمام ابن حجر - رحمه الله - المراد من قوله ﷺ: «أن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»: (يقتضي ذلك مشروعية الصبغ. والمراد به صبغ شيب اللحية والرأس، ولا يعارضه ما ورد من النهى عن إزالة الشيب؛ لأن الصبغ لا يقتضي الإزالة، ثم إن المأذون فيه مقيد بغير السواد لحديث «وجنبوه السواد»، والكراهة هنا كراهة تحريم في تغيره بالسواد)(٤).

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة. باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه السواد برقم (٥٥٠٩)، ص(١٠٥٤) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) شرح العمدة. لابن تيمية. ت. سعود العطيشان. مكتبة العبيكان. الرياض. (ط١)، ١٤١٣هـ (١/ ٢٣٧) للاستزادة انظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (٧٥١).

(٣) حاشية ابن القيم. لابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط٢)، ١٤٢٥هـ (١/ ١٧٢)، للاستزادة انظر. إعلام الموقعين (٣/ ١٥٢).

(٤) فتح الباري (٦/ ٤٩٩).

كما قال بعض أهل العلم عن هذا: يجوز صبغ الشعر بالصفرة والحناء والكتم اتفاقًا، واختلفوا هل الأفضل الصبغ أو تركه، وكان من السلف من يفعله ومن يتركه، واختلفوا في جواز الصبغ بالسواد، وكراهته، ففضل بعضهم خضاب الشعر بالحمرة والصفرة على بياض الشيب، وعلى الخضاب بالسواد(١).

وقال أحد أهل العلم عن ذلك: (إن النبي ﷺ بالغ في مخالفتهِ لأهل الكتاب، وأمر بذلك، لهذا اشتغل السلف في العمل بهذه السنة)(٢).

فمخالفة أهل الكتاب أمر مقصود شرعًا، فالمتقصي لهدي الرسول ﷺ يجد هذا الحرص منه ظاهرًا في هديه - عليه الصلاة والسلام -، كما يجد حرص السلف كذلك في العمل بالسنن المخالفة لأهل الجاهلية.

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن المراد من المخالفة: (إن نفس مخالفتهم أمر مقصود للشارع في الجملة، فقد أمر - عليه السلام - بمخالفتهم، ونهى عن مشابهتهم، فإنه إذا نهى عن التشبه بهم في بقاء بياض الشيب الذي ليس من فعلنا، فلأن ينهى عن إحداث التشبه بهم أولى، لهذا كان التشبه بهم محرمًا)(٣).

---

(١) انظر: التمهيد: لابن عبد البر النمري. ت: مصطفى العلوي ومحمد البكري. وزارة عموم الأوقاف. المغرب، ١٣٨٧هـ، (٢١/ ٨٣)، والقوانين الفقهية: لمحمد بن أحمد الغرناطي، (٢٩٣).

(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ١٥٣٠).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٤٩).

المسألة السابعة والثلاثون
الاعتماد على اليد حال القعود في الصلاة

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، وهي الاعتماد على اليد حال الجلوس في الصلاة، وذلك بوضع اليد على الأرض، والاتكاء عليها في الصلاة.

وقد دعى النبي ﷺ إلى مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، فقد ورد نهيٌ منه - عليه الصلاة والسلام - عن هذه الجلسة في الصلاة، والسبب في ذلك لأنها جِلسة المغضوب عليهم - وهم اليهود - وحرصًا منه - عليه الصلاة والسلام - في التأكيد على مخالفتهم.

فقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه «نهى أن يجلس الرجلُ في الصلاة وهو معتمد على يده»(١).

وعن ابن عمر(٢) - رضي الله عنهما - «أنه رأى رجلاً يتكئ على يده

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٣٤٧)، ص(٤٥٦)، ومسند الإمام أحمد بن حنبل. بيت الأفكار الدولية. عمان - الأردن، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب كراهية الاعتماد على اليد في الصلاة. برقم (٩٩٢) ص(١٢٩٦). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، شهد الخندق، أسلم مع والده، من المكثرين من الرواية عن النبي ﷺ قال له النبي ﷺ نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل» فكان لا ينام من الليل إلا قليلاً. توفي سنة ٧٣هـ. انظر: الاستيعاب (٢/ ٣٣٦)، الإصابة (٢/ ٣٤١).

اليسرى، وهو قاعد في الصلاة، فقال له: لا تجلس هكذا، فإن هكذا يجلس الذين يعذبون»(١).

وفي رواية «تلك صلاة المغضوب عليهم»(٢).

قال الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - عن ذلك: قيل (والمراد بذلك أي أن يجلس الرجل في الصلاة وهو معتمدٌ على يده بأن يضع يده في التشهد على الأرض ويتكئ عليها)(٣).

وقال أحد العلماء عن حكم هذه الخصلة: (ففي هذا الحديث دلالةٌ على كراهة الاعتماد على اليد عند الجلوس في الصلاة، وظاهر النهي التحريم)(٤).

إن جميع النصوص التي دلت أو نصت على وجوب مخالفة أهل الكتاب في أمر ما، تتضمن في الوقت نفسه دلالة على تحريم مشابهتهم في ذلك الأمر، باستثناء حالات الضرورة، كمن اضطر إلى الاتكاء على يده في حال الصلاة لكبرٍ في سنه، أو مرضٍ ألم به، أو نحوها من حالات الاضطرار.

وعن ذلك يقول أحد العلماء: (إنهُ يكره الاعتماد على اليد أو غيرها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. برقم (٥٩٧٢)، ص(٤٣٤)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب كراهية الاعتماد على اليد في الصلاة برقم (٩٩٤)، ص(١٢٩٦). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب كراهية الاعتماد على اليد في الصلاة برقم (٩٩٣)، ص(١٢٩٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) عون المعبود على سنن أبي داود، (٤٦٨).

(٤) نيل الأوطار (٢/ ٣٨٤).

وهو جالسٌ في الصلاة من غير حاجة تدعو إليه)(١).

كما دعا رسول الله ﷺ أمته إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حثهم على اقتفاء طريقته في الصلاة فقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» (٢) وبناء على هذا الحديث فمن خالف أداؤه للصلاة أداء الرسول ﷺ فقد صلى غير الصلاة التي أُمر بها.

وفي بيان ذلك قال أحد العلماء: من صلى بخلاف صلاته - عليه الصلاة والسلام - من رجل أو امرأةٍ، فقد صلى غير الصلاة التي أمره الله تعالى بها، فلا تجزئه، والاعتماد على اليد في الصلاة خلاف صلاته - عليه السلام - بلا خلاف من أحد(٣).

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - في معنى الحديث: (في هذا الحديث نهي عن هذه الجلسة، معللاً بأنها جلسة المعذبين، وهذه مبالغة في مجانبة هديهم)(٤).

---

(١) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (١/ ١٢٨)للاستزادة انظر. حاشية الروض المربع، (٢/ ٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان. باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمع برقم (٦٣١)، ص(٥١) بزيادة قصة، وفي كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم برقم (٦٠٠٨)، ص(٥٠٨) بزيادة في أوله وآخره، وفي كتاب أخبار الآحاد. باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام برقم (٧٢٤٦) بزيادة في أوله وآخره، ص(٦٠٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المحلى (٣٣٦).

(٤) اقتضاء الصراط (٥٤).

المسألة الثامنة والثلاثون

جعل اليد اليسرى خلف الظهر حال الجلوس والاتكاء على راحتها كما في حديث الشريد بن سويد[١] رواه أبو داود

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، وهي أن يجعل المرء يده اليسرى خلف ظهره في حال الجلوس، ويتكئ عليها.

وقد خالف النبي ﷺ أهل الكتاب من اليهود في هذه الجلسة بالقول والفعل، فرؤي عليه الصلاة والسلام، وقد جلس محتبيًا، أو متربعًا، وفي الوقت نفسه ورد عنه أنه نهى عليه الصلاة والسلام عن الجلوس بمثل هذه الجلسةِ بصورةٍ عامة، وعلل السبب في ذلك بأنها جلسة المغضوب عليهم، فقال – عليه الصلاة والسلام – ناهيًا الشريد بن سويد حين مر به وهو جالس، وقد وضع يده اليسرى خلف ظهره، واتكأ على ألية يده فقال له: «أتقعد قعدة المغضوب عليهم»[٢].

---

(١) الشريد بن سويد الثقفي، قيل إن اسمه مالك، ولكن سمي الشريد لأنه شرد من المغيرة بن شعبة لما قتل رفقته الثقفيين، سكن الطائف. انظر: الاستيعاب (٢/ ١٥٩)، الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٤٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. برقم (١٩٦٨٣)، ص(١٤٠٨)، وأخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب. باب الجلسة المكروهة برقم (٤٨٤٨)، ص(١٥٧٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف. وقال الألباني: صحيح.

وقد ورد في المسألة السابقة نهيٌ عن الاتكاء أثناء الجلوس، ولكنه كان مخصصًا بالصلاة، وهنا جاء النهي في هذه المسألة عن الاتكاء في الجلوس بصورةٍ عامة، وليس مخصصًا بحال، إنما هو نهي عام عن وضع اليد اليسرى خلف الظهر والاتكاء على ألية اليد، ويعود ذلك إلى أنها جِلسة تُظهر صاحبها بصورةٍ توحي بالعجب والكبر، وقد قال أحد العلماء في المراد بالمغضوب عليهم هم: (اليهود، وقيل: المراد أعم من الكفار والفجار المتكبرين المتجبرين ممن تظهر آثار العجب والكبر عليهم من قعودهم ومشيهم ونحوهما)[١].

وحكم هذه الجلسة هو الكراهة، وقد قال أحد العلماء عن ذلك: ويكره أن يتكئ أحدٌ على يده اليسرى من وراء ظهره[٢].

ومما يدل أيضًا على مخالفة النبي ﷺ لليهود في هذه الجلسة، بأنه إذا جلس، جلس محتبيًا[٣] أو متربعًا.

والشاهد على ذلك ما ورد عن جابر بن سمرة[٤] - رضي الله عنه - أنه

---

(١) عون المعبود (٢٠٩٧).

(٢) الآداب الشرعية في المنح المرعية (٦٤٣).

(٣) الاحتباء المراد هي القرفصاء وهي أن يقيم فخذيه وساقيه، ويجعل يديه مضمومتين على الساقين، فتح الباري (١١/ ٦٥).

(٤) هو: جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب العامري السوائي، قال جابر رضي الله عنه: صليت مع النبي ﷺ أكثر من ألفي مرة، سكن الكوفة. توفي سنة ٧٤هـ. انظر: الاستيعاب (١/ ٢٢٧)، الإصابة (١/ ٢١٣).

قال: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى الفجر تربع في مجلسه)(١).

وفي رواية أخرى قال ابن عمر - رضي الله عنه -: (رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة محتبيًا بيديه هكذا ووصف بيديه الاحتباء، وهو القرفصاء)(٢).

وعن ذلك يقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: (إن جميع أنواع القعود لا بأس بها، فلا باس أن يقعد الإنسان متربعًا، ولا بأس أن يجلس وهو محتبي القرفصاء، ولا يكره من الجلوس إلا ما وصفه النبي ﷺ بأنه قعدة المغضوب عليهم، بأن يجعل يده اليسرى من خلف ظهره، ويجعل باطن الكف على الأرض، ويتكئ عليها، فإن هذه القعدة وصفها النبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم، أما لو وضع اليدين كلتيهما من وراء ظهره واتكأ عليهما فلا بأس، ولو وضع اليد اليمنى فلا بأس، إنما التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام بأنها قعدة المغضوب عليهم، أن يجعل اليسرى من خلف ظهره ويجعل باطنها - أي أليتها - على الأرض - ويتكئ عليها، فهذه هي التي وصفها النبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم)(٣).

* * *

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الأدب. باب في الرجل يجلس متربعًا برقم (٤٨٥٠)، ص(١٥٧٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف قال الألباني صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الاستئذان. باب الاحتباء اليد وهو القرفصاء برقم (٦٢٧٢)، ص(٥٢٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٩٦).

المسألة التاسعة والثلاثون، والأربعون، والحادية والأربعون
العدوى مطلقًا فرد ذلك وبين أنها (لا تكون إلا بقدر الله)(١)
التشاؤم بشهر صفر فرده بقوله: (لا صفر) (٢)
التشاؤم بالبومة فرده بقوله: (لا هامة) (٣)

لقد بعث الله - عز وجل - الرسل بالتوحيد لتطمئن القلوب، وتسكن النفوس به، وللقضاء على الشرك، وسد كل الذرائع المؤدية إليه، ودعا إلى التمسك بالعروة الوثقى، والاعتصام بحبل الله المتين، والتوكل على الله، واليقين بأن الخير والشر كليهما بقضاء الله وقدره، ويجريان حسب حكمته وعلمه تفضلاً أو عدلاً، فالخير تفضلٌ منه وجزاءٌ على فعل الطاعة، والشر عدلٌ منه وعقوبة على فعل المعصية، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الطب. باب الجذام برقم (٥٧٠٧)، باب الطيرة برقم (٥٧٥٣) وباب لا هامة برقم (٥٧٥٧) (٥٧٧٠) وباب لا عدوى برقم (٥٧٧٢، ٥٧٧٣، ٥٧٧٤، ٥٧٧٥، ٥٧٧٦)، ص(٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا غول ولا يورد ممرض على مصح برقم (٥٧٨٨، ٥٧٨٩، ٥٧٩٠، ٥٧٩٤، ٥٧٩٦، ٥٧٩٧) بمثله. ص(١٠٧٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) التخريج السابق.

(٣) التخريج السابق.

(٤) سورة النساء، الآية: (٧٩).

فهنا في هذه المسألة يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - أن من خصال أهل الجاهلية، سواء كانوا أميين أو كتابيين، الخوف من العدوى مطلقًا، والتشاؤم بشهر صفر وبطائر البوم.

والمراد بالعدوى: هو مجاوزة الداء إلى الغير، وقيل: أن يصاب المرء بمثل ما بصاحب الداء من المرض[(١)]. وهو: ما يعدي الجسد من الأمراض، كالجرب، والبرص، والرمد، والحصبة، والجذام والجدري، ولا يكون ذلك إلا بإذن الله تعالى[(٢)].

لقد كان أهل الجاهلية يعتقدون بالعدوى مطلقًا وذلك بأن المريض إذا دخل في الأصحاء أمرضهم، كما كانوا يتشاءمون ويتطيرون من شهر صفر ومن الهامة، وهو طائر من طيور الليل يسمى البوم، فإذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعيت إلى نفسي، أو أحد من أهل داري[(٣)].

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصال، وذلك بنفي الاعتقاد بتأثير العدوى مطلقًا، وأبطلها كذلك بنفي التشاؤم والتطير بشهر صفر، ونص على أنه كغيره من الشهور يقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر، وبنفى التشاؤم بالبوم وغيره. فالنفي الوارد في الحديث هو نفي

---

(١) لسان العرب (١٥/ ٣٩).

(٢) الكليات (٦٤٤).

(٣) معالم السنن (٤/ ٢٣٣)، شرح مسلم للنووي (١٦٥٦)، فتح الباري (١٠/ ١٧١، ٢٤١)، فتح المجيد (٣٠٩، ٣١٠)، القول المفيد (٢/ ٨٢)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص(١٣٧، ١٣٩)، شرح مسائل الجاهلية. يوسف سعيد (٢/ ٨٦٥).

لتأثير هذه الأشياء، وليس نفيٌ لوجودهما. فقال تعالى ناهيًا عن التطير أي التشأوم: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(١).

وقال ﷺ في النهي عن هذه الخصال: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» فقال أعرابي: يا رسول الله: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب، فيدخل فيها فيجربها كلها؟ قال: «فمن أعدى الأول»(٢).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن معنى هذا الحديث: (قوله ﷺ: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك، وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه)(٣).

وعن ذلك أيضًا قال بعض أهل العلم: وفي قوله ﷺ: «لا عدوى» نفيٌ لما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده بأن المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى، وورود حديث «لا يورد ممرض على مصح»(٤)، لا يعارض

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطب باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن برقم (٥٧١٧) ص(٤٨٩)، ومسلم في صحيحه كتاب السلام باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة...برقم(٥٧٨٨) بمثله ص(١٠٧٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الطب. باب لا عدوى برقم (٥٧٧٤)، ص(٤٩٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح برقم (٥٧٩١، ٥٧٩٢)، ص(١٠٧٢) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

حديث نفي العدوى، إنما هو إرشاد منه ﷺ إلى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله تعالى وقدره، فنفى الحديث الأول العدوى بطبعها، ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعله، وأرشد في الحديث الثاني إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته وقدرته [(١)].

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصال حين شدد في أمرها، وذلك حين أدرجها ضمن الشرك، وعدها منه فمن رده تشاؤمه عما يريد عمله، فقد أشرك، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «الطيرة شرك»[(٢)]. ذلك لأنهم بتركهم لعملهم الذي تشاءموا منه قد اعتقدوا بأن العمل بشؤمهم سوف يجلب لهم نفعًا، ويدفع عنهم ضرًا، ولا يجلب النفع ولا يدفع الضر إلا الله عز وجل وحده قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[(٣)]. أما ما تشاءموا منه فليس فيه علامة على جلب النفع أو دفع الضُر، إنما هو خلل في نفس المتشائم وفي عقيدته،

---

(١) انظر. شرح النووي لصحيح مسلم (١٦٥٥)، الآداب الشرعية (٧٦٧)، القول السديد (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد. باب ما يقول الرجل إذا رأى غيمًا برقم (٩٠٩)، ص(٢٦٨) بمثله. الأدب المفرد. البخاري. خرجه محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الطب، باب الطيرة برقم (٣٩١٠)، ص(١٥١٠) بمثله، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب السير فضائل الجهاد. باب ما جاء في الطيرة برقم (١٦١٤)، ص(١٨١٨) بمثله، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الطب. باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة برقم (٣٥٣٨)، ص(٢٦٨٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف. وصححه الألباني.

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٧).

وعن مثل ذلك قال ﷺ: «ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم»(١).

وفي هذا قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (لقد أخبر النبي ﷺ أن تأذي - المتطير - وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده، لا ما رآه وسمعه، فقد أوضح النبي ﷺ لأمته الأمر، وبيّن لهم فساد الطيرة، ليعلموا أن الله لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه، ويحذرونه لتطمئن قلوبهم، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى...، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علقة منه، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهله البتة)(٢).

وعلى هذا فإن جميع النصوص الواردة فيما يتعلق بالعدوى والتشاؤم قطعت بتحريم هذه الخصال، حتى أن بعض العلماء قد عدّ أن الطيرة - التشاؤم - من الأشياء سواء من شهر صفر، أو من طائر البوم، أو غيرها، يعد كبيرةٌ من الكبائر إلا أن الأولى تحريمها.

وعن ذلك قال بعض العلماء: إن الطيرة من الكبائر، والقطع بتحريمها أولى(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته برقم (١١٩٩) ص(٧٦١). بمثله، وفي كتاب السلام. باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان برقم (٥٨١٣)، ص(١٠٧٣) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

(٣) انظر.الكبائر للذهبي (١١٦)، الزواجر (٢/ ١٤٩)، الآداب الشرعية (٧٦٧).

لقد تبين من خلال عرض الأدلة السابقة صراحة الحكم الواقع في حق هذه الخصال، وهو التحريم إلا أن هذه الخصلة الجاهلية ما زالت موجودة حتى يومنا هذا، ولها صور كثيرة، كالتشاؤم من الألوان، أو الأرقام كرقم (١٠) عند الروافض[١]، أو الخوف من تسمية الأبناء على الآباء، وهم أحياء، أو من كثرة الضحك[٢]، وغيرها.

* * *

(١) منهاج السنة (١/ ٩).

(٢) للاستزادة انظر: شرح مسائل الجاهلية. د. يوسف السعيد، ٨٧٠.

المسألة الثانية والأربعون
ترك الختان كفعل النصارى

يذكر المؤلف – رحمه الله – هنا أحد خصال أهل الجاهلية الكتابيين من النصارى، وهي تركهم للختان، ودعوتهم إلى تركه، وقد نُقل ذلك عنهم كما هو واردٌ في كتبهم: (إذا اختتنتم، فلا يفيدكم المسيح شيئًا)(١).

وقال ابن قيم الجوزية عن ذلك: (وكانوا يتعبدون بذلك كما يزعمون)(٢).

والختان في اللغة: من خَتَنَ الغلام والجارية يَخْتِنِهما، ويَخْتُنهما خَتْنًا، وأصل الخَتْن: القطعُ، والخِتانُ: موضع الخَتْنِ من الذكر، وموضع القطع من نَواة الجاريةِ(٣).

في الاصطلاح: قطع الجلدة التي تغطي حشفة الذكر، والأنثى بأخذ جلدة فوق محل الإيلاج تشبه عرف الديك(٤).

قال أحد العلماء في القصد من الختان: (القصد من ختان الرجل تطهيره

---

(١) العهد الجديد (الانجيل) رسالة بولس إلى كنائس غلاطية (٤٧٧).

(٢) هداية الحيارى (١٥).

(٣) لسان العرب (١٣/ ١٣٨).

(٤) انظر الإقناع (١/ ٢٢)، حاشية الروض المربع (١/ ١٦٠)، فتح الباري (١٠/ ٣٤٠)، تحفة الأحوذي (٢٠٨٣).

من النجاسة المحتقنة في القلفة، ومن المرأة تقليل شهوتها)(١).

وقد دعا الشارع - عز وجل - إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بأن أمر الأمة بالاختتان، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾(٢).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية: (ابتلاه بالطهارة، خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء)(٣).

قال المفسرون عن ابتداء الختان: وأول من اختتن النبي إبراهيم - عليه السلام -(٤).

وقال الشعبي عن هذه الكلمات: (ومنهن الختان)(٥).

كما وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية من النصارى في الختان، ودعا إلى مخالفتهم حين جعل الختان من خصال الفطرة بالنص على ذلك حين قال - عليه الصلاة والسلام -: «الفطرة خمس: الختان،

---

(١) الروض المربع (١/ ١٦٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٢٤).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٦)، تفسير القرطبي (٢/ ٩٥).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٧)، تفسير القرطبي (٢/ ٩٥)، تحفة المودود (١٥٨).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٥٧٤).

والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الأباط»[(١)].

قال الإمام البغوي في ذلك: (هذه الخصال كلها سنن إلا الختان فكثير من العلماء قال إنه واجب)[(٢)].

وقال العلماء في المراد بالفطرة: (هي الدين)[(٣)].

وعلى هذا فحكم الختان واجبٌ شرعًا على الرجال، مباحٌ للنساء. وعن ذلك يقول الإمام القرطبي - رحمه الله -: (إن الختان من مؤكدات السنن، ومن فطرة الإسلام التي لا يسع تركها في الرجال، وقال طائفة من العلماء: ذلك فرض لقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[(٤)]، وقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام أنه قد ختن نفسه)[(٥)].

أما عن زمن الختان، فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - متى يكون الختان؟ فقال: (متى شاء اختتن، لكن إذا راهق البلوغ فينبغي أن يختتن كما كانت العرب تفعل، لئلا يبلغ إلا وهو مختون)[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس. باب قص الشارب برقم (٥٨٨٩)، وباب تقليم الأظفار برقم (٥٨٩٠ - ٥٨٩١)، ص (٥٠١) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة برقم (٥٩٧ - ٥٩٨)، ص(٧٢٣) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٠).

(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٣٤٠)، شرح مسلم للنووي (٣٢٦).

(٤) سورة النحل، الآية: (١٢٣).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٩٦)، عون المعبود (٢٢٣٧)، الإقناع (١/ ٢٢)، حاشية الروض المربع (١/ ١٦٠).

(٦) الفتاوى (٢١/ ١١٣).

وقد اختتن عيسى - عليه السلام -، والنصارى تقر بذلك ولا تجحده، لكن بعد حصول التبديل والتغيير والتحريف في الديانة النصرانية امتنع النصارى عن الختان، حتى صار ترك الختان شعارًا لهم ولعباد النار[١] أيضًا.

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (مما ابتدعه النصارى بعد المسيح عليه السلام... امتناعهم من الختان)[٢].

وقال في موضعٍ آخر: (عدم الختان شعارٌ لعباد الصليب ولعباد النار، أما الحنيفية فشعارهم الختان)[٣].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن ذلك أيضًا: (أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تركوا الختان)[٤].

كما قال في موضع آخر: (إن من فساد دين النصارى من جهة التأويل.. أنهم أبطلوا الختان)[٥].

* * *

---

(١) هم جماعة لبس عليهم إبليس، فحسن لهم عبادة النار فبنوا لها بيوتًا وأول من بنى لها بيتًا أفريدون بطرسوس، وآخر ببخارى. تلبيس إبليس (٩٤)، هداية الحيارى (٨).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١١٧ - ١٢٦).

(٣) تحفة المودود (١٦٨).

(٤) إغاثة اللهفان (٢/ ٢١٠)للاستزادة انظر. هداية الحيارى (١٥).

(٥) الصواعق المرسلة (١/ ٣٥٩).

المسألة الثالثة والأربعون
ترك الإسلام خوفًا على الملك كما في قصة هرقل[١]

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية من الأميين وأهل الكتاب وغيرهم ترك الدخول في الإسلام، وعدم الالتزام بالمنهج الحق القويم؛ خوفًا على الملك والرئاسة، أو المكانة والوجاهة، مراعاةً وحبًا لها، ولتمكن هذه الأعراض الزائفة من قلوب أهلها، فهم يحبون ويعملون بكل ما من شأنه أن يحفظها لهم، ويبغضون ويعادون كل ما من شأنه أن يمس هذه الأعراض بسوء، فلشدة خوفهم على الملك والمكانة، تركوا الانقياد للحق وعادوه، حرصًا منهم على بقائها.

وقد استدل المؤلف - رحمه الله - على وجود هذه الخصلة عند أهل الكتاب بقصة هرقل ملك الروم حين بعث له الرسول ﷺ رسولاً يدعوه إلى الإسلام، فعرض هرقل الإسلام على قومه بعد أن جمعهم عنده، فلما رأى ما رأى من الروم حين دعاهم للإسلام من الإعراض والنفور واللغط، ترك اتباع الحق حرصًا على بقاء ملكه[٢].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: (لقد آثر هِرقل

---

(١) (هِرَقْل) هو اسمٌ لملك الروم ولقبه قيصر كما لُقب ملك الفرس بكسرى. انظر: فتح الباري (١/ ٣٣)، هداية الحيارى (٤٦).

(٢) انظر: قصته في صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي إلى رسول الله برقم (٧)، ص(٢)، موسوعة الحديث الشريف.

ملكه على الإيمان، فقد شح بملكه وإلا كان قادرًا على أن يفر من قومه ويترك ملكه رغبة فيما عند الله)[١].

إن الخوف على الملك والرئاسة سببٌ من الأسباب المانعة عن قبول الحق؛ فهو السبب الذي منع المقوقس[٢] وهرقل وفرعون وغيرهم من كبراء اليهود والنصارى عن قبول الحق، فأصحاب الملك والرئاسة هم دومًا أبعد الناس عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته، فقد قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴾[٣].

وقال تعالى عن قوم نوح – عليه السلام –: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[٤].

قال الإمام ابن تيمية عن هذه الآية: (إن في هذه الآية أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته)[٥].

وذلك لأن الملك والرئاسة تُعد من الأسباب المانعة من الاهتداء وقبول الحق، فهو كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله بأنه داءٌ لأرباب الملك والولاية والرئاسة.

---

(١) فتح الباري (١/ ٤١ – ٤٣).

(٢) هو: ملك القبط والإسكندرية بمصر، وهو المقوقس بن راعيل، كان من أعلم أهل زمانه القبط. انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٨)، فتح الشام. لأبي عبد الله الواقدي. دار الجيل. بيروت (٢/ ٣٩)، البدء والتاريخ. للمطهر. المقدسي. مكتبة الثقافة الدينية. بور سعيد. مصر. (٤/ ٢٢٩).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: (٤٧).

(٤) سورة الشعراء، الآية: (١١١).

(٥) الفتاوى (١١/ ١٣١).

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - في ذلك: (الأسباب المانعة من قبول الحق، ومن الاهتداء إليه كثيرة جدًا، فمنها: توهمه أن الحق الذي دعى إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهوته وأغراضه و... كذلك خوفه من أصحاب العشيرة وقومه على نفسه وماله وجاهه، كما وقع لِهرقل... وللملك النصرانية بمصر المقوقس، ومنع فرعون من اتباع موسى... وكذلك منع كعب بن أسد[١]، وهو أحد أسياد وكبراء اليهود، فقال حين دعي إلى الإسلام: ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا... فالخوف على الملك داء لأرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منها)[٢].

وقد قال أحد أهل العلم: إن حبُ الرئاسة والملك والتقدم بين الناس يدفع المرء إلى جحد الهدى ودفعه بعد البصيرة واليقين [٣].

لهذا خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة الجاهلية بما أنزله من عقوبات عجلها لهؤلاء الذين تمثلت لديهم هذه الخصلة بضياع الملك، والغرق، والشتات في أرض ونحوها من العقوبات الدنيوية؛ خلافًا لما أعدهُ الله لهم من العذاب في الآخرة. لهذا فقد جاءت نصوص الشارع في الحض على مخالفة هذه الخصلة بخطابات عامة تشمل الكبراء وغيرهم حض فيها

---

(١) هو: كعب بن أسد من بني يهود بني قريظة كان من أعداء رسول الله ﷺ، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب قتل في غزوة بني قريظة عام ٥هـ. انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٣) (٢/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) هداية الحيارى (٢٦، ٣١، ٤٦، ٥١)،للاستزادة انظر. مفتاح دار السعادة (١/ ٩٦).

(٣) إجماع أهل السنة النبوية على تكفير المعطلة والجهمية. لإبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ. ت. عبد العزيز بن عبدالله الزير. دار العاصمة. الرياض، (ط١)، ١٤١٥هـ، ص(٥٩).

الشارع عباده على اتباع الحق، وحذر في الوقت نفسه من الاغترار بالدنيا، فمن هذه النصوص على سبيل الذكر لا الحصر قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(١)، وقال تعالى محذرًا: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾(٣)، كما نص الشارع بما يفيد اليقين لكل صاحب قلب بأن الدوام له وحده، قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾(٤).

هذا وقد خالف رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص محذرًا من مغبة الخوف على المال والشرف، والحرص عليهما على حساب الدين، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(٥). قال أهل العلم في المراد بالحديث: (والمعنى أن حرص المرء عليهما أكثر فسادًا لدينه)(٦).

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٧٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٨٥).

(٣) سورة لقمان، الآية: (٣٣).

(٤) سورة الرحمن، الآية: (٢٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٨٧٦) بمثله (١٠٩٠)، والترمذي في سننه في كتاب الزهد. باب حديث (ما ذئبان...) برقم (٢٣٧٦). بمثله قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان، ص(١٨٩٠). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٦) تحفه الأحوذي (٢/ ١٨٧٧).

قال ابن رجب عن هذا الحديث: (في هذا الحديث مثل عظيم جدًا ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم... فحرص المرء على المال والشرف: إفساد لدينه، وهذه إشارة منه ﷺ إلى أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، وهذا مثلٌ عظيم تضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا)[١].

لهذا على أصحاب الأموال والجاه الحذر من الوقوع في مثل هذه الخصلة، فيخسرون على إثر ذلك حظ الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي. ت: أبو مصعب طلعت الحلواني الناشر. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، (ط٢)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، (١/ ٦٤).

المسألة الرابعة والأربعون
اعتقادهم أن الغول تضلهم مطلقًا فنفاه بقوله «لا غول»[١]، أي أنها لا تضل أحدًا مع ذكر الله لا نفي وجودها مطلقًا

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أن من خصال أهل الجاهلية سواء كانوا أميين أو كتابيين اعتقادهم بأن الغول تضلهم مطلقًا، فخالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة ودعا إلى مخالفتهم، وإلى ذكر الله تعالى والتوكل عليه، وتعليق القلب بالله تعالى فهو النافع والضار وحده.

والغُول في اللغة: بالضم: السِّعلاة، والجمع أغوال وغيلان والتغول: التلون، يقال تغولت المرأة إذا تلونت، وتغولت الغُول: تخيلت وتلونت[٢].

والغول: هو واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، وتتلون تلونًا في صور شتى وتغولهم، أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله[٣].

وقد ورد حديثٌ عن النبي ﷺ ينفي فيه تأثير الغول، ويبطل فيه دعوى أهل الجاهلية من أنها تضر أو تنفع بأمرٍ لم يقدره الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب السلام. باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول برقم (٥٧٩٥، ٥٧٩٦، ٥٧٩٧) بمثله، ص(١٠٧٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) لسان العرب (١١/ ٥٠٧).

(٣) انظر. المنهاج شرح صحيح مسلم (١٦٥٦)، عون المعبود (١٦٧٣)، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٩٦)، فتح المجيد (٣١٠).

فقال ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غُول».

قال العلماء: والمراد بالنفي في قوله: «لا غول» نفى تأثيرها لا نفى وجود الغول، فدل الحديث على إبطال ما تزعمه العرب من تلون الغول بالصور المختلفة واغتيالها، فهي لا تستطيع أن تضل أحدًا أو تضره أو تنفعه إلا بأمرٍ قد سبق بقضاء الله جل ثناؤه بضره، أما بغير ذلك فإنها لا تستطيع أن تضل أحدًا، لم يقدِّر الله - عز وجل - عليه الضرر، وهو ذاكر لله متوكلً عليه [(١)].

ومما يدل على أن المراد بالنفي في قوله «لا غول» هو نفي للتأثير لا نفي للوجود ورود الحديث الذي قال فيه - عليه الصلاة والسلام -: «إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان»[(٢)].

قال العلماء في المراد من هذا الحديث: أي ادفعوا شرها بذكر الله. والمراد بالنفي ليس لعين الغول ووجوده، وإنما هو إبطال زعم العرب في قدرتها على الإضلال والإهلاك، بدليل ورود حديث: «إذا تغولت» ففي هذا دليلٌ على أن النفي هو نفي التأثير [(٣)].

---

(١) انظر.المنهاج شرح صحيح مسلم (١٦٥٦)، فيض القدير (١/ ٣١٨)، تهذيب الآثار. أبو جعفر الطبري. ت. محمود شاكر. مطبعة المدني القاهرة (٣/ ٤١)، فتح المجيد (٣١٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٤٣٢٨)، ص(٩٧٨) بمثله. وقال الألباني: صحيح، قال شعيب صحيح لغيره دون الغيلان.

(٣) انظر.الديباج على مسلم. لعبد الرحمن السيوطي. ت: أبو إسحاق الجويني. دار ابن عفان. الخبر. السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م (٥/ ٢٣٩)، النهاية في غريب الحديث، (٣/ ٣٩٦).

يقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن علاقة الشيطان بهذه الخصلة: (إن الشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]، وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها، فلا تهمكم لأنها خوّفتكم، ولا تلتفتوا إليها، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقًا بها، أما إن كان معتمدًا على الله غير مبال بها، فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده)[2].

لذلك على العبد المؤمن أن يُعلق قلبه بالله تعالى، ويعلم يقينًا أن النفع والضرر بيده، فيتوكل على الله عاملاً بالأسباب.

* * *

(١) سورة المجادلة، الآية: (١٠).

(٢) القول المفيد (٢/ ٨٨).

المسألة الخامسة والأربعون
جعلهم في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية

يعني المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة بيان ما كانت عليه قلوب أهل الجاهلية الأميين وأهل الكتاب من الحمية المذمومة، تلك الحمية التي كانت لا تستند إلى قيمة مثلى، بل إلى عصبية فارغة من أي محتوى، عصبية لمعبوداتهم الباطلة، أو لطائفة من الطوائف، أو للقبائل، أو الأنساب أو نحوها.

والحمية في اللغة: يقال فلان ذو حَمِية منكرة، إذا كان ذا غضبٍ وأنفةٍ، ويقال أخذته الحميةُ أي الأنفة والغيرة(١).

والحمّية، مشددة كالدنيَّة: الأنفة والغضب(٢).

لقد دعا الشارع - عز وجل - إلى مخالفة أهل الجاهلية في الحمية الباطلة، وذَمَ أهل الجاهلية على هذه الخصلة، فوردت الحمية في كتاب الله في سياق الذم بإضافتها إلى الجاهلية فقال تعالى في إثباتها عند أهل الجاهلية وذمها وذمهم عليها: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾(٣).

---

(١) لسان العرب (١٤/ ١٩٩).

(٢) الكليات (٤٠٩).

(٣) سورة الفتح، الآية: (٢٦).

قال الطبري في تفسيرها: (ذم الله - عز وجل - المشركين على حميتهم الجاهلية التي دفعتهم إلى الامتناع عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وكتابة محمد رسول الله في صحيفة صلح الحديبية بينهم وبين الرسول ﷺ، ومنعهم لرسول الله ﷺ وأصحابه من دخول مكة في عامهم ذلك)[(١)(٢)].

وقال القرطبي في تفسيرها: (ذمهم على حميتهم وعصبيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها، وعلى عدم إقرارهم بنبوة الرسول ﷺ، والاستفتاح باسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم للرسول والمؤمنين من دخول مكة)[(٣)].

وقال أحد العلماء أيضًا: وذم تلك الحمية التي حملتهم على الاستكبار يوم الحديبية عن لا إله إلا الله محمد رسول الله [(٤)].

وقال أحد العلماء معلقًا على هذه الخصلة، والمبلغ الذي بلغته في الذم: فالحمية الجاهلية كبيرة من الكبائر؛ ذلك لأنها حمية لغير دين الله تعالى [(٥)]، فأي حمية لا يقصد بها إقامة الحق وإبطال الباطل، فهي حمية مذمومة داخلةٌ في الحمية الجاهلية.

---

(١) انظر: الحديث في صحيح البخاري. كتاب الشروط. باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١ - ٢٧٣٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر. تفسير الطبري (١١/ ٣٦٣)، تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٥)، السنة لابن تيمية (٤/ ٢٤٨)، درء تعارض العقل والنقل. لشيخ الإسلام ابن تيمية. ت: محمد رشاد سالم، (٥/ ٥٣).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٥).

(٤) كتاب الإيمان لابن منده، (١/ ٣٥٩).

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١١٣).

كما قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن ذلك: (إن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم، فإضافة الحمية إلى الجاهلية يقتضي ذمها)(١).

ولم يكن أهل الكتاب أقل نصيبًا في تمثل هذه الخصلة فيهم، لهذا ذم الله اليهود والنصارى على حميتهم الجاهلية التي غُلفت بالافتراء على الله حين قالوا: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾(٢).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين ذم حمية الجاهلية بشتى صورها وأشكالها، وجعل معيار الحمية ما وافق الحق، قائمًا على تقوى الله والإيمان به تعالى، والعدل مرتبطًا هذا المعيار بعقيدة التوحيد، فلا يخضع للأهواء أو المصالح. كما في قوله تعالى عن ذلك: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(٣)، فليس الحمية لنسب أو قبيلة أو طائفة، إنما للتقوى.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾(٤) . قال الطبري في تفسيره الآية: (أي اعدلوا أيها المؤمنون مع كل أحدٍ من الناس، وليًا كان لكم أو عدوًا)(٥).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٨).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٨).

(٣) سورة الحجرات، الآية: (١٣).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٨).

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٤٨٣).

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾(١). قال الطبري في تفسيره: (أي كنتم يقتل بعضكم بعضًا عصبية في غير طاعة الله ورسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً، بألفة الإسلام، واجتماع كلمتكم عليه)(٢).

كذلك حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة في جميع المجالات التي برزت فيها، ودعا أمته بعدة أساليب إلى مخالفتهم في جميع المجالات التي قد تبرز فيها الحمية الجاهلية. فقال - عليه السلام -: «إنما الطاعة في المعروف» (٣).

وقال أيضًا: «خيركم المدافع عن عشيرته مالم يأثم» (٤).

وقال - عليه السلام -: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»(٥) . قال أحد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٣).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأحكام. باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية برقم (٧١٤٥)، ص(٥٩٥) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإمارة. باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في معصية برقم (٤٧٦٥)، ص(١٠٠٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الأدب. باب في العصبية برقم (٥١٢٠) بمثله وقال أبو داود: فيه أيوب بن سويد ضعيف، ص(١٥٩٨) موسوعة الحديث. وقال الألباني: ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المظالم. باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا برقم (٢٤٤٣)، =

العلماء: أي إن كان على الحق أعانه عليه، وإن كان على الباطل رده عنه، وبيّن له عاقبة الباطل، فيكون بذلك له عونًا [١].

كما حذر كثير من العلماء من الوقوع في الحمية الجاهلية، فقد قال أحد أهل العلم عن ذلك: إذا وقعت الفتنة فالزم جوف بيتك، وفرّ من جوار الفتنة وإياك والعصبية، فكل ما كان من قتال بين المسلمين على الدنيا فهو فتنة [٢]. وقال آخر في التحذير من هذه الخصلة عن حمية أهل البدع تجاه أهل الحديث: من علامات أهل البدع معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ، وتسميتهم بالمشبهة والحشوية... وكل ذلك عصبية[٣].

كما حذر الإمام ابن تيمية - رحمه الله - منها فقال: (إن الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره، وترك ما ينفعه، وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره، وترك ما يعلم أنه ينفعه، لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال)[٤].

=

ص(١٩٢) بمثله، وفي كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه: أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه برقم (٦٩٥٢)، ص(٥٨٠) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة. باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا برقم (٦٥٨٢)، ص(١١٣٠) بلفظ (ينصر). موسوعة الحديث.

(١) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر. لابن فرحون القرطبي. ت: محمد حسن الشافعي. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص(٢٨١).

(٢) شرح السنة. للبربهاري، ص(١٠١).

(٣) عقيدة السلف. الصابوني (٢٩٩ – ٣٠٥).

(٤) الفتاوى (٧/ ٥٤٠).

وقال أيضًا في موضعٍ آخر: (إن كل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية)[١].

لقد تبين من خلال الأدلة السابقة المدى الذي بلغته هذه الخصلة من القبح على الفرد نفسه، وعلى غيره، فما حصل ويحصل في هذه الأيام من التطهير العرقي الذي حصل في البوسنة والهرسك على يد الصرب[٢]، وما يحصل كذلك على يد الشيعة تجاه أهل السنة والجماعة كما هو حاصل الآن في العراق، ومن زعم كذلك من اليهود أنهم شعب الله المختار، وأن غيرهم من الشعوب لا حق لهم بالعيش كما يصرحون بذلك في بروتوكولاتهم[٣]، وما يمارسونه تجاه المسلمين في فلسطين، كذلك ما ينادي به البعض من تلك الشعارات كالقومية، والعروبة ونحوها، وما يحصل كذلك من الحمية لبلد معين، أو قبيلة أو نسب أو طائفة[٤]. ما هو إلا صور واقعية يستدل منها على إثبات وجود هذه الخصلة في هذا العصر، بل إن أمرها قد استفحل، وشأنها قد علا عند الكثير ممن تعاموا عن معيار المفاضلة الحقيقي، وهو التقوى لله تعالى.

* * *

---

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية. ت. محمد السيد الجليند، دار الأنصاري، (ط١)، (٣/ ٧١).

(٢) للاستزادة انظر: اغتصاب الأرض والعرض في البوسنة.

(٣) للاستزادة انظر: بروتوكولات حكماء صهيون، الصهيونية وخطرها على البشرية.

(٤) مسائل أهل الجاهلية، (٢/ ٦٩٥)،للاستزادة انظر. موسوعة الأديان المعاصرة فيما يتعلق بالأحزاب السياسية كالقومية ونحوها.

المسألة السادسة والأربعون

قولهم لمن أسلم شرنا وابن شرنا كما قالوا لعبد الله بن سلام(١)

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين وهي ذم من اتبع الحق وعمل به، والاستنقاص من شأنه، وإعابته بما ليس فيه، إذا كان هذا الحق مخالفًا لأهوائهم، وليس على طريقتهم ومنهجهم الباطل.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على وجود هذه الخصلة بموقف اليهود مع عبد الله ابن سلام حين أعلن إسلامه أمامهم، فقد شهدوا له قبل أن يعلموا بإسلامه بقولهم: (خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا) وحين علموا بإسلامه استنقصوا من شأنه، وعابوه بما ليس فيه، بقولهم: (شرنا وابن شرنا)(٢).

لهذا فضح الله – عز وجل – هؤلاء اليهود حين ذمهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١) هو: عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود، كان اسمه الحصين، فسماه الرسول × عبد الله، حليف للأنصار. توفي سنة ٤٣هـ. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٣١)، العبر في خبر من غبر (١/ ٥١)، وشذرات الذهب (١/ ٥٣).

(٢) انظر: الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه كتاب مناقب الأنصار. باب (٥١) برقم (٣٩٣٨)، ص(٣٢٢)، موسوعة الحديث الشريف، الجواب الصحيح (٤/ ٥٩)، هداية الحيارى، ص(٥٧)، حادي الأرواح (١٠٥)، السيرة النبوية (١/ ٤٦٥).

عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[(١)].

قال الطبري في المراد بالشاهد: (هو عبد الله بن سلام، وكان من الأحبار من علماء بني إسرائيل، فقد شهد بأن الرسول ﷺ نبي، وإن كتابه حق، فآمن هو، واستكبر اليهود)[(٢)].

إن استنقاص المتبع للحق، وذمه بما ليس فيه منهج لكل من يعادي الحق ويخالفه، ولكل متبع لهوى في نفسه، كما حصل من فرعون مع السحرة حين آمنوا بموسى - عليه السلام -، فقال تعالى عن موقف فرعون مع السحرة قبل أن يؤمنوا بموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[(٣)]. قال ابن كثير: (فقد وعدهم بالتقريب إليه وبالعطاء، وبجعلهم جلساء له)[(٤)]. ولكن لما برز لهم الحق وعرفوه، رجعوا عن ضلالهم وآمنوا به، حينها ذمهم فرعون واتهمهم فقال تعالى عن فعله هذا: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾[(٥)]، وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾[(٦)]. قال ابن كثير عن ذلك: (وهو

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (١٠).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٢٨٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٢٣).

(٦) سورة طه، الآية: (٧١).

يعلم أن الذي قال عنهم من أبطل الباطل)(١).

إن عدم قبول الحق وبغضه، وبغض من أَمَرَ بَه، دافع لذمه، وذم من تبعه، ودافع لمحاولة الاستنقاص من شأنه، وشأن من تبعه بشتى الوسائل والصور.

وعن ذلك قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (إن من الأسباب المانعة من قبول الحق بغض من أَمَرَ بالحق، ومعاداته له وحسده)(٢).

وقد خالف هدي الرسول ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك بالثناء على من اتبع الحق، وآثره على غيره من الباطل، كما أجزل الشارع له الأجر، فقال تعالى مخاطبًا من اتبع الحق من أهل الكتاب: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾(٣)، وقال تعالى مخاطبًا من اتبع الحق من غير أهل الكتاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٩).

(٢) هداية الحيارى (٢٦).

(٣) سورة القصص، الآيات: (٥٢ - ٥٤).

(٤) سورة الحديد، الآية: (٢٨).

وقد نص النبي ﷺ على إثبات الخيرية والمكانة باتباع الحق، والعمل به حين قال: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[(١)]. قال ابن حجر في شرحه للحديث: (الأفضل من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام، وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع ومنافرته... ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعًا، ثم أرفعهم مرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين)[(٢)].

فالخير والمكانة والشرف تكون باتباع الحق الموافق لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فليس معيار الخير بموافقة الهوى أو المذهب أو الطائفة أو السجية، وإن كانت باطلة كما حصل مع عبد الله بن سلام واليهود؛ بل إن اتباع المذهب أو الطائفة أو الهوى وإن كانوا على الباطل لهو الشر بعينه.

إلا أن هناك من ضل من هذه الأمة، فسلك مسلك اليهود، باستنقاص من خالفهم في ضلالهم وطريقتهم، كالرافضة والمعتزلة[(٣)]. وعن ذلك قال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) برقم (٢٣٥٣) ص(٢٧٢)، باب (أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت...) برقم (٣٣٧٤)، ص(٢٧٤) وفي باب (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) برقم (٣٣٨٣)، ص(٢٧٥) وفي كتاب التفسير. باب (لقد كان في يوسف وإخواته آيات للسائلين) برقم (٤٦٨٩)، ص(٣٩٠) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٦/ ٤١٥).

(٣) هم أتباع واصل بن عطاء، سموا معتزلة، وسموا أهل العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، وهي فرقة اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية، نفوا القدر عن الله في خلق أفعال العباد، وقالوا إن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، وقالوا: إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا =

شيخ الإسلام - رحمه الله -: (والمعتزلة تفسق من الصحابة والتابعين طوائف، وتطعن في كثير منهم، وفيما رووه من الأحاديث التي تخالف آراءهم وأهواءهم بل تكفر أيضًا من يخالف أصولهم التي انتحلوها من السلف والخلف)[١].

وقال أيضًا عن الرافضة: (الرافضة من أعظم ذوي الأهواء جهلاً وظلمًا يعادون خيار أولياء الله تعالى من بعد النبيين من السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار... فحين سئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد)[٢].

فقد لعنت الرافضة الأمة الإسلامية وكفرتها، وبذلك استفاضت كتب الشيعة، واتهموا الأمة الإسلامية بالفجور، فالأمة عند هؤلاء الروافض لها ألقاب وشناعات وخواص لا توجد في كتب طائفة من الطوائف، لا لشيء إلا لأن الأمة ارتضت من رضيه الصحابة والمهاجرون لهم خليفة[٣]. ولا يخفى على أحد منا في هذا الزمن الشعارات التي تطلقها الشيعة على أهل السنة، كقولهم عنهم بأنهم النواصب. وغيرها..

هذا وأسأل الله لي وللجميع الهداية للحق والعمل به.

=

ولا كافرًا، ولكنه فاسق لهم أصول خمسة في معتقدهم. التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نفوا صفات الله تعالى، ترجع أصول معتقداتهم إلى أصول يهودية فلسفية. انظر: الشرح والإبانة لابن بطة، ص(٣٧١)، الملل والنحل (٢١)، موسوعة الأديان (١/ ٦٤).

(١) الفتاوى (٤/ ١٥٥).

(٢) منهاج السنة (١/ ٥، ٦)،للاستزادة انظر. شرح أصول أهل السنة والجماعة. للالكائي (٤/ ١٥٥١).

(٣) انظر: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢/ ٩١١).

المسألة السابعة والأربعون
أمرهم الناس بالخير ونسيان أنفسهم

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، فقد كانوا يأمرون بالمعروف، ويتركون العمل به، وينهون عن المنكر ويعملون به، وهي خصلة اشتهر بها اليهود والمنافقون على السواء.

والمراد بالنسيان في اللغة: يقال نسي نسيًا ونسيانًا، ونَسَوة، ضد الحفظ والذكر، يقال تنساه وأنساه إياه، قال تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(١) معناه: تركوا الله فتركهم، فلما كان النسيان ضربًا من الترك وضعه موضعه(٢).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة، كما وخالف هدي الرسول ﷺ هدي أهل الجاهلية فيها، فقد أنـزل الله تعالى على نبيه آيات اشتملت على التوبيخ والذم الشديد على من أمر بالمعروف وترك العمل به، فقال تعالى في ذلك: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾(٣). قال المفسرون في تفسير الآية: (ذم أهل الكتاب، والمنافقين الذين كانوا يأمرون الناس بالخير ويحضونهم على طاعة الله، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس)(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٦٧).

(٢) انظر.لسان العرب (١٥/ ٣٢٢)، القاموس المحيط (٤/ ٣٩٨).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٤٤).

(٤) انظر.تفسير الطبري (١/ ٢٩٧)، تفسير ابن كثير (١/ ٨٦)، تفسير القرطبي (١/ ٤٠٨).

وقال المفسرون في المراد من الذم والتوبيخ الوارد في الآية أي: (وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف، والعمل به كلاهما واجبان على العبد)(١).

وقال تعالى مستنكرًا على المؤمنين قيام هذه الخصلة فيهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾(٢).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون القول الذي لا تصدقونه بالعمل، فأعمالكم مخالفة أقوالكم)(٣).

وقال القرطبي - رحمه الله - أيضًا في تفسيرها: (الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير مالا يفعله)(٤).

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - في تفسيرها: (أي لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشرور بما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه)(٥).

---

(١) انظر. تفسير ابن كثير (١/ ٨٦)، وتفسير القرطبي (١/ ٤٠٨).
(٢) سورة الصف، الآيتان: (٢، ٣).
(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٧٩).
(٤) تفسير القرطبي (١٨/ ٧٣).
(٥) تفسير ابن سعدي (٨٥٨).

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - معلقًا على هذه الآية: (إن الله خاطبهم بالإيمان؛ لأن مقتضى الإيمان ألا يفعل الإنسان هذا، وألا يقول مالا يفعل، فقد مقت الله هذا الفعل وأبغضه)(١).

وقال تعالى إخبارًا عن شعيب - عليه الصلاة والسلام - الذي خالف أهل الجاهلية في هذه الخصلة بقوله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾(٢).

قال الطبري في تفسيرها: (ما أريد أن أنهاكم عن أمر، ثم أفعل خلافه، بل لا أفعل إلا ما آمركم به، ولا انتهى إلا عما أنهاكم عنه)(٣).

وخالف رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حذر منها ببيان شدة العقوبة المنـزلة على من يأمر بمعروف ولا يأتيه، وينهى عن منكرٍ ويأتيه فقال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»(٤).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٧).

(٢) سورة هود، الآية: (٨٨).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٠٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق. باب صفة النار وأنها مخلوقة برقم (٣٢٦٧) بمثله (٢٦٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد. باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله برقم (٧٤٨٣)، ص(١١٩٥) بمثله انظر: موسوعة الحديث الشريف.

قال القرطبي - رحمه الله -: في بيان معنى الحديث: (والأقتاب: هي الأمعاء، وقد دل الحديث على أن عقوبة من كان عالمًا بالمعروف وبالمنكر، وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشدّ ممن لم يعلمه، وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى، ومستخف بأحكامه)[١].

وقد حذر كافة العلماء من الوقوع في هذه الخصلة يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (إن من عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٢])[٣].

وقد اشتهر المنافقون كذلك بهذه الخصلة فيقول الإمام ابن القيم - رحمه الله عنهم -: (هم جنسٌ بعضه يشبه بعضًا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه)[٤].

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - محذرًا: (إن الإنسان الذي يفعل ما ينهى عنه، أو يترك ما أمر به، مخالفٌ لطريقة الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، لأنهم لا يمكن أن يخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه)[٥].

* * *

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٤٤).

(٣) الفتاوى (١/ ١٩٧) للاستزادة انظر. التوسل والوسيلة (٤٧).

(٤) صفات المنافقين لابن قيم الجوزية. (٩).

(٥) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨).

المسألة الثامنة والأربعون
جعل العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور
فخالفهم النبي ﷺ واعتمر فيها

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند مشركي العرب وهو تحريمهم العمرة في أشهر الحج، والزعم بأن من جعل العمرة في أشهر الحج فإن فعله هذا من أفجر الفجور.

والمراد بالعمرة في اللغة: الزيارة، مأخوذة من الاعتمار، وهو الزيارة وقصد البيت(١).

شرعًا: زيارة البيت على وجه مخصوص، قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾(٢)(٣).

لقد كان العرب في الجاهلية يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، فخالفهم الرسول ﷺ فاعتمر في أشهر الحج، ودعا الصحابة رضوان الله عليهم وأمته إلى مخالفتهم.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صفرًا، ويقولون إذا برأ

---

(١) لسان العرب (٤/ ٦٠٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٩٦).

(٣) انظر .الإقناع (١/ ٣٣٤)، الروض المربع (٣/ ٥٠٠).

الدبر[(١)]، وعفا الأثر[(٢)]، وانسلخ[(٣)] صفر، حلت العمرة لمن اعتمر، فقدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرةً فتعاظم ذلك عندهم، فقالوا: يا رسول الله، أي الحل؟ قال: حل كله»[(٤)]، وقيل والمراد من قوله: «كانوا» يعود إلى الجاهلية)[(٥)].

وقد جزم الصحابي الجليل ابن عباس - رضي الله عنه - بأن قصد النبي ﷺ من عمرته في هذا الزمن بالذات هو لمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال - رضي الله عنه -: (والله ما أعمر رسول الله ﷺ عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك...)[(٦)]. قال ابن حجر - رحمه الله -: (عن تعليل أهل الجاهلية لهذه الخصلة «وجعلهم العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور» هذا من تحكماتهم الباطلة المأخوذة عن غير أصل)[(٧)].

---

(١) بر الدبر: يعنون دبر ظهور الإبل بعد انصرافها من الحج، فإنها كانت تدبر بالسير عليها للحج. المنهاج (٩٥٩).

(٢) عفا: الأثر: أي درس وامحى أثر سير الإبل. المرجع السابق.

(٣) انسلخ صفر لأن أهل الجاهلية كانوا يؤخرون التحريم إلى ما بعد صفر. انظر. الإقناع (١/ ٣٣٤)، الروض المربع (٣/ ٥٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج. باب التمتع والقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي برقم (١٥٦٤) بمثله (١٢٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج. باب جواز العمرة في أشهر الحج برقم (٣٠٠٩) بمثله (٨٨٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) المنهاج. للنووي (٩٥٩).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٦١) بمثله، ص(٢٠٣)، وأبو داود في سننه في كتاب المناسك. باب العمرة برقم (١٩٨٧) بمثله، ص(١٣٦٩). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(٧) فتح الباري (٣/ ٤٢٦)، للاستزادة انظر. أحكام القرآن للجصاص (١/ ٢٨٣).

فالعمرة جائزة في كل وقت من السنة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾(١) وقد تعمد النبي ﷺ مخالفة أهل الجاهلية حين أمر الصحابة أن يحلوا بعمرة في أشهر الحج، وليس هذا وحسب، بل إن جميع عُمر النبي ﷺ كانت في أشهر الحج.

وقد قال العلماء في حكم العمرة ومنها: (العمرة جائزة في كل وقت من أوقات السنة، وفي كل يوم من أيام السنة، وفي كل ليلةٍ من لياليها، لا تحاشِ شيئًا والدليل الآية المذكورة سابقًا)(٢).

وقال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (كان الكفار لا يتمتعون ولا يعتمرون في أشهر الحج، فقصد النبي ﷺ مخالفتهم حين أجاز للصحابة بأن يهلوا بعمرة)(٣).

وقال ابن القيم - رحمه الله - أيضًا: (لقد كانت عُمره ﷺ كلها في أشهر الحج مخالفًا لهدي المشركين، فإنهم يكرهون العمرة فيها، وهذا دليل على أن الاعتمار في أشهر الحج أفضل منه في رجب بلا شك، وفي رمضان لها موضع آخر)(٤).

* * *

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٩٧).

(٢) انظر.الإقناع (١/ ٣٩٧)، المحلى (٧١٥)، الروض المربع (٤/ ١٩٨).

(٣) الفتاوى (٢٦/ ٩٦)،للاستزادة انظر: عون المعبود (٨٠٥).

(٤) مختصر زاد المعاد (٦٤)، للاستزادة انظر: الروض المربع (٤/ ١٩٩).

المسألة التاسعة والأربعون
الذبح بالسن والظفر فنهى النبي ﷺ عنه

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية، عند ذبحهم للبهائم، فقد كان من شأن أهل الجاهلية من مشركي العرب، وكفار الحبشة عند ذبح البهائم، ذبحها بالسن والظفر.

والمراد بالسن: هو واحد السن، والسنُّ هو الضرس[(١)].

والظفُرُ: المراد بِهِ ظفر الأصبع، جمعه أظفارٌ وأُظفورٌ وأظافيرُ، ويكون للإنسان وغيره، يقال رجل أظفرُ: أي طويل الأظفار عريضها[(٢)].

لقد كان الكفار من أهل الجاهلية في الحبشة يذكون بأظفارهم من بين سائر الأمم، لهذا نهى الرسول ﷺ أمته عن مشابهتهم فيما يختصون به، وخالفهم ﷺ بفعله وقوله، أما العظم فكما ورد في نصوص السنة أنها طعام الجن، لذا نهى النبي ﷺ عن الذبح بها حتى لا تنجس بالدم على الجان؛ لأن الدم نجس، فدعا إلى التذكية بآلة حادة تنهر الدم، وبالتسمية عند الذبح، ونهى عن الذبح بالسن والظفر، فقال ﷺ ناهيًا عن هذه الخصلة حين سأله أحد الصحابة بأنه ليس لديه مُدىً[(٣)]، فقال عليه السلام: «ما أنهر الدم

---

(١) لسان العرب (١٣/ ٢٢٠).

(٢) لسان العرب (٤/ ٥١٧، ٥١٨).

(٣) المدى: هي الشفرة التي يقطع بها. انظر: مختار الصحاح (٥٥١).

وذُكر اسم الله فكل، ليس الظفر والسن، أما الظفر فمدى الحبشة، وأما السن فعظم»[١].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عن معنى الحديث: (أي أنه لابد من إنهار الدم بآلة ليست سنًا ولا ظفرًا)[٢].

والذي عليه الجمهور من العلماء أن كل ما أفْرَى الأوداج، وأنهر الدم فهو من آلات الذكاة من السيف والسكين والسنان والزجاج. ما خلا السن والعظم، فقد نهى عن الذبح بهما؛ لأن الذبح بهما تعذيب للحيوان، ولا يقع به غالبًا إلا الخنق الذي ليس هو على صورة الذم، ولأن الحبشة تدمى مذابح الشاة بالظفر حتى تزهق نفسها خنقًا، لذا يمنع الذبح بهما، سواء كان الظفر والسن متصلاً أو منفصلاً، طاهرًا كان أو متنجسًا، ظفر آدمي أو غيره من كل الحيوانات[٣].

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان هذه المسألة والحكم فيها:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد. باب ما أنهر الدم من القصب والمروة والحديد برقم (٥٥٠٣) (٤٧٤) بمثله. وفي كتاب الشركة. باب قسمة الغنم برقم (٢٤٨٨) (١٩٦) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب جواز الدم بكل ما أنهر الدم إلا السن وسائر العظام برقم (٥٠٩٢) (١٠٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٥١)، فتح الباري (٩/ ٦٣٩)، المنهاج (١٤٩٨)، عمدة القاري، (١٣/ ٤٩)، شرح معاني الآثار. لأحمد بن محمد أبو جعفر الطحاوي. ت. محمد زهري النجار. دار الكتب العلمية. بيروت (ط١)، ١٣٩٩هـ (٤/ ١٨٣)، المحلى (٩٣٨، ٩٣٩)، حلية العلماء. لسيف الدين أبو بكر محمد القفال، ت: ياسين أحمد إبراهيم، مؤسسة الرسالة. بيروت. عمان (ط١)، ١٩٨٠م، (٣٦٧).

(نهى النبي ﷺ عن الذبح بالظفر، معللاً بأنها مدى الحبشة، كما علل أن فيه مشابهةٌ لهم، فيجوز أن يكون نهيه عن ذلك لما فيه من مشابهتهم فيما يختصون به، أما العظم فيجوز أن يكون نهيه عن التذكية به كنهيه عن الاستنجاء به، لما فيه من تنجيسه على الجن، إذ الدم نجس)[١].

* * *

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٩٣).

المسألة الخمسون
معاقرة الأعراب وهو التفاخر بكثرة الذبح فنهى عنه

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أن من خصال أهل الجاهلية التي نهى الإسلام عنها التفاخر بكثرة الذبح، زعمًا منهم أنه من باب التباري على الجود والسخاء، وقد كان نهي الإسلام عنه لعلة أنه شبيه بما ذبح لغير الله ذلك؛ لأن قصدهم من الذبح هو الفخر والرياء والسمعة، فلم يقصد به وجه الله تعالى.

المعاقرة في اللغة: من عَقَرَ، عَقَرهَ أي جرحه، فهو عقيرٌ، والعقرُ: شبيه الحزِّ، يقال عَقَر الفرس والبعير بالسيف عقرًا: قطع قوائمه، ويقال عقر الناقة: أي نحرها، ومعاقرة الأعراب: أنهم كان يتبارى الرجلان في عقر إبلهما ليرى أيهما أعقرُ لها(١).

والتفاخر في اللغة: من فَخَرَ يَفخرُ فخرًا، فهو فاخرٌ وفخورٌ، وكذلك افتَخَرَ وتفاخر القوم: أي تمدح بالخصال، وعد القديم، والتفاخر: التعاظم(٢).

لقد كان العرب في الجاهلية يفتخرون بكثرة الذبح، ويتبارون في ذلك، فنهى النبي ﷺ عن هذه الخصلة، كما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه -

---

(١) انظر. لسان العرب (٤/ ٥٩٢)، مختار الصحاح (٤٠١).

(٢) لسان العرب (٥/ ٤٨).

أنه قال: (نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب)(١).

والمراد بمعاقرة الأعراب: هي أن يتبارى الرجلان في الجود والسخاء، فيعقر كل واحد منهما إبله، فأيهما كان أكثر عقرًا غلب صاحبه(٢).

وقال العلماء في حكم لحومها: وتكره لحومها لئلا يكون مما أهل به لغير الله، لأنهم كانوا يفعلونه رياءً وسمعةً وتفاخرًا، لا يقصدون به وجه الله، فشبه بما ذبح لغير الله(٣).

وقد قال تعالى محرمًا ما أهل به لغيره: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾(٤).

وقد سئل ابن عباس - رضي الله عنه - عن معاقرة الأعراب، فقال: (إني أخاف أن تكون مما أهل لغير الله به)(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الضحايا. باب ما جاء في أكل معاقرة الأعراب برقم (٢٨٢٠)، ص(١٤٣٤)، موسوعة الحديث الشريف. وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) انظر. تفسير ابن كثير (٢/ ٩)، عون المعبود (١٢٠٤)، معالم السنن للخطابي (٤/ ٢٧٨)، غريب الحديث للخطابي. لحمد ابن محمد الخطابي البستي. ت: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي. جامعة أم القرى. مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ (١/ ٣٧٠، ٣٧١)، سنن البيهقي الكبرى. لأحمد بن الحسين أبي بكر البيهقي. ت: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز. مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م (٩/ ٣١٤)، تنقيح تحقيق أحاديث التعليق. لشمس الدين محمد بن أحمد الحنبلي. ت: أيمن صالح شعبان. دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٩٩٨م، (٣/ ٤٠٧).

(٣) انظر. عون المعبود (١٢٠٤)، معالم السنن للخطابي (٤/ ٢٧٨)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٦).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٥) عون المعبود (١٢٠٥).

وقد ورد أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - نهى الناس عن الأخذ من كوم إبل عقرها شاعران تباريا على ذلك، وعلل ذلك - رضي الله عنه - بقوله: (يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها، فإنها أهل بها لغير الله) (١).

وقد ورد أن النبي ﷺ «نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل» (٢). ومعاقرة الأعراب من هذا الباب، فقد قامت من باب التباري على الجود والسخاء، لكنه بقصد الفخر والرياء والسمعة.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - عن ذلك: (إن الصحابة قد فسروا ما قصد بذبحه غير الله داخلاً فيما أهل به لغير الله، فعلم أنه آية ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ لم يقتصر بها على التلفظ باسم غير الله، بل ما قصد به التقرب إلى غير الله فهو كذلك)(٣).

ومعلومٌ أن الذبح عبادة لا تكون إلا لله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾(٤).

ويدخل في معنى المعاقرة ما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك والرؤساء عند قدومهم البلدان، وأوان حدوث نعمة تتجدد

---

(١) انظر. تفسير ابن كثير (٢/ ٩)، عون المعبود (١٢٠٥)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأطعمة. باب طعام المتباريين. برقم (٣٧٥٤)، ص(١٥٠٠)، موسوعة الحديث الشريف. وقال الألباني: صحيح.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٦، ٢٠٧).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٦٢).

لهم في نحو ذلك من الأمور[١].

كما ويدخل في ذلك ما يحصل في عصرنا الحاضر في مجتمعات المسلمين من نسب الجود والسخاء لمن أكثر من إقامة الولائم، وأكثر الذبح فيها، وما يحصل كذلك من البعض من كثرة الذبح، وإقامة الولائم عندما تطرح بعض الحكومات المسابقة على مناصب معينة، فيقوم هؤلاء المتسابقون بالمسابقة في تقديم أكثر المآدب وأكبرها، ليحصلوا بذلك على أكثر الأصوات؛ سعيًا للحصول على هذه المناصب. مناصب معينة سيقام عليها الانتخاب. والله أعلم.

* * *

(١) معالم السنن (٤/ ٢٧٨).

المسألة الواحدة والخمسون
اتباع المتشابه وترك المحكم

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الكتابيين والأميين، وهو اتباعهم للمتشابه، وتركهم للمحكم.

والمتشابه في اللغة: من شبه، والشِّبهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المثْلُ، والجمع أشباهٌ. وأشْبَه الشيُ الشيءَ: ماثله. وأشبهت فلانًا وشابهته، واشتبه على متشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحدٍ منهما صاحبه. والمشتبهات من الأمور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات(١).

المحكم في اللغة: مأخوذ من أحكمت الدابة: أي منعتها من الاضطراب، ومن الحكم: الفصل بين الشيئين، والتمييز بين الحق والباطل. آيات محكمات: التي لا اختلاف فيها واضطراب. يقال أُحكم فهو مُحكمٌ، وقيل المحكم: المُتقن(٢).

وقد اختلفت أقوال العلماء في المعنى الاصطلاحي للمتشابه على أربعة أقوال:

القول الأول: إن المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ.

القول الثاني: إن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه كوقت قيام الساعة.

القول الثالث: إن المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصص الأمم

---

(١) انظر لسان العرب (١٣/ ٥٠٤)، مختار الصحاح (٢٩٩).

(٢) انظر لسان العرب (١٢/ ١٤١)، مختار الصحاح (١٤٢).

ورسلهم عند التكرير.

والقول الرابع: إن المتشابه هو مالم يظهر معناه، واحتاج إلى بيان، أما المحكم هو المتقن الذي ليس فيه اختلاف، وهو ما كان قائمًا بنفسه، لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره، ويُعد هذا القول هو أحسن ما قيل في معنى المحكم والمتشابه(١).

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾(٢).

قال المفسرون في معنى المحكمات: والمحكمات أي المبينات، والمفصلات، والواضحات الدلالة التي لا التباس فيها على أحد(٣).

وقالوا في معنى المتشابهات: والمتشابهات: أي ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس فقد

---

(١) انظر. تفسير الطبري (٣/ ١٧٢ – ١٧٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٥، ٣٤٦)، تفسير القرطبي (٤/ ١٤، ١٥)، تفسير البغوي (١/ ٢٦٨)، الحجة في بيان المحجة شرح عقيدة أهل السنة: للإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصفهاني. ت: محمد ربيع المدخلي. دار الراية، الرياض، (ط٢)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، (٢/ ١٩٠، ١٩١)، التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية. تأليف: الشيخ فالح بن مهدي آل مهدي. تصحيح: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود. دار الوطن، (ط١)، ١٤١٤هـ، ص(٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥)، العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦، ٢٧)، الفتاوى (١٧/ ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (٧).

(٣) انظر. تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٥)، تفسير البغوي (١/ ٢٦٨)، تفسير ابن سعدي (١٢٢).

انعكس[١].

ذلك لأن الاشتباه أمرٌ نسبي، فقد يشتبه على أحد أمر ما، ولا يشتبه على غيره ممن لديه العلم.

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (إن التشابه الذي يتميز معه قد يكون من الأمور النسبية الإضافية، بحيث يشتبه على بعض الناس دون البعض، ومثل هذا يعرف منه أهل العلم ما يزيل عنهم هذا الاشتباه)[٢].

ومن ذلك قوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس...» [٣]. قال ابن تيمية في دلالة هذا الحديث: (فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها، فليست مشتبهه على جميع الناس)[٤].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، ودعا إلى مخالفتهم، فكان مما أُنزل في كتاب الله تعالى في ذم من اتبع المتشابه ممن في قلوبهم الشك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥).

(٢) الرسالة التدمرية (٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان. باب فضل من استبرأ لدينه برقم (٥٢)، ص(٦) بمثله، وفي كتاب البيوع. باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات برقم (٢٠٥١)، ص(١٦٠) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساقاة. باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم (٤٠٩٤)، ص(٩٥٥) بمثله موسوعة الحديث الشريف.

(٤) الفتاوى (١٧/ ٣٨٥).

مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾[١].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - والمراد بقوله (في قلوبهم زيغ) أي: (الذين في قلوبهم الشك)[٢]، وقال المفسرون في تفسير الآية:هم المنافقون، أنهم يتبعون ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات، ليحققوا بادّعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك، تشكيك في القرآن، ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهةً وتلبيسًا منهم على من ضعفت معرفته وإضلالاً لهم[٣].

وقال الإمام الطبري - رحمه الله -: (هذه الآية معني بها كل مبتدع في دين الله بدعةً فمال قلبه إليها، تأويلاً منه لبعض مُتشابه آي القرآن، ثم حاجّ به وجادل به أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة آية المحكمات، إرادةً منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين، وطلبًا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك، كائنًا من كان)[٤].

وقد ذم النبي ﷺ من اتبع المتشابه، وحذر منهم، فقال - عليه الصلاة والسلام - في ذلك: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم»[٥].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٧).

(٢) انظر.تفسير الطبري (٣/ ١٧٧)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٦)، تفسير القرطبي (٤/ ١٧)، الدر المنثور للسيوطي. دار الفكر. بيروت (٢/ ١٤٧).

(٣) السابق.

(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٨١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير. سورة آل عمران برقم (٤٥٤٧)، ص(٣٧٣)
=

وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: (لا تضربوا القرآن بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبهم. فهذا أمرٌ بالاتباع، ونهي عن الكف عن المشتبهات)[١].

وممن عُرف عنهم الأخذ بالمتشابه، وترك المحكم: النصارى، وذلك عند احتجاجهم على تعدد الآلهة بلفظ (إنا ونحن) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[٣].

قال ابن تيمية - رحمه الله - ردًا على احتجاجهم: (هذا يعرفه العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان لم يرد به أن الآلهة ثلاثة)[٤].

وكاحتجاجهم بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه، تاركين الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[٥]، ومتعامين عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ

=

بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم. باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعه والنهي عن الاختلاف في القرآن برقم (٦٧٧٥)، ص(١١٤٢) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٩٢).

(٢) سورة الفتح، الآية: (١).

(٣) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٤) الفتاوى (١٣/ ١٤٥).

(٥) سورة الزخرف، الآية: (٥٩).

ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(١)، (٢)].

وممن عرف عنهم اتباع المتشابه اليهود والمجسمة[(٣)]، قال الإمام القرطبي – رحمه الله – في ضلال هؤلاء: (وكأتباع اليهود ما تشابه من معاني الحروف المقطعة في بداية السور المحتملة التصريف في الوجوه المختلفة التأويلات، كالأجل الذي أرادت اليهود أن تعرفه من انقضاء مدّة أمر محمد ﷺ وأمر أمته، من قبل هذه الحروف المقطعة من حساب الجُمّل، كـ(ألم) و(ألمص)... وما أشبه ذلك من الآجال، وكما فعلت المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم، وصورة مصوّرة ذات وجه، وعين، ويد، وجنب، ورجل، وأصبع، تعالى الله عن ذلك)[(٤)].

أيضًا ممن عرف عنهم اتباعهم لهذه الخصلة والعمل به من الفرق الضالة الجهمية، وذلك في ردهم للنصوص المحكمة غاية الإحكام المبينة غاية البيان أن الله موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٦).

(٣) مذهبٌ لهشام بن الحكم وعلي بن منصور ومحمد بن الخليل ويونس بن عبد الرحمن، فقال هؤلاء: إن الله جسم تعالى الله عن ذلك، وأنه يجوز أن يمس ويلمس ويعانق، وقال منهم: إنه جسم هو فضاء والأجسام كلها فيه، وقد ألبس عليهم إبليس فتركوا البحث عن التأويل المطابق لأدلة الشرع والعقل، الفتاوى (١٣/ ٣٠٥)، انظر: تلبيس إبليس (١٠٨، ١٠٩)، الملل والنحل (٤٥).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ١٧).

بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[(١)]، ومن قوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[(٢)]. أيضًا رد القدرية[(٣)] النصوص الصريحة المحكمة في قدرة الله على خلقه بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[(٥)]، كذلك رد الخوارج[(٦)] والمعتزلة النصوص الصريحة المحكمة في ثبوت الشفاعة للعصاة، وخروجهم من النار بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[(٧)]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾[(٨)].

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه الفرق: (إن من أسباب ضلال النصارى وأمثالهم عدولهم عن الألفاظ الصريحة المحكمة إلى ألفاظ

---

(١) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٢) سورة مريم، الآية: (٦٥).

(٣) القدرية المراد بهم المعتزلة، وقد سبق التعريف بهم في مسألة (٤٦) (ص٢٨٣).

(٤) سورة فصلت، الآية: (٤٦).

(٥) سورة الكهف، الآية: (٤٩).

(٦) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين جرى أمر الحكمين واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، أطلق عليهم النبي ﷺ بالمارقة يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يجتمع طوائفهم في القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما، ويقدمون ذلك على كل طاعة ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقًا واجبًا ولا يصححون المناكحات، أكبر فرقهم المحكمة، والأزارقة، والنجدية وغيرهم. انظر: التدمرية (٣٨١)، الملل والنحل، (٥٠).

(٧) سورة المدثر، الآية: (٤٨).

(٨) سورة آل عمران، الآية: (١٩٢).

متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء، فكلما سمعوا لفظًا لهم فيهم شبهة تمسكوا به، وحملوه على مذهبهم، وإن لم يكن دليلاً على ذلك)(١).

فهذه هي طريقة أهل الكتاب والمبتدعة في اتباعهم للمتشابه، أما أهل السنة والجماعة، فموقفهم تجاه المتشابة كما قال ابن كثير - رحمه الله - وغيره من العلماء: (يقولون آمنا به أي المتشابه، كل من عند ربنا، أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر، ويشهد له لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، والذي يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها هم أولوا العقول السليمة، والفهوم المستقيمة)(٢)،وقال آخر: وأهل السنة يقفون عند المتشابه ولا يقيسُون(٣) شيئًا(٤).

كما ذكر ابن تيمية - رحمه الله - كلمة تُسطر بماء الذهب للرد على من يزعم أن الشارع خاطبنا بمتشابه يُراد منه تحير العقول، فقال عن ذلك - رحمه الله -: (لقد أخبر الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بمحارات العقول، ولم يخبر بمحالات العقول، فالعقل الصريح دائمًا موافق لما جاء في الكتاب والسنة، معتمد عليه لا يخالفه قط)(٥).

* * *

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٣٣٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٨).

(٣) لا يفسرون. انظر: السنة للبربهاري (١١٨).

(٤) السنة للبربهاري (١١٨).

(٥) انظر: الفتاوى (١٧/ ٤٤٣، ٤٤٤) بتصرف بسيط.

المسألة الثانية والخمسون

حلق القفا لغير الحجامة

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية من المجوس[(١)]، وهي حلق مؤخرة الرأس لغير حاجة كنسكٍ[(٢)] أو حجامةٍ[(٣)].

والقفا في اللغة: مؤخر العنق، وجمعها أقفٍ، وأقفيةٌ والكثير قفيٌّ وقفينٌ، وقافية كل شيء: آخره، فقافية الرأس مؤخرة الرأس، ومنه قافية بيت الشِّعر، وقفوتُه: ضربت قفاه[(٤)].

وقد خالف هدي رسول ﷺ هدي أهل الجاهلية من المجوس وغيرهم في الحلق، فلم يكن من هديه – عليه الصلاة والسلام – حلق رأسه في غير نسك، كما نص – عليه الصلاة والسلام – بالوصف الذي لابد أن يكون عليه المسلمين تجاه ما كان من خصائص أهل الجاهلية من المجوس بأمرٍ

---

(١) المجوس: أصحاب الديانة المجوسية، يقال لها الدين الأكبر، وهي ديانة فارسية، قوم أثبتوا أصلين النور والظلمة، وقالوا إنهما غير أزليين، وعبدوا النار، وتُعد المجوسية تحريفًا للدعوة الخليلية، نبيهم زرادشت، قالوا إن النور والظلمة امتزجتا والخلاص منهما هو المعاد. انظر: الملل والنحل (١٠٨)، تلبيس إبليس (٩٤).

(٢) المراد الحج أو العمرة.

(٣) هو إخراج الدم من الجسد بشرط في ظاهر الجلد المتصل قصدًا. الروض المربع (٣/ ٣٩٧).

(٤) لسان العرب (١٥/ ١٩٢).

ينص على وجوب مخالفتهم، كما هو وارد في نهاية الحديث الذي قال فيه - عليه الصلاة والسلام -: «خالفوا المجوس» (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد عقب الأمر بالوصف المشتق المناسب، وذلك دليل على أن مخالفة المجوس أمر مقصود للشارع، وهو العلة في هذا الحكم، لهذا لما فهم السلف كراهة التشبه بالمجوس في هذا، وغيره، كرهوا أشياء غير منصوص بعينها عن النبي ﷺ من هدي المجوس)(٢).

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن هدي النبي ﷺ في حلق رأسه: (لم يكن هديه ﷺ حلق رأسه في غير نسك، بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة)(٣).

وقد روي أثرٌ عن قتادة(٤) بكراهيته قال فيه: (إن حلق القفا من فعل

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة. باب خصال الفطرة برقم (٦٠٠)، ص(٧٢٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٠)، للاستزادة انظر: شرح عمدة الفقه (١/ ٢٣١).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٤٩).

(٤) قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، كان ضريرًا، كما كان آية في الحفظ، وإمامًا في النسب، وهو أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، قال عنه الإمام أحمد: إنه أحفظ أهل البصرة، ولد سنة ٦٠هـ. توفي بمرض الطاعون. توفي سنة ١١٧هـ بواسط، وقيل: ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٨٢)، البداية والنهاية (٩/ ٣١٤)، شذرات الذهب (١/ ١٥٣)، مرآة الجنان (١/ ٢٥١).

المجوس) [١]، كما روى قتادة عن عمر - رضي الله عنه - أنه رأى رجلاً قد حلق قفاه، ولبس الحرير، فقال له: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٢].

وقد سئل الإمام أحمد[٣] - رحمه الله - عن حلق القفا، فقال: (لا أعلم فيه حديثًا...، ثم قال - رحمه الله - : هو من فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم)[٤].

وقد كره العلماء حلق الرأس لغير نسك وحاجة، كالقزع[٥]، وحلق القفا زاد فيه جماعة لمن لم يحلق رأسه، ولم يحتج إليه لحجامة أو غيرها، فقد ثبت في الأثر أن حلق القفا من خصال المجوس، ونحن منهيون بنص صريح من السنة عن التشبه بأهل الجاهلية حيث قال ﷺ: «ومن تشبه بقوم فهو منهم»[٦]، وكان الإمام مالك[١] - رحمه الله - يكره حلق القفا، وقيل:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٠).

(٢) الجامع. لمعمر بن راشد الأزدي. ت: حبيب الأعظمي (منشور كملحق بكتاب المصنف للصنعاني) ج(١٠)، المكتب الإسلامي، (ط٢)، ١٤٠٣هـ، (١١/ ٤٥٤).

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني المروزي البغدادي، إمام السنة، صاحب أحد المذاهب الأربعة، كان إمامًا في الحديث والفقه وفي السنة والورع، امتحن بمحنة خلق القرآن في عهد المعتصم، فصبر واحتسب. توفي سنة ٢٤١هـ. حفظ ألف ألف حديث له كتاب المسند والسنة. انظر: العبر في خبر من غبر (١/ ٤٣٥)، شذرات الذهب (٢/ ٩٦).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٠)، للاستزادة انظر: شرح العمدة في الفقه لابن تيمية (١/ ٢٣١).

(٥) حلق بعض شعر الرأس وترك البعض الآخر من أي جهةٍ من الرأس. الروض المربع (١/ ١٦٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥١١٥) بمثله وزيادة في أوله (٣٨٦)، وأبي داود في سننه. كتاب اللباس. باب في لبس الشهرة برقم (٤٠٣١)، ص(١٥١٨). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

إن كراهة مالك - رحمه الله -: هو أن يرفع في حلقه حتى يحلق بعض مؤخر الرأس على ما تصفه الروم، وهذا تشبه، فقال مالك رحمه الله: أول من حلق قفاه عندنا دار قس النصراني(٢).

* * *

=

(١) هو: مالك بن أنس بن مالك الحميري الأصبحي المدني، فقيه الأمة، وإمام دار الهجرة. صاحب كتاب الموطأ وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة قال عنه الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وكان طويلاً وجسيمًا، كان عظيم المحبة لرسول الله ﷺ، مبالغًا في تعظيم حديثه. ولد سنة ٩٤هـ. وتوفي سنة ١٧٩هـ.

انظر: العبر في خبر من غبر (١/ ٢٧٢)، البداية والنهاية (١٠/ ١٧٤)، شذرات الذهب (١/ ٢٨٩).

(٢) انظر. الروض المربع (١/ ١٦٢)، الآداب الشرعية (٥٩٩)، اقتضاء الصراط (٥٠)، شرح العمدة (١/ ٢٣١)، الفروع. لمحمد بن مفلح المقدسي. ت: أبو الزهراء القاضي. دار الكتب العلمية بيروت، (ط١)، ١٤١٨هـ، (١/ ١٠٥)، التمهيد. لابن عبد البر (٦/ ٦٩)، الورع. لأحمد بن حنبل. ت: د. زينب إبراهيم القاروط. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص(١٧٨).

المسألة الثالثة والخمسون
القول بقدم العالم وأنه ليس بحادث

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند طائفة الفلاسفة، وهو القول بقدم العالم، نظرًا لما تتضمنه هذه الخصلة من المخالفة الصريحة لصريح النص الثابت.

المراد بالعالم في الاصطلاح: هو كل ما سوى الله وصفة ذاته(١).

المراد بالعالم: جواهر وأعراض، فالجواهر هو المتحيز، وكل ذي حجم متحيز، والعرض هو المعنى القائم بالجوهر، كالألوان والطعوم والروائح، والحياة والموت، والعلوم والإردات والقُدَر، القائمة بالجواهر(٢).

والمراد بالقديم في اصطلاح المتكلمين: هو ما لا أول لوجوده، أو مالم يسبقه عدم، ويقول بعضهم: وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره، سواء كان أزليًا أو لم يكن(٣).

علمًا أن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن استعملوه في المتقدم

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني. ت: د. محمد بن يوسف موسي، وعلي بن عبدالمنعم عبد الحميد. مكتبة الخانجي مصر. مطبعة السعادة بمصر، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص(١٧)، درء التعارض (١/ ١٢٥).

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. الجويني، ص(١٧).

(٣) الفتاوى لابن تيمية (١٢/ ١٠٥).

على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم(١).

والمراد بالحادث: هو الذي حدث بعد أن لم يكن محدثًا، فلابد أن يكون ممكنًا، والإمكان ليس له وقت محدود(٢).

إن لفظ (القديم والحادث) من الألفاظ المبتدعة التي لم يقل بها أحد من الأنبياء، ولا أتباعهم، وقد ظهرت هذه الألفاظ لدى طائفة الفلاسفة والمتكلمين.

وعن هؤلاء يقول أهل العلم: إن أول من صرح في القول بقدم العالم هو الفيلسوف أرسطو (٣)، مع العلم أن قوله بقدم العالم قد خالف فيه قول جمهور الفلاسفة قبله القائلين بحدوث العالم، كما أنه ليس لدى أرسطو دليلٌ يستدل به على قوله بقدم العالم، ولكنه عظُم عليه وعلى أمثاله الجهال ممن تبعه من الباطنية والدهرية(٤) تقدير حدوث العالم، فقالوا بقدم العالم(٥).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية. للإمام أبي جعفر الطحاوي شرح الإمام أبي العز الدمشقي الحنفي. ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت. سوريا، (ط٤)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، (١/ ٧٧).

(٢) العقيدة الطحاوية (١/ ١٠٣).

(٣) هو: أرسطو طاليس من أهل أسطاخر، وهو المقدم المشهور، المعلم الأول، تتلمذ على يد أفلاطون، سمي المعلم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل. له كتب في الطبيعيات والإلهيات والأخلاق المعروفة. الملل والنحل (١٨٠).

(٤) هم معطلة العرب الذين أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحي والدهر المغني، وهم الذين أخبر عنهم القرآن ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ (الجاثية: ٢٤). والملل والنحل (٢٣٥).

(٥) انظر. الإرشاد (١٧)، الفرق بين الفرق للبغدادي، ص(٢٦٢)، منهاج السنة (١/ ٢٢٥)، دقائق التفسير (٣/ ٣٦٩)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٢)، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية =

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية من الفلاسفة وغيرهم من المتكلمين القائلين بهذا القول الباطل بنصوص من الكتاب والسنة نصت على إثبات خلق وحدوث هذا العالم، وعلى فنائه، وعلى إثبات أن صفة الأزلية والأبدية في الوجود هي خاصة بالباري وحده تعالى، لهذا فالصحيح من هذه المسألة ما عليه أهل السنة والجماعة: بأن الله تعالى كان ولا شيء معه وهو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخرته انقضاء.

قال تعالى في إثبات صفة الأزلية والأبدية له: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾(١)، وقال تعالى أيضًا في إثبات خلق هذا العالم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾(٢)، كما قال تعالى في إثبات فناء هذا العالم: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(٤).
قال الطبري في تفسير الآيات: (أي أن كل من على ظهر الأرض من جن،

=
لشرح الدرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية. للشيخ محمد السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين. دمشق (ط٢)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، (١/ ٢٧٨).

(١) سورة الحديد، الآية: (٣).

(٢) سورة هود، الآية: (٧).

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٤) سورة القصص، الآية: (٨٨).

وإنس فإنه هالك، ويبقى وجه ربنا ذو الجلال والإكرام)[١]. وعلى هذا فإن كل ما سوى الله وصفاته حادث مخلوق، كائن بعد أن لم يكن، فهو تعالى الذي أوجد هذا العالم، وأحدثه بإرادته، ومشيئته يقدم منه ما شاء، ويؤخر منه ما شاء، قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٣] وما خلق الله تعالى هذا العالم عبثًا ولا لعبًا، بل بالحق، والحكمة، فهو سبحانه وحده الموجود القديم، والواحد الأحد، الحي العالم القادر المريد المتكلم السميع البصير الباقي، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[٤]، لا في نفسه ولا صفاته، ولا في أفعاله ولا مفعولاته، وقد نبه البارئ - عز وجل - العقول لعظيم قدرته، فقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٥] قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير هذه الآية: (ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما وما بينهما في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم)[٦].

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٥٩١).
(٢) سورة هود، الآية: (١٠٧).
(٣) سورة النحل، الآية: (٤٠).
(٤) سورة الشورى، الآية: (١١).
(٥) سورة الزمر، الآية: (٦٧).
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره برقم (٣٠٢١٢) (١١/ ٢٤).

وقد خالف الرسول ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد وردت عنه نصوص كثيرة دلت على إثبات حدوث العالم، ونفى القول بقدمه، ومن ذلك قوله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(١)، وفي رواية أخرى قال أيضًا: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»(٢). قال العلماء في المراد بقوله: «وكان عرشه على الماء» أي: قبل خلق السموات والأرض(٣).

إن الناظر لهذه الأدلة يجدها قد نصت بصحيح المنقول، وصريح المعقول على بطلان هذا القول، لهذا فقد انبرى للرد على هذا الزعم وإبطال هذه الخصلة كثير من علماء هذه الأمة، وقد كان من أكثر هؤلاء العلماء الذين اشتُهر عنهم الرد على هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، فقد انبرى - رحمه الله - بنفسه الطويل، وحجته الدامغة المعهودة عنه من صحيح المنقول في بيان بطلان هذا القول، ومدى فساد عقول أصحابها، فمما قاله في ذمهم: (... إذا عُرف أن نفس فلسفتهم توجب عليهم أن لا يقولوا بقدم شيء من العالم، عُلِم أنهم مخالفون لصريح المعقول، كما أنهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم برقم (٦٧٤٨) بمثله (١١٤٠)، موسوعة الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يبدؤا الخلق...) برقم (٣١٩١) بمثله مطولاً، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (وكان عرشه على الماء) برقم (٧٤١٨) بمثله، ص(٢٥٨، ٦١٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج (١٨٧٨).

مخالفون لصحيح المنقول، وأنهم في تبديل القواعد الصحيحة المعقولة، من جنس اليهود والنصارى في تبديل ما جاءت به الرسل...)[(١)]، كما قال غيره من أهل العلم عن هذه المسألة، وعن القائلين بها:... فإذا كان جملة السموات مقبوضةً بيمينه فكل ما في هذا العالم من وجود وكمال، فهو من أثر قدرته ومشيئته، فهو أعظم وأكبر؛ إلا أنه قد عظم على هؤلاء الجهال من المتفلسفة وأمثالهم وأشباههم تقدير حدوث العالم وتغيره، ذلك لأنهم لم يقدروا الله حق قدره، وكان ينبغي كلما شهدوه من عظم العالم وقدره يدلهم على قدر مبدعه، وليعلم هؤلاء أن كل ما يحتجون به في إثبات قدم العالم يُلزمهم بأعظم مما يفرون منه، حتى يوؤل بهم الأمر إلى إنكار الوجود بالكلية، أو الاعتراف ببطلان قولهم، وببطلان كل ما يدل على قولهم، وهذا موجود في عامة الدين مما أمر الله به من اعتقاد أو قول، أو قصد، وعمل، فمن ترك شيئًا من ذلك إلى غيره خوفًا مما ترك كان في الذي فر إليه أعظم من ذلك المخوف، وإن كان رغبة فيما فر إليه كان ما فاته أعظم مما حصل له، بل يعاقبون بأعظم من ذلك.[(٢)]

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ٢٢٨)، للاستزادة انظر: دقائق التفسير (٣/ ٣٦٩ - ٣٧٢).

(٢) للاستزادة انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. للقاضي أبي بكر الباقلاني البصري، ت: عماد الدين أحمد. عالم الكتب بيروت، (ط١)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م (٢٩)، الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٥٦)، المسائل الخمسون في أصول الدين. لفخر الدين الرازي. ت: أحمد فريد. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، المسألة الأولى في حدوث العالم، ص(١٠١)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧)، منهاج السنة لابن تيمية (١/ ١٠٠)، التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل الفرق وتذكرة أولي الألباب في طريقة =

وقد قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن حكم من اعتقد بقدم العالم: (إن من اعتقد قدم العالم أو حدوث الصانع كان كافرًا، ومن أنكر حدوث العالم فلا تقبل شهادته لأنه على غير الإسلام)(١).

* * *

=

الشيخ محمد ابن عبد الوهاب والشيخ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب. دار طيبة. الرياض، (ط١)، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص(٦٧).

(١) الطرق الحكمية في السياسية الشرعية لابن القيم (١٣٥)، للاستزادة انظر: مصرع التصوف أو تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي. لبرهان الدين البقاعي. ت: عبد الرحمن الوكيل. مكتبة المؤيد. الرياض، ص(٣٠، ٣٣).

المسألة الرابعة والخمسون
قولهم إن الكسوف لموت عظيم أو ولادته فرده بقوله، «ولكن الله يخوف بهما عباده» (١)

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين، وهي اعتقادهم أن كسوف الشمس أو القمر لموت عظيم أو ولادته.

والمراد بالكسوف في اللغة: من كسف القمر يكسِفُ كُسوفًا، وكذلك الشمس كسفت تكْسِف كسوفًا. ذهب ضوءها واسودت، ويقال كسفت الشمس وخسفت، فهي واحد، وكسوف القمر: أي ذهاب نوره وتغيّر إلى السواد(٢).

إن الشمس والقمر من آيات الله الكونية الباهرة، ولهذا كان في كسوفها تخويفًا من الله لعباده، فكسوف الشمس أو القمر من الأسباب الحسية التي يقدرها الله على العباد حتى تستقيم أحوالهم على دين الله تعالى، وليس كما يزعم أهل الجاهلية بأن كسوفهما لموت عظيم أو ولادته، قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾(٣).

قال المفسرون في تفسير الآية أي: إن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون أو يرجعون(٤)، وقد روي أن المدينة حين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب الكسوف، باب قول النبي ﷺ: «يخوف الله عباده بالكسوف» برقم (١٠٤٨) بمثله. وزيادة في أوله، ص(٨٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) لسان العرب (٩/ ٢٩٨).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٥٩).

(٤) انظر. تفسير الطبري (٨/ ١٠٠)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩).

زلزلت على عهد عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه -، فقال عمر آنذاك: (أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن)(١).

وقد خالف الرسول ﷺ في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وأن في كسوفهما تخويفًا من الله لعباده، لهذا أرشد - عليه الصلاة والسلام - أمته عند حصول الكسوف بالمسارعة بالصلاة والدعاء والصدقة، فقال: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ من الناس، ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموها فقوموا فصلوا» (٢).

وفي رواية أخرى قال: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحدٍ ولا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف. باب الصلاة في كسوف الشمس برقم (١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣) بمثله وفي باب الصدقة في الكسوف برقم (١٠٤٤) بزيادة في أوله وآخره، وفي باب خطبة الإمام في الكسوف برقم (١٠٤٦) بزيادة في أوله وآخره، وفي باب هل يقول كسفت الشمس أو خسفت برقم (١٠٤٧) بزيادة في أوله وآخره، وفي باب قول النبي ﷺ يخوف الله عباده بالكسوف برقم (١٠٤٨) بمثله، وفي باب صلاة الكسوف جماعة برقم (١٠٥٢) بزيادة في أوله وآخره، وفي باب لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته برقم (١٠٥٧) بزيادة في أوله، وفي باب الذكر في الكسوف برقم (١٠٥٩) بنحوه وفي باب الدعاء في الكسوف برقم (١٠٦٠) بمثله. وفي باب الصلاة في كسوف القمر برقم (١٠٦٣) بزيادة في أوله وآخره، ص(٨٢، ٨٣، ٨٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف برقم (٢٠٨٩، ٢٠٩١، ٢٠٩٦) بزيادة في أوله وآخره، وفي باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار برقم (٢١٠٠، ٢١٠٢) بزيادة في أوله وآخره، وفي باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة برقم (٢١١٤، ٢١١٥، ٢١١٧، ٢١٢٢) بنحوه ورقم (٢١٢١) بمثله. ص(٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١). موسوعة الحديث الشريف.

لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموها فصلوا».

كما وقد روي أن الشمس كسفت على عهد رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله» قال أهل العلم في المعاني المستنبطة من هذه الأحاديث: «وهذا خلافًا لما كان عليه بعض أهل الجاهلية الضلال ممن كانوا يعظمون الشمس والقمر، وكانوا يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض من موت، أو ضرر، فأعلم النبي ﷺ أنه اعتقاد باطل، وأن الشمس، والقمر خلقان مسخران لله ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما؛ بل هما كسائر المخلوقات يطرأ عليهما النقص، والتغير كغيرهما، وفي قوله (آيتان) أي هما علامتان يستدل بهما على وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، أو على تخويف العباد من بأس الله وسطوته، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[1].

لهذا أمر النبي ﷺ عند الخسوف بالدعاء، والتصريح بالتوبة، والمغفرة، وصرف البلاء وبالتقرب بما يستجلب به رضا الله تعالى، ويستدفع به بأسه، وسطوته، فأمرهم بالصدقة فقال: «فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وتصدقوا»[2]؛ لأنها من أقرب الأعمال إليه، ويستجلب بها رضاه)[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف برقم (١٠٤٤) بزيادة في أوله وآخره، ص(٨٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف برقم =

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في قول الرسول ﷺ: «آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده»: (قد قاله ﷺ ردًا على ما قاله جهال الناس: إن الشمس كسفت لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ فإنها كسفت يوم موته، وظن بعض الناس لما كسفت أن كسوفها كان لأجل موته، وإن موته هو السبب لكسوفها، كما يحدث عند موت بعض الأكابر مصائب في الناس، فبين النبي ﷺ أن الشمس، والقمر لا يكون كسوفهما عن موت أحد من أهل الأرض، ولا عن حياته، ونفى أن يكون للموت والحياة أثر في كسوف الشمس، والقمر، فأخبر أنهما من آيات الله؛ وأنه تخويف لعباده كما يخوفهم في سائر الآيات من الرياح الشديدة والزلازل

والجدب، كما عُلم من هذا الحديث أن الكسوف مظنة لحدوث عذاب بأهل الأرض، لهذا شُرع عند الكسوف الصلاة الطويلة، والصدقة، والعتاقة، والدعاء لدفع العذاب)(٢).

* * *

=

(٢٠٨٩، ٢٠٩١) بزيادة في أوله وآخره، ص(٨١٩، ٨٢٠). موسوعة الحديث الشريف.

(١) انظر: المنتقى شرح موطأ مالك: للقاضي أبي الوليد سليمان الباجي. ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م (٢/ ٣٧٤)، المنهاج بشرح صحيح مسلم (٧١٤)، فتح الباري (٢/ ٥٢٨).

(٢) الفتاوى (١٧/ ٥٣٤، ٥٣٥) (٢٤/ ٢٥٩) (٣٥/ ١٦٨، ١٦٩)، للاستزادة انظر: صحيح الوابل الصيب: لابن قيم الجوزية، ت: سليم بن عبد الهلالي. دار ابن الجوزي. الدمام، (ط١٠)، ١٤٢٥هـ، (٢٧٤)، الشرح الممتع على زاد المقنع (٢/ ٣٢٧).

المسألة الخامسة والخمسون
قولهم إذا رمي بنجم إنه يولد عظيم أو يموت عظيم، فرد ذلك ثم بين حكمة ذلك

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين وهي اعتقادهم أنه إذا رمي بنجم، فإن في ذلك علامة على ولادة عظيم أو موته.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بيّن بطلان هذا المعتقد، حين جاء النص مبينًا أن الحكمة من خلق النجوم إنما هي زينةٌ للسماء، وعلاماتٌ يُهتدى بها، ورجوم للشياطين المسترقين للسمع، ومن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وادعى بما لا علم له به، قال تعالى عن ذلك: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا

---

(١) سورة الحجر، الآيات: (١٦ – ١٨).

(٢) سورة الصافات، الآيات: (٦ – ١٠).

رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(٤).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية السابقة: (أي معالم الطرق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل)(٥).

وقال قتادة - رحمه الله - في تفسير الآية: (العلامات: النجوم، وإن الله تبارك وتعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد رأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به)(٦).

وقد خالف الرسول ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على بطلان هذا المعتقد بنفيه لهذا الاعتقاد، وبيانه الحكمة من رمي النجوم، فقد

(١) سورة الملك، الآية: (٥).
(٢) سورة الجن، الآيتان: (٨، ٩).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (٩٧).
(٤) سورة النحل، الآية: (١٦).
(٥) تفسير الطبري (٧/ ٥٧١).
(٦) ذكره البخاري معلقًا مجزومًا به في كتاب بدء الخلق. باب في النجوم، ص(٢٥٩)، موسوعة الحديث الشريف، وذكره الطبري في تفسيره (٧/ ٢٧٣) (١٢/ ١٦٦).

روي أن رسول الله ﷺ كان جالسًا في نفر من أصحابه الأنصار، فرمى بنجم فاستنار، فقال رسول الله ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم، فقال رسول الله ﷺ «فإنها لا يرمى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش؛ ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»(١) . وقد قال بعض أهل العلم في مراد النبي ﷺ من سؤاله هذا: (وقد كان سؤال النبي ﷺ في هذا الحديث ليس للاستعلام، لأنه كان عالمًا بذلك؛ بل لأن يجيبوا عما كانوا يعتقدونه في الجاهلية فيزيله عنهم ويقلعه عن أصله)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب السلام. باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان برقم (٥٨١٩) بمثله، ص(١٠٧٤). موسوعة الحديث الشريف. وأخرجه البخاري في كتابه خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل برقم (٤٨٧) بنحوه في إثبات البخاري لصفة الصوت وإيراده الأدلة على ذلك. ت: فهد بن سليمان الفهيد. دار أطلس الخضراء. الرياض. دمشق (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م (٢/ ٢٤٥)، الرد على الجهمية. لأبي سعيد الدارمي. دار ابن الأثير. الكويت (ط٢)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص(١٧٢)، التوحيد لابن منده الأصبهاني برقم (٣٦، ٣٨، ٥٤٩، ٨٥٨)، ص(٢٨، ٢٢٢، ٣١٦)، الحجة في بيان المحجة برقم (١١٧) (١/ ٢٢٨) وبرقم (٦٢) (٢/ ١١١).

(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٣٤٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن مخالفة النبي ﷺ لأهل الجاهلية في هذه الخصلة: (لقد نفى النبي ﷺ أن يكون الرمي بها لأجل أنه قد ولد عظيم، أو مات عظيم، بل لأجل الشياطين المسترقين السمع، فموت الناس وحياتهم لا تكون سببًا لكسوف الشمس والقمر ولا الرمي بالنجم)[١].

* * *

(١) الفتاوى لابن تيمية (٣٥/ ١٧٤).

المسألة السادسة والخمسون
اعتقاد معرفة علم الغيب بالنظر في النجوم فورد الشرع بخلافه والنهي عن تعاطيه

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين، وهي اعتقادهم بمعرفة علم الغيب برصد النجوم وحركاتها والنظر فيها.

ومما يدل على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية، ذم الرسول ﷺ لهذا العلم، واعتباره أنه شعبة من شعب السحر، قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر»[١]. قال أحد العلماء في المراد من الحديث: (أي أن من أخذ، وحصل، وتعلم علمًا من علوم النجوم، أو مسألة من علمها فقد أخذ، وحصل على قطعة من السحر، فكلما ازداد اقتباسًا من علوم النجوم زاد اقتباسه لشعبة السحر)[٢].

وفي خبر هرقل ملك الروم النصراني قيل: «وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك

---

(١) ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠٠٠، ٢٨٤١) بمثله ص(١٧٨، ٢٣٨) قال شعيب إسناده صحيح، وأخرجه أبو داود في سننه في كتاب الطب. باب في النجوم برقم (٣٩٠٥)، ص(١٥١٠) بمثله، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الآدب، باب تعلم النجوم برقم (٣٧٢٦)، ص(٢٦٩٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني حسن.

(٢) عون المعبود (١٦٦٩)، للاستزادة انظر: تنبيه اللاهي شرح كتاب المناهي (١٢٨، ١٢٩).

الختان...»[(١)]. قال أحد العلماء عن هذا الحديث: (دل هذا الحديث على أن هرقل كان منجمًا)[(٢)].

وقد خالف هدي الرسول ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين ذم العلم المقتبس من علم النجوم، وعد هذا العلم شعبة من شعب السحر بقوله: «من اقتبس علمًا من النجوم...». قال الإمام الخطابي[(٣)] في المراد بعلم النجوم: (وليس المراد بعلم النجوم المذموم هو علم الفلك، إنما المراد به علم النجوم المنهي عنه، وهو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع، وستقع في مستقبل الزمان كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر، والبرد، وتغير الأسعار، ونحوها من السُّعود، والنحوس، ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون أن لها تأثيرًا في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به، فلا يعلم الغيب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم (٧) بمثله، ص(١، ٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٣٣).

(٣) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي ولد في مدينة بست في بلاد كابل، كان فقيهًا حافظًا علامة محققًا وأديبًا، من تصانيفه كتاب معالم السنن، وغريب الحديث. توفي عام (٣٨٨هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٦)، العبر في خبر من غبر (٣/ ٤١)، وشذرات الذهب (٣/ ١٢٧).

أحد سواه، وأما علم النجوم الذي يدرك بالمشاهدة والخبر، كالذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فغير داخل فيما نهى عنه، لأن مدار ذلك على ما يشاهد من الظل في الأول والكواكب في الثاني)[١].

ويطلق العلماء على علم النجوم المحرم علم التأثير، وقالوا إنه على نوعين:

النوع الأول: أن يدعي المنجم أن الكواكب فاعلة مختارة، وأن الحوادث تجري بتأثيرها، فهذا كفر بإجماع المسلمين؛ لأنه اعتقاد بوجود خالق غير الله، وأن أحدًا يتصرف في ملكه بغير مشيئته وتقديره. سبحانه وتعالى.

النوع الثاني: وهو الاستدلال بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها على حدوث الحوادث، وهذا لا شك في تحريمه؛ لأنه من ادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٢]، وقال ﷺ لما سئل عن الأمور المغيبة قال: «خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣] »[٤][١].

---

(١) معالم السنن. للخطابي (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) سورة النمل، الآية: (٦٥).

(٣) سورة لقمان، الآية: (٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة برقم (٥٠)، وفي كتاب التفسير، باب (إن الله عنده =

ويُعد هذا النوع من العلم من السحر العلمي الذي قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (أن الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث الأرضية من جنس السحر العلمي المحرم بالكتاب والسنة؛ إذا أنه من الاستقسام[٢] بالأزلام)[٣].

وقال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - عن حكم هذا العلم: (إن علم تأثير النجوم باطل محرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم)[٤].

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: محذرًا من هذا العلم: (أحذركم علم النجوم إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر، فإن المنجم كالساحر، والساحر كاهن، والكاهن كافر، والكافر في النار)[٥].

= علم الساعة) برقم (٤٧٧٧) بمثله ص(٦، ٤٠٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان ما هو وبيان خصاله برقم (٩٧)، ص(٦٨١) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) ينظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد (١٩٥)، معارج القبول (٢/ ٥٥٩، ٥٦٠)، القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ١٠٢)، السبك الفريد شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٠٢)، شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٣١)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (١٤٠، ١٤١).

(٢) كانوا لهم في الجاهلية أقداح مكتوبًا على أحدها (نهاني ربي)، والآخر (أمرني ربي)، فإذا أرادوا السفر أو الزواج أو الخروج ضربوا بهذه الأقداح، فما خرج لهم عملوا بموجبه. تفسير الطبري (٤/ ٤١٥).

(٣) الفتاوى لابن تيمية (٣٥/ ١٧١).

(٤) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (٣/ ١٢).

(٥) الشرح والإبانة للعكبري (٣٦٠).

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - عن المنجمين: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)[(١)].

وقال قتادة - رحمه الله - عن فساد أقوال من قالوا بهذا العلم: (إن أناسًا بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا! ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر، والأسود، والطويل والقصير، والحسن، والذميم، وما علم هذه النجوم، وهذه الدابة، وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب! ولو أن أحدًا علم الغيب، لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء)[(٢)].

ويقول الشيخ عبد الله بن جبرين - حفظه الله - في حكم على هؤلاء المنجمين أصحاب هذا العلم: (فالمنجمون المستدلون بالنجوم على الأمور الغيبية المستقبلية مشركون كهنة وليس لهم عند الله من خلاق، فهم أشبه بالسحرة، قال تعالى عنهم: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، باب ما جاء في كراهية اقتباس علم النجوم برقم (١٦٢٩١) (٨/ ١٣٩)، ومعمر في الجامع برقم (١٩٨٠٥) المطبوع مع المصنف (١١/ ٢٦) موقوفًا على ابن عباس، وقال محقق كتاب السبك الفريد: سنده صحيح (٢/ ٥٤)، وقد روي مرفوعًا ولم يصح، قال الهيثمي (٥/ ١١٧): رواه الطبراني برقم (١٠٩٨٠) وفيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم. لعبد الرحمن بن محمد الرازي. ت: سعد محمد الطيب. المكتبة العصرية. صيدا. برقم (١٦٥٣٦) (٩/ ٢٩١٣)، للاستزادة انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٣١٨)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (١٤٢).

عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾[١])[٢].

ويدخل في علم النجوم المذموم والخرافات الباطلة ما يروجه هؤلاء الفلكيون من المنجمين في بعض الصحف والمجلات من ذكر الطوالع، والبخت، والنحوس، والسُّعود، ويعلقون ذلك بحسابات البروج، والنجوم ويصدقهم في ذلك بعض السذج[٣]. فالله المستعان.

* * *

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٠٢).

(٢) السبك الفريد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٩٦).

(٣) للاستزادة انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (١٤٢، ١٤٣)، الألوهية في العقائد الشعبية على ضوء الكتاب والسنة، لعبد السلام البسيوني، دار الإيمان. مصر. الإسكندرية (ط١)، ١٩٩٢م، ص(١٤٦، ١٤٧، ١٤٨).

المسألة السابعة والخمسون
عقدهم لحاهم في الحرب تكبرًا وعجبًا

يورد المؤلف – رحمه الله – هنا إحدى خصال العرب في الجاهلية، وهي عقد لحاهم في الحرب تكبرًا وعجبًا.

والمراد بالعقد: هي نقيض الحلِّ، عَقَدة يعقِدهُ عقدًا وتعقادًا وعقَّده، جمعها عُقد[(١)].

لقد كان العرب في الجاهلية لا يقصون لحاهم، ولا يحلقونها، ولكنهم كانوا يعقدونها من باب الفخر والكبر، وليعتقد من يراهم بأنهم رجال عظماء وأنهم أسياد قومهم.

وقد جاء هدي النبي ﷺ بمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين تبرأ النبي ﷺ من مجموعة من خصال أهل الجاهلية، والتي كان منها عقد اللحية، فقال ﷺ لأحد الصحابة: (يارويفع[(٢)]، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر النّاس أنه من عقد لحيته، أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمدًا بريءٌ منه) [(٣)].

---

(١) لسان العرب (٣/ ٢٩٦).

(٢) هو رويفع بن ثابت بن السكن بن عدي بن حارثة من بني مال بن النجار، نزل مصر، وولاه معاوية على طرابلس سنة ٤٦هـ، توفي ببرقة وهو أمير لها سنة ٥٦هـ. انظر: الإصابة في تميز الصحابة (١/ ٥٠٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٧١٢٠، ١٧١٢١). وصححه الألباني في صحيح الجامع =

قال أحد العلماء في المراد (بمن عقد لحيته): (أي عالجها حتى تنعقد وتتجعد، وقيل: كانوا يعقدونها في الحرب، فأمرهم بإرسالها، فكانوا يفعلون ذلك تكبرًا وعُجبًا (١).

قال الخطابي في عقدها تفسيران: (أحدهما: أنهم كانوا يعقدون لحاهم في الحرب، وذلك من زي العجم، والثاني: معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث)(٢).

وعن ذلك يقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - أيضًا: (كانت اللحية عند العرب لا تقص، ولا تحلق كما أن ذلك هو السنة؛ لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب، منها الافتخار، والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد قومه، أو يعقدها خوفًا من العين؛ لأنها إذا كانت حسنة جميلة ثم

=

برقم (٧٩١٠)، ص(١٢٠٢) بمثله، وأخرجه أبو داود في سننه في كتاب الطهارة باب ما ينهى عن أن يستنجى به برقم (٣٦)، ص(١٢٢٥) بمثله، وأخرجه النسائي في كتاب الزينة باب عقد اللحية برقم (٥٠٦٧) ص(٨/ ١٣٥) بمثله. موسوعة الحديث الشريف. وقال الشيخ ابن جبرين حفظه الله في حاشية شرحه لكتاب السبك الفريد (١/ ١٩١): روى هذا الحديث الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بأسانيد متعددة يقوي بعضها بعضًا. وقال الألباني: صحيح.

(١) عون المعبود (٣٠).

(٢) غريب الحديث للخطابي. (١/ ٤٢٢). للاستزادة انظر: شرح السنة للبغوي (١١/ ٢٨)، المجموع للنووي. دار الفكر. بيروت، ١٩٩٧م (١/ ٣٥٩)، فتح الباري (١٠/ ٣٥١)، شرح السيوطي لسنن النسائي. ت: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات حلب (ط٢)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. في كتاب الزينة (٨/ ١٣٦)، السبك الفريد (١/ ١٩٢).

عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك، فإن الرسول ﷺ بريء منه)[١].

وعلى هذا فنهى النبي ﷺ عن عقد اللحية تحريمًا للكبر، ولمنع التشبه بالأعاجم، فقد قال ﷺ محذرًا من التشبه: «من تشبه بقومٍ فهو منهم»[٢].

*   *   *

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ١٨٥)، : للاستزادة انظر :آداب الشرعية والمنح المرعية (٦٤٠).

(٢) سبق تخريجه (٣٠٤).

المسألة الثامنة والخمسون
تقليد الأوتار وغيرها دفعًا للعين ونحوها

يبين المؤلف – رحمه الله – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين، والتي اشتملت على أحد معتقداتهم الشركية، وذلك بتقليد رقابهم، أو رقاب دوابهم بالأوتار، اعتقادًا منهم أنها تنفع، أو تحمي من الشرور والآفات.

والأوتار ههنا أوتار القِسِيِّ، مفردها (وَتَرُ) وهو وتر القوس[(١)].

«والوتر» بفتحتين، أحد أوتار القوس، حيث كان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب، اعتقادًا منهم أنه يدفع عن الدابة العين[(٢)].

والوتر: نوع من الخيوط العصبية، تؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وترًا، ويستعملونها في أعناق إبلهم، أو خيلهم، أو في أعناقهم زعمًا منهم أنها تبعد العين، وهذا من الشرك[(٣)].

وقد أمر النبي ﷺ بمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين نهاهم عن هذه القلائد، وأمر بقطعها، فعن أبي بشير الأنصاري[(٤)] – رضي الله عنه

---

(١) انظر. لسان العرب (٥/ ٢٧٥)، مختار الصحاح (٦٢٨).

(٢) فتح المجيد (١٢٢).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) هو: قيس بن عبيد الأنصاري أبو بشير المازني، اشتهر بكنيته، شهد أحداً وهو غلام، وشهد =

- «أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت».

قال مالك: أرى ذلك من العين(١).

وقال الإمام البغوي عن تأويل مالك للحديث: (تأول مالك بن أنس أمره ﷺ بقطع القلائد على أنه من أجل العين، وذلك أنهم كانوا يشدون بتلك الأوتار والقلائد، التمائم، ويعلقون عليها العُوذ، يظنون أنها تعصم من الآفات، فنهاهم النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئًا)(٢).

كما قال ابن الأثير(٣): (لأنهم كانوا يزعمون أن التقليد بالأوتار يرد العين، ويدفع عنهم المكاره)(٤).

وقال ابن قيم الجوزية – رحمه الله – عن ذلك (نهي النبي ﷺ عن تقليد

=

الخندق. توفي سنة (٤٠هـ). انظر: الإصابة (٣/ ٢٤٥) (٤/ ٢١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد، باب: ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل برقم (٣٠٠٥)، ص(٢٤١) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير برقم (٥٥٤٩)، ص(١٠٥٦) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) شرح السنة للبغوي (١١/ ٢٧).

(٣) أبو السعادات مبارك بن محمد بن مجد الدين الجزري المشهور بابن الأثير من أشهر العلماء ذكر وأكبر النبلاء قدرًا ولد سنة (٥٤٤هـ). من مصنفاته النهاية في غريب الحديث وجامع الأصول. توفي (٦٠٦هـ). انظر: أبجد العلوم. (٣/ ١٢)، كشف الظنون. (١/ ١٨٢).

(٤) النهاية في غريب الحديث. لابن الأثير. ت: طاهر أحمد الزاووي، ومحمود الطناحي. دار الكتب العلمية. بيروت، ١٣٩٩هـ (٥/ ١٤٨).

الأوتار من أجل العين كما كانت أهل الجاهلية تفعل، وكذلك عن تعليق الخرز، والعظام، والتمائم لأن ذلك كله من عمل الجاهلية)(١).

وعلى هذا فتعليق هذه القلائد والأوتار من أجل دفع العين والعصمة من الآفات نوعٌ من الشرك، فمن تعلق بشيء وكل إليه، قال ﷺ محذرًا من التعلق بغير الله: «من تعلَّق شيئًا وكل إليه»(٢). قال أحد العلماء في المراد بالحديث: (أي: من علق شيئًا من التمائم أو التعاويذ وأشباهها، معتقدًا أنها تجلب إليه نفعًا، أو تدفع عنه ضرًا، خلي إلى ذلك الشيء وترك بينه وبينه)(٣).

وقال أخر: (والمراد من قوله «وكل إليه» أي تركه إلى ما تعلق به، فلا حفظه الله، ولا كلأه، بل تركه إلى ما وثق به، واعتمد عليه دون الله - عز وجل -)(٤).

وهذا الحديث يعم التعاليق من القرآن وغيره على الصبيان والدواب، والسيارات والمنازل...

---

(١) الفروسية. لابن قيم الجوزية. ت: مشهور بن حسن بن سلمان. دار الأندلس، حائل. السعودية، (ط١)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص(١٣٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٨٩٨٨)، ص(١٣٥١)، وأخرجه الترمذي في كتاب الطب، باب كراهية التعليق برقم (٢٠٧٢)، ص(١٨٥٩). قال الترمذي وحديث عبد الله بن عكيم أنما نعرفه من حديث ابن أبي ليلى. موسوعة الحديث الشريف. صححه الحاكم (٤/ ٢١٦)، وقال الألباني: حسن، قال شعيب: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

(٣) تحفة الأحوذي (٢/ ١٧٠٧).

(٤) معارج القبول (٢/ ٤٩٩).

يقول الشيخ عبد الله بن جبرين – حفظه الله – عن حكم التعلق بغير الله في مثل هذه الخصلة: (ويعم تعلق القلب بها والاعتماد عليها، واعتقاد أنها تحرس وتقي صاحبها من العين والحسد، والجان، والعاهات، والبلايا، والمصائب، فمن فعل ذلك وكله الله إليها، ومن وكله الله إلى مخلوق فقد وكله إلى ضيعة، وخسارة، ولن تغني عنه تلك التعاليق شيئًا، وبذلك يكون قد صرف هذا التعليق والتعظيم لمخلوق فيكون شركًا، ومن تعلق شيئًا وكل إليه)[١].

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله – عن سبب دخول هذه الخصلة تحت الشرك: (لأن من اعتقد في شيء أنه سبب، ولم يكن سببًا شرعيًا، ولا عاديًا؛ فإنه مشرك حيث اعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا)[٢].

وقد تبين الوعيد الشديد لمن تقلد وترًا حين تبرأ النبي ﷺ ممن قام بمثل هذه الخصلة، كما في قوله – عليه الصلاة والسلام –: «يا رويفع لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته، أو تقلد وترًا... فإن محمدًا بريء منه».

فيظهر في هذا الحديث الوعيد الشديد على من علق وترًا وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وترًا، بل ظاهره: أنه كفر مخرج من الملة قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ

---

(١) السبك الفريد (١/ ١٨٦، ١٩٢، ١٩٣).

(٢) القول المفيد (١/ ١٨٩).

ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[1] لكن قال أهل العلم: إن المراد بالبراءة هنا براءة من هذا الفعل[2]. والله أعلم.

ولا زالت هذه الخصلة الجاهلية ظاهرة وموجودة حتى زمننا هذا، وتتمثل فيما يلبسه بعض الجهلاء من العامة وغيرهم مما يسمى بالعين الزرقاء، وهي على هيئة عين زرقاء؛ أو الخيوط السوداء، أو بتعليق الأصداف ونحوها على الأيدي والرقاب، وأحيانًا في البيوت أو على الدواب، اعتقادًا منهم أنها تدفع العين، وتدفع الأرواح الشريرة... جهلاً منهم في الوعيد الشديد المترتب عليها في حال اعتمادهم عليها وتعلقهم بها والاعتقاد بنفعها أو ضرها.

* * *

(١) سورة التوبة، الآية: (٣).

(٢) القول المفيد (١/ ١٨٩، ١٩٠).

المسألة التاسعة والخمسون
تحريم بعض أنواع السمك كالجري[1] كما تفعله اليهود

يذكر المؤلف - رحمه الله - إحدى خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود وهو تحريمهم لسمك الجِرِّيّ، وقد وافقتهم الرافضة في هذه الخصلة الجاهلية.

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عن أن هذه الخصلة من خصال اليهود: (والجِرِّيَّ لا تأكله اليهود) وفي رواية: (إنما تحرمه اليهود)[2].

قال الإمام ابن بطة[3] العكبري - رحمه الله - عن هذه الخصلة: (إن الروافض تشبهت باليهود في تحريم ما أحل الله، وردوا على الله - عز وجل - قوله، وافتروا عليه البهتان، وحرموا الجِرِّيَّ من السمك)[4].

وقال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (واليهود يحرمون الجِرِّيّ، والمرماهي، وكذلك الرافضة)[5].

---

(١) هو ضرب من السمك يشبه الحية، ويسمى بالفارسية (مارماهي)، وقيل هو سمك لا قشر له، عريض الوسط، دقيق الطرفين. انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الشنقيطي (١/ ١٦١، ١٦٢)، ولسان العرب (٤/ ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الذبائح والصيد باب (أحل لكم صيد البحر وطعامه) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنه، ص(٤٧٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) الإمام الكبير الحافظ ابن بطة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري الفقيه الحنبلي. توفي وله ٨٣ سنة، كان أحد المحدثين الزهاد، من مصنفاته الإبانة في أصول الديانة. ولد سنة ٣٠٤هـ وتوفي سنة ٣٨٧هـ. انظر: شذرات الذهب (٣/ ١٢٢)، الوافي بالوفيات (١٩/ ٢٧١).

(٤) الشرح والإبانة. (٣٢١).

(٥) منهاج السنة (١/ ٦، ٨)، للاستزادة انظر: : تلبيس إبليس. لابن الجوزي (١٢١).

وقد أبطل الله - عز وجل - هذه الخصلة الجاهلية في محكم كتابه بقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ ﴾(١).

قال الطبري في تفسير الآية: «أي أحل لكم صيد البحر من السمك، و(طعامه) أي ما قَذَفَ»(٢).

وقال ابن العربي أيضًا: «قيل المراد بصيد البحر السمك الجرِّي»(٣).

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «أي ما أخذ منه حيًا وما لفظه ميتًا»(٤).

كما قال تعالى في إبطال هذه الخصلة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾(٥).

قال ابن كثير في تفسيرها: «أي سخر لهم البحر، وجعل السمك والحيتان فيه، وإحلالهُ لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام»(٦).

وقد خالف هدي النبي ﷺ، هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على حلّ ميتة البحر عامة دون استثناء شيء منه فقال ﷺ عن ذلك: «الطهور ماؤه الحل ميتته»(٧).

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٩٦).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٩٦).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ١٤٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٢).

(٥) سورة النحل، الآية: (١٤).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٥).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٧٢٠) بمثله، وبرقم (٧٢٣٢) بنحوه، وبرقم (٩٠٨٨) بمثله، وبرقم (٢٣٤٨٤) بمثله ص(٥٢١، ٦١٦، ٦٣٩، ١٦٩٩)، وأخرجه النسائي في السنن =

قال بعض أهل العلم والمراد بهذا الحديث: أي أن جميع حيوانات البحر أي ما لا يعيش إلا بالبحر حلال [١].

وقد ذكر العلماء فوائد كثيرة لسمك الجرِّيِّ على الجسم، كتصفية قصبة الرئة، وجود الصوت وغيرها[٢]، وهذا يدل على عظيم نعم الله تعالى على عباده.

وكما هو معلومٌ بصحيح المنقول وصريح المعقول أن من حرم أمرًا لم ينص الشارع على تحريمه، فهو مفترٍ على الله، وقد توعد الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه كل من سولت له نفسه بتحريم ما أحله الله، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٍ

=

الكبرى في أبواب المياه، باب ذكر ماء البحر والوضوء به برقم (٥٨) (١/ ٧٥)، وفي كتاب الصيد والذبائح. باب ميتة البحر برقم (٤٨٦٢) (٣/ ١٦٣)، وأخرجه في سننه الصغرى كتاب الطهارة، باب ماء البحر برقم (٥٩) (٢٠٩٠)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر برقم (٨٣) ص(١٢٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الطهارة وسننها. باب الوضوء بماء البحر برقم (٣٨٦) وبرقم (٣٨٧) وبرقم (٣٨٨) بمثله، ص(٢٥٠٠)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الطهارة. باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور برقم (٦٩) بمثله، ص(١٦٣٨) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح. موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(١) انظر. عون المعبود (٥٤)، وتحفة الأحوذي (١/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) للاستزادة انظر: الطب النبوي لابن القيم (٢٣٦)، الآداب الشرعية (٥٧٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٩٤).

فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٢)، وقال تعالى محذرًا ومتوعدًا أيضًا: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(٣).

وقد عاب الله اليهود على تحريمهم ما أحل الله لهم ولسائر الخلق قال تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

قال الإمام ابن بطة العكبري عن هؤلاء: (ولعل الأكثر منهم ممن يحرم هذا، ويعيب أكله يزني ويشرب الخمر، ويأخذ أموال الناس ظلمًا، وفي الناس من يستهين لتحريم هذه المآكل، ويستصغره من فعلهم، وهذا عند العلماء من الكبائر العظيمة، والفواحش العظيمة لمبارزة الله، قوله في تحريم ما أحله الله، وتضييق ما وسعه الله، وحظر ما أطلقه)(٥).

---

(١) سورة يونس، الآية: (٥٩).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٨٧).

(٣) سورة النحل، الآية: (١١٦).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٩٣).

(٥) الشرح والإبانة (٣١٩، ٣٢٠).

المسألة الستون

التحليل والتحريم بمجرد الرأي فنهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[(١)] الآية

يذكر المؤلف - رحمه الله - هنا أحد خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين على السواء، وهي التحليل والتحريم بمجرد الرأي.

والرأي في اللغة: الاعتقاد، وجمعه آراءٌ، ويقال فينا رجلٌ له رأيٌ، وفلان من أهل الرأي، والمحدثون يسمون أصحاب القياس أصحاب الرأي، يعنون أنهم يأخذون بآرائهم فيما يُشكلُ من الحديث، أو مالم يأت فيه حديث ولا أثرٌ.

ويقال فلان يتراءى برأي فلان: إذا كان يرى رأيه، ويميل إليه، ويقتدي به[(٢)].

والرأي اصطلاحًا: هو ما يراه القلب بعد فكر وتأمل، وطلبٍ لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات[(٣)].

والرأي على ثلاثة أنواع، فمنه ما هو: رأي صحيح موافقٌ لما شهدت له النصوص، ورأي هو موضع الاشتباه، ذلك لأن دلالة النصوص على مثله ضعيفة، ورأي باطل؛ لأنه لا برهان له من الله ورسوله، فهو رأي مذموم.

---

(١) سورة النحل، الآية: (١١٦).

(٢) انظر. لسان العرب (١٤/ ٣٠٠)، القاموس المحيط (٤/ ٣٣٣).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٦٦).

وقد ذكر ذلك الإمام ابن قيم الجوزية فقال عنه: (الرأي ثلاثة أقسام رأي باطل بلا ريب، وهو مذموم، وهو القول على الله بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه، وصفاته، وأفعاله وفي دينه وشرعه، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾[١]، ورأي صحيح استعمله السلف، وعملوا به وأفتوا به، ورأي هو موضع الاشتباه، سوغ السلف العمل والفتيا به عند الاضطرار إليه)[٢].

والرأي المراد في هذه المسألة هو الرأي الباطل الذموم.

قال الإمام ابن عبد البر[٣] عن هذا الرأي: (هو القياس على غير أصل، والكلام في الدين بالتخرص والظن، والقول في أحكام شرائع الدّين بالاستحسان والظنون، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات، ورد الفروع والنوازل بعضها على بعض قياسًا دون ردها على أصولها، والنظر في عللها واعتبارها)[٤].

---

(١) سورة النحل، الآية: (١١٦).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٨، ٦٦، ٦٧).

(٣) هو: العلامة أبو عمر بن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، أحد الأعلام، وصاحب التصانيف. توفي سنة ٤٦٣هـ، كان إمام عصره ثقة عُرف عنه التبصر في الفقه والعربية والأخبار، له كتاب التمهيد، والاستذكار، وجامع بيان العلم وفضله. انظر: شذرات الذهب (٣/ ٣١٤)، مرآة الجنان (٣/ ٨٩).

(٤) جامع بيان العلم وفضله. لابن عبد البر. ت: أبو الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي – الدمام، (ط٦)، ١٤٢٤هـ (٢/ ١٠٥٤).

وقال آخر: (الرأي المذموم هو رأي مجرد لا دليل عليه من كتاب، ولا سنة، ولا قياس جلي؛ بل هو خرص، وتخمين، وهذا الرأي الذي ورد التحذير منه، والتنفير عنه)(١).

وقد استدل المؤلف - رحمه الله - على ذم هذه الخصلة الجاهلية القائمة على الرأي المذموم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

قال الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (لا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب فيما رزق الله عباده من المطاعم هذا حلال، وهذا حرام، كي تفتروا على الله بقولكم ذلك الكذب، فإن الله لم يحرم من ذلك ما تحرمون، ولا أحلّ كثيرًا مما تحلون، فالحرام من كل شيء ما حرمه الله تعالى ورسوله بنص، أو دليل، والحلال منه ما حلله الله ورسوله كذلك)(٢).

وقال ابن العربي في معنى الآية: (لا تصفوا الأعيان بأنها حلال، أو حرام من قبل أنفسكم، إنما المحرّم، والمحلل هو الله سبحانه. وهذا رد على اليهود الذين كانوا يقولون: إن الميتة حلال، وعلى العرب الذي كانوا يقولون: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ومحرم على أزواجنا،

---

(١) لوامع الأنوار البهية. السفاريني (١/ ٨).
(٢) تفسير الطبري (٥/ ٩٣)، (٧/ ٦٥٨).

افتراء على الله بضلالهم)[١].

وقال القرطبي - رحمه الله - أيضًا في تفسيره لهذه الآية: (الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر[٢]، والسوائب[٣]، وأحلوا ما في بطون الأنعام، وإن كان ميتة، فقوله: ﴿ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام، وكل ما أحلوه، وقوله: ﴿ وَهَـٰذَا حَرَامٌ ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب، وكل ما حرموه)[٤].

وقد وردت نصوص كثيرة تذكر هذه الخصلة الجاهلية في سياق الذم، مما يدل على بطلانها، وعلى دعوة الشارع عز وجل لمخالفة أهل الجاهلية هذه الخصلة، قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٨).

(٢) البحائر مفردها بحيرة، وهي الناقة تلد خمسة أبطن، فإن كان الخامس أنثى شقوا أذنها، وحرمت على النساء. للاستزادة انظر: تفسير الطبري (٥/ ٩٠)، تلبيس إبليس (٨١).

(٣) السوائب: مفردها سائبة من الأنعام، كانوا في الجاهلية يسيبونها، ولا يركبون لها ظهرًا، ولا يحلبون لها لبنًا. للاستزادة انظر: تفسير الطبري (٥/ ٩٠)، تلبيس إبليس (٨١).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٣).

(٥) سورة المائدة، الآية: (١٠٣).

(٦) سورة الأنعام، الآية: (١٣٨).

ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾[(٢)]، لهذا قال تعالى معاتبًا المؤمنين على تحريمهم طيبات أحلت لهم بقصد الانقطاع عن الدنيا لله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[(٣)]، كما عاتب نبيه محمدًا ﷺ حين حرم على نفسه ما أحل الله له، بقصد إرضاء، أزواجه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾[(٤)].

وقد ذم النبي ﷺ الرأي المجرد، وحذر أمته من التحليل والتحريم بمجرد الرأي، فقال عليه الصلاة والسلام عن ذلك: «إن الله عز وجل لا ينـزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهم انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهّال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلُّون ويُضلُّون»[(٥)]. وقال ﷺ حين أجاب على من سـأله عن السمن والجبن

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٤٠).
(٢) سورة يونس، الآية: (٥٩).
(٣) سورة المائدة، الآية: (٨٧).
(٤) سورة التحريم، الآية: (١).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم برقم (١٠٠)، ص(١١) وفي كتاب الاعتصام، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القيـاس بـرقم (٧٣٠٧)، ص(٦٠٩) =

والفراء فقال - عليه السلام -: «الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه» (١).

قال ابن حجر - رحمه الله - في بيان المراد بالرأي المذموم: (الرأي المذموم هو الذي لا يستند إلى أصل من الكتاب أو السنة أو الإجماع، وكان معارضًا للنص)(٢).

وقال آخر: (إن الحلال والحرام قد جاء من عند الله إما مبينًا، وأما مجملاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٣)) (٤).

وعلى هذا عُلم أن أساس كل شر وأصله، بتقديم الرأي والهوى على النص والشرع، لهذا ورد الذم لهذه الخصلة عن السلف بالتواتر.

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في ذم الرأي في الدين: (اتقوا

=

وكلاهما بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب العلم. باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان برقم (٦٧٩٦، ٦٧٩٩) بنحوه، ص(١١٤٣). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب اللباس. باب ما جاء في لبس الفراء برقم (١٧٢٦)، ص(١٨٢٨) بمثله، قال الترمذي هذا الحديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن برقم (٣٣٦٧) بمثله، ص(٢٦٨٠). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٨٨).

(٣) سورة الحشر، الآية: (٧).

(٤) تحفة الأحوذي (٢/ ١٥١٥).

الرأي في دينكم)[١].

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: (لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه)[٢].

وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: (من أحدث رأيًا ليس في كتاب الله، ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، لم يدر على ما هو منه إذا لقي الله - عز وجل -)[٣].

وقال أحد أئمة العلم عن ذلك: (وليعلمَ أن من قال في دين الله برأيه، وقياسه، وتأويله من غير صحة من السنة، والجماعة، فقد قال على الله ما لا يعلم، ومن قال على الله ما لا يعلم فهو من المتكلفين)[٤].

وقال الإمام ابن بطة العكبري: (لا تحرم شيئًا مما أحله الله عز وجل، فإن فاعل ذلك مفتر على الله، راد لقوله، معتد ظالم)[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أيضًا: (ومعلوم وجوب تقديم النص على الرأي، والشرع على الهوى، فأصل الشر من تقديم الرأي على النص، والهوى على الشرع، فليس لأحدٍ معارضة النص برأيه وهواه)[٦].

---

(١) جامع العلم وفضله (٢/ ١٠٤١).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٥٨).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٥٨).

(٤) شرح السنة للبربهاري (٩٧).

(٥) الشرح والإبانة (٣١٨).

(٦) منهاج السنة (٤/ ٢٥٠).

لهذا فقد ورد الإجماع بتحريم هذه الخصلة.

فقيل: (لقد أجمع العلماء، واتفقوا على أنه لا يحل لأحد أن يُحلل، ولا أن يُحرم، ولا أن يوجب حكمًا بغير دليل من قرآن، أو سنة، أو إجماع، أو نظر مراده استصحاب الحال المجتمع عليها، ومفهوم اللفظ الوارد في نص القرآن والسنة)[١].

وكما وجدت هذه الخصلة عند أهل الجاهلية الأميين، أيضًا وجدت عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى. فقد عاب الله - عز وجل - على اليهود تحريمهم لحم الجزور التي أحلها الله لهم ولسائر الخلق، وتحريمهم الجري من السمك، فقال تعالى في ذم اليهود: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٢]، ثم قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٣]. وهناك من اقتفى أثر اليهود في هذه الخصلة، وهم الروافض، يقول الإمام ابن بطة عن هؤلاء: (وقد تشبهت الروافض باليهود في تحريم سمك الجري، ولحم الجزور)[٤].

وقد عاب الله تعالى أيضًا النصارى الذين يحرمون ويحلون بآراء

---

(١) مراتب الإجماع لابن حزم (٢٧١).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (٩٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٩٤).

(٤) الشرح والإبانة للعكبري (٣١٩).

الرهبان، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه...»[٢] ومما استحله النصارى بالرأي شرب الخمور[٣]، وأكل لحم الخنـزير، وقد وافقت الروافض النصارى في هذا الاستحلال مخالفين في ذلك صحيح المنقول، وصريح المعقول.

وممن خالفوا الشرع أيضًا باستباحتهم لهذه الخصلة الصوفية، وذلك حين أباحوا سماع الغناء زعمًا منهم أن به تحصل المجاهدة، وإحياء القلوب، كذلك حين أباحوا النظر إلى المحرمات من النساء والمردان، بحجة التفكر في مخلوقات الله[٤].

* * *

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٢) سبق تخريجه ص(١٥٢).

(٣) للاستزادة: هداية الحيارى، ص(١٥).

(٤) للاستزادة انظر: تلبيس إبليس (٣٠٥)، مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٣٩٨ – ٤٠٢)، (٥٩٦ – ٥٩٧).

المسألة الحادية والستون
المشي تكبرًا
المسألة الثانية والستون
إرخاء الإزار كذلك في قصة الذي خسف به

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هاتين المسألتين خصلتين من خصال أهل الجاهلية عند الأميين والكتابيين على السواء، وهي المشي تكبرًا، وإطالة الثوب تكبرًا.

فالتكبر في اللغة: من الكِبر بالكسر، والكبرياء هي العظمة والتجبر، يقال تكبَّر، واستكبر، وتَكابرَ، والتكُّبر والاستِكبار: التَّعظّم، ومعنى يتكبر أي يرى أنه أفضل الخلق، وأن له من الحق ما ليس لغيره، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة، فهو المستحق أن يقال له المتكبر، لما له من القدرة والفضل الذي ليس لأحدٍ مثله[1].

والكبر في الاصطلاح: هو استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير[2].

فالمشي تكبرًا وإطالة الثوب تكبرًا، من أفعال الكبر، ومن خصال الجاهلية التي خالف الشارع فيهما أهل الجاهلية، وذلك بذمها، والنهي

---

(١) لسان العرب (٥/ ١٣٠).

(٢) إحياء علوم الدين: لأبي حامد الغزالي، ت. محمد محمد ناصر. دار الآفاق العربية القاهرة، (ط١)، ٢٠٠٤م، (٣/ ٤٤٩) بتصرف.

عنهما، وبيان الوعيد المترتب على من فعلها لهذا دعا الشارع - عز وجل - عباده المؤمنين إلى مخالفة أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين حين حثهم على التواضع، وحسن الخلق في جميع الأحوال، فمما ورد في ذم المشي تكبرًا، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[1] قال الطبري في تفسير الآية: (لا تمشي في الأرض مختالاً مستكبرًا)[2].

وقال ابن كثير في تفسيرها: (يقول تعالى ناهيًا عباده عن التجبر والتبختر في المشية، والتبختر هو التمايل في المشية)[3].

وقال تعالى في النهي عن المشي تكبرًا: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[4].

قال الطبري - رحمه الله - أيضًا في تفسيرها: (أي لا تمش في الأرض مختالاً، متكبرًا، فإن الله لا يحب كل متكبر)[5].

وقال ابن كثير - رحمه الله - أيضًا في تفسيرها: (أي مختالاً معجبًا في نفسه و﴿ فَخُورٍ﴾ أي على غيره، فلا تفعل ذلك يبغضك الله)[6].

وقال القرطبي - رحمه الله - في المراد بقوله تعالى: ﴿ مَرَحًا ﴾: (أي

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٣٧).
(٢) تفسير الطبري (٨/ ٨١).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١).
(٤) سورة لقمان، الآية: (١٨).
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٢١٦).
(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٧).

متبخترًا متكبرًا)[١].

وقال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - في المراد بقوله: (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي المختال في هيئته، وذلك في مظهره وفي مشيته، والله لا يحب هذا، إنما يحب المتواضع الغني الخفي التقي)[٢].

وقد ضرب الله تعالى قصة اختيال قارون[٣] مثلاً في بيان عاقبة من تمثل بمثل هذه الخصال، ليكون عبرةً للمتكبرين مثله، وذلك حين خرج على قومه في زينته، وفخره فقال تعالى في ذمه: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[٤]. قال المفسرون في المراد بقوله: ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾، أي تجاوز حده في الكبر، وقيل: كان بغيه عليهم بزيادة شبر أخذها في طول ثيابه[٥].

ثم بيّن تعالى عقوبة تكبره حين قال تعالى عنه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾[٦].

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٦٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٢٧).

(٣) قارون بن يصهب بن قاهث بن عمران بن قاهث، كان ابن عم موسى عليه السلام، كان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٠).

(٤) سورة القصص، الآية: (٧٦).

(٥) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ١٠٠)، تفسير القرطبي (١٣/ ٢٧٥).

(٦) سورة القصص، الآية: (٨١).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض)(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ القولي والفعلي أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين. فمخالفته القولية تمثلت فيما نقل عنه في ذم هاتين الخصلتين، وتحذير أمته من الاتصاف بهما، وبيان عقوبة من اتصف بهذه الصفات المذمومة.

فقال ﷺ محذرًا: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»(٢). قال أحد العلماء: والمراد بقوله: (الخيلاء): والخيلاء والكبر كلاهما بمعنىً واحد، وهو حرام(٣).

كما قال ﷺ محذرًا: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل جمته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»(٤)، وفي رواية: «بينا رجل

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس. باب قوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) برقم (٥٧٨٣) بمثله وفي كتاب فضائل الصحابة برقم (٣٦٦٥) بمثله بزيادة، ص(٢٩٨، ٤٩٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب برقم (٥٤٥٣). بمثله، ص(١٠٥١). موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم (٢٤٣٥) بمثله. وزيادة في أخره (٧/ ١٣٥٩).

(٣) المنهاج للنووي (١٥٧٩).

(٤) أخرجها البخاري في كتاب اللباس. باب من جر ثوبه خيلاء برقم (٥٧٨٩، ٥٧٩٠) بمثله، =

يجر إزاره، خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[(١)]. يقول أحد العلماء والمراد بالتجلجل: (هو التحرك والنزول مضطربًا إلى داخل الأرض، وهنا مخبرًا النبي ﷺ عن رجل قبل هذه الأمة من بني إسرائيل)[(٢)].

كما قال ﷺ محذرًا: «من جر ثوبه مخيلة لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[(٣)].

قال العلماء فيما يستنبط من هذه الأحاديث السابقة: فعلى هذا: يستنبط من هذه الأحاديث أن البطر والتبختر مذمومان[(٤)].

وقد دعا الشارع - عز وجل - عباده المؤمنين إلى التواضع والقصد في المشي، وبهذا امتدحهم فقال تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾[(٥)]. قال

= ص(٤٩٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه برقم (٥٤٦٥، ٥٤٦٧، ٥٤٦٨، ٥٤٦٩) بنحوه، ص(١٠٥١، ١٠٥٢) موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه الأصبهاني في الحجة برقم (٧٢) بنحوه وزيادة في آخره وأوله (٢/ ١٢٦).

(١) السابق.

(٢) المنهاج للنووي (١٥١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس. باب من جر ثوبه من الخيلاء برقم (٥٧٩١)، بمثله، ص(٤٩٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس والزينة. باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه وما يستحب (٥٤٥٧، ٥٤٥٨، ٥٤٥٩، ٥٤٦٠) بمثله وبرقم (٥٤٥٥، ٥٤٥٦، ٥٤٦١، ٥٤٦٢، ٥٤٦٣) بنحوه، ص(١٠٥١). موسوعة الحديث الشريف. وأخرجه الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة برقم (٤٨٩) بمثله وزيادة في آخره (٢/ ٤٩٩) في بيان أن الله لا ينظر إلى مسبل إزاره بطرًا.

(٤) انظر. أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٤)، فتح الباري (١٠/ ٢٥٩).

(٥) سورة لقمان، الآية: (١٩).

المفسرون في تفسير الآية: أي أن يمشي المرء مشيًا مقتصدًا متوسطًا بين العلو، والتقصير، فليس بالبطي المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطًا بين بين [١].

وقال تعالى ممتدحًا عباده المؤمنين لتواضعهم وقصدهم في مشيتهم، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[٢] قال الطبري - رحمه الله - في بيان المراد بالقصد: (أي بحلمٍ وسكينةٍ ووقار غير مستكبرين، ولا متجبرين)[٣].

وقال ابن كثير - رحمه الله - في بيان القصد: (أي يمشون من دون استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر) [٤].

وقد خالف النبي ﷺ في هديه الفعلي أهل الجاهلية، فقد عُرف عنه التواضع في المشي، فكان من هديه عليه السلام أثناء مشيه أنه إذا زال زال تقلعًا، ويخطو تكفؤًا[٥]، ويمشي هونًا[٦]، ذريع[٧] المشية إذا مشى، كأنما ينحط من صَبَبٍ، فقد كان يرفع رجله بسرعة، ويمد خطوه خلاف مشية

---

(١) انظر.تفسير النسفي (٣/ ٢٨٢)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٧).
(٢) سورة الفرقان، الآية: (٦٣).
(٣) تفسير الطبري (٩/ ٤٠٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٥).
(٥) التكفؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده.
(٦) الهون هو الرفق والوقار.
(٧) ذريع المشي: أي واسع الخطأ.

المختال، ويقصد سمته، وكل ذلك برفق وتثبت بدون عجلة[(١)].

وقد بيّن عليه الصلاة والسلام لصحابته الحد الذي يجوز إرخاءُ الإزار إليه، فقال عليه السلام مخاطبًا ابن عمر حين رأى أن إزاره فيه استراخاء: «يا عبد الله ارفع إزارك»، فرفعه ثم قال: «زد فـزدت، فما زلت أتحـراها بعد، فقال بعـض القوم: إلى أين؟ فقال: أنصاف الساقين»[(٢)].

ثم بيّن في موضع آخر شدة عقوبة من تجاوز طول إزاره عن الكعبين، فقال عليه السلام: «ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار»[(٣)]، ذلك لأن الإسبال ذريعة قد تدفع العبد إلى الخيلاء دون قصد.

قال ابن حجر - رحمه الله - عن ذلك: (إن إسبال الثوب يستلزم جر الثوب، وجره يستلزم الخيلاء، ولو لم يقصد اللابس الخيلاء)[(٤)].

وقد دعا النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى التجمل بالثياب الحسنة من غير كبر، فقال - عليه السلام -: «لا يدخل النار مثقال ذرة من الإيمان، ولا يدخل الجنة مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا، فقال عليه السلام: «إن الله جميل يحب الجمال،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس. باب تحريم جر الثوب خيلاء، وبيان حد ما يجـوز إرخاؤه إليه وما يستحب برقم (٥٤٦٢) بمثله ص(١٠٥١). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب ما أسفل من الكعبين في النار برقم (٥٧٨٧) بمثله، ص(٤٩٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٦٤).

ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس»[١]. قال العلماء في شرح الحديث: أي رد الحق وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، واحتقار الناس[٢].

كما وقد ذكر العلماء أيضًا بأن الكبر والخيلاء والعجب بالنفس كبيرةٌ من كبائر الذنوب[٣].

وقد ورد عن السلف - رحمهم الله - ذمهم لخصال الكبر هذه[٤].

فقد روي أن ابن عمر - رضي الله عنه - رأى رجلاً يجر إزاره فقال: (إن للشيطان إخوانًا، كررها مرتين أو ثلاثًا)[٥]. ويروى أن مطرف[٦] بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبي صفرة[٧] وهو يتبختر في جبة خز،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر وبيانه برقم (٢٦٥)، بمثله، ص(٦٩٤)، موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم (١٦١١) بمثله (٣/ ٩٧٠).

(٢) انظر. المنهاج (١٨٨)، شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٢٧).

(٣) انظر. الكبائر للذهبي (٤٣)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٩٧).

(٤) ويستثنى من هذه الخصلة التبختر في المشي في الحرب، لورد نصٍ بجواز هذه المشية في الحرب فقط، لأن فيها إظهارًا للقوة والشجاعة وفراغ القلب من العدو. انظر: الآداب الشرعية (٢٦٣).

(٥) إحياء علوم الدين. للغزالي (٣/ ٤٤٤).

(٦) هو: مطرف بن عبد الله بن الشخير البصري من كبار التابعين، كان فقيهًا عابدًا مجاب الدعوة، ت(٩٥هـ).
انظر: العبر في خبر من غبر (١/ ١١٣)، البداية والنهاية (٩/ ٧٠).

(٧) هو المهلب بن أبي صفرة، يكنى أبا سعيد، تولى ولاية خراسان، كان جوادًا شجاعًا، صاحب حروب وفتوح ت(٨٢هـ). انظر: تاريخ الطبري. للطبري. دار الكتب العلمية. بيروت (٣/ ٦٣٣)، المنتظم. لابن الجوزي. دار صادر. بيروت، (ط١)، ١٣٥٨هـ، (٦/ ٤٢)، شذرات =

فقال: (يا عبد الله، هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أوّلك نطفة مذرة، وآخرتك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته تلك)[١].

وروي أن عمر بن عبد العزيز[٢] حج قبل أن يستخلف، فنظر إليه طاووس[٣] وهو يختال في مشيته، فغمز جنبه بأصبعه ثم قال: (ليست هذه مشية من في بطنه خراء؟)[٤].

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: (إن أهل السنة ينهون عن الخيلاء، فلا يتخايل العبد في مشيته، وفي وجهه وفي رفع رأسه، ورقبته إذا مشى، ويقولون: إنه لابد للعبد أن يكون متواضعًا في القول والفعل)[٥].

=

الذهب (١/ ٩٠).

(١) انظر. أدب الدنيا والدين. للماوردي (٢٠٢)، إحياء علوم الدين (٣/ ٤٤٤).

(٢) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي، إمام عادل، كان أمير للمؤمنين، وخامس الخلفاء الراشدين، تولى الخلافة لمدة سنتين وخمسة أشهر، حفظ القرآن في صغره، بعثه والده من مصر ليتفقه في المدينة، حتى بلغ درجة الاجتهاد، عُرف عنه الزهد والورع. تاريخ الطبري (٤/ ٦٨)، العبر في خبر من غبر (١/ ١٢٠).

(٣) هو: طاووس بن كيسان اليماني يكنى أبا عبد الرحمن، من التابعين، جالس سبعين من الصحابة، قال عنه عبدالسلام ابن حرب: كان من أعلمهم بالحلال والحرام. انظر: المنتظم (٧/ ١١٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤١)، شذرات الذهب (١/ ١٣٣).

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٤٤٤).

(٥) العقيدة الواسطية (٢/ ٣٦٦).

وبعد فرغم وضوح النصوص في تحريم هاتان الخلصتان إلا أنهما قد ظهرتا وبصورةٍ واضحة لدى البعض من المسلمين هداهم الله في هذا العصر، وما ذلك إلا نتيجةً للترف الذي يعيشه الكثير من الناس في هذا الزمان، ولضعف إيمان الكثير منا... فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

المسألة الثالثة والستون
تفضيل بعض الرسل على بعض بمجرد التشهي

يعني المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه الخصلة بيان ما كان عليه أهل الجاهلية الكتابيون من تفضيل بعض الرسل على بعض بمجرد التشهي والعصبية والفخر، لا بمتقضى أدلة يستدلون بها على تفضيلهم. وهم بهذه الخصلة يظهر مدى تجاهلهم لمعنى التفاضل بين الأنبياء، والذي أثبته الله عز وجل في محكم كتابه.

فقد نص الشارع -عز وجل - على تفضيل بعض الرسل على بعض، وبيّن المراد بهذا التفضيل، فمنهم من فضله بتكليمه، ومنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من بعثه للبشر عامة، وهكذا مخالفًا بذلك أهل الكتاب في هذه الخصلة، فقال تعالى في ذلك: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾(٢).

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (يقول تعالى هؤلاء رُسله فضّل بعضهم على بعض، فكلم موسى تكليمًا، ورفع بعضهم درجات على بعض بالكرامة، ورفعة المنـزلة، واتخذا إبراهيم خليلاً، وجعل عيسى كمثل

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٥٣).
(٢) سورة الإسراء، الآية: (٥٥).

آدم خلقه من تراب، وآتى سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زبورًا، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[١].

وقال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: (إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال، والخصوص، والكرامات، والألطاف، والمعجزات المتباينات)[٢].

كما بيّن ابن كثير - رحمه الله - المراد بالتفضيل الجائز، والمراد بالتفضيل المذموم المنهي عنه، فقال عن المذموم: (هو ما كان بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل.

وقال عن الجائز هو: (ما دل على التفضيل دليل فيجب اتباعه)[٣].

وحين فضل الله بعض الرسل على بعض بيّن الأحوال التي فُضِّلوا بها، فقال عن موسى وعيسى - عليهما السلام - ﴿ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ ﴾[٤]، وقال عن داود - عليه السلام - ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾[٥]. وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣)، (٨/ ٩٤).
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٢٥١).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٥٣).
(٥) سورة الإسراء، الآية: (٥٥).

وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[١]، وغيرها من الآيات الدالة على الأحوال التي فُضل بها الرسل بعضهم على بعض.

كما قد خالف هدي رسول الله هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين نهى عن المفاضلة بين الأنبياء على وجه الحمية، والفخر، والعصبية، وقد تبين ذلك في القصة التي جاء فيها أن مسلمًا لطم رجلاً يهوديًا في عهد النبي ﷺ لأنه حلف بالله الذي بعث موسى على البشر، فأخذت المسلم الحمية فلطمه، وقال له: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فجاء اليهودي إلى الرسول، فاشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي ﷺ: «لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق...»[٢]، وفي رواية أخرى: «لا تخيروني على موسى» [٣]، وفي رواية: «لا تخيروا بين الأنبياء» [٤].

---

(١) سورة الفتح، الآية: (٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود برقم (٢٤١١)، ص(١٨٩). بمثله وفي كتاب أحاديث الأنبياء. باب وفاة موسى وذكره بعد برقم (٣٤٠٨، ٣٤١٤) بمثله، ص(٢٧٨)، وفي كتاب التوحيد باب في المشيئة والإرادة برقم (٧٤٧٢)، ص(٦٢٣) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل. باب فضائل موسى عليه السلام برقم (٦١٥١، ٦١٥٢، ٦١٥٤، ٦١٥٥) بمثله، ص(١٠٩٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الأنبياء. باب فضائل موسى عليه السلام برقم (٦١٥٣)، بمثله، ص(١٠٩٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الأنبياء. باب فضائل موسى عليه السلام برقم (٦١٥٦)، بمثله، ص(١٠٩٥). موسوعة الحديث الشريف.

قال الخطابي - رحمه الله - في شرح هذه الأحاديث: (معنى هذا ترك التخيير بينهم على وجه الازدراء ببعضهم، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم، والإخلال بالواجب من حقوقهم، وبفرض الإيمان بهم، وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم، فإن الله - سبحانه - قد أخبر أنه قد فاضل بينهم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا ﴾[(١)])[(٢)].

وقال بعض أهل العلم أيضًا في بيان الحكمة من نهي النبي ﷺ عن المخايرة بين الأنبياء، ومتى تجوز المخايرة بينهم: (لقد نهى النبي ﷺ عن المخايرة بين الأنبياء، لأنها إذا وقعت بين أهل دينين في مثل هذا المقام الذي يكون فيه الغضب، والسب لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، وإلى هضم حق بعضهم، أو التنقص لهم، أو الافتخار فيفضي إلى الكفر، أما إذا كان التخيير بذكر الواقع المستند إلى مقابلة الفضائل؛ لتحصيل الرجحان، وللعلم به واعتقاده، فلا يدخل في النهي)[(٣)].

وقال الإمام ابن أبي العز[(٤)] في التفضيل المذموم بين الأنبياء: (والمذموم

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٥٣).

(٢) معالم السنن للخطابي (٤/ ٣٠٩)، للاستزادة انظر: المنهاج (١٦٨٩)، عون المعبود (٢٠٢٨).

(٣) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٦)، ولوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٩٨)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري. للشيخ عبد الله محمد الغنيمان. مكتبة لينه للنشر. دمنهور (ط١)، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، (٢/ ٢٧٥).

(٤) هو: الإمام العلامة صدر الدين أبو الحسن علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، ولد عام (٧٣٢هـ) في أسرةٍ ذات نباهة، وعلو شأن في مجال العلم، من مصنفاته: شرح العقيدة الطحاوية، والتنبيه على مشكلات الهداية. توفي رحمه الله عام (٧٩٢هـ) بدمشق. انظر: شذرات
=

من التفضيل بين الأنبياء هو ما كان على وجه الفخر أو الانتقاص بالمفضول)[١].

وهذا النوع من التفضيل هو الحاصل قديمًا وحديثًا لدى أهل الكتاب، فاليهود يدعون أن الشريعة بدأت بموسى - عليه السلام -، وتمت به وبيوشع بعده، فعظموهما على سائر الأنبياء، وعمدوا إلى ذم غيرهما من الأنبياء والانتقاص منهم، وجحد نبوتهم، أما النصارى فقد ظهر في غلوهم في تفضيل عيسى - عليه السلام - حتى جعلوه ابنا لله - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - فقال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[٢][٣].

* * *

=

الذهب (٦/ ٣٢٦)، كشف الظنون (٢/ ١١٤٣).

(١) العقيدة الطحاوية (١٥٨).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٣٠).

(٣) للاستزادة. انظر: جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٢٧٠)، اقتضاء الصراط المستقيم (٤٤٧)، الملل والنحل (٩٥، ١٠٠)، مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد، (٨٣٤ – ٨٣٧).

المسألة الرابعة والستون
السجود لعظمائهم فنهى عنه كما في حديث معاذ وغيره

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة إلى خصلةٍ من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين على حد سواء، والتي تُعد نوعًا من أنواع الشرك بالله تعالى في الأفعال، وهو السجود لغير الله تعالى، فقد كان أهل الجاهلية يسجدون لعظمائهم من باب التعظيم والإجلال لهم.

علمًا أن السجود للعظماء في الشرائع السابقة كان مباحًا؛ لأنه كان علامةً على السلام، والتواضع، والاحترام، فحرم في ديننا الإسلامي، وجعل السجود عبادةً خاصة لله وحده، يحرم صرفها لغير الله تعالى.

ومما يدل على جوازها في الشرائع السابقة، سجود إخوة يوسف – عليه السلام – وأبويه له حين دخلوا عليه، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾[١].

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (قد كان سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى – عليه السلام –، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى)[٢].

كما أنه كان مباحًا عند أهل الكتاب من النصارى ودليل ذلك قصة

(١) سورة يوسف، الآية: (١٠٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٢).

معاذ بن جبل - رضي الله عنه - حين أتى من الشام، ورأى النبي ﷺ فسجد له، فاستنكر عليه النبي ﷺ فعله هذا، فقال له: «ما هذا يا معاذ»، فقال معاذ - رضي الله عنه -: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال له النبي ﷺ: «فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»، قال: يا معاذ: «أرأيت لو مررت بقبري أكنت ساجدًا لقبري»، قال: لا، قال: «فإنه لا يصلح السجود إلا لله»[(١)].

كذلك ما ورد من أن سلمان[(٢)] الفارسي لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»[(٣)].

قال ابن كثير - رحمه الله - في بيان مراد النبي ﷺ من النهي: والغرض من نهي النبي ﷺ لهما أن هذا كان جائزًا في شريعتهم، فحرم في هذه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. برقم (٢٤٦، ٢٤٨)، ص(٢٢٦) بنحوه، وأخرجه الترمذي في سننه في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم (١١٥٩)، ص(١٧٦٥) بنحوه وقال حديث أبي هريرة حسن غريب من هذا الوجه، والنسائي في عشرة النساء (٢٦٦)، وأخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة برقم (١٨٥٢) بمثله، ص(٢٥٨٨) ورقم (١٨٥٣) بمثله وزيادات في أوله وآخره، ص(٢٥٨٨) موسوعة الحديث الشريف. انظر: إرواء الغليل (١٩٩٨)، قال الألباني: حسن صحيح.

(٢) هو: عبد الله بن سلمان الفارسي، ويقال له سلمان الخير، قيل إنه من أصبهان، كان صحابيًا زاهدًا عالمًا، أول مشاهده معركة الخندق، ثم شهد بقية الفتوحات. توفي سنة (٣٦هـ). انظر: الاستيعاب (٢/ ٥٣)، الإصابة (٢/ ٦٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٥٢٩١) (٨/ ٢٧١٣)، وابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٩٢).

الملة(١).

لقد دلت الأحاديث السابقة على تحريم السجود لغير الله تعالى، وعلى حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وبذلك أجمع علماء الأمة خلفًا عن سلف.

وعن ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: (وقد أجمع المسلمون على أن السجود لغير الله محرم)(٢).

فالسجود عبادة خاصة لله وحده، ويحرم صرفها لغيره تعالى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾(٣)، فالشمس والقمر أعظم المخلوقات، ومع هذا حرم الله السجود لهما، وخص صرف هذه العبادة له وحده تعالى.

وقد قال تعالى ممتدحًا عباده المؤمنين بفعلٍ خالفوا فيه أهل الجاهلية في هذه الخصلة وهي بسجودهم لله تعالى وحده: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾(٤)، كما امتدح نبينا محمد ﷺ والصحابة بعدة صفات والتي منها السجود لله وحده، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٢) بتصرف.
(٢) الفتاوى (٤/ ٣٥٨).
(٣) سورة فصلت، الآية: (٣٧).
(٤) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٦).

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾(١).

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – مبينًا مدى حرص النبي ﷺ على القضاء على هذه الخصلة، وعلى كل ما من شأنه أن يوصل إليها: (لقد حرص النبي ﷺ على سد ذرائع الشرك جميعها، المؤدية لصرف عبادة السجود لغير الله تعالى، حين نهى معاذًا عن السجود له، أو عن وضع الرأس عند الكبراء، أو تقبيل الأرض، أو الانحناء بالظهر لغير الله)(٢).

كما قال أيضًا في موضع آخر: (إن وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ، وغيرهم، أو تقبيل الأرض، ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله - عز وجل - منهي عنه، فإذا كان لا يجوز السجود لرسول ﷺ حيًا، ولا ميتًا، ولا لقبره، فكيف يجوز لغيره، فالقيام، والقعود، والسجود حق للواحد المعبود خالق السموات، والأرض، وما كان حقًا خالصًا لله، لم يكن لغيره فيه نصيب، ومن صرفه لغيره فهو مشرك)(٣). وبعد أن تم تقرير مدى تحريم الشارع لهذه الخصلة، وبيان أنها نوعٌ من أنواع الشرك بالله، إلا أن هناك من خالف في ذلك من أهل الضلال، كما هو الحاصل عند الصوفية، فقد ظهرت هذه الخصلة عند شيوخ الضُلال من الصوفية الذين أساس مشيختهم قائم على

---

(١) سورة الفتح، الآية: (٢٩).

(٢) الفتاوى (٢٧/ ٩٢).

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٠٢)، (٢٣/ ١٤٥)، (٢٧/ ٩٢).

الشرك والبدعة، فقد زينوا لأتباعهم السجود لهم، وسموه بغير اسمه.

فقال عنهم ابن قيم الجوزية: (جاء شيوخ الضلال المزاحمون للربوبية؛ فزينوا لمريديهم السجود لهم، وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ؛ ولعمر الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه سبحانه)[(١)].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن حكم هذا الفعل عند هؤلاء، فقال عن ذلك – رحمه الله –: (لا يجوز السجود لغير الله؛ فالسجود شريعة من الشرائع، وقد أمرنا الله تعالى أن نسجد له، ولو أمرنا الله أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله – عز وجل –)[(٢)].

فكيف وقد وردت جميع النصوص بتخصيص السجود لله وحده، وتحريم صرفه لغيره.

* * *

(١) الطب النبوي (١١٤، ١١٥).

(٢) الفتاوي (٤/ ٣٦٠) (١١/ ٥٠٢، ٦٠٤)، للاستزادة انظر: التوسل والوسيلة (١٣٨)، أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (٣/ ١٦٧)، الداء والدواء، (٢٠٤، ٢٠٥)، عقيدة الموحدين في الرسالة الثانية المفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، (٧١).

المسألة الخامسة والستون

التبرك بالأشجار والأحجار كما دل عليه حديث أبي واقد الليثي(١)

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من التبرك بالأشجار والأحجار.

والمراد بالتبرك بها: التيامن بها(٢)، وطلب حصول الخير بالقرب منها وملابستها(٣).

لقد كان أهل الجاهلية يتبركون بالأشجار والأحجار كشجرة العزى(٤)، وصخره سواع(٥)، واللات(٦)، وغيرها، معتقدين أن هذه الأشجار والأحجار تنفعهم وتضرهم، لهذا كانوا يأتون إليها راجين منها

---

(١) هو: الحارث بن مالك، وقيل الحارث بن عوف بن أسيد بن جابر بن أشجع بن عامر بن ليث، كان حليف بني أسد، شهد بدرًا وحنيناً، وتبوك. توفي في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٥٨هـ. انظر: الاستيعاب (٤/ ٢١١)، الإصابة (٤/ ٢١٢).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٤٥٨).

(٣) انظر.التوضيح عن توحيد الخلاق، ص(٢٧٣)، التبرك أنواعه وأحكامه. لد. ناصر بن عبد الرحمن الجديع. مكتبة الرشد. الرياض (ط٥) ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص(٣٩).

(٤) سبق التعريف بها ص(١٨٠).

(٥) سواع: هي صخرة لهذيل وخزاعة برهاط (ينبع)، وكانوا يتبركون به، ويذبحون عنده الدماء، ويرجون شفاعته. انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٩٢)، تاريخ الطبري (٢/ ١٦٤)، توحيد الخلاق (٢٧٤).

(٦) هي صخرة بيضاء عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة لأهل ثقيف. سيرة ابن هشام (١/ ٩٢ - ٩٣).

ومن بركتها؛ فكانوا يعبدونها بدعائها، أو بالذبح عندها تبركًا بها، ورجاءً لشفاعتها.

فخالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة ببيان فسادها، ومدى بطلانها، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[١].

إن قيام هذه الخصلة عند أهل الجاهلية عائدٌ إلى التقليد المذموم الموافق لأهوائهم وشهواتهم الضالة. وقد قال أحد العلماء عن ذلك: أي أنهم فقط قلدوا الآباء في عبادة هذه الأوثان، والأصنام من غير حُجة على ما يقولون[٢].

لذا خالف النبي ﷺ في هديه القولي والفعلي هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فأمر بهدم اللات، وسواع، وبقطع العزى. وهذه تُعد مخالفةً منه عليه الصلاة والسلام لهذه الخصلة، أما مخالفته لهذه الخصلة بالقول فقد ظهرت فيما ورد من استنكاره لطلب الصحابة - رضوان الله عليهم - حين

(١) سورة النجم، الآيات: (١٩ - ٢٣).

(٢) فتح الحميد في شرح كتاب التوحيد. لعثمان بن عبد العزيز التميمي. ت: د. سعود بن عبد العزيز العريفي، ود.حسين بن جليب السعدي، دار عالم الفوائد. مكة المكرمة (ط١)، ١٤٢٥هـ، (٢/ ٥٥٠).

خرجوا لمعركة حنين بأن يجعل لهم ذات أنواط[١] كما للمشركين، فشبه طلبهم هذا بطلب قوم موسى[٢] من موسى – عليه السلام –، وفي نفس الوقت، حذرهم من اتباع طرق المخالفين للحق.

فقد ورد في حديث أبي واقد الليثي – رضي الله عنه – أنه قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرةٍ، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر – وفي رواية: سبحان الله – إنهن السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[٣]، وقوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»)[٤]. وقد ذكر العلماء فوائد عديدة من هذا الحديث تنص بصورة خاصة على التحذير من هذه الخصلة الجاهلية، لما تضمنته من المخالفة

---

(١) هي شجرة خضراء عظيمة كان أهل الجاهلية يعظمونها، ويعلقون عليها أسلحتهم، ويحجون إليها. تحفة الأحوذي (٢/ ١٧٧٠)، معجم البلدان (١/ ٢٧٣).

(٢) وذلك حين مر موسى عليه السلام هو، وقومه على قوم كانت لهم أصنام على صور بقر، وهم قوم من لخم، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنام أمثلهم. تفسير الطبرى (٦/ ٤٦).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٣٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٤٢)، ص(١٦٠٠)، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب الفتن. باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم برقم (٢١٨٠) وقال عنه الإمام الترمذي حديث حسن صحيح، ص(١٨٧١). موسوعة الحديث، وابن هشام في السيرة (٣/ ٣٧٤)، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٧٦)، ص(٥٤). قال الألباني: إسناده حسن في كتابه صحيح الجامع برقم (٣٦٠١).

لصريحه لتوحيد الألوهية والربوبية، والتحذير بصورة عامة من كل خصلة جاهلية موافقة لهذه الخصلة في مخالفتها لتوحيد الربوبية والألوهية.

فعن ذلك قال العلماء: إنه نص النبي ﷺ بعبارة: (الله أكبر) وفي رواية (سبحان الله) حين طلب الصحابة أن يجعل لهم ذات أنواط، وهذه العبارات - عبارات التسبيح والتكبير - كان يستعملها النبي ﷺ في حال التعجب من باب التعظيم لله والتنـزيه له، إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هضم للربوبية، أو الألوهية من أي نوع من أنواع الشرك، كذلك دل الحديث على التحذير من أنه قد يدب الشرك إلى المسلمين عن طريق مجاورة الكفار وتقليدهم، والتشبه بهم في أفعالهم وأقوالهم المحدثة، كذلك دل استعظام النبي ﷺ لطلب الصحابة - رغم أنهم كانوا حدثاء عهد بالكفر - أن العبادات موقوفة على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يعمل أو يتكلم في ذلك بالجهل، الذي ليس له فيه مستند(١).

وقال آخرون أيضًا: كذلك دل الحديث على أن التبرك ذريعة من ذرائع

(١) للاستزادة انظر: تحفة الأحوذي (٢/ ١٧٧٠)، توحيد الخلاق (٢٧٣، ٢٧٦)، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد. لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. دار إحياء التراث. بيروت، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م (١٤٣، ١٥١)، معارج القبول (٢/ ٥١٣، ٥١٤)، فتح المجيد (١٣٢، ١٣٨)، القول المفيد (١/ ١٩١، ٢١٤)، فتح الحميد (٢/ ٥٤٧، ٥٥٩)، السبك الفريد (١/ ٢٠٠، ٢١١)، شرح كشف الشبهات. لصالح الفوزان. مؤسسة الرسالة. بيروت (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م (١٠٣)، التوضيحات الكاشفات على كشف الشبهات. لمحمد بن عبد الله الهبدان. دار طيبة. الرياض، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٢٩٦)، عقيدة الموحدين، (١١٦، ١١٧).

الشرك، وقد حرص النبي ﷺ في مواضع عديدة على حماية جناب التوحيد، وعلى سد الذرائع الموصلة إلى الشرك، وقد اتفق العلماء على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار، أو الأحجار، أو البقع، أو المشاهد وغيرها، فإن التبرك بها هو غلو فيها، وقد يتدرج به إلى دعائها، وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر، وهذا عام في كل شيء، حتى مقام إبراهيم، وحجرة النبي ﷺ، وصخرة بيت المقدس، وتراب الحرم وأحجار الحرم، سواء كان تراب نفس مكة، أو ما حواليها من جميع الحرم، كما يحرم نقل هذا التراب، أو الأحجار بقصد التبرك؛ لأنها ذريعة إلى الشرك، أما ما يتعلق باستلام الحجر الأسود، وتقبيله، واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهو عبودية لله تعالى، وتعظيم لله، وخضوع لعظمته، وليس لذات الحجر [1].

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على هذا الحديث فقال: (لقد أنكر النبي ﷺ على الصحابة مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين، أو هو الشرك بعينه، مما يفعله العامة من قصد الأشجار، والأحجار، والعيون ونحوها ونذر النذور لها، أو تعليق الخرق بها، أو غير ذلك، أو أخذهم من أورقها ليتبركون بها، أو يصلون عندها، أو نحو ذلك، فهذا كله من البدع المنكرة، وهو من عمل أهل الجاهلية، ومن

(١) للاستزادة انظر: القول السديد (١١٣ - ١١٤)، إعلام الساجد بأحكام المساجد (٩٦)، التبرك: د. ناصر الجديع (٤٦٣).

أسباب الشرك بالله تعالى)[١].

لهذا فمن زعم أن لديه دليلاً يستند عليه فيما ابتدعه فهو كاذب، وقد قام شيخ الإسلام ابن تيمية بالرد على من يزعم بأن لديه دليلاً من السنة على بدعته فقال: (وأن من المكذوبات التي لم يروها أحد من علماء المسلمين ما يرويه البعض من الناس من قول: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به»، فهذا من المكذوبات)[٢].

وقد ذكر العلماء أيضًا: أنه من الواجب على من وجد سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمون من شأنها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، وينوطون بها المسامير، والخرق أن يقطعوها، فهي ذات أنواط، فلا يجوز إبقاؤها مع القدرة على إزالتها؛ لأنها بمنـزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى[٣].

فقد ورد أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة[٤].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٤٢٥)، للاستزادة انظر. الفتاوى (٢٧/ ١٣٧).

(٢) الفتاوى (٢٤/ ٣٣٥).

(٣) انظر. الحوادث والبدع. للإمام أبي بكر محمد الطرطوشي. دار ابن الجوزي. الدمام، (ط٣)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص(٣٩)، الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٢٩٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في الصلاة عند قبر النبي ﷺ وإتيانه برقم (٧٥٤٥). ت: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد. الرياض (ط١)، ١٤٠٩هـ، (٧/ ١٥٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٢٢)، الاقتضاء (١/ ١٨٥) قال الألباني: رجاله إسناده ثقات.

وبعد فإنه ما من عصر إلا وقد ظهرت فيه هذه الخصلة، ففي عصرنا هذا نجدها عند الصوفية، والروافض، فقد عُرف عنهم التبرك ببعض البقاع المقدسة، أو ما هي مظنة التقديس، والتعظيم، وببعض أجزاء الكعبة، وبصخرة بيت المقدس، وبتراب وأحجار مكة والمدينة... وغيرها مستندين في ذلك على آثار وأخبار موضوعه[١].

وقد سئل الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله - هل من خصائص مكة والكعبة التبرك بأشجارها وأحجارها؟ فأجاب - رحمه الله -: (بأنه ليس من خصائص مكة أن يتبرك الإنسان بأشجارها وأحجارها بل من خصائصها ألا تعضد أشجارها، ولا يحش حشائشها لنهي النبي ﷺ، وأن حجارة مكة أو الحرم ليس فيها شيء يتبرك به سواء، بالتمسح به، أو بنقله إلى البلاد أو ما أشبه ذلك)[٢]. والله أعلم.

* * *

(١) للاستزادة: انظر: التبرك: د. ناصر الجديع (٤٨٠)، ومسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٦٦٠).

(٢) البدع والمحدثات ومالا أصل له. جمع حمود بن عبد الله المطر. دار ابن خزيمة. الرياض، (ط٢)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، (٢٥١).

المسألة السادسة والستون
ضربهم المثل مع علمهم ببطلان قولهم جدلاً

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة ما يدل على عناد أهل الجاهلية واستكبارهم عن قبول الحق والإقرار به، وذلك باستدلالهم على ما هم عليه من الشرك والتكذيب والافتراء على الله بضرب الأمثال عليه، وقد استعانوا بهذه الأمثال في مجادلتهم الباطلة لإقامة الحجج الفاسدة والشبهات الخادعة لإدحاض الحق.

والمثل في اللغة: كالمِثل: وهي كلمة تسوية، كما يقال: شِبهة وشَبَهُهُ، والمماثلة لا تكون إلا في المتفقين. وقيل: المثل: ما جعل مِثالاً أي مقدارًا لغيره يُحذى عليه، ومحرك المثل الحجة والحديث(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في معنى المثل: (المثل في الأصل هو الشبيه، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين يسمى قياسًا في لغة السلف واصطلاح الفقهاء، فتارة يراد به التصوير، وتفهيم المعنى، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته، والتصديق به، وكثيرًا ما يقصد كلاهما، فإن ضرب المثل يوضح صورة المقصود وحكمه)(٢).

وقال ابن القيم - رحمه الله - أيضًا عن معنى المثل: (هو تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من

---

(١) انظر.لسان العرب (١١/ ٦١٠)، القاموس المحيط (٤/ ٤٩).

(٢) الفتاوى (١٤/ ٥٤، ٥٥، ٥٦).

الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر، فالأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به)(١).

وللمثل عدة إيرادات:

فقد يراد بالمثل الند والشريك(٢)، وهذا المراد للمثل أبطله الله - عز وجل - ونهى عنه فقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ ﴾ (يعني اتخاذهم الأصنام، أي لا تجعلوا معي إلهًا غيري، فإنه لا إله غيري)(٤).

وقال قتادة في تفسير الآية: (﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ ﴾ فإنه أحد صمد، لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: والله أيها الناس يعلم خطأ ما تمثلون، وتضربون من الأمثال وصوابه،

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٣٠، ١٥٠)،للاستزادة انظر.الأمثال في القرآن. لابن قيم الجوزية. ت: إبراهيم محمد. مكتبة الصحابة. طنطا. مصر (ط١)، ١٤٠٦هـ، ص(٥٨).

(٢) الأمثال القرآنية القياسية المضروبه للإيمان بالله. د. عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع. الجامعة الإسلامية بالمدينة. (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٣/ ٧٧٥).

(٣) سورة النحل، الآيتان: (٧٣، ٧٤).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٦٢١).

وغير ذلك من سائر الأشياء، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه)[١].

كما قال ابن جرير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي لا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه لا مثل له، ولا شبه)[٢].

وقد ضرب كفار قريش هذا النوع من المثل من باب الجدال الباطل للاستدلال على حجة عبادتهم لأصنامهم، حين أخبرهم النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان هذا: (حين سمعت قريش هذه الآية قال ابن الزبعرى[٤]: لأخصمن محمدًا، فعارضه بالمسيح وناقضه به، كان قد ضربه مثلاً قاس الآلهة عليه، ويترجح هذا برد الله تعالى بقوله: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ﴾[٥])[٦].

مع العلم أنهم كانوا يعلمون ببطلان قولهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٦٢١).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٩٨).

(٤) هو: عبد الله بن الزبعرى السهمي من قريش، وهو أحد شعراء مكة. انظر: طبقات فحول الشعراء. لمحمد بن سلام الجمحي. ت: محمود شاكر، دار المدني. جدة. (١/ ٢٣٣)، تاريخ الطبري، (٢/ ١٦٢).

(٥) سورة الزخرف، الآية: (٥٨).

(٦) الفتاوى (١٦/ ٤٠).

ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي ما مثلوا لك هذا المثل إلا جدلاً وخصومة، ليلتمسوا به الباطل)[٢].

وقد نهى الله - عز وجل - عن ضرب هذه الأمثال في مواضع كثيرة من كتابه، وكان النهي إما بالنص، أو بالدلالة، فنهيٌ بالنص كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ ﴾[٣]. يقول الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - في سبب نهي الله عن ضرب هذه الأمثال: (لأنها أمثال تتضمن التسوية بين الخالق وبين خلقه)[٤]. وقد بين الشارع - عز وجل - الحكمة من النهي في آخر الآية السابقة حين قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . يقول الشيخ محمد ابن عثيمين في بيان الآية أي: (أننا نحن لا نعلم والله يعلم، فإذا انتفى العلم عنا، وثبت لله، فأين المماثلة! هل يماثل الجاهل من كان عالمًا؟!)[٥].

والنهي بالدلالة بذكر أهم الصفات التي من اتصف بها كان مستحقًا للعبادة وحده، باطلٌ ما ضرب له من المثل مما يزعمون من هذه المعبودات

(١) سورة الزخرف، الآيتان: (٥٧، ٥٨).
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٢٠٣).
(٣) سورة النحل، الآية: (٧٤).
(٤) تفسير ابن سعدى (٤٤٥).
(٥) العقيدة الواسطية (١/ ٣٦٨).

الباطلة. قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٣).

فهو تعالى وحده الخالق، والرازق، والحي الذي لا يجري عليه الموت، فمن كانت هذه صفاته فهو المستحق وحده للعبادة، ولا يصلح غيره للألوهية.

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على حق الله المستلزم بطلان ما ضربه هؤلاء المشركون من المثل لله فقد قال ﷺ مبينًا حق الله على عباده: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»(٤).

---

(١) سورة النحل، الآية: (١٧).

(٢) سورة النحل، الآية: (٧٣).

(٣) سورة القصص، الآية: (٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب اسم الفرس والحمار برقم (٢٨٥٦)، ص(٢٣٠)، وفي كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل برقم (٥٩٦٧)، ص(٥٠٥) وفي كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك برقم (٦٢٦٧)، ص(٥٢٨) وفي كتاب الرقاق، باب من جاهد نفسه في طاعة الله برقم (٦٥٠٠)، ص(٥٤٥)، في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء الرسول ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى برقم (٧٣٧٣)، ص٦١٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب من مات على التوحيد دخل الجنة برقم (١٤٣)، ص(٦٨٦). موسوعة الحديث.

وعلى هذا فمن صرف هذا الحق لغير الله، أو شارك معه غيره فهو ظالم، قال تعالى: ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

وقد يراد بالمثل: الأمثال القولية التي تورد للتعريف بالله، وتقوم هذه الأمثال على المقايسة والاستدلال بحال على حال(٢).

وهذه الأمثال القولية على ضربين: فما أريد منها المقايسة للاستدلال على المساواة بين حالٍ وحال، وللمحاجة الباطلة هي أمثال فاسدة ممنوعة منهي عنها، لعدم علم العبد بها، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣)، أما إذا أريد بها الاستدلال على إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات، ونفي ما نفاه الله عن نفسه مما لا يليق به تعالى، ويقوم بذلك العالمون بالله، فهي أمثالٌ مشروعة، وصحيحة، كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ ﴾(٤).

وعن هذين الضربين من الأمثال القولية يقول الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع - حفظه الله - مفصلاً القول فيهما: (إن الأمثال القولية المضروبة لله تعالى منها ما هو ممنوع، ومنها ما هو مشروع.

فالممنوع: هي الأمثال التي يضربها الجاهلون، ويكونون بضربها بمثابة من يُعلم الله، أو لمعارضة دينه، أو لتصحيح الشرك، واتخاذ الأنداد والأمثال

(١) سورة لقمان، الآية: (١٣).
(٢) انظر. فتح القدير (٣/ ٢٢٧)، الأمثال القرآنية (٣/ ٧٧٧).
(٣) سورة النحل، الآية: (٧٤).
(٤) سورة النحل، الآية: (٦٠).

له - سبحانه، المتضمنة للقياس الإبليسي المعارض للنص، أو القياس الفاسد، كالقياس التمثيلي، أو القياس الشمولي في حق الله تعالى الذي يقتضي مساواة الله بغيره من خلقه.

والمشروع: هي ما ضُرب من الأمثال القولية لله - تعالى - وهي التي تصدر عن العالمين بالله، والتي لا تتضمن شيئًا من المحذورات، والتي تؤدي إلى الاستدلال على إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات، ونفي مالا يليق به من النقص، والتي ضرب الله جنسها لنفسه في كتابه معلمًا عباده كيف يستدلون عليه، ويكون ذلك بالأمثال الجارية على قياس الأولى، التي لا تتضمن التسوية بين الله وبين خلقه في شيء من خصائصه، فهي جائزة في حق الله تعالى) (١).

والشاهد على وجود الأمثال القولية الممنوعة ما حصل من كفار قريش حين أرادوا الاستدلال على مزاعمهم في محاربة هذا الدين، فاتهموا النبي ﷺ بأنه مجنون، وشاعر، وكاهن، فضربوا أمثالاً ليستدلوا بها على مزاعمهم الباطلة في اتهام النبي ﷺ، وقالوا: إنه يزعم أننا سنبعث بعد موتتنا بعد أن صرنا عظامًا ورفاتًا، فرد عليهم بقوله تعالى مبطلاً مثلهم هذا: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ

(١) الأمثال القرآنية: للدكتور عبد الله الجربوع (٣/ ٧٨٠).

قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[١].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (أي الذي خلقكم مما تعرفون، ليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك عليه)[٢].

كذلك المثل الباطل الذي ضربه أبي بن خلف[٣] حين مشى إلى رسول الله ﷺ بعظم بالٍ قد أرمت فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم، ثم فته في يده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال: الرسول ﷺ: «نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار»[٤]، فأنزل تعالى توبيخًا لمن ضرب مثلاً يُريد منه المقايسة والاستدلال على المساواة بين حالين بقصد المحاجة الباطلة فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: (٤٨ – ٥١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٨٩)، سيرة ابن هشام (١ – ٢/ ٢٩٦).

(٣) هو: أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، كان أحد أسياد قريش، آذى النبي ﷺ، قتل أثر ضربة ضربه إياها الرسول ﷺ في معركة أحد. انظر: سيرة ابن هشام (٢٤/ ٣٣٤)، المنتظم (٣/ ١١٠).

(٤) أخرجه الحارث في مسنده كما في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي برقم (٧١٨) ص(٢٢٥)، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت: مسعد عبد الحميد السعدني. دار الطلائع. القاهرة، والإمام الحاكم في مستدركه. للإمام محمد بن عبد الله الحاكم (٢/ ٤٦٦).

مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[١].

والأدلة على إبطال الشارع للقسم الأول من هذه الأمثال، وعلى إثبات الشارع للقسم الثاني من هذه الأمثال، ما ورد في كتاب الله - عز وجل - من آيات دالةٍ على ذلك. فعلى الممنوع قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[٤]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦]، وعلى المشروع بجعله لنفسه تعالى المثل الأعلى قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[٧]. قال الإمام ابن أبي العز في المراد بالمثل الأعلى: (هو كل كمال ثابت للمخلوق لا نقص فيه، فالله أولى به)[٨].

لهذا فقد كانت طريقة السلف مخالفة لطريقة أهل الجاهلية وقد نُقل عنهم ذلك حين قالوا: إن كل: ما ثبت في السنة فهو حق وشرع لنا، وما

---

(١) سورة يس، الآيات: (٧٨ - ٨٠).
(٢) سورة الشورى، الآية: (١١).
(٣) سورة مريم، الآية: (٦٥).
(٤) سورة النحل، الآية: (٧٤).
(٥) سورة الإخلاص، الآية: (٤).
(٦) سورة الصافات، الآيات: (١٨٠ - ١٨٢).
(٧) سورة النحل، الآية: (٦٠).
(٨) شرح العقيدة الطحاوية (٨٧).

أخبرنا به النبي ﷺ إلا لنؤمن به، فنثبت ما أثبته الله لنفسه مع تنـزيه الله تعالى عن مماثلة، ومشابهة جميع خلقه في أسمائه، وصفاته، وذاته لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(١).

ومن أقوال أهل العلم من أهل السنة والجماعة في إبطال هذه الأمثال الممنوعة قولهم:... كما ليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول، ولا الأهواء؛ إنما هو الاتباع، وترك الهوى، والتصديق بآثار رسول الله ﷺ بلا كيف، ولا شرح، ولا يقال لم؟ وكيف؟(٢). كما قال الإمام ابن بطة عن طريقة السلف في الإيمان بصفات الله: (كل الأحاديث الواردة عن - الصفات - وما شاكلها تمر كما جاءت، لا تعارض، ولا تضرب لها الأمثال)(٣).

وقال أيضًا الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (ولهذا كانت طريقة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الرب تعالى بذكر آياته، وإن استعملوا في ذلك القياس استعملوا قياس الأولى، ولم يستعملوا قياس شمول تستوي أفراده، ولا قياس تمثيل محض، فإن الرب تعالى لا مثيل له، ولا يجتمع هو وغيره تحت كلمة تستوي أفراده، بل ما ثبت لغيره من كمال لا نقص، فثبوته له بطريق الأولى، وما تنزه غيره عنه من

---

(١) حاشية كتاب الشرح والإبانة (٢٥٠).

(٢) انظر. شرح السنة للبربهاري (٦٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: اللالكائي (٢/ ١٧٦).

(٣) الشرح والإبانة (٢٥٠ - ٢٥١).

النقائص، فتنـزهه عنه بطريق الأولى، ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القرآن من هذا الباب، كما يذكره في دلائل ربوبيته، وإلهيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وإمكان المعاد، وغير ذلك من المطالب السنية، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم، وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف)[١].

وبعد إن ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في قوله السابق، وما ذكره غيره من علماء أهل السنة والجماعة في طريقة الاستدلال على الله تعالى بالأمثلة المشروعة وعلى إثبات أي أمر حق أيضًا بالأمثلة المشروعة كذلك؛ هي طريقةٌ من طرق الشارع – عز وجل – في تقرير ربوبيته، وإلهيته...، وفي تقرير جميع ما يختص به تعالى من الأسماء والصفات أو في تقرير أي أمرٍ حقٍ آخر كما هو واردٌ في محكم كتاب الله، وهي الطريقة التي شرعها الشارع لعباده العلماء فسار على نهجها علماء أهل السنة والجماعة خلفًا عن سلف، إلا أن هناك من ضل في الأمثلة الفاسدة، كأحبار السوء عند اليهود الخارجين عن الشريعة بأمثلتهم وأقيستهم الفاسدة، والرهبان، المؤلهين لعيسى – عليه السلام –، والمتبعين لأهوائهم في التحليل والتحريم، وجهال الصوفية والروافض الذين يتوسلون بالنبي ﷺ بعد موته، ويتبركون بقبره زعمًا منهم أنها تعود عليهم بالفائدة قياسًا بحياته، ويزعمون أن العلم يحصل بالكشف والفيض مثل الأنبياء فتركوا تحصيل العلم وغيره[٢].

---

(١) الفتاوى (٩/ ١٤١، ١٤٢).

(٢) للاستزادة انظر: تلبيس إبليس (٣٥٩)، الأمثلة القرآنية (٨٤٠ – ٨٥٣).

المسألة السابعة والستون
عبادة الله على حرف أي طرف وجانب

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية المتمثلة في حال عبادتهم، حيث كانوا يعبدون الله على حرف، أي طرف واحد، وهذه حال المتبع لهواه في عبادته، فهو في حال حصل له ما يريد من الدنيا آمن بالله، وإن ابتلي ببلاء ونحوه سخط وجزع وأصابه اليأس من رحمة الله، بل إن البعض منهم قد يصل به اليأس إلى الارتداد عن دينه.

والحرف في اللغة: الطرفُ والجانبُ، وبه سمي الحرف من حروف الهجاء، يقال حرفا الرأس: شِقاه، وحرف السفينة والجبل. جانبهما، والجمع أحرفٌ، وحروفٌ، وحِرفةٌ، وحرف كل شيء طرفه وشفيره وحدّه[(١)].

وقد ذم الله عز وجل في كتابه هذه الخصلة فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[(٢)].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير هذه الآية: (إنه كان الرجل يقدم المدينة فيُسلم، فإن ولدت امرأته غلامًا، ونتجت خيله قال: هذا دين

---

(١) لسان العرب (٩/ ٤١، ٤٢).

(٢) سورة الحج، الآية: (١١).

صالحٌ، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء)[١].

وقال مجاهد - رحمه الله - في تفسير الآية: (﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ ﴾ أي على شك، فإن أصابه رخاء وعافية استقرّ، وإن أصابه عذاب، ومصيبة ارتدّ كافرًا)[٢].

وقال الطبري وابن كثير - رحمهما الله - في تفسيرهما لهذه الآية: المراد به هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه، وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، وإن أصابته شدّة أو فتنة، أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر [٣].

كما قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيرها: (أي أنهم يعبدون على السراء دون الضراء؛ ولو عبدوا الله على الشكر في السراء، والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف)[٤].

كما علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على ذم الشارع لهذه الخصلة فقال: (قد ذم الله - عز وجل - من يترك الواجب الظاهر ويفعل المحرم الظاهر، عندما يصيبه من الأذى، والفتن فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ ﴾، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب (ومن الناس من يعبد الله على حرف) برقم (٤٧٤٢) بمثله ص(٣٩٩). موسوعة الحديث الشريف، فتح الباري (٨/ ٤٤٢).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٩/ ١١٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٠).

(٣) المراجع السابقة.

(٤) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠).

يهواه من الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يُمتحن به في دنياه ارتد عن دينه، فهذه حال من كان مريضًا في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء)(١).

لهذا فالمؤمن الحقيقي هو من آمن بالله في السراء والضراء، فهو شاكرٌ في السراء، وصابرٌ في الضراء. وقد وردت آيات كثيرة في ذم من يرتد، ويفتتن عندما يصيبه الأذى، والفتن قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٥).

---

(١) الاستقامة (٢/ ٣٢٨)، درء التعارض (٥/ ٢٦٤)، وللاستزادة انظر: انظر: الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨٨)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لابن قيم الجوزية – ت: خالد العلمي – دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص(٣٩٩).

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: (١ – ٣).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (١٠).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢١٤).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (١٤٢).

فالإيمان نصفه صبر، والنصف الآخر شكر، فلابد للعبد المؤمن من الصبر على أقدار الله، والرضا بما قسم الله، واليقين بوعد الله عز وجل، أيضًا لابد له في حال النعمة أن يشكر الله عز وجل على نعمه بالقول والعمل.

فقد أثنى الله - عز وجل - على عباده الموقنين بذلك، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

كما أثنى تعالى على عباده الصابرين، وعباده الشاكرين، وبيّن لهم ما أعده لهم من حسن العاقبة في مواضع كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾(٤)، وقال تعالى عن عاقبة الصابرين: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً

---

(١) سورة السجدة، الآية: (٢٤).

(٢) سورة لقمان، الآيتان: (٤، ٥).

(٣) سورة النحل، الآية: (٩٦).

(٤) سورة النحل، الآية: (١٢٦).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: (١١١).

وَسَلَٰمًا ﴾(١)، وقال تعالى عن الشاكرين: ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٣).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حث أمته على الإيمان بالله في السراء بشكره، وفي الضراء بالصبر، والرضا على قضائه وقدره.

فقال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» (٤).

يقول الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله – في شرح الحديث: (فالمؤمن على كُلِّ حال ما قدر الله له فهو خير له، إن أصابته الضراء صبر على أقدار الله، وانتظر الفرج من الله، واحتسب الأجر على الله، فكان خيرًا له، فنال بهذا أجر الصابرين، وإن أصابته سراء من نعمة دينية، كعلم وعمل صالح، ونعمة دنيوية كمالٍ وبنين، شكر الله، وذلك بالقيام بطاعة الله، فيكون خيرًا

---

(١) سورة الفرقان، الآية: (٧٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٤٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٤٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير برقم (٧٥٠٠) بمثله (١١٩٦). موسوعة الحديث الشريف.

له، بخلاف الكافر فهو على شر والعياذ بالله، فإن أصابته الضراء لم يصبر، بل يضجر ويدعو بالويل والثبور، وإن أصابته السراء لم يشكر الله، فكانت هذه السراء عقابًا عليه في الآخرة)(١).

وبعد فإن هذه الخصلة تتجلى كثيرًا لدى المنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الشك والكفر، ولدى أتباع شيوخ الصوفية(٢).

كما أنها تتجلى كثيرًا في زماننا هذا عند من ضُعف إيمانُه ويقينهُ بالله تعالى، فالكثير من الناس من هو مؤمن بالله في حال السراء، والرخاء، وما أن تحل عليه مصيبة في دنياه حتى تجده قد سخط وجزع، ويئس من رحمة الله تعالى، وما هذا إلا لعظمة الدنيا في قلوب الكثير منا، وتعلق الكثير منا بها. فالله المستعان.

* * *

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٧٠).

(٢) للاستزادة انظر: مصرع التصوف (١٩٧)، الدرر السنية (٨/ ١٣٤)، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: لأبي الحسن الندوي. مكتبة السنة، الدار السلفية لنشر العلم. القاهرة، مصر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، (١٨٤، ١٩٢).

المسألة الثامنة والستون، والتاسعة والستون، والسبعون
نكاح الاستبضاع كما دل عليه حديث عائشة
نكاح البغايا كما في الحديث السابق، وكذا المسألة التي بعدها
نكاح المرأة العدد الكثير من الرجال وإلحاق الولد بواحد منهم

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – أن النكاح كان في الجاهلية على أنواع، وهي:

نكاح الاستبضاع، والمراد به: أن الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، أي أطلبي منه المباضعة، وهي الجماع، لتحملي منه، فإن جامعها، اعتزلها زوجها ولم يمسها أبدًا، حتى حملها من ذلك الرجل الذي يستبضع منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع(١).

ونكاح آخر وهو نكاح البغايا: والبغايا جمع بغي، وهي الزانية، فقد كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن؛ دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها؛ جمعوا، لها ودعوا لها القافة – وهو الذي

---

(١) انظر. فتح الباري (٩/ ١٨٤)، عون المعبود (١٠٠٤)، الاعتصام: لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي. ت: سليم الهلالي. دار ابن عفان. الخبر، (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: لمحمود شكري الألوسي – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (ط٢)، (٢/ ٣، ٤، ٥)، تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام – لمحمد مبروك نافع – مطبعة السعادة، مصر، (ط٢)، ١٩٥٢م، (ص١٧٩).

يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية - ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به؛ ودعي ابنه؛ لا يمتنع من ذلك(١).

ونكاح آخر وهو نكاح المرأة العدد من الرجال: وهو أن يجتمع الرهط - وهم ما دون العشرة - فيدلون على المرأة كلهم يصيبها، فإن حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم، فلم يستطع منهم رجل أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبَّت باسمه، فيلحق به ولدها، فلا يستطيع أن يمتنع منه الرجل(٢).

وجميع هذه الأنواع من الأنكحة هي أنكحة فاسدة أبطلها الإسلام.

وقد كان في الجاهلية نكاح الناس اليوم، وهو النكاح الذي أقره الإسلام، والمراد به: هو أن يخطب الرجل إلى الرجل وليته، أو ابنته فيُصدقها، أي يعين صداقها، ويسمى مقداره ثم يعقد عليها، وقد كانوا يخطبون المرأة من أبيها أوأخيها أو عمها، أو بعض بني عمها، وقد كانت قريش، وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب في النكاح(٣).

فحين أباح الشارع النكاح لعباده المؤمنين، اشترط فيما أباحة لهم من

---

(١) المراجع السابقة.

(٢) انظر: فتح الباري (٩/ ١٨٤)، عون المعبود (١٠٠٤)، الاعتصام، (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤)، بلوغ الأرب، معرفة أحوال العرب (٢/ ٣، ٤، ٥)، تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام (١٧٩).

(٣) المراجع السابقة.

النساء أن يكنّ محصنات، فلا يكنّ مسافحات[١]، ولا متخذات[٢] أخدان، قال تعالى: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي عفيفات، غير مزانيات، ولا متخذات أصدقاء على السفاح)[٤].

كما اشترط الشارع في حق الرجال ذلك أيضًا فقال تعالى: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ ﴾[٥]. قال الطبري في تفسير الآيـة: (أي أحل لكم المحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، وأنتم أيضًا أعفاء غير معالنين بالسفاح بكل فاجرة، ولا منفردين ببغية واحدة، قد خاونها وخاونته، واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها)[٦].

ومن الأدلة على تحريم هذه الأنكحة قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٧].

---

(١) المسافحات هن المعالنات بالزنا. انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٢)، جامع الرسائل (٢/ ٢٩٤).

(٢) هن ذوات الخليل الواحد، فقد كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنـا، ويستحلون مـا خفي. انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٢)، جامع الرسائل (٢/ ٢٩٤).

(٣) سورة النساء، الآية: (٢٥).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٢١).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٥).

(٦) تفسير الطبري (٤/ ٤٤٨).

(٧) سورة النور، الآية: (٣).

قال الطبري عن سبب نزول الآية: (نزلت هذه الآية في بعض من استأذن الرسول ﷺ في نكاح نسوة كنّ معروفات بالزنا، من أهل الشرك، وكن أصحاب رايات، فأنزل الله تحريمهن على المؤمنين)[1].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ﴾[2].

كما وقد هدم النبي ﷺ أنكحة الجاهلية الفاسدة كلها إلا نكاح الناس اليوم، فقد ورد عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت: (إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح الآخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومر ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. ونكاح رابع: يجتمع الناس

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٦١).
(٢) سورة النور، الآية: (٢٦).

الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطته به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهليين كله إلا نكاح الناس اليوم) (١).

ولا يخفى على صاحب القلب السليم أن من قام أو رضي بأحد هذه الأنكحة الفاسدة، فهو ديوثًا(٢)، وقد ورد حديث عن النبي ﷺ ذم فيه الديوث فقال ﷺ: «ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يقر في أهله الخبث» (٣).

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على ذم الديوث فقال: (المسلمون متفقون على ذم الدياثة، ومن تزوج بغيًا كان ديوثًا بالاتفاق)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب النكاح. باب لا نكاح إلا بولي برقم (٥١٢٧) بمثله (٤٤٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) الديوث: القواد على أهله، وهو الذي لا يغار على أهله، فيدخل الرجال على حُرمته، بحيث يراهم، كأنه لين نفسه على ذلك، وقيل هو الذي تؤتى أهله وهو يعلم. انظر: لسان العرب (٢/ ١٥٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٣٧٢) بمثله (٤٠٠)، وأخرجه النسائي في سننه في كتاب الزكاة. باب المنان بما أعطى برقم (٢٥٦٣) بلفظ مختلف وزيادة في أوله وآخره، ص(٢٢٥٣)، وصححه الإمام الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: حسن إسناده برقم (٦٧٤، ١٣٩٧) في الجزء الأول من السلسلة الصحيحة.

(٤) الفتاوى (٣٢/ ٤٥).

وقال الذهبي عن مرتبة الدياثة من الذنوب تُعد (الدياثة كبيرة من الكبائر)[١]، وعلى هذا فمن تزوج بغيًا، أو قاد على أهله فقد ارتكب كبيرة من الكبائر.

أيضًا من مخالفة الشارع لأهل الجاهلية في هذه الخصال أن جعل من شروط النكاح وجود الولي، ليميز عن نكاح السفاح فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾[٤]، وقال ﷺ: «لا نكاح إلا بولي»[٥]، وقال ﷺ: «أيما امرأة نكحت بغير إذن مواليها فنكاحها باطل...»[٦].

---

(١) الكبائر للذهبي ص(٦٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٣٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٢١).

(٤) سورة النور، الآية: (٣٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٩٧٤٧، ١٩٩٤٧، ١٩٩٨)، ص(١٤١٢، ١٤٢٧، ١٤٣٠) بمثله، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب النكاح. باب في الولي برقم (٢٠٨٥) بمثله (١٣٧٦)، وأخرجه الترمذي في سننه في كتاب النكاح. باب ما جاء لا نكاح إلا بولي برقم (١١٠١) وقال هذا الحديث من طريق أبي موسى الأشعري فيه اختلاف (١٧٥٧)، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي برقم (١٨٨٠، ١٨٨١) بمثله (٢٥٨٩). موسوعة الحديث الشريف، وصححه ابن حبان (٤٠٧٧)، والحاكم (٢/ ١٧٠)، وقال الألباني: صحيح.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٥٨٤٠) بمثله (١٨٧٨)، وأبو داود في سننه في كتاب النكاح، باب في الولي برقم (٢٠٨٣) بمثله (١٣٧٦)، وأخرجه الترمذي في سننه في كتاب =

والمراد بالولي: هو العصبة على ترتيبهم بشرط حرية، وتكليف، ثم الأم، ثم ذو الرحم الأقرب فالأقرب، ثم مولى الموالاة ثم القاضي، وقد دل هذا الحديث على بطلان النكاح بغير الولي(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - معلقًا على ذلك: (قد دل القرآن، والسنة في غير موضع على اشتراط الولي، وهو عادة الصحابة رضوان الله عليهم، إنما كان يزوج النساء الرجال، فلا يعرف أن امرأة تزوج نفسها)(٢).

كذلك مما اشترطه الشارع في النكاح مخالفةً لأنكحة أهل الجاهلية الفاسدة وجود: شاهدي عدل، والوليمة، والضرب بالدف. وهذه أمورٌ لا تحصل في أنكحة الجاهلية، وقد قيل: (القصد من ذلك هو الإعلان)(٣)، وقد ظهر لنا من خلال ما سبق في معاني أنكحة أهل الجاهلية الفاسدة أنها لا إعلان فيها، خلافًا للنكاح الذي شرعه الشارع لعباده ونص عليه.

فقد قال تعالى عن ذلك: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ

= النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي برقم (١١٠٢) بمثله (١٧٥٧). قال الإمام الترمذي: حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي برقم (١٨٧٩) بمثله (٢٥٨٩). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(١) تحفة الأحوذي (٩٢٩).

(٢) الفتاوى (٣٢/ ١٣١).

(٣) انظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٣٤٨)، حاشية الروض المربع (٦/ ٢٧٧)، الفتاوى (٢٩/ ١٣)، (٣٢/ ١٣١).

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾[١].

قال قتادة - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي مما فرض الله عليهم أن لا نكاح إلا بولي وشاهدين)[٢].

وقال الطبري - رحمه الله - أيضًا في تفسيرها: (وهو أن الله فرض على المؤمنين أنه لا يحل لهم عقد نكاح إلا بولي عصبة، وشهود عدول)[٣].

وقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل»[٤]، كما أقر النبي ﷺ إعلان النكاح بالضرب بالدف في النكاح، فقد ورد عن الربيع بنت معوذ[٥] رضي الله عنها قالت: جاء النبي ﷺ يدخل حين بُني علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف، ويندبن من قُتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: «دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين»[٦].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٥٠).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٣١٢).

(٣) المرجع السابق.

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه برقم (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) بمثله (٣/ ٢٢٦، ٢٢٧)، سنن الدارقطني: لعلي بن عمر أبي الحسن الدارقطني البغدادي. ت: عبد الله هاشم يماني المدني. دار المعرفة. بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

(٥) الربيع بنت معوذ بن عقبة بن حرام بن جندب الأنصارية النجارية من بني النجار، كانت أحد النساء اللاتي بايعن الرسول ﷺ تحت الشجرة. الاستيعاب (٤/ ٣٠١)، الإصابة (٤/ ٢٩٣).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة برقم (٥١٤٧) بمثله =

وقد اتفق العلماء على صحة النكاح الذي يتوافر فيه شروطه، من وجود الولي، وشهادة شاهدين عدلين، ورضا الزوجة، ووجود الصداق(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد اختص المسلم بأن الله - عز وجل - أمره في النكاح بأن يميز عن السفاح، فأمر بالولي، والشهود، ونحو ذلك، مبالغة في تمييزه عن السفاح، وصيانة للنساء عن التشبه بالبغايا، حتى شرع فيه الضرب بالدف، والوليمة الموجبة لشهرته؛ فأمر بالولي؛ لأن البغي هي التي تزوج نفسها، وأمر فيه بالإشهاد، أو بالاعلان؛ لأن به يحصل التمييز عن نكاح السفاح، وبه يحفظ النسب عند التجاحد)(٢).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - معقبًا على ذلك أيضًا: (إن الشارع اشترط للنكاح شروطًا زائدة على العقد تقطع عنه شبه السِّفاح، كالإعلام، والولي، ومنع المرأة أن تليه بنفسها، وندب إلى إظهاره حتى استحب فيه الدف، والصوت، والوليمة، لأن في الإخلال بذلك ذريعة إلى وقوع السفاح بصورة النكاح، وزوال بعض مقاصد النكاح من جحد الفراش، ثم أكد ذلك بأن جعل للنكاح حريمًا من العِدة تزيد على مقدار الاستبراء، وأثبت له أحكامًا من المصاهرة، وحرمتها ومن الموارثة زائدة

=

(٤٤٥). موسوعة الحديث الشريف.

(١) انظر. شرح السنة للبربهاري (٧٧)، مراتب الإجماع، لابن حزم (١١٨، ١١٩).

(٢) الفتاوى (٢٩/ ١٣).

على مجرد الاستمتاع؛ فعلم أن الشارع جعله سببًا ووصلة بين الناس بمنزلة الرحم، كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[1]، وهذه المقاصد تمنع شبه بالسفاح)[2].

ومع وجود الأدلة الدالة على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في هذه الأنكحة -التي سبق إيرادها- إلا أن هناك من خالف أمر الشارع، إذ وجد أنواعٌ من هذه الأنكحة الجاهلية لدى الشيعة وتمثل ذلك بأن لديهم نساء يسمين بالنوابات؛ يتصدقن بفروجهن على المحتاجين، ويحكى عنهم أنه يكون للمرأة ثلاثة أزواج وأكثر في بيت واحد يستولدونها، وتنسب الولد لكل واحد منهم[3].

كذلك ما يوجد في دول الكفر اليوم عند أهل الكتاب من النصارى، من استحلالهم للزنا، ونكاح الزواني والزناة، واستحلالهم اتخاذ الأخدان مما يدل على بقاء هذه الخصلة الجاهلية حتى زمننا هذا. فنسأل الله العافية.

* * *

---

(١) سورة الفرقان، الآية: (٥٤).

(٢) أعلام الموقعين (٣/ ١٥٣).

(٣) للاستزادة. انظر: الاعتصام (٢/ ٥٢٥).

المسألة الواحدة والسبعون

التوعد بسجن من خالفهم ولو كان محقًا كقول فرعون ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾(١)

في هذه المسألة يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – أحد وسائل أهل الجاهلية في صد من يخالفهم، ولو كان محقًا، وذلك بالتوعد بالسجن.

فالتوعد بالسجن هو أحد الوسائل التي يمارسها أولياء الشيطان على مر العصور من ذوي الجاه، والرئاسة، والنفوذ في حق من يخالفهم، والهدف من وراء ذلك جعل هؤلاء المخالفين موافقين لهم في أهوائهم، ومحققين لمطالبهم، وإن كانت باطلة.

وقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – تعليقٌ فسر فيه ما تشتمل عليه نفوس أمثال هؤلاء، فقال عن ذلك: (ما من نفس إلا وفيها نفس فرعون... فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة، بحسب مكانها، فتجد أحدهم يوالي من يوافق هواه، ويعادي من يخالفه)(٢).

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على وجود هذه الخصلة الجاهلية بقول فرعون الذي صور لنا القرآن الكريم الكثير من وسائله الوحشية في قمع مخالفيه، والتي كان منها التهديد والتوعد بالسجن لمن

---

(١) سورة الشعراء، الآية: (٢٩).

(٢) الفتاوى (١٤/ ٣٢٤).

يخالفه. فقد هدّدّ فرعون نبي الله موسى - عليه السلام - بالسجن، حين وقف عاجزًا أمام الحجج التي حاجهُ بها موسى - عليه السلام -، فقال فرعون لموسى: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: وقد قال فرعون بهذه المقالة حين قامت عليه الحجة بالبيان، والعقل، فعدل إلى أن يقهر موسى بيده، وسلطانه، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فكان رده استكبارًا عن الحق، وتماديًا في الغي، وذلك بتهديد موسى - عليه السلام - إن أقر بمعبود سوى فرعون، ليسجننه مع من في السجن من أهله (١).

وكما وقعت هذه الخصلة من فرعون تجاه من يخالفه، فإنها قد وقعت أيضًا من قبله من امرأة عزيز(٢) مصر، حين امتنع يوسف - عليه السلام - عن أن يفعل ما راودته عنه من فعل الفاحشة بها، فقال تعالى عن تهديدها ليوسف - عليه السلام -: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾(٣).

قال أحد المفسرين عن تفسير الآية: أي لئن لم يفعل ما قد أمرته به ليعتقل فيسجن، وليكونن من الصاغرين الأذلاء(٤).

---

(١) انظر. تفسير الطبري (٩/ ٤٤٠)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٤).

(٢) هي زوجة وزير مصر الذي كان على خزائن مصر، قيل اسمها راعيل، وقيل زليخا. انظر: تفسير آية كثير (٢/ ٤٧٤).

(٣) سورة يوسف، الآية: (٣٢).

(٤) فتح القدير (٣/ ٣٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - معلقًا على موقف يوسف - عليه السلام - من هذه الخصلة الجاهلية: (يوسف - عليه السلام - خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم؛ إذ أطاع الله، بل آثر الحبس، والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز، وقضاء الشهوات، ونيل الرياسة، والمال مع المعصية، لهذا اختار يوسف - عليه السلام - الذل والحبس، وترك الشهوة، والخروج عن المال، والرياسة، مع الطاعة على العز، والرياسة، والمال وقضاء الشهوة مع المعصية)(١).

هذا وقد أوذي رسول الله ﷺ بمثل هذه الخصلة من قومه فقد لقي النبي ﷺ من قريش ما لقيه من سبقه من الأنبياء من أقوامهم، حين عمد كفار قريش إلى محاولة حبسه، أو قتله حين رأوا إصراره على مخالفتهم في الدعوة إلى الحق، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ عبادة الأوثان والأصنام من دون الله، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾(٢).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسير الآية: (﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أي ليوثقوك)(٣).

وقال المفسرون في تفسيرها أي: الإثبات هو الحبس والوثاق، أي ليسجنوك (٤).

---

(١) الفتاوى (١٥/ ١٣٢).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٣٠).

(٣) انظر.تفسير الطبري (٦/ ٣٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣).

(٤) السابق.

كما لم تقتصر قريش على إيذاء النبي ﷺ بهذه الخصلة؛ بل وتجاوزته إلى حبس عشيرته، وما ذلك إلا لإيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهله وبني قومه، وفيمن تبعه أيضًا فقيل عن ذلك: (لقد عمد المشركون إلى حبس النبي ﷺ وبني هاشم في أحد شعاب مكة، وكتبوا في ذلك صحيفة تنص على عدم مناكحتهم، وأن لا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، وعلقوا هذه الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم في المقاطعة حين بدأ الإسلام يفشو في القبائل)[١].

كما لقي الكثير ممن آمنوا بالنبي ﷺ من الصحابة مثل هذا النوع من التهديد، والوعيد بالحبس، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لما بايعت الأنصار النبي ﷺ، وعرف المشركون بذلك صاروا يقصدون منع النبي من الخروج، ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك، ولم يكن أحد يهاجر إلا سرًا)[٢].

ومن هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالنبي ﷺ وأوذوا بمثل هذه الخصلة الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - حين حُبس في رحلة بحثه عن الدين الحق، فقد لقي من والده المجوسي القيد في رجليه، والحبس في بيته حين صرح له سلمان - رضي الله عنه - بأن دين النصارى خير من المجوسيه[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام (١ - ٢/ ٣٢٥، ٣٤٥).

(٢) الفتاوى (١٠/ ١٢٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١، ٢/ ٢١٠)، الإصابة (٢/ ٦١).

كذلك ما لقيه عثمان بن عفان – رضي الله عنه – من عمه الحكم بن أبي العاص[١] حين علم بإسلامه، فأوثقه رباطًا، طمعًا أن يرده عن إسلامه فيعود للكفر[٢].

وما لقيه مصعب بن عمير[٣] – رضي الله عنه – من أمه، وقومه حين علموا بإسلامه، فأوثقوه، فلم يزل محبوسًا إلى أن هرب وهاجر إلى الحبشة[٤]، فرارًا بدينه.

كذلك لقيه الكثير من العلماء، والفقهاء، والعامة على مر العصور من التهديد والوعيد، بل وحُقق في حق البعض منهم هذا الوعيد مع ما يصاحبه من التعذيب الذي أدى بموت الكثير منهم داخل تلك السجون.

فمن هؤلاء العلماء إمام السنة الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – وذلك في محنة القول بخلق القرآن التي تصدى لها، فقد لقي الضرب، والحبس، وألوانًا من التعذيب حين خالف القائلين بخلق القرآن في عصره من المعتزلة.

---

(١) هو: الحكم بن العاص بن أمية عم عثمان بن عفان رضي الله عنهما، والد مروان شهد معارك عدة. توفي في معركة اليرموك ٣٢هـ. انظر: الإصابة (١:٣٤٤)، مرآة الجنان لليافعي. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة، ١٤١٣هـ، (١/ ٨٥).

(٢) انظر.الإصابة (٢/ ٤٥٦)، الاستيعاب (٣/ ٦٩).

(٣) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب العبدري أحد السابقين إلى الإسلام، يكنى أبا عبد الله، كتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، شهد بدرًا وأحدًا، واستشهد في أحد ومعه اللواء. انظر: الإصابة (٣/ ٤٠١).

(٤) الإصابة (٣/ ٤٠١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله -: (لقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلطون من شرق الأرض وغربها، ومعهم من العلماء، والمتكلمين، والقضاة، والوزراء، والسعاة، والأمراء والولاة من لا يحصيهم إلا الله، فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وغيره... وما رجع – رحمه الله – عما جاء به الكتاب والسنة... فدفع من البدع المخالفة مالم يتأت مثله لعالـم)(١). فرحمه الله رحمةً واسعة.

لهذا دعا الشارع عز وجل إلى مخالفة أهل الجاهلية في التعامل مع من خالفهم، فدعا إلى العدل، والقسط في التعامل في جميع ما يرد إليهم من مخالفيهم، فإن كان الوارد إليهم حقًا قبلوه، وعملوا به، وإن كان الوارد إليهم باطلاً ردوه من غير ظلم، واستبداد، إنما بعدل، وحكمة وبيان للحق لهذا المخالف الجاهل، وبوعظ، ومجادلة بالتي هي أحسن للمعاند، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾(٣).

كما نهى الشارع عباده عن اتباع الهوى في الحكم، والتعامل مع الآخرين

---

(١) الفتاوى (١٢/ ٤٢٩) للاستزادة انظر. الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية. لمرعي الكرمي الحنبلي. ت: نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة. بيروت (ط١)، ١٤٠٤هـ، ص(٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١٣).

(٣) سورة النحل، الآية: (١٢٥).

أيًا كانوا، قال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(٣). قال الطبري والمراد بالآية: (أي لا يحملنكم بغض أقوام على الاعتداء عليهم)(٤).

وهذه الآيات من سورة المائدة صريحة بوجوب العدل في التعامل، والحذر من الظلم والاعتداء، فتهديد المخالفين وتوعدهم بالسجن، نوعٌ من أنواع الظلم الذي نهانا عنه الشارع، ودعانا إلى خلافه، وهو العدل. كذلك حذرنا نبينا محمد ﷺ من الظلم عامة، ودعانا إلى العدل والقسط في المعاملة، قال ﷺ في الحث على ذلك: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...»(٥). وقال ﷺ في الحديث القدسي عن الله: «يا عبادي إني حرمت الظُّلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا...»(٦). وقال

---

(١) سورة ص، الآية: (٢٦).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٨).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٤٠٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المظالم. باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه برقم (٢٤٤٢) بمثله، ص(١٩٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر. باب تحريم الظلم برقم (٦٥٧٨)، بمثله، ص(١١٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تحريم الظلم برقم (٦٥٧٢)، بمثله ص(١١٢٩).

=

ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا»(١). قال أحد العلماء في شرح الحديث: «أي العادلون فيمن كانت لهم عليه ولاية؛ سواء ولاية خلافة، أو إمارة، أو قضاء أو حسبة، أو نظر على يتيم، أو صدقة، أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك»(٢). وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة فيما بينهم، وتجاه من خالفهم. فعن هذا المنهج لأهل السنة والجماعة فيما بينهم وتجاه من خالفهم يقول أهل العلم: وقد تميز منهج أهل السنة والجماعة بالعدل والألفة فيما بينهم، وإن حصل الائتلاف، فهم متفقون؛ لأنهم يأخذون من الكتاب، والسنة، ويعملون بهما، فأورثهم ذلك الاتفاق والائتلاف، وإن حصل اختلاف فهو في الفروع، إلا أن هذا الاختلاف فيما بينهم لا يفقدهم المودة، والنصح بعضهم لبعض، فالألفة، والمودة، والرحمة، والشفقة، والنصيحة باقية وإن حصل اختلاف(٣).

وهذا خلافًا لمنهج أهل البدع مع من خالفهم الذي قال عنه الإمام ابن

=

موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم برقم (٤٧٢١). بمثله، ص(١٠٠٥، ١٠٠٦)، موسوعة الحديث الشريف، وقال الألباني في الصحيحة: صحيح برقم (٤٩٧٢).

(٢) المنهاج. للنووي (١٤٢٢).

(٣) انظر: الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٤٢) بتصرف، وللاستزادة انظر. وعقيدة أهل السنة والجماعة. تقديم الشيخ عبد العزيز بن باز. تأليف: محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة. الرياض. (ط٢)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص(٥٥).

قيم الجوزية: (منهج النفاة مع أهل الإثبات، إذا غُلبوا وقامت حجتهم عليهم عدلوا إلى عقوبتهم، وإلزامهم بالأخذ بأقوالهم ومذاهبهم بالضرب، والحبس، والقتل... وبهذه الطريقة أخذ فرعون يقاوم موسى عليه السلام، فلما عجز عن البيان، والحجة، عدل معه إلى الوعيد بالسجن، فقال: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[(١)]) [(٢)].

وقد ظهرت هذه الخصلة الجاهلية لدى أهل الكتاب من النصارى في حروبهم الصليبية ضد المسلمين، وفي القرون الوسطى حين ظهرت محاكم التفتيش، كما ظهرت عند اليهود، بل إنها سمة سائدة لدى اليهود في كل عصر، وهي السجن لمن يخالفهم، ولا يخفى على أحد حال إخواننا المسلمين في فلسطين والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية، وما يتعرضون له من التهديد والحبس والتعذيب[(٣)].

فهي خصلة تبرز عند من يملك السلطة والرئاسة، ويرغب بالاستبداد وطرح النفوذ.

* * *

(١) سورة الشعراء، الآية: (٢٩).

(٢) الصواعق المرسلة ٤/ ١٣٨٩، ١٣٩٠).

(٣) للاستزادة: برتوكولات حكماء صهيون، المسيحية: للأستاذ ساجد مير.

المسألة الثانية والسبعون

بناء واتخاذ مالا يحتاجون إليه من المصانع عبثًا لقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾[(١)] الآية

يبين المؤلف – رحمه الله – هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية التي اشتهر بها قوم هود عليه السلام، وهي بناؤهم واتخاذهم ما لا يحتاجون إليه من المصانع عبثًا.

فقد كانوا قومًا مترفين، ومما يدل على ذلك أنهم بالغوا في بناء القصور وتشييدها، كما بالغوا في بناء صهاريج الماء من غير حاجة إلى هذا كله.

فتشييد البيوت وبناؤها، وكذلك موارد المياه أمرٌ فطري لابد للإنسان من تحصيله، إلا أن المبالغة في بناء البيوت، وموارد المياه، ونحوها من غير حاجة إلى ذلك كله، يُعدُ من العبث. كما يُعد خصلة من خصال أهل الجاهلية.

والمصانع هي: ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها، وقيل: هي القصور، وقيل: هي القرى والمباني من القصور والحصون[(٢)].

وقد استدل المؤلف رحمه الله تعالى على ذم هذه الخصلة بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: (١٢٨، ١٢٩).

(٢) انظر. لسان العرب (٨/ ٢١١)، مختار الصحاح (٣٣٧)، القاموس المحيط (٣/ ٥٤، ٥٥).

قال ابن عباس ومجاهد في بيان المراد بالمصانع: (المصانع هي القصور المشيدة والحصون)[١].

وقال قتادة: (هي مآخذ الماء)[٢].

وقال الطبري في تفسير الآية: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمى كل بناء مصنعه، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون مآخذ للماء)[٣].

وقال أحد المفسرين في تفسير الآية وبيان هذه الخصلة: (وقد ذُكر أنه: لما استخف قوم هود بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين، فاتهم هود - عليه السلام - بالتوبيخ على ما فُتنوا بالإعجاب به من بنائهم، وتشييدهم لمصانع المياه، وهي الصهاريج التي تجمع فيها مياه المطر، ومن بنائهم للحصون، والقصور على أشراف الأرض، فرغم أنها أعمال نافعة في ذاتها؛ لأن فيها حفظ الناس من الهلاك، إلا أن الله ذمها لأنهم أهملوا إرضاء الله تعالى بها، فاتخذوها للرياء، والغرور، والعظمة، فصار وجودها شبيهًا بالعبث، ولأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة، فكانوا بذلك قد اقتصروا

(١) انظر.تفسير الطبري (٩/ ٤٦١)، تفسير القرطبي (١٣/ ١١٤)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢)، فتح الباري (٨/ ٤٩٨).
(٢) انظر.تفسير الطبري (٩/ ٤٦١)، تفسير القرطبي (١٣/ ١١٤)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢)، فتح الباري (٨/ ٤٩٨).
(٣) تفسير الطبري (٩/ ٤٦٠، ٤٦١).

على التزود للحياة الدنيا، وأعرضوا عن الآخرة)[١].

وقال أحد العلماء معلقًا على هذه الخصلة: (فمعلوم أن المسكن لابد للإنسان منه في الجملة، - (وكذلك موارد الماء) -[٢] فيجب على المرء تحصيله لنفسه، ولمن تلزمه نفقته، ومثل هذا يعاقب على تركه، ويثاب على فعله، وموت الإنسان عنه كبقية ماله المخلّف عنه لورثته يثاب عليه، أما الزيادة على ذلك، فإن كانت يسيرة لا تعدّ في العادة، والعرف إسرافًا، واعتداءً، ومجاوزةً للحدّ، فلا بأس بها، أما الإسراف والاعتداء في ذلك فقد دلت السنة على كراهتها)[٣]. وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، ودعا إلى مخالفتهم.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: (أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبةً مشرفة، فقال: ما هذه؟ قال له أصحابه: هذه لفلان، رجل من الأنصار، قال: فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ يسلم عليه في الناس، أعرض عنه، صنع ذلك مرارًا، حتى عرف الرجل الغضب فيه، والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، فقال: والله! إني لأنكر رسول الله ﷺ، قالوا: خرج فرأى قبتك، فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يرها، فقال: ما فعلت القبة؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه، فهدمها،

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩/ ١٦٥، ١٦٦).
(٢) جملة اعتراضية.
(٣) الآداب الشرعية (٧٩٨).

فقال: أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لاً، إلا ما لاً» يعني ما لابد منه)[١].

قال أحد أهل العلم في المراد بالحديث: والقبة المشرفة هي: بناء عالٍ، وقد استنكر الرسول ﷺ هذه العمارة المنكرة ومن بانيها فأضمر تلك الفعلة في نفسه غضبًا على فاعلها في فعلها، إلا أن الصحابي رضي الله عنه أحس بغضب النبي ﷺ وكراهته[٢].

كذلك ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد ليؤجر في نفقته كلها إلا في التراب - أو قال - في البناء» [٣] وظاهر الحديث أنه لا إثم له بذلك[٤].

كما قال ﷺ: «النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه» [٥].

وقال أيضًا: «من بنى بنيانًا في غير ظلم ولا اعتداء... كان له أجرٌ جارٍ،

---

(١) أخرجه أبي داود في سننه، كتاب الأدب. باب في البناء برقم (٥٢٣٧) بمثله (١٦٠٥). موسوعة الحديث الشريف، قال صاحب الآداب الشرعية إسناده جيد.

(٢) عون المعبود (٢٢٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب صفة القيامة. باب النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء برقم (٢٤٨٣) قال الترمذي حديث حسن صحيح (١٩٠١). موسوعة الحديث الشريف، وقال صاحب الآداب إسناده جيد قال الألباني: صحيح.

(٤) الآداب الشرعية (٧٩٧).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب صفة القيامة. باب النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء برقم (٢٤٨٢). بمثله قال الترمذي حديث غريب قال الألباني ضعيف، ص(١٩٠١). موسوعة الحديث الشريف.

ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى»[١].

قال أحد العلماء في المراد بهذا الحديث: أي أن العبد يؤجر في نفقته كلها إلا في نفقته في البنيان الذي لم يقصد به وجه الله، أو قد زاد على الحاجة[٢].

يقول أحد العلماء عما دلت عليه النصوص السابقة فيما يتعلق بالحكم: فجميع الأخبار السابقة ظواهرها دلت على الكراهة لا على التحريم، لهذا لم يأمر النبي ﷺ بهدم تلك القبة، ولا طلب صاحبها فأمره بذلك[٣].

وقد ورد أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة[٤] من البنيان ونصب الأشجار، قام في مسجدهم فنادى وقال: (يا أهل دمشق... ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون.. إنه من كان قبلكم يبنون فيوثقون، فأصبحت مساكنهم قبورًا...)[٥].

إن ظاهر هذه النصوص السابقة دلت على أنه لا حرج أن يبني الإنسان ما يحتاج إليه من البيوت، ومن موارد الماء قدر حاجته، كما لا حرج عليه إن أراد الزيادة عن قدر حاجته في ذلك، في حال أدى جميع حقوق الله تعالى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٧٠١) بمثله، ص(١٠٧٧).

(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ١٩٣٣).

(٣) الآداب الشرعية (٧٩٨).

(٤) هي موضع في الشام كثير الماء والشجر وهي غوطة دمشق. معجم البلدان (٣/ ٤٠٩) (٤/ ٢١٩).

(٥) انظر. تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٣)، تاريخ دمشق (٤٧/ ١٣٢).

عليه، وقصد من ذلك أن يُري الله أثر نعمته عليه.

وقد قال أحد العلماء عن ذلك: (إن الزيادة في البناء المنهي عنها هي الزيادة المتخذة للرياء، والغرور، والعظمة، والمشغلة عن المقصد النافع للحياة في الآخرة)[١].

لهذا فقد اتفق العلماء - رحمهم الله – على أن بناء المرء ما يستتر به هو وعياله وماله، من العيون، والبرد، والحر، والمطر، فرض، كما اتفقوا على أن الاتساع في المكاسب، والمباني من حل، إذا أدى المرء جميع حقوق الله تعالى قبله مباح. ثم اختلفوا، فمن كاره ومن غير كاره[٢].

فالطريقة الصحيحة لعلاج هذه الخصلة والقضاء عليها هي طريقة نبينا محمد ﷺ تجاه هذه الخصلة، وهي الوسطية. قال أحد العلماء عن ذلك: ولنا في حال النبي ﷺ أكمل الأحوال، وفي طريقته خير الطرق لما علم عليه السلام أن الدنيا دار سفر لا دار إقامةٍ اتّخذ مساكن بحسب الحاجة تستر عن العيون، وتقي مضرة الحر والبرد، وتحفظ ما وضع فيها، ولم يزخرفها، ولم يشيدها ولم تكن ثقيلة فيخاف سقوطها، ولا واسعة رفيعة فتعشش فيها الهوام، بل هي مساكن متوسطة[٣].

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية وللأسف توجد لدى البعض من المسلمين في عصرنا الحاضر، فما نراه في بعض مجتمعات المسلمين، من مبالغة البعض

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩/ ١٦٦).

(٢) انظر: الإجماع لابن حزم (٢٥٠)، الآداب الشرعية (٧٩٩).

(٣) الآداب الشرعية (٧٩٩).

منهم في صرف الأموال الضخمة لبناء المنازل والدور، والتباهي في إعدادها، وتصاميمها، مع الحرص على تعدد مواقعها، وعلى سعتها ووفرة وسائل الترفيه فيها، مع أن الذي يكفي الإنسان من ذلك القليل لهو صورة حية لهذه الخصلة.

فالإسلام لا يدعو إلى ترك النعم والملذات، وإنما يدعو إلى الاقتصاد في الإنفاق، وعدم تعلق القلب بها، والركون إليها. كما وقد وجدت هذه الخصلة الجاهلية ظاهرةً جدًا وتكاد تكون سائدة عند أهل الكتاب من اليهود، والنصارى لدى أصحاب الأموال، والمناصب، فنجدهم يتنافسون تنافسًا شديدًا في المبالغة في بناء البيوت، وزخرفتها بقصد التفاخر، والعظمة بل وعمدوا إلى صرف الأموال الهائلة في سبيل ذلك، والإعلان عن ذلك كله للمباهاة به.

* * *

المسألة الثالثة والسبعون
الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون

يبين المؤلف – رحمه الله – أن من خصال أهل الجاهلية عند البعض من الشعراء أنهم يقولون ما لا يفعلون، متبجحين بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا عنهم، رغبةً في الشهرة، أو المكانة ونحوها.

فالشعر في اللغة: من شَعُرَ يَشْعُر شعِرًا وشَعرًا وشِعرةً ومشعورةً وشعورًا وشعورةً، وهو كلام العرب، وهو منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية(١).

والشعر منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

والمذموم من الشعر هو المراد بهذه المسألة، وهو ما أشتمل على فحش، أو خنا، أو أذىً لمسلم، وقد ذم الله – عز وجل – قائله في محكم كتابه ليدعو عباده المؤمنين إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾(٢).

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير الآية: (أي أن أكثر قولهم يكذبون به)(٣).

---

(١) لسان العرب (٤/ ٤٠٩).

(٢) سورة الشعراء، الآيات: (٢٢٤ – ٢٢٦).

(٣) انظر.تفسير الطبري (٩/ ٤٩٠)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٢).

وقال قتادة – رحمه الله – أيضًا في تفسيرها: (أي أن أكثر قيلهم باطل، وكذب، فيمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل)(١).

وقال الإمام ابن العربي في بيان المراد من قوله: (﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي ما يذكرونه في شعرهم من الكذب في المدح، والتفاخر، والغزل، والشجاعة)(٢).

وقال الإمام القرطبي – رحمه الله – في تفسير الآية وفي حكم هذه الخصلة: (إن الشعر المذموم هو الذي لا يحل سماعه، وصاحبه، ملوم، فهو المتكلم بالباطل، حتى يفضل أجبنهم على أشجعهم، وأشحهم على أكرمهم، وأن يبهتوا البريء، ويفسقوا التقي، ويفرطوا في المدح إذا أعطوا، وفي الهجاء، والذم إذا منعوا، فيؤذوا الناس في أموالهم، وأعراضهم، ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحال، فإن كل ما يكتسبه بالشعر حرام)(٣).

كما وقد خالف هدي نبينا محمد ﷺ في هذه الخصلة، حين ذم مثل هؤلاء الشعراء، وذم شعرهم إذ إن الشعر الذي يخوض صاحبه به في الباطل، ويشغله عن ذكر الله، قد ذمه النبي ﷺ فقال عنه: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا»(٤).

---

(١) انظر.تفسير الطبري (٩/ ٤٩٠)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٢).
(٢) أحكام القرآن لابن العرب (٣/ ٣٥٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٣/ ١٣٤، ١٣٦).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر =

وقال أيضًا إذا عرض له شاعر ينشد: «خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا»[(١)].

قال أحد أئمة العلم والمراد من هذه الأحاديث: (حين يكون الشعر غالبًا عليه، مستوليًا عليه، بحيث يشغله عن القرآن، وغيره من العلوم الشرعية، وذكر الله تعالى، فهذا مذموم من أي شعر كان، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه، فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئًا شعرًا، وقد استدل العلماء كافة بهذه الأحاديث على أن الشعر مباح مالم يكن فيه فحش ونحوه، وقالوا عن ذلك: هو كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح وهذا هو الصواب)[(٢)].

لهذا فالناظر إلى الآية التي ذم فيها الشارع الشعراء القائلين بما لا يفعلون، يجد أنها قد اشتملت أيضًا على الدعوة لمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بدليل، أن الله - عز وجل - أتبع الآية التي ورد فيها ذم هذه الخصلة، استثناء أثنى فيه الله - عز وجل - على الشعراء الذين آمنوا بالله،

=

حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن برقم (٦١٥٤، ٦١٥٥) بمثله، ص(٥١٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر باب في إنشاد الأشعار وبيان أشهر الكلمة وذم الشعر برقم (٥٨٩٣، ٥٨٩٤) بمثله، ص(١٠٧٨). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الشعر. باب في إنشاد الأشعار وبيان أثر الكلمة وذم الشعر برقم (٥٨٩٥) بمثله، ص(١٠٧٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٦٧٦).

وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرًا، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١].

قال الإمام الطبري - رحمه الله – عن هذه الآية: (لما نزلت الآية التي ورد فيها ذم

الشعراء جاء حسان بن ثابت[٢]، وعبد الله بن رواحة[٣]، وكعب بن مالك[٤] إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فقد وصف هؤلاء الذين استثناهم من شعراء المؤمنين بذكر الله كثيرًا، ولم يخص ذكرهم الله على حال دون حال في كتابه، ولا على لسان رسوله، فصفتهم أنهم يذكرون الله كثيرًا في كل أحوالهم)[٥].

وقال القرطبي – رحمه الله – عن ذلك: (فلم ينكر الحسن من الشعر

---

(١) سورة الشعراء، الآية: (٢٢٧).

(٢) هو: حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي شاعر رسول الله ﷺ، وشاعر الأنصار، وشاعر اليمن. توفي سنة ٤٠هـ. انظر: الاستيعاب (١/ ٣٣٤)، الإصابة (١/ ٣٢٥).

(٣) هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة ابن امرئ القيس الخزرجي الأنصاري يكنى أبا محمد، وقيل أبو رواحة، كان أحد النقباء في ليلة العقبة، شهد بدرًا. توفي سنة ٨هـ في معركة مؤتة. انظر: الاستيعاب (٢/ ٢٨٤)، الإصابة (٢/ ٢٩٨).

(٤) هو: كعب بن مالك بن أبي بن كعب أبو عبد الله الأنصاري، كانت كنيته في الجاهلية أبا بشير، فكناه النبي ﷺ أبا عبد الله، كان شاعرًا، شهد العقبة وأحدًا، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم حين تخلفوا في معركة تبوك. مات أيام قتل علي بن أبي طالب سنة ٥٠هـ. انظر: الاستيعاب (٣/ ٢٧٠)، الإصابة (٣/ ٣٨٦).

(٥) تفسير الطبري (٩/ ٤٩٠، ٤٩١).

أحدٌ من أهل العلم، ولا من أولي النُهى، وليس أحد من كبار الصحابة، وأهل العلم، وموضع القدوة، إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به، أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحًا، ولم يكن فيه فحش، ولا خناء، ولا لمسلم أذى)(١).

فقد ورد أن النبي ﷺ قد قال عن الشعر أن منه ما هو حكمة فقال: «إن من الشعر حكمة» (٢).

كما قد ورد أن النبي ﷺ كان يسمع الشعر الحسن، ويطلبه، فقد ورد عنه أنه سأل ابن الشريد: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت(٣) شيئًا، فقال: نعم، قال: «هيه»، فأنشدته بيتًا، فقال: «هيه»، ثم أنشدته بيتًا، فقال: «هيه»، حتى أنشدته مائة بيت(٤).

كذلك ما ورد عنه ﷺ حين دعا لحسان بن ثابت عند هجائه للمشركين، فقال له: «اللهم أيده بروح القدس»(٥).

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه برقم (٦١٤٦) بمثله، ص(٥١٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) هو أمية بن أبي الصلت، قرأ كتب أهل الكتاب، ورغب عن عبادة الأوثان، كان يخبر بأن نبيًا يبعث قد أظل زمانه، فلما سمع ببعثة النبي ﷺ كفر حسدًا. انظر: البداية والتاريخ (٢/ ١٤٤)، المعارف لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم. ت: د. ثروت عكاشة. دار المعارف القاهرة، ص(٦٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الشعر باب في إنشاد الأشعار وبيان أثر الكلمة وذم الشعر برقم (٥٨٨٥)، ص(١٠٧٨). بمثله موسوعة الحديث الشريف.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأداب. باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه برقم (٦١٥٢)، ص(٥١٩) وفي كتاب الصلاة باب الشعر في المسجد برقم (٤٥٣)، =

وبناء على هذه الأحاديث السابقة سيظهر لمن فهمها أيضًا كيفية مخالفة النبي ﷺ لأهل الجاهلية في هذا الخصلة، وذلك بأنهُ عليه الصلاة والسلام في حال سمع الشعر لا يسمع منه إلا الحسن، وذلك إقرار منه بفعله على جواز سماع الحسن من الشعر دون السيء منه.

وعن ذلك يقول أحد العلماء: (لقد استحسن النبي شعر أمية، واستزاد من إنشاده، لما فيه من الإقرار بالواحدانية والبعث، ففي هذا دليل على جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه، وسماعه، سواء شعر الجاهلية أو غيرهم؛ فالمذموم من الشعر الذي لا فحش فيه إنما هو الإكثار منه، وكونه غالبًا على الإنسان، فأما يسيره فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه)[(١)].

وبعد أن تبين حكم الشارع في هذه الخصلة، إلا أنها قد ظهرت كثيرًا لدى غالب شعراء المسلمين قديمًا وحديثًا، فكما تمثلت لدى الكثير من شعراء أهل الجاهلية الأميين[(٢)]، والبعض من شعراء النصارى[(٣)]، وذلك

= ص(٣٨) وفي كتاب بدء الخلق. باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم برقم (٣٢١٢)، ص(٢٦١) بمثله، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه برقم (٦٣٨٤، ٦٣٨٥، ٦٣٨٦) بمثله، ص(١١١٤، ١١١٥). موسوعة الحديث الشريف.

(١) المنهاج (١٦٧٥).

(٢) ومن هؤلاء الشعراء: امرؤ القيس، عمرو بن كلثوم وغيرهم من الشعراء. انظر: نقد الشعر لأبي الفرج قدامة ابن جعفر. ت: كمال مصطفى. مكتبة الخانجي. القاهرة، (ط٣)، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٣) كالأخطل.

حين غلب على معظم أشعارهم طابع الفحش الشديد؛ والمبالغة في المدح والثناء في وصف الفضائل، أو المبالغة في الذم عند الهجاء كذلك بدت لدى البعض من شعراء الإسلام[١] قديمًا وحديثًا في بعض قصائدهم التي خلت من الحياء؛ والصدق؛ وسلامة الفكر والمعتقد، وذلك حين سطروا قصائدهم التي ملئت بالفحش الشديد والمجون، أو بالمبالغة في المدح والثناء وسرد الفضائل للآخرين بالباطل؛ طمعًا في التزلف والتقرب لمن نظموا له هذه القصائد، أو بالمبالغة في الذم والهجاء الذي يغلب عليه اتباع هوىً في النفس، أو النـزعة عصبية[٢] جاهلية، كفخر بالأحساب أو الأنساب ونحوها، أو بالمبالغة في التبجح بأقوال وأفعالٍ لم تصدر عنهم، والتي قصدوا بها التكثر بما ليس لهم.

* * *

(١) كالمتنبي، وأبي نواس وغيرهم من الشعراء. انظر: أسس النقد الأدبي عند العرب. د. أحمد أحمد بدوي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص(٤٠٥).

(٢) كالحاصل في عصرنا من الشعر المنظوم في مدح بعض الأشخاص أو القبائل، وذم من سواهم وهو ما يسمى بشعر المحاورة. انظر: الفتاوى الملاح في منكرات الأفراح. لسعيد السلمي. فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله عن حكم الملعبة في الأعراس.

المسألة الرابعة والسبعون
استمالة القلوب بالهدية كما في قصة النجاشي لما أرسلت إليه قريش هدايا ليرد المسلمين وجاء الشرع بالنهي عن الرشوة

يذكر المؤلف – رحمه الله – هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين على حد سواء، وهي استمالة قلوب من بيدهم الحل والعقد من الحكام، والقضاة ونحوهم بالهدية، ليقضي لهذا المهدي بما ليس له بحق، أو لإبطال حق.

وهذا النوع من الهدايا يدخل ضمن باب الرشوة التي حرمها الشارع – عز وجل –، إلا أنها أعطيت مسمىً آخر حتى تلاقي قبولاً ورواجًا بين الناس.

والرشوة في اللغة هي: من رشا، وهو فعل الرشوة، يقال: رشوته، والمراشاة: المحاباة والرشوة: الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، يقال راشي: وهو من يعطي الذي يعينه على الباطل، ومرتشي: الآخذ، ورائش: الذي يسعى بينهما(١).

واصطلاحًا: هو ما يأخذ الرجل لإبطال حق، أو لإحقاق باطل. أما إذا أعطى ليتوصل به إلى حق، أو ليدفع به المرء عن نفسه ظلمًا، فلا بأس به، وكذا الآخذ إذا أخذ ليسعى في إصابة صاحب الحق إلى مستحقه، فلا بأس

(١) لسان العرب (١٤/ ٣٢٢).

به، لكن ينبغي أن يكون في غير القضاة والولاة، لأن السعي في إصابة الحق إلى مستحقه، ودفع الظالم عن المظلوم واجب عليهم، فلا يجوز لهم الأخذ عليه[١].

وقد استدل المؤلف على ممارسة أهل الجاهلية للرشوة بما فعلته قريش بعد هجرة المسلمين للحبشة لردهم إليهم، حينها بعثت قريش رجلين منهم، ومعهما الهدايا لملك الحبشة النجاشي، فأهدوه إياها، وحين قبلها طلبوا منه أن يعطيهم المسلمين الهاربين إلى الحبشة، حينها رد عليهم هديتهم لما تبين له خبر الإسلام، فقال: لو رشوني جبل ذهب في هذا ما قبلته[٢].

لهذا جاء الإسلام بتحريم الرشوة والنهي عنها، والآيات في ذلك كثيرة، فمنها الآية التي خاطب فيها الشارع – عز وجل - بني إسرائيل، فقال تعالى فيها: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾[٣] . قال أحد المفسرين في تفسير الآية: أي بأوامري ونواهيَّ تشترون بهما عيشًا نزرًا، ورئاسة لا خطر لها، وهذه الآية وإن كانت خطابًا لبني إسرائيل، ونهيًا لهم، فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب، أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به، أو إثبات باطل نهى الله عنه، فقد اشترى

---

(١) انظر. كشاف القناع. (٦/ ٣١٦)، حاشية الروض المربع (٧/ ٥٢٩)، عون المعبود (١٥٢٧)، تحفة الأحوذي (١/ ١٢٨٨)، الدرر السنية (٧/ ٥٣٨).

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. للبيهقي. ت: عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٢/ ٢٩٥ – ٢٩٦).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٤١).

بآيات الله ثمنًا قليلاً[١].

كما وردت آية بعدها وبخ الله فيها أحبار اليهود على استحلالهم للرشوة مع علمهم بتحريمها ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

قال المفسرون في تفسير الآية: أي هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حقٌّ، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق[٣].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

قال القرطبي في تفسير الآية: (أي لا تُصانعوا بأموالكم الحكام، وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها، لأن الحكام مظنة الرّشاء إلا من عصم، وهو الأقل)[٥].

وقال تعالى في تحريم هذه الخصلة: ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ ﴾[٦] قال مجاهد في تفسير الآية: (أي الرشوة في الحكم وهم

(١) فتح القدير (١/ ٩٦، ٩٧).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٤٤).
(٣) انظر. تفسير الطبري (١/ ٢٩٧)، تفسير ابن كثير (١/ ١١٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨٨).
(٥) تفسير القرطبي (٢/ ٣٣٧).
(٦) سورة المائدة، الآية: (٤٢).

اليهود)(١).

وقد قيل لعبد الله بن مسعود: (ما السحت؟ قال: الرشوة، قالوا: في الحكم؟ قال: ذاك الكفر)(٢).

كما قال تعالى في ذمهم على هذه الخصلة: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾(٣). قال الطبري في المراد بالسحت: (فالسحت: الرشوة التي كان يأخذها أحبار اليهود، وربانيوهم على حكمهم بغير كتاب الله لمن حكموا له به)(٤).

وقد قال عمر - رضي الله عنه - في ذم هذه الخصلة: (بابان من السحت يأكلهما الناس: الرشا، ومهر الزانية)(٥).

لهذا خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نهى عن الرشوة، ولعن آكلها، ومؤكلها، والساعي بينهما فقال ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم»(٦).

---

(١) انظر. تفسير الطبري (٤/ ٥٧٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٦١).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٤/ ٥٧٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٦١)، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٤٣٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٦٣).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٦٣٨).

(٥) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٤٣٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في منسده برقم (٩٠١١، ٩٠١٩) بمثله، ص(٦٣٤، ٦٣٥)، وأبي داود في سننه في كتاب القضاء، باب كراهية الرشوة برقم (٣٥٨٠)، ص(١٤٨٨) بمثله، والترمذي في سننه في أبواب الأحكام. باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم برقم (١٣٣٦) وقال =

قال ابن حجر في شرح الحديث: (إن كل مال دفع ليبتاع به من ذي جاه عونًا على ما لا يحل فهو رشوة، لا تحل)[(١)].

لهذا ورد أن النبي ﷺ لما استعمل رجلاً على الصدقة، فلما قدِمَ قال هذا الرجل: هذا لكم وهذا أهدى لي. فقال النبي ﷺ: «فهلا جلس في بيت أبيه - أو بيت أمه - فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منكم شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع بيده حتى رأينا عقرْ إبطيه - اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ثلاثًا»[(٢)].

وفي هذا قال عمر بن عبد العزيز: (كانت الهدية في زمن رسول الله ﷺ هدية، واليوم رشوة)[(٣)]. والمقصد من إهداء الهدية عند المهدي لا يخرج عن أحد ثلاثة، وعن ذلك يقول العلماء: «فالمهدي لا يخلو أن يقصد ود المهدى

=

الترمذي حديث حسن صحيح، وبرقم (١٣٣٧)، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، ص(١٧٨٥،١٧٨٦)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام. باب التغليظ في الحيف والرشوة برقم (٢٣١٣) بمثله، ص(٢٦١٥). موسوعة الحديث الشريف، وصححه ابن حبان برقم (١١٩٦)، والحاكم بزيادة (الرائش) (٤/ ١٠٣)، ووافقه الذهبي، وقال شعيب صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن كما في غاية المرام برقم (٤٥٧)، وقال الألباني: صحيح.

(١) فتح الباري (٥/ ٢٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلة برقم (٢٥٩٧). بمثله، ص(٢٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال برقم (٤٧٣٨، ٤٧٣٩، ٤٧٤٠) بمثله ص(١٠٠٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) صحيح البخاري في كتاب الهبة. باب من لم يقبل الهدية لعلة، ص(٢٠٤).

إليه، أو عونه، أو ماله، فأفضلها الأول، والثالث جائز لأنه يتوقع الزيادة على وجه جميل، وقد تستحب إن كان محتاجًا، والمهدي لا يتكلف وإلا فيكره، وقد تكون سببًا للمودة وعكسها. وأما الثاني فإن كان لمعصية فلا يحل، وهو الرشوة، وإن كان لطاعة فيستحب، وإن كان لجائز فجائز، لكن إن لم يكن المهدي له حاكما، والإعانة لدفع مظلمة، أو إيصال حق فهو جائز، ولكن يستحب له ترك الأخذ، أما إن كان المهدى له من الحكام أو القضاة فهي من الرشوة؛ لأن المهدي إذا لم يكن معتادًا الإهداء إلى القاضي قبل ولايته، لا يهدي إليه إلا لغرض، وهو إما التقوي به على باطلة، أو التوصل بهديته له إلى حقه والكل حرام [١].

وقد اتفق العلماء على تحريم الرشوة على قضاءٍ بحق أو باطل، أو تعجيلاً لقضاء بحق أو باطل [٢].

فمن أعطى الرشوة أو أخذها فقد شابه أهل الجاهلية من أهل الكتاب والأميين في هذه الخصلة الجاهلية.

قال شيخ الإسلام ابن يتيمة - رحمه الله - في ذلك: (إن من ارتشى لتعطيل حد ضعفت نفسه أن يقيم حدًا آخر، وصار من جنس اليهود

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٣١)، وللاستزادة. انظر: شرح السنة للبغوي (١٠/ ٨٨، ٨٩)، عون المعبود (١٥٢٨)، السياسة الشرعية لابن تيمية (٤٥، ٤٦)، الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (٢/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) مراتب الإجماع لابن حزم (٨٦).

الملعونين، فالرشوة تلجم المرتشي عن التكلم بالحق)[١]... كما قال في موضع آخر: (فمن أهدى هدية لولي أمر ليفعل معه ما لا يجوز كان حرامًا على المهدي، والمهدى إليه، وهذه من الرشوة)[٢].

وقال ابن قيم الجوزية عن حكم الرشوة وأنواعها: (الرشوة حرام، وهي ضربان:

النوع الأول: رشوة ليميل إلى أحدهما بغير حق؛ فهذه حرام عن فعل حرام على الآخذ، والمعطي، وهما آثمان.

والنوع الثاني: رشوة يعطاها ليحكم بالحق، واستيفاء حق المعطي من دين، ونحوه، فهي حرام على الحاكم دون المعطي، لأنها للاستنقاذ، فهي كأجرة الوكلاء في الخصومة)[٣].

وقال أيضًا في موضع آخر: (وأما استحلال السحت باسم الهدية، هو أظهر من أن يذكر، كرشوة الحاكم والوالي وغيرهما، فإن المرتشي ملعون هو والراشي، لما في ذلك من المفسدة، ومعلوم قطعًا أنهما لا يخرجان عن الحقيقة، وحقيقة الرشوة بمجرد اسم الهدية. وقد علمنا وعلم الله وملائكته ومن له اطلاع إلى الحيل أنها رشوة)[٤].

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٣٠٤).

(٢) الفتاوى (٣١/ ٢٨٦).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٦٣).

(٤) إعلام الموقعين. لابن قيم الجوزية. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت - لبنان، (ط١)، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

وبعد، فرغم وضوح الأدلة وصراحتها في بيان الرشوة وشدة حرمتها إلا أن ما يحصل في عصرنا اليوم عند البعض من الشركات، أو القطاعات الحكومية من دفع الأموال لأجل إرساء بعض الصفقات التجارية لصالح شركات معينة، أو لأجل الحصول على وظيفة معينة ونحوها ممن هم ليسوا بأهلٍ هي صور من صور الرشوة التي تهاون فيها البعض، سواء من الراشي أو المرتشي. فنسأل الله لنا ولهم الهداية والرشاد.

*   *   *

المسألة الخامسة والسبعون
الاستهزاء في صورة المدح كقول قوم شعيب:
﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[1]

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية والتي تُعبر عن أحد طرق التمرد والاستكبار عند أهل الباطل عن قبول الحق، وهي الاستهزاء والسخرية بأهل الحق بخطاب يخرج مخرج المدح، فيوحي للسامع أنه خطاب مدح، وهو في الحقيقة خطابٌ قد خرج بغرض التهكم والسخرية بالمخاطب.

ويعرف هذا الأسلوب في مصطلح علماء البلاغة والبيان تأكيد الذم بما يشبه المدح.

يقول علماء اللغة والبلاغة في المراد بهذا الأسلوب: إن هذا الأسلوب في مصطلح علماء البيان عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، استهزاءً بالمخاطب[2].

كما قيل أيضًا: إن هذا الأسلوب من أساليب الاستعارة التهكمية، ويراد بها التهكم والاستهزاء، وذلك باستعمال اللفظ الموضوع لمعنى شريف

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٧).

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للإمام يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني. ت: د. عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية. صيدا - بيروت، (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (٣/ ٩١).

على ضده أو نقيضه، كقوله عند رؤية الجبان: رأيتُ أسدًا(١).

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على وجود هذه الخصلة الجاهلية عند قوم شعيب - عليه السلام -، عند خطابهم لهُ بهذا الأسلوب الساخر الخارج في صورة مدح، وذلك حين أمرهم - عليه الصلاة والسلام - بعبادة الله وحده، والوفاء بالكيل والوزن لما عُرف عنهم من التطفيف في الكيل والوزن، فقال تعالى عنهم: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾(٢).

وقد أورد القرطبي - رحمه الله - عدة أقوال في تفسير مراد قولهم بذلك: (فقيل: إنهم قالوه على وجه الاستهزاء، والسخرية، وقيل: إن العرب تصف الشيء بضده تطيرًا، وتفاؤلاً، وقيل: هو تعريض أرادوا به السبّ؛ وأحسن من هذا كله، ويدل ما قبله على صحته، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقًا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد أباؤنا! فهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه. وهذا المعنى يشبه قول اليهود من بني قريظة(٣) للنبي ﷺ حين قال لهم: «يا إخوة القردة» فقالوا: يا محمد ما

---

(١) انظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. لعبد المتعال الصعيدي. المطبعة النموذجية الحلمية. مصر، (ط٤)، (٣/ ١٢٢، ١٢٣)، جواهر البلاغة: للسيد أحمد الهاشمي، (٣٢٥-٣٢٦).

(٢) سورة هود، الآية: (٨٧).

(٣) نسبة إلى قريظة، وهو اسم رجل نزل قلعة حصينة بقرب المدينة، فنسب إليهم، وقريظة والنضير =

علمناك جهولاً!» [١]) [٢].

وقد قال علماء البيان والبلاغة عن حكاية قوم شعيب: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[٣] أنهم لم يخرجوه على جهة استحقاقه للمدح بهاتين الصفتين، مع كونه أهلاً لهما، وإنما أخرجوه مخرج الاستهزاء والتهكم بحاله، تمردًا واستكبارًا، وغرضهم: إنك لأنت السفيه الجاهل، حيث أمرهم بما أمرهم من الخير، والمعروف، فأبوا إلا ما كان عليه الأسلاف، فلا جرم من أنهم أخرجوه هذا المخرج من أجل ذلك، وليس له ضابط يضبطه، وإنما الجامع لشتات معانيه هو إخراج الكلام على خلاف مقتضى الحال[٤].

وقد وردت هذه الخصلة في أشعار أهل الجاهلية الأميين، مما يدل أيضًا على وجود هذه الخصلة عندهم، فمن الأبيات الشعرية التي حفظتها لنا كتب الأدب والتواريخ، ما كان واردًا على جهة التهكم، كقول من قال في رجل يتهكم برجل محدوب الظهر:

= أخوان من أولاد هارون النبي صلوات الله عليه والمنتسب إليه، وبنو قريظة أحد قبائل اليهود التي كانت في المدينة. انظر: الأنساب لابن سعيد عبد الكريم التميمي السمعاني. ت: عبد الله عمر البارودي. دار الفكر (ط١)، ١٩٩٨م، (٤/ ٤٧٥).

(١) مرسل، أخرجه الطبري (٢٨٤٤٦) عن قتادة مرسلاً في أثناء خبر طويل، والقرطبي في تفسيره (٩/ ٧٦).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٧٦).

(٣) سورة هود، الآية: (٨٧).

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة (٣/ ٩٢).

لا تظـنَّنَّ حدبــة الظَّهــر عيبًـا　　هي في الحسن من صفات الهلالِ
وكــذلك القــسيُّ محــدودباتٌ　　وهي أنكى من الظُّبـا والعـوالي
كوَّن الله حدبةً فيـك إن شـئت　　مـن الفـضل أو مـن الإفـضال
فأتــت ربـوةً عــلى طـود حلـم　　طــال أو موجــةً ببحــر نــوالِ
وإذا لم يكــن مــن الوصــل بُــدّ　　فعسى أن تزورني في الخيـال(١)

فقيل عن المراد بهذا المدح في الحقيقة: (ظاهر ما أورده مدحٌ كاملٌ كما ترى لما يظهر من صورته، وإنما أورده على جهة التهكم به والاستهزاء بحاله)(٢). وكقول امرئ القيس(٣) يصف كلبًا:

فأنــشب أظفــاره في النَّــسا　　فقلــتُ هُبِلــتَ ألا تنتــصر(٤)

فقوله: («هبلت ألا تنتصر» تهكمٌ بحالة في غاية اللطف والرشاقة؛ لأن ما فعله الكلب بصيد هو غاية الانتصار)(٥).

---

(١) قائل الشعر هو أبو الحسن علي بن يحيى المصري بن الذروي. انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي. ت: إبراهيم الزيبق. مؤسسة الرسالة. بيروت، (ط١)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، (٣/ ١٠٢).

(٢) انظر. الروضتين في أخبار الدولتين (٣/ ١٠١)، الطراز (٣/ ٩٢).

(٣) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي أحد شعراء الجاهلية، قال عنه الرسول ﷺ: (حامل لواء الشعراء إلى النار)، توفي في انقرة، له الديوان المطبوع باسمه. انظر: البداية والنهاية، (٢/ ٢١٨).

(٤) معجم الأدباء لأبي عبد الله ياقوت الحموي. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤١١هـ (٨٨)، معجم البلدان (٥/ ٢٨١).

(٥) الطراز (٣/ ٩٢).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نهى تعالى عن السخرية بالآخرين، وذلك باحتقارهم، والاستهزاء بهم كما ثبت في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾(١).

قال ابن كثير في تفسير الآية: (نهى تعالى عن السخرية بالناس بالاستهزاء بهم، واحتقارهم، وحرم ذلك؛ لأنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له)(٢).

كما حذر تعالى من عاقبة السخرية، والاستهزاء فقال تعالى عن ذلك: ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٣). قال ابن كثير في تفسير الآية: (بما أحله الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله، وعادوهم من العذاب، والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين)(٤).

وقال تعالى محذرًا من عاقبة هذه الخصلة: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٥).

---

(١) سورة الحجرات، الآية: (١١).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٣).
(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٠).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٦).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢١٢).

كما أنه - عليه الصلاة والسلام - خالف في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة، ودعا إلى مخالفتهم، فنهى - عليه السلام - عن احتقار الناس، والاستهزاء بهم وعده من الكبر، فقال - عليه السلام -: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» (١) . قال العلماء في المراد بغمط الناس: احتقارهم، والاستهانة بهم، وازدراؤهم وهو ناشئ عن الكبر (٢).

كما قد حرم - عليه الصلاة والسلام - من أن يهين المسلم أخاه المسلم، ويستصغره، ويزدريه، ويستهزئ به، باحتقاره له، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»(٣). قال بعض العلماء في المراد بهذا الحديث: أي: لا يهينه، ولا يهمل شأنه، ولا يستصغره، ويستقله (٤).

كما بيّن أن كمال إسلام المسلم حاصلٌ بسلامة المسلمين من لسانه ويده، فمن الإيذاء بالقول الاستهزاء، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٥). قال أحد العلماء في المراد

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٠٢).

(٢) انظر. تحفة الأحوذي (٢/ ١٦٦٠)، جامع العلوم والحكم (٦١٨، ٦١٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله برقم (٦٥٤١) بمثله، ص(١١٢٧)، موسوعة الحديث الشريف.

(٤) انظر. المنهاج (١٨٣٨)، تنبيه اللاهي شرح كتاب المناهي (٦١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده برقم (١٠) بمثله، ص(٣)، في باب أي الإسلام أفضل برقم (١١) بمثله، ص(٣) وفي كتاب =

بهذا الحديث: إن المسلم الكامل من لم يؤذ مسلمًا بقولٌ ولا فعل [(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن صفة المسلم الواردة في الحديث السابق وما يترتب عليها: (المسلم من سلم المسلمون من يده» هذه صفة المسلم، فمن خرج عنها خرج عن الإسلام، ومن خرج عن بعضها خرج عن الإسلام في ذلك البعض)[(٢)].

ولا يخفى على الكثير وجود هذه الخصلة لدى أهل الكتاب تجاه الشعوب والدول الأخرى، وبخاصة الشعوب الإسلامية حين يصفونهم بأنهم شعوب تملك الثروات، لكن لا يملكون العقول، فهم جهلاء، ونحوها من الأوصاف التي يسوقونها في صورة مدح، ويقصدون بها السخرية والاستهزاء كقولهم وإطلاقهم على دول الشر الأوسط، وبالذات الدول الإسلامية، بالدول النامية، كما نجد هذه الخصلة وللأسف لدى البعض من المسلمين العامة منهم والمتعلمين تجاه من هم دونهم علمًا، أو مالاً، أو منصبًا.

هذا وأسأل الله لي وللجميع حسن الخلق.

* * *

= الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي برقم (٦٤٨٤) بمثله، ص(٥٤٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان برقم (١٦١، ١٦٣) بنحوه برقم (١٦٢). بمثله، ص(٦٨٧) موسوعة الحديث الشريف.

(١) المنهاج (١٤٨).

(٢) الفتاوى (٢٥/ ١٦٥).

المسألة السادسة والسبعون
تعظيم الأسلاف والأكابر زيادة على المشروع لقولهم: أترغب عن ملة عبد المطلب
المسألة السابعة والسبعون
معارضة الحق بها كما في القصة

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هاتين المسألتين خصلتين من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين على حد سواء، وهما: تعظيم الأسلاف، والأكابر على الإطلاق، وتعظيم ماهم عليه من الملل الباطلة، ومعارضتهم الحق بها، لاعتقادهم أن في العدول عما كان عليه أسلافهم وأكابرهم اتهامًا لهم بالضلال والكفر، وتنقيصًا لهم، لهذا آثروا البقاء على الباطل على أن ينتقصوهم، كما عارضوا بملة أسلافهم الباطلة الحق تعظيمًا لهم ولملتهم الباطلة.

والمراد بالأسلاف: هم الأمم والجماعات المتقدمون عليهم(١)، **أما الأكابر**، فهم: الملوك والعظماء من أصحاب العز والشرف(٢).

وقد استدل المؤلف – رحمه الله – على وجود هاتين الخصلتين عند أهل الجاهلية، بوفاة عم النبي ﷺ أبي طالب(٣) على ملة الشرك، تعظيمًا

(١) لسان العرب (٩/ ١٥٨).

(٢) لسان العرب (٥/ ١٢٦).

(٣) هو: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب من قريش، عم النبي =

للأسلاف من الآباء والأجداد والأكابر، ومعارضة للحق بهذه الملة الباطلة.

فقد طمع النبي ﷺ في إسلام عمه عند موته، فطلب منه أن ينطق بكلمة التوحيد، ليستحل له بها الشفاعة يوم القيامة، في حين كان على رأسه أيضًا بعض زعماء كفار قريش ليردوا أبا طالب عن ذلك، بتذكيره بالأسلاف والأكابر وبملتهم، قائلين له: أترغب عن ملة عبد المطلب، حينها أخذته حمية الجاهلية، فقال: والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني قلتها جزعًا من الموت لقلتها.. فقال: أنا على ملة عبد المطلب(١).

قال ابن قيم الجوزية – رحمه الله – تعليقًا على هذه القصة: (لم يشك أبو طالب في صدق النبي ﷺ، لكنه تخيل أن في الإسلام، ومتابعة الرسول إزراء وطعنًا منه على آبائه، وأجداده، وذمًا لهم، وهذا هو الذي منع أبا طالب، وأمثاله عن الإسلام، فقد استعظموا آباءهم، وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك

= ﷺ، وقد كان أخًا لأب النبي ﷺ لأب وأم، تولى أمر رعاية النبي ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب، أحسن إليه، ودافع عنه، وحماه من قريش. توفي مشركًا قبل الهجرة. انظر: سيرة ابن هشام (١، ٢/ ١١٨).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجنائز. باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله برقم (١٣٦٠) بنحوه، ص(١٠٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت مالم يشرع في النزع، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين برقم (١٣٢) بنحوه، ص(٦٨٥). موسوعة الحديث الشريف، الإيمان لابن منده (١/ ١٧٩)، سيرة ابن هشام (١، ٢/ ٣٨١).

لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك، وضللوا عقولهم، ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر، والشرك، فالمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر، والضلال، وتسفيه الأحلام، وتضليل العقول، فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه)[١].

إن تعظيم أهل الجاهلية للأسلاف، والأكابر على الأطلاق، ومعارضتهم للحق بملل هؤلاء الأسلاف، والأكابر الباطلة التي ورثوها خلفًا عن سلف، هي الشبه التي تكاد تكون مشتركة بين طوائف المشركين في مختلف الأمم قديمًا وحديثًا، فقد قال تعالى عن ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[٢].

قال الطبري في تفسير الآية: (أي وجدنا آباءنا على دين، وملة، وهي عبادتهم للأوثان، فنحن نعبدها كما كانوا يعبدونها)[٣].

وقال ابن تيمية - رحمه الله - معلقًا على ديانات الخلق: «أكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وتقليدهم في التصديق، والتكذيب، والحب، والبغض، والمولاة، والمعاداة»[٤].

إن تعظيم الأسلاف والأكابر فيما كانوا عليه من الباطل، والاحتجاج

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٨)للاستزادة انظر. مفتاح دار السعادة (١/ ٩٧، ٩٨).

(٢) سورة الزخرف، الآية: (٢٣).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ١٧٦).

(٤) قاعدة في المحبة لابن تيمية (١٤٢)،للاستزادة انظر. جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٣٢٨).

بباطلهم، ومعارضة الحق به هي شبهة متغلغلة في نفوس المشركين، يواجهون بها دعوات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، فقال تعالى عن قوم نوح - عليه السلام -: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١)، وقال عن قوم صالح - عليه السلام -: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾(٢)، وقوم إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(٣)، وفرعون قال لموسى - عليه السلام -: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾(٤)، ومشركي العرب لما قال لهم النبي ﷺ قولوا: لا إله إلا الله قالوا: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾(٥).

لهذا فقد أبطل الشارع هذه الخصلة الجاهلية على لسان كل نبي، فكل نبي يأتي كان يقول لقومه ردًا عليهم: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا

(١) سورة المؤمنون، الآية: (٢٤).
(٢) سورة هود، الآية: (٦٢).
(٣) سورة الشعراء، الآية: (٧٤).
(٤) سورة طه، الآية: (٥١).
(٥) سورة ص، الآية: (٧).
(٦) سورة الزخرف، الآية: (٢٤).
(٧) سورة المائدة، الآية: (١٠٤).

يَهْتَدُونَ ﴾(١).

فإذا كان هؤلاء الأسلاف والأكابر على باطل، فلا يجوز في هذه الحالة تعظيمهم، كما لا يجوز معارضة الحق بهم، وبما هم عليه من الباطل.

كذلك لا يجوز اتباع الأسلاف والكبراء فيما خالف الحق وعارضه، كما تقدم شرحه في المسألة الرابعة عشرة، أما إذا كان هؤلاء الأسلاف والكبراء على الحق، فلا ضرر من تعظيمهم، واتباعهم لأن في اتباعهم اتباعًا للحق، وعن ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقًا رواية، وفقهًا، من غير تعيين شخص أو طائفة غير الرسول ﷺ) (٢).

وقد بسط الشيخ محمد بن عثيمين الكلام في هذه المسألة، وبين الضابط لتعظيم الأسلاف والأكابر، فقال عن ذلك – رحمه الله –: (إن تعظيم الأسلاف، والأكابر ليس على إطلاقه، فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضرّ، بل هو خير، فأسلافنا من صدر هذه الأمة لاشك أن تعظيمهم، وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه، وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم، والسِّن فليس فيه مضرة، وإن عظَّمناهم لما هم عليه من الباطل فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً من يُعظم عبد المطلب(٣) لأنه سيد أهل

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٧٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٦١).

(٣) هو: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب من قريش، جد النبي ﷺ، كفل النبي ﷺ بعد وفاة أمه آمنة، شرف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم =

مكة وغيره، فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر، لأنهم أعداء الله - عز وجل -، وكذلك لا يُعظم الرؤوساء من الكفار في زمانه، فإنَّ فيه مضرَّة، لأنَّه قد يورث ما يُضادّ الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقضتيه الأدلة من الكتاب والسنة.

وشبه هؤلاء المبطلين في تعظيم الأسلاف بزعمهم أنهم على الحق... توجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم؛ حيث لا يقبلون قرآنًا ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين كالرافضة، والصوفية، والقاديانية، وغيرهم. فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا، فالواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ، ومن خالفه من الكبراء، والأئمة فإنهم لا يُحتج بهم على الكتاب والسنة)[1].

أيضًا من مظاهر هذه الخصلة ما يرى من معارضة أهل الكتاب من اليهود، والنصارى للدين الإسلامي، إنما هو من باب تعظيم الأسلاف والكبراء من الأحبار والرهبان والآباء، وتعظيم ما هم عليه من الباطل، زعمًا منهم أن ماهم عليه هو الحق، وأن الباطل ما سواه.

* * *

=

خطره فيهم، ولد له عشرة من الولد، كان أحدهم عبد الله والد النبي ﷺ، توفي عبد المطلب وقد بلغ النبي ﷺ آنذاك ثماني سنوات، وقد توفي بعد الفيل بثماني سنين. انظر: سيرة ابن هشام (١، ٢/ ١٤٣، ١٧١).

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٣٦٣، ٣٦٤).

المسألة الثامنة والسبعون
جعلهم أتباع الهدى سببًا لاستيلاء العدو عليهم فرد الله عليهم

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين، هذه الخصلة التي تتبلور في داخلها مخالفة إرادتهم، وأهواءهم، وعاداتهم لطريق الحق والهدى المدعوين إلى اتباعه، فكل من دُعي إلى اتباع الهدى، وكان اتباع هذا الهدى يخالف إرادته وهواه وعاداته، فإنه سيعتذر عن الاتباع بهذه الحجة الباطلة، كما حصل من بعض المشركين حين دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، ونبذ عبادة الأوثان، حينها اعتذروا عن اتباعه، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[١].

قال المفسرون في تفسير الآية: أي: أنا إن تبعنا الحق الذي جئتنا به معك، وتبرأنا من الأنداد، والألهـة، يتخطفنا الناس من أرضنا، فيقصدوننا بالأذى والمحاربـة ويتخطفونا أينما كنا[٢].

إلا أن الله عـز وجـل أبطل هذه الخصلة بإبطال حجتهم هذه حين أجابهم بقولـه: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قال بعض المفسرين في تفسير الآية: والمراد إن هذا الذي اعتذروا به

---

(١) سورة القصص، الآية: (٥٧).

(٢) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ٨٩)، تفسير البغوي (٥/ ١٤٨)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٦).

كذب، وباطل؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم مُعظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا لهم في حال كفرهم، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق[(١)]. كما قيل: (هذه الآية وازعان: وازعٌ أبطل فيه معذرتهم عن الكفر، ووازع تذكير بنعمة المكفور به)[(٢)].

كذلك بيّن الله - عز وجل - أن الخوف على من ترك اتباع الهدى وهو الإيمان بالله قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[(٣)].

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (تبين هذه الآية لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب، أن الخوف على من ترك الإيمان أكثر، فكم من قوم كفروا ثم حلَّ بهم البوار)[(٤)].

وقد قال بنو إسرائيل بهذه الحجة حين تبعوا موسى - عليه السلام - قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾[(٥)].
قال الطبري: والمراد (قد أوذينا قبل رسالتك، وبعد رسالتك حين أراد فرعون تجديد العذاب عليهم بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم)[(٦)].

---

(١) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ٩٠)، تفسير البغوي (٥/ ١٤٨)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٩).
(٣) سورة القصص، الآية: (٥٨).
(٤) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٦٧).
(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٢٩).
(٦) تفسير الطبري (٦/ ٢٨).

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – مبينًا الدوافع الحقيقة وراء قيام هذه الخصلة: (إن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره، ومع هذا يجحد ذلك، إما لحسد أو... أو لحبهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض، كأموال، ورياسة، وصداقة أقوام، وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم... وقول مشركي العرب: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾، من الحجج التي تبينت بها أن دعوة الرسل تخالف إرادتهم وأهواءهم وعاداتهم)[١].

وقد بيّن الشارع بطلان هذه الخصلة الجاهلية، حين نص في محكم كتابه أن المتبعين للهدى لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[٢]، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (أي لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة)[٣].

وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٤]. قال المفسرون والمراد بهذه الآية أي: من تبع الأنبياء، والرسل، والبيان فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة،

---

(١) الفتاوى (٧/ ١٩٢) بتصرف.

(٢) سورة طه، الآية: (١٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٨٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٣٨).

ولا يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا[١].

كذلك بيّن في موضع آخر من كتابه أن النصر حاصل بالإيمان بالله تعالى والتوكل عليه قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[٢].

قال ابن كثير مفسرًا هذه الآية: (فالذين توعدهم الناس بالجموع، وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك؛ بل توكلوا على الله، واستعانوا به، فكفاهم الله ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم)[٣]، لهذا كان جزاء إيمانهم الأمن والنصر، لا كما يزعم من كان هواه مخالفًا للحق.

وعلى العبد أن يعلم أن هذه الخصلة هي أحد حيل الشيطان على بني آدم؛ ليصدهم عن الطريق الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾[٤] .

قال ابن كثير في تفسيرها: (أي يخوف أولياءه ويوهمهم بأن أعداءهم ذوي بأس وشدة، فإذا سول الشيطان ذلك فتوكلوا على الله، والجأوا إليه

---

(١) انظر. تفسير الطبري (١/ ٢٨٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٨٣).

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: (١٧٣، ١٧٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٢٧).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٧٥).

فإنه تعالى كافيكم وناصركم)[١]، ومصداق ذلك قوله تعالى مؤكدًا: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[٣].

كما قد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية، حين بيّن أن سبب استيلاء الأعداء هو حب الدنيا، وكراهية الموت، فقال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا أصحابه من ذلك «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت» [٤].

قال أحد الأئمة في شرح الحديث: والمراد: أي يقرب فرق الكفر، وأمم الضلالة أن تتداعى لمقاتلتكم، وكسر شوكتكم وسلب أملاككم، لا لقلة عددكم، وإنما أنتم كثير، ولكن لقلة شجاعتكم، ودناءة قدركم، بسبب الضعف الذي أصابكم من جراء حب الدنيا، وكراهية من الموت [٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٢).

(٢) سورة المجادلة، الآية: (٢١).

(٣) سورة غافر، الآية: (٥١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٦٩٨) بنحوه، ص(٦١٥)، وأبو داود في سننه، وكتاب الملاحم. باب في تداعي الأمم على الإسلام برقم (٤٢٩٧) بمثله، ص(١٥٣٦). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٥) عون المعبود (١٨٤٨).

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: (تتوالى الفتن على العرب حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة، فكثرت الأموال في أيديهم بعد الفتوح، ووقع التنافس الذي يجر الفتن، كذلك التنافس على الإمرة)[١].

وهذا هو الحاصل في زماننا هذا حين ننظر للهزائم التي تتوالى على المسلمين من حين لآخر، ما هو إلا بسبب بعدهم عن الطريق الحق، وضعف تمسكهم بكتاب الله، وتعلقهم بالدنيا، والتكالب عليها. فالله المستعان.

* * *

(١) فتح الباري (١٣/ ١٠٧).

المسألة التاسعة والسبعون

السفر للحج وغيره بغير زاد بزعم التوكل، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[١]

يريد المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة بيان ما وقع فيه أهل الجاهلية الأميين من تركهم التزود عند السفر للحج، وغيره زعمًا منهم أنهم بذلك متوكلون، فإذا قدموا التفتوا إلى أزواد الحجيج فسألوهم، وهذا يُعد في الحقيقة تواكلاً وعجزًا، لا توكلٌ.

فالتوكل هو: إلجاء الأمر إلى من يضمن القيام به، ويعتمد فيه عليه[٢].

قال ابن القيم الجوزية: (**والتوكل على الله**: هو عمل القلب، وعبوديته اعتمادًا على الله، وثقة به، والتجاء إليه وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه، وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها، واجتهاده في تحصيلها)[٣].

وقد استدل المؤلف على أمر الله تعالى بمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، بما ورد عن ابن عباس – رضي الله عنه – حين قال: (كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا المدينة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾)[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٩٧).

(٢) لسان العرب (١١/ ٧٣٤).

(٣) الروح لابن القيم (٢٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الحج. باب (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) برقم (١٥٢٣)
=

قال الطبري في المراد بالآية: (أن الله تعالى أمر عبادة أن يتزودوا من أقواتهم ما فيه بلاغهم إلى أداء فرض ربهم عليهم، فإنه لا بر لله - جل ثناؤه - في تركهم التزود لأنفسهم، ومسألتهم الناس، ولا في تضييع أقواتهم وإفسادها، ولكن البر في تقوى الله باجتناب ما نهاهم عنه في سفرهم للحج، وفعل ما أمرهم به، فإنه خير التزود)[1].

وقال ابن العربي في بيان المراد بالآية: (أمر الله أهل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم، ويخرجون بغير زاد، ويقولون: نحن المتوكلون، بالتزود)[2]. نظرًا لأن حال أهل الجاهلية في هذه الخصلة هي حال المتأكلين العاجزين، وليس حال المتوكلين.

فقد ورد أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لقي ناسًا من أهل اليمن، فقال: (من أنتم؟ قالوا نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكل الذي يُلقي حبَّه في الأرض، ويتوكل على الله - عز وجل -)[3].

وقال رجل للإمام أحمد - رحمه الله -: (أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل من غير زاد، فقال له الإمام أحمد: فاخرج في غير القافلة، قال: لا إلا معهم، فقال الإمام أحمد - رحمه الله -: فعلى جراب الناس توكلت؟)[4].

=

بمثله، ص(١٢٠)، رواه ابن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة مرسلاً. موسوعة الحديث الشريف.

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٣).

(٢) أحكام القرآن (١/ ١٨٢).

(٣) انظر. شعب البيهقي (٢/ ٨١)، نوادر الأصول (١/ ٤٠٥)، جامع العلوم والحكم (٨١٨).

(٤) تلبيس إبليس (١٧٩).

وقد وصف العلماء حال أمثال هؤلاء فقالوا عنهم: وحالهم أنهم متأكلون، أو معتمدون على الناس، فالتوكل لا يكون مع السؤال؛ إنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء، وقيل هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب قال - عليه السلام -: «اعقلها وتوكل»[(١)(٢)].

وقد دلت جميع النصوص على وجوب التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب. قال تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[(٤)]، وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[(٥)].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين دعا إلى العمل بالأسباب والتوكل معًا، فقال: «المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة. باب حديث اعقلها وتوكل برقم (٢٥١٧) بمثله ص(١٩٠٥) وقال الترمذي: حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه. موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(٢) انظر. فتح الباري (٣/ ٣٨٤)، عون المعبود (٧٨٧).

(٣) سورة هود، الآية: (١٢٣).

(٤) سورة الفاتحة، الآية: (٥).

(٥) سورة هود الآية: (٨٨).

قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان معنى هذا الحديث: (فقوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»، هذا أمر بالتسبب المأمور به، وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، لأن من استغنى بالسبب عن التوكل يكون قد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل؛ وأخل بواجب التوحيد، ومن أخذ بالتوكل تاركًا ما أمر الله به من الأسباب فهو جاهل ظالم)[(٢)].

وقال أحد العلماء في بيان الجمع بين الأخذ بالأسباب مع التوكل، ومنـزلة ذلك من الدين: (فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدرًا، وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة. ويضعفه من حين يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه؛ ودفع ما يضره في دينه، ودنياه، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزًا)[(٣)]. هذا والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب العلم. باب الإيمان بالقدر والإذعان له. برقم (٦٧٧٤) بمثله، ص(١١٤٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) الفتاوى (١٨/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨١).

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٦٨، ٦٩).

المسألة الثمانون

الأمر بالباطل وتحمل ما فيه من العقوبة كقولهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾(١) الآية

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية والتي تُعد إحدى محاولات مشركي أهل الجاهلية الأميين لرد المسلمين عن الإسلام، بمحاولة فتنتهم وتشكيكهم بصحة هذا الدين، وبإعطائهم الوعود بتحمل العقوبة عنهم يوم القيامة في حال صحة هذا الدين، وحال بعثهم.

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية، وعلى بطلانها بما بينّه الله - عز وجل - في محكم كتابه من قيام المشركين بدعوة المسلمين إلى اتباعهم وترك الحق، ووعدهم لهم بأنهم سيحملون عنهم خطاياهم يوم القيامة، فكشف الله - عز وجل - للمسلمين كيد المشركين في ذلك، وكذبهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

قال المفسرون في تفسير الآية: أي: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا، وسنحمل أثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك فعلينا(٢).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: (١٢).

(٢) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ١٢٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٧).

لهذا قال تعالى تكذيبًا لهم: ﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أي: فيما قالوه[(١)].

قال مجاهد - رحمه الله - في تفسير الآية: (لقد قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث، فإن كان عليكم وزر فعلينا، أي نحن نحمل عنكم ما يلزمكم)[(٢)].

وقال أحد المفسرين في تفسير هذه الآية: كما إن في هذه الآية تظهر محاولة المشركين لارتداد المسلمين بالشك والمغالطة في حق من لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب، إلا أن الله كذبهم وكشف كيدهم [(٣)].

وقد بيّن الله - عز وجل - بطلان هذه الخصلة الجاهلية في مواضع عديدة من كتابه، فقد نص سبحانه على كل إنسان يحمل وزر نفسه، باستثناء دعاة الضلال، فإن كل من دعا إلى ضلالة عليه وزر ضلالته، ووزر من تبعه من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، فقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[(٤)]. قال قتادة في تفسير الآية: (أي أوزارهم، وأوزار من أضلوا، فمن دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء)[(٥)].

---

(١) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ١٢٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٩).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (١٣).

(٥) تفسير الطبري (١٠/ ١٢٦)، (١٣/ ٢٩٣).

وقال الطبري أيضًا في تفسيرها: (وليحملن هؤلاء المشركون بالله القائلين للمؤمنين اتبعوا سبيلنا، ونحمل خطاياكم أوزار أنفسهم وآثامها، وأوزار من أضلوا وصدوا مع أوزارهم)[١].

ونص تعالى على بطلان هذه الخصلة فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[٣].

قال أحد المفسرين في تفسيره لهذه الآيات: لقد نبّه الله - عز وجل - أنه لو استغاثت كل نفس مثقلة بالأوزار من ينتدب لحمل أوزارها أو بعضها لم تجد من يحمل عنها شيئًا[٤]، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[٦].

قال مجاهد - رحمه الله - في معنى الآية: (حملهم ذنوب أنفسهم، وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم شيئًا)[٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٢٦).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٦٤).

(٣) سورة المدثر، الآية: (٣٨).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٨٨).

(٥) سورة فاطر، الآية: (١٨).

(٦) سورة النحل، الآية: (٢٥).

(٧) انظر. الدر المنثور (٥/ ١٢٦)، فتح الباري (١٣/ ٣٠٢).

قال القرطبي - رحمه الله - عن معاني هذه الآيات: (فمن كان إمامًا في الضلالة ودعا إليها، واتبع فإنه يحمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المُضل شيء)[١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾[٢].

وقد حذر النبي ﷺ من دعـوى أهل الجاهلية في هذه الخصلة، ودعا إلى مخالفتها بحثه - عليه الصلاة والسلام - أمته أن يكون دعاة إلى الهدى وبيّن الأجر في ذلك، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا»[٣].

وقال ﷺ: «من سّن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٢)، (١٠/ ٨٩).

(٢) سورة المعارج، الآيتان: (١٠، ١١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب من سن سنة حسنة ومن دعـا إلى هـدى أو ضلالة برقم (٦٨٠٤) بمثله، ص(١١٤٤). موسوعة الحديث الشريف، وكتاب السنة لابـن عاصم برقم (١١٣)، ص(٦٨)، الاعتقاد للبيهقي (١٨٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الزكاة. باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمـة طيبـة وأنها حجاب من النار برقم (٢٣٥١)، ص(٨٣٨) بمثله وفي كتاب الذكر والـدعاء. بـاب مـن سن سنة حسنة أو سيئة ومـن دعـا إلى هـدى أو ضـلال بـرقم (٦٨٠٠) بمثلـه، ص(١١٤٤). موسوعة الحديث الشريف.

قال أحد العلماء عن مدلول هذين الحديثين: هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة، وعلى تحريم سنة الأمور السيئة، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، وأن من دعا إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، أيًّ كانت هذه الضلالة عبادة أو أدبًا، أو غير ذلك(١).

وقال ابن القيم الجوزية - رحمه الله - في بيان ذلك: (الداعي إلى ضلالة له مثل إثم من ضل به لأنه بذل قدرته في إضلال الناس فنـزل الداعي بمنـزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة)(٢).

ونخلص من ذلك على أن جميع النصوص التي ذكرت نصت على أن كل داعٍ إلى الباطل عليه إثمه، ونظير إثم من تبعه، دون أن ينقص من إثم من تبعه شيء، كما نصت على أن التابع يتحمل بنفسه إثمه، فليس لأحدٍ أن يحمل عنه إثمه، ولا أدل على ذلك مما نبه له النبي ﷺ حين حذر ابنته فاطمة رضي الله عنها وعشيرته من العذاب، وأنه ﷺ لن يغني عنهم من الله شيئًا - رغم أنه رسول الأمة وخليل الرحمن - إلا أنه لن يدفع عنهم العذاب، فقال ﷺ: «يا بني عبدمناف(٣) اشتروا أنفسكم من الله يا بني عبد المطلب(١)،

---

(١) المنهاج (١٨٩٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٢).

(٣) يرجع نسبه إلى عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، ويرجع نسبهم إلى والد إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام وقد تولت هذه القبيلة أمر البيت والرفادة والسقاية. انظر: البدء والتاريخ، =

اشتروا أنفسكم من الله يا أم الزبير(٢) - عمة رسوله الله - يا فاطمة(٣) بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله لا أملك لكما من الله شيئًا سلاني من مالي ما شئتما»(٤).

ففي هذا الحديث دليلٌ يُرد بِهِ على من يزعم أنه سيتحمل العقوبة عمن تبعه في الضلال، فإذا كان سيد الأنبياء ﷺ لا يستطيع أن يقي أحدًا من أهله، أو عشيرته من العذاب، وهو إمام المهتدين، والداعي إلى الهدى، فكيف بمن كان إمامًا أو داعيًا إلى ضلال؟! ومع هذا وذاك فإن هناك من خالف الحق بمثل هذه الخصلة، فها هي هذه الخصلة تظهر في زماننا، عند

=

(٤/ ١٢٤، ١٢٥).

(١) نسبة إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ. انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١١٧).

(٢) صفية بنت عبد المطلب، عمه رسول الله وزوجها العوام بن خويلد وابنها الزبير بن العوام، توفيت في خلافة عمر رضي الله عنه. روت عن رسول الله ﷺ. انظر: البدء والتاريخ (٢/ ٩٤)، الإصابة (٤/ ٣٤٠).

(٣) هي: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أمها خديجة بنت خويلد، تزوجها علي بن أبي طالب، وأنجبت منه الحسن والحسين، كانت تكنى بأم أبيها، لقبت بالزهراء، قال عنها الرسول ﷺ إنها من أفضل نساء الجنة مع خديجة ومريم وآسية. توفيت سنة ١١ هـ. انظر: الإصابة (٤/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوصايا. باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب برقم (٢٧٥٣) بمثله (٢٢١) وفي كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية برقم (٣٥٢٧) بمثله، (٢٨٨)، وفي كتاب التفسير سورة الشعراء برقم (٤٧٧١) بنحوه (٤٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) برقم (٥٠١) بنحوه وبرقم (٥٠٣) بمثله وبرقم (٥٠٤) بنحوه، ص(٧١٦). موسوعة الحديث الشريف، والإيمان لابن منده (٢/ ٨٥٤).

من في قلوبهم هوى، وزيغ عن الحق عند بحثهم عن فتوى في أمرٍ ما، فهم يدفعون بالمسألة لعلماءٍ شتى بصورة غير واضحة وغير كاملة، بغرض الحصول على فتوى توافق أهواءهم، ومن ثم يتم تداولها بين الناس زعمًا منهم أن إثمها سيلحق بمن أفتى بها دون أن يلحقهم هم في ذلك شيء.

* * *

المسألة الحادية والثمانون
جعلهم الملائكة من الجن فذكر في الحديث أنهم خلقوا من نور

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة، أن من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين على السواء أن جعلوا الملائكة من الجن، حين زعموا أن الملائكة بنات للجن. فقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ ﴾(١).

قال مجاهد - رحمه الله - في تفسير الآية: (قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، وهن بنات لسروات الجنّ)(٢).

وقال قتادة - رحمه الله- أيضًا: (قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى تزوّج من الجن، فخرج منهما الملائكة)(٣). وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هديهم في هذه الخصلة، فقد أبطل تعالى زعمهم بأن الملائكة من الجن، حين بيّن سبب امتناع إبليس من السجود مع الملائكة لآدم - عليه السلام - فقال تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾(٤). قال البيهقي عن دلالة هذه الآية: (ومما يدل على أن الملائكة غير الجن أن الله - عز وجل - لما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، فأخبر الله - عز

---

(١) سورة الصافات، الآية: (١٥٨).

(٢) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ٥٣٥)، تفسير القرطبي (١٥/ ١١٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤).

(٣) المراجع السابقة.

(٤) سورة الكهف، الآية: (٥٠).

وجل - عن سبب مفارقته الملائكة في السجود، فلو كان كلهم جنًّا لاشتركوا في الامتناع عن السجود؛ مما يدل على أنهما فريقان شتى)(١).

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على بطلان هذا الزعم، بحديث النبي ﷺ الذي بيّن فيه المفارقة في أصل الخلقة بين الملائكة والجن مما يدل على أن الملائكة ليست من الجن، فقال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم»(٢).

قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - عن ذلك: (إن الله خلق الملائكة من نور)(٣).

وقال أحد العلماء: فالملائكة عباد الله المكرمون، خلقهم الله تعالى من النور لعبادته، ليسوا بناتًا لله - عز وجل - ولا أولادًا، ولا شركاء معه ولا أندادًا(٤).

كذلك مما يبرهن على أن الملائكة ليسوا من الجن، إجابتهم على سؤال الله لهم يوم القيامة عن المشركين، والذي تضمن انتفاء كونهم من الجن، فيقول تعالى لهم: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾(٥)، فينفى الملائكة

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد. باب في أحاديث متفرقة برقم (٧٤٩٥) بمثله، ص(١١٩٦). موسوعة الحديث الشريف. وفي كتاب التوحيد. لابن منده الأصبهاني (٤٧).

(٣) السنة للإمام أحمد بن حنبل. ت: الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ. المطبعة السلفية. مكة المكرمة، ١٣٤٩هـ، (١٦٨).

(٤) معارج القبول (٢/ ٦٥٦).

(٥) سورة سبأ، الآية: (٤٠).

عنهم عبادة المشركين لهم بقولهم: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ ﴾[١].

قال البيهقي عن هذه الآية: (ثبت بهذا أن الملائكة غير الجن)[٢].

أيضًا مما يدل على أن الملائكة ليسوا من الجن ما ورد من الآيات في بيان أصل خلقة الجن، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[٣]، كذلك ما ورد من الآيات في مقالة إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم - عليه السلام -، قال تعالى: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[٥]، ومعلوم بنص الكتاب أن الشيطان من الجن، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ ﴾[٦].

إن جميع النصوص السابقة تنص على أن الجن مخلوقات خلقت من مارج[٧] من نار، وأن الملائكة مخلوقات خلقت من نور، مما يدل على بطلان هذه الخصلة الجاهلية بصحيح النقل، وصريح العقل.

---

(١) سورة سبأ، الآية: (٤١).
(٢) شعب الإيمان، للبيهقي (١/ ١٦٩).
(٣) سورة الرحمن، الآية: (١٥).
(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٢).
(٥) سورة ص، الآية: (٧٦).
(٦) سورة الكهف، الآية: (٥٠).
(٧) المارج هو طرف لهب النار. انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٢).

المسألة الثانية والثمانون

أنهم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا كما قال في آنية الذهب والفضة لما نهى عن الأكل والشرب فيها(فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)[(١)] وكما في قصة عمر مع النبي ﷺ

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب أنهم كانوا يأكلون ويشربون بأواني من الذهب والفضة، وهذه الخصلة تُعد من طيباتهم التي عجلها الله – عز وجل – لهم في الدنيا دون الآخرة.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على تحريم الأكل والشرب في أواني الذهب، والفضة، وبيّن العلة في تحريمها بأنها للكفار في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، وحرصًا على عدم التشبه بالكفار، ولما فيها من الدلالة على الفخر، والخيلاء، وكسر قلوب الفقراء، فهي سمة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأطعمة. باب الأكل في إناء مفضض برقم (٥٤٢٦) بنحوه، ص(٤٦٨)، وفي كتاب الأشربة، باب الشرب في آنية الذهب برقم (٥٦٣٢) بنحوه، وفي باب آنية الفضة برقم (٥٦٣٣) بمثله، ص(٦٨٢)، وفي كتاب اللباس، باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه برقم (٥٨٣١) بنحوه، ص(٤٩٧) وفي باب افتراش الحرير برقم (٥٨٣٧) بنحوه (٤٩٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب اللباس والزينة. باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحرير على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحرير على الرجال، وإباحته للنساء، وإباحة العَلَم، ونحوه للرجل، مالم يزد على أربع أصابع، برقم (٥٣٩٤) بمثله وزيادة في أوله، ص(١٠٤٧). موسوعة الحديث الشريف.

من رضي بالدنيا دون الآخرة.

لهذا فقد حذر الشارع من الشرب بإناء الفضة، وتوعد من قام بذلك بأنه إنما يجرجر في بطنه نار جهنم.

فقال ﷺ عن ذلك: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تلبسوا الحرير، والديباج، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة» ، وقال ﷺ: «الذي يشرب في إناء الفضة يُجرجر في بطنه نار جهنم» (١).

وقصة عمر بن الخطاب حين قال له النبي ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»(٢) حين دخل عليه عمر والنبي ﷺ مضطجع، وقد أثرت الرمال بجنبه، فرفع عمر رأسه في بيت النبي فما رأى شيئًا يرد البصر، فقال عمر - رضي الله عنه -: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم قد وسع عليهم، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ﷺ وقال مقالته السابقة.

والمراد من قول النبي ﷺ: «لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة». يقول أحد العلماء: أي أن الكفار إنما يحصل لهم ذلك في الدنيا، وأما في الآخرة فما لهم فيها من نصيب، أما المسلمون فلهم في الجنة الحرير والذهب، وما لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأشربة باب آنية الفضة برقم (٥٦٣٤) بمثله، ص(٤٨٣)، موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح. باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها برقم (٥١٩١) بمثله، ص(٤٤٩)، موسوعة الحديث الشريف.

عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[١].

قال الإمام ابن بطة العكبري في حكم آنية الذهب والفضة: (ومن ما حرمه رسول الله ﷺ وغلّظ فيه اتخاذ آنية الذهب، والفضة ولبس الحرير والديباج)[٢].

وقد أجمع العلماء على تحريم استعمال آنية الذهب والفضة، وعلى تحريم اتخاذهما لأن ما حرم استعماله حرم اتخاذه على هيئة استعمال، كما يحرم استصناعها، ويستوي في ذلك الرجال والنساء لعموم الحديث، لما فيهما من السرف والخيلاء، وكسر قلوب الفقراء[٣].

قال ابن قيم الجوزية مبينًا العلة من تحريم هذه الأواني (والصواب في علة التحريم هي ما يُكسب استعمالها القلوب من الهيئة والحالة المنافية للعبودية منافاة ظاهرة، ولهذا علل النبي ﷺ بأنها للكفار في الدنيا، إذ ليس لهم نصيب من العبودية التي ينالون بها في الآخرة نعيمها، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله في الدنيا، وإنما يستعملها من خرج عن عبوديته، ورضي بالدنيا وعاجلها من الآخرة)[٤].

وقد عدّ العلماء الشرب والأكل بآنية الذهب والفضة كبيرة من الكبائر، فقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» توعد بالنار،

---

(١) المنهاج (١٥٦٧).

(٢) الشرح والإبانة لابن بطة العكبري (٣٦٦).

(٣) انظر. المغني لابن قدامة (١/ ١٠٣، ١٠٤) (١٢/ ٥٢٠)، إعلام الموقعين (١/ ١٥٦).

(٤) الطب النبوي (٢٥٤، ٢٥٥).

وقد قال العلماء: إن ما توعد فيه بالنار فهو كبيرة [١].

لهذا نجد أن الله - عز وجل - قد بيّن في محكم كتابه أنواعًا من الطيبات التي قد يتمتع بها هؤلاء الكفار في الحياة الدنيا دون الآخرة وأنها طيبات من باب المتاع الزائل المعجل لهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي قد يكون لهم أبوابًا، وسررًا من فضة، وذهب، وإنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله، يعجل الله لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة، وليس لهم عند الله حسنه يجزيهم بها، وما خولهم الله هذه الدنيا إلا لحقارتها عنده)[٣].

قال ابن العربي - رحمه الله - في الحكمة من تحريم مثل هذه الطيبات: (لأن في ذلك استعجال أجر الآخرة؛ ولأنه عليه السلام قال: «هي لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة»؛ فلم يجعل لنا فيها حظًا في الدنيا)[٤].

---

(١) انظر .الكبائر للذهبي (١١٧)، الزواجر للهيثمي (١/ ١٧٠)، شرح رياض الصالحين (٤/٣٠٦).

(٢) سورة الزخرف، الآيات: (٣٣ - ٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٨).

(٤) أحكام القرآن، لابن العربي (٤/ ٨٨).

وقد بيَّن الشارع وجه المخالفة في هذه الخصلة بأن آنية الذهب والفضة وسائر الطيبات التي يستمتع بها الكفار في الدنيا هي طيبات عجلت لهم في الدنيا دون الآخرة، أما في الآخرة فهي نعيم دائم للمؤمنين دون غيرهم قال تعالى عن آنية المؤمنين في الجنة ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾[1].

وقد أحل الشارع الأواني المصنوعة مما سوى الذهب والفضة، فقال العلماء عن ذلك: فأما سائر الآنية فمباح اتخاذها، واستعمالها، سواء كانت ثمينة، كالياقوت والبلور، والعقيق والصفر المخروط من الزجاج، أو غير ثمينة كالخشب، والخزف، والجلود[2].

ولا زالت هذه الخصلة باقية حتى يومنا هذا عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فنجد أن أصحاب الأموال منهم يقتنون أواني الذهب والفضة، ويستعملونها في مآكلهم ومشاربهم، ويباهون بذلك. فنسأل الله العافية.

* * *

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان: (١٥، ١٦).

(٢) المغني لابن قدامة (١/ ١٠٥).

المسألة الثالثة والثمانون
حلقهم لحاهم وتوفيرهم شواربهم فأمرنا بمخالفتهم

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من المشركين والمجوس، وهي حلق لحاهم، وإعفاء شواربهم من الحلق والتقصير.

لهذا أمر الشارع بمخالفتهم بإعفاء اللحى، وقص الشوارب حرصًا على مخالفتهم، وعدم التشبه بهم، وجعل كلٌّ من إعفاء اللحية وقص الشوارب من سنن الفطرة وخصالها، فقال ﷺ: «من الفطرة: حلق العانة، وتقليم الأظفار، وقص الشارب» [1] كما قال: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية...» [2].

كذلك ما نص عليه النبي ﷺ في موضع آخر على إعفاء اللحى، وقص الشارب بقصد المخالفة للمشركين والمجوس، فقال – عليه السلام –: «خالفوا المشركين، ووفروا اللحى، واحفوا الشوارب» [3]، وقال: «جزوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب قص الشارب برقم (٥٨٨٨، ٥٨٨٩) بنحوه، وفي باب تقليم الأظفار برقم (٥٨٩٠، ٥٨٩١) بلفظه، ص(٥٠١)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب خصال الفطرة برقم (٥٩٨، ٥٩٩) بنحوه، ص(٧٢٣) موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب خصال الفطرة برقم (٦٠٤) بلفظه، ص(٧٢٣)، موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب تقليم الأظفار برقم (٥٨٩٢) بمثله، وفي =

الشوارب، وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس» [١].

قال العلماء في المراد بهذه الأحاديث: «أوفوا اللحى»: أي اتركوها وافية كاملة، ذلك لأنه كان من عادة الفرس والمشركين قص لحاهم، ومنهم من كان يحلقها، لهذا نهى الشارع عن ذلك. كما قالوا: والمختار في قص الشارب أن يقصه حتى يبدو طرف الشفة، ولا يحفه من أصله، فمعنى (احفوا) أي أزيلوا ما طال على الشفتين» [٢].

وقد ورد عن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه كان يحف شاربه، حتى ينظر إلى بياض الجلد، ويأخذ هذين، يعني بين الشارب واللحية [٣]، كما كان - رضي الله عنه - إذا اعتمر قبض على لحيته، فما فضل أخذه [٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مراد النبي ﷺ في الأحاديث السابقة: (لقد عقب النبي ﷺ الأمر بالوصف المشتق المناسب في قوله: «جزوا الشوارب، وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس» وهذا دليل

= باب إعفاء اللحى برقم (٥٨٩٣) بنحوه، ص(٥٠١)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة. باب خصال الفطرة برقم (٦٠٠، ٦٠١) بنحوه، وبرقم (٦٠٢) بمثله، ص(٧٢٣). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب خصال الفطرة برقم (٦٠٣) بمثله، ص(٧٢٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر .فتح الباري (١٠/ ٣٤٧)، المنهاج (٣٣٧، ٣٣٨).

(٣) أخرجه صحيح البخاري في كتاب اللباس. باب قص الشارب، ص(٥٠١).

(٤) أخرجه صحيح البخاري في كتاب اللباس. باب تقليم الأظفار، ص(٥٠١).

على أن مخالفة المجوس أمر مقصود للشارع، وهو العلة في هذا الحكم)[١].

وقد قيل إنه لا بأس في حال عظمت اللحية أن يأخذ الرجل من عرضها أو طولها، فقد ورد عن النبي ﷺ: «أنه كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها»[٢].

قال أحد العلماء في معنى الحديث: إن الأخذ من عرضها وطولها لا ينافي قوله ﷺ: «اعفوا اللحى»، لأن المنهي هو قصها كفعل الأعاجم، أو جعلها كذنب الحمام، والمراد بالإعفاء التوفير منها، أما الأخذ من الأطراف قليلاً لا يكون من القص في شيء[٣].

قال القاضي عياض[٤] - رحمه الله - عن حكم حلق اللحية:(يكره حلق اللحية، وقصها، وتحريقها، وأما الأخذ من طولها وعرضها إذا عظمت فحسن، بل تكره الشهرة في تعظيمها كما يكره في قصها

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب الأدب. باب ما جاء في الأخذ من اللحية برقم (٢٧٦٢) بمثله، قال الترمذي هذا حديث غريب، وهو حديث ضعيف لأن مداره على عمر بن هارون وهو متروك، ص(١٩٣٠). موسوعة الحديث الشريف، تحفة الأحوذي (٢/ ٢٠٨٧) قال البخاري منكر، وقال الألباني موضوع.

(٣) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٠٨٧).

(٤) هو: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى بن عياض العلامة اليحصبي السبتي المالكي الحافظ، فهو أحد مشايخ العلماء المالكية، وصاحب المصنفات الكثيرة المفيدة، منها: الشفا، شرح مسلم، ومشارق الأنوار، كان إمامًا في الحديث، واللغة، والأدب، والفقه ولد سنة ٤٤٠هـ. وتوفي سنة ٥٤٤هـ بمدينة سبتة. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٥)، شذرات الذهب (٤/ ١٣٨).

وجزها)[١].

والظاهر في ذلك هو الكراهة لحديث: «أعفوا اللحى» وحديث «أرخوا اللحى»، فالسنة عدم الأخذ من طولها مطلقًا، وإنما رخص بعض العلماء في أخذ ما زاد عن القبضة لفعل ابن عمر - رضي الله عنه -، وبعض العلماء يكره ذلك، لقول النبي ﷺ: «أعفوا اللحى»[٢].

ولا يخفى على أحد منا وجود هذه الخصلة في العصر الحاضر عند الكثير من اليهود والنصارى وغيرهم، كما لا يخفى وجود هذه الخصلة الجاهلية عند الكثير من أبناء المسلمين المتهاونين في تطبيق هذا الأمر بإعفاء اللحى، وفي ترك ما نهى عنه من توفير الشوارب.

فأسأل الله للجميع الهداية للحق والثبات عليه.

* * *

(١) انظر.فتح الباري (١٠/ ٣٥٠)، المنهاج (٣٣٩)، تحفة الأحوذي (٢/ ٢٠٨٨).
(٢) الدرر السنية (٤/ ١٥٠).

المسألة الرابعة والثمانون
إن تسليمهم بالإشارة فأمرنا بمخالفتهم

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى في طريقة سلامهم بين بعضهم وبعض.

لقد كان لكلٍ من اليهود والنصارى طريقة في السلام، فكان تسليم اليهود إشارةً بالأصابع، أما النصارى فقد كان تسليمهم إشارة بالأكف في جميع أحوالهم من غير النطق بلفظ السلام.

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين دعا أمته - عليه الصلاة والسلام - إلى مخالفتهم، ونص على النهي عن مشابهتهم في طريقة تسليمهم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى، فإن تسليمهم بالأكف» (١).

وقال أيضًا: «ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود والنصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف»(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى. باب كراهية التسليم بالأكف والرؤوس والإشارة برقم (١٠٧٢) بمثله من طريق جابر رضي الله عنه (٦/ ٩٢). قال الحافظ في الفتح: سنده جيد عن جابر (١١/ ١٤) قال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب الاستئذان. باب ما جاء في فضل الذي يبدأ بالسلام برقم =

قال أحد العلماء في شرحه لهذه الأحاديث: فقوله - عليه الصلاة والسلام -: «ليس منا» المراد منه: أي ليس من أهل طريقتنا، ومراعي متابعتنا من تشبه بغيرنا من غير أهل ملتنا، وفي هذا الحديث أشار النبي ﷺ إلى عدم التشبه بهم جميعًا في جميع أفعالهم، خصوصًا في هاتين الخصلتين، ولعلهم كانوا يكتفون في السلام، أو رده، أو فيهما بالإشارتين من غير نطق بلفظ السلام الذي هو سنة آدم عليه السلام، وذريته من الأنبياء والأولياء»(١).

فالنهي عن السلام بالإشارة خاصٌ في حال كان الشخص قادرًا على السلام لفظًا، أما من كان في شغل يمنعه من إجابة السلام لفظًا كحال من كان في صلاةٍ، أو بعيدًا، أو أخرس، ففي هذه الحالة التسليم بالإشارة في حقه مشروع، والدليل على ذلك ما ورد في السنة «أن رجلاً سلم على النبي ﷺ وهو يصلي فرد عليه إشارة» (٢).

وقد علل الإمام البيهقي النهي الوارد في الأحاديث عن السلام

=

(٢٦٩٥) بمثله، ص(١٩٢٣) وقال الترمذي: هذا الحديث إسناده ضعيف، وروى ابن المبارك هذا الحديث عن ابن لهيعة فلم يرفعه. موسوعة الحديث الشريف. قال الحافظ في الفتح: سنده ضعيف، وقال الألباني: حسن.

(١) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٠٤٨).

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى برقم (٥٣٧) بنحوه (١/ ١٩٣)، وفي سننه الصغرى في كتاب السهو. باب رد السلام بالإشارة في الصلاة برقم (١١٨٧) بمثله، وبرقم (١١٩٠) بنحوه، ص(٢١٦٤) موسوعة الحديث الشريف.

بالإشارة فقال - رحمه الله -: (ويحتمل والله أعلم أن يكون المراد به كراهية الاقتصار على الإشارة في التسليم دون التلفظ بكلمة التسليم، إذا لم يكن في صلاة تمنعه من التكلم)(١).

وقال الإمام النووي(٢) - رحمه الله - عن المراد بنهي النبي ﷺ: (نهي النبي ﷺ عن السلام بالإشارة مخصوص بمن قدر على اللفظ حسًا، وشرعًا، وإلا فهي مشروعة لمن يكون في شغل يمنعه من التلفظ بجواب السلام، كالمصلي، والبعيد، والأخرس، وكذا السلام على الأصم)(٣).

كذلك قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: (ويستثنى من أحاديث - النهي عن السلام بالإشارة - من كان في حال الصلاة للحديث الوارد من أن النبي ﷺ رد بالإشارة على رجل سلم عليه وهو يصلي، كذلك في حال من كان بعيدًا بحيث لا يسمع التسليم، فيجوز السلام عليه إشارة ويتلفظ مع ذلك بالسلام)(٤).

وقد خالف النبي ﷺ أيضًا أهل الجاهلية حين حث أمته على إفشاء السلام، فحين سئل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير قال: «تطعم الطعام

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٦/ ٤٦٤).

(٢) هو: الإمام محيي الدين أبو زكريا بن شرف النووي الحزامي الدمشقي، صاحب التصانيف المشهورة: المنهاج شرح صحيح مسلم، رياض الصالحين. ولد في مدينة نوى في الشام عام ٦٣١هـ. وتوفي عام ٦٧٦هـ.

انظر: طبقات الفقهاء، (٢٦٩)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٧٨).

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١٦).

(٤) فتح الباري (١١/ ١٩).

وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف»[١].

كذلك حين أمر النبي ﷺ أمته بسبع منهن السلام: «بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام...»[٢].

وقال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»[٣].

وقال عمار بن ياسر[٤] - رضي الله عنه -: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان. باب إطعام الطعام من الإسلام برقم (١٢) وفي باب إفشاء السلام من الإسلام برقم (٢٨) بمثله، ص(٣، ٤)، وفي كتاب الاستئذان. باب السلام للمعرفة وغير المعرفة برقم (٦٢٣٦) ص(٥٢٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب الاستئذان. باب إفشاء السلام برقم (٦٢٣٥) بمثله، ص(٥٢٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها برقم (١٩٤). بمثله، ص(٦٨٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك العنسي، أمه سمية أول شهيدة في الإسلام، كان من السابقين للإسلام هو وأبوه، وممن عذبوا في الله، وكان الرسول ﷺ يمر عليهم وهم يعذبون فيقول صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، شهد المشاهد كلها. توفي مع علي رضي الله عنه في صفين عام ٨٧هـ. انظر: الإصابة (٢/ ٥٠٦).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان. إفشاء السلام من الإسلام، ص(٤).

ومما يدل أيضًا على حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حثه - عليه الصلاة والسلام - على المصافحة عند السلام، والترغيب فيه.

فقال - عليه الصلاة والسلام - في ذلك: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا»(١).

وقد سئل أنس بن مالك: (هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ قال: نعم)(٢)، كما قد أوثر عنه - عليه الصلاة والسلام - المصافحة عند السلام فقد ورد عن أحد الصحابة أنه قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -» (٣).

وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (علمني النبي ﷺ التشهد

---

(١) أخرجه أبي داود في سننه. كتاب الأدب. باب في المصافحة برقم (٥٢١٢) بمثله، ص(١٦٠٤)، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب الاستئذان. باب ما جاء في المصافحة برقم (٢٧٢٧) بمثله، ص(١٩٢٦)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب الأدب. باب المصافحة برقم (٣٧٠٣) بمثله، ص(٢٦٩٨) قال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث أبي إسحاق عن البراء. موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاستئذان. باب المصافحة برقم (٦٢٦٣) بمثله، ص (٥٢٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الاستئذان. باب المصافحة برقم (٦٢٦٤). بمثله، ص(٥٢٨)، في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ. باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه برقم (٣٦٩٤) بمثله، ص(٣٠٠، ٣٠١)، وفي كتاب الإيمان والنذور. باب كيف كان يمين النبي ﷺ برقم (٦٦٣٢) بمثله وزيادة في أوله، ص(٥٥٥) موسوعة الحديث الشريف.

وكفي بين كفيه)[١]. فرغم وضوح عظم فضل من خالف أهل الجاهلية في هذه الخصلة إلا أنها ما زالت إلى يومنا هذا عند أهل الكتاب، وهذا لا عجب منه، ولكن العجب من وجودها وظهورها لدى كثير من المجتمعات الإسلامية، فنجد البعض من المسلمين هداهم الله يسلم بالإشارة بالكف فقط أو بالأصابع، أو بالرأس والنطق بكلمات سلام أجنبية لا تمت للإسلام بصلة من غير أن يكون المرء منهم منشغلاً بصلاة، أو لبعد أو غيرها من الأحوال التي ذكر العلماء أن السلام بالإشارة في حقهم مشروعة.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاستئذان. باب المصافحة، ص(٥٢٨). موسوعة الحديث الشريف.

المسألة الخامسة والثمانون
إنهم يظنون بالله ظن السوء

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية من الأميين وأهل الكتاب على حد سواء، وهو ظنهم بالله تعالى ظن السوء، فهو ظن من لا يعرف قدر الله وعظمته وحكمته، وهذا شأن أهل الريب، والشك حين تنـزل بهم نازلة من النوازل؛ في حين كان الأجدر لمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمع وهو شهيد أن يكون لسان حاله ناطقًا بإحسان الظن بالله، والصبر على أقداره، والرضا بقضائه حين تنـزل به نازلة من النوازل.

قال ابن قيم الجوزية في المراد بظن السوء: (هو أن يُظن بالله خلاف ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، أو تعطيل ما وصف الله به نفسه، ووصفته به رُسله، فهو ظنٌ مخالفٌ لكمال الله المقدس ومناقض لأسمائه وصفاته)(١).

ومما يدل على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية، ما ذكره تعالى في معرض الذم عن ظن المشركين، والمنافقين الظانين بالله غير الحق بأنه ظن الجاهلية، قال تعالى في محكم كتابه عنهم: ﴿ وَطَآيِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد. لابن قيم الجوزية. ت: شعيب الأرناؤوط. وعبد القادر الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت – لبنان، (ط٣)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، (٣/ ٢٠٩)، الجواب الكافي (٢١١).

يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾(١).

قال المفسرون عن تفسير هذه الآية: أي: هم المنافقون، يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكًا في أمر الله، وتكذيبًا لنبيه ﷺ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه، ومُعل عليه أهل الكفر به(٢).

هذا وقد توعد الله في محكم كتابه المنافقين والمشركين على ظنهم بالله تعالى ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(٣)، كما قال تعالى فاضحًا حجة الأعراب المنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ حين سار لمكة معتمرًا؛ بأنه ما كان لهم عذرٌ في ذلك كما يزعمون، بل كان تخلفهم عن نفاقٍ، وسوء ظنٍ بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾(٤).

قال المفسرون عن تفسير هذه الآية: أي: ظنهم بأن الله تعالى لن ينصر نبيه، وأهل الإيمان به على أعدائه، وأنه لن يظهر كلمته فيجعلها العليا على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٤).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٣/ ٤٨٥)، تفسير القرطبي (٤/ ٢٣٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٤١٩).

(٣) سورة الفتح، الآية: (٦).

(٤) سورة الفتح، الآية: (١٢).

كلمة الكافرين به، وبظنهم السوء هذا كانوا ﴿ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾، قال مجاهد: أي هالكين(١).

وقد بين ابن قيم الجوزية حال هؤلاء الظانين بالله ظن السوء: بأن من أهمته نفسه لا دينه، ولا نبيه ولا أصحابه، فإنه يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، وقد فُسر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد، قال تعالى عنهم: ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا ﴾، كما فُسر بظنهم بأن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، فيتضمن قولهم أن يكون في ملكه تعالى ما لا يريد، قال تعالى عن ذلك: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ ﴾(٢) هذا رد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ ﴾(٣)، كما فُسر بإنكار أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، ويتضمن ظنهم هذا أن تكون تقديرات الله تعالى لعبًا وسفهًا – تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا – قال تعالى عنهم: ﴿ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ ﴾(٤).

إن كل من ظن أن العقل الصريح يخالف النقل الصحيح، أو أن إثبات

---

(١) انظر. تفسير الطبري (١١/ ٣٤١)، تفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٠).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٥٤).
(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٥٤).
(٤) انظر. زاد المعاد (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧) بتصرف.

الصفات لله تعالى يستلزم التشبيه والتجسيم، أو أن لله ولدًا أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عند الله بدون إذنه، أو أن الله لن يبعث أحدًا، أو أن هناك وسائط بين الله وخلقه ترفع لهم الحوائج من الأولياء، أو الشيوخ أو أصحاب القبور، أو أنه ينال ما عند الله بمعصيته، كما يناله بطاعته، أو أن أهل بيت النبي ﷺ قد ظُلموا بعد موته وسُلبوا، أو أن أفعال العباد غير داخلة تحت قدرة الله تعالى ومشيئته، أو ظن أن أفعال العباد مجبرون عليها، ليس لهم الخيار فيها، أو أن الله يعاقبه من غير جرم... ونحوها من صور الظن الذي يخالف ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسله من صفات الكمال، فجميع هذه الصور داخلة في ظن السوء، وغيرها كثير. وقد وردت آيات كثيرة في ذم هذه الصور، فلا سبيل إلى حصرها في هذا المقام، ولكن يكفي الإشارة إلى بعضها، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ

(١) سورة يونس، الآية: (٦٠).

(٢) سورة يونس، الآية: (٦٦).

(٣) سورة الكهف، الآية: (٣٦).

(٤) سورة القصص، الآية: (٣٩).

أَحَدًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَإِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2].

لهذا لابد للعبد أن يظن ظن السوء بنفسه، فهي أولى بذلك، أما البارئ -عز وجل- فله الكمال المطلق في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وذاته.

وعن ذلك قال ابن قيم الجوزية في تأصيل الحق في هذه المسألة: (إن كل ظن لا يليق بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، ولا يليق بحكمته وحمده وتفرده بربوبيته وإلهيته، ولا يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وكلمته التي سبقت لرسله بأن ينصرهم، ولا يخذلهم فقد ظن ظن سوء... كذلك من ظن أن له ولدًا، أو شريكًا، أو أن الله لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه ينال بمعصيته كما ينال بطاعته، أو من ظن أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يعوضه، أو أن أهل بيت النبي ﷺ قد ظلموا وسلبوا كما تظن الرافضة، أو من ظن أن الله لا يقدر على أفعال العباد كالمعتزلة، أو من قدم العقل على النقل، وظن أن إثبات صفات الله يستلزم منه التشبيه والتجسيم، فعطلها كالمعطلة[3]

---

(١) سورة الجن، الآية: (٧).

(٢) سورة الصافات، الآيتان: (٨٦، ٨٧).

(٣) المراد بهم الجهمية وهم أتباع الجهم بن صفوان، وهم القائلون بفناء النار، وقالوا إن إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه والتجسيم، فعمدوا إلى نفيها وتعطيلها، فوافقوا المعتزلة في نفي الصفات. وقالوا إن العباد مجبورون على أفعالهم. الملل والنحل (٣٦).

والنفاة... أو من ظن أن ما أخبر الله به عن نفسه، وصفاته، وأفعاله الظاهرة باطل، وتشبيه، وتمثيل، أو أن الله لم يصرح عن الحق وإنما رمز له رمزًا، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم، وقواهم في تحريف كلامه بالتأويلات المستكرهة أو بالأحاجي... فقد ظن به تعالى ظن سوء، فليتب إلى الله ويستغفره، وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة المنـزه عن كل سوء في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، فله الكمال المطلق من كل وجه ولا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف أسماءه، وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته)(١).

وقد عدّ العلماء ظن السوء بالله تعالى من أعظم الذنوب وإحدى الكبائر(٢).

وقد بين العلماء كيفية المخالفة لهذه الخصلة فقالوا عن ذلك: لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد في جميع ما أخبر الله به، من أسمائه، وصفاته، وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر الله به من أسمائه، وصفاته، وكماله. وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من

---

(١) للاستزادة انظر. زاد المعاد (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩)، إعلام الموقعين (٢/ ٢٤٢)، الجواب الكافي (٢١١)، الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٥٦)، شفاء العليل (١٠٤، ١٠٥)، مدارج السالكين (٣/ ٣٨٠)، إغاثة اللهفان (١/ ٥٧).

(٢) انظر.الجواب الكافي (٢١١)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٢٩).

الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد، لأنها سوء ظن بالله تعالى، ونفي لكماله، وتكذيب لخبره، وشك في وعده، فمن ظن بالله ظن سوء فقد شابه الكفار والمنافقين(١).

لهذا فإن من واجبات التوحيد إحسان الظن بالله تعالى، بأن يعتقد بأن كل ما يفعله الله في هذا الكون لحكمة بالغة قد تدركها عقولنا، وقد لا تدركها، وأن يظن بالله ظنًا حسنًا تجاه ما يفعله العبد، بأن الله سيقبل العمل الصالح، وسيقبل توبة التائب.

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، بدعوته إلى إحسان الظن بالله تعالى فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...»(٢)، وقال أيضًا: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»(٣).

---

(١) انظر. فتح المجيد (٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤)، القول السديد (٢٧١)، القول المفيد (٣/ ١٤٣، ١٥٠، ١٥١)، السبك الفريد (٢/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التوحيد. باب (ويحذركم الله نفسه) برقم (٧٤٠٥) بمثله، وباب (يريدون أن يبدلوا نعمة الله) برقم (٧٥٠٥) بمثله، ص(٦١٦، ٦٢٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله برقم (٦٨٠٥) بمثله، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى وحسن الظن به برقم (٦٨٢٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، باب حسن الظن بالله برقم (٢٧٣١) بمثله (٢/ ٣٩٥)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه في ذكر الأخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله جل وعلا بحسن الظن في أحواله به برقم (٦٣٣) بمثله، ص(٢/ ٤٠١)، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين برقم (١٢٣٥) (٢/ ٢٢٦)، وبرقم (١٥٤٦) (٢/ ٣٨٤)، وأخرجه الحاكم في مستدركه في كتاب

=

قال ابن حجر في المراد (بظن عبدي بي) أي: (بظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده، فلابد للعبد أن يجتهد في القيام بما عليه موقنًا بأن الله يقبله، ويغفر له؛ لأنه وعد بذلك، وهو لا يخلف الميعاد)[1].

وقد قال أحد السلف - رحمه الله -: (والذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئًا قط بعد الإيمان بالله - عز وجل - أفضل من أن يحسن ظنه بالله، والله الذي لا إله غيره لا يحسن عبد الله ظنه إلا أعطاه الله إياه، وذلك أن الخير بيده)[2].

وبعد بيان قبح هذه الخصلة وحكمها الشرعي إلا أن هناك من خالف الحق في هذه المسألة ببروز هذه الخصلة لديهم كأهل البدع من الفرق الكلامية الذين ينـزهون الله عن التشبيه، حتى نفوا الصفات وعطلوها، ولدى القبوريين، والصوفية، والشيعة، وغيرهم ممن يتوسلون بأصحاب القبور، ويعظمون الشيوخ، والأولياء من دون الله. كذلك نجد هذه الخصلة لدى أهل الكتاب من النصارى الذين نسبوا لله الولد والصاحبة، ومن اليهود الذين نسبوا النقائص لله تعالى، كذلك قد نجدها عند البعض

=

التوبة والإنابة برقم (٧٦٠٣) (٤/ ٢٦٨) وأخرجه الهيثمي في موارد الظمآن. باب حسن الظن بالله تعالى برقم (٢٣٩٣) بمثله جميعهم. وقال الحاكم حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٨٦).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٩).

من المسلمين، يقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن ذلك: (من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء، أي العيب يختص بهم، فإذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، وإذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، أو ظن سوء فيما يفعله بغيرهم، كما إذا رأوا من ابتلي بمرض بدني، أو رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك، ظنوا أن الله يدّيل هؤلاء الكفار على المسلمين دائمًا، علمًا أن الواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضي ذلك»(١). والله أعلم.

* * *

(١) القول المفيد (٣/ ١٥٢، ١٥٣).

المسألة السادسة والثمانون
إنهم يجعلون من دم العقيقة على رأس المولود فأمرنا بمخالفتهم

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – خصلة من خصال أهل الجاهلية في حق المولود عند المشركين، ذلك بأنهم كانوا إذا ولد لهم مولود قاموا بذبح عقيقة عنه، ثم يجعلون في دم هذه العقيقة قطنة، ومن ثم يأتون بها ليلطخوا رأس هذا المولود بدم العقيقة تبركًا بهذا الدم.

فالأصل في العقيقة: هي الشعر الذي على رأس المولود، وجمعها عقائق، وقد سمت العرب الذبيحة عند حلق شعره عقيقة على عاداتهم في تسمية الشيء باسم سببه، أو ما جاوره، ثم اشتهر ذلك حتى صار من الأسماء العرفية، فلا يفهم من العقيقة عند الإطلاق إلا الذبيحة[(١)].

ومما يدل على وجود هذه الخصلة الجاهلية لدى المشركين قول بريدة[(٢)] – رضي الله عنه -: (كنا في الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة، ولطخ رأسه بدمها، فلما جاء الله بالإسلام كنا نذبح شاة، ونحلق رأسه، ونلطخه بزعفران) [(٣)].

---

(١) المغني (٩/ ٣٦٣).

(٢) بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأعرج الأسلمي، غزا مع النبي ﷺ ست عشرة غزوة. سكن مرو، ومات فيها سنة ٦٣هـ. انظر: الإصابة (١/ ١٥٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الضحايا. باب في العقيقة برقم (٢٨٤٣) بمثله، ص(١٤٣٥). موسوعة الحديث الشريف. قال الحاكم في مستدركه: صحيح على شرح الشيخين ولم يخرجاه. قال الألباني: حسن صحيح.

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين رغب بأن يُعق عن المولود، وفي الوقت نفسه أمر بإماطة الأذى عن المولود، ومعلوم أن الدم نجس، فعلى هذا هو من الأذى، لهذا نهى عليه الصلاة والسلام من أن يمس رأس المولود بدم، كما حث على أن يحلق رأسه، ويلطخ بزعفران.

فقال ﷺ عن ذلك: «مع الغلام عقيقةٌ، فأهريقوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى» (١).

وقالت عائشة - رضي الله عنها -: (كانوا في الجاهلية إذا عقوا عن الصبي خضبوا قطنة بدم، العقيقة، فإذا حلقوا رأس الصبي وضعوها على رأسه، فقال النبي ﷺ: «اجعلوا مكان الدم خلوقًا(٢)» (٣)، وقال أيضًا: «يعق عن الغلام، ولا يمس رأسه بدم»(٤).

وقد كره الجمهور أن يلطخ رأس المولود بالدم؛ لأنه من عمل الجاهلية، في حين أنه لا بأس بأن يلطخ رأس المولود بزعفران أو خلوق أو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العقيقة. باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة برقم (٥٤٧١، ٥٤٧٢) بمثله ص(٤٧١)، موسوعة الحديث الشريف والمترجح فيه أنه موقوف كما في تحفة المودود (٤٤).

(٢) والخلوق هو ضرب من الطيب وقيل الزعفران. انظر: لسان العرب (١٠/ ٩١).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب العقيقة. ذكر الأمر لمن عق عن ولده أن يحلق رأسه في ذلك اليوم بعد الحلق برقم (٥٣٠٨) بمثله (١٢/ ١٢٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه. أبواب الذبائح. باب العقيقة برقم (٣١٦٦) بمثله موسوعة الحديث الشريف. قال البخاري وأبو حاتم: أراه مرسلاً، وقال ابن حجر: مرسل. قال الألباني: صحيح.

نحوه من الطيب لما ورد في السنة[١].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في بيان معنى الأحاديث السابقة: (لما أقر رسول الله ﷺ العقيقة في الإسلام، وأكد أمرها، ونهاهم أن يجعلوا على رأس الصبي من الدم شيئًا، وسن لهم أن يجعلوا عليه شيئًا من الزعفران؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يلطخون رأس المولود بدم العقيقة تبركًا به، لأنهم كانوا يتبركون بدم الذبيحة، حتى كانوا يلطخون منه آلهتهم تعظيمًا لها وإكرامًا، فأمروا بترك ذلك، لما فيه من التشبه بالمشركين،... وسن لهم أن يلطخوا الرأس بالزعفران الطيب الرائحة، الحسن اللون بدلاً من الدم الخبيث الرائحة، النجس العين، كما أن في حلق رأس المولود إماطة الأذى عنه، وإزالة الشعر الضعيف، ليخلفه شعر أقوى وأمكن منه، وأنفع للرأس، مع ما فيه من التخفيف عن الصبي، وفتح مسام الرأس)[٢]. هذا والله أعلم.

* * *

---

(١) انظر عون المعبود (١٢١٣)، الفتح (٩/ ٥٩٤)، الإقناع للشربيني (٢/ ٥٩٤)، مغني المحتاج (٤/ ٢٩٤)، المجموع (٨/ ٣١٩ - ٣٢٤)، زاد المعاد (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩)، نيل الأوطار (٥/ ٢٢٦).

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود (٧٤).

المسألة السابعة والثمانون والثامنة والثمانون
استعمال البوق[١] كفعل اليهود، الضرب بالناقوس[٢] كفعل النصارى

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هاتين المسألتين خصلتين من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

فحين كان اليهود يريدون أن يجمعوا الناس للصلاة، كانوا يجمعونهم بالبوق، بينما النصارى كانوا يجمعونهم بالضرب بالناقوس.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن هاتين الخصلتين: (إن اليهود يجمعون الناس بالبوق، والنصارى بالناقوس)[٣].

وقد خالف النبي ﷺ في هديه أهل الكتاب في هاتين الخصلتين المتعلقتين بإعلام الناس بدخول وقت الصلاة، فحين عُرض على النبي ﷺ البوق والناقوس للإعلام بوقت الصلاة كرههما، وبيّن العلة في كراهيته لهما بأنهما من أمر اليهود والنصارى، حينها خالف اليهود والنصارى في ذلك

---

(١) البوق: هو الذي ينفخ فيه ويزمر، وهو شبه منقافٍ ملتوي الخرق ينفخ فيه، ويطلق عليه القنع والشبور.
انظر: لسان العرب (١٠/ ٣١)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٠)، غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٢٦٧)، ت: عبد المعطي أمين القلعجي. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) الناقوس: هو مضرب النصارى الذي يضربونه لأوقات الصلاة، وهو خشبة طويلة تضرب بخشبة أصغر منها. انظر: عون المعبود (٢٥١)، لسان العرب (٦/ ٢٤٠).

(٣) هداية الحيارى (٩٣).

بأن شرع لهما الشارع الأذان إعلامًا بدخول وقت الصلاة بعباراتٍ تشتمل على كلمات التوحيد من تكبير وتهليل... ليكون شعارًا لهذا الدين الحنيف.

فقد ورد عن عبد الله بن زيد[(١)] - رضي الله عنه - قال: أنه لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسًا في يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة؛ قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى: قال: فقال: تقول: الله أكبر الله أكبر... ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: ثم تقول: إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر... فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: «إنها رؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتا منك، فقمت مع بلال فجعلت ألقيه ويؤذن به...»[(٢)]. وفي رواية أخرى

---

(١) عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد الله الخزرجي الأنصاري، شهد بدرًا وقتل في أحد. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة. لابن حجر. اعتنى به حسان بن عبد المناف بيت الأفكار الدولية ص(٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل برقم (١٨٨) (٢/ ٩٧) بمثله ت: فهد الفهيد. دار أطلس الخضراء الرياض، (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦٥٩٢) بمثله، ص (١١٥٤) وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب كيف الأذان برقم (٤٩٩) بمثله (١٢٦٠)، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب الصلاة. باب ما جاء في بدء الأذان (١٨٩). بمثله وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (١٦٥٤)، وأخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الأذات، باب بدء الأذان برقم (٧٠٦) بنحوه (٢٥١٩). موسوعة الحديث الشريف، صحيحه ابن خزيمة (٣٧٣). ابن حبان (١٦٧٩) قال شعيب إسناده حسن. قال الألباني: حسن.

«أن النبي ﷺ اهتم للصلاة، كيف يجمع الناس لها؟ فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا، فلم يعجبه ذلك، قال: فذكروا له القنع: شبور اليهود، فلم يعجبه ذلك وقال: (وهو من أمر اليهود) قال: فذكروا له الناقوس، فقال: (هو من فعل النصارى)، فانصرف عبد الله بن زيد، وهو مهتم لهمّ النبي ﷺ، فأري الأذان في منامه... إلخ)[(١)].

قال العلماء في بيان المعاني التي دل عليها الحديث السابق: وقد قيل عن ذلك: إن النبي ﷺ لما كره بوق اليهود المنفوخ بالفم، وناقوس النصارى المضروب باليد، علّل هذا بأنه من أمر اليهود، وعلّل هذا بأنه من أمر النصارى؛ فذكر الوصف عقيب الحكم، يدل على أنه علة له، وهذا يقتضي نهيه عن ما هو من أمر اليهود، والنصارى. وهذا يقتضي كراهة هذا النوع من الأصوات مطلقًا في غير الصلوات أيضًا، لأنه من أمر اليهود والنصارى، فإن النصارى يضربون بالنواقيس في أوقات متعددة غير أوقات عبادتهم، وشُرع الأذان ليكون شعارًا للدين الحنيف، فالأذان متضمن للإعلان بذكر الله الذي تفتح به أبواب السماء فتهرب الشياطين، وتنـزل الرحمة[(٢)].

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب بدء الأذان برقم (٤٩٨) بمثله، ص(١٢٦٠)، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب الصلاة. باب ما جاء في بدء الأذان برقم (١٩٠) بنحوه وقال الترمذي حديث حسن صحيح (١٦٥٤)، وأخرجه ابن ماجة في سننه. كتاب الأذان. باب بدء الأذان برقم (٧٠٧) بمثله، ص(٢٥١٩). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف، وبعضه صحيح.

(٢) للاستزادة انظر: فتح الباري (٢/ ٧٨، ٨٨، ٨٩)، عون المعبود (٢٥٠، ٢٥١)، اقتضاء الصراط =

كما قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عما دلت عليه هذه الأحاديث: (لقد أبطل الله سبحانه بالأذان ناقوس النصارى، وبوق اليهود، فإنه دعوة إلى الله سبحانه وتوحيده وعبوديته، ورفع الصوت به إعلاء لكلمة الإسلام، وإظهار لدعوة الحق، وإخماد لدعوة الكفر، فعوض الله عباده المؤمنين بالأذان عن الناقوس والطنبور، فأصبح التكبير بأصوات مرتفعة شعار لمحمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - ولأمته، وليس هذا لأحد من الأمم، لا أهل الكتاب ولا غيرهم سواهم)(١).

ومع ذلك لم تكن المخالفة فقط قاصرة على أن شرع لنا الشارع الأذان وحسب، وإنما زاد على ذلك بما رتبه الشارع على هذا الأذان من الفضل الكثير، والأجر العظيم في حق المؤذن، وفي حق من ردد مع المؤذن، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه...» (٢).

وقال عن ما للمؤذنين من الأجر في الآخرة «المؤذنون أطول الناس

= المستقيم (٢١٢)، الاعتصام (٢/ ٥٩٨).

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧١٨)،وللاستزادة انظر. هداية الحيارى (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان برقم (٦١٥) بمثله (٥٠) وباب فضل التهجير إلى الظهر برقم (٦٥٣) بمثله (٥٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف إقامتها وفضل الأول فالأول منه والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام برقم (٩٨١) بمثله (٧٤٨). موسوعة الحديث الشريف.

أعناقًا يوم القيامة»(١)، كما حث المؤذنين على رفع الصوت، فقال لأحد الصحابة: «إرفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن، ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»(٢).

وقال عن فضل متابعة المؤذن فيما يقول: «إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر... ثم قال لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة» (٣).

أن الأحاديث الواردة في فضل الأذان، وفضل متابعته كثيرة، وإن دل هذا إنما يدل على حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الكتاب، لهذا ينبغي على جميع من ينتسب للإسلام أن ينكر ما يحدث الآن للأسف في بعض الدول الإسلامية من وضع الرايات إعلامًا بالأوقات، حتى صار الأذان تابعًا لها كما في بلاد المغرب.

كذلك النفخ بالبوق، فهو العَلَم في رمضان، أو الضرب بالطبول للدلالة على قرب وقت غروب الشمس، وطلوعها، أو وقت السحور، كما هو الحاصل في بلاد المغرب، والأندلس.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الصلاة باب فضل الآذان وهروب الشيطان عند سماعه برقم (٨٥٢، ٨٥٣) بمثله، ص(٧٣٩) موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأذان. باب رفع الصوت بالأذان برقم (٦٠٩) بمثله، ص(٤٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة. باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة برقم (٨٥٠)، بمثله (٧٣٩). موسوعة الحديث الشريف.

كذلك ما يحصل من ضرب الطبول ثم إتباعها بالأذان في بعض مساجد الفلبين لنداء الناس للصلاة، مع العلم أن هذه الأمور كلها أمور مبتدعة محرمة، وهي آلاتٌ للهو، فلا يجوز استعمالها في إعلام الناس عند دخول وقت الصلاة، أو قرب دخوله، فالواجب الاكتفاء بالأذان الشرعي الذي شرعه لنا الشارع – عز وجل –[1].

* * *

(١) للاستزادة انظر: الاعتصام (٢/ ٥٩٨/ ٥٩٩)، فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، السؤال الرابع من الفتوى رقم (٢٠٣٦)، البدع والمحدثات وما لا أصل له (١٨٩).

المسألة التاسعة والثمانون
التعبد بترك الكلام مطلقًا فقال تكلمي فإن هذا من فعل الجاهلية

يبيّن المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أحد خصال أهل الجاهلية الأميين في تعبدهم لله، فهم يتعبدون له بالصمت، وذلك بالتزام المرء منهم الصمت، وعدم التكلم من حين قيامه من النوم حتى غروب الشمس. دل على ذلك ما ورد من أن أبا بكر(١) - رضي الله عنه - دخل على امرأة من أحمس(٢)، فرآها لا تتكلم، فقال: «ما لها لا تَتَكلَّمُ؟ فقالوا حجت مصمتةً، فقال لها: تكلمي، فإنه هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت...»(٣). قال ابن حجر – رحمه الله – أي: (أنه كان من نسك أهل الجاهلية الصمت، فكان أحدهم يعتكف اليوم، والليلة، ويصمت، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالنطق بالخير)(٤).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين نهى عنها،

---

(١) عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله، ولد بعد الفيل بسنتين صاحب رسول في الهجرة، شهد المشاهد كلها، كان من أنسب قريش، ومن أعلمهم بأنسابها توفي سنة ١٣هـ. أطلق عليه العتيق، لأنه بشره النبي بعتقه من النار. انظر: الإصابة ص(٨٠٤).

(٢) المراد امرأة من الحمس، أي من قريش. فتح الباري (٧/ ١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار. باب أيام الجاهلية برقم (٣٨٣٤) بمثله، ص(٣١١). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) فتح الباري (٧/ ١٥١).

إلا أن نهيه - عليه الصلاة والسلام - عن هذه الخصلة لم يكن على إطلاق، ذلك بأنه حث على الكلام بكلامٍ مشتمل على الحق والخير، أما في حين كان الكلام يشتمل على باطل كغيبة، أو فحش، أو نحوها ففي هذه الحالة على العبد المؤمن أن يلتزم الصمت. ومن زعم أنه متعبد بصمت دائم فهو مبتدع في ذلك، إذ أنه ليس في شريعة الإسلام عبادة الصمت؛ فالمؤمن متكلم بالخير من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، والتسبيح، والتهليل، أما الصمت الدائم فلا يكون إلا عن الباطل. ومما يدل على ذلك ما ورد من نهي النبي ﷺ في قوله: «لا صمات يوم إلى الليل»(١)، كذلك ما ورد عنه - عليه الصلاة والسلام -: أنه بينما كان النبي ﷺ يخطب فإذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل: نذر أن يقوم، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»(٢).

قال ابن حجر - رحمه الله – في دلالة هذا الحديث: (في هذا الحديث دليل على أن السكوت عن المباح ليس من طاعة الله، فليس من شريعة الإسلام الصمت عن الكلام، كما أن الصمت المرغوب فيه ترك الكلام الباطل، وكذا المباح إن جر إلى شيء من ذلك، والصمت المنهي عنه هو ترك

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الوصايا. باب ما جاء متى ينقطع اليتم برقم (٢٨٧٣) بمثله، ص(١٤٣٧). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان والنذور وكتاب كفارات الإيمان. باب النذر فيما لا يملك وفي معصية برقم (٦٧٠٤) بمثله (٥٦٠). موسوعة الحديث الشريف.

الكلام في الحق لمن يستطيعه)[١].

لهذا أثنى الشارع - عز وجل - على الكلام المثمر، المشتمل على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى الإصلاح بين الناس، في حين نفي الخيرية عما سواه من الكلام، فقال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٢]، وفي حين دعاهم إلى التكلم بخير لفت أنظارهم إلى أمر مهم، لابد أن لا يغفلوا عنه، حين أعلمهم بأنه تعالى قد جعل على كل بني آدم من يقوم بمراقبة ما يتكلمون به من خيرٍ أو شر، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٣]. قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي ما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة)[٤].

كذلك حرص النبي ﷺ على توجيه أمته إلى التكلم بخير، والصمت عما سواه فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[٥]، وقال أيضًا: «كلام ابن آدم عليه لا له

(١) فتح الباري (٧/ ١٥٠، ١٥١)، (١١/ ٥٩٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١١٤).

(٣) سورة ق، الآية: (١٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٥).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره برقم (٦٠١٨، ٦٠١٩) بمثله، ص(٥٠٩)، وفي كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه نفسه برقم (٦١٣٥، ٦١٣٦، ٦١٣٨) بمثله، ص(٥١٧)، وفي كتاب الرقاق. باب =

إلا أمر بمعروف، أو نهي عن المنكر، أو ذكر الله»[١].

يقول الإمام ابن حجر - رحمه الله - في شرح قول النبي ﷺ: «فليقل خيرًا أو ليصمت»: (هذا من جوامع الكلم، لأن القول كله إما خير، وإما شر، وإما آيل إلى أحدهما... لهذا أمر عند إرادة الخوض في الشر أو ما يؤول إليه بالصمت)[٢].

وبناءً على هذا يقول الإمام ابن رجب - رحمه الله -: (لم يقصد النبي ﷺ من أمره بالكلام على الإطلاق، ولا بأمره بالسكوت على الإطلاق، وإنما قصد أنه لابد أن يكون الكلام بالخير، والسكوت عن الشر[٣]...).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه الخصلة وغيرها مما لم يرد الشرع به: (إن من فعله على وجه التعبد بها والتقرب، فهو ضال جاهل، مخالف لأمر الله ورسوله، ولا ريب أن فعله على وجه التدين حرام،

= حفظ اللسان برقم (٦٤٧٦) بمثله، ص(٥٤٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان برقم (١٧٣) بمثله مع تقديم وتأخير وبرقم (١٧٤، ١٧٦) بنحوه، ص(٦٨٨)، وفي كتاب اللقطة باب الضيافة ونحوها برقم (٤٥١٣) بمثله، ص(٩٨٤). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب الزهد. باب من حديث (كل كلام ابن آدم عليه لا له) برقم (٢٤١٢) بمثله، ص(١٨٩٤)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن. باب كف اللسان برقم (٣٩٧٤) بمثله، ص(٢٧١٥)، قال الترمذي حسن غريب. وضعفه الألباني. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (١٠/٤٤٦).

(٣) للاستزادة انظر: جامع العلوم والحكم (٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١).

فقول الخير هو الواجب، والمستحب، خير من السكوت عنه، وما ليس بواجب ولا مستحب، فالسكوت عنه خير من قوله)(١).

ومما أيضًا يستدل به على مخالفة النبي ﷺ لهذه الخصلة هديه في طريقته في الكلام وفي الصمت، قال الإمام ابن قيم الجوزية عن ذلك: (كان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقًا، حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، فإذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعدُّه العادُّ، ليس بهذٍ مسرع لا يحفظ... كما كان طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، فلا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. ولم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا صخابًا)(٢).

وقد دعا الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - إلى نبذ هذه الخصلة فقال: (ليس من الإسلام التعبد بالإمساك عن الكلام؛ بل هو حرام؛ لأنه يؤدي إلى ترك التسبيح، والتهليل، والتحميد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقراءة القرآن، وغير ذلك، وأيضًا هو من فعل الجاهلية، لذلك نُهي عنه، والمندوب إليه التكلم بخير كمؤانسة ضيف، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر... ويكون الكلام حرامًا إذا كان فاحشًا وغيبة فيجب الإمساك عنه)(٣). ويقاس على هذه الخصلة في زمننا الحاضر ما يحصل في

---

(١) الفتاوى (٧/ ٤٩) (١١/ ٢٠٠) (٢٥/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٧٥)،للاستزادة انظر. شعب الإيمان (٢/ ١٥٥).

(٣) شرح كتاب المناهي (٢٠٩)، للاستزادة انظر. شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٠٧).

بعض البلاد الإسلامية وغيرها عند الاحتجاج على أمر ما، فيقوم البعض بالإضراب عن الطعام والكلام ونحوه... كذلك ما يقوم به زهاد الصوفية من لزومهم الصمت الدائم والانفراد عن المخالطة تعبدًا[1]. فكل هذا داخلٌ في هذه الخصلة الجاهلية والله أعلم.

* * *

(١) انظر حاشية المحقق لاقتضاء الصراط المستقيم (٢٢١)، تلبيس إبليس (١٩٣).

المسألة التسعون

إنهم لا يدفعون من مزدلفة حتى تطلع الشمس فخالفهم النبي ﷺ

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة إلى خصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين، فقد كان المشركون يؤخرون الإفاضة من مزدلفة إلى منى حتى تطلع الشمس. دل على ذلك قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير[(١)]) [(٢)].

ولما كانت مخالفة أهل الجاهلية في خصالهم أمرًا مقصودًا للشارع، عمد النبي ﷺ إلى مخالفتهم في هديه إما بالنص القولي على وجوب المخالفة، أو بفعله - عليه الصلاة والسلام -.

لهذا نجد أن مخالفة النبي ﷺ لأهل الجاهلية في هذه الخصلة تمثلت في فعله - عليه الصلاة والسلام -، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن ذلك: (إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير. وإن النبي ﷺ خالفهم، ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس).

---

(١) ثبير: جبل معروف في مكة على يسار الذاهب إلى منى، وهو أعظم جبال مكة. انظر. فتح الباري (٣/ ٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحج، باب متى يدفع من جمع برقم (١٦٨٤) بمثله، ص(١٣٢)، وفي كتاب مناقب الأنصار. باب أيام الجاهلية برقم (٣٨٣٨) بمثله، ص(٣١١). موسوعة الحديث الشريف.

قال القرطبي في المراد بذلك: (أن أهل الجاهلية كان يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس، فعجل النبي ﷺ الدفع من المزدلفة مخالفًا لهدي المشركين)(١).

وقد قال العلماء عن الدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس: لا نعلم خلافًا في أن السنة الدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس، وذلك لأن النبي ﷺ كان قد فعله(٢).

وعلى هذا فقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على اقتفاء سنة رسول الله ﷺ في ذلك، فكان ابن مسعود - رضي الله عنه - يدفع كانصراف القوم المسفرين من صلاة الغداة، كما أفاض عمر - رضي الله عنه - قبل طلوع الشمس، وانصرف ابنه حين أسفر وأبصرت الإبل موضع خفافها(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – في مخالفة النبي ﷺ لأهل الجاهلية في هذه الخصلة: (لقد قصد النبي ﷺ مخالفة المشركين، وكان هذا في سنن الحج، كما فعل في مزدلفة، فإن المشركين كانوا يؤخرون الإفاضة من جمع إلى أن تطلع الشمس، فخالفهم النبي ﷺ، فعجل الإفاضة من جمع قبل طلوع الشمس، لأن فيه إظهارًا لمخالفة المشركين، وهذا هو السنة

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٤٢٥).

(٢) للاستزادة انظر: الإقناع (١/ ٣٨٩)، المغني (٥/ ٢٨٧)، الشرح الممتع (٣/ ٢٨٦)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢٣٤)، زاد المعاد (٢/ ١٩٨).

(٣) انظر: المغني (٥/ ٢٨٧)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (٤/ ١٦٥).

للمسلمين باتفاق المسلمين)[١].

وقال أيضًا الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (إن ما شرع من المناسك قصدًا لمخالفة الكفار، فإنه دائم المشروعية إلى يوم القيامة... كالدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس، فإن المشركين كانوا لا يدفعون منها حتى تشرق الشمس، فقصد عليه الصلاة والسلام مخالفتهم، فصارت سنة إلى يوم القيامة)[٢]. هذا والله أعلم.

* * *

(١) الفتاوى (٢٦/ ٩٦)،للاستزادة انظر. اقتضاء الصراط المستقيم (٢٣٤)، وانظر: زاد المعاد (٢/ ١٩٨).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٧).

المسألة الحادية والتسعون
وصل الشعر كما في حديث معاوية[١]

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إلى أحد خصال الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود وهي في وصلهم لشعر الرأس بشعر آدمي، لإيهام الناظر إليهم أنه من الشعر.

وقد دل على وجود هذه الخصلة عند اليهود قول معاوية – رضي الله عنه –، حين عاتب المسلمين على ظهور هذه الخصلة بينهم دون أن ينكرها أحد، فقال: (يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ: ينهى عن مثل هذا ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذت هذه نساؤهم»[٢]. وفي رواية أخرى «ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود»[٣].

---

(١) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب القرشي الأموي، أمير المؤمنين، ولد قبل البعثة، أخته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها. توفي (٦٠هـ). انظر: الإصابة ص(١٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب أحاديث الأنبياء. باب (٥٤) برقم (٣٤٦٨) بمثله، ص(٢٨٣) وفي كتاب اللباس، باب وصل الشعر برقم (٥٩٣٢) بمثله، ص(٥٠٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الآداب، باب تحريم الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة. برقم (٥٥٧٨) بمثل، ص(١٠٥٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب وصل الشعر برقم (٥٩٣٨) بمثله، (٥٠٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الآداب. باب تحريم الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة برقم (٥٥٨٠) بمثله، ص(١٠٥٨). موسوعة الحديث الشريف.

ويعد وصل الشعر مكيدة من الشيطان على بني آدم التي توعدهم بأن يضلهم بها، فقال تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾(١)، قال المفسرون والمراد من ذلك: أي فليغيرن دين الله، وتغير دين الله يدخل فيه فعل كل ما نهى الله عنه من وشم... ووصل، وغير ذلك من المعاصي(٢).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، بالنهي عنها، وبتشديد الوعيد على من فعلها، وذلك بلعن الله - عز وجل - له، فقال ﷺ: «لعن الله الواصلة والمستوصلة...»(٣) وبتسميته زورًا، قال معاوية - رضي الله عنه - عن ذلك: (إن النبي ﷺ سماه الزور، يعني الواصلة في الشعر)(٤). قال قتادة عن مراد النبي ﷺ حين سماه زورًا: (الزور يعني به

---

(١) سورة النساء، الآية: (١١٩).

(٢) انظر.تفسير الطبري (٤/ ٢٨٥)، تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس. باب وصل الشعر برقم (٥٩٣٣) بمثله وبرقم (٥٩٣٤) بمثله وبرقم (٥٩٣٥) بنحوه وبرقم (٥٩٣٧) بمثله، وفي باب الموصولة برقم (٥٩٤٠، ٥٩٤١، ٥٩٤٢) بمثله، ص(٥٠٣، ٥٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الآداب. باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة برقم (٥٥٦٥، ٥٥٦٨، ٥٥٧١)، بمثله، ص(١٠٥٧، ١٠٥٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب وصل الشعر برقم (٥٩٣٨) بمثله، ص(٥٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الآداب. باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة. برقم (٥٥٨٠، ٥٥٨١) بمثله ص(١٠٥٨). موسوعة الحديث الشريف.

ما تكثر به النساء أشعارهن من الخرق)[١]. كما قال - عليه الصلاة والسلام - حين نهى عن هذه الخصلة أنها أحد المعاصي التي أهلكت بنو إسرائيل بسببها حين اتخذتها نساؤهم مع علمهم بتحريمها، في حين لم يكن هناك من ينكر عليهم هذه المعصية، فقال: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم».

قال جمهور العلماء عن حكم وصل الشعر: إن جميع هذه النصوص تنص على تحريم وصل الشعر بالشعر، وتلعن فاعله لما فيه من الكذب، والتدليس، والتزوير والتغيير لخلق الله، لهذا يُعد الوصل من كبائر الذنوب لما يترتب على فاعله من اللعن [٢].

فالواجب على كل مؤمن ومؤمنة الحذر من مغبة هذه الخصلة، والتي تتمثل في الطرد من رحمة الله تعالى، وملاقاة ما لقيه بنو إسرائيل من العذاب على هذا الذنب، أو مظنة ذلك الذنب، فالواجب تركه حسمًا لمادة العذاب، كما قال عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (لقد حذر النبي ﷺ أمته من وصل الشعر، لهذا قال معاوية رضي الله عنه: (ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود)، وعلى هذا فما كان من زي اليهود، الذي لم يكن

(١) صحيح مسلم في كتاب الآداب، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة برقم (٥٥٨١)، ص(١٠٥٨). موسوعة الحديث الشريف، اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٣).

(٢) للاستزادة انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٥)، معالم السنن (٤/ ٤٠٩)، شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٠٤)، فتح الباري (١٠٠/ ٣٦٧)، المنهاج (١٦٠١)، المغني (١/ ١٢٩، ١٣٢)، شرح العمدة (١/ ٢٣٨)، الأداب الشرعية (٧٥٤).

عليه المسلمون: إما أن يكون مما يعذبون عليه، أو مظنة لذلك، أو يكون تركه حسمًا لمادة ما عذبوا عليه، لا سيما إذا لم يتميز ما هو الذي عذبوا عليه من غيره، فإنه يكون قد اشتبه المحظور بغيره، فيترك الجميع)[١].

ولا يخفى على أحد تساهل البعض من المسلمين والمسلمات في قيامهم بمثل هذه الخصلة، وهي ما تعرف في زماننا هذا بالباروكة، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهو ديدنٌ لهم، ولا عتب عليهم في ذلك، فليس أعظم من الكفر ذنب.

وقد سئل الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - عن حكم الباروكة فقال: (الباروكة محرمة، وهي داخلة في الوصل، وإن لم تكن وصلاً فهي تظهر رأس للمرأة على وجه أطول من حقيقته فتشبه الوصل، لكن إن لم يكن على رأس المرأة شعر أصلاً، أو كانت قرعاء، فلا حرج من استعمال الباروكة ليستر هذا العيب لأن إزالة العيوب جائزة)[٢]. هذا والله أعلم.

* * *

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٣، ١٧٤).

(٢) فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -. إعداد أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم. دار عالم الكتب. الرياض (ط٤)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (٢/ ٨٣٦)، حكم استعمال الباروكة والتجميل.

المسألة الثانية والتسعون
الصلاة إلى المشرق

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد خصال الجاهلية لدى أهل الكتاب من النصارى في استقبالهم للقبلة، حيث كانت صلاتهم باتجاه المشرق خلافًا لقبلة عيسى - عليه السلام - الذي كان يصلي باتجاه بيت المقدس.

ومما يدل على وجود هذه الخصلة عند النصارى، أنه لما جاء وفدٌ من نصارى نجران[١] إلى النبي ﷺ، وحانت صلاتهم، قاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فصلوا إلى المشرق [٢].

ويُعزى السبب في تحول قبلة النصارى من بيت المقدس إلى المشرق نتيجة للتبديل والتغيير الذي حصل على شريعة عيسى - عليه السلام - حين عمد النصارى إلى تركيب دين بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُباد الأصنام، ليتلطفوا بذلك الأمم الأخرى حتى يدخلوا في النصرانية، الأمر الذي نتج عنه عقائد وشرائع كثيرة محرفة عند النصارى، والتي منها صلاتهم إلى المشرق.

---

(١) نجران مدينة في جنوب جزيرة العرب -في المملكة العربية السعودية- بالقرب من اليمن، عمرها نجران بن زيدان بن سبأ، دخل أهلها دين النصرانية. انظر: معجم البلدان (٥/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره برقم (٦٥٤٠) (٣/ ١٦٣)، وأخرجه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٦٩)، سيرة ابن هشام (٥١١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد ظهرت في النصارى البدع بسبب معاداتهم لليهود، فصاروا يقصدون خلافهم، فغلوا في المسيح... كما ابتدعوا مالم يأمر به المسيح ولا الحواريون كالصلاة إلى المشرق فصلوا إلى حيث تظهر الشمس والقمر والكواكب، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة)(١).

كما قال عن ذلك ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (لقد أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير، حتى تناسخ واضمحل، فلم يبق عند النصارى منه شيء، فركبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُباد الأصنام، راموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوا في النصرانية... فنقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق)(٢).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فنسخ القبلة وغيرها، فبعد أن كانت القبلة على عهد رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أصبحت إلى مكة، وقد امتثل النبي ﷺ أمر الله تعالى بمخالفة أهل الجاهلية بتغييره للقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في مكة، قال تعالى مخاطبًا نبيه محمد ﷺ ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾(٣)، وقال أيضًا: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟

(١) منهاج السنة (١/ ٢٠٠)للاستزادة انظر. الجواب الصحيح (٣/ ٤٧)، الفتاوى (٢٨/ ٦١١).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٢١٠).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٤٤).

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾[١].

قال المفسرون المراد بهذه الآية: فلنصرفنك عن بيت المقدس يا محمد، إلى قبلة تهواها وتحبها[٢]. وعن نسخ القبلة يقول ابن عباس - رضي الله عنه -: (كان أول نسخ في القرآن القبلة)[٣]. أيضًا: «فلما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة كان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان - عليه السلام - يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله حتى أنزل الله - عز وجل - قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ فتوجه نحو الكعبة»[٤].

لهذا فإن في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مخالفة لكل من اليهود والنصارى، ولكي لا تزعم اليهود فتحتج بأن موافقتهم في القبلة،

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٥٠).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٢/ ٢٣)، تفسير البغوي (١/ ١٠٣).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، باب ما استثنى من عدة المطلقات برقم (٥٧٠٤) بمثله وزيادة في أوله وآخره (٣/ ٣٨٦) وفي سننه الصغرى كتاب الطلاق. باب ما استثنى من عدة المطلقات برقم (٣٥٢٩) بمثله، وزيادة في أوله وآخره، وفي باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث برقم (٣٥٨٤) بمثله وزيادة في أوله وآخره ص(٢٣١٨، ٢٣٢٢). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن صحيح.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصلاة. باب التوجه نحو القبلة حيث كان برقم (٣٩٩) بمثله وزيادة في أخرى، وفي كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام برقم (٧٢٥٢) بمثله وزيادة في أخرى، ص(٣٤، ٦٠٤). موسوعة الحديث الشريف.

سيتولد عنها موافقتهم في دينهم.

وعن ذلك قال مجاهد أن في تحويل القبلة: (مخالفة لليهود)[١].

وقال ابن كثير - رحمه الله - أيضًا: (لئلا يحتج أهل الكتاب بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس)[٢].

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (فمعناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا، فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة، حين بيّن سبحانه أن الحكمة من نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الكافرين في قبلتهم، وليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة)[٣]. هذا والله أعلم.

* * *

(١) انظر. تفسير البغوي (١/ ١٠٦)، تفسير القرطبي (٢/ ١٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٦٩).

المسألة الثالثة والتسعون
شد الوسط بالزنار

يبيّن المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا خصلة من خصال الجاهلية عند النصارى والمجوس في زي رهبانهم الظاهر، وهو شد الوسط بخيط يطلق عليه الزنار.

والزنار: خيط غليظ بقدر الإصبع، يلبسه النصراني والمجوسي بشده على وسطه فوق الثياب(١).

وقد دعانا النبي ﷺ إلى مخالفة أهل الجاهلية، وعدم التشبه بهم، ضمن عموم دلالة الحديث المستلزمة لكراهية التشبه بما من شأنه مشابهة الأعاجم في زيهم أو عاداتهم، فقال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» (٢).

فلبس الزنار داخلٌ في التشبه، ذلك لأن الزنار سمةٌ من سمات زي النصارى والمجوس، وما كان سمةً مخالفةً لسمات العرب في زيهم أو عاداتهم، ومشابهًا لسمات الأعاجم في زيهم أو عاداتهم، فهو داخلٌ ضمن التشبه المنهي عنه، والذي دل عليه الحديث بالاستلزام.

وقال العلماء عن حكم لبس الزنار يكره شد الوسط بالزنار لما فيه من التشبه بعادات النصارى، والمجوس، ولعموم حديث: «من تشبه بقوم فهو

---

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ٣٣٠)، القاموس المحيط (٢/ ٤٢)، التعريفات (١٢٨).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

منهم»[١]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن حكم كل لباس مخالف لزي العرب ومشابه لزي الأعاجم: (أن اللباس المكروه هو كل ما خالف زي العرب، وأشبه زي الأعاجم وعاداتهم)[٢].

وعلى هذا فيجب على كل مسلم أن يخالف الأعاجم في زيهم وعاداتهم، وذلك بدلالة الاستلزام التي دل عليها الحديث السابق: «من تشبه بقوم فهو منهم» لما في التشبه بهم من الإعزاز لهم والإعلاء من شأنهم، لهذا فقد ورد فيما اشترطه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على أهل الذمة من النصارى، وغيرهم الذين كانت تجري عليهم أحكام الذمة، وإعطاء الجزية، عدة شروط تستلزم منهم مفارقة المسلمين في زيهم، وعاداتهم، وكلامهم... فكان من ضمن هذه الشروط أن يشدوا الزنانير على أوساطهم، ليكون خاصًا بهم، وعلامة دالة عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – عن ذلك: (إن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه -، ثم عامة الأئمة بعده وسائر الفقهاء، جعلوا في الشروط المشروطة على أهل الذمة من النصارى وغيرهم فيما شرطوه على أنفسهم: أن لا نتشبه بهم في شيء من لباسهم.. وأن نلزم زيّنا حيثما كان، وأن نشد الزنانير على أوساطنا)[٣].

---

(١) انظر: الإقناع (١/ ٩١)، المغني لابن قدامة (١٣/ ٢٣٦)، الإنصاف: لعلي بن سليمان المرداوي، ت: محمد حامد الفقي. دار إحياء التراث. بيروت، (١/ ٤٧٠)، الروض المربع (١/ ٥١٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٣٨).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٧).

وقال أيضًا ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (وليفرق بين المسلمين وبينهم في الشبه والزي ليتميز ذوو الهداية والرشد من ذوي الضلالة والبغي، وليوسموا بالغيار، وشد الزنار)[1].

ولعل نظيرًا لهذه الخصلة لا يخفى على كل صاحب بصيرة في عصرنا من مشابهة الكثير من المسلمين لأهل الكتاب في زيهم الذي عُرف به رجالهم ونساؤهم، فنجد الكثير مما عرفوا به من زيهم قد أخذه المسلمون عنهم من الرجال، وبخاصة النساء، كالبنطال، والقصير... ونحوها فالله المستعان.

* * *

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٣٧).

المسألة الرابعة والتسعون
تأخير المغرب حتى تشتبك[1] النجوم

يبيّن المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود، وهو تأخيرهم لصلاة المغرب لحين ظهور النجوم جميعًا، واختلاط بعضها ببعض، وقد وافق الروافض اليهود في هذه الخصلة، فجعلوا تأخير صلاة المغرب لحين اشتباك النجوم مستحبًا.

وقد ذكر الإمام الشعبي - رحمه الله - أمورًا تجمع بين اليهود والرافضة، ذكر منها هذه الخصلة فقال: (أحذركم الأهواء المضلة، وشرها الرافضة، وذلك أن منهم يهودًا يغمصون الإسلام ليتجاوز بضلالتهم... وآية ذلك أن محنة[2] الرافضة محنة اليهود؛ فاليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة)[3].

وقد خالف الشارع - عز وجل - أهل الجاهلية حين توعد كل من يؤخر الصلوات المكتوبة عن أوقاتها، فقال ذلك: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ

---

(١) أي حتى تظهر جميعًا، ويختلط بعضها ببعض لكثرة ما ظهر منها، وهو كناية عن الظلام. انظر. عون المعبود (٢١٩).

(٢) أي الأمور التي امتحنوا الناس بها، وكانت سبب الفتنة والمحن التي تتالت على المسلمين. انظر. هامش السنة للخلال (٣/ ٤٩٧).

(٣) انظر: السنة. لأبي بكر أحمد بن هارون الخلال. ت: د. عطية الزهراني، دار الرياض، الرياض، (ط٣)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (٣/ ٤٩٧، ٤٩٨)، اعتقاد أهل السنة. للالكائي (٤/ ١٥٥٠)، منهاج السنة (١/ ١٦، ٢٠).

أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾(١).

قال ابن مسعود – رضي الله عنه – في تفسير الآية: (فليس المراد بإضاعتها: تركها، إنما المراد أخروها عن مواقيتها)(٢).

كما قال الباريء محذرًا من التأخير: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾(٣). قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير الآية: (أي ساهون عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا)(٤).

لهذا أمر الشارع – عز وجل – عباده المؤمنين بالمحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها فقال تعالى:﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾(٥).

قال الطبري في تفسيرها: (المراد واظبوا على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، وتعاهدوهن والزموهن)(٦).

وقد بيّن الشارع لعباده أن الصلوات المكتوبة موقوتة بوقت، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾(٧).

---

(١) سورة مريم، الآية: (٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).
(٣) سورة الماعون، الآية: (٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٥).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٣٨).
(٦) تفسير الطبري (٢/ ٥٦٩).
(٧) سورة النساء، الآية: (١٠٣).

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - عن المراد بهذه الآية: (أي أن للصلاة وقتًا كوقت الحج)[١].

وقد وعد الشارع - عز وجل - بحصول الفلاح، والفوز، والسعادة للمؤمنين المتصفين بصفات ذكرها ضمن سورة (المؤمنون) والتي منها: محافظتهم على صلواتهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾[٢].

قال قتادة عن المراد بقوله (يحافظون): (أي محافظين على مواقيتها، وركوعها، وسجودها)[٣].

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي اليهود في هذه الخصلة، فنص على أهمية أداء الصلوات في أوقاتها بعدة وسائل، فتارةً بالترغيب، وتارةً بالترهيب فمن وسائله في الترغيب والترهيب معًا حين نص على أن من أسباب بقاء الخير في هذه الأمة، وبقائهم على الفطرة مالم يؤخروا صلاة المغرب لحين اشتباك النجوم.

فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تزال أمتي بخير، أو قال: على الفطرة: مالم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم»[٤]، كما قد أُثر عنه -

---

(١) انظر. تفسير الطبري (٤/ ٢٦٢)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٥١).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٧٤٦٢، ٢٣٩٣١، ٢٣٩٧٩) بمثله وزيادة في آخره (١٢٣١، ١٧٣٤، ١٧٣٧)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب وقت صلاة المغرب =

عليه الصلاة السلام - بأنهُ كان يؤدي صلاة المغرب من حين وجوبها، فقيل: «كان النبي يصلي المغرب إذا وجبت»[(١)]، قال ابن حجر: (والمراد (بوجبت): «أي غابت الشمس، مما يدل على مبادرته إلى الصلاة في أول وقتها، وقد كانت تلك عادته في جميع الصلوات)[(٢)].

كذلك ما ورد عن رافع بن خديج[(٣)] قال: (كنا نصلي المغرب مع النبي ﷺ فينصرف أحدنا وإنه ليبصر مواقع نبله)[(٤)]. قال ابن حجر: (إن في هذا الحديث دلالة: على مبادرة النبي ﷺ وأصحابه إلى أداء الصلاة في أول وقتها، لا على أن الوقت مضيق)[(٥)].

أيضًا: مما يدل على وجوب أداء الصلوات في أول وقتها، حين سئل

= برقم (٤١٨)، بمثله (١٢٥٤)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب الصلاة باب وقت صلاة المغرب برقم (٦٨٩)، بمثله (٢٥١٧). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن صحيح.

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب وقت المغرب برقم (٥٦٠)، بمثله (٤٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب استحباب التكبير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس وبيان قدر القراءة فيها برقم (٦٤٦) بمثله (٧٧٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٢/ ٤١).

(٣) رافع بن خديج بن رافع بن الخزرج، لم يشهد بدرًا لصغر سنه، وشهد أحدًا وما بعدها. توفي سنة ٧٤هـ في المدينة. انظر: الإصابة ص(٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب مواقيت الصلاة. باب وقت المغرب برقم (٥٥٩) بمثله (٤٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد، باب بيان أن أول وقت المغرب بعد غروب الشمس برقم (١٤٤١) بمثله (٧٧٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) فتح الباري (٢/ ٤١).

النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله، فنص - عليه السلام - بقوله: «الصلاة على وقتها»(١)، وهذه أحد وسائله - عليه الصلاة والسلام - في الترغيب، كذلك أيضًا ما ذكره - عليه الصلاة والسلام - أن من الأسباب الموجبة لمغفرة الله - عز وجل - للعبد محافظته على أداء الصلوات في أوقاتها، كما ورهب في الوقت نفسه حين بيّن بأن العذاب قد يترتب على العبد في حال انتفت هذه الأسباب، فقال: «خمس صلوات افتراضهن الله - عز وجل - من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه» (٢). قال أحد العلماء والمراد: في حال صلاتهن في أوقاتهن المختارة (٣).

وقد قال العلماء عن أهمية أداء الصلوات في وقتها: المسارعة إلى أداء الصلوات، وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى أواخر الأوقات. علمًا أن وقت صلاة المغرب واحد، من حين مغيب الشمس إلى مغيب الحمرة، لهذا أجمع العلماء على تفضيل تعجيل صلاة المغرب من حين الأذان، فيكون تأخره بمقدار الوضوء والراتبة، وما أشبه ذلك (٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة على وقتها برقم (٥٢٧) بمثله ص(٤٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب المحافظة على الصلوات برقم (٤٢٥)، بمثله (١٢٥٤). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٣) عون المعبود (٢٢١).

(٤) انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني (٢٩٧)، الإجماع. لابن المنذر. =

لهذا فقد عدّ العلماء أن تأخير الصلاة المكتوبة عن وقتها عمدًا كبيرة من الكبائر.

يقول الإمام ابن بطة عن ذلك: (من السنة المبادرة بصلاة المغرب إذا غاب حاجب الشمس، قبل ظهور النجوم)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حكم تأخيرها: (لا يحل تأخيرها عن وقتها إلاَّ لناوي جمعها، أو مشتغل عنها بشرطها، أما فعلها في الوقت المضروب لها ففرض، وتأخيرها عنه عمدًا من الكبائر، لقوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾، فالمحافظة عليها فعلها في الوقت، لأن المحافظة خلاف الإهمال والإضاعة، ومن أخرها عن وقتها فقد أهملها، ولم يحافظ عليها)[٢]. وقال أيضًا: (من أكبر مقاصد بعثة النبي ﷺ مخالفة أهل الكتاب ليظهر دين الله، لهذا فسر النبي ﷺ، تعليله للحديث «لا تزال أمتي...» - السابق - أي لا يزالون بخير مالم يؤخروا المغرب إلى طلوع

=

ت: د. فؤاد عبد المنعم. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص(٩١)، الإجماع لابن حزم (٤٨)، الإجماع لابن عبد البر. جمع فؤاد الشلهوب وعبد الوهاب الشهري. دار القاسم. الرياض، (ط١)، ١٤١٨هـ، (٤٨)، الجامع الاختيارات الفقهية. لابن تيمية. د. أحمد موافي. دار ابن الجوزي. الرياض، (ط٣)، ١٤٢٣هـ، (١/ ٢١٤)، الدرر السنية (٤/ ٢١٨)، الشرح الممتع (١/ ٣٣١).

(١) الشرح والإبانة (٣١٣).

(٢) شرح العمدة (٤/ ٥٣).

النجوم مضاهاة لليهود)[١].

وقال العلماء حكم تأخيرها عن وقتها وتقديمها: فترك الصلاة أو تقديمها على وقتها، أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر كبيرة من الكبائر[٢].

إلا أن هذه الخصلة تظهر كثيرًا في هذا الزمن الذي تهاون فيه البعض من المسلمين في أداء الصلوات في وقتها، فنجد هناك من يؤخرها لحين خروج وقتها، أو قرب خروج وقتها تشاغلاً بأمور الدنيا من بيع، أو شراء، أو نحوه، كذلك نجد تقصيرًا ملحوظًا من بعض الآباء والأمهات في تربية النشء على أهمية أداء الصلوات في وقتها، بحجة صغر سنهم أو نحوها من الحجج الواهية التي ينشأ على أثرها جيلٌ متهاون في أداء الصلوات في أوقاتها.

* * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٢).

(٢) انظر. الكبائر للذهبي (٢١)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٩٦).

المسألة الخامسة والتسعون
أنهم لا يتسحرون إذا صاموا فقال النبي ﷺ
(فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر)(١)

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند أهل الكتاب أنهم لا يتسحرون إذا صاموا.

والتسحر لغة: بضم السين وفتحها، فالتسَحر بفتح السين يراد به: المأكول، وبضم السين يراد به: اسم للفعل، وكلاهما صحيح، يقال تَسَحرَ أي أكل أكلة السحور(٢).

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على وجود هذه الخصلة عند أهل الكتاب بحديث الرسول ﷺ المتضمن لإثبات وجود هذه الخصلة عند أهل الكتاب، من خلال دعوة المسلمين إلى مخالفتهم، وحثهم على أكلة السحر، فهي فصلٌ بين عبادة أهل الكتاب، وعبادة المسلمين كما هو واردٌ في النص، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر».

قال الإمام الخطابي - رحمه الله – في شرح هذا الحديث: (والمعنى في هذا الكلام الحث على التسحر، وفيه الإعلام بأن هذا الدين يسر لا عسر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الصيام. باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (٢٥٤٩)، بمثله (٨٥٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) لسان العرب (٤/ ٣٥١).

فيه. فقد كان أهل الكتاب إذا ناموا بعد الإفطار لم يحل لهم معاودة الأكل والشرب، وعلى مثل ذلك كان الأمر في أول الإسلام، ثم نُسخ)[١].

وقال الإمام النووي - رحمه الله - في معنى (فصل ما بين صيامنا...) (أي الفارق والمميز بين صيامنا وصيامهم السحور، فأهل الكتاب يصومون من نصف الليل فيأكلون قبل منتصف الليل، ولا يأكلون في السحر، أما المسلمون – ولله الحمد – فيأكلون في السحر، في آخر الليل. والتمييز بين المسلمين والكفار أمر مطلوب في الشرع)[٢].

وقد دعا الشارع إلى مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، حين أذن لهذه الأمة بالأكل والشرب في وقت السحر، إلى أن يحين الوقت الذي يتبين فيه الليل والنهار، قال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾[٣].

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسيره للآية: (أي حتى يتبين الليل من النهار، فأحل لكم الأكل والشرب، والمجامعة حتى يتبين الصبح، فإذا تبين الصبح حُرم عليهم الأكل، والشرب، والمجامعة حتى يتموا الصيام إلى الليل)[٤].

وقد حبب نبينا ﷺ أكلة السحر، ورتب البركة على آكلها، فقال عن

---

(١) معالم السنن (٢/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) المنهاج (٨٣٤)،للاستزادة انظر. شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٢٤).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٨٧).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ١٧٧).

ذلك: «تسحروا فإن في السحور بركة» (١).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله – في المراد بالبركة: (المراد بالبركة الأجر والثواب، ولكون السحور يقوي على الصوم، وينشط له، ويخفف المشقة فيه، كما أنه اتباع للسنة، ومخالفة لأهل الكتاب، ومدافعة لسوء الخلق الذي يثيره الجوع)(٢).

ولأجل هذا حرص النبي ﷺ على ترغيب أمته بأكلة السحر، وحثهم عليها، حين قال عليه الصلاة والسلام: «السحور بركة فلا تدعوه، ولو أن يجرع أحدكم جرعة ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين» (٣).

قال أحد العلماء ومعناه: (لا تدعوا السحور ولا تتركوه، ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فلا يتركه بحال، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين، وصلاة الله برحمتهم، وصلاة الملائكة باستغفارهم لهم، وفي هذا ترغيب عظيم)(٤) للحرص عليها.

وقال ابن قيم الجوزية عن هدي النبي ﷺ الفعلي في السحور: (وقد أثر عنه - عليه الصلاة والسلام - التسحر، والحث عليه، وتأخيره، والترغيب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم. باب بركة السحور من غير إيجاب برقم (١٩٢٣) بمثله، (١٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام. باب فضل السحور، وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (٢٥٤٩)، بمثله (٨٥٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٤/ ١٤٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١٠٢، ١١٤١٦) بمثله (٧٥٨، ٧٨٢).

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير. (٤/ ١٣٧).

في تأخيره)[١] فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخروا السحور»[٢].

وقد أجمع العلماء على أن السحور مندوب إليه[٣].

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - عن حكم السحور: (يسن تأخير السحور مالم يخش طلوع الفجر الثاني، وتحصيل فضيلة السحور يكون بأكل أو شرب، وإن قل، وتمام الفضيلة بالأكل)[٤].

وقال الإمام ابن بطة - رحمه الله - عن ذلك: (ومن السنة تعجيل الإفطار، وتأخير السحور)[٥].

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد جاء الشرع بالعدل في كل شيء، فالإسراف في العبادات من الجور الذي نهى عنه الشارع، فأمر بالاقتصاد في العبادات، لهذا أمرهم بالسحور، واستحب لهم تأخيره، للفصل بين المأمور به من الصيام، وغير المأمور به، وللفصل بين العبادة وغيرها، وللفصل بين عبادة المسلمين وعبادة أهل الكتاب)[٦].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١٦٣٧)بمثله وبرقم(٢١٨٣٩)بمثله وزيادة في أوله ص(١٥٥٢،١٥٦٨).

(٣) انظر: الإجماع لابن المنذر (١٠٤)، المغني (٤/ ٤٣٢).

(٤) الإقناع (١/ ٣١٥).

(٥) الشرح والإبانة (٣١٢).

(٦) الفتاوى (٢٤/ ٢٠٣) (٢٥/ ٢٥٠)،للاستزادة انظر. الفتاوى الكبرى (١/ ١٧٠)، اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٠، ٢٨٥).

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (لقد أكد الشارع على استحباب السحور، واستحباب تعجيله تميزًا لوقت العبادة من غيره، لئلا يكون ذريعة إلى الزيادة في الواجب كما فعلت النصارى)[١].

أخيرًا: لا يخفى وجود هذه الخصلة الجاهلية بين البعض من المتهاونين من أبناء المسلمين في تطبيق هذه السنة في شهر الصيام. فنجد أن البعض منهم من يحرص على تناول أكلة الأفطار، في حين يهمل أكلة السحور بحجة النوم، أو بتناولها في وقت مبكرٍ من الليل، أو بتركها خشية أن يصابوا بالتخمة ونحوها من الحجج التي تحرم العبد من بركة هذه السنة المنصوص عليها. فالله المستعان.

* * *

(١) أعلام الموقعين (٣/ ٢٦٢).

المسألة السادسة والتسعون
إخراجهم باعوثاً وشعانين مشبهين بالمسيح

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد الشرائع والشعائر التي ابتدعها النصارى زيادة في دينهم، فقد شرعوا لأنفسهم عيدًا في يوم من أيام السنة، أطلقوا عليه عيد الشعانين، وسنوا في هذا العيد شعائر لتقام فيه، تتمثل بخروجهم جموعًا منبعثين من كل حدبٍ، للاجتماع والاحتشاد، زعمًا منهم بأن كل ما يقومون به مشابه لما جرى للمسيح عيسى عليه السلام حين دخل أورشليم[١] في مثل هذا اليوم.

فمما ورد عن ذلك في كتبهم قولهم: (إن يسوع نزل من الجبل، فدخل أورشليم راكبًا أتانًا[٢]، فضجت المدينة، وسألت من هذا؟ فأجابت الجموع: هذا هو النبي يسوع، فبسط الكثير ثيابهم على الطريق، وقطع آخرون أغصان الشجر، وفرشوا بها الطريق أمام المسيح عندما دخل أورشليم في أحد الشعانين)[٣].

---

(١) أورشليم المراد بها بيت المقدس في فلسطين.

(٢) الأتان: هي أنثى الحمار.

(٣) انظر: الكتاب المقدس العهد الجديد. اتحاد جمعيات الكتاب المقدس. بيروت. لبنان، (ط١)، ١٩٧٨م، انجيل متى (٢١:١ - ١١) مرقس (١١: ١ - ١٢) لوقا (١٩: ٢٨ - ٤٠) يوحنا (١٢: ١٢ - ١٩)، قاموس الكتاب المقدس. د. بطرس عبد الملك، ود. جون الكاندرطس، والأستاذ إبراهيم مطر. منشورات مكتبة المشعل - بيروت بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط (ط٦)، ١٩٨١م، (غض: ٦٥٩).

وقد فسر الإمام أحمد - رحمه الله - بأن الباعوث هو: (خروج النصارى كما يخرج المسلمون في الفطر والأضحى)[١].

والمراد بالشعانين: هو عيد الزيتونة، وتفسيره التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم يخرجون بسعف النخيل من الكنيسة اقتداءً بعيسى - عليه السلام -[٢].

وقد قيل: بأن النصارى يصومون خمسين يومًا، وفي اليوم الثاني والأربعين منه عيد الشعانين يزعمون، بأن في مثل هذا اليوم نزل عيسى - عليه السلام - من الجبل، ودخل بيت المقدس، لهذا هم يخرجون في هذا اليوم إلى الصحراء حاملين صلبانهم[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان هذا العيد عند النصارى: (يصطنع النصارى في الأحد الذي هو أول الأسبوع عيدًا يسمونه الشعانين، هكذا نقل عنهم، ونقل بعضهم عنهم: أن الشعانين هو أول أحد في صومهم، يخرجون فيه بورق الزيتون ونحوه، ويزعمون أن ذلك مشابهة لما جرى للمسيح عليه السلام، حين دخل إلى بيت المقدس راكبًا أتانًا مع جحشها، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فثار عليه غوغاء

---

(١) الرسائل والمسائل (٢/ ٣٣٦)للاستزادة انظر. أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢١).

(٢) انظر: نهاية الأرب. لشهاب الدين النويري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر. مطابع كوستاتوماس، (١/ ١٩١).

(٣) انظر: البدء والتاريخ. للمطهر المقدسي. (٤/ ٤٧)، الفائق لمحمود بن عمر الزمخشري. ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة. لبنان، (ط٢)، (٣/ ٢٢٠/ ٢٢١).

الناس، وكان اليهود قد وكلوا قومًا معهم عصي يضربونه بها فأورقت تلك العصي، وسجد أولئك الغوغاء للمسيح، وكل مخرج يخرجونه إلى الصحراء باعوث، فالباعوث اسم جنس لما يظهر به الدين، كعيد الفطر والنحر عند المسلمين)[(١)].

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك أيضًا: (وقد قيل: إن الشعانين هي الأعياد لهم، والفرق بينها وبين الباعوث أنه اليوم والوقت الذي ينبعثون ويخرجون كما يخرج المسلمون ليوم الأضحى والفطر، فالباعوث هو انبعاثهم في هذا اليوم للاجتماع والاحتشاد)[(٢)].

وبهذا يتبين أن يوم الشعانين هذا، وإخراج الباعوث فيه مما أحدثه النصارى من عند أنفسهم، فلم يشرع لهم اتخاذ هذا اليوم، أو حتى إخراج الباعوث فيه كما هو الحاصل منهم، فالوارد في كتبهم فقط هو: (نزول عيسى - عليه السلام - من الجبل)[(٣)]....

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أمر عباده بالاتباع، ونهاهم عن الابتدع، وأخبرهم بأن كل عمل خالفوا فيه ما كان عليه الرسول ﷺ فهو باطل، مردود على صاحبه.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٢٢، ٣٢٣)، وللاستزادة انظر: تاريخ ابن الوردي. لزين الدين عمر بن مظفر المشهور بابن الوردي، دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، (ط١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، (١/ ٧٨).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢١).

(٣) انظر: إنجيل متى (٢١: ١ - ١١) مرقس (١١: ١ - ١١) لوقا (١٩: ٢٨ ٤٠) يوحنا (١٢: ١٢ - ١٩)، قاموس الكتاب المقدس (غض: ٦٥٩).

فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٣).

وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٤)، وقال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٥)، فكل زيادة لم تشرع في كتاب الله أو سنة رسول الله فهي مردودة على صاحبها.

كما لا يجب أن تُقرأ بدعة المبتدع، دل على هذا ما ورد في شروط المعاهدة التي عقدها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع أهل الذمة من النصارى وغيرهم، فعمل بها عامة الأئمة بعده وسائر الفقهاء، فكان مما

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٣٦).

(٣) سورة الكهف، الآية: (١١٠).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الصلح. باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٦٩٧) بمثله (٢١٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الأقضية. باب نقض الأحكام والباطلة ورد محدثات الأمور برقم (٤٤٩٢) بمثله (٩٨٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الاعتصام بالسنة. باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود برقم (٧٣٥٠، ٧٣٥١) بمثله (٦١١)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الأقضية. باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (٤٤٩٣) بمثله (٩٨٢). موسوعة الحديث الشريف.

شرطه النصارى على أنفسهم: (أن لا نخرج باعوثًا ولا شعانينا...)(١).

وعن ذلك قال الإمام أحمد - رحمه الله -: (ولا يتركون يجتمعون في كل أحد، فإن اجتماعهم المذكور هو غاية الباعوث ونهايته، فإنهم ينبعثون إليه من كل ناحية، وليس المراد منعهم اجتماعهم في الكنيسة، بل المراد منعهم إظهار اجتماعهم كما يظهر المسلمون ذلك يوم عيدهم) (٢).

وبهذا يستدل على وجوب منعهم من إظهار الاحتفال بذلك اليوم والاجتماع له علانية، كذلك منع كل مبتدع من إظهار بدعته وإعلانها.

إلا أنه يوجد لهذه الخصلة في عصرنا نظائر كثيرة، ومنتشرة بين أهل الكتاب، ولدى البعض من أبناء المسلمين في بعض البلاد الإسلامية، فقد ابتدعوا أعيادًا في أيام مخصصة من العام يجتمعون فيها ويحتفلون بأعمال مخصصة لهذه الأيام وفي أماكن مخصصة، كعيد الشجرة، والأمومة، والمعلم، والصحة...(٣).

فهذه الأمثلة تدل دلالة واضحة على أن دافع هذه الخصلة وهو الابتداع وترك الاتباع ما يزال موجودًا في عصرنا هذا. فالله [الله] حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (١/ ١٨٨)، الفتاوى (٢٨/ ٦٥٢)، أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢١)، تاريخ دمشق (٢/ ١٢١، ١٧٨).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢١).

(٣) من الكتب التي تحدثت عن البدع: الحوادث والبدع: الطرطوشي، تلبيس إبليس لابن الجوزي، كتاب المناهي للنووي، الاقتضاء لابن تيمية، الاعتصام للشاطبي، البدع والمحدثات وما لا أصل له. جمع حمود عبد الله المطر.

المسألة السابعة والتسعون
الخروج بالمشاعل مع المرأة إذا زفت إلى زوجها، كما ذكر عبد الله بن قرط الثمالي[١] أشار إليه في فتح الباري في كتاب النكاح وقواه (٩/ ٢٣٤)

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية والتي ظهرت لدى أصحاب الديانة الهندوسية، ولدى النصارى من أهل الكتاب، والمتمثلة في الخروج بمشاعل النار مع العروس حين تزف إلى زوجها.

والمشاعل لغة: هي المواضع التي تشعل فيها النار، والمشعلة واحدة المشاعل، والمشعل هو القنديل[٢].

وقد استدل المؤلف - رحمه الله - على وجود هذه الخصلة، وعلى كراهتها بما ورد عن عبد الله بن قرط الثمالي: حين كان عاملاً على حمص في عهد عمر بن الخطاب (فمرت به عروس وهم يوقدون النيران بين يديها فضربهم بدرته حتى تفرقوا عن عروسهم، ثم خطب فقال: «إن عروسكم أوقدوا النيران وتشبهوا بالكفرة والله مطفئ نورهم[٣]»،

---

(١) عبد الله بن قرط الأزدي الثمالي، استعمله أبو عبيدة على حمص في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا، استشهد بأرض الروم سنة ٥٦هـ. انظر: الإصابة برقم (٥٥٦٥)، ص(٨٢١).

(٢) لسان العرب (١١/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٣٤٣)، وذكره ابن حجر في الفتح وعزاه لسعيد بن =

قال أحد العلماء (والمراد بهذا: أن زيادة الإعلان بركوب القوم بين يدي العروس، أو بإيقاد النيران مكروه لأن فيه تشبهًا بالكفرة)[١].

فقد كان الهندوس يشعلون النار عند عروسهم من باب التبرك بها في أنكحتهم. وعند عقد النكاح وإعلانه فمما قيل عن ذلك ونقل عنهم: إنهم كانوا في حفل النكاح المعقود في بيت العروس يحضر العروس ومعه أصدقائه... فتشعل النيران في مكان طاهر من البيت، ثم يربط ذيل كل من العروسين بالآخر، وهما يطوفان حول النار عدة مرات[٢]...

وفي حين كانت هذه الخصلة موجودةً عند الهندوس من باب التبرك، نجدها عند النصارى بصورة أخرى، وبقصد آخر، فقد كانت بقصد الإعلان عن النكاح، ذلك أن من عادات النصارى عند إعلان النكاح أن يزف أحد العروسين أو كلاهما معًا، وتحمل الشموع وهي موقدة أو المصابيح من حولهما، فقيل في ذلك: (ويأخذ العريس عروسه إلى بيته بحفل كبير... وتحمل فيه العذارى المصابيح للقاء العريس)[٣].

=

منصور من طريق أبي الشيخ في كتاب النكاح من طريق عروة بن رويم (٩/ ٢٣٤)، كنز العمال (٦/ ٢٩٣).

(١) عمدة القارئ (٢٠/ ١٤٨).

(٢) انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند. للدكتور: محمد ضياء الرحمن الأعظمي. مكتبة الرشد. الرياض، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٥٩١)، فصول في أديان الهند. للدكتور: محمد ضياء الرحمن الأعظمي. دار البخاري. المدينة المنورة، (ط١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، (٨٣).

(٣) انظر: قاموس الكتاب المقدس (ابن عرس: ٦١٨)، إنجيل متى (٢٥: ١ - ١٠).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين بنى - عليه الصلاة والسلام - بعائشة - رضي الله عنها - من غير الحاجة إلى الإعلان بنيران أو نحوها، فقالت عائشة - رضي الله عنها - عن قصة بنائه بها - عليه الصلاة والسلام -: (تزوجني النبي ﷺ فأتتني أمي فأدخلتني الدار، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى)[(١)].

قال أحد العلماء عما دل عليه هذا الحديث من أحكام: وفي هذا الحديث دليل على جواز دخول الرجل على امرأته بالنهار، فلا يختص بالليل من غير ركوب ناس للإعلان، ولا نيران توقد بين يدى العروس[(٢)].

كذلك خالف - عليه الصلاة والسلام - أهل الجاهلية المتبركين بإشعال النار عند النكاح، أو عند زف العروس حين سنّ - عليه الصلاة والسلام - الدعاء بالبركة للمتزوج فقال: «بارك الله لك...» [(٣)].

وقال أيضًا: «بارك الله فيك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»[(٤)]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب النكاح. باب البناء في النهار بغير مركب ولا نيران برقم (٥١٦٠) بمثله ص(٤٤٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب النكاح. باب جواز تزويج الأب البكر الصغيرة برقم (٣٤٧٩) بمثله وزيادة في أوله (٩١٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) عمدة القارئ (٢٠/ ١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب كيف يدعى للمتزوج برقم (٥١٥٥) بمثله، ص(٤٤٦)، وفي كتاب الدعوات. باب الدعاء للمتزوج برقم (٦٣٨٦) بمثله (٥٣٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٩٤٣، ٨٩٤٤) بمثله، ص(٦٣٠)، وأخرجه أبي داود في سننه. كتاب النكاح. باب ما يقال للمتزوج برقم (٢١٣٠) بمثله (١٣٧٩)، وأخرجه الإمام =

وحين نص عليه السلام بأن بركة النكاح حاصلة بيسر مؤنته، فقال: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»[(١)].

كذلك خالف - عليه الصلاة والسلام - أهل الجاهلية المشعلين للنار بقصد إعلان، النكاح بحثه - عليه الصلاة والسلام - إلى إعلان النكاح بإقامة الوليمة، وبضرب الدف، فقال عليه السلام: «بارك الله لك، أولم ولو بشاة»، وحين أقر النبي ﷺ الجويريات اللاتي يضربن بالدف في حديث الربيع بنت معوذ بن عفراء لما قالت: جاء النبي ﷺ يدخل حين بُنى علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف...)[(٢)].

وقال أيضًا: «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت في النكاح»[(٣)].

= الترمذي في سننه. كتاب النكاح، باب ما جاء فيما يقال للمتزوج برقم (١٠٩١) بمثله (١٧٥٦)، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى. كتاب النكاح. باب ما يقال له إذا تزوج برقم (١٠٠٨٩) بمثله (٦/ ٧٣)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب النكاح، باب تهنئة النكاح برقم (١٩٠٥) بمثله، ص(٢٥٩١). قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح. موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٥٠٣٤) بمثله، وبرقم (٢٥٦٣٢) بنحوه، ص(١٨٢٤، ١٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب النكاح. باب ضرب الدف في النكاح والوليمة برقم (٥١٤٧) بمثله (٤٤٥)، وفي كتاب المغازي. باب (١٢) برقم (٤٠٠١) بمثله (٣٢٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٥٣٠، ١٨٤٦٨، ١٨٤٦٩) بمثله (١٠٦٢، ١٣١٣)، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب النكاح. باب ما جاء في إعلان النكاح برقم (١٠٨٨) بمثله =

وقد حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - من بعده على منع قيام هذه الخصلة في بلاد الإسلام ومما يدل على ذلك ما ورد في شروط عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع أهل الذمة والمجوس، فقد منعهم من إظهار هذه الخصلة، قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (منعهم من إظهار النيران معهم إما بالشمع، أو السرج، أو المشاعل ونحوها)[١].

أخيرًا: فإن هذه الخصلة الجاهلية في زف المرأة إلى زوجها لا زالت موجودةً عند الهندوس والنصارى حتى عصرنا الحاضر، وليس هذا وحسب بل إن هذه الخصلة قد انتقلت إلى بلاد المسلمين، ولكن في صور مختلفة، فقد ظهر لدى البعض من المسلمين زف العروس وتتقدمها نساءٌ يحملن الشموع، أو بإطلاق النار عند خروجها من بيت والدها، أو حين تشرع بدخول بيت زوجها، أو بإطلاق الألعاب النارية، أو الأصوات الموسيقية عند زفافها، وغيرها من المنكرات التي تدخل في باب التشبه بالكفار[٢].

=
(١٧٥٦)، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى. كتاب النكاح. باب إعلان النكاح بالصوت وضرب الدف برقم (٥٥٦٢) بمثله (٣/ ٣٣١)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب النكاح. باب إعلان النكاح برقم (١٨٩٦) بمثله (٢٥٩٠) وقد حسنه الترمذي. وقال الألباني: حسن. موسوعة الحديث الشريف.

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢١).

(٢) للاستزادة انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١٩/ ١٢٤)، فصول في أديان الهند (٨٣)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٥٩١).

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - عن حكم بعض الأمور السابقة عند زف العروس لزوجها، فأجاب - رحمه الله تعالى -: (اعلم أن النبي ﷺ رغّب في إعلان النكاح ليكون ذلك فرقًا بينه وبين السفاح، لكن ذلك الإعلان يكون بالمشروع من الشهادة، وضرب

النساء بالدف وبغنائهن غناءً غير ماجن، وبالدعوة إلى الوليمة، أما إطلاق النار ونحوها فليس من الإعلان الشرعي، ففيه من المخاطر ما يقتضي منعه)[1]. هذا والله أعلم.

* * *

(١) انظر. فتاوى اللجنة الدائمة الفتوى رقم (١٦٩١٥)، فتوى (٨٨٥٤) و(١٧١٥)، (١٩/ ١٢٤)، آداب الزفاف. لمحمد ناصر الألباني، الفتاوى الملاح في منكرات الأفراح. سعيد بن نافع السلمي، ص(٨٩).

المسألة الثامنة والتسعون
عبادة النار كفعل المجوس

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند المجوس، وهي عبادتهم للنار من دون الله تعالى.

فلقد عظم المجوس النار، ودعوا الناس إلى تعظيمها، فبنوا لها – بيوتًا -[١] كثيرة، واتخذوا لها الوقوف والسدنة والحجاب، فلا يدعوها تخمد لحظة واحدة، زعمًا منهم أنها أعظم الأجرام، وأوسعها مكانًا، وأشرفها جوهرًا، وألطفها جسمًا، فمن عبادتهم لها أن حفروا لها أخدودًا مربعًا في الأرض، ويطوفون به. بل إن البعض منهم بالغوا في عبادتهم لها حتى أصبحوا يتقربون إليها بإلقاء أنفسهم أو أولادهم فيها... وقد انتشرت هذه

---

(١) لقد أنشأ المجوس بيوتًا للنار لتعظيمها وعبادتها فأنشأوا في أصبهان، وفي الهند وبلخ... وزعموا أن أول من عبد النار هو قابيل بن آدم عليه السلام، فبعد أن قتل قابيل هابيل جاء إبليس ووسوس له بأن سبب قبول قربان هابيل وأكل النار لقربانه لأنه كان يخدمها ويعبدها فأنصب نارًا، فكان أول من نصب النار وعبدها. فكان أول من عظمها ملوك الفرس ثم العراق وسجستان وخرسان. للاستزادة انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. مكتبة الرياض الحديثة. الرياض، (ط٥)، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، (٢/ ٢٣٦ – ٢٣٨)، الملل والنحل (١٠٩، ١١٩، ٢٥٣)، تلبيس إبليس (٧٨، ٧٩)، نهاية الأرب في فنون الأدب. (١/ ١٠٥)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢٣٠)، إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٣، ١٩٣)، معارج القبول (٢/ ٤٦٣)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٦٠٣)، فصول في أديان الهند (٩٥)، الموسوعة الميسرة في الأديان (٢/ ١١٣٩)، ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين، (٦٢، ٦٣).

العبادة في بلاد فارس وبلاد الهند، وما زالت موجودةً حتى عصرنا الحاضر[١] في تلك البلاد.

وقد خالف الشارع عز وجل أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بعث الرسل داعين إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[٥]، كما بيّن لأصحاب الملل والمجوس بأنه سبحانه وتعالى هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٦].

قال قتادة في تفسيره للآية: (الصابئون قوم يعبدون الملائكة، والمجوس يعبدون الشمس، والقمر، والنيران، والذين أشركوا يعبدون الأوثان،

---

(١) المراجع السابقة.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: (٥٢).

(٣) سورة الحج، الآية: (٣٤).

(٤) سورة الصافات، الآيتان: (٤، ٥).

(٥) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٦) سورة الحج، الآية: (١٧).

فالأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن، فمن كان على دين من هذه الأديان، ففصل ما بينه وبين من خالفه على الله)(١).

وقال الطبري - رحمه الله - أيضًا في تفسيره للآية: (بإدخاله النار الأحزاب كلهم، وبإدخال المؤمنين به وبرسله الجنة)(٢).

كما وقد بيّن الشارع أن هذه المعبودات التي يعبدونها من دون الله، لا تستطيع أن تدفع عنهم ضرًا، ولا تستطيع أن تجلب لهم نفعًا، قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾(٣)، قال الطبري: (والمراد أي أيشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئًا، فالله تعالى خالقها ومنشئها، فالعبادة الخالصة إنما تكون للخالق لا للمخلوق)(٤).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾(٥).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (المراد أن أولئك الآلهة لا تملك لأنفسها، ولا لعابديها بطريق الأولى نفعًا ولا ضرًا، فهل يستوي من

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ١٢١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٩١).

(٤) تفسير الطبري (٦/ ١٤٩).

(٥) سورة الرعد، الآية: (١٦).

عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه)[١].

فبعد أن بعث الله لهم الرسل، وبيّن لهم بأنه تعالى هو الذي سيفصل بين هؤلاء الكفار والمؤمنين يوم القيامة، ثم بيّن أن هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر، بيّن بعدها عاقبة المعرضين بعد كل هذه البراهين والأدلة على وجوب عبادة الله وحده فقال تعالى متوعدًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾[٤].

هذا وقد دلت السنة على وجوب مخالفة أهل الشرك، والكفر في جميع ما يتعلق في أمور عباداتهم وعاداتهم... ولباسهم، فقال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٥]، وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على القضاء على مثل هذه الخصلة، ومنع ظهورها في بلاد الإسلام كما ورد ذلك في الشروط العمرية مع أهل الذمة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٨).

(٢) سورة النساء، الآية: (٥٦).

(٣) سورة الجن، الآية: ٢٣).

(٤) سورة البينة، الآية: (٦).

(٥) سبق تخريجه، ينظر: ص(٣٠٤).

فقد منع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أهل الذمة والمجوس من إظهار النيران، معهم إما بالشمع أو السرج[١].

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على هذه الخصلة الجاهلية بوجوب مخالفة المشركين وترك التشبه بهم، فقال عن ذلك: (وقد دل الكتاب، وجاءت سنة رسول الله ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين التي أجمع أهل العلم عليها بمخالفة المشركين وترك التشبه بهم بإيقاد النار، والفرح بها؛ لأنها من شعار المجوس عباد النيران)[٢].

ومن هذا المنطلق أيضًا: كره العلماء أن يستقبل المصلي في صلاته شيئًا من نار، ولو سراج أو قنديل ونحوه كشمعة موقدة لأن فيه تشبهًا بالمجوس في عبادتهم النيران[٣].

* * *

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢٢).

(٢) الفتاوى (٢٥/ ٣٢٧).

(٣) للاستزادة انظر: شرح العمدة (٤/ ٤٥١)، كشاف الإقناع. للبهوتي (١/ ٣٧)، الروض المربع (٢/ ٩٥)، الدرر السنية (٤/ ٢٦٦).

المسألة التاسعة والتسعون
اتخاذ أعياد مبتدعة فقال قد أبدلكم الله بهما خيرًا منهما عيد الفطر والنحر

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية التي وجدت عند أهل الكتاب والأميين على حد سواء، وهي اتخاذهم لأعياد مبتدعة، ابتدعها لهم أهل زمانهم، لم يأمرهم بها الشارع – عز وجل – في أي كتابٍ من كتبه، ولا على لسان رسولٍ من رسله.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بالحديث الوارد عن النبي ﷺ الدال على وجود هذه الخصلة في زمنه – عليه الصلاة السلام –، والذي تضمن أيضًا كيفية المخالفة لأهل الجاهلية في هذه الخصلة.

فقد ورد أن النبي ﷺ قدم إلى المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: (ما هذان اليومان؟)، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما: يوم الأضحى، ويوم الفطر»[(١)].

قال العلماء في شرحهم لهذا الحديث: اليومان هما يوم النيروز[(٢)]، ويوم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢٠٢٩، ١٢٨٥٨، ١٣٥٠٤، ١٣٦٥٧) بمثله (٨٢٦، ٨٨٤، ٩٢٦، ٩٣٧)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب صلاة العيدين برقم (١١٣٤) بمثله، ص(١٣٠٧)، وأخرجه النسائي في سننه الصغرى في كتاب صلاة العيدين برقم (١٥٥٧) بمثله (٢١٩١) قال الألباني عنه: صحيح. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) النيروز هو أول يوم السنة، معرب نوروز، وهو أول يوم تتحول الشمس فيه إلى برج الحمل، والمراد به اليوم الجديد. انظر: نهاية الأرب (١/ ١٨٥)، بلوغ الأرب (١/ ٣٤٨).

المهرجان[١]، فقد جاء الإسلام ببدلٍ عنهما، وخير منهما في الدنيا والآخرة، ويستدل من هذا الحديث على أن التعظيم أو الفرح، أو التشبه بهذين العيدين، أو أي عيد من أعياد الكفار منهي عنه[٢].

فالأعياد من جملة الشرائع التي شرعها الله لعباده، ليتعبدوه بها، وليس لأحدٍ أن يشرع عيدًا في زمن، أو مكان معين لم يشرع الشارع به.

فكان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى أعياد ابتدعوها لأنفسهم لم ترد في شرائعهم التي شرعها الله - عز وجل - لهم.

فمما ابتدعه النصارى من الأعياد، عيد الفصح[٣]، وعيد الخمسين[٤]،

---

(١) المهرجان هو أول أيام الميزان، وأطلق عليه اسم المهرجان نسبةً إلى أسماء ملوكهم، وهذا اليوم نسبةً إلى أحد ملوك الفرس واسمه (مهر). انظر: نهاية الأرب (١/ ١٨٧)، بلوغ الأرب (١/ ٣٤٨).

(٢) انظر: عون المعبود (٥٤٣)، الفتح (٢/ ٤٤٢).

(٣) عيد الفصح وهو عيد يحتفل فيه كلٌ من اليهود والنصارى، يزعم اليهود أنه اليوم الذي خلص فيه بني إسرائيل، ويزعم النصارى أنه اليوم الذي قام فيه المسيح بعد الصلب. للاستزادة انظر: قاموس الكتاب المقدس (فصح: ٦٧٨)، سفر حزقيال (١٢: ١٦) (١٢: ٦)، الإنجيل (١ كو ٥: ٧) (قابل خر ١٢: ١٨و اكو ٥: ٨)، نهاية الأرب (١/ ١٩١).

(٤) عيد الخمسين، ويسمى الباكورة، وهو أحد أعياد اليهود أيضًا الذي يتحتم عليهم فيه أن يخرج الذكور من الشعب ليتمثلوا أمام الرب، ويرى النصارى أنه في اليوم الثاني والأربعين من الفطر، يزعمون فيه أن المسيح تسلق فيه من بين تلاميذه إلى السماء، لذلك يسمونه السلاق. للاستزادة قاموس الكتاب المقدس (يوم الخمسين: ٣٤٩) سفر حزقيال (٣٤: ٢٢) ولا لوين (٢٣: ١٥)، الإنجيل أعمال الرسل (٢: ١ - ١٤)، نهاية الأرب (١/ ١٩١).

وعيد التجلي[١]، وعيد الشعانين[٢] الذي مر معنا في مسألة سابقة... وغيرها كثير[٣]. وأيضًا مما ابتدعه اليهود مثل عيد الفوز[٤]، وعيد الحنكة[٥].

كذلك كان لأهل الجاهلية الأميين نصيب كبير في الاحتفال بأعياد في أزمنة وأمكنة مبتدعة، من باب التعظيم لمعبوداتهم من الأصنام، والأوثان من دون الله تعالى، وأعياد أخرى مبتدعة أخذوها عن الفرس. فقد كان للعرب مواسم من السنة مخصوصة يجتمعون في أماكن وجود هذه الأصنام، والأوثان، وهي اللات في الطائف، والعزى في مكة، ومناة في المدينة، فكان العرب يقصدونها من كل فج، ويعظمونها كتعظيم الكعبة، ولها سدنة وحُجاب يهدون إليها، ويطوفون بها وينحرون عندها... كما لهم أعياد زمنية ترجع إلى أيام مسراتهم، وأفراحهم لظفرهم على عدوهم، وخصومهم، كعيد النيروز، وعيد المهرجان، إلا أنهما من الأعياد التي ابتدعها الفرس،

---

(١) عيد التجلي الذي يزعم فيه النصارى أن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رُفع. نهاية الأرب (١/ ١٩٣).

(٢) عيد الشعانين سبق التعريف به في المسألة السادسة والتسعين.

(٣) كعيد الحدود، وعيد الصليب، وخميس العهد.. للاستزادة: نهاية الأرب (١/ ١٩٢، ١٩٣)،الفتاوى (٢٥/ ٣٢٢).

(٤) عيد الفوز هو عيد يهودي تذكارًا لخلاص اليهود المسبيين في بلاد فارس من مجزرة شاملة، أعدها لهم هامان، يسمى الفوريم. انظر: الكتاب المقدس (فوريم: ٦٩٩) سفر إسيتر (٩: ٢٠ – ٣٢)، نهاية الأرب (١/ ١٩٧).

(٥) عيد الحنكة، هو من الأعياد التي أحدثها اليهود، وهو ثمانية أيام يوقدون فيه السرج، احتفالاً بتنظيف الهيكل من أقذار شيعة الجبار الذي دخل بيت المقدس، وقتل من بني إسرائيل. انظر: نهاية الأرب (١/ ١٩٧).

فأخذوها عنهم، كما لهم عيد السبع[١]، وعيد يوم السباسب[٢].... وغيرها[٣] من الأعياد، والناظر لجميع هذه الأعياد يجدها أعيادًا لا أصل لها، إنما قوامها على أساس من الضلال والغي، واتباع للهوى، والشهوة.

لهذا جاء الشارع بمخالفة أهل الجاهلية في العبادات والعادات، فحرم موافقتهم في عباداتهم وعاداتهم المنسوخة، فضلاً عن موافقتهم في عباداتهم أو عاداتهم التي أحدثوها وابتدعوها من عند أنفسهم، فالتحريم فيها يكون من باب أولى، والموافقة لهم فيها ظاهرة القبح.

لهذا فقد نص الشارع على مخالفة أهل الجاهلية عامة، سواء في أعيادهم المبتدعة أو المنصوص عليها في شرائعهم، كما ورد في الحديث السابق بأن الله تعالى قد أبدلنا عن تلك الأعياد بعيد الفطر وعيد الأضحى.

أيضًا ما ورد عن الشارع من النص على عيد النحر قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[٤]، قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية:

---

(١) عيد السبع، هو عيد من أعياد قبيلة من قبائل العرب في الجاهلية يشتغلون فيه اللهو واللعب. انظر: بلوغ الأرب (١/ ٣٤٨).

(٢) يوم السباسب كان عيدًا لقوم من العرب في الجاهلية، وهو يوم إعفاء الفروج، لا يحلون إزارهم لريبة، وكانوا إذا حيوا يقدمون مع التحية الريحان لأنهم يحيون بالريحان. انظر: بلوغ الأرب (١/ ٣٤٨).

(٣) وهناك أعياد نقلها شرذمة العرب من الفرس، كعيد النيروز، والمهرجان والسلاق وهو ثالث عيد بعد عيد النيروز والمهرجان. للاستزادة: نهاية الأرب (١/ ١٨٤)، بلوغ الأرب (١/ ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩).

(٤) سورة الكوثر، الآية: (٢).

(أي صلِّ الصلاة المكتوبة، و(انحر) أي النسك والذبح يوم الأضحى)[١].

كما حرص الشارع على مخالفة الجاهلية حين امتدح المؤمنين بأنهم لا يشهدون الزور التي فسرها العلماء بأنها أعياد الكفار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾[٢] . قال ابن كثير: أي (لا يشهدون أعيادهم)[٣] كما يستدل من امتداح الله للمؤمنين المتصفين بهذه الصفة على نهي الشارع عن ضدها، وهي شهود أعياد الكفار.

وقد خالف النبي ﷺ في هديه القولي والفعلي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، كما مر في الحديث السابق، بأن الله أبدلنا عن أعياد الجاهلية بعيد الفطر وعيد الأضحى. وقد احتفل بهما - عليه الصلاة والسلام -، أيضًا مما يدل على حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية حرصه على أن لا يتعبد أحد لله بالنحر في مكانٍ يتعبد فيه الكفار، ويدل على ذلك حين جاءه الصحابي فقال يا رسول الله إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة، فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد»؟ قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم»؟ قالوا: لا. قال النبي ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله...» [٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٧٢٢).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (٧٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٥٣٥) بنحوه (١٠٦٢)، وأخرجه أبو داود في سننه في سننه في كتاب الإيمان. باب ما يؤمر به من وفاء النذر برقم (٣٣١٣) بمثله (١٤٧٠)، وأخرجه =

قال العلماء عن دلالة هذا الحديث: ويستدل من هذا الحديث على أن من نذر أن ينحر لله في مكان به وثن من أوثان الجاهلية، أو عيد من أعيادهم، لمنعه من الوفاء بنذره، رغم أن النذر عباده إلا أن الوفاء بنذره وهو في هذه الصورة فيه تعظيم لغير ما عظم الله يشابه تعظيم الكفار لأصنامهم، لهذا حُرم الوفاء به[(١)]، إن كان على هذه الصورة.

أيضًا مما يدل على مخالفته ﷺ لأهل الجاهلية قوله لأبي بكر - رضي الله عنه - حين زجر الجاريتين يوم العيد عن الغناء، والضرب بالدف في بيته ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدًا، وإن هذا عيدنا»[(٢)].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه للحديث: (يستنبط من هذا الحديث كراهة الفرح في أعياد المشركين والتشبه بهم)[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عما يلزم من الأحكام من

=

ابن ماجه في سننه. كتاب الكفارات، باب الوفاء بالنذر برقم (٢١٣١) بنحوه (٢٦٠٤)، موسوعة الحديث الشريف قال الألباني: صحيح.

(١) انظر: المغني (١٣/ ٦٤٣)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العيدين. باب الحراب والدرق يوم العيد برقم (٩٤٩) بمثله. وباب سنة العيدين لأهل الإسلام. برقم (٩٥٢) بمثله، وفي كتاب مناقب الأنصار. باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة برقم (٣٩٣١) بمثله (٧٤، ٧٥، ٣٢٠)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب صلاة العيدين. باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد برقم (٢٠٦١) بمثله (٨١٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (٢/ ٤٤٢).

خلال هذا الحديث: (هذا اللفظ من رسول الله ﷺ يوجب اختصاص كل قوم بعيدهم، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(١)، فلا نشاركهم في قبلتهم وشرعتهم، كما لا ندعهم يشركوننا في عيدنا، فقوله: (هذا عيدنا) يقتضي حصر عيدنا في هذا، فليس لنا عيد سواه)(٢).

ومما يدل على وجوب مخالفة أهل الجاهلية، وتحريم التشبه بهم قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٣).

وكما هو معلوم أن العيد شعيرة من شعائر العبادات التي يُتعبد بها العباد لله تعالى، والعبادات مبناها على التوقيف، فلا يحل لأحد أن يحدث شعائر أو عبادات يتعبد بها لله تعالى لم ترد في الكتاب، أو السنة لعموم قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٤).

فكما أنه لا يحل التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والأميين في أعيادهم، أيضًا لا يحل لنا شهود أعيادهم.

لهذا نهى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في شروطه مع أهل الذمة عن الدخول على أهل الذمة في كنائسهم يوم عيدهم، ونهى عن التشبه بهم(٥).

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٠٠، ٣٠١).

(٣) سبق تخريجه، ينظر: ص(٣٠٤).

(٤) سبق تخريجه، ينظر: ص(٤٨٤).

(٥) انظر.الرسائل والمسائل (٢/ ٣٣٧)، أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢٣).

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - عن حكم مشابهة أهل الجاهلية في الأعياد المبتدعة: (التشبه بهم في الجملة منهي عنه، وأن مخالفتهم في هديهم مشروع، إما إيجابًا، وإما استحبابًا بحسب الموضع، فما أحدثوه من العبادات، أو العادات أو كليهما فهو أقبح القبح، فإنه لو أحدثه المسلمون لكان قبيحًا، فكيف إذا كان مما لم يشرعه نبي قط؟ بل أحدثه الكافرون، فالموافقة فيه ظاهره القبح)[١]. ثم قال: (والأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك، فإن موافقتهم في جميع العيد، موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه، موافقة في بعض شعب الكفر، بل إن الأعياد من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما للشرائع من شعائر، لهذا كان الموافقة فيها موافقة لأخص شرائع الكفر، وأظهر شعائره، ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة بشروطه)[٢].

لهذا نص العلماء على عدم جواز شهود أعياد الكفار[٣]، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾[٤] فكيف بمن تجاوز شهود أعيادهم، إلى التشبه بها والاحتفال بها، فالنهي في حقه من باب أولى.

لهذا حين سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن حكم بعض هذه الأعياد التي ابتلي بها طوائف من المسلمين.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٣١٧).

(٣) انظر: الرسائل والمسائل (٢/ ٣٣٧)، وأحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢٤).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (٧٢).

أجاب - رحمه الله -: (كل الأعياد التي خصت بأيام وأفعال عند النصارى وغيرهم، فليس للمسلم أن يشابههم في أصله، ولا في وصفه، فلا يحل للمسلمين أن يتشبهوا بهم في شيء، مما يختص بأعيادهم، لا من طعام، ولا لباس، ولا اغتسال، ولا إيقاد نيران... بل يكون يوم عيدهم عند المسلمين كسائر الأيام، لا يخصه المسلمون بشيء من خصائصهم)[١].

ولكن مما يحز في نفوس كثير من المسلمين أننا نجد أن هذه الخصلة قد ظهرت كثيرًا على ظهر الواقع بين البعض من أبناء المسلمين، كالمناداة بأعياد مبتدعة، قد ابتدعها أهل الكتاب لأنفسهم، فنقلت إلينا كعيد الأم، وعيد الميلاد، وعيد الحب وغيرها. وليس هذا وحسب؛ بل ومشاركتهم في أعيادهم، كمشاركتهم في عيد رأس السنة[٢].

* * *

(١) الفتاوى (٢٥/ ٣٢٢، ٣٢٩).

(٢) للاستزادة انظر: الفتاوى (٢٥/ ٣٢٠، ٣٢٩)، البدع والمحدثات وما لا أصل له (٢١٢، ٢١٩)، اللمع في تجلية البدع (٤٧، ٤٩)، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

المسألة المائة

اعتمادهم على الحساب في معرفة شهورهم فقال النبي ﷺ: إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب[١]، وفي الحديث الآخر صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته[٢] فبين أن اعتماد المسلمين على الرؤية لا على العدد والحساب

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أن طريقة أهل الجاهلية من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم في معرفة شهورهم تتم بالحساب. وعلى أثر هذا التوقيت الحسابي للشهور يبنى عليه تحديد مواقيت الأعياد والعبادات لديهم.

علمًا أنه لم يكن أهل الجاهلية يستخدمون علم الحساب فقط في معرفة الشهور، بل إنهم كانوا يمارسون علم التنجيم، وهو علمٌ قائم على علم الحساب، وذلك بحساب حركة النجوم والأفلاك، والتي على أثرها يدّعون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصوم. باب قوله ﷺ: (لا نكتب ولا نحسب) برقم (١٩١٣) بمثله (١٤٩) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الصيام. باب وجوب صيام رمضان لرؤية الهلال والنظر لرؤية الهلال وإنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يومًا برقم (٢٥١١) بمثله (٨٥٠) موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصيام. باب (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رايتموه فأفطروا...) برقم (١٩٠٩) بمثله (١٤٩)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والنظر لرؤية الهلال وإذا غم في أوله أو أخره اكملت عدة الشهر ثلاثين يومًا برقم (٢٥١٦) بمثله (٨٥٠). موسوعة الحديث الشريف.

علم الغيب، فيعتقدون بالنحوس والسعود ونحوها(١).

لهذا خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فجعل معرفة الشهور قائمة على رؤية الهلال، فبمجرد رؤية الهلال في اليوم التاسع والعشرين، فهو إيذان لدخول شهر جديد، أما في حين غُم على الهلال، فلم ير لغيم، أو لعدم ظهوره، ففي هذه الحالة أمر الشارع بإكمال الشهر ثلاثين يومًا.

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بحديثين للنبي ﷺ أحدهما: ينص على عدم الأخذ بالحساب في معرفة الشهور، والآخر: ينص على أن العبادات المنصوص عليها في شهور معينة كالصيام، والحج لا تقوم إلا برؤية الهلال.

فقال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا» يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.

قال الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: (والمراد بقوله: «نحن أمة أمية...» أي أهل الإسلام، وهو خطاب محمول على أكثرهم، والمراد بالحساب: أي حساب النجوم وتسييرها، ولم يكن هناك من يعرف هذا

---

(١) للاستزادة عن التنجيم. انظر: أحكام القرآن للجصاص، لأبي بكر أحمد الجصاص، دار الفكر. بيروت، (١/ ٥١)، الملل والنحل (١٤٦)، فتح المجيد (٣١٧)، فتح الحميد (٣/ ١٢٧٧)، معارج القبول (٣/ ٩٨٠)، القول في علم النجوم. لأبي بكر المعروف بالخطيب البغدادي. ت: د. يوسف بن محمد السعيد. دار أطلس للنشر، الرياض، (ط١)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (١١٨).

الحساب إلا النـزر اليسير)[١]، لهذا علق النبي ﷺ قيام العبادات المتعلقة بشهور معينة، برؤية الهلال، فقال ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين».

قال ابن حجر – رحمه الله – والمراد من هذا الحديث: (أن النبي ﷺ علق حكم الصوم، وغيره بالرؤية لرفع الحرج عن أمته في معاناة حساب التيسيير، واستمر الحكم في الصوم، ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك، بل إن ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلاً، ويوضحه قوله ﷺ : «فإن غمي عليكم فاقدروا له ثلاثين...» فقد ذهب جمهور السلف، والخلف إلى أن معناه: قدروا له تمام العدد ثلاثين يومًا، ولم يقل فسألوا أهل الحساب، لأن الناس لو كلفوا به لضاق عليهم؛ لأنه لا يعرف حساب التيسيير إلا أفراد، والشرع إنما يُعرف الناس بما يعرفه جماهيرهم والله أعلم)[٢].

كما قد نص الشارع في محكم كتابه على معرفة الشهور بالأهلة، وعلى أن العبادات القائمة في شهور معينة كالصوم، والحج لا تقوم إلا برؤية الهلال، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾[٣] فقال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسيره للآية: (أن في الأهلة مواقيت

(١) فتح الباري (٤/ ١٢٧).
(٢) فتح الباري (٤/ ١٣٧).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٨٩).

لصومهم، وفطرهم، ووقت حجهم، وعدة نسائهم، وحل دينهم)[١].

وقال قتادة - رحمه الله - أيضًا: (جعل الله الأهلة ليعلم المسلمين مواقيت صومهم، وفطرهم، ومناسكهم، وحجهم، وعدة نسائهم، وحل دينهم)[٢].

وقال ابن العربي - رحمه الله - عن فائدة تخصيص الله تعالى للحج بالذكر رغم أنه داخلٌ في عموم اللفظ الأول: (وذلك لأن العرب كانت تحج بالعدد، وتبدل الشهور، فأبطل الله تعالى فعلهم وقولهم، وجعله مقرونًا بالرؤية)[٣].

أيضًا مما يدل على نص الشارع على أن الصوم عبادة تقوم بالرؤية قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[٤]. قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية: (أي إهلاله بالدار، ويريد: إذا هلَّ وهو مقيم)[٥]. فعليه الصوم. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[٦]، فقوله تعالى عن القمر ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ لأن بالأهلة يُعرف انقضاء الشهور والسنين، أما

(١) تفسير الطبري (٢/ ١٩١).
(٢) تفسير الطبري (٢/ ١٩١).
(٣) أحكام القرآن (١/ ١٤٢).
(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).
(٥) تفسير الطبري (٢/ ١٥٢).
(٦) سورة يونس، الآية: (٥).

الشمس فتعرف بها الأيام(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾(٢). قال الطبري في المراد بالآية: (من نعم الله على الناس مخالفته بين علامة الليل، وعلامة النهار، ليسكن في الليل، وليتصرف في ابتغاء الرزق في النهار، وليعلموا باختلافهما عدد السنين، وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها)(٣).

إن جميع النصوص السابقة دلت على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في طريقتهم لمعرفة الشهور، وذلك بجعل معرفة الناس لها قائمةً على رؤية الهلال، وفي حال عدم رؤية الهلال إما: لعدم ظهوره، أو لأنه غُم عليه بغيم أو نحوه، فإن الشارع دعا إلى إكمال الشهر ثلاثين يومًا، إلا أن الروافض في مثل هذه الحالة خالفوا الحق، فذهبوا إلى القول بالرجوع إلى الحساب، وهذا مذهب باطل، وقولٌ باطل قد وافقوا فيه أهل الجاهلية.

قال ابن حجر عن ذلك: (إن إجماع السلف حجة عليهم، ومذهب الروافض باطل، فقد نهت الشريعة عن الخوض في علم النجوم، لأنها

---

(١) للاستزادة انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٣٢)، تفسير القرطبي (٨/ ٢٨٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (١٢).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٤٥).

حدس، وتخمين، ليس فيها قطع، ولا ظن غالب، مع أنه لو ارتبط الأمر به لضاق، إذ لا يعرفه إلا القليل)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن ذلك: (لقد روي عن غير واحد من أهل العلم أن أهل الكتاب قبلنا قد أمروا بالرؤية أيضًا في صومهم وعباداتهم، ولكنهم بدّلوا، إلا أن ما جاءت به الشريعة من تعليق معرفة الأشهر بالهلال هو أكمل الأمور، وأحسنها، وأبينها، وأصحها، وأبعدها عن الاضطراب، ذلك لأن الهلال أمر مشهود مرئي بالأبصار، ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار، ولأنه أمرٌ ظاهر يشترك فيه الناس، بخلاف معرفتها بالحساب للوقت الذي تجتمع فيه الشمس، والقمر أي تحاذيهما الكائن قبل الهلال، فهو أمر خفي لا يعرفه إلا البعض من الناس، مع ما فيه من التعب، والتضييع للزمان، والاشتغال عما يعني الناس مع ما يقع من الغلط، والاختلاف، لهذا اتفق أهل الحساب العقلاء على أن معرفة ظهور الهلال لا يضبط بالحساب ضبطًا تامًا قط، بل أنكروا على من تكلم به)[٢].

وبعد هذا، فإن كثيرًا ما يطرح على أرض الواقع في هذا العصر من التسأولات حول علماء الفلك بأنهم قد وصلوا إلى القمة في علم الفلك، بحيث يمكنهم هذا العلم من معرفة بداية الشهور القمرية، فما حكم الاعتماد على آراء الفلكيين في ذلك، فأجاب العلماء - حفظهم الله - عن

---

(١) فتح الباري (٤/ ١٣٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٢)، الفتاوى (٦/ ٥٩٠)، (١٥/ ٥٩)، (٢٥/ ١٣٥، ١٣٦).

ذلك: (القول الصحيح الذي يجب العمل به هو ما دل عليه قول النبي ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا العدة» من أن العبرة في بدء شهر رمضان، وانتهائه برؤية الهلال، فإن شريعة الإسلام التي بعث الله بها نبينا محمدًا ﷺ عامة خالدة مستمرة إلى يوم القيامة. كما أن الله تعالى علم ما كان، وما سيكون من تقدم علم الفلك، وغيره من العلوم، ومع ذلك قال: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[١]، وبينه الحديث السابق، فعلق صوم شهر رمضان والإفطار منه برؤية الهلال، ولم يعلقه بعلم الشهر بحساب النجوم مع علمه تعالى بأن علماء الفلك سيتقدمون في علمهم بحساب النجوم، وتقدير سيرها، فوجب على المسلمين المصير إلى ما شرعه الله لهم على لسان رسوله ﷺ من التعويل في الصوم، والإفطار على الرؤية، وهو إجماع من أهل العلم، ومن يخالف في ذلك، ويعول على حساب النجوم، فقوله شاذ لا يعول عليه)[٢].

ونخلص بهذا إلى أن الحساب الفلكي قد يكون دليلاً على الرؤية، لكن لا يكون بديلاً عنها. هذا والله الموفق والمستعان في كل أمر.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة الفتوى رقم (٢٠٣٦) (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

المسألة الحادية بعد المائة
فعل الزمزمة حال الأكل كفعل المجوس
فكتب عمر إلى المسلمين أن ينهوهم عنها

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أحد خصال الجاهلية عند المجوس حال أكلهم، حيث كانوا يصدرون أصواتًا خفيةً تخرج من خياشيمهم دون أن يفتحوا شفهاهم، أو يحركوا ألسنتهم. فقد قيل إن **الزمزمة هي**: تراطن العُلوج عند الأكل وهم صُمُوت، لا يستعملون اللسان ولا الشفة في كلامهم، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلوقها فيفهم بعضها عن بعض... والزمزمة من الصدر إذا لم يُفصح، يقال زمزَمَ العلج إذا تكلف الكلام عند الأكل، وهو مطبق فمه، والزمزمة كلام المجوس عند أكلهم[(١)].

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على المخالفة للمجوس في هذه الخصلة بأمر عمر - رضي الله عنه - في كتابه الذي بعثه إلى والي[(٢)] الأهواز[(٣)] في عهده، والذي قال فيه: (اقتلوا كل ساحر، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة، فقتلنا في يوم ثلاث سواحر،

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٧٣، ٢٧٤)، مختار الصحاح (٤٥٤)، الملل والنحل (١٠٩).

(٢) وهو: جزاء بن معاوية عم الأحنف بن قيس، تميمي تابعي، عاش حتى ولي لزياد بعض عمله. كان عامل عمر على الأهواز. الإصابة رقم (١٢٢٣)، ص(١٨٧).

(٣) الأهواز: اسم عربي أطلق على بلاد خوزستان الفارسية في فارس، وهي ما بين البصرة وفارس. انظر: معجم البلدان (١/ ٢٨٥).

وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب الله تعالى، وصنع طعامًا كثيرًا فدعاهم فعرض السيف على فخذه، فأكلوا ولم يزمزموا...) [(١)].

قال أهل العلم والمراد بالزمزمة: هي شعار المجوس، وهو صوت خفي لا يكاد يفهم، يخرجه المجوس من خياشيمهم، إذ أنه سكوت بصوت يدار من الخياشيم والحلق، فلا يتحرك فيه اللسان، ولا الشفتان، وقد نهوا عنها؛ لأنها ربما تضمنت الكفر، أو عيب ديننا[(٢)].

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - عن فعل عمر - رضي الله عنه -: (إن حمل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للمجوس على ما كان يحمل عليه المسلمين من الأحكام دليلٌ على أنه لا ينبغي للمسلم الزمزمة)[(٣)].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه. كتاب الجزية والموادعة. باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب برقم (٣١٥٦، ٣١٥٧)، وليس فيه لفظ النهي عن الزمزمة (٢٥٤)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦٥٧) بمثله (١٥١)، وأبو داود في سننه. كتاب الخراج والفيء، والإمارة. باب أخذ الجزية من المجوس برقم (٣٠٤٣) بمثله (١٤٥٢). وأخرجه الإمام الترمذي في سننه. كتاب السير. باب في أخذ الجزية من المجوس برقم (١٥٨٦) = =مختصرًا، وليس فيه لفظة النهي عن الزمزمة (١٨١٥). موسوعة الحديث الشريف. وأخرجه النسائي في سننه الكبرى برقم (٨٧٦٨) بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح، اعتقاد أهل السنة للألكائي (٤/ ١٢٨٨).

(٢) انظر. كشف المشكل: لأبي الفرج بن عبد الرحمن بن الجوزي. ت: علي حسين البواب. دار الوطن. الرياض، ١٤١٨هـ (١/ ٢٢٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر، (٢/ ٣١٣)، عمدة القارئ (٩/ ٢٧٧)، فتح الباري (٣/ ٢٣١)، عون المعبود (١٣٠٠)، نيل الأوطار (٧/ ٣٦٤).

(٣) موسوعة الإمام الشافعي. كتاب الأم. للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي. ت: علي محمد، عادل أحمد، أحمد عيسى المعصرواى. دار إحياء التراث العربي. بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٨/ ٤٤).

لهذا فالتشبه بالمجوس في هذه الخصلة داخلٌ في عموم التشبه الذي نهى عنه النبي ﷺ أمته فقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(١)].

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية من المجوس وغيرهم في هذه الخصلة حين سنّ للأكل والشرب آدابًا قولية وفعلية يثاب عليه العبد.

كالتسمية عند الابتداء بالأكل، والشرب، والحمد بعدهما، والأكل باليمين، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يا غلام سم الله وكل بيمينك...»[(٢)].

والحكمة من ذلك: لما في التسمية من البركة للطعام[(٣)].

وقال ﷺ: «إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[(٤)]. وقال العلماء عن مخالفة النبي الفعلية لأهل الجاهلية في هذه الخصلة: وهناك الكثير من آداب الأكل التي حث عليها النبي ﷺ، والتي أُثر عنه التزامه بها، كالأكل بأصابعه الثلاث،

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأطعمة. باب التسمية على الطعام والأكل باليمن برقم (٥٣٧٦) بمثله وفي باب الأكل مما يليه برقم (٥٣٧٨) بمثله (٤٦٤)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الأشربة. باب آداب الطعام والشراب وأحكامها برقم (٥٢٦٩) بمثله (١٠٣٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) الآداب الشرعية (٦٥٣).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الذكر والدعاء. باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب برقم (٦٩٣٢) بمثله وبرقم (٦٩٣٣) بنحوه، ص(١١٥٢). موسوعة الحديث الشريف.

ولعقها بعد الفراغ من الأكل[١]... وغيرها.

أخيرًا: إن جميع هذه الآداب الشرعية التي علمنا إياها الشارع على لسان نبينا ﷺ هي آدابٌ قد اشتملت على منحٍ ربانية لكل من امتثل بها في جميع مأكله ومشاربه، فالناظر لها بعين البصيرة يجدها ألفاظًا قد اشتملت على الثناء على الله - عز وجل -، والاستعانة والتحصن به تعالى، وهذه الأمور في حقيقتها عقائد نتدين لله تعالى بها، فمن هنا تبدأ المنح الربانية حين يثاب العبد عليها لالتزامه بما شرعه الباري له على لسان نبيه، ليكون له هديًا يسير عليه في معايشه، وليفارق به أهل الضلالة والزيغ. فالله أسأل لي وللمسلمين الثبات على الحق.

* * *

(١) للاستزادة انظر: زاد المعاد (١/ ١٤٢)، الآداب الشرعية والمنح المرعية (٦٥٣).

المسألة الثانية بعد المائة
السجود عند طلوع الشمس وغروبها
فنهى عن الصلاة حينئذ إلا ما أخرجه الدليل

قد مضى كلام يسير عن هذه المسألة ضمن الكلام على المسألة السابعة، وهي السجود للشمس والقمر من دون الله، هاتان الخصلتان الجاهليتان، وهما السجود للشمس والقمر، والسجود وقت طلوع الشمس وغروبها، كما علمنا سابقًا، من خصال عباد الشمس والقمر، لهذا نهانا الشارع عن صرف هذه العبادة، وهي عبادة السجود لغير الله، وفي الوقت نفسه أيضًا حرص الشارع على سد الذريعة الموصلة لهذه العبادة، وهي السجود عند طلوع الشمس وغروبها، فجاء النهي عن الصلاة في هذا الوقت لأمرين، وهما: حسمًا لمادة المشابهة للمشركين في عبادتهم للشمس والقمر من كل طريق، وسدًا لذريعةٍ قد تؤدي إلى صرف عبادة السجود لغير الله تعالى. وقد خالف النبي ﷺ بهديه أهل الجاهلية، ودعا إلى مخالفتهم فنهى - عليه الصلاة والسلام - عن الصلاة في تلك الأوقات، وقال: «صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس، حتى ترتفع، فإنها تطلع، حين تطلع بين قرني شيطان؛ وحينئذ يسجد لها الكفار». ثم قال: «... حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة، حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار...» (١).

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب إسلام عمرو بن =

قال النووي – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث (نهى النبي ﷺ عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس وترتفع، وقد أجمعت الأمة على كراهة صلاة لا سبب لها في هذه الأوقات، واتفقوا على جواز الفرائض المؤداه فيها، والعلة من النهي، ذلك أن الشيطان في هذه الأوقات يدني رأسه إلى الشمس ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة، وحينئذ يكون له، ولبنيه تسلط ظاهر، وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم، لهذا كرهت الصلاة حينئذ صيانة لها، كما كرهت في الأماكن التي هي مأوى للشيطان، وحسمًا لمادة المشابهة بالكفار في عباداتهم للشمس)(١).

أيضًا مما ورد في النهي عن الصلاة في تلك الأوقات قوله ﷺ: «لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها» (٢)، وقال: «نهى عن صلاتين: نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس...»(٣).

فالنهي هنا يتضمن النهي عن تعمد أداء صلاتين في هذه الأوقات،

=

عبسة. برقم (١٩٣٠) بمثله، ص(٨٠٨). موسوعة الحديث الشريف.

(١) المنهاج (٦٦٨)، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٧)، عقيدة الموحدين (٦٠ – ٦٤).

(٢) سبق تخريجه ص(١٠١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب مواقيت الصلوات. باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس برقم (٥٨٤) بمثله وباب لا تتحرى الصلاة قبل غروب الشمس برقم (٥٨٨)، بمثله، ص(٤٧، ٤٨). موسوعة الحديث الشريف.

وهما: أن يتعمد العبد التنفل في هذه الأوقات، أو أن يتعمد تأخير أداء الفرض لهذه الأوقات، لهذا يستثنى من هذا النهي الصلوات المتعلقة بأسباب معينة، والتي لا تقوم إلا بقيام أسبابها كصلاة الكسوف، أو صلاة الجنازة، أو سنة الوضوء، أو قضاء صلاة فائتة، أو تحية المسجد، أو ركعتا الطواف... فهذه الصلوات ليس لها وقت محدد، إنما قيامها بقيام سببها، والأدلة على ذلك كثيرة: فقد نص النبي ﷺ على السبب الداعي لقيام صلاة الكسوف فقال: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم»(١) فعلق قيام صلاة الكسوف بكسوف الشمس.

أيضًا نص على سبب قيام تحية المسجد فقال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»(٢)، فقام حكمها بمجرد دخول العبد للمسجد، ولم يستثنها في وقت دون وقت.

كذلك حين أقر النبي ﷺ فعل بلال - رضي الله عنه - عندما أخبره أنه يصلي بعد كل وضوء بليل أو نهار، حين قال له: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة، قال: ما

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الكسوف. باب الصلاة في كسوف الشمس برقم (١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣) بمثله، (٨١، ٨٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب صلاة الكسوف. باب صلاة الكسوف برقم (٢٠٩١، ٢٠٩٦) بنحوه، ص(٨١٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين. باب استحباب تحية المسجد بركعتين وكراهية الجلوس قبل صلاتها وأنها مشروعة في جميع الأوقات برقم (١٦٥٤)، بمثله (٧٩٠). موسوعة الحديث الشريف.

عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي»(١). فهذا دليلٌ على جوازها في ذلك الوقت لقيام سببها وهو الوضوء.

كذلك من نام عن صلاة أو نسيها فعليه أن يصليها متى ذكرها، دون الالتزام بوقت معين دون وقت لأدائها، لقوله ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها» (٢).

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله – عن ذلك: (من صلى العصر منع التطوع وإن لم يصل غيره. كما يجوز قضاء الفرائض، وفعل ركعتي طواف فرضًا كان أو نفلاً، وصلاة الجنازة) (٣).

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين معلقًا على وجوب مخالفة المشركين في هذه الخصلة: (الواجب على المسلم أن يكون مباينًا للمشركين في كل شيء، فإذا كنا أمرنا بمخالفتهم في اللباس والركوب وما أشبهه، فكذا أمرنا بمخالفتهم في العبادة، وهذه أعظم؛ لأن المسلم إذا صلى عند طلوع الشمس أو غروبها تشبه بالمشركين بالعبادة، وهذا أعظم من التشبه باللباس والركوب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التهجد. باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة عند الطهور بالليل والنهار. برقم (١١٤٩). بمثله (٨٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه. كتاب مواقيت الصلاة. باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر ولا يعيد إلا تلك الصلاة برقم (٥٩٧) بمثله (٤٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها برقم (١٥٦٠) بمثله زيادة نصه في أوله (٧٨٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) الإقناع (١/ ١٥٧، ١٥٨)، للاستزادة انظر. الشرح الممتع (٢/ ٦٠ – ٧٠).

وغيره) [١].

وبعد: فإن مما يدخل ضمن هذه الخصلة الجاهلية في عصرنا الحاضر تساهل البعض من المسلمين، وتكاسلهم في أداء صلاتي الصبح والعصر في وقتها، فنجد أن كثيرًا من هؤلاء من يؤخرها عمدًا عن وقتها تشاغلاً وكسلاً مما يؤدي إلى قضائها في الأوقات المنهي عنها، وهذا عملٌ مخالف قد يأثم عليه. فالله المستعان.

* * *

(١) الشرح الممتع (٢/ ٦٤).

المسألة الثالثة بعد المائة

لبس المعصفر لقوله: «إنهما من لباس الكفار فلا تلبسهما»[(١)]

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من الفرس والمشركين وغيرهم في لباسهم، حيث كانوا يلبسون ثيابًا معصفرة، وهي ثيابٌ مصبوغة بلون أصفر، علمًا أن هذا اللون من الثياب يُعد من ألوان الثياب التي تتزين بها النساء.

فالثوب المعصفر هو: الثوب المصبوغ بالعصفر، والعصفر هو نبات ريفي، ومنه ما هو بري ينبت بأرض العرب، وهو نبت أصفر اللون[(٢)].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نهى الرجال عن لبس هذا النوع من الثياب حسمًا لباب المشابهة بالكفار في لباسهم الذي اعتادوا عليه، واستمتعوا به، فمخالفتهم في مثل هذه الخصلة أمرٌ مقصودٌ للشارع، كما أن في لبس الرجال لهذا النوع من الثياب فيه مشابهة للنساء، ولا يخفى على أحدٍ أن مشابهة الرجال للنساء، أو النساء للرجال محرمة شرعًا.

وقد خالف هدي نبينا محمد ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نهى الرجال من أمته عن هذا النوع من الثياب، فقال عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب: اللباس. باب النهي عن لبس الثوب المعصفر برقم (٥٤٣٤) بمثله (١٠٥٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) لسان العرب (٤/ ٥٨١).

حين رأى أحد الصحابة قد لبس ثوبين معصفرين: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها». وفي رواية قال: «أمك أمرتك بهذا؟ فقال الصحابي: أغسلها؟ فقال النبي ﷺ: «بل أحرقها»[(١)]. وفي رواية (نهى رسول الله ﷺ عن لبس القسي والمعصفر...» [(٢)]. وفي رواية: «عن لبس الذهب والمعصفر» [(٣)]. وفي رواية: «وعن لباس المعصفر» [(٤)].

وقد قال العلماء عن دلالة هذه الأحاديث: ويستدل من هذه الأحاديث على تحريم الثياب المعصفرة، والتي تميل إلى الحمرة قليلاً على الرجال، ذلك لأنها من لباس الكفار، وقد نهينا عن أن نتشبه بهم، لقوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(٥)(٦)].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب النهي عن لبس الثوب المعصفر. برقم (٥٤٣٦) بمثله (١٠٥٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب النهي عن لبس الثوب المعصفر برقم (٥٤٣٧) بمثله، ص(١٠٥٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب النهي عن لبس الثوب المعصفر برقم (٥٤٣٨) بمثله، ص(١٠٥٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب النهي عن لبس الثوب المعصفر برقم (٥٤٣٩) بمثله، ص(١٠٥٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

(٦) للاستزادة انظر: الشرح والإبانة (٣٦١)، الإقناع (١/ ٩٤)، المغني (٢/ ٢٩٩)، الآداب الشرعية (٨٤٩)، المنهاج (١٥٧٦)، شرح العمدة (٣/ ٩٥)، الفتاوى (٢٨/ ١١٤)، شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٠٧)، تنبيه اللاهي شرح كتاب المناهي: للإمام أبي زكريا يحيى النووي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، (ط١)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٢٠٨)، نيل الأوطار (٢/ ٨٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في تعليقه على الأحاديث السابقة: (علل النبي ﷺ النهي عن لبسها: بأنها من ثياب الكفار، وسواء أراد أنها مما يستحله الكفار، بأنهم يستمتعون بخلافهم في الدنيا، أو مما يعتاده الكفار لذلك)(١).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - في مفاد الأحاديث السابقة: (لقد أفادت الأحاديث السابقة النهي عن لبس الثياب المصبوغة بالزعفران أو العصفر للرجال... وعلة النهي عن لبسها لكون هذه الثياب مما يتزين بها النساء، ولا يجوز التشبه بالنساء، كما أنها مما اعتاد الكفار على لبسه، فلا يجوز التشبه بهم وتقليدهم، وأمره ﷺ بحرق الثوبين عقوبة، وتغليظًا لزجره، وزجر غيره عن مثل هذا الفعل. والمحافظة على تميز المسلم في لباسه الشرعي، والابتعاد عن محاكاة الكفار وتقليدهم)(٢).

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حث الرجال على لبس الثياب البيض، وبيّن أنها خير الثياب، فقال عليه السلام في ذلك: «هي من خير ثيابكم، فالبسوها وكفنوا فيها موتاكم»(٣).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٤، ٢١٥)، وللاستزادة انظر: شرح العمدة (٤/ ٤٧٢)، مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٢٨).

(٢) تنبيه اللاهي شرح كتاب المناهي (٢٠٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠٣٦٥، ٢٠٤٠٢) بنحوه (١٤٥٨، ١٤٦٠)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الطب. باب في الكحل برقم (٣٨٧٨) بمثله، وفي كتاب اللباس. باب في البياض برقم (٤٠٦١) بمثله (١٥٠٨، ١٥١٩)، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب الجنائز. باب ما جاء ما يستحب من الأكفان برقم (٩٩٤) بمثله (١٧٤٦). قال الترمذي: حسن =

كما قد ذكر العلماء ما كان يحبه – عليه الصلاة والسلام – من الألوان والثياب فقالوا عن ذلك:... فقد كان البياض أحب الألوان إليه، كما لبس ثوبًا أسود، وبردةً خضراء، كما وقد كان يلبس عليه السلام ما تيسر من اللباس من الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة[(١)].

وبعد: فرغم وضوح الأدلة في تحريم هذه الخصلة إلا أن الناظر لهذا العصر لا يخفى عليه ظهورها في المجتمع الإسلامي، وتمثلها في لباس الكثير من أبناء المسلمين، بل إن الأمر قد تجاوز حده عند البعض.

فنجد البعض من أبناء المسلمين قد تمثل بهذه الخصلة في لباسه إلى حدٍ تكاد لا تميزه عن اللباس الخاص بالنساء، أو لباس الذي اشتهر به أهل الكفر سواء في ألوانها، أو أشكالها أو شفافيتها... ونحوها. فالله المستعان.

* * *

=

صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب الجنائز. باب ما جاء فيما يستحب من الكفن برقم (١٤٧٢) بمثله (٢٥٦٥) موسوعة الحديث الشريف. قال عنه الألباني: صحيح.

(١) انظر: الفتاوى (٢٢/ ٣١١)، زاد المعاد (١/ ١٣٧، ١٣٨).

المسألة الرابعة بعد المائة

قولهم إن العزل هو الموؤدة الصغرى فقال كذبت اليهود[١]

يبيّن المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية عند اليهود، والتي وافقتهم عليها الرافضة، وذلك باعتبارهم إن عزل الرجل لمائه عن المرأة إذا جامعها يعد موؤدة صغرى.

فالعزل: هو عزل الرجل لمائه عن المرأة إذا جامعها حذر الحمل[٢]، وقال النووي – رحمه الله –: (العزل أن يجامع الرجل المرأة فإذا قارب الإنزال نزع، وأنزل خارج الفرج)[٣].

والمراد بالموؤدة: من وأد ابنته أي دفنها حية، يقال وئيدة وموؤدة[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الخصلة: (لقد كان اليهود لا يرون العزل عن السراري، وكذلك الرافضة)[٥]. وذلك لأنهم كانوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١٣٠٨) بمثله وبرقم (١١٤٩٧، ٢٧٥٧٦، ٢٧٩٩٣) بنحوه، ص(٧٧٤، ٧٨٧، ١٩٩٩، ٢٣٧)، وأخرجه أبو داود في سننه كتاب النكاح. باب ما جاء في العزل برقم (٢١٧١) بنحوه (١٣٨٢)، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى. كتاب عشرة النساء. باب العزل برقم (٩٠٧٨، ٩٠٧٨، ٩٠٨٢، ٩٠٨٣) بمثله، وبرقم (٩٠٨٤) بنحوه (٥/ ٣٤٠، ٣٤١). موسوعة الحديث الشريف. قال شعيب: صحيح، وهذا إسناد ضعيف. وقال الألباني: صحيح، السنة لابن أبي عاصم (١٧١، ١٧٢، ١٧٣).

(٢) انظر. لسان العرب (١١/ ٤٤١)، التعريفات (١٦٤).

(٣) المنهاج (١٠٨٥).

(٤) لسان العرب (٣/ ٤٤٢).

(٥) منهاج السنة (١/ ٣١).

يحرمونه ويطلقون عليه موؤدة صغرى.

وقد ذكر بعض أهل العلم سبب تحريم اليهود والرافضة للعزل فقالوا عن ذلك: لأنهم يعدون أن العزل ضربٌ من الوأد، زعمًا منهم أن فيه إتلاف لنفس، وإن كانت بعيدة عن الوجود، فجعلوه بمنـزلة قطع النسل[١].

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على قول اليهود بأن العزل موؤدة صغرى بحديث النبي ﷺ الذي خالف فيه اليهود حين كذبهم في قولهم، وحين أجاز للصحابه العزل فقال - عليه السلام - حين سأله أحد الصحابة بأن له جارية وأنه يعزل عنها، وأنه يكره أن تحمل، ويريد ما يريد الرجال، إلا أن اليهود تحدث بأن العزل الموؤدة الصغرى، فقال النبي ﷺ: «كذبت يهود إن الله لو أراد أن يخلق شيئًا لم يستطع أحد أن يصرفه»، كذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في أحد غزواته حين سبى المسلمون سبايا من سبي العرب، فاشتهت أنفسهم النساء، واشتدت عليهم العزوبة، وأحبوا العزل، فسألوا النبي ﷺ فقال: «ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة»[٢].

---

(١) انظر: عمدة القاري (٢٠/ ١٩٥)، المنهاج (١٠٨٥)، عون المعبود (٩٦٣)، حاشية ابن القيم، (٦/ ١٥١)، زاد المعاد (٥/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العتق. باب من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية برقم (٢٥٤٢) بمثله (٢٠٠)، وفي كتاب البيوع. باب بيع الرقيق برقم (٢٢٢٩) بنحوه (١٧٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب النكاح، باب العزل برقم (٥٢١٠) بمثله (٤٥٠)، وباب حكم العزل برقم (٣٥٤٤، ٣٥٤٦) بمثله (٩١٩). موسوعة الحديث الشريف.

قال ابن قيم الجوزية – رحمه الله –: (لقد جاءت هذه الأحاديث مخالفةً لليهود الذين كانوا يحرمون العزل تحريمًا حقيقيًا، وتكذيبًا لزعمهم بأن العزل لا يتصور معه الحمل أصلاً، فجعلوه بمنزلة قطع النسل بالوأد، لهذا أكذبهم النبي ﷺ وأخبر أن العزل لا يمنع الحمل إذا شاء الله خلقه، وإذا لم يرد خلقه لم يكن، فلو قدر تعالى خلق نفس فلابد أن يخلقها سواء تم العزل أو لا، ولو لم يقدر الله خلق نفس فلن تخلق، سواء عزلتم أو لا، فلا ينفع حرصهم هذا في منع الخلق الذي قدره الله)(١).

وقد خالف الشارع – عز وجل – اليهود، والرافضة في هذه الخصلة حين أجاز العزل من مدلول الآية التي قال فيه: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٌ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾(٢).

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير الآية: (أي إن شاء عزل، وإن شاء غير العزل)(٣).

وقد استدل العلماء على جواز العزل بحديث جابر(٤) – رضي الله عنه

(١) زاد المعاد (٥/ ١٣٠)، وللاستزادة انظر: حاشية ابن القيم (٦/ ١٥١)، عمدة القارئ (٢٠/ ١٩٥)، المنهاج (١٠٨٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢٣).

(٣) الدر المنثور: للسيوطي (١/ ٦٣٩).

(٤) هو: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي، يكنى أبا عبد الله، له ولوالده صحبة، كان من المكثرين من رواية الحديث عن النبي ﷺ شهد تسعة عشرة غزوة مع النبي ﷺ مات سنة ٧٨هـ. انظر: الإصابة برقم (١٠٥٤)، ص(١٦٦).

- الذي قال فيه: (كنا نعزل والقرآن ينـزل) (١) . قال ابن قيم الجوزية في الحكم المستنبط من هذا الحديث: (في هذا الحديث دلالةٌ على جواز العزل، فلو كان العزل منهيًا عنه لنهى عنه القرآن)(٢).

إلا أن العلماء يرون أن الأولى ترك العزل، لما فيه من إدخال الضرر على المرأة بتفويت لذتها، ولما فيه من تفويت بعض مقاصد النكاح، وهو تكثير أمة نبينا محمد ﷺ، فقد قال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود إني مكاثر بكم الأمم» (٣).

لهذا حين أجاز النبي ﷺ العزل كما في الأحاديث السابقة، اشترط للعزل شرطًا في أحاديث أخرى، بأن لا يعزل الزوج مع زوجته الحرة إلا بإذنها، أما الأمة فلا يحتاج إلى إذنها، وقد روي عن النبي ﷺ: «أنه نهى أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب النكاح. باب العزل برقم (٥٢٠٧، ٥٢٠٨، ٥٢٠٩) بمثله (٤٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب النكاح. باب حكم العزل برقم (٣٥٦٠، ٣٥٦١) بنحوه (٩٢٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) زاد المعاد (٥/ ١٣٠)، للاستزادة انظر: فتح الباري (١/ ٢٩٩)، (٢/ ١٨٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٣٦٠٤، ١٢٦٤٠) بنحوه (٩٣٣، ٨٦٩)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب النكاح. باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء برقم (٢٠٤٩) بمثله (١٣٧٣)، وأخرجه النسائي في سننه الصغرى. كتاب النكاح. باب كراهية تزويج العقيم برقم (٣٢٢٩) بمثله (٢٢٩٦)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. أبواب النكاح. باب ما جاء في فضل النكاح برقم (١٨٤٦) بمثله وزيادة في أوله (٢٥٨٧). وفي باب تزويج الحرائر والولود برقم (١٨٦٣) بنحوه (٢٥٨٨). قال الألباني: صحيح. موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى. كتاب النكاح. باب النهي عن تزويج المرأة التي لا تلد برقم (٥٣٤٢) بمثله (٣/ ٢٧١)، والأصبهاني في التوحيد (٦٠).

يعزل عن الحرة إلا بإذنها»[١].

قال مالك - رحمه الله - في حكم ذلك: (تستأمر الحرة في العزل، ولا تستأمر الأمة)[٢].

وقد علل العلماء ذلك بقولهم: بأنه يستحب استئذان الزوجة الحرة في العزل، لأن لها حقًا في الوطء، ولها في الولد حق، وعليها في العزل ضرر، فلم يجز إلا بإذنها، وعلى هذا مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله، كما لابد من مراعاة عدم فعله إلا من حاجة شديدة أو ضرورة، لأن الأولى تركه لورود الأحاديث التي تحث على المكاثرة[٣].

إلا أن ما يحصل الآن في الوقت الحاضر في الكثير من المجتمعات الإسلامية هو انتهازهم لحكم جواز العزل بصورةٍ مفرطة، قد تجاوزت حد الضرورة والحاجة، الأمر الذي جعل الكثير منهم يعزفون عن مسألة المكاثرة باسم تحديد النسل، وتنظيمه لإحسان التربية ونحوها من الحجج الواهية التي منشؤها في الحقيقة من اليهود والنصارى بهدف تقليل عدد المسلمين، وإضعاف حزبهم[٤]. فالله المستعان.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١٢) بمثله (٤٠)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. أبواب النكاح. باب العزل برقم (١٩٢٨). بمثله (٢٥٩٢). موسوعة الحديث الشريف، قال الألباني: ضعيف.

(٢) سنن الترمذي في كتاب النكاح. باب ما جاء في العزل (١٧٦٢)، الإجماع لابن عبد البر (٢٥٦).

(٣) انظر: الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، (٣/ ١٢٥)، المغني (١٠/ ٢٢٨)، الفتح (٩/ ٣٠٨)، الفتاوى (٣٢/ ١٠٨)، زاد المعاد (٥/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: للاستزادة آداب الزفاف: للألباني، (٦٠)، فتاوى اللجنة الدائمة، رقم الفتوى (٥٤٣٨) (١٩/ ٣٢٨).

(٤) للاستزادة انظر. أضواء البيان للشنقيطي، (٨/ ٤٤١).

المسألة الخامسة بعد المائة
تعبدهم مع التلبس بالنجاسة كفعل النصارى

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من النصارى، وهي قيامهم بعبادتهم وهم متلبسون بالنجاسة، فلا يتطهرون من الحدث الأكبر، ولا من الحدث الأصغر، بل إنهم يرون أن التعبد على نجاسة أفضل من التعبد على الطهارة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – عن هذه الخصلة: (إن النصارى لا تحرم ما حرمه الله ورسوله، ويستحلون الخبائث، حتى أنهم يتعبدون بالنجاسات كالبول، والغائط، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يتطهرون للصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات)[(١)].

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله – عن ذلك أيضًا: (وطوائف من النصارى لا تدين بوجوب الطهارة، ولا بغسل الجنابة، ولا بغسل الحائض، بل إن الإنسان منهم يقوم من على بطن المرأة يبول ويتغوط ولا يمس ماءً، ولا يستجمر ثم يصلي، وتعد الصلاة صحيحة، حتى وإن انحدر البول منه وهو في صلاته، بل ويزعمون: أن الصلاة بالجنابة، والبول، والغائط أفضل

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٣٠٤)،للاستزادة انظر. توحيد الألوهية (٣/ ٣٤٢)، الجواب الصحيح (١/ ٥٢)، الفتاوى (٢٨/ ٦٦١)، الوصية الكبرى، لابن تيمية. ت: أبو مالك محمد بن حامد بن عبد الوهاب. دار البصيرة. الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص(١٧).

من الصلاة بالطهارة)[١].

إن زعم النصارى في مباشرتهم للنجاسات، وتلبسهم بها حال عبادتهم، بأن ذلك من باب القربة والطاعة، وزعمهم بأن الصلاة بنجاسة أفضل من الصلاة بطهارة إنما هو تشريع باطل، فهو من تشريعات الرهبان لهم كما قاله تعالى عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٢]، فالملة النصرانية التي جاء بها عيسى - عليه السلام - لا تدعو إلى ما يزعمه هؤلاء الرهبان.

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (إن صلاة النصارى بالنجاسة، والجنابة المسيح بريء منها، بل إن المسيح - عليه السلام - في غاية الطهارة، والطيب، والنظافة، وأبعد الخلق عن النجاسة)[٣].

لهذا جاء الشارع مخالفًا لأهل الجاهلية من النصارى في هذه الخصلة القذرة، حين أمر عباده بالطهارة من الحدث الأكبر، والأصغر عند كل صلاة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا

---

(١) هداية الحيارى (١٨١)للاستزادة انظر. إغاثة اللهفان (٢/ ٢١٠، ٢٢١).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٣) اغاثة اللهفان (٢/ ٢١٠).

طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيرها: (أي إذا أحدث توضأ، فلا وضوء إلا من حدث)[٢].

وقال المفسرون عن تفسير هذه الآية: لقد أمر الله تعالى عباده إذا قاموا إلى الصلاة وهم على غير طهر، أن يغسلوا وجوههم بالماء... وإن أصابتهم جنابة قبل أن يقوموا إلى صلاتهم، أن يتطهرون بالاغتسال منها قبل دخولهم في صلاتهم، وفي حال لم يجدوا ماءً أباح لهم التيمم بالتراب[٣].

كما حرم الشارع على الأزواج إتيان نساءهم حال الحيض حتى يطهرن من الحيض ويغتسلن، فإذا كان الشارع حرم على الرجال إتيان نساءهم حال الحيض حتى يطهرن، فتحريم أدائهن الصلاة حال الحيض من باب أولى حتى يطهرن ويغتسلن، وتحل لهن الصلاة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾[٤].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره للآية: (أي إذا اغتسلن وتطهرن الطهر الذي يجزيهنّ به الصلاة، جاز لأزواجهن إتيانهن)[٥].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٦).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤٥٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٤٥٠، ٤٧٩)، تفسير القرطبي (٦/ ٧٨)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٥) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٩).

كذلك أمر الشارع بطهارة الثياب فقال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[١].
قال الطبري عما اشتملت عليه هذه الآية: (أمر من الشارع بالتطهر، وتطهير الثياب لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم)[٢].

لهذا أثنى الشارع على المتطهرين فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣] قال المفسرون في المراد بالمتطهرين: أي المتطهرين بالماء للصلاة[٤].

كما خالف النبي ﷺ في هديه أهل الجاهلية من النصارى في هذه الخصلة، حين اشترط لصحة الصلاة الطهارة من الحدث، سواءً كان حدثًا أكبر، أو أصغر. فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»[٥].

وقال أيضًا: «لا تقبل صلاة بغير طهور»[٦].

---

(١) سورة المدثر، الآية: (٤).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٠٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٠٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٦١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوضوء. باب لا يقبل صلاة بغير طهور برقم (١٣٥) بمثله، وفي كتاب الحيل. باب في الصلاة برقم (٦٩٥٤) بمثله (١٤، ٥٨٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب وجوب الطهارة للصلاة برقم (٥٣٧) بمثله (٧١٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهار. باب وجوب الطهارة للصلاة برقم (٥٣٥)، بمثله (٧١٩). موسوعة الحديث الشريف.

قال العلماء: ويستدل من هذاين الحديثين على وجوب الطهارة للصلاة، فقوله - عليه السلام -: «لا تقبل» نصٌّ على بطلان الصلاة بخروج الحدث؛ سواء كان اختياريًا، أو اضطراريًا[١].

لهذا لم يجعل الشارع لعباده رخصةً لترك الطهارة في حين انعدام الماء، فقد دل عباده على ما هو بديل للماء في حال انعدامه، وذلك بالتيمم بالتراب، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾[٢]، وكما جاء في الحديث عنه ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل»[٣].

وكما خالف بهديه - عليه الصلاة والسلام - النصارى بالوضوء من الحدث الأصغر، كذلك خالفهم بالاغتسال من الحدث الأكبر، وهي الجنابة، فقيل عنه: «إنه كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة»[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٢٣٥)، المنهاج (٤/ ٣)، الحدث الاضطراري كالحيض والنفاس، والحدث الاختياري كالبول والغائط والجنابة.

(٢) سورة المائدة، الآية: (٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التيمم. باب برقم (٣٣٥) بمثله. كتاب الصلاة. باب جعلت الأرض مسجدًا وطهورًا برقم (٤٣٨) بمثله (٢٩، ٣٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الغسل، باب الوضوء. قبل الغسل برقم (٢٤٨) بمثله وفي باب تخليل الشعر حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته أفاض عليه برقم (٢٧٢) بمثله، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الحيض. باب صفة غسل الجنابة برقم (٧١٨، ٧٢١، ٧٢٢) بمثله (٧٣٠). موسوعة الحديث الشريف.

قال ابن قيم الجوزية عن هدي النبي ﷺ في الاغتسال: (وهكذا كان هديه - عليه السلام - الاغتسال من الجنابة، والوضوء لكل صلاة في غالب أحيانه، وربما صلى الصلوات بوضوء واحد)(١).

لهذا حث أمته على إسباغ الوضوء مبينًا فضله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء...» (٢).

قال النووي - رحمه الله - عن دلالة هذا الحديث: (لقد استدل أهل العلم بهذا الحديث على فضل الوضوء، وعلى أن الوضوء من خصائص هذه الأمة، زادها الله تعالى شرفًا)(٣).

وفي الوقت الذي بيّن فيه النبي ﷺ فضل الوضوء وآثره، توعد في موضع آخر من لم يتحرز من النجاسة، فقال - عليه الصلاة والسلام - حين مر بقبرين فقال: «إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه لكبير... أما الآخر فكان لا يتنـزه من بوله»(٤).

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٨٤).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه. كتاب الوضوء. باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء برقم (١٣٦) بمثله (١٤)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم (٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١) بمثله (٧٢١، ٧٢٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج (٣٣١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب الوضوء. باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله برقم (٢١٦، ٢١٨) بمثله وفي كتاب الجنائز باب الجريدة على القبر برقم (١٣٦١) بمثله، وباب عذاب القبر من الغيبة والبول برقم (١٣٧٨) وفي كتاب الأدب، باب: (ولا يغتب بعضكم =

قال النووي – رحمه الله – عن مراد النبي ﷺ في هذا الحديث: (فأراد النبي ﷺ الزجر والتحذير لغيرهما، لمن لا يجتنب ولا يتحرز من بوله، لأن عدم التنـزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة، ولأن ترك التنـزه من البول يُعد كبيرة من الكبائر بلا شك)(١).

لهذا حين حرص النبي ﷺ على طهارة الجسد؛ حرص على طهارة الثياب، فقال – عليه الصلاة والسلام – حين جاءته امرأة فقالت أرأيت إحدانا تحيض في الثوب كيف تصنع؟ فقال: «تحته ثم تقرصه بالماء، وتنضحه، وتصلي فيه» (٢).

قال ابن حجر – رحمه الله –: (في هذا الحديث دلالةٌ على وجوب إزالة النجاسة من الثياب بالماء)(٣).

لهذا أجمعت الأمة على أن الطهارة من الحدث فرض عين على كل مسلمٍ، وشرط لصحة الصلاة والطواف فرضًا كان، أو نفلاً، وعند مس

=

بعضًا) برقم (٦٠٥٢) بمثله، وباب النميمة من الكبائر برقم (٦٠٥٥) بمثله (٢٠، ١٠٦، ١٠٧، ٥١١)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه برقم (٦٧٧) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) المنهاج (٣٦٤)، للاستزادة انظر: الزواجر (١/ ١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوضوء. باب غسل الدم (٢٢٧) بمثله، كتاب الحيض. باب غسل دم الحيض (٣٠٧) بمثله (٢٠، ٢٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة، باب نجاسة الدم وكيفية غسله برقم (٦٧٥) بمثله (٧٢٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (١/ ٣٣١).

المصحف كما يحرم على من لزمه الغسل أو الوضوء أو الطواف أو الصلاة أو مس المصحف، وعلى هذا فمن صلى صلاة بدون طهارة فصلاته غير صحيحة[١].

أخيرًا: فكما برزت هذه الخصلة لدى النصارى بقصد التعبد والتقرب لله تعالى كما يزعمون أيضًا ظهرت عند من هم أسوأ حالاً من النصارى، وهم الكهان والسحرة الذين يتلبسون بالنجاسة ولكنهم قاموا بذلك تقربًا للشياطين والعياذ بالله، فيرى هؤلاء أنه يلزم على كل من يمارس السحر والكهانة أن يتلبس بالنجاسات كدم الإنسان، أو الحيوان، والبول والغائط ليرضوا بذلك من يستعينون بهم من الشياطين[٢]... ليحصلوا على أهدافهم الشركية الباطلة. فنسأل الله العافية.

*   *   *

(١) انظر: الإقناع (١/ ٤٠)، مراتب الإجماع (٥٨)، الإجماع (٢٤/ ٢٦)، الكافي (١/ ٥٨)، العمدة (١٥/ ٣٨٠)، الشرح الممتع (١/ ١٨٥، ٣٢٤)، فتاوى اللجنة الدائمة، (٦/ ١٨٩).

(٢) للاستزادة انظر: موقف الإسلام من السحر. دارسة نقدية على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة: د. حياة سعيد عمر با أخضر، دار المجتمع، جدة، (ط١)، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

المسألة السادسة بعد المائة
عدم تقيدهم فيما يأكلونه من الطعام كما أشار إلى ذلك في أعلام الموقعين لما ذكر حديث الرجل الذي قال له النبي ﷺ لا يحتلجن[١] في نفسك طعام ضارعت[٢] فيه النصرانية)[٣]

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند عامة النصارى فيما يتركون، وفيما يأكلون من الطعام، فلم يُعرف عنهم التقيد بالحلال فيما يأكلون، ولا بالخبيث فيما يتركون أكله. فما أحبته أنفسهم واشتهته من سائر الطعام فهو حلال، وما كرهته أنفسهم من الطعام وعافته فهو حرام.

ومن هذا المنطلق استباح النصارى كل الخبائث، حيث إن عامل الإيمان في نظرهم قائمٌ على المحبة، وقد ورد ذلك في كتبهم التي يقولون

---

(١) يحتلجن: من تحلج في صدري أي تردد فأشك فيه، فأصله من الحلج وهو الحركة والاضطراب. انظر: لسان العرب (٢/ ٢٤٠).

(٢) ضارعت من المضارعة: المشابهة يقال ضارع الشيء كأنه مثله أو شبهه. انظر: لسان العرب (٨/ ٢٢٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٣١١، ٢٢٣٢، ٢٢٣١٥، ٢٢٣١٨، ٢٢٣٢٠، ٢٢٣٢٥) بمثله (١٦٠٥)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الأطعمة. باب كراهة التقذر للطعام برقم (٣٧٨٤) بمثله (١٥٠٢)، وأخرجه الإمام الترمذي في سننه. كتاب السير. باب ما جاء في طعام المشركين برقم (١٥٦٥) بمثله، قال الترمذي: حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب الجهاد. باب الأكل في قدور المشركين (٢٨٣٠) بمثله (٢٦٤٧). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حديث حسن.

فيها: (الذين منكم يطلبون أن يتبرءوا بالشريعة، يقطعون كل صلة لهم بالمسيح، ويقطعون عنهم النعمة، ففي المسيح يسوع لا الختان، ولا عدمه ينفع شيئًا بل الإيمان العامل المحبة)[١].

إن القارئ للنص يلاحظ أن فيه دعوةً إلى التنصل من الشرائع بزعم عدم جدواها، وأن الإيمان العامل قائم على المحبة لا على الشرائع، علمًا أنهم بذلك خالفوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - عن ربه، بدليل قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[٢].

قال القرطبي والمراد: (أي جئتكم مصدقًا لما قبلي، ولأحل لكم أشياء مما حرمها عليكم موسى - عليه السلام - من أكل الشحوم وغيرها)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (إن عامة النصارى لا يرون شيئًا حرامًا، ولا نجسًا إلا ما كرهه الإنسان بطبعه...، فيأكلون الخبائث كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، إلاّ من كره منهم شيئًا فتركه)[٤].

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن دين النصارى: (فدينهم

(١) رسالة بولس الكنائس غلاطية، الحرية المسيحية (٥: ٢، ٣، ٤، ٥، ٦).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (٥٠).
(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٩٧).
(٤) الجواب الصحيح (١/ ٥٢، ٣٤٧، ٣٤٨)، للاستزادة انظر. منهاج السنة (٣/ ٣٠٤)، الفتاوى (٢١/ ٣٣٢)، توحيد الألوهية، (٣/ ٣٧٢).

استباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة... يقولون كُل ما شئت ودع ما شئت لا حرج)[(١)].

علمًا أن جميع ما استباحه عامة النصارى، إنما استباحوه بحسب ما أملته عليهم أهواؤهم وشهواتهم، ومن ثم أدخلوه تحت مظلة التعبد والتقرب لله كما يزعمون تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

لهذا كذب الشارع كل من يزعم بمثل هذا الزعم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[(٢)].

قال الطبري والمراد: (إن الله لم يحرم من ذلك ما تحرمون، ولا أحل كثيرًا مما تحلون)[(٣)].

فكما أن عامة النصارى أحلوا كثيرًا مما اشتهت أنفسهم وإن كان خبيثًا، وحرموا كل ما عافته أنفسهم وإن كان طيبًا، كذلك نجد أن رهبان النصارى قد حرموا على أنفسهم كثيرًا من الطيبات التي أحلها الله لهم، زعمًا منهم أنهم بذلك يتقربون لله تعالى، لهذا بيّن سبحانه وتعالى في محكم كتابه أن عملهم هذا إنما هو ابتداعٌ من عند أنفسهم، لم يكتب عليهم، قال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[(٤)]. قال الطبري أي: (بدلوا

---

(١) هداية الحيارى (١٥، ١٨٢)للاستزادة انظر. إغاثة اللهفان (١/ ١٠٧)، (٢/ ٢١٠).

(٢) سورة النحل، الآية: (١١٦).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٦٥٨).

(٤) سورة الحديد، الآية: (٢٧).

وخالفوا دين الله الذي بعث الله به عيسى عليه السلام)[١].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بيّن تعالى لعباده في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ بأن جميع ما أوجده الله تعالى لعباده فهو حلال، وأن الحرام ما استثناه الشارع مما أوجده بالنص على حرمته.

أما أن يتردد العبد تجاه مباحٍ كرهته نفسه، لشكٍ قد اختلج فيها تجاه هذا المباح بأنه مباح، فهو ما نهانا عنه النبي ﷺ حين سأله رجل فقال: إن من الطعام طعامًا أتحرج منه، فقال له النبي ﷺ: «لا يتحلجن في نفسك شيء، ضارعت فيه النصرانية».

قال الخطابي - رحمه الله - في المراد بقوله: «لا يتحلجن»: (أي لا يقعن في نفسك ريبة منه)[٢].

قال العلماء والمراد بهذا الحديث: أي دع ما وقع في قلبك من ريبة، وشك تجاه الطعام، فإنه نظيف فلا ترتابن، فكأنه أراد، أن لا يتحركن في قلبك شك، وقوله: (ضارعت فيه النصرانية) أي شابهت لأجله أهل الملة النصرانية من حيث امتناعهم إذا وقع في قلب أحدهم أنه حرام، أو مكروه، ولأن النصارى لا يحرمون شيئًا من الأطعمة، فهم يبيحون ما دبَّ ودَرَجَ من الفيل إلى البعوض[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٩٠).

(٢) معالم السنن (٤/ ٢٤٤).

(٣) انظر: عون المعبود (١٦٢٢)، تحفة الأحوذي (١/ ١٤٣١)، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٨٥)، إعلام الموقعين (٤/ ٥٨٧).

كذلك خالف الشارع في هذه الخصلة الجاهلية بإيراده لنصوصٍ أباح فيها لعباده الطيبات، وبإيراده لنصوصٍ نص فيها على ما حرمه عليهم من الخبائث، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[١]، وقال: ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[٥].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عن بطلان هذه الخصلة الجاهلية ببعثة نبينا محمد ﷺ: (قد كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء، ويتركون أشياء تقذرًا، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فقرأ هذه الآية: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ ...﴾)[٦].

وقد قال العلماء عن الأصل في الأطعمة: والأصل في الأطعمة الحل،

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٩).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٦٨).
(٣) سورة المائدة، الآية: (٤).
(٤) سورة النحل، الآية: (١١٤).
(٥) سورة الأنعام، الآية: (١٤٥).
(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).

فكل طاهر لا مضرة فيه فهو حلال، أما ما كان نجسًا كالميتة، والدم، ولحم الخنـزير، أو ما كان فيه مضرة كالسم ونحوه فهو محرم(١)، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾(٢) ولدلالة الآيات السابقة الذكر.

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآيات السابقة: (لقد حث الله الناس على أن يأكلوا مما أحله لهم من الأطعمة، ومن بهائم الأنعام التي أحلها لهم حلالاً طيبًا المذكاة غير المحرمة كما بينه تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ) (٣).

وقال الشيخ ابن سـعدي – رحمه الله – في تفسير الآية: (وقد أراد الله – سبحانه وتعالى - من ذكر الآيات السابقة أن يُعلم عباده أنه لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لهم، ولحمايتهم من الضرر الموجود في المحرمات، فقد يبين للعباد ذلك وقد لا يبين، كما أنه تعالى ما حرم على عباده إلا الخبيثات، تفضلاً منه، ولصيانة عباده عن كل مستقذر)(٤). وقال أحد العلماء أيضًا: (ولأنه تعالى أمرنا في شرعنا بالتنـزه عن الأقذار حين حرم علينا الخبائث من الميتة، والدم، ولحم الخنـزير، والأنجاس كلها على ما تقتضي عادة العقلاء

---

(١) انظر: منار السبيل: لإبراهيم بن محمد بن سالم الضويان. ت: عصام القلعجي. مكتبة المعارف. الرياض، (ط٢)، ١٤٠٥هـ، (٢/ ٣٦٢)، حاشية الروض المربع (٧/ ٤١٥)، الشرح الممتع، (٦/ ٢٦٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٩٥).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٨١) (٧/ ٦٥٧).

(٤) تفسير ابن سعدي (٨١، ٤٥١).

والمرواءت، وأمرنا بأكل الطيبات)(١).

لهذا خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فما قُدم له من الطيبات أكله، وما عافته نفسه تركه من غير تحريم، فقيل عنه - عليه الصلاة والسلام -: (ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط كان إذا اشتهى أكله، وإن كرهه تركه) (٢).

قال أهل العلم والمراد بهذا الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام ما عاب طعامًا من الأطعمة المباحة، وأما الحرام فكان يذمه، ويمنع تناوله، وينهى عنه(٣).

وقد ورد عنه ﷺ أنهُ عُرض عليه طعامٌ مباح، إلا أنه - عليه الصلاة والسلام - كرهه وعافهُ معللاً ذلك بأنه ليس في أرض قومه، ورغم كراهته له لم يحرمه، ولم ينه عنه، ولم يمنع عن تناوله، وذلك حين أهدي للنبي ﷺ أقطًا وسمنًا وضبًا، فأكل النبي ﷺ من الأقط والسمن وترك الضب تقذرًا. قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (فأُكِلَ على مائدة رسول الله ﷺ)(٤).

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى. لمحمد بن أحمد القرطبي. ت: أحمد حجازي السقا. دار التراث العربي. القاهرة، ١٣٩٨م، (٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المناقب. باب صفة النبي ﷺ برقم (٣٥٦٣) بمثله، وكتاب الأطعمة. باب ما عاب النبي ﷺ طعامًا برقم (٥٤٠٩) بمثله (٢٩٠، ٤٩٧)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الأشربة. باب لا يعيب الطعام. برقم (٥٣٨٠، ٥٣٨٣) بمثله (١٠٤٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) انظر: فتح الباري (٩/ ٥٤٧)، الآداب الشرعية (٦٧٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الهبة وفضلها. باب قبول الهدية برقم (٢٥٧٥) بمثله، وفي =

وفي رواية أخرى سئل النبي ﷺ عنه: (أحرام هو؟ يا رسول الله؟ قال: «لا ولكنه لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه» فاجترأ الصحابي السائل على الضب وأكله ورسول الله ينظر، ولم ينهه)(١).

قال ابن حجر - رحمه الله – في شرح هذا الحديث: (لقد عاف النبي ﷺ أكل الضب لأنه كرهه، إلا أن الصحابي أكله على مائدة النبي ﷺ، فيستدل من هذا على تقريره له)(٢). فقد تقرر بفعل النبي ﷺ هذا على أن التحريم والتحليل لا يقيد بما أحبته النفس، أو كرهته إنما بورود نص عليه.

يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله – عن هديه ﷺ في الطعام: (وكان من هديه ﷺ وسيرته في الطعام بأنه ما قرب إليه شيءٌ من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم، فما عاب طعامًا قطُّ، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، كما ترك أكل الضبّ لما لم يعتده ولم يحرمه على الأمة،

=
كتاب الأطعمة. باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفرة برقم (٥٣٨٩) بمثله، وفي باب الأقط برقم (٥٤٠٢) بمثله (٢٠٢، ٤٦٤، ٤٦٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الصيد. باب إباحة الضب برقم (٥٠٢٧، ٥٠٢٨، ٥٠٢٩، ٥٠٣٠، ٥٠٣١، ٥٠٣٢، ٥٠٣٣، ٥٠٣٤، ٥٠٤٠) بنحوه، وبرقم (٥٠٣٩) بمثله. موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الهبة وفضلها. باب الهدية برقم (٢٥٧٥) بنحوه، وفي كتاب الأطعمة. باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفرة برقم (٥٣٨٩) بنحوه، وفي باب الأقط برقم (٥٤٠٢) بنحوه (٢٠٢، ٤٦٤، ٤٦٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الصيد. باب إباحة الضب برقم (٥٠٢٧، ٥٠٢٨، ٥٠٢٩، ٥٠٣٠، ٥٠٣١، ٥٠٣٢، ٥٠٣٣، ٥٠٣٤، ٥٠٣٥، ٥٠٤٠) بمثله، وبرقم (٥٠٣٩) بنحوه. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٥/ ٢٠٤).

بل أُكل على مائدته، وهو ينظر)[١].

والمسلمون على هديه ﷺ، فما ورد النص بتحريمه من الأطعمة فهو حرام، وما ورد النص بإباحته من الأطعمة فهو حلال؛ فمطاعمهم ومشاربهم مقيدة بالنص الوارد من الكتاب أو السنة.

ويقاس على النصارى في هذه الخصلة ما يقوم به الكهان والسحرة، فهم لا يتقيدون في مآكلهم ومشاربهم بما أحل الله، بل إنهم يستحلون الخبائث، فيأكلون السباع والميتة، ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وما يحرمونه على أنفسهم ليس لورود نص بتحريمه، إنما لهوى في أنفسهم، وتبعًا لأحوالهم الشيطانية[٢].

كما أن هذه الخصلة توجد – وللأسف – عند البعض من المسلمين ممن تهاونوا في تقيدهم بالنصوص الواردة في تحريم شرب أم الخبائث، وما يقاس عليها كشرب الدخان، أو استخدام المخدرات ونحوها نسأل الله لهم العافية.

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ١٤٢).

(٢) للاستزادة. انظر: الفتاوى (٢٧/ ٤٩٩)، موقف الإسلام من السحر. د. حياة سعيد بـا أخـضر (١/ ٢٣٤، ٢٣٥).

المسألة السابعة بعد المائة
اختيار الشق على اللحد فخالفهم النبي ﷺ بقوله اللحد لنا والشق لغيرنا (١)

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – إلى أحد خصال أهل الجاهلية من أهل الكتاب، وذلك في هيئة قبور موتاهم، فقد كانت قبورهم على هيئة شق، بأن يُحفر في الأرض شق مستطيل يضعون فيه الميت، ومن ثم يجعلون عليه سقف، أو قبة تحفظ الميت؛ بخلاف قبور المسلمين التي على هيئة لحد.

والمراد باللَّحد: هو الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت، لأنه قد أميل عن وسط القبر إلى جانبه، يقال لحدت وألحدت(٢).

والمراد بالشَق: هو أن يُحفر وسط أرض القبر ويبنى حافتاه بلبن، أو غيره ويوضع الميت بينهما، ويسقف عليه(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الجنائز. باب اللحد برقم (٣٢٠٨) بمثله (١٤٦٤)، وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب الجنائز. باب، ما جاء في قول النبي ﷺ: (اللحد لنا والشق لغيرنا) برقم (١٠٤٥) بمثله قال الترمذي حسن غريب (١٧٥١)، وأخرجه النسائي في سننه الصغرى. كتاب الجنائز. باب اللحد والشق برقم (٢٠٠٩)، (٢٠٠١١) بمثله (٢٢١٩)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب الجنائز. باب: ما جاء في استحباب اللحد برقم (١٥٥٤، ١٥٥٥) بمثله (٢٥٦٩). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح. أخرجه النسائي في السنن الكبرى. كتاب الجنائز وتمني الموت. باب اللحد والشق برقم (٢١٣٦)، بمثله (١/ ٦٤٨).

(٢) انظر. شرح السنة للبغوي (٥/ ٣٨٨)، عون المعبود (١٣٨٣).

(٣) شرح السنة للبغوي (١٣٨٣).

وقد خالف هدى النبي ﷺ أهل الكتاب، ودعا أمته إلى مخالفتهم في وضع الميت في أسفل القبر. فقال - عليه الصلاة والسلام -: «اللحد لنا والشق لغيرنا».

قال العلماء والمراد من هذا الحديث: أن اللحد من خصوصيات هذه الأمة، وأنه لأموات المسلمين، أما الشق فلأجل أموات الكفار من أهل الكتاب، وهذا الحديث دل على الأفضلية للحد، وليس فيه دليلٌ على النهي عن الشق[1].

قال القاضي عياض - رحمه الله - عن معنى ذلك: (معناه أن اللحد أثر لنا، والشق لهم، وهذا دليل على اختيار اللحد فإنه أولى من الشق لا المنع منه)[2].

كما قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد كان من هدي النبي ﷺ اللحد، وتعميق القبر)[3].

وقد لحد الصحابة - رضوان الله عليهم - للنبي ﷺ، دل على ذلك ما ورد عن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص[4] في مرضه الذي هلك فيه،

---

(١) انظر: عمدة القارئ (٨/ ١٥٩)، عون المعبود (١٣٨٣)، تحفة الأحوذي (١/ ١١٠٧).

(٢) عون المعبود (١٣٨٣).

(٣) زاد المعاد (١/ ٥٠٢).

(٤) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشرين بالجنة، روى عن النبي ﷺ كثيرًا، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو أحد الستة أهل الشورى، كان مجاب الدعوة مات سنة ٥١هـ. انظر: الإصابة برقم (٣٣٥٥)، ص(٤٩٠).

قال: (إلحدوا لي لحدًا، وانصبوا على اللبن نصبًا، كما صنع رسول الله ﷺ)(١).

فيستدل من الحديث السابق، ومن الأثر الوارد عن سعد بن أبي وقاص على: (أن اللحد أفضل من الشق، وعلى كراهة الشق كما ذُكر ذلك عن الإمام أحمد رحمه الله)(٢).

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (أن في الحديث السابق تنبيه لنا على مخالفتنا لأهل الكتاب حتى في وضع الميت في أسفل القبر)(٣).

ونخلص من هذه المسألة أن من السنة أن يجعل القبر الذي يدفن فيه الميت لحد، كما فعل الصحابة بقبر النبي ﷺ، وأن لا يجعل القبر على هيئة شق، إلا في حال لم يكن اللحد فيجوز الشق، دل على هذا أقوال أهل العلم المستندة على قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾(٥).

وفي زمننا هذا نجد أن لأهل الكتاب طريقة عند دفن موتاهم، فهم يقومون بدفن موتاهم داخل توابيت، إلا أنه قد وجد وللأسف في بعض

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الجنائز. باب اللحد ونصب اللبن على الميت برقم (٢٢٤٠) بمثله (٨٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر. الإقناع (١/ ٢٣١)، التمهيد (٢٢/ ٢٩٨)، المغني (٣/ ٤٢٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٤٤).

(٤) سورة الحج، الآية: (٧٨).

(٥) سورة التغابن، الآية: (١٦).

الدول الإسلامية من المسلمين من يشابهونهم في طريقة دفنهم هذه، وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – عن حكم هذا العمل، فقال: (لم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه – رضي الله عنهم – أنهم دفنوا ميتًا في تابوت أو صندوق، والخير في اتباعهم، لأن في دفن الميت في الصندوق تشبهًا بالكفار والمترفين من أهل الدنيا، والموت مدعاة للعبرة والموعظة، أما إن لم يتيسر دفنه إلا بذلك فلا حرج)[(١)].

والله أعلم.

* * *

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، السؤال الرابع من الفتوى رقم (١٧٠٥)، وفتوى رقم (٣٩١٣) – (١/ ٤٣١، ٤٣٨).

المسألة الثامنة بعد المائة
تعليق الأجراس على الدواب فأمر بقطعها

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من الأميين وأهل الكتاب، وهي تعليقهم للأجراس على دوابهم.

والأجراس: مفردها جِرس: الصوت الخفي، والجَرَسُ: هو الذي يُضربُ به، ويعلق في عنق البعير(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فأمر بقطع كل الأجراس المعلقة على الدواب، قالت عائشة رضي الله عنها: (أمر النبي ﷺ بقطع الأجراس) (٢).

وفي رواية أخرى قالت - رضي الله عنها -: (أمر النبي ﷺ بقطع الأجراس من أعناق الإبل..) (٣).

---

(١) انظر: لسان العرب (٦/ ٣٦)، مختار الصحاح (٩٩).

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى. كتاب جلاء أهل الكتاب. باب الأمر بقطع الأجراس برقم (٨٨٠٩) بمثله (٥/ ٢٥١).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه. كتاب السير. باب ذكر البيان بأن الأمر بقطع قلائد الأوتار عن أعناق الدواب إنما أمر بذلك من أجل الأجراس التي كانت فيها برقم (٤٦٩٩) بمثله وفي باب ذكر الأمر بقطع الأجراس عن ذوات الأربع برقم (٤٧٠١) بمثله، وفي باب ذكر الوقت الذي أمر ﷺ بهذا الأمر برقم (٤٧٠٢) بمثله، وفي باب ذكر العلة التي من أجلها أمر المصطفى بهذا الأمر برقم (٤٧٠٣) بمثله (١٠/ ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤)، وأخرجه الهيثمي في موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. كتاب اللباس. باب ما جاء في الجرس برقم (١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢) بمثله (١/ ٣٥٨). موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. لأبي بكر الهيثمي. دار الكتب العلمية.

ونهى - عليه الصلاة والسلام - عن تعليق الأجراس على الدواب مبينًا العلة من النهي عن ذلك، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلبٌ ولا جرس»[١].

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «الجرس مزامير[٢] الشيطان»[٣].

قال أهل العلم وقد أفاد الحديثان: بكراهية تعليق الأجراس على الدواب، والبهائم، لأن ملائكة الحفظ والرحمة لا تصحب رفقة فيها جرس، ولأن الأجراس شبيهة بصوت النواقيس[٤] وشكلها، وفي حين أنها لا تزل بصوتها تشغل قلب الإنسان عن الذكر، والفكر، ولهذا فهي من المعاليق المنهي عنها، بدليل أن النبي ﷺ أضافها إلى الشيطان[٥].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب اللباس والزينة. باب كراهة الكلب والجرس في السفر برقم (٥٥٤٦) بمثله (١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المزامير: هي جمع مزمار، وهو آلة الزمر، والزمر الغناء بالقصب ونحوه. انظر: لسان العرب، (٤/ ٣٢٧).

(٣) أخرجه الإمام في صحيحه. كتاب اللباس والزينة. باب كراهة الكلب والجرس في السفر. برقم (٥٥٤٨) بمثله (١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) النواقيس: هي جمع ناقوس وهي أجراس النصارى التي يضربون بها لأوقات الصلاة. انظر: لسان العرب (٦/ ٢٤٠).

(٥) انظر: كشف المشكل (٣/ ٥٦٤)، المنهاج (١٥٩٦)، فتح الباري (٦/ ١٤٣)، عمدة القاريء (١٤/ ٢٥٢)، الديباج على مسلم. لعبد الرحمن السيوطي. (٥/ ١٥٣)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. لعلي بن سلطان القاري. دار الكتب العلمية (٧/ ٤١٠)، عون المعبود (١١٠٥)، شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٤٢)، الآداب الشرعية (٦٣٨، ٦٣٩)، شرح كتاب المناهي (١٣٩، ١٤٠)، الفروع، (٥/ ٤٦٢)، حاشية الروض المربع (٧/ ١٤٧).

يقول الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله – عن وجوب ترك هذه الخصلة: (لهذا فالواجب على المسلم ترك هذه الخصلة الجاهلية درءًا للمشابهة بأهل الجاهلية، فنحن منهيون عن مشابهتم، كما قال النبي ﷺ في الحديث: «من تشبه بقوم فهو منهم». كذلك على المسلم أن يحرص على صحبة الملائكة له، وفي نفس الوقت عليه أن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يبعد الملائكة عنه)[1].

* * *

(١) شرح كتاب المناهي (١٤٠).

المسألتان التاسعة والعاشرة بعد المائة
تغيير خلق الله تعالى
تبتيك(١) آذان الأنعام

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة أن أهل الجاهلية من أهل الكتاب والأميين على حد سواء عمدوا إلى تغيير خلق الله تعالى، وذلك بتغيير ما فطر الله عباده عليه من الدين، وتغيير الخِلقة التي خلق الله مخلوقاته عليها.

فقد خلق الله عباده على فطرة الدين الحق، فبدأ الشيطان فسلط عليهم الشبهات، وأغواهم بالأهواء، والشهوات فاتبعوه، ومن ثم حصل التغيير في خلق الله لهم قال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٢).

قال المفسرون – رحمهم الله – والمراد بقوله تعالى: ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ﴾: أي لآمرنهم فليغيرن خلق الله من البهائم بفقء العيون، والإخصاء، وقطع الآذان، وقيل أيضًا بتغيير أحوال تتعلق بظاهر الخلق، مثل الوشم،

---

(١) التبتيك: هو شق آذان الأنعام فيجعلونها بحيرة، إشارة إلى تحريم ركوبها. انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٨١)، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٨١).

(٢) سورة النساء، الآيات: (١١٧ – ١١٩).

ووصل الشعر، والفلج، وبتغيير دين الله كتحليل الحرام، وتحريم الحلال، فقد خلق الله تعالى البهائم وسائر الأنعام للركوب والأكل، فحرموها على أنفسهم كالبحائر، والسوائب، والوصائل، وخلق الله الشمس، والقمر، والنجوم، والنار، والحجارة لمنفعة الناس فعبدوها من دون الله(١).

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن هذه الخصلة: (إن تغيير ما فطر الله عباده عليه من الدين، تغيير لخلْقه، والخصاء وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضًا، ولهذا شبه(٢) النبي ﷺ أحدهما بالآخر. فأولئك يُغيرون الشريعة، وهؤلاء يغيّرون الخِلْقة. فذلك يغيّر ما خُلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خُلق عليه بدنه)(٣).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين حين أوردهما في سياق الذم، كما هو واردٌ في الآية السابقة، حين بيّن الله لعباده أن هاتين الخصلتين إنما هما من تزيين الشيطان وإغوائه لبني آدم ليضلهم، ويزيلهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٨١، ٢٨٥)، تفسير البغوي (١/ ٤٩٩)، تفسير القرطبي (٥/ ٣٦٩، ٣٧٥)، لباب التأويل في معاني التنزيل المعروف بتفسير الخازن: للإمام علاء الدين علي بن محمد إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن. المكتبة التجارية. مصر (١/ ٤٩٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٦، ٥٥٧)، التفسير الكبير للرازي (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤)، تفسير ابن سعدي (٢٠٤)، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٤٤، ٥٤٨)، درء التعارض (٨/ ٣٧٧)، شفا العليل (٤٦١، ٤٦٤).

(٢) حديث (المولود يولد على الفطرة..) أخرجه البخاري برقم (١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)، ص(١٠٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٧٥٥، ٦٧٥٦، ٦٧٦٠)، ص(١١٤١). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) شفاء العليل (٤٦٤).

عن المنهج الحق، وقد حذر الشارع عباده من الشيطان في مواضع كثيرة من كتابه، كما بيّن لهم في الوقت نفسه وسائل الشيطان التي دخل بها على بني آدم ليغيروا بها خلق الله، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾(٧).

كذلك خالف الشارع أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين بالنص على

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٨).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٦٨).
(٣) سورة النساء، الآية: (٦٠).
(٤) سورة المائدة، الآية: (٩٠).
(٥) سورة المائدة، الآية: (٩١).
(٦) سورة الحج، الآية: (٣).
(٧) سورة البقرة، الآية: (١٠٢).

تحريمها فقال تعالى مبطلاً للخصلة الأولى نصًا، وللخصلة الثانية ضمنًا، كما في قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]. قال مجاهد - رحمه الله -: (أي لا تغيير لدين الله)[٢].

وقال تعالى محرمًا ومبطلاً للخصلة الثانية نصًا: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٣].

قال الطبري والمراد: (أن الله ما بحر بحيرة[٤]، ولا سيب السائبة[٥]، ولا وصل الوصيلة[٦]، ولا حمى حاميًا[٧]، ولكنكم أنتم الذين فعلتم ذلك،

(١) سورة الروم، الآية: (٣٠).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣).

(٣) سورة المائدة، الآية: (١٠٣).

(٤) البحيرة: هي الناقة التي تشق أذنها فحرموا لبنها على النساء دون الرجال. انظر: تفسير الطبري (٥/ ٨٨)، تلبيس إبليس (٨١)، نهاية الأرب (٣/ ١١٦).

(٥) السائبة: هي المسيبة المخلاة محرمة على النساء دون الرجال. المراجع السابقة.

(٦) الوصيلة: هي الأنثى من نَعَمهم في الجاهلية كانت إذا أتأمت بطنًا بذكر وأنثى قيل: وصلت الأنثى أخاها بدفعها عن الذبح فسموها وصيلة، وحرمت منافعها على الإناث دون الرجال. المراجع السابقة.

(٧) الحامي: الفحل من النعم يحمى ظهره من الركوب والانتفاع بسبب تتابع أولادٍ تحدث من فحلته، ومن ثم يتركونه فلا يحمل عليه، ولا يركب عليه. المراجع السابقة.

أيها الكفرة، فحرمتموه افتراء على ربكم)(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين، فقال عليه الصلاة والسلام محذرًا من كيد الشياطين: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانًا...» (٢).

فيستدل من هذا الحديث على إبطال كلا الخصلتين الجاهليتين، فقد أنكر النبي ﷺ ما قام به أهل الجاهلية من تغيير خِلقة البهائم الظاهرة كالبحيرة، ومن تغيير دين الله تعالى وذلك بتحريمهم الحلال الذي أحله الله لهم، وبإشراكهم في عبادتهم لله تعالى.

يقول الإمام النووي - رحمه الله – في شرح هذا الحديث: (أنكر النبي ﷺ ما حرموه أهل الجاهلية على أنفسهم من السائبة، والوصيلة، والبحيرة، والحامي وغير ذلك، وأنها لم تصر حرامًا بتحريهم، فكل ملك ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق، كما أن الله خلق عباده مسلمين منيبين لقبول الهداية، فاستخفتهم الشياطين، وأزالتهم عما كانوا عليه من الحق إلى

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٨٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الجنة. باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. برقم (٧٢٠٧)، بمثله مطولاً (١١٧٤). موسوعة الحديث الشريف.

الباطل)(١).

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في كلا الخصلتين، حين نص على أن جميع العباد خُلقوا على الدين الحق، فهم جميعًا مفطورون على فطرة الإسلام، وأن ما حصل من العباد من كفر وعصيان، هو تغيير من قِبل الآباء والأمهات. لهذا شبه النبي ﷺ استقامة الفطرة في أولها على البهيمة التي ولدت وهي كاملة الأعضاء لا نقص فيها، وشبه تغيير الفطرة السليمة المفطورة على الدين الحق باستحلالهم الحرام، أو تحريمهم الحلال، وإشراكهم في عبادة الله بالتغيير الحاصل لِخلقة البهيمة، إما بشق آذانها، أو جلودها... بعد أن كانت كاملة الخلق عند ولادتها. قال ﷺ عن ذلك: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه؛ كما تنتج البهمية بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم الذين تجدعونها»، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٢)) (٣).

---

(١) المنهاج (١٩٨٧).

(٢) سورة الروم، الآية: (٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام برقم (١٣٥٨، ١٣٥٩) بمثله، وفي كتاب التفسير، باب (لا تبديل لخلق الله) برقم (٤٧٧٥)، بمثله، وفي كتاب القدر. باب الله أعلم بما كانوا عاملين برقم (٦٥٩٩) بمثله (١٠٦، ٤٠٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب القدر. باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين برقم (٦٧٥٥، ٦٧٥٦، ٦٧٥٧) بمثله وبرقم (٦٧٥٨، ٦٧٥٩، ٦٧٦٠)، بنحوه (١١٤١). موسوعة الحديث الشريف.

قال ابن حجر – رحمه الله – والمراد: (أن الناس متمكنون من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن حسن الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد، فها هي البهيمة تلد الولد كامل الخلقة، فلو ترك كذلك كان بريئًا من العيب، لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه مثلاً، فخرج عن الأصل)[١].

أيضًا خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية حين نهى عن كل ما من شأنه فيه تغيير لخلقة الله تعالى الظاهرة في عباده كنهيه عن الوشم[٢]، والوصل[٣]، والتفلج[٤]، وعن الاختصاء[٥]، وعن شق أذان الأنعام وغيرها كثير... لا مجال لحصرها، فما قيل سابقًا للذكر لا للحصر، فقال ﷺ: «لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة»[٦]، وقال أيضًا: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٤٩).

(٢) الوشم وهو بأن تغرز المرأة ظهر كفها، أو معصمها بإبرة حتى تدميه، ثم تحشوه بالكحل، فيخضر، أو تجعل في وجهها الخيلان بكحل، أو مداد. انظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٠٤).

(٣) الوصل: وهو بأن تصل المرأة شعرها بشعر غيرها، تريد بذلك أن يظن بها طول الشعر، أو أن يكون شعرها أصهب. انظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٠٤).

(٤) التفلج، وهو أن تقوم النساء ببرد أسنانهن ليتباعد بعضها عن بعض قليلاً، وتحسنها. انظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٠٤).

(٥) الاختصاء وهو رض الخصيتين، وهي وسيلة لقطع النسل، وقطع الشهوة. انظر: عمدة القارئ (١٨/ ٢٠٨)، كشاف القناع (٣/ ٦)، لسان العرب (١/ ١٩١).

(٦) سبق تخريجه ص(٤٦٤).

الله..» [١].

كما نهى - عليه الصلاة والسلام - عن أن يختصي الرجل، فقال له الرجل: أتأذن لي في الخصاء فقال له: «صم وسل الله من فضله»[٢]، كما (نهى عن إخصاء الخيل والبهائم)[٣].

كما توعد النبي ﷺ كل من حرم حلالاً أحله الله حين ذكر عاقبة أول من غير في دين الله بتسييب السوائب، والوصيلة، والبحيرة فقال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي[٤] يجر قصبة في النار كان أول من سيب السوائب والوصيلة...)[٥] فيدخل ضمن هذا الوعيد كل من نهج نهج عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير باب (ما أتاكم الرسول فخذوه) برقم (٤٨٨٦) بمثله في كتاب اللباس. باب المتفلجات للحسن برقم (٥٩٣١) بمثله وفي باب الموصولة برقم (٥٩٤٣) بمثله وباب المستوشمة برقم (٥٩٤٨) بمثله (٤١٨، ٥٠٣، ٥٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله تعالى برقم (٥٥٧٣) بمثله وزيادة في آخره (١٠٥٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥١٠٢، ١٥١٧١) بمثله (١٠٣٢، ١٠٣٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٤٧٦٩) بمثله (٣٦٧).

(٤) هو: عمر بن لحي بن قمعة بن خندق الخزاعي من بني خزاعة، فهو أول من نصب الأصنام، وأول من بحر البحائر والسوائب. انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٨٧، ٢١٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المناقب. باب قصة خزاعة برقم (٣٥٢١) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) برقم (٤٦٢٣، ٤٦٢٤) بمثله (٢٨٧، ٣٨١)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الجنة. باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء برقم (٧١٩٢، ٧١٩٣) بنحوه (١١٧٣). موسوعة الحديث الشريف.

عامر الخزاعي؛ فقد بيّن لنا الشارع أحكام هذا الدين الحنيف في محكم كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بيانًا شافيًا، ووافيًا، وحثنا الشارع على اتباع نبينا محمد ﷺ، وحذرنا من الابتداع في الدين بتغيير الأحكام المترتبة علينا في ظواهرنا، أو بتغيير ما جبلنا عليه من أساس الخلقة السليمة.

وما يأسف عليه المسلم في هذا العصر الحاضر ظهور مثل هذه الخصال الجاهلية بوضوح على أرض الواقع، كالمناداه بعمليات التجميل خاصة بين النساء، والاستمراء على كثير من المحرمات كالنمص، والوشم.. وكتغيير الجنس من أنثى لذكر والعكس، والاستنساخ(١) للحيوانات، ومحاولة استنساخ البشر، والعبث بالجينات في الإنسان والحيوانات، وغيرها من الأمور الداخلة في تغيير الخلقة التي خلق الله عليها العباد... فالله المستعان.

* * *

---

(١) وهو محاولة إنتاج جنين من خلية جسدية ثم تنشيطها بعوامل طبية ومن ثم زرعها في رحم أم بديلة.

للاستزادة انظر: آيات الله المبصرة: أ. د. توفيق علوان. دار بلنسية. الرياض، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص(١٢٩ – ١٧٨).

المسألة الحادية عشرة بعد المائة
اتحاد المخلوق بالخالق كما تقوله النصارى فرده الله بقوله : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١] وما بعدها

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من النصارى في زعمهم أن الخالق سبحانه وتعالى قد اتحد بالمخلوق، وهو عيسى عليه السلام، وتمازجا كما يمازج اللبن الماء، فصار عيسى - عليه السلام - في جانب الألوهية تامًا كله، والإنسانية تام بها كله، وليس أحدهما غير الآخر، وكلاهما هو الآخر.

وقد نص النصارى على هذا الزعم الباطل في كتبهم، بأقوال نسبوها لعيسى - عليه السلام - فقالوا على لسانه: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... حتى تعرفوا وتؤمنوا أن الأب فيّ وأنا في الأب... مثلما أنت وأنا واحد... مثلما أنت فيّ وأنا فيك... أنا فيهم وأنت فيّ[٢]... ظهر الله في الجسد وتبرّر في الروح...)[٣].

قال العلماء - رحمهم الله - عن مراد النصارى بهذا الزعم: لقد زعم النصارى أن عيسى إله تام كله، وإنسان تام كله، حين اتحدت الكلمة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٥٩).

(٢) إنجيل يوحنا (١:١)، (١٠: ٣٨)، (١٧: ١١، ٢١، ٢٢، ٢٣).

(٣) رسالة بولس إلى تيموثاوس (٣: ١٦).

بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته، ومازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر، أو الماء اللبن، فولدته مريم[(١)] - عليه السلام - بذلك إلهًا أزليا[(٢)].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية من النصارى في هذه الخصلة بالنص على بطلان هذا الزعم الباطل، وبإثبات وحدانيته تعالى في ألوهيته وربوبيته، وأسمائه، وصفاته، وعلى عبودية عيسى - عليه السلام - لله تعالى وحده، وبإقرار عيسى - عليه السلام بذلك -.

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على بطلان هذه الخصلة الجاهلية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٣)].

قال المفسرون في تفسيرهم لهذه الآية: لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن خلقه لعيسى عليه السلام من أنثى من غير ذكر، ليس بأعجب من خلقه تعالى لآدم - عليه السلام - من غير ذكر، ولا أنثى، وقد أراد الله تعالى بذلك أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر، ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر؛ بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق

---

(١) مريم بنت عمران بن يصهر، كفلها زكريا بن ازن عليه السلام، كان أبوها صاحب صلاة بني إسرائيل، وأمها من العابدات، لما أنجبت أم مريم مريم كانت قد نذرتها لخدمة بيت المقدس، وقد اصطفى الله مريم بأن أنجبت عيسى عليه السلام من غير أب. انظر: البداية والنهاية (٢/ ٥٦، ٥٩).

(٢) انظر. الفصل في الملل والنحل (١/ ٤٩)، كتاب الإرشاد: للجويني (٤٨)، الملل والنحل (١٠١)، الجواب الصحيح (١/ ٣٥٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٥٩).

بقية البرية من ذكر وأنثى[١].

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - معلقًا على هذه الآية: (لقد أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن عيسى نظير آدم في التكوين، بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجودُ سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يُقر بوجود آدم من غير أب ولا أم؟ ووجود حوَّاء من غير أم؟ فآدم وعيسى - عليهما السلام - نَظِيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به)[٢].

أيضًا من الأدلة الواردة على بطلان هذا الزعم، حين نص الشارع على الدافع الذي دفع النصارى للزعم بمثل هذا القول الباطل، وهو غلوهم في دينهم، ومن ثم غلوهم في عيسى عليه السلام، في حين اشتملت الآيات أيضًا على تقرير رسالة عيسى عليه السلام، وعلى تنزه البارئ عما يزعمه الكفار من وجود الشركاء معه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٩٣)، تفسير القرطبي (٤/ ١٠٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٩)، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث. للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الشافعي. ت: د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. بيروت لبنان، (ط١)، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص(٧٩).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٠٤).

وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - والمراد: (أي يا أهل الإنجيل من النصارى، لا تتجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق، إنما عيسى عليه السلام رسول الله أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ﴾ تنزيه من الله لنفسه، وتعظيم، ورفع لها عما يزعمه هؤلاء الكفار)(٢).

ثم أخبر سبحانه في آيات أخر بتقريره لعبودية عيسى - عليه السلام - لله، وبإقرار عيسى - عليه السلام - بنفسه بذلك، فقال تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾(٣).

قال الطبري - رحمه الله - والمراد: (أي لن يأنف عيسى - عليه السلام -، ولن يستكبر عن أن يكون عبدًا لله)(٤).

وقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾(٦). قال الطبري أي: (قول الحق بأن عيسى - عليه السلام - هو

(١) سورة النساء، الآية: (١٧١).
(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٢، ٣٧٥).
(٣) سورة النساء، الآية: (١٧٢).
(٤) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٦).
(٥) سورة المائدة، الآية: (٧٥).
(٦) سورة مريم، الآية: (٣٤).

عبد الله ورسوله، وكلمته، وروحه الذي فيه يختصمون، ويختلفون)[١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾[٣].

لهذا ذم الشارع كل من زعم بمثل هذا الزعم، وتوعده بالنار، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[٥]. قال الطبري: أي: (أن من زعم بمثل هذا الزعم، وأشرك في عبادة الله فمرجعه، ومكانه في معاده نار جهنم، ولن يجد له من ينصره يوم القيامة أو ينقذه منها)[٦].

وقد خالف هدي النبي ﷺ النصارى في هذه الخصلة، وذلك بنصه

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٤١).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٧٢).

(٣) سورة الصف، الآية: (٦).

(٤) سورة المائدة، الآية: (١٧).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٧٢).

(٦) تفسير الطبري (٤/ ٦٥٢).

على أن عيسى - عليه السلام - عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها تعالى إلى مريم، فقد ورد عنه ﷺ حين جاءه وفدٌ من نصارى نجران (قائلين: يا محمد، فيم تشتم صاحبنا؟ قال: من صاحبكما! قال: عيسى ابن مريم، تزعم أنه عبد! قال رسول الله ﷺ: «أجل، إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» فسألوه أن يخبرهم بمثل حين يعودون في الغد، فلما عادوا من الغد، أخبره جبريل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[١] فقرأها عليهم)[٢].

كذلك خالف - عليه الصلاة والسلام - أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين جعل الإقرار بعبودية عيسى - عليه السلام - لله من التوحيد، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسير الآية (٥٩) من سورة آل عمران برقم (٧١٦٠) بمثله مطولاً (٣/ ٢٩٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب أحاديث الأنبياء. باب (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) برقم (٣٤٣٥) بمثله (٢٨٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا برقم (١٤٠) بمثله (٦٨٦). موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه ابن منده في كتاب الإيمان (١/ ١٨٨، ٥١٠) بمثله، والالكائي في اعتقاد أهل السنة (٦/ ١٢٥٦) بمثله.

قال الإمام النووي - رحمه الله - معلقًا على هذا الحديث: (هذا الحديث عظيم الموقع، وهو أجمع، أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها)(١).

لهذا حرص النبي ﷺ على وقاية أمته من الوقوع فيما وقعت فيه النصارى تجاه نبيهم فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله» (٢).

قال أهل العلم والإطراء هو: المديح بالباطل، ومجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه كما تجاوزت النصارى في عيسى - عليه السلام -، في دعواهم بألوهيته(٣).

وقد تضمن منع النبي ﷺ في الحديث السابق على أمرين: ذم النصارى على عملهم هذا الذي أوصلهم إلى درجة القول بألوهية عيسى - عليه السلام -، وحرصه على أمته عليه الصلاة والسلام حين منعهم عن الذريعة الموصولة إلى ما وصل إليه النصارى مع نبي الله عيسى - عليه السلام -.

كذلك حرص علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة على إبطال قول

---

(١) المنهاج (١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب أحاديث الأنبياء. باب (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) برقم (٣٤٤٥) بمثله، وفي كتاب الحدود. باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت برقم (٦٨٣٠) بمثله ومطولاً (٢٨١، ٥٦٩)، وأخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨/ ١٤٧٨) بمثله.

(٣) انظر. فتح الباري (٦/ ٤٩٠)، عمدة القارئ (١٦/ ٢٧).

النصارى بأن الخالق اتحد بالمخلوق، وأنه سبحانه وتعالى قد اتحد بعيسى - عليه السلام -، فقالوا عن ذلك:

إن الشيئين إذا اتحد أحدهما بالآخر، فعند حصول الاتحاد إما أن يكونا باقيين، أوفانيين، أو يكون أحدهما باقيًا، والآخر فانيًا. فإن كانا باقيين فهما اثنان لا واحد، فلا معنى للاتحاد، وإن كانا فانيين فقد عدما، فلا اتحاد، وإن فني أحدهما، وبقي الآخر. فالاتحاد أيضًا محال؛ لأن الموجود لا يكون عين المعدوم، لهذا فبطلان القول بالاتحاد ثبت بالبراهين القاطعة، وعلى هذا فالقول به جهل صرف، كما أن ذات الباري سبحانه وتعالى لو اتحدت بشيء؛ فإما أن يقال: إن ذاته بعد الاتحاد كما هي قبل الاتحاد أو تغير، فإن كان الثاني لزم وقوع التغيير في ذاته، وهو محال، وإن كان الأول فالقول بالاتحاد جهل صرف، كما مر الكلام فيه فثبت أنه سبحانه منزه عن الاتحاد.

كما أن جميع خطابات عيسى - عليه السلام - للنصارى جاءت بخطاب أنه رسول ونبي، كما ثبت ذلك عنه في عامة المواضع. والنصارى في قولهم هذا شر من قول اليهود: إنه فقير، وإنه بخيل، وذلك لأنه لزم عنه أن يكون رب العالمين قد أصابه ألم الجوع، والعطش، والضرب والصلب على قولهم... لهذا فعلم بالاضطرار من دين محمد ﷺ، وبالنقل المتواتر عنه، وبإجماع أمته إجماعًا يستندون فيه إلى النقل عنه، وبكتابه المنزل، وسنته المعروفة عنه: أن المسيح عبد الله ورسوله، ليس هو إلا رسولاً، وأنه وجيه في الدنيا والآخرة، وأن أمه صديقة، كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها

أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. فمن قال بأنه هو الله فقد كفر(١).

وبعد: فحين وجدت هذه الخصلة عند النصارى، كذلك وجد نظيرًا لها أيضًا بين من ينسبون أنفسهم للإسلام، والإسلام بريء منهم، ممن غلو في أنبيائهم وشيوخهم وأئمتهم، كغلاة الصوفية، وغلاة الشيعة، وفرقة الاتحادية التي هي شرٌ من النصارى في قولهم، وذلك لأنهم جعلوا الوجود بأسره على اختلاف أنواعه، وتقابل أضداده مما لا يسوغ التلفظ بحكايته هو المعبود، علاوةً على اللوازم الباطلة التي تلزم عن القول بمثل هذا القول الباطل(٢).

---

(١) انظر: كتاب الإرشاد (٤٦، ٥١)، دقائق التفسير (١/ ٧٥، ٩٣)، الجواب الصحيح (١/ ٢٩٣، ٣٦٩)، البرهان القاطع في إثبات الصانع: لابن الوزير اليماني ويليه الملحة في اعتقاد أهل الحق ويليه الأنواع في علم التوحيد ويليه رسالة في التوحيد لعبد العزيز السلمي ويليه المسائل الخمسون في أصول الدين لفخر الدين الرازي. ت: أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (١١٩، ١٢٠)، تيسير العزيز الحميد (٥٩، ٦٠)، القول المفيد (١/ ٦٨، ٦٩)، دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية (٢٩٦، ٢٩٨).

(٢) للاستزادة: انظر: الفرق بين الفرق (٢٣٧)، الفتاوى (١/ ٦٦)، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد: لابن تيمية. ت: د. موسى بن سليمان الدويش. مكتبة العلوم والحكم. المدينة (ط٣)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م (٤٧٣)، الجواب الصحيح (١/ ٣٧١)، جامع الرسائل (١/ ٢٠٤)، الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨٥)، الروح (٢٦٠)، معارج القبول (١/ ٣٧٠)، مصرع التصوف (٢٢٦)، أصول مذاهب الشيعة (٢/ ٦١٨، ٦٢٨)، دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها. لـد. ناصر بن عبدالكريم العقل. دار أشبيليا، الرياض. (ط٢)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص(٢٧١)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند.

المسألة الثانية عشرة بعد المائة
أنهم حملوا العلم فلم يحملوه حقيقة فشبهوا بالحمار يحمل أسفارًا

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين آتاهم الله كتبًا اشتملت على الحق والنور، فعلموا ما بها، ولم يعملوا بمقتضاها، ولم يدعوا إلى ما دعت إليه، فكانت حالهم في عدم استفادتهم من هذه الكتب، كحال الحمار الذي يحمل كتبًا من كتب العلم على ظهره، فلا يستفيد منها، فلم يكن حظه منها إلا عبء الحمل، والتعب.

لهذا دعا الشارع إلى مخالفتهم حين ذمهم في محكم كتابه على هذه الخصلة، مع العلم أن هذا الذم شاملٌ لكل من حمل كتاب الله ولم يعمل به، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير الآية: (جعل الله مثل الذي يقرأ الكتاب، ولا يتبع ما فيه، كمثل الحمار يحمل كتاب الله الثقيل ولا يدري ما فيه)[2].

وقال الطبري – رحمه الله – في بيان المراد بالآية: (مثل الله الذين أوتوا

(١) سورة الجمعة، الآية: (٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٩٢).

التوراة من اليهود والنصارى، فحملوا العمل بها، ثم لم يعملوا بما فيها... كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها)(١).

وقد قال العلماء: (يدخل في عموم هذه الآية من يحفظ القرآن من أهل ملتنا، ثم لا يفهمه ولا يعمل بما فيه)(٢).

ويقول القرطبي - رحمه الله - عن هذه الآية: (في هذه الآية تنبيهٌ من الله تعالى لمن حمل الكتاب، أن يتعلم معانيه، ويعلم بما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء)(٣).

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في بيان هذه الآية: (لقد قاس الله سبحانه وتعالى من حمّله كتابه ليؤمن به ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، وعمل بموجبه، كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره، وهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدّ حقه ولم يرعه حق رعايته)(٤)...

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٩٢)، وانظر: أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٤٤٣).

(٢) الحوادث والبدع: للطرطوشي (١٠١).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٨٤).

(٤) أعلام الموقعين (١/ ١٢٥)،للاستزادة انظر. هداية الحيارى (٢٣٥)، الأمثال في القرآن: لابن قيم الجوزية. ص(٢١٣)، بدائع الصنائع (١٧٤).

وقد ذم الله - عز وجل - من تعلم الكتاب، وترك العمل به في موضع آخر من كتابه، حين شبه حاله بحال الكلب الذي في كل حين يلهث، إن تركته لهث، وإن طردته لهث، فقال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ ﴾(١).

قال مجاهد - رحمه الله - والمراد بهذه الآية: (مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه، مثل الكلب إن طردته يلهث أو تركته يلهث)(٢).

قال الطبري في بيان الآية: (وقد ضرب الله هذا المثل لمن آتاه الله الآيات فانسلخ منها، بتركه العمل بما آتاه الله منها)(٣).

فالعالم بكتاب الله مأمور أن ينفع نفسه بكتاب الله بالعمل به، وأن ينفع به غيره بدعوة الآخرين إليه، لهذا ذم الشارع - عز وجل - من عندهم علمٌ من الكتاب، فدعوا الناس إليه، إلا أنهم في أنفسهم تركوا العمل به، قال تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾(٤).
قال الطبري والمراد أي (يَدْعون الناس إلى القول، والعمل بما يرضي الله، في

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٧٦).
(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٢٧).
(٣) تفسير الطبري (٦/ ١٢٨).
(٤) سورة البقرة، الآية: (٤٤).

حين هم يَدَعون العمل به)[١].

لهذا كانت مخالفة الشارع لأهل الكتاب في هذه الخصلة، بنصه سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه يحث فيها عباده على تدبر آيات الكتاب، والاتعاظ بها، والعمل بشرائعه، قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[٢]. قال أهل العلم أي: ليتدبروا هذا القرآن، وليتدبروا ما فيه من الحجج، وما شرع فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به[٣].

كما خالف الشارع أهل الكتاب في هذه الخصلة حين نص على تعليق الوصف بالإيمان لمن قرءوا كتابه، أو قرئ عليهم فاتبعوا ما فيه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾[٤] قال ابن عباس - رضي الله عنه - عن ذلك: (أي يتبعونه حق اتباعه)[٥].

وقال قتادة - رحمه الله - أيضًا: (أي أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بما فيه)[٦].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٩٦).

(٢) سورة ص، الآية: (٢٩).

(٣) انظر. تفسير الطبري (١٠/ ٥٧٦)، بدائع الصنائع في علوم القرآن (٤٤٢، ٤٤٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٢١).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٥٦٨).

(٦) تفسير الطبري (١/ ٥٦٨).

تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[(١)].

قال الطبري – رحمه الله – والمراد أي: (المؤمن الذي إذا ذُكر الله وجل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفرقًا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن بها، فاتبع ما أنزله الله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه)[(٢)].

كذلك خالف أهل الكتاب، حين بيّن أن ثمرة العلم بالكتاب هي العمل بما دل عليه فقال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾[(٣)].

قال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – والمراد بهذه الآية: (بأن الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، أثمر لهم إيمانًا تامًا عامًا، وأثمر لهم الأعمال الصالحة... فأولئك سيؤيتهم الله الأجر العظيم، لأنهم جمعوا ما بين العلم والإيمان، والعمل الصالح)[(٤)].

كما وعد الشارع عباده العالمين بكتابه، العاملين به برفع درجاتهم على غيرهم، فيستدل من هذا على أن أهم شيء يتعلق بالقرآن بعد فهمه العمل به، قال تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٢).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٧٧).

(٣) سورة النساء، الآية: (١٦٢).

(٤) تفسير ابن سعدي (٢١٤).

ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾[١]. قال الطبري: أي (يرفع أهل العلم من أهل الإيمان بفضل علمهم درجات، إذا عملوا بما أمروا به)[٢].

فالعلم بكتاب الله علم عظيم، وثمرته عظيمة على نفس الفرد، وعلى من حوله، لهذا لابد للعبد أن يتعلم كتاب الله، وأن يعمل به، فهو ثمرةٌ لازمةٌ للعلم، وأن يدعو الآخرين إليه، بصبر واحتساب على أمره كله.

لهذا أقسم الشارع - عز وجل - بأن كل إنسان خاسر إلا من عرف الحق، وعمل به ودعا إليه، وصبر على علمه، وتعليمه، والدعوة إليه فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٣].

قال أهل العلم والمراد: بأن من استكمل هذه المراتب الأربع، تحصل على غاية الكمال: وهي الإيمان بما أمر الله عز وجل، ولا يكون الإيمان بدون العلم، والعمل الصالح بما علم، وتعليمه من لا يحسنه، والصبر على تعلمه، والعمل به، وتعليمه، فنهاية الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية، وصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل[٤].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: (١١).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ١٩).

(٣) سورة العصر، الآيات: (١ - ٣).

(٤) انظر: تفسير ابن سعدي (٩٣٤)، مفتاح دار السعادة (١/ ٥٦، ٥٧).

إن جميع الآيات التي حث فيها الشارع عز وجل عباده على تدبر آياته، وآيات الأحكام والشرائع هي آياتٌ دالة دلالة إلزامية على وجوب العمل بها.

كذلك الآيات التي بيّن فيها الشارع وجوب العمل بالعلم، وفضله، وتفضيل أهله العاملين بما علموا من كتاب الله برفع درجاتهم على غيرهم دلت على وجوب العمل بآيات القرآن، إلا أنه لا مجال لحصر هذه الآيات الدالة على دعوة الشارع لمخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، فما استشهدت به من آيات كان على سبيل الذكر لا الحصر.

وقد خالف النبي ﷺ أهل الكتاب في هديه، حين دعا أمته إلى تعلم كتاب الله والعمل به، فقد جاءت دعوته في مخالفة هذه الخصلة، بعدة وسائل وصور: إما بنسبة الغبطة لمن تعلم كتاب الله تعالى، وعمل به، أو بالنص على الخيرية لمن تعلم كتاب الله وعلمه، أو بالتحذير من مغبة العلم الخالي من العمل.

فقال ﷺ: «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب، وقام به آناء الليل وآناء النهار». وفي رواية بلفظ «آتاه الله القرآن» (١).

قال ابن حجر والمراد ((بالقيام به): العمل به مطلقًا، أعم من تلاوته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب فضائل القرآن. باب اغتباط صاحب القرآن برقم (٥٠٢٥، ٥٠٢٦) بمثله (٥٣٥) وفي كتاب التوحيد. باب قول النبي ﷺ: (رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أتيت مثل أوتي هذا فعلت كما يفعل، فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله برقم (٧٥٢٨، ٧٥٢٩) بمثله (٦٢٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين (فضائل القرآن). باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمه من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها برقم (١٨٩٤، ١٨٩٥، ١٨٩٦) بمثله (٨٠٥). موسوعة الحديث الشريف، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٨).

داخل الصلاة، أو خارجها، ومن تعليمه، والحكم والفتوى بمقتضاه)(١).

وقال النووي - رحمه الله -: (أي يعمل به، ويعلمه احتسابًا)(٢)...

كما بيّن الخيرية بقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(٣).

قال أئمة العلم عن المراد بهذا الحديث: أي أفضلكم من تعلم القرآن حق تعلمه بالإحاطة بالعلوم الشرعية أصولها، وفروعها، وعلم غيره، فهو شخص كامل في نفسه مكمل لغيره، بتعلمه للقرآن وتعليمه غيره(٤).

كذلك حين نص عليه الصلاة والسلام على شفاعة القرآن لمن عمل به، فقال عليه الصلاة والسلام: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»(٥).

قال أحد العلماء: (دل هذا الحديث على أن من قرأ، ولم يعمل به لم يكن من أهل القرآن، ولا يكون شفيعًا لهم؛ بل يكون القرآن حجة عليهم)(٦).

وحذر أيضًا - عليه الصلاة والسلام - من عدم العمل بما ورد في

---

(١) فتح الباري (١/ ١٦٧).

(٢) المنهاج (٦٦١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب فضائل القرآن. باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه برقم (٥٠٢٧) بمثله (٤٣٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) انظر: عون المعبود (٦٦٧)، بدائع الصنائع (٤٤٩).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين (فضائل القرآن). باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. برقم (١٨٧٤) بمثله (٨٠٤) موسوعة الحديث الشريف.

(٦) تحفة الأحوذي (٢/ ٢١٤٤).

كتاب الله، فقال - عليه السلام -: «القرآن حجة لك أو عليك» [١].

قال بعض أهل العلم والمراد: أن القرآن يكون حجةً لصاحبه إذا آمن بأخباره، وصدق به، وعمل بأحكامه، ويكون حجةً على صاحبه إذا لم يؤمن بأخباره، ولم يعمل بأحكامه[٢].

لهذا كان الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يتجاوز الرجل منهم ما حفظ من الآيات لحفظ غيرها، حتى يعلم معاني ما حفظ، ويعمل بما حفظ، بل وكان البعض منهم يمكث[٣] السنوات في حفظه لبعض السور، حرصًا منهم على معرفة معاني الآيات، وتطبيقًا للأحكام.

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن ذلك: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن، حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن، فتعلمنا القرآن، والعمل جميعًا)[٤].

وقد قال العلماء عنهم: إنهم كانوا يتعلمون الفرائض، والأحكام، والحلال، والحرام، والوعد، والوعيد، وغير ذلك من الأحكام[٥].

لهذا قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (لا يغرركم من قرأ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب فضل الوضوء. برقم (٥٣٤) بمثله (٧١٨). موسوعة الحديث الشريف، الإيمان لابن منده (١/ ٣٧٤)، اعتقاد أهل السنة (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر: المنهاج (٣١٣)، شرح رياض الصالحين (٣/ ١٩١).

(٣) فقد روى الإمام مالك في موطئه (أنه بلغه أن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها) كتاب الصلاة. ما جاء في القرآن برقم (٤٧٥) بمثله (٢/ ٤١٣). المنتقى.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤)، الفتاوى (١٥/ ١٠٨)، (١٣/ ٣٠٨، ٣٣١، ٤٦٥، ٤٠٣).

(٥) كتاب الحوادث والبدع: للطرطوشي (٩٧) بتصرف.

القرآن، إنما هو كلام نتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به)[١].

وقال الفضيل بن عياض – رحمه الله – عن العمل بالقرآن: (إنما أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملاً، فقيل: كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبة)[٢].

وبعد فإنه لا يخفى انبلاج هذه الخصلة وبوضوح لدى من عمد إلى تحريف الآيات، أو تأويلها بتأويلات مفتراة على الله ورسوله من الروافض، والاتحادية[٣]. وغيرهم من أهل الكلام الذين حفظوا الآيات، ونفوا ما تقتضيه وتدل عليه.

كما أنه لا يخفى على أحدٍ من أهل هذا الزمان أن هذه الخصلة تمثلت وبوضوح في زمننا الحاضر، حيث اعتنى الكثير من المسلمين في البلاد الإسلامية بتحفيظ آيات القرآن الكريم، فأتقن الكثير حفظه، في حين أن الكثير ممن أتقنوا حفظه، قد أتقنّوا حفظ حروفه، وضيعوا حدوده.

فالله المستعان.

* * *

(١) اقتضاء العلم والعمل: للخطيب البغدادي، ت. محمد ناصر الألباني. مكتبة المعارف. الرياض (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص(٧١).

(٢) اقتضاء العلم والعمل: للخطيب البغدادي (٧٥).

(٣) للاستزادة انظر: الصواعق المرسلة (١/ ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣).

المسألة الثالثة عشرة بعد المائة
تصوير أنبيائهم وصالحيهم فحذر عنه أشد التحذير

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية النابعة من غلوهم في أنبيائهم وصالحيهم عند أهل الكتاب والأميين على حد سواء، وهي تصويرهم لأنبيائهم وصالحيهم.

فقد غلا النصارى في عيسى - عليه السلام - ومريم، فنصبوا لهما التماثيل في كنائسهم وعبدوهما، كما غلا قوم نوح - عليه السلام - في رجال صالحين، فلما هلكوا نصبوا لهم تماثيل بأسمائهم، زعمًا منهم أنهم نصبوها ليتذكروهم عند قيامهم بالعبادات، فيجتهدوا في عبادتهم، إلا أن مقصدهم اندثر بهلاكهم، فمع مرور الزمن عُبدت هذه التماثيل من دون الله، ومن ثَمَّ انتقلت هذه التماثيل إلى مشركي[1] العرب فعبدوها كذلك.

لهذا خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نهى عن الغلو الذي ظهر عند أهل الجاهلية، والذي نتج عنه هذه التصاوير، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ ﴾[2]. قال الطبري: أي (يا أهل الإنجيل من النصارى، لا تتجاوزوا الحق في دينكم، فتفرضوا في عيسى غير الحق، إنما عيسى رسول

(١) انظر: بلوغ الأرب (٢/ ٢٠٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٧١).

الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه)(١).

وقد أخبر - سبحانه وتعالى - في محكم كتابه عما نجم عن هذه التماثيل التي نصبها قوم نوح، ومشركوا العرب على صورة صالحيهم بأنها السبب في ضلالهم فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾(٢).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية: (هذه أسماء رجال صالحين، من قوم نوح، لما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموهم بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت)(٣).

وقال الطبري - رحمه الله - في بيان معنى الآية: (وقد أخبر الله عن جيل نوح أنه قد ضلّ بعبادة هذه الأصنام التي أحدثت على صور هؤلاء النفر المسلمين في هذا الموضع كثير من الناس)(٤).

وقال تعالى ناهيًا عن هذه الخصلة: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾(٥).

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) سورة نوح، الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير. باب (ودًا وسواعًا ولا يغوث) برقم (٤٩٢٠) بمثله (٤٢٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٢٥٥).

(٥) سورة النمل، الآية: (٦٠).

قال مجاهد – رحمه الله – عن دلالة هذه الآية: (يستدل من هذه الآية على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن)[(١)].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[(٢)]. قال الطبري – رحمه الله – عن الآية: (وقد عنى بذلك أصحاب التصاوير، وذلك أنهم يرومون تكوين خلق مثل خلق الله)[(٣)].

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالتحذير منها، كما في الحديث الوارد عن عائشة – رضي الله عنها -: أن أم سلمة[(٤)] ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[(٥)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٩٨).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٥٧).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٣٣٠).

(٤) هي: رملة بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية، وهي أم المؤمنين، زوجة رسول الله ﷺ، تزوجها رسول الله ﷺ بعد وفاة زوجها أبي سلمة، روت عن رسول الله الكثير من الأحاديث، وهي آخر من توفيت من زوجاته. اختلف في تاريخ وفاتها فقيل ٥٩هـ، وقيل ٦٠هـ. انظر: الإصابة ص(١٨٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجنائز. باب بناء المسجد على القبر برقم (١٣٤١) بمثله، وفي كتاب الصلاة. باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد برقم (٤٢٧) بمثله (٣٦، ١٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد برقم (١١٨١) بمثله (٧٦٠).
=

قال ابن حجر – رحمه الله – في شرح الحديث: (لقد حذر النبي ﷺ عن مثل هذا الفعل سدًا للذريعة المؤدية إلى الشرك، مما يدل على تحريم التصوير)[١].

وقد تواترت نصوص السنة الدالة على تحريم التصوير، والناهية عنه بعدة أساليب، فتارة بلعن المصورين، كما ورد عنه «أن النبي ﷺ لعن المصور» [٢]، وتارةً ببيان عقوبة المصورين يوم القيامة حين قال ﷺ: «إن الذين يصنعون هذه الصورة يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم، وإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة» [٣]، وقال أيضًا عن ذلك: «إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون» [٤]، وقال أيضًا: «من

=

موسوعة الحديث الشريف.

(١) فتح الباري (١/ ٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب من لعن المصور برقم (٥٩٦٢) بمثله، وفي كتاب البيوع. باب مؤكل الربا برقم (٢٠٨٦) بمثله، وباب ثمن الكلب برقم (٢٢٣٨)، وفي كتاب الطلاق. باب مهر البغي والنكاح الفاسد برقم (٥٣٤٧) بمثله (١٦٢، ١٧٣، ٤٦٢، ٥٠٥)، موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب عذاب المصورين يوم القيامة برقم (٥٩٥١) بمثله (٥٠٤)، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (والله خلقكم وما تعملون) برقم (٧٥٥٨) بمثله (٦٣١)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم الصور صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة برقم (٥٥٣٣) بنحوه وزيادة في أوله وآخره، وبرقم (٥٥٣٥) بمثله (١٠٥٥، ١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب عذاب المصورين يوم القيامة برقم (٥٩٥٠) بمثله (٥٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم الصور صورة الحيوان

=

صور صورة في الدنيا كُلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ»[١]، وقال أيضًا: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه في جهنم»[٢].

قال ابن حجر في معاني الأحاديث السابقة: (عظمت عقوبة المصور؛ لأن الصور كانت تعبد من دون الله، ولأن النظر إليها يفتن، وبعض النفوس إليها تميل، والمراد بالصور هنا التماثيل التي لها روح، لهذا عذب المصور بأمره أمر تعجيز، وهو أن ينفخ الروح في الصورة التي صورها، وهو لا يقدر على ذلك، فيستمر تعذيبه)[٣].

وفي حين نبه النبي ﷺ إلى شدة عقوبة المصور كما هو ظاهرٌ في الأحاديث السابقة، كذلك نبه إلى أن الصور من الأسباب المنفرة للملائكة، والمانعة من دخولها للبيت، وبالتالي الحرمان من الرحمة.

لهذا نهى النبي ﷺ عن تعليق الصور في البيوت، أو أن تكون على

=

برقم (٥٥٣٧، ٥٥٣٨، ٥٥٣٩) بمثله (١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب اللباس. باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ برقم (٥٩٦٣) بمثله (٥٠٥)، وفي كتاب البيوع. باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك برقم (٢٢٢٥) بمثله (١٧٢)، وفي كتاب التعبير باب من كذب في حلمه برقم (٧٠٤٢) بمثله (٥٨٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم الصور والصورة برقم (٥٥٤١) بمثله (١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم الصور صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه برقم (٥٥٤٠) بمثله (١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (١٠/ ٣٨٤).

الثياب، فأمر بإزالتها، وامتهانها.

فقد ورد عن عائشة - رضي الله عنها - أم المؤمنين قالت: إنه لما قدم النبي ﷺ من سفر، وقد سترت بقرام على سهوة لي فيها تماثيل، فلما رآه النبي ﷺ هتكه، وقال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. قالت: فجعلناه وسادة أو سادتين» (١).

وفي دلالة هذا الحديث قال الخطابي - رحمه الله -: (وفي هذا دليل على أن الصورة إذا غيرت بأن يقطع رأسها أو تحل أوصالها حتى تغير هيئتها عما كانت لم يكن بها بعد ذلك بأس)(٢).

وقالت أيضًا: (لم يكن يترك النبي ﷺ في بيته فيه تصاليب إلا نقضه)(٣). قال ابن حجر - رحمه الله -: (وقد استنبط العلماء من نقضه للصليب نقض الصور التي تشترك مع الصليب في المعنى، وهو عبادتهما من دون الله)(٤). كما ورد أن النبي ﷺ أمر علي بن أبي طالب «أن لا يدع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المظالم. باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر أو تخرق. برقم (٢٤٧٩) بمثله، وفي كتاب اللباس باب ما وطئ من التصاوير برقم (٥٩٥٤) بمثله، ص(١٩٥، ٥٠٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم تصوير صورة الحيوان. برقم (٥٥٢٠) بمثله وزيادة في وسطه وأخره (١٠٥٥)، موسوعة الحديث الشريف.

(٢) معالم السنن (٤/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب اللباس. باب نقض الصور برقم (٥٩٥٢) بمثله (٥٠٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) فتح الباري (١٠/ ٣٨٥).

صورةً إلا طمسها»(١).

لهذا حين سئل ابن عباس - رضي الله عنه - عن التصوير قال: (إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه)(٢).

وقد قال العلماء - رحمهم الله – عن الحكم في هذه المسألة: إن تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر لما ورد عليه من الوعيد الشديد في الأحاديث السابقة، كما أن صناعة الصور محرمة بكل حال؛ لأن فيها مضاهاة لخلق الله تعالى، سواء ما كان في ثوب، أو بساط، أو حائط.. أو غيرها، أما تصوير الشجر، ورحال الإبل، وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فلا بأس، كما أن تعليق الصور على الحيطان، أو في الثياب، ونحوها مما لا يعد ممتهنًا محرم شرعًا، ولا بأس إن كان فيما يمتهن كوسادة أو بساط(٣). والله أعلم.

أخيرًا: فإن هذه الخصلة الجاهلية مما عمت به البلوى في هذا الزمان، حيث كَثُرت التصاوير بشتى أنواعها، فتساهل الكثير من المسلمين في

---

(١) أخرجَه مسلم في صحيحه. كتاب الجنائز. باب الأمر بتسوية القبر برقم (٢٢٤٣، ٢٢٤٤) بمثله (٨٣٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب اللباس. باب تحريم تصوير صورة الحيوان.. برقم (٥٥٤٠) بمثله (١٠٥٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) انظر: المنهاج (١٥٨٩)، فتح الباري (١٠/ ٣٩٤)، الإقناع (١/ ٩٢)، شرح العمدة (٤/ ٣٨٩)، الفتاوى (٢٩/ ٣٧٠)، الكبائر للذهبي (٩١)، الآداب الشرعية (٨٤٤)، الزواجر (٢/ ٤١)، شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٦١)، تنبيه اللاهي شرح كتاب المناهي (١٣٣، ١٣٦)، فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٦٦٠، ٧٢٣).

الصور التي ترسم باليد والتماثيل، والصور الفواتغرافية التي تلتقط بآلة الكاميرا للأحياء لغير حاجة، فأصبحنا نرى صور الأحياء في الثياب، وعلى الجدران وفي الأواني ونحوها متناسين الحرمة الشديدة لهذه الصور، والتي جاءت فتاوى العلماء فيها بالتحريم إلا ما دعت إليه الضرورة، كالتصوير من أجل جواز السفر، وبطاقات الأحوال ونحوها من الأوراق اللازمة لإثبات هوية الشخص(١).

ويعزي تهاون البعض من المسلمين في اجتناب ما حرم الله في مثل هذا الأمر نتيجةً للترف الشديد التي طمر حياة الكثير من المسلمين، والانغماس الشديد في المباحات، مما أودى بالبعض منهم إلى إيثار مُتع الدنيا على الوقوف على أحكام الشرع. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) للاستزادة انظر: كتاب الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين. لمحمود بن عبد الله التويجري. ص(١٤٦)، فتاوى اللجنة الدائمة المتعلقة بحكم التصوير وأنواعه (١/ ٦٦٠، ٧٢٣).

المسألة الرابعة عشرة بعد المائة
اتخاذ الكنائس والصوامع والبيع

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة إلى أحد خصال أهل الكتاب من اليهود والنصارى باتخاذ كل منهم بيوتًا لصلواتهم من كنائسٍ، وصوامعٍ، وبيعٍ.

فالمراد بالكنائس: جمع كنيسة، والكنيسة هي متعبد اليهود والنصارى(١).

كما أن **المراد بالصوامع**: جمع صومعة، وهي بناءٌ دقيقة الرأس، وهي منار الراهب وحده(٢).

والمراد بالبِيع: بكسر الباء جمع بِيعةُ وهو متعبد النصارى(٣).

وقد خالف الشارع أهل الكتاب في هذه الخصلة حين أبدل هذه الأمة بالمساجد بيوتًا لإقامة صلواتهم فيها، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(٤).

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في بيان المراد بالبيوت هي:

---

(١) لسان العرب (٦/ ١٩٩).

(٢) لسان العرب (٨/ ٢٠٨).

(٣) انظر القاموس المحيط (٣/ ٨)، مختار الصحاح (٧٢).

(٤) سورة النور، الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(المساجد)(١). ويقول الشيخ ابن سعدي – رحمه الله –: (وهي ما يتعبد لله فيها، وهي أحب البقاع إلى الله تعالى)(٢).

فأمر الله تعالى من يدخلها أن يخلص العبادة لله فيها، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾(٣).

قال الطبري – رحمه الله –: (كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، لهذا أمر الله الناس أن يفردوا له التوحيد، ويخلصوا له العبادة، فالمساجد كلها لله تعالى)(٤). وقد خالف النبي ﷺ أيضًا أهل الكتاب في اتخاذهم للكنائس، والصوامع، والبيع، حين حث أمته على بناء المساجد مبينًا فضلها عند الله تعالى، فقال ﷺ: «من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»(٥)، وحين نص على أنها أحب البقاع إلى الله فقال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها»(٦)، وحين نبه على

(١) تفسير الطبري (٩/ ٣٢٩).

(٢) تفسير السعدي (٥٦٩).

(٣) سورة الجن، الآية: (١٨).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٢٧١) بتصرف.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصلاة. باب من بنى مسجدًا برقم (٤٥٠) بمثله، وزيادة في أوله (٣٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب فضل بناء المساجد والحث عليها برقم (١١٨٩) بمثله، وزيادة في أوله (٧٦٠)، وفي كتاب الزهد. باب فضل بناء المساجد برقم (٧٤٧٠) بمثله، وزيادة في أوله (١١٩٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد برقم (١٥٢٨) بمثله (٧٨٢). موسوعة الحديث الشريف.

وجوب المحافظة على طهارتها، ونظافتها حين قال للأعرابي الذي بال في المسجد: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله - عز وجل -، والصلاة، وقراءة القرآن» (١)، وكذلك حين بيّن - عليه الصلاة والسلام - فضل صلاة الرجل فيها جماعة عن صلاته منفردًا، فقال: «صلاة أحدكم في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعًا وعشرين درجة» (٢)، كما بيّن فضل خطى العبد في سيره للمسجد، وأنه يُعد في صلاة ما دام في المسجد، وتترحم عليه الملائكة ما دام باقيًا فيه فقال: «... إذا توضأ أحدكم فأحسن وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة، حتى يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي يعني عليه الملائكة ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه..» (٣).

وفي حين امتن الشارع على هذه الأمة بالمساجد لإقامة صلواتهم، وحثهم على المحافظة عليها، وعلى ارتيادها في جميع صلواتهم المفروضة،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الطهارة. باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد... برقم (٦٦١) بمثله (٧٢٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب البيوع. باب ما ذكر في الأسواق برقم (٢١١٩) بمثله (١٦٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها وأنها فرض كفاية برقم (١٤٧٩) بمثله (٧٧٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصلاة. باب الصلاة في مسجد السوق برقم (٤٧٧) بمثله (٤٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب صلاة الجماعة من سنن الهدى برقم (١٤٨٨) بنحوه (٧٧٩). موسوعة الحديث الشريف.

كذلك نهاهم في الوقت نفسه عن بناء الكنائس، والصوامع والبِيع في بلاد الإسلام؛ لأنها علامة لشعيرة من شعائر أهل الكفر.

فقد ورد عن النبي ﷺ قال: «لا إخصاء في الإسلام ولا بنيان كنيسة»(١)، وتبعه على ذلك أصحابه الأبرار، فقد ورد أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: (لا تبنى كنيسة في الإسلام ولا يجدد ما خرب منها)(٢).

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: (ليس في الإسلام إخصاء ولا كنيسة محدثة)(٣).

كما وقد دلت أقوال السلف على أن ما كان بلادًا للمسلمين ابتداءً، أو التي أخذها المسلمون من المشركين عنوةً لا يجوز لأهل الذمة أن يبنوا فيها كنائس ولا صوامع، ولا أن يجددوا بناء ما خرب منها(٤).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عن ذلك: (إيما مصر مصّره المسلمون لا يبنى فيه بيعة ولا كنيسة)(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى. كتاب السبق والرمي. باب كراهية إخصاء البهائم برقم (١٩٥٧٨) بمثله (١٠/ ٢٤).

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب. للديلمي الهمذاني. ت: السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٠٦هـ، (٥/ ٢١٧).

(٣) انظر.الفردوس بمأثور الخطاب (٣/ ٣٩١)، تاريخ دمشق (٢/ ١٢٤)، النهاية في غريب الأثر (١/ ١٣٩).

(٤) انظر: موسوعة الإمام الشافعي: الأم (٥/ ٢٧٢)، أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٦ - ٦٩٩).

(٥) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى. كتاب الجزية. باب ما يشترط عليهم أن لا يحدثوا في أمصار المسلمين كنيسة ولا مجمعًا لصلاتهم برقم (١٨٤٩٤) بمثله (٩/ ٢٠١) وفي سننه الصغرى. =

وقد ورد في الشروط العمرية مع أهل الذمة: (أن لا يحدثوا في مدينتهم، ولا ما حولها ديرًا، ولا كنيسة، ولا صومعة، ولا يجددوا ما خرب)(١).

وقال الإمام أحمد – رحمه الله – عن ذلك: (ليس لأهل الذمة أن يحدثوا في مصر مصّرته العرب كنيسة ولا بيعة، وما فتحه المسلمون عنوة فليس لأهل الذمة أن يحدثوا فيه كنائس)(٢).

أما بلاد أهل الذمة التي فتحت صلحًا، فيقول الإمام ابن قيم الجوزية عن الأحكام المتعلقة بها تجاه الكنائس: (أما بلاد أهل الذمة التي فتحها المسلمون صلحًا، فإن لأهل الذمة ما صالحوا عليه المسلمين فإن صالحوهم على أنهم يزيدون في كنائسهم فلهم، وإن لم يكن كذلك فلا، في حين أنه ليس للمسلمين أن يهدموا الكنائس المحدثة قبل صلحهم مع أهل الذمة)(٣).

وعن ذلك قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنه –: (أيما مصر اتخذه العجم فعلى العرب أن يفوا لهم بعهدهم فيه، ولا يكلفوهم ما لا طاقة لهم به)(٤).

=

كتاب الجزية. باب الشهادة على رؤية الهلال برقم (٣٧٦٤، ٣٧٦٥) بمثله (٨/ ١٥٤).

(١) الجواب الصحيح (١/ ١٨٧)،وللاستزادة انظر. أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٦ – ٦٩٩).

(٢) انظر.الإقناع (٢/ ٥٠)، المسائل والرسائل (٢/ ٣٣٩، ٣٤١).

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٦ – ٦٩٩). بتصرف.

(٤) أخرجه الإمام البيهقي في سننه الكبرى. كتاب الجزية. باب ما يشترط عليهم أن لا يحدثوا في أمصار المسلمين كنيسة ولا مجمعًا صلاتهم برقم (١٨٤٩٦) بمثله (٩/ ٢٠٢).

كما قال الإمام أحمد – رحمه الله -: (لهم ما صالحوا عليه، فإن كان في عهدهم أنهم يزيدون في الكنائس فلهم، وإلا فلا، وما انهدم فلهم أن يبنوها)(١).

أما ما يتعلق بالكنائس الموجودة في البلاد التي فتحها المسلمون عنوة قبل فتحهم لها، فقد قال الإمام أحمد – رحمه الله – فيها قولاً فصلاً اختاره أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: (للإمام أن يفعل في ذلك ما هو الأصلح للمسلمين، فإن كان أخذها منهم، أو إزالتها هو المصلحة لكثرة الكنائس، أو حاجة المسلمين إلى بعضها، وقلة أهل الذمة فله أخذها، أو إزالتها بحسب المصلحة. وإن كان تركها أصلح لكثرتهم، وحاجتهم إليها، وغنى المسلمين عنها تركها وهذا الترك تمكين لهم من الانتفاع بها لا تمليك لهم رقابها فإنها قد صارت ملكًا للمسلمين، ويجوز للإمام انتزاعها متى رأى المصلحة في ذلك.. وعلى هذا دل فعل الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فحين رأى عمر بن عبد العزيز في زمنه ما فيه مصلحة في هدمه أقر هدمه، وما رأى أن المصلحة في إقراره أقره)(٢).

وبعد بيان القول الفصل في هذه المسألة إلا أن هناك من خالف من المسلمين في زمننا هذا، إذ لا يخفى ظهور هذه الخصلة في الكثير من البلاد الإسلامية، وذلك حين سمحت لبعض الدول الإسلامية ببناء كنائس على أرضها، وقامت فعلاً على أراضيها الكثير من الكنائس، بل ومما يحزن

---

(١) الرسائل والمسائل (٢/ ٣٣٩).

(٢) الرسائل والمسائل (٢/ ٣٣٩)للاستزادة انظر. المغني (٩/ ٢٨٤ – ٢٨٥).

النفس أن البعض من هذه الدول تفتخر باقتنائها أكبر كنيسة على أرض الشرق الأوسط، لهذا فإن ما يقع في هذا الزمن من بعض المسلمين في مشابهة أهل الكتاب في جوانب كثيرة من عباداتهم، وعاداتهم، ومعاملاتهم. سبق وأن حذرنا منه نبينا ﷺ في عموم الحديث الذي قال فيه: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى قال: فمن»[١]. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) سبق تخريجه ص(٤١٢).

المسألة الخامسة عشرة بعد المائة
التعبد على جهل كفعل الضالين

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية التي تمثلت في الأسس التي تقوم عليها العبادات عند النصارى، والأميين، وعند ضُلال الشيعة، والصوفية وغيرهم؛ حيث عُرف عنهم الاجتهاد في التعبد بأنواعٍ من العبادات عن غير علم بالحق ومعرفةٍ له. فجميع العبادات التي يقومُ بها هؤلاء الضُلال قائمةٌ على الجهل، لهذا وقعوا في الضلال، فضلوا في مقصود عبادتهم، وفي طريقة عبادتهم، فابتدعوا وأحدثوا في الدين عبادات لم تشرع لهم من قبل.

لهذا كان إطلاق صفة الضلال على من تعبد لله من غير علم من أخص ما وصف الشارع – عز وجل – به النصارى، وذمهم عليه في محكم كتابه، وقد تعلق هذا الوصف تعلقًا أوليًا بالنصارى، وشمل كل من شابههم في طريقة تعبدهم، وقد ورد ذلك حين دعا الشارع عباده المؤمنين إلى مخالفتهم في طريقة عبادتهم لله، فقد أمر عباده المؤمنين بأن يدعوه في كل صلاة بأن يهديهم إلى الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾(١).

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (فكل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج القويم، فضالٌ عند العرب، لإضلاله وجه

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: (٦، ٧).

الطريق، فلذلك سمى الله جل ذكره النصارى ضلالاً لخطئهم في الحق منهج السبيل، وأخذهم من الدين غير الطريق المستقيم)[١].

وقال أحد المفسرين: الوصف بالضالين وصفٌ مذموم؛ لأن العباد مأمورون باتباع سبيل الحق، وصرف الجهد إلى إصابته[٢].

وقد وردت آيات كثيرة ذم فيها الشارع - عز وجل - الكثير من العبادات التي قامت على أساس هذه الخصلة الجاهلية، سواءً عند النصارى أو الأميين وحذر في الوقت نفسه من مغبتها، علمًا أن كل الذم والتحذير الوارد من هذه الخصلة عند النصارى هو كما ذكرت سابقًا شاملٌ أيضًا لكل من شابههم فيها، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية:(أي: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه وهو المتفرد بخلقهم بغير شريك ولامعين ولا ظهير،(وخرقوا له بنين وبنات)يقول وتخرصوا لله كذبا فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم منهم بحقيقة ما يقولون ولكن جهلا بالله وبعظمته وأنه لا ينبغي لمن كان إلها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ولا أن يشركه في خلقه شريك(سبحانه وتعالى عما يصفون تنزه الله وعلا فارتفع عن الذي

(١) تفسير الطبري (١/ ١١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٩٦).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٠٠).

يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه)[١].

وقال تعالى في ذمهم: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[٢].

قال الطبري أي: (وأن كثيرًا من الناس الذين يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم أيها المؤمنون بالله من الميتة ليضلون أتباعهم بأهوائهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبًا منهم لأهوائهم، وإتباعا منهم لدواعي أنفسهم اعتداءً وخلافًا لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين)[٣].

وقال تعالى محذرًا: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤]. قال الطبري أي: (فمن أشد الناس ظلمًا لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرَّص على الله قيل الكذب، وأضاف إليه تحريم مالم يحرّم، وتحليل مالم يحلل)[٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٩٣).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (١١٩).
(٣) تفسير الطبري (٥/ ٣٢٢).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٤).
(٥) تفسير الطبري (٥/ ٣٧٧).

كَذِبًا ﴾[١] . قال الطبري في تفسيرها أي: (لجهلهم بالله وعظمته قالوا بهذا الكذب والافتراء عليه)[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[٣]، قال الطبري أي: (يعبدون من دون الله ما ليس لهم به علم أنها آلهة)[٤].

وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[٥].

والمراد: (أشركوا بالله في عبادته اتباعًا لأهوائهم، وجهلاً منهم لحق الله عليهم)[٦].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[٧].

قال ابن كثير – رحمه الله –: (أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله فإنه عالم بذلك وهو

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: (٤، ٥).
(٢) تفسير الطبري (٨/ ١٧٦).
(٣) سورة الحج، الآية: (٧١).
(٤) تفسير الطبري (٩/ ١٨٨).
(٥) سورة الروم، الآية: (٢٩).
(٦) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٢).
(٧) سورة الزخرف، الآية: (٢٠).

يقررنا عليه فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ أحدها جعلهم لله تعالى ولد...الثاني دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين...الثالث عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل، ولا برهان، ولا إذن من الله - عز وجل - بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء)[١].

لهذا حذر الشارع هؤلاء الضالين من عاقبة ضلالهم، وحذر من اتبعهم في الضلال فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٢] أي: (ركبوا غير محجة الحق)[٣]. كما قال تعالى محذرًا: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[٤] أي: (حملهم ذنوب أنفسهم وذنوب الذي يضلونهم من غير علم)[٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[٦].

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن هذه الآية: (هم كفرة أهل

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦).
(٢) سورة المائدة، الآية: (٧٧).
(٣) تفسير الطبري (٤/ ٦٥٥).
(٤) سورة النحل، الآية: (٢٥).
(٥) تفسير الطبري (٧/ ٥٧٥).
(٦) سورة الكهف، الآيتان: (١٠٣، ١٠٤).

الكتاب، كان أوائلهم على حقّ، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، الذين يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنهم على حقّ، ويجتهدون في الضلالة، ويحسبون أنهم على هدى، فضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا)[١].

وقال الطبري – رحمه الله –: (هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة؛ بل كان على جور وضلالة)[٢].

فمعلومٌ أن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يتعبد العباد لله إلا بعبادات شرعها الله لهم في كتبه، أو على لسان رسله، فنحن مأمورون بالاتباع لسبيل الحق، وصرف الجهد إلى إصابته فطريق الهداية والرشاد بتعلم ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإتباعه إتباعا مجردًا من الابتداع، قال تعالى عن ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣].

قال ابن عباس – رضي الله عنه – والمراد بقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٥٧٤)،للاستزادة انظر. كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عزوجل وصفاته على الاتفاق والتفرد للإمام الحافظ عبد الله محمد بن إسحاق ابن مندة الأصبهاني.ت.محمد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية.بيروت لبنان(ط١)١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ص(٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٢٩٥).

(٣) سورة البقرة، الآيات: (٢ – ٥).

أي: (على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم)(١).

لهذا ذكر الشارع - عز وجل - في محكم التنـزيل العاقبة الحميدة لمن اتبع الهدى الوارد في كتابه، فقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢).

قال الطبري أي: (فمن تبع الأنبياء والرسل والبيان فلا خوف عليهم في الآخرة، فهم آمنون)(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾(٤).

قال الطبري - رحمه الله - والمراد بالآية أي: (أصوب الناس طريقًا، وأهدى سبيلاً من استسلم وجهه لله فانقاد له بالطاعة، مصدقًا نبيه، عاملاً بما أمره ربه، محرِّمًا حرامه ومحللاً حلاله)(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾(٦).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي اتبعوا طريقه ودينه الذي ارتضاه

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٤٠).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٣٨).
(٣) تفسير الطبري (١/ ٢٨٥).
(٤) سورة النساء، الآية: (١٢٥).
(٥) تفسير الطبري (٤/ ٢٩٦).
(٦) سورة الأنعام، الآية: (١٥٣).

لعـباده، فهو حـقٌّ لا اعوجاج فيه، فلا تسلكوا طريقًا سواه، ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه)[١].

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[٢].

أي: (اجعلوا هذا القرآن إمامًا تتبعونه، وتعملون بما فيه، واحذروا الله في أنفسكم أن تضيعوا العمل بما فيه، وتتعدوا حدوده وتستحلوا محارمه)[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[٤] أي: (أنزلنا هذا القرآن، مفصلاً مبينًا فيه الحق من الباطل ليُهدى ويُرحم به قومٌ يصدقون به)[٥].

وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾[٦].

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية: (تضمن الله

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٩٦).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٥٥).
(٣) تفسير الطبري (٥/ ٤٠١).
(٤) سورة الأعراف، الآية: (٥٢).
(٥) تفسير الطبري (٥/ ٥١١).
(٦) سورة طه، الآية: (١٢٣).

لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة)(١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾(٣) . قال الطبري أي: (بعث رسوله ببيان فرائضه تعالى على خلقه، وجميع اللازم عليهم، وبدين الحق وهو الإسلام)(٤).

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٥) أي: (تتأسوا به، وتكونوا على ما كان هو عليه)(٦).

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ ﴾(٧)، وحتى يتم الاتباع الصحيح من عباده حث الشارع عباده على طلب العلم ببيان فضل العلم والعلماء في عدة آيات، وبعدة صور، فتارةً ببيان أن أهل العلم أخشى العباد لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٤٦٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (٣١).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٣٣).

(٤) تفسير الطبري (٦/ ٣٥٦).

(٥) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

(٦) تفسير الطبري (١٠/ ٢٧٨).

(٧) سورة الحشر، الآية: (٧).

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾(١).

وتارةً ببيان علو ورفعة درجاتهم بفضل علمهم، فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(٢). قال الطبري أي: (يرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم بفضل علمهم درجات إذا عملوا بما أمروا به)(٣).

وقد حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حذر أمته من مشابهة أهل الكتاب فقال: «لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن» (٤)، كذلك حين نهى عن التشبه بهم أو بغيرهم في خطابه الذي نهى فيه عن التشبه عامة فقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٥).

فمعلومٌ أن التعبد لله على جهل ذريعةٌ عظيمة للابتداع والإحداث في الدين، لهذا خاطب النبي ﷺ أمته بخطابٍ تضمن فيه النهي عن الابتداع في الدين، واستلزم الأمر بالاتباع والوقوف على ما ورد من الشارع، فقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٦)، لهذا حث النبي ﷺ على

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

(٢) سورة المجادلة، الآية: (١١).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ١٢).

(٤) سبق تخريجه ص(٢٣٤).

(٥) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

(٦) سبق تخريجه ص(٤٨٣).

طلب العلم وفضّل العالم على العابد فقال: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء»[(١)].

كما حرص السلف - رحمهم الله - على طلب العلم، والتعبد لله على علم، وحذروا من الجهل في التعبد لله، فقال غير واحد منهم: (احذروا فتنة العابد الجاهل)[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (كان السلف يرون أن من انحرف من العباد فقد شابه النصارى، كما يُرى في أحوال منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الصالحين والأنبياء والأئمة، وذلك بالاعتقاد بألوهيتهم، كالحاصل عند ضُلال الشيعة وطوائف من جهال الصوفية، ومن الابتداع في العبادات، من الرهبانية والصور والأصوات، خلافًا للمسلمين الذين جمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح... فقد أرسل الله رسله بالهدى ودين الحق، فالهدى يتضمن العلم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٠٥٨) بمثله (١٥٨٥)، وأبو داود في سننه في كتاب العلم. باب فضل العلم برقم (٣٦٤١) بمثله (١٤٩٣)، وابن ماجه في سننه كتاب السنة. باب فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم (٢٢٣) بمثله، وقال الألباني: صحيح. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر. شعب الإيمان (٢/ ٣٠٨)، والزهد (٢/ ١٨)، الفتاوى (١/ ١٩٧)، درء التعارض (١/ ١٦٦)، بدائع الفوائد (٢/ ٤٠).

النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح فهم أهل الصراط المستقيم)(١).

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – عن ذلك: (لقد ضل النصارى لفرط جهلهم بالحق، فضلوا في مقصودهم حيث لم يظفروا به، وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلم يهتدوا إلى المطلوب، ولا إلى الطريق الموصل إليه، ولما كان الهدى والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، دعا الشارع العباد إلى أن يسألوه في كل وقت أن يهديهم الصراط المستقيم تعريفًا، وبيانًا وإرشادًا، وإلهامًا، وتوفيقًا، وإعانة، فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة الضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال)(٢).

أخيرًا: لا يخفى على البعض ظهور هذه الخصلة الجاهلية لدى الكثير ممن ينتسبون للإسلام، والإسلام منهم براء، كغلاة الشيعة، وجهال الصوفية، وأصحاب البدع والأهواء من

القبوريين وغيرهم ممن تعبدوا لله بالغلو في أئمتهم، وشيوخهم، أو بالطواف حول القبور، والذبح لها، وغيرها من الأفعال التي يقومون بها ويزعمون أنهم قصدوا بذلك التعبد لله تعالى(٣).

* * *

(١) انظر.الفتاوى (١/ ٦٥)، (٣/ ١٣٧)، الجواب الصحيح (٢/ ٦٠) بتصرف.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤٠).

(٣) للاستزادة: انظر: كتاب البدع والحوادث للطرطوشي، مصرع التصوف (٥٣، ٥٨، ١١٢)، الألوهية في العقائد الشعبية على ضوء الكتاب (٧٢، ٩٠، ١١٢).

المسألة السادسة عشرة بعد المائة
إفسادهم في الأرض وتسميته صلاحًا

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية التي تجلت بوضوح عند أهل الكتاب والأميين ومن وافقهم من المنافقين، ومن سار على نهجهم ممن ينتسبون إلى الإسلام اسمًا لا رسمًا. فلما أن بزغت شمس الإسلام حتى ظهرت هذه الخصلة على يد المنافقين في عهد رسول الله ﷺ، ومن ثم انتقلت هذه الخصلة من جيلٍ إلى جيل عبر أتباع هؤلاء المنافقين الذين تربوا في محاضنهم من أصحاب الفرق الضالة، ومن تبعهم على مر العصور، حتى وصلت إلى عصرنا الحاضر الذي يزخر بالكثير من أمثال هؤلاء ممن يسعون إلى الإفساد في الأرض بشتى الوسائل والطرق زاعمين أن ما يقومون به هو الإصلاح بعينه.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بعدة أساليب، فتارة بالنهي عنها وبيان ما تحمله هذه الخصلة من خبث، وتارةً بالحث على العمل بخلافها والالتزام به من وسائل الإصلاح في الأرض، فيقول تعالى ناهيًا عن هذه الخصلة ومبينًا الخبث الكامن فيها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: (١١، ١٢).

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله -: (والإفساد في الأرض: العمل فيها بما نهى الله - جل ثناؤه - عنه، وتضييع ما أمر الله بحفظه...، وإن ادعى هؤلاء المفسدون أنهم على الهدى، وأنهم مصلحون فهم عند الله مسيئون، ولأمر الله مخالفون)(١).

وقال القرطبي - رحمه الله -: (نهاهم الله عز وجل عن الفساد في الأرض بالكفر وموالاة أهله، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، فبعد أن بعث الله محمدًا ﷺ ارتفع الفساد وصلحت الأرض، فإذا عمل الناس بالمعاصي، فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)(٢).

والناظر لهذه الخصلة يجد أنها قد اجتمع فيها مفسدتان، وهما: الفساد بالفعل، والفساد في المعتقد، وذلك باعتقادهم أن إفسادهم في الأرض إنما هو الإصلاح بعينه، قلبًا للحقائق وترويجًا لفسادهم.

وعن ذلك يقول الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: (قد جمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبًا للحقائق وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًّا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصية، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه)(٣).

ومما ورد في النهي عن هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي

(١) تفسير الطبري (١/ ١٥٩ - ١٦٠).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٤٨).

(٣) تفسير السعدي (٤٣).

ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[١].

قال بعض المفسرين في المراد بهذه الآية أي: لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها، بعد أن أصلحها الله لأهل طاعته، بابتعاثه فيهم الرسل دعاة إلى الحق، وإيضاحه حججه لهم، فأخلِصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئًا غيره خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه[٢].

وقال بعض أهل العلم عن مراد الشارع من النهي الوارد في الآيتين السابقين: إن نهي الله سبحانه وتعالى لعباده عن الإفساد في هاتين الآيتين هو نهيٌ عامٌ وشاملٌ لكل إفسادٍ، ومن كل وجهٍ من الوجوه، قليلاً كان أو كثيرًا، والذي منه: قتل الناس، وتخريب منازلهم، وقطع أشجارهم، وتغوير أنهارهم، والتحاكم إلى غير الله ورسوله ﷺ[٣] وغيرها.

لهذا فحين أورد الشارع آيات نهى فيها عن الإفساد في الأرض بصورة عامة، أورد كذلك آيات نهى فيها عن صور خاصة من الفساد، وذلك من باب التأكيد على اللوم والتوبيخ لهذه الصور بصورة خاصة؛ لأنها من أعظم الفساد وعلى غيرها بصورةٍ عامة، مع العلم أن جميع الآيات الواردة في النهي عن الفساد تتضمن وتستلزم في دلالاتها الدعوة إلى الإصلاح في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٥٦).

(٢) انظر. تفسير الطبري (٥/ ٥١٥)، تفسير البغوي (٢/ ١٩٩)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٠٣).

(٣) انظر. فتح القدير (٢/ ٢٦٧)، بدائع الفوائد (٣/ ١٩)، تيسير العزيز الحميد (٤٥٥)، فتح الحميد (٤/ ١٦٠٠)، فتح المجيد (٣٩٩)، السبك الفريد (٢/ ٢٧٤).

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(٤). إن الآيات الواردة في النهي عن الإفساد في الأرض بصورةٍ عامة، أو خاصة كثيرة جدًا، وما أوردته كان على سبيل الذكر لبعض الأدلة الدالة على مخالفة الشارع لأهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنهي عنها، كذلك خالفهم الشارع في آيات نص فيها على موجبات الإصلاح في الأرض من خلال الدعوة إلى عبادة الله وحده، ووجوب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والعمل على عمارة الأرض بالطاعات والأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: (٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٣٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٣٣).

(٤) سورة هود، الآية: (٨٥).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٦٢).

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡﵞ(١)، وقال تعالى: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚﵞ(٢)، وقال تعالى: ﵟوَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَﵞ(٣)، وقال تعالى: ﵟفَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖﵞ(٤)، وقال تعالى: ﵟوَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاﵞ(٥).

كما خالف النبي ﷺ في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة مخالفةً ظاهرةً تمثلت جليةً في دعوته للناس إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما سواه من المعبودات الباطلة، والدعوة إلى تحكيم الشرع قولاً وعملاً في جميع أمور الحياة، ومجانبة الهوى، فقال ﷺ حين سأله رجلٌ فقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل أحدًا بعدك، فقال عليه السلام: «قل آمنت بالله ثم استقم»(٦)، وقوله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة...»(٧).

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٧٧).

(٢) سورة النساء، الآية: (٥٨).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٤٢).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٥) سورة فصلت، الآية: (٣٢).

(٦) سبق تخريجه ص(٩٤).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٧٣٧، ٢٢٨٠٠) بمثله (١٦٣٩، ١٦٤٣)، وأخرجه ابن ماجه في صحيحه في كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء برقم (٢٧٧)، بمثله (٢٤٩٤)، موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

قال أحد أهل العلم في المراد بهذا الحديث أي: لا تزيغوا وتميلوا عما سن لكم، وفرض عليكم، فالزموا المنهج المستقيم بالمحافظة على إيفاء حقوق الله جل جلاله، ورعاية حدوده، والرضا بقضائه، فسددوا وقاربوا، فإنكم لن تطيقوا الإحاطة في الأعمال، لأنه لابد للمخلوق من تقصير، ولكن لابد للعبد من الجد لئلا يتكل ويغفل، أو ييأس ويعجز[(١)].

مع العلم أن جميع نصوص الأمر الواردة في الكتاب أو السنة هي نصوصٌ متضمنة للإصلاح في جميع جوانب الأرض، وعلى مختلف الأصعدة، ولمختلف العصور والأجناس، كما أن جميع نصوص النهي الواردة كذلك في الكتاب والسنة هي نصوصٌ متضمنةٌ النهي عن الإفساد في الأرض بجميع صوره ووسائله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: (أعظم الفساد في الأرض الشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع غير الرسول ﷺ، فلا صلاح للأرض ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسول الله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله)[(٢)].

---

(١) شرح الزرقاني (١/ ١١٠).

(٢) الفتاوى (١٥/ ٢٤)، وللاستزادة انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١٩ – ٢٠)، القول المفيد (٢/ ٢٨١).

أخيرًا فرغم وضوح الأدلة الشرعية الدالة على تحريم هذه الخصلة إلا أنها قد ظهرت جلية على ألسنة أصحاب البدع والفرق الضالة الذين شرعوا لأنفسهم عبادات لم يشرعها الشارع، بل جاءت النصوص دالة على تحريم ما شرعوه لأنفسهم من عبادات كما هو الحاصل عند الشيعة، والصوفية، وغيرهم من الفرق الضالة الذين أنكروا عقائد وشرائع ثابتة، وأثبتوا لأنفسهم عقائد وشرائع كفرية باطلة، ونادوا بالمجون والرذيلة، والسجود لغير الله، والذبح لغيره، والمناداة بالطاعة العمياء للأئمة، والأشياخ، وإن خالفت أوامرهم نصوص الكتاب والسنة(١).

كذلك ما نراه ونسمعه في مختلف وسائل الإعلام من الدعوة الصريحة إلى التحرر من الدين، واعتباره عائقًا عن التقدم ضمن دعواتهم إلى تحرير المرأة، والدعوة إلى المناداة بوجوب مشاركتها للرجل في جميع نطاقات العمل، ومن خلال الطعن بعدم صلاحية بعض الحدود لعصرنا، وأن الإصرار على تطبيقها يُعد اضطهادًا للحقوق الإنسانية...، وغيرها من الأمور التي يعف القلم عن تسطيرها لما تضمنته من سمٍ زعاف يهدف في الحقيقة إلى القضاء على الدين الإسلامي بمحاولة القضاء على عقيدة التوحيد التي هي أساس كل صلاح للبشرية.

* * *

(١) انظر: كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي (١٥٠ - ١٥٩)، تلبيس إبليس (٤٢٤)، مصرع التصوف (٥٨، ٩٢، ١١٢).

المسألة السابعة عشرة بعد المائة
تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين ومن وافقهم من المنافقين، وأصحاب الفرق الضالة: كالشيعة، والروافض، والمعتزلة، والأشاعرة، وغيرهم تبديلهم للقول الذي نُقل لهم عن الله تعالى بمناقضة خبره، أو مناقضة أمره أو كلاهما معًا.

والمراد بتبديل الشيء: أي تغييره، يقال أَبدَل الشيء من الشيء، وبَدّله: اتخِذ منه بدلاً، وأبدلت الشيء بغيره، وبدّله الله من الخوف أَمنًا، والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله، وتغيير الصورة إلى صورة أخرى[١].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أن التبديل نوعان:

(أحدهما: أن يناقضوا خبره. والثاني: أن يناقضوا أمره.

فأهل التبديل يضيفون بتبديلهم إلى الدين والشرع ما ليس منه، إما بمناقضة خبره من خلال إثبات ما نفاه الشارع، أو نفي ما أثبته، أو بمناقضة أمره، فيوجبون مالم يوجبه الشارع بل حرَّمه، ويحرمون مالم يحرمه بل أوجبه)[٢].

---

(١) لسان العرب (١١/ ٤٨).

(٢) النبوات (١١٦).

يقول د. يوسف السعيد عن وقوع هذه الخصلة عند أهل الكتاب: (وقد وقع أهل الكتاب في كليهما، ولم يكن صنعهم هذا عن جهل منهم، بل هو عن قصد وعلم بما يعملون، وهذا من أشد الإمعان في الضلالة)(١).

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾(٢).

فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال مفسرًا هذه الآية: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا: حطة، فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة»(٣).

وهذا التفسير من الرسول ﷺ يبين لنا أن التبديل المذكور في الآية، تبديل في الخبر والأمر.

---

(١) مسائل الجاهلية: د. السعيد (٣٤٠٠).

(٢) سورة البقرة، الآيتان: (٥٨، ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٢٨) برقم (٥٤٠٣) بمثله (٢٧٧)، وفي كتاب التفسير. باب (وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم) برقم (٤٤٧٩) بمثله (٣٦٧)، وفي باب قوله (حطة) برقم (٤٦٤١) بمثله (٣٨٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقات برقم (٧٥٢٣) بمثله (١١٩٩). موسوعة الحديث الشريف.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: (قيل لهم: قولوا: حطة، فقالوا: حنطة.. فزادوا حرفًا في الكلام، فلقوا من البلاء ما لقوا؛ تعريفًا أن الزيادة في الدّين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر)[١].

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (لقد دل سياق الآية على أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول، والفعل فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون، وأمروا أن يقولوا حطة أي حطَّ عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزءوا، فقالوا: حنطة في شعيرة... وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه)[٢].

وقال ابن العربي - رحمه الله -: (قالوا بقولهم هذا استخفافًا منهم بالدين، ومعاندةً للنبي ﷺ والحق..، فذمهم الشارع على ذلك، مما يدل على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها لا يجوز)[٣].

ومن الأدلة على تبديل أهل الكتاب قـولاً غير الذي قيل لهم – ما نقل عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنه – حين قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه ﷺ أحدث أخبار الله، تعرفونه غضًا، محضًا لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلهم،

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٥٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٠).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٤٥).

ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم)(١).

ومن الأدلة على وجود هذه الخصلة عند اليهود: (ما قاموا به من تبديلهم لأمر الله في حد الرجم الواجب إقامته على من زنا، بتحميم وجهه أي: بأن يصب عليه الماء الحار المخلوط مع الرماد)(٢).

أيضًا ومن تبديلهم لخبر الله حين زعموا أن المراد بجبال فاران أرض الشام، وليست أرض الحجاز(٣).

وكما تواطأ اليهود على تبديل الكثير من العقائد والشرائع الواردة في التوراة والمتمثلة في عبادتهم، كذلك تواطأ النصارى على ذلك في أناجيلهم وعبادتهم، مبتدئين بشتم خالقهم بأقبح الشتائم، والاستغناء عن عبادة الله وحده بعبادة الصور والصلبان.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (فهؤلاء اليهود والنصارى قد تواطؤوا وتواصوا على الزيادة والنقصان، وتبديل أحكام الله.. فاليهود تُقر.. بتحريف مواضع من التوراة وتبديلها تبديلاً ظاهرًا...، كذلك الأناجيل التي بأيدي النصارى منه أربعة كتبٍ مختلفة من تأليف

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها برقم (٢٦٨٥) بمثله (٢١٣)، وفي كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: (لا تسئلوا أهل الكتاب عن شيء) برقم (٧٣٦١) بمثله (٦١٢)، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (كل يوم هو شأن) بمثله برقم (٧٥٢٢) ورقم (٧٥٢٣) بمثله (٦٢٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) ينظر إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحدود باب الرجم في البلاط برقم (٦٨١٩) (٥٦٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أسفار العهد القديم. سفر التثنية (٣٣: ١)، هداية الحيارى (٧٣).

أربعة رجال، اثنان منهم لم يريا المسيح، واثنان رأياه واجتمعا به... فلا يستطيع أحدٌ أن ينكر وقوع التبديل فيها...، ومما يدل على ذلك اختلافهم في نسب المسيح عليه السلام)[١].

كما يُعد الشرك في عبادة الله من تبديل القول والفعل، فما من أمةٍ إلا وبعث الله فيها رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى اجتناب عبادة ما سواه، ومع هذا حصل التبديل في القول والفعل، فوقع الشرك. يقول الباريء تعالى عنهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[٣]، وقال تعالى متوعدًا: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[٤].

وقد صرح الشارع في مواضع كثيرة من كتابه بآياتٍ تنص على ما أمروا به، وتدل في الوقت نفسه على أن ما هم عليه إنما هو تبديل لأمر الله لهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٦].

---

(١) انظر: هداية الحيارى (١٣٩ – ١٤٩) بتصرف بسيط.

(٢) سورة يوسف، الآية: (٤٠).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (١٧).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: (٩٨).

(٥) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٦) سورة البينة، الآية: (٥).

وعلى هذا فإن كل قولٍ أو عملٍ ينص أو يتضمن مخالفة ظاهرةً أو باطنةً لما نصت أو دلت عليه نصوص الكتاب أو السنة، فهو داخلٌ ضمن هذه الخصلة الجاهلية.

وقد شنع الشارع على اليهود لتبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم، وعاقبهم على فعلهم هذا، مما يعني بلا ريب التحذير مما وقعوا فيه.

لهذا دعا الشارع عباده إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين دعاهم إلى اتباع ما ورد في كتابه وإلى اتباع رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(٣).

وقد حذر النبي ﷺ أمته من عاقبة هذه الخصلة الجاهلية، فقال: «أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم» وفي رواية: «فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي»(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٢٥).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٣١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب الرقاق، باب في الحوض برقم (٦٥٨٢، ٦٥٨٣، ٦٥٨٤، ٦٥٨٥، ٦٥٨٦، ٦٥٨٧) بنحوه (٥٥١)، وفي كتاب الفتن، باب ما جاء في قوله تعالى: =

قال الإمام النووي في شرحه لقوله ﷺ: «قد بدلوا بعدك فأقول سحقًا»: (مراده كل من أحدث في الدين، فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج، والروافض، وسائر أصحاب الأهواء، والظلمة المسرفون في الجور، وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر)(١).

لهذا بيّن عليه السلام أن الطريق إلى دخول الجنة بطاعته عليه السلام واتباع سنته، وأن من امتنع عن اتباع سنته وعصاه فقد امتنع عن دخول الجنة، فقال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(٢).

ومعلوم أن ما عليه أهل السنة والجماعة تجاه أوامر الله تعالى، وإخباره: (أنهم يؤمنون بما أخبر به الله – جلا وعلا – فلا يبدلون كلامه، ولا يقولون قولاً غير الذي قيل لهم، كما قالت المعطلة الجهمية عن استواء الله على عرشه بأنه استولى على عرشه، لا استوى، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، كفعل

=
(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن برقم (٧٠٥٠، ٧٠٥١) بمثله (٥٨٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم (٥٨٤) بمثله وفي أوله زيادة (٧٢٢) وفي كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفته برقم (٥٩٦٩) بمثله وبرقم (٥٩٦٨، ٥٩٧٢، ٥٩٧٣، ٥٩٧٤، ٥٩٧٨، ٥٩٩٦) بنحوه (١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥). موسوعة الحديث الشريف.

(١) المنهاج (٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ برقم (٧٢٨٠) بمثله (٦٠٦). موسوعة الحديث الشريف.

اليهود حين أمروا أن يقولوا حطة، فقالوا: حنطة مخالفين لأمر الله - جلا وعلا - فكذلك الجهمية)[١].

وقد تجلت هذه الخصلة الجاهلية عند أهل البدع المنتمين إلى الإسلام، وهذا أمر ظاهرٌ لكل ذي بصيرة، فما من فرقة من الفرق المخالفة المنتسبة إلى الإسلام كالروافض، والجهمية، والقدرية، والأشاعرة إلا وقد كان لهم حظ وافر من هذه الخصلة كما تبين منذ قليل في محاولة البعض منهم تبديل صفة الاستواء لله بالاستيلاء، وكما بدلت الرافضة دين الله فعمروا المشاهد، وعطلوا المساجد، وكما بدلت الصوفية والشيعة تعظيم أمر الله ورسوله بتعظيم أمر أئمتهم وشيوخهم. والأمثلة على تبديل هذه الفرق للقول الذي قيل لهم كثيرة لا مجال لحصرها في هذه العجالة[٢].

* * *

(١) التوحيد وإثبات صفة الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة. ت: د. عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان. مكتبة الرشد. الرياض، (ط٦)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م (١/ ٢٣٣)، النبوات (١١٦، ١١٧)، منهاج السنة النبوية (١/ ٢٩٦، ٢٩٧)، شرح قصيدة الإمام ابن القيم (٢/ ٢٤، ٢٥)، معارج القبول (١/ ٣٥٧)، وشرح مسائل الجاهلية: د.السعيد (٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) للاستزادة ينظر: المراجع السابقة.

المسألة الثامنة عشرة بعد المائة
استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية من اليهود، وهي استبدالهم الذي هو دنيٌ ووضيعٌ وخسيس بالذي هو رفيعٌ وخيرٌ. وذلك حين امتن الله عليهم بالعيش الرغيد الهانئ، فطلبوا استبداله بالذي هو دونه منه في الخيرية ورغد العيش وطيبه، وما كان هذا منهم إلا لقلة صبرهم على أوامر الله ونعمه واحتقارهم لها.

فكما أن هذه الخصلة تُعد من خصال اليهود التي اشتهروا بها، وذمهم الباري عليها، فهي تُعد أيضًا خصلةً لكل من حذا حذوهم ممن استبدلوا الضلال بالهدى، والبدع بالسنن، والشرك بالتوحيد...، فكل من خالفوا أوامر الله وأحكامه، فقد استبدلوا بأهوائهم ورغباتهم تحكيم أوامر الله وأحكامه، وعلى هذا فما ورد من ذمٍ وتوبيخٍ من الله تعالى لليهود على هذه الخصلة، فهو شاملٌ ومتضمن لكل من وافقهم في هذه الخصلة من قريبٍ أو بعيد.

قال تعالى في ذمه لليهود على هذه الخصلة التي تمثلت بطلبهم من موسى - عليه السلام - أن يدعو ربه ليبدلهم بالثوم والعدس والبصل... بدلاً من المن والسلوى ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾[1]. قال المفسرون في تفسير الآية أي: أتستبدلون الذي هو أخسُّ خطرًا وقيمةً وقدرًا من العيش، بدلاً بالذي هو خير منه خطرًا وقيمة وقدرًا؟ فلاشك أن

(١) سورة البقرة، الآية: (٦١).

من استبدل بالمن والسلوى البقل، والقثاء، والعدس، والبصل، والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه. وتعد هذه الآية توبيخًا وتقريعًا لهم على ما سألوه من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء، الطيب النافع[(١)].

وقد خالف الباري - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة بذمها وذم من تمثل بها، كما دل على ذلك مفهوم الآية السابقة.

وكما دعا الشارع إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة من خلال مفهوم الآية السابقة، كذلك دعا إلى مخالفتهم في مواضع أخرى من كتابه، من خلال ذمه لكل ما من شأنه استبدال الذي هو شرٌّ بالذي هو خير منه، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[(٢)] . قال الطبري – رحمه الله –أي: (ومن يستبدل الجحود بالله وآياته بالتصديق بالله وبآياته والإقرار به)[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾[(٤)] قال مجاهد - رحمه الله -: (أي الحرام مكان الحلال)[(٥)].

وقال تعالى في ذم قريش على هذه الخصلة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾[(٦)] . قال الطبري أي: (ذلك

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٥٢)، تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٠٨).

(٣) تفسير الطبري (١/ ١٠٨).

(٤) سورة النساء، الآية: (٢).

(٥) تفسير الطبري (٣/ ٥٧٠).

(٦) سورة إبراهيم، الآية: (٢٨).

بأن أنعم الله عليهم بمحمد ﷺ، فأخرجه منهم، وابتعثه فيهم رسولاً رحمة لهم، ونعمة منه عليهم، فكفروا به، وكذبوه، فبّدلوا نعمة الله عليهم به كفرًا واتخاذهم لله أندادًا)(١). كذلك خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين امتدح عباده المؤمنين الذين آمنوا به، وصدقوا إيمانهم به بثباتهم على أمره تعالى لهم من غير تردد، ولا استبدال به غيره. فقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾(٢). قال الطبري والمراد: (من المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله أوفوا بما عاهدوا عليه من الصبر على البأساء والضراء، وحين البأس، من غير شك أو ترددٍ في دينهم، ولا استبدلوا به غيره)(٣).

وقد دعا النبي ﷺ أمته إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وتمثل ذلك في جهاده في الله حق جهاده ليبلغ الحق لهذه الأمة ليبدلهم باتباعهم لدعوته إلى عبادة الله وحده، وثباتهم عليها عن عبادة الأوثان والأصنام.

لهذا فمن علامات فساد قلب العبد أن يعمل بمثل هذه الخصلة الجاهلية في أمور عباداته، أو عاداته، وما قامت هذه الخصلة عند أحد من العباد إلا لقلة صبره على أوامر الله، وعدم رضاه عن نعمه، واحتقاره لها، كما أنها خصلةٌ دالةٌ على مهانة نفس صاحبها ودناءة نفسه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد ذم الله بني

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٥٢ - ٤٥٦).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٢٣).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٢٧٩ - ٢٨١).

إسرائيل، لأنهم طلبوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد السفلي في هذه الدار.....

-ثم ذكر - رحمه الله - الأصل في سبب وجود مثل هذه الخصلة أنهُ عائدٌ إلى-: عدم الرغبة والرهبة، وضعف اليقين، وضعف البصيرة، ومهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترضَ بالدون...، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبه فلا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، وبالسرقة، والخيانة)[١].

وقد تمثلت هذه الخصلة جليةً لدى الكثير من أصحاب الملل والمذاهب الباطلة، كما تجلت لدى الأميين على سبيل المثال حين استبدلوا عقيدة الشرك بعقيدة التوحيد، وعند اليهود والنصارى والشيعة والصوفية في طاعتهم العمياء للأحبار، والرهبان، والأئمة، والشيوخ بطاعتهم لله تعالى، واتباع أوامره، وتقديم أمره تعالى على من سواه، وعند أصحاب البدع في تعبدهم لله تعالى بعبادات مبتدعة عن عبادات ثابتة شرعًا[٢].

* * *

---

(١) انظر .إغاثة اللهفان (٢/ ٢٤٠)، الفوائد (٢٣٠ – ٢٣١)، روضة المحبين (٣٩٩).

(٢) للاستزادة انظر: الملل والنحل: للشهرستاني، إغاثة اللهفان: لابن قيم الجوزية، مصرع التصوف: البقاعي، أصول الشيعة: القفاري، حقيقة البدعة: سعد الغامدي، الأهواء والفرق والبدع: ناصر العقل.

المسألة التاسعة عشرة بعد المائة
تعنتهم في السؤال كما في قصة البقرة

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين على حدٍ سواء، وهي التعنت في السؤال.

فقد ذم الشارع هذه الخصلة، وذم المتعنتين في السؤال عما يأمرهم الشارع به؛ لعلمه تعالى بحقيقة مقصد من قامت عنده هذه الخصلة، فما قامت من باب التعلم أو التفقه، أو ابتغاء للحق، وإنما قامت من باب العناد واللجاج الذي عُرف عمن اشتهروا بهذه الخصلة من اليهود خاصة حين يأمرهم الشارع بأمرٍ ما.

والمراد **بالتعنت**: أي التشديد، يقال فلان يُعِنتُ فلانًا أي يشدد عليه، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه[١].

وقد أخبر الشارع عن تعنت اليهود وكثرة سؤالهم لرسولهم، وتضييقهم على أنفسهم بذلك، لهذا ضيق الله عليهم كما في قصة البقرة التي أمرهم الله بذبحها، حتى يضربوا بها جسد قتيلٍ لديهم، ليعلموا من قتله، فأكثروا على موسى - عليه السلام - السؤال عن صفات هذه البقرة التي أمرهم الله بذبحها، وذلك بسؤالهم أولاً عن حقيقتها، ثم عن عمرها، ثم

---

(١) لسان العرب (٢/ ٦١).

عن لونها، ثم طلبوا منه أن يبينها لهم، لأنهم قد تشابه البقر عليهم، فما زالوا هكذا يسألون حتى شدد الله عليهم، فأمرهم بذبح بقرة ليست بالكبيرة، ولا الصغيرة في السن، صفراء اللون، سالمة من العيوب، تثير الأرض ولا تسقي الحرث، فاقعة اللون وصافية... فلو أنهم حين أمرهم الشارع بذبح بقرة، ذبحوا أي بقرةٍ لأجزأتهم، لكنهم ضيقوا على أنفسهم، فضيق الله عليهم[١]، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٢].

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيره لهذه الآية: (فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، وتعنتوا على موسى،

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٧٩)، تفسير ابن كثير (١/ ١١٠).

(٢) سورة البقرة، الآيات: (٦٧ - ٧١).

فشدد الله عليهم)[١].

وقال الطبري - رحمه الله -: (لقد سألوا موسى عليه السلام أن يسأل ربه لهم ما كان الله قد كفاهم بقوله لهم: (اذبحوا بقرة)، فقد أمرهم بذبح بقرة من البقرَ - أي بقرةٍ شاءوا ذبحوها من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع أو صنف دون صنف -، فقالوا بجفاء أخلاقهم، وغِلَظ طبعائهم، وسوء أفهامهم، وتكلُّف ما قد وضع الله عنهم مؤونته ما قالوا لنبيهم موسى - عليه السلام - تعنتًا منهم، فقد كان الواجب عليهم تجاه ما أمرهم الله به مؤدين له، وللحق طائعين)[٢].

وقال القرطبي - رحمه الله -: (لقد كان سؤالهم تعنتًا منهم، وقلة طواعية، فلوا امتثلوا الأمر لحصل المقصود، ولكن كانوا يشددون على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فمعلومٌ أن دين الله يسر، أما التعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم)[٣].

كما تمثلت هذه الخصلة لدى اليهود، فقد تمثلت كذلك لدى النصارى حين سألوا عيسى عليه السلام أن يدعوا ربه أن ينـزل عليهم مائدة من السماء[٤]، وتمثلت كذلك لدى كفار قريش حين طلبوا من الرسول ﷺ أن

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٨٢ - ٣٩١).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٤٨٥ - ٤٩١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٣٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ١١٩).

يسير الجبال، وأن يجعل لهم الصفا ذهبًا[١]، وغيرها من التساؤلات التي سألوها النبي ﷺ، وطلبوا منه أن ينفذها لهم ويجيبهم عليها، وما كان ذلك منهم ليؤمنوا حقيقةً، إنما هو من باب العناد واللجاج التي عُرفت به طبيعة هؤلاء المستكبرين عن قبول الحق.

لهذا فقد أمر الشارع بمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بعدة صور، فتارةً بذم هذه الخصلة، وذلك من خلال ذم اليهود عليها، كما في الآيات السابقة، مما يدل على وجوب مخالفتهم، واجتناب ما استحقوا عليه الذم، وتارةً بدعوته إلى مخالفتهم بالنهي الصريح عن التشدد في السؤال فيما أمرهم الشارع به، فالواجب على العباد تجاه أوامر الله - عز وجل - المبادرة إلى امتثالها، وعدم الاعتراض عليها، لهذا قال الباري - عز وجل - ناهيًا عن هذه الخصلة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾[٢].

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - عن سبب نزول هذه الآية: «إن رسول الله ﷺ أذَّن في الناس، فقال: يا قوم، كتب عليكم الحج! فقام رجل، فقال: يا رسول الله أفي كل عام؟ فأغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٩٠).

(٢) سورة المائدة، الآيتان: (١٠١، ١٠٢).

فقال: والذي نفس محمد بيده، لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذًا لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه»(١).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (إن في هذه الآية تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال عنها؛ لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها)(٢).

وعلى هذا فإن كل سؤالٍ ورد على سبيل التنطع في المسائل الفقهية، والتكلف فيما لم ينـزل، أو فيما يستحيل وقوعه عادة، أو يندر وقوعه جدًا، فهو داخل تحت مظلة التعنت في السؤال التي نهى الشارع عنها، أما ما كان بقصد تعليم النفس، ونفي الجهل، وإزالةٍ للبس عنها، فهذا مما لا بأس به، يدل على ذلك: إجابة الشارع على الكثير من التساؤلات التي سأل عنها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٩٠٥) بمثله (٩٦)، وبرقم (٢٦٤٢) بنحوه (٢٢٣)، وأخرجه الإمام الترمذي في سننه: في كتاب الحج، باب ما جاء كم فرض الحج؟ برقم (٨١٤) بنحوه، وقال الترمذي عنه: حسن غريب، وأخرجه في كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة برقم (٣٠٥٥) بمثله، وقال الترمذي عنه: حسن غريب (١٩٦٠) موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه النسائي في: سننه الكبرى: في كتاب الحج، باب وجوب الحج برقم (٣٥٩٨) بنحوه (٢/ ٣١٩)، وأخرجه ابن ماجه في سننه. في كتاب المناسك، باب فرض الحج برقم (٢٨٨٤) بمثله، وبرقم (٢٨٨٥، ٢٨٨٦) بنحوه (٢٦٥١)، موسوعة الحديث الشريف. قال عنه الألباني: ضعيف.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٥).

الصحابة - رضوان الله عليهم - كسؤالهم عن: القتال في الشهر الحرام، وعن حكم الخمر والميسر، وعن أحكام اليتامى، وعن المحيض، وعن ما أحل لهم من الطعام وما حرم عليهم... وغيرها كثير، وقد أجاب الشارع على تساؤلاتهم تلك لعلمه تعالى بأن المقصد الحقيقي من وراء تلك التساؤلات هي حاجتهم الماسة إلى تعلمها، وفهمها، ولإزالة اللبس عن أنفسهم فيما يتعلق بما كلفوا به.

وقد خالف هدي نبينا ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بعدة صور أيضًا، فتارةً بالنهي عن الإكثار من السؤال، فقال - عليه السلام -: «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» (١). قال بعض العلماء: والمراد بكثرة السؤال: السؤال عن المشكلات، أو عما لا حاجة للسائل به، فقد كان السلف - رحمهم الله - يكرهون ذلك، ويرونه من

---

(١) أخرجه البخاري في: صحيحه كتاب الزكاة، باب (لا يسئلون الناس إلحافًا) برقم (١٤٧٧) بمثله (١١٧)، وفي كتاب الاستقراض والديون، باب ما ينهى عن إضاعة المال برقم (٢٤٠٨) بمثله (١٨٨)، وفي كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر برقم (٥٩٧٥) بمثله (٥٠٦)، وفي كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال برقم (٦٤٧٣) بمثله (٥٤٣)، وفي كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى: (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) برقم (٧٢٩٢) بمثله (٦٠٧)، ومسلم في صحيحه: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة. والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب مالا يستحقه برقم (٤٤٨١، ٤٤٨٢، ٤٤٨٣، ٤٤٨٤، ٤٤٨٥، ٤٤٨٦) بمثله (٩٨٢). موسوعة الحديث الشريف، الإيمان لابن منده (١/ ٢٨٨)، شرح أصول الاعتقاد (٢/ ١٣٢).

التكلف المنهي عنه[(١)].

لهذا نهى النبي ﷺ صحابته - رضي الله عنهم - عن الإكثار من سؤاله عليه الصلاة والسلام، فقال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم عن أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» [(٢)]، وقال أيضًا: «إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحُرم من أجل مسألته» [(٣)].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (إن النبي ﷺ نهاهم عن إكثار السؤال، والابتداء بالسؤال عما لا يقع، وكره ذلك لمعان؛ منها: أنه ربما كان سببًا لتحريم شيء على المسلمين فيلحقهم به المشقة وربما كان في الجواب ما يكرهه السائل ويسوؤه، وربما أنهم بسؤالهم يشقون ويؤذون النبي ﷺ، فيكون هذا سببًا لهلاكهم، أما من سأل لضرورة، بأن وقعت له

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٤٢)، عمدة القارئ (٢٥/ ٣٤)، المنهاج (١٣٢١، ١٧٢٤)، سبل السلام (٤/ ٢٥٠)، شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم (٧٢٨٨) بنحوه (٦٠٧)، ومسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر برقم (٣٢٥٧) بمثله (٩٠١)، وفي كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك برقم (٦١١٣) بنحوه وبرقم (٦١١٥) بمثله (١٠٩٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه برقم (٧٢٨٩) بمثله (٦٠٧)، ومسلم في صحيحه: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك برقم (٦١١٦، ٦١١٧) بمثله (١٠٩٢). موسوعة الحديث الشريف.

مسألة فسأل عنها فلا إثم عليه ولا عتب)[١].

ويشهد لذلك أن النبي ﷺ قد أجاب على الكثير من الأسئلة التي سأله عنها الصحابة - رضوان الله عليهم -، والأعراب الذين كانوا يأتون إلى النبي ﷺ مستفهمين عما يحتاجون إليه في التكليف، أو الأخبار؛ كإجابته عن تساؤلاتهم عن أركان الإيمان والإسلام، وعن نعيم الجنة وعذاب النار، وما يتعلق بأحداث يوم القيامة وأهوالها، وعن المحرمات من المآكل والمشارب، وعن حكم ميتة البحر، وعن الكبائر... وغيرها كثير. مع العلم أن هناك بعض التساؤلات التي لم يجبهم عليها؛ بل قد نهاهم عنها عليه الصلاة والسلام؛ وذلك لأنها ليست مما يحتاجون إليه في التكليف، إذ أنه لابد للعبد أن يتجنب السؤال عما لا يفيده في تعبده لله تعالى، كسؤالهم عن وقت الساعة، وعن الروح وغيرها[٢].

قال الإمام ابن قيم الجوزية عما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم تجاه نصوص أمر الله تعالى: (لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل بالمبادرة إلى الامتثال، فقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يسألون إلا عما ينفعهم من الواقعات، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات، والأغلوطات، وعُضل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع

---

(١) المنهاج (١٧٢٤).

(٢) للاستزادة انظر: الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي. شرح الشيخ عبد الله دراز. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٢٩)، الآداب الشرعية (٣٢٩ - ٣٣٠) بتصرف.

المسائل وتوليدها، بل كانت هممهم مقصورة على تنفيذ ما أمروا به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه فأجابهم)[١].

أخيرًا فبالرغم مما في هذه الخصلة من سوء طويةٍ غالبًا، وما تؤدي إليه من مفاسد، إلا أنه وجد من خالف الحق وعمل بها، وذلك عند الجهلة من أهل الكلام والمتصوفين، وغيرهم الذين يفسدون العقول بتوهمات وشبهات، ويجرئون الشباب والأحداث على كثرة السؤال والاعتراضات، وتتبع الشرع بالمعارضات والمناقضات[٢].

* * *

(١) أعلام الموقعين (١/ ٥٩)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٤٤).

(٢) للاستزادة. انظر: درء التعارض (٨/ ٦٥)، الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٦).

المسألة العشرون بعد المائة
الحسد كما ذكر الله عن اليهود

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة أحد خصال اليهود التي عرفت عنهم، واشتهروا بها، والتي تمثلت بتمنيهم زوال نعم الله التي أنعم الله تعالى بها على غيرهم من الناس؛ إذ حسد اليهود المؤمنين على ما أنعم الله بهِ عليهم من الهدى والعلم، بتمنيهم أن يردوهم من بعد إيمانهم كفارًا.

والمراد بالحسد هو: تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد[(١)].

وقد خالف الشارع اليهود في هذه الخصلة، في عدة مواضع من كتابه، وبعدة صور:

أولها: حين ذم الباري – عز وجل – اليهود على هذه الخصلة، وذلك حين بيّن المبلغ الذي وصل به اليهود في حسدهم للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[(٢)].

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره للآية: (يخبر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في هذه الآية عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم

---

(١) التعريفات (١٠١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٠٩).

بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما اشتملت عليه من الحسد للمؤمنين رغم علمهم بفضلهم، وفضل نبيهم، إلا أنهم كفروا به حسدًا وبغيًا)(١).

كذلك قال تعالى في ذم هذه الخصلة: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾(٢). وعن المراد بهذه الآيـة قال ابن عباس - رضي الله عنهما -، ومجاهد - رحمه الله - وغيرهما: (أي أن اليهود حسدوا النبي ﷺ على النبوة لكونه من العرب، وليس من بني إسرائيل، وحسدوا أصحابه على الإيمان به)(٣).

وكما ذم الله اليهود على هذه الخصلة، كذلك ذم المنافقين لاشتمال قلوبهم على هذه الخصلة تجاه المؤمنين، فقال تعالى محذرًا نبيه وعباده المؤمنين منهم: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴾(٤).

قال ابن كثير - رحمه الله -: (أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف ما في نفوسهم من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره من عباده المؤمنين)(٥).

وقد بين العلماء حكم هذه الخصلة والحكمة من ذم الله تعالى لها. فقالوا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٤).

(٢) سورة النساء، الآية: (٥٤).

(٣) انظر.تفسير القرطبي (١/ ٢٤١)، تفسير ابن كثير (١/ ٥١٤).

(٤) سورة محمد، الآية: (٢٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٨١).

عن ذلك: الحسد يكون محرمًا ومذمومًا حين يتمنى المرء زوال نعمة الله عن غيره، سواء تمنى مع ذلك أن تعود إليه أو لا، وقد دلت الآيات السابقة على ذم الله تعالى لهذه الخصلة؛ لأن فيها تسفيه الحق سبحانه، وبأنه تعالى قد أنعم على من لا يستحق، كما أن فيها اعتراضًا على قضاء الله وقدره، فالحسد جمرةٌ في قلب الحاسد، لهذا تجد الحاسد دومًا في نكدٍ وقلقٍ دائم(١).

وبناءً على هذا فكل الآيات الواردة في ذم الحسد دالةٌ على تحريمه، ومتضمنة لأمرين: أولهما: ذم الحاسد لتجسد هذه الخصلة المذمومة عنده. وثانيهما: امتدح من خلت نفسه من هذه الخصلة، لهذا حرض تعالى على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالحث على وجوب العمل بنقيض الحسد، وذلك ضمن خطابه الذي أثنى فيه - عز وجل - وامتدح عباده المؤمنين من الأنصار لخلو أنفسهم من الحسد تجاه إخوانهم المؤمنين من المهاجرين، بإعطائهم من أموالهم إيثارًا لهم بها على أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

قال الطبري - رحمه الله -: (وصف الله تعالى في هذه الآية الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان قبل المهاجرين بخلو صدورهم من الحسد، فقد

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٦٩)، الزاهر: للقرطبي (١٣٣)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٩١)، شرح رياض الصالحين (٤/ ١٦٥).

(٢) سورة الحشر، الآية: (٩).

آثروا المهاجرين على أنفسهم، فأعطوهم من أموالهم، ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم)[(١)].

فالمتأمل للآيات السابقة التي اشتملت على ذم هذه الخصلة الجاهلية يجد أنها قد تضمنت دعوةً من الله تعالى لعباده المؤمنين للقيام بها يخالف هذه الخصلة ويضادها، بل دلت على أن من لوازم الإيمان الصادق التجرد من هذا النوع من الحسد المذموم، إلى الحسد المحمود الواجب القائم على المنافسة والمسابقة في خدمة الشارع - عز وجل -، وهو ما يعرف بالغبطة التي قال العلماء في معناها: أن يحب المرء ويتمنى أن يكون له مثل ما لأخيه المسلم من الخير والنعمة دون أن يتمنى زوال هذا الخير عن أخيه؛ لأن الغبطة علامةٌ على شرف النفس، وعلو الهمة، وكبر القدر[(٢)].

ولمثل هذا النوع من الحسد دعا الشارع عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[(٣)]، وقال أيضًا: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[(٤)].

لهذا خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحذر أمته من الحسد، وقال عليه الصلاة والسلام: «دب إليكم داء الأمم قبلكم:

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٤١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٦٩)، الفتاوى (١٠/ ١١٢)، الروح: لابن القيم (٢٥١، ٢٥٢)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٩٠).

(٣) سورة الحديد، الآية: (٢١).

(٤) سورة المطففين، الآية: (٢٦).

الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» [١]
. قال العلماء في المراد بالداء: أي أن الحسد والبغضاء داءٌ للقلب، فضررهما عظيم في الدنيا والآخرة[٢].

وقال أيضًا عن أثر الحسد: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب..»[٣]. كما نهى عليه الصلاة والسلام عن الحسد في شرحه للحديث، فقال ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانًا»[٤].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (لقد نهى النبي ﷺ عن المعاداة والمقاطعة، وعن الحسد وحرمه، ودعا أمته إلى التعامل بعضهم مع بعض معاملة الإخوة، والتعاشر بالمودة، والرفق والشفقة، والملاطفة وإلى صفاء القلوب)[٥].

لهذا قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٤١٢، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢) بمثله (١٣٢، ١٣٤)، والإمام الترمذي في سننه: في كتاب صفة القيامة، باب فضل صلاح ذات البين برقم (٢٥١٠) بمثله (١٩٠٤) قال الترمذي: هذا حديث اختلفوا في روايته عن يحيى بن كثير، إسناده ضعيف، موسوعة الحديث الشريف، جامع العلم وفضله (٢/ ١٠٨٧). قال الألباني: حسن.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي (٢/ ١٩٤٣)، الفتاوى (١٠/ ١١١، ١١٢، ١١٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب الحسد برقم (٤٢١٠) بمثله (٢٧٣٣). موسوعة الحديث الشريف، وقال الألباني: صحيح.

(٤) سبق تخريجه ص(٢٢٩).

(٥) المنهاج (١٨٣٦).

(٦) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب
=

قال ابن حجر - رحمه الله -: والمراد (أي أن يحب أن يحصل لأخيه من الخير نظير ما يحصل له، لا عينه، سواء في الأمور المحسوسة أو المعنوية، وأن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر...، ولا يتم ذلك إلا بترك الحسد والغل والحقد)(١).

وللسلف في ذم الحسد أقوالٌ كثيرة:

فقد قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (لا تعادوا نعم الله، قيل له: ومن يعادي نِعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله)(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد ذم الله اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم، وقد ابتلي بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله بعلم نافع، أو عمل صالح، وهذا خلق مذموم مطلقًا، فهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم)(٣).

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك أيضًا: (لقد كان الحسد

=

لنفسه برقم (١٣) بمثله (٣)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير. برقم (١٧٠، ١٧١) بمثله (٦٨٨). موسوعة الحديث الشريف.

(١) فتح الباري (١/ ٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٤١).

(٣) جامع الرسائل (١/ ٢٣٣)،للاستزادة انظر.اقتضاء الصراط المستقيم (٥٨).

من جملة الأغراض التي حملت اليهود على الكفر برسالة النبي ﷺ فلشدة خبث حسدهم أن وصفهم الله به في كتابه، وأصل الحسد بغضٌ لنعمة الله على المحسود، وتمنٍ لزوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا شرٌ من نفس المرء وطبعه، وليس شيئًا قد اكتسبته من غيره؛ بل هو من خبث نفسه وشرها)[(١)].

وبعد تقرير مدى حرمة هذه الخصلة وفسادها، إلا أنها ظهرت لدى الرافضة الذين تمثلت لديهم بحسدهم أبا بكر وعمر على مكانتهما، حين شرعوا في ذمهما، كذلك لدى الكثير ممن يزعمون أنهم من أهل الفقه والعبادة ممن جعلوا همتهم فقط في طهارة أبدانهم، تاركين طهارة قلوبهم، حتى اشتملت قلوبهم على أنواعٍ من الحسد والكبر لإخوانهم، مشابهين في ذلك مشابهةً بينة لأخلاق اليهود[(٢)].

* * *

(١) هداية الحيارى (١٥٣)، للاستزادة انظر.الفوائد (٢/ ٢٦٦ – ٢٦٧).

(٢) للاستزادة انظر: الزاهر (١٣٤)، الفتاوى (١/ ١٥، ١٦).

المسألة الحادية والعشرون بعد المائة
عبادتهم العجل

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – أحد خصال أهل الجاهلية عند اليهود والتي تمثلت في عبادتهم للعجل، وتركهم لعبادة الله، فرغم تتابع الآيات والبراهين التي بعثها الله – عز وجل – على يد موسى – عليه السلام –، الدالة على صدق ما جاء به – عليه السلام –، وعلى صحة نبوته، إلا أن ضلال اليهود، وغباوتهم قد غلبت عليهم، فأودت بهم إلى عبادة ما صنعوه بأيديهم على صورة أبلد الحيوانات وأقلها فهمًا، وهو العجل.

وقد وبخ الشارع اليهود على هذا العمل، وقرعهم عليه، في عدة مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[1].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (فظلمهم حين وضعوا العبادة في غير موضعها، لأن العبادة لا تنبغي إلا لله – عز وجل –، فعبادتهم للعجل ظلمًا منهم، ووضعًا للعبادة في غير موضعها)[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم

(١) سورة البقرة، الآية: (٥١).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٢٣).

بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾(١) قال الطبري – رحمه الله – أي: (أمرهم الله على لسان موسى عليه السلام بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من رِدّتهم، بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به، وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذي ركبوه قتلهم أنفسهم)(٢).

وقد وبخهم الله تعالى في موضع آخر من كتابه حين بيّن مدى ضلالهم، وعظم ظلمهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾(٣). قال بعض أهل العلم: أي جاءكم موسى بالبينات الدالة على صدقه، وصحة نبوته، والتي لا يقدر على أن يأتي بها بشر، إلا بتسخير الله ذلك له، وبعد هذا فعلتم ما فعلتم من عبادة غير الله بعبادتكم للعجل، فكنتم بذلك ظالمين؛ ذلك لأن الشرك أظلم الظلم(٤).

ثم وصف تعالى مدى تعلق قلوبهم بهذا الضلال من باب التوبيخ والتقريع لهم على عبادتهم للعجل، فقال تعالى: ﴿ وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ ﴾(٥) . قال الطبري أي: (وأشربوا في قلوبهم حُب العجل)(٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٥٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٢٥).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٥١).

(٤) للاستزادة انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٦٦)، وإغاثة اللهفان (٢/ ٢٣٦)، هداية الحيارى (٢٣٣).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٩٣).

(٦) تفسير الطبري (١/ ٤٦٧).

وفي موضع آخر من كتابه وصف الشارع أيضًا إلى أي مدى قد بلغت بلادة عقول اليهود حين اتخذوا العجل، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾(١). قال العلماء في مراد الله تعالى في هذه الآية: والخوار هو صوت البقرة، فيخبر الله جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل، فلا يجوز أن الرب جلّ جلاله الذي له ملك السموات والأرض، ومدبر ذلك، أن يكون جسدًا له خوار، لا يكلم أحدًا، ولا يرشد إلى خير(٢)... لهذا حذر الباري من هذه الخصلة حين بيّن عقوبة الذين افتروا عليه بعبادتهم للعجل، وأنه عقوبةٌ في الوقت نفسه لكل من سيحذو حذوهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾(٣). قال العلماء في بيان العقوبة الواردة في الآية: لقد جازاهم تعالى بأن أحل عليهم غضبه، وأذلهم في الحياة الدنيا، فأمرهم بقتل بعضهم بعضًا توبةً منهم إلى الله، وكذلك سيجزي الله بالذل إلى يوم القيامة كل من افترى عليه، وكذب عليه، وأقر بألوهية غيره، وعبد شيئًا سواه من الأوثان، بعد إقراره بوحدانية الله(٤).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٦٣)، كتاب التوحيد: لابن مندة الاصبهاني (١٦٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٥٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٧١)، الشرح والإبانة (١٥٥)، شرح أصول الاعتقاد (١/ ١٦١).

ويتلاشى عجب المرء من شدة العقوبة التي أنزلها الله عز وجل على اليهود على إثر هذه المعصية حين يستقرئ دوافع اليهود التي حملتهم على القيام بهذه المعصية الشنيعة؛ فيقول أحد العلماء عن ذلك: (إن الذي حملهم على فعل هذه المعصية شيئان، وهما:

أولاً: جهلهم بالخالق.

ثانيًا: أنهم أرادوا ما يسكن إليه الحس لغلبة الحس عليهم، وبعد العقل عنهم، ولولا جهلهم بالمعبود ما اجترأوا عليه بالكلمات القبيحة، كقولهم عنه: إنه فقير، يده مغلولة)[1].

لهذا فعند استقراء المرء لآيات القرآن الكريم يجد أن جميع الآيات دالةٌ على بطلان هذه الخصلة، إما بنصوص خاصة تنص على إبطال هذه الخصلة بعينها، كما جاء في الآيات السابقة، أو بنصوص عامة تنص على إبطال الشرك، وعلى عِظم عقوبته، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[2]، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[4]، وفي نصوص أخرى دعا عباده إلى عبادته وحده، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ

(١) تلبيس إبليس (٨٩).

(٢) سورة النساء، الآية: (٤٨).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٧٢).

(٤) سورة لقمان، الآية: (١٣).

بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾(٤).

هذا وقد خالف النبي ﷺ أيضًا في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحذر من الشرك بالله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ فقال: الشرك بالله...» (٥). قال أهل العلم: والمراد بقوله ﷺ «بالموبقات»: أي المهلكات، وسميت بذلك؛ لأنها سبب لإهلاك مرتكبها(٦).

كذلك حين سئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ فقال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»(٧)، لهذا حرص - عليه الصلاة والسلام - على حماية

(١) سورة النساء، الآية: (٣٦).
(٢) سورة التوبة، الآية: (٣١).
(٣) سورة النحل، الآية: (٣٦).
(٤) سورة البينة، الآية: (٥).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوصايا. باب (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا...) برقم (٢٧٦٦) بمثله (٢٢٢)، وفي كتاب الطب. باب الشرك والسحر من الموبقات برقم (٥٧٦٤) بمثله (٤٩٢)، وفي كتاب الحدود. باب رمي المحصنات برقم (٦٨٥٧) بمثله (٥٧٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب الكبائر وأكبرها برقم (٢٦٢) بمثله (٦٩٣). موسوعة الحديث الشريف.
(٦) انظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٢)، المنهاج (١٨٥).
(٧) أخرجه البخاري في كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون) برقم
=

جناب التوحيد من الشرك بالله بالقضاء عليه، وسد جميع الذرائع الموصلة إليه.

إلا أن هناك مثيلاً لهذه الخصلة في هذا الزمان، فها هي البقر تُعبد في الهند، وتُنصب لها التماثيل وتقرب لها القرابين، قائلين عنها: إن البقرة أم الأبطال الذين يقهرون الأعداء، وهي ابنة الإله، وهي مركز للحياة(١). فنسأل الله العافية.

* * *

=

(٤٤٧٧) بمثله (٣٦٧)، وفي باب قوله تعالى: (والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس) برقم (٤٧٦١) بمثله (٤٠٣)، وفي كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه برقم (٦٠٠١) بمثله (٥٠٨)، وفي كتاب الحدود. باب قوله تعالى: (ولا يزنون) برقم (٦٨١١) بمثله (٥٦٨)، وفي كتاب الديات. باب قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم) برقم (٦٨٦١) بمثله (٥٧٢)، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادًا) برقم (٧٥٢٠) بمثله (٦٢٧)، وفي قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) برقم (٧٥٣٢) بمثله (٧٢٩)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده برقم (٢٥٧، ٢٥٨) بمثله (٦٩٣). موسوعة الحديث الشريف.

(١) للاستزادة. انظر: فصول في أديان الهند (٩٣)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٦٠٠ – ٦٠١).

المسألة الثانية والعشرون بعد المائة
قولهم سمعنا وعصينا

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين على حدٍ سواء، هذه الخصلة التي تمثلت وبرزت حال تلقيهم أي أمرٍ من الله تعالى، إذ كانوا يتلقونه بأسماعهم ويعصونه بأفعالهم، فلسان حالهم ومقالهم ينطق بكلمة قد اشتهرت على ألسنتهم تجاه كل أمرٍ يأتيهم من الله وهي: سمعنا وعصينا.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بذمهم عليها، فقال تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[(٢)].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي اقبلوا ما سمعتم واعملوا به، وأطيعوا الله، فقالوا: سمعنا قولك، وعصينا أمرك)[(٣)].

وقال ابن سعدي - رحمه الله -: (ويُعد قولهم هذا في غاية الكفر

(١) سورة البقرة، الآية: (٩٣).

(٢) سورة النساء، الآية: (٤٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٦٧).

والعناد، والشرود عن الانقياد)[١].

لهذا حذر الشارع عباده المؤمنين من هذه الخصلة الجاهلية، ودعاهم إلى مخالفتهم بدعوتهم إلى السمع والطاعة لأمر الله ورسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾[٢].

قال الطبري أي: (أطيعوا الله فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، ولا تدبروا عن رسول الله ﷺ مخالفين أمره ونهيه، وأنتم تسمعون لقوله وتزعمون أنكم منه، فلا تكونوا كالمشركين في الإعراض عن أمر رسول الله، وترك الانتهاء عما نهى، وهم يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم)[٣].

وقال أيضًا: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[٤].

أي: (اسمعوا ما يقال لكم، وما توعظون به، فاعملوا به، وانتهوا إليه)[٥].

وقال أيضًا: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا

---

(١) تفسير السعدي (١٨١).

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: (٢٠، ٢١).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٠٩).

(٤) سورة المائدة، الآية: (١٠٨).

(٥) تفسير الطبري (٥/ ١٢٤).

لِّأَنفُسِكُمْ ﴾(١).

قال الطبري أي: (اسمعوا لرسول الله ﷺ، وأطيعوه فيما أمركم به، ونهاكم عنه)(٢).

وقال الرازي - رحمه الله - أيضًا في تفسيره للآية: (أي اسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم سماع اليهود)(٣).

ثم عمد الباري عز وجل إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بتذكير عباده المؤمنين بميثاقه الذي واثقهم به عندما آمنوا به، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(٤).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في بيان المراد بالميثاق: (أي عهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة له في المنشط، والمكره، والعُسر، واليسر، فأوفوا أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به، ونعمته التي أنعم عليكم في ذلك بإقراركم على أنفسكم بالسمع له، والطاعة فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، يفِ لكم بما ضمن لكم الوفاء به بإدخالكم جنته)(٥).

---

(١) سورة التغابن، الآية: (١٦).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ١١٩).

(٣) التفسير الكبير (١/ ٦٣٥).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٧).

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٤٨١ - ٤٨٢).

لهذا امتدح الشارع عباده المؤمنين الذين تلقوا أمره، وأمر رسوله بالسمع والطاعة، فامتثلوا أوامـره، واجتنبوا نواهيه، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾(١). قال المفسرون أي: سمعنا قول ربنا، وأمره إيانا بما أمرنا به، ونهيه عما نهانا عنه، ففهمناه وأطعناه فقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه، وسلمنا له(٢).

وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٣). قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية أي: (المخلدون في جنات الله هم الذين إذا دعوا إلى أمر الله ورسوله قالوا سمعنا وأطعنا)(٤).

وكما نص الشارع على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، كذلك نص النبي ﷺ بذلك؛ فحين نزلت على النبي ﷺ الآية التي قال تعالى فيها: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٥٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٣).

(٣) سورة النور، الآية: (٥١).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٤١).

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] أتى الصحابة النبي ﷺ فجثوا على الركب، وقالوا: لا نطيق ولا نستطيع، كلفنا من العمل ما لا نطيق ولا نستطيع، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾[٢] فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٣]. فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[٤]»[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مبينًا مراد النبي ﷺ في هذا التحذير: (لقد حذرهم النبي ﷺ أن يتلقوا أمر الله بما تلقاه أهل الكتابين - اليهود والنصارى - فأمرهم بالطاعة، فشكر الله لهم ذلك، حتى رفع عنهم الآصار والأغلال التي كانت على من كان قبلنا)[٦].

وعلى هذا فالمؤمن هو من سمع أمر الله ورسوله ﷺ سماع إجابة،

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٨٥).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٨٥).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق وبيان حكم الهم بالحسنة والسيئة برقم (٣٢٩) بمثله (٦٩٩). موسوعة الحديث الشريف والإيمان لابن منده (٣٦٦/١).

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم (١١٣ - ١١٤).

وعمل على تحقيق ذلك بالعمل بمقتضى ما سمع ظاهرًا وباطنًا.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن أفضل أنواع السماع: (إن السماع المنتفع به هو سماع الإجابة، لا مجرد سماع الإدراك، والمقصود بسماع الإجابة: هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذنان فبه تزول آثار الوحشة والتي سببها ترك الانقياد التام)[١].

وقد برزت هذه الخصلة عند أهل النفاق على مختلف أجناسهم، وأزمانهم التي ظهروا فيها، فهؤلاء ممن آمنوا ظاهرًا دون الباطن، فقالوا سمعنا ظاهرًا وعصوا باطنًا.

كذلك برزت عند أهل الأهواء والبدع والضلالات الذين غلبت أهواؤهم وشهواتهم على اتباعهم لأمر الله ورسوله، وقد تمثل ذلك في إعراض البعض منهم عن حكم الله ورسوله إلى التحاكم إلى غيره، أو بالتبرك بالقبور ببناء القباب عليها، أو بمخالفة المنهج الحق في إثباتهم لأسماء الله وصفاته مع علمهم بذلك، أو بترك العمل بأمر الله تعالى أو أمر رسوله ﷺ في الكثير من أمور العبادات، مع العلم بفرضيتها[٢].

* * *

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٨٧).

(٢) للاستزادة. انظر: تيسير العزيز الحميد (٢٦٢)، شرح رياض الصالحين (١/ ٣٨٠).

المسألة الثالثة والعشرون بعد المائة
الحرص على الحياة بسبب ما قدمت أيديهم

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إلى أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين على حدٍ سواء، وهو حرصهم الشديد على الحياة، وكراهيتهم للموت لعلمهم بسوء ما قدموا من أعمال، وخوفهم من سوء عاقبتهم في الآخرة.

لهذا ذمهم الشارع على هذه الخصلة، فقال: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(١).

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير للآية: (أي لتجدن اليهود أشد حرصًا من المشركين على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهةً للموت، لعلمهم بما لهم في الآخرة من الخزي والهوان الطويل)(٢).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على ذم هذه الخصلة، وذمهم عليها كما في الآية السابقة، مع العلم أنها لم تكن هي الآية الوحيدة التي ذم فيها الشارع هذه الخصلة، بل وردت آيات كثيرة ذم فيها الباري – عز وجل – هذه الخصلة في جميع صورها التي تمثلت

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٩٦).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٧٣).

وظهرت بها، وإن اختلفت هذه الصور في ظاهرها، إلا أن جميعها متفقة في المضمون؛ وهو الحرص على الحياة وكراهية الموت خوفًا مما بعده.

فلشدة حبهم وحرصهم على الحياة طال بهم الأمل، فعطلوا الفرائض، وغفلوا عن ذكر الله، وسوفوا بالتوبة، فنبع في قلوبهم الخوف من الموت.

لهذا أكد الشارع في الوقت نفسه على النص بأن الموت هو مصيرٌ لكل نفس، فدعا إلى وجوب اغتنام الحياة الدنيا بالعمل الصالح للفوز في الدار الآخرة، وحذر من الحرص على الحياة الدنيا، وإلى التوسط بها.

فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٨٥).

(٢) سورة يونس، الآيتان: (٧، ٨).

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: (٢، ٣).

(٤) سورة النازعات، الآيات: (٣٧ – ٣٩).

ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾(٤).

كما خالف النبي ﷺ في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فزهد عليه الصلاة والسلام في هذه الحياة الدنيا، وحث على الزهد فيها، ورَغِبَ ورغَّبَ في الحياة الآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»(٥)، وقال أيضًا: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»(٦)، وقال أيضًا: «موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولغدوة

(١) سورة الأعلى، الآيتان: (١٦، ١٧).

(٢) سورة القصص، الآية: (٧٧).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

(٤) سورة فاطر، الآية: (٥).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الرقاق. باب ما جاء في الصحة والفراغ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة برقم (٦٤١٣، ٦٤١٤) بمثله (٥٣٩)، ومسلم في صحيحه في كتاب الجهاد. باب غزوة الأحزاب وهي الخندق برقم (٤٦٧٢، ٤٦٧٣، ٤٦٧٤) بمثله (١٠٠٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الرقاق. باب قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» برقم (٦٤١٦) بمثله (٥٣٩). موسوعة الحديث الشريف.

في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها»[(١)].

وعلى نهجه ﷺ سار الصحابة الكرام، وحثوا على ذلك، فيقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: (ارتحلت الدنيا مدبرةً، وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل)[(٢)].

وقال ابن عمر - رضي الله عنه -: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[(٣)].

إن جميع النصوص السابقة جاءت لبيان كيفية مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك من خلال استغلال الحياة بالأعمال الصالحة، واليقين بأن لكل حياةٍ نهاية، فلابد من الحرص على هذه الحياة ببذلها وفق ما يرضي الله، ولا يضاد ذلك أن يحب العبد الحياة فيأخذ من الدنيا حظه، ومعلوم أن حرص الناس على الحياة أمرٌ غريزي في الجميع، إلا أن الناس في الحرص متفاوتون في القوة والكيفية والأسباب، فلابد أن يكون هذا الحرص

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق. باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة برقم (٣٢٥٠) بمثله (٢٦٣)، وفي كتاب الرقاق. باب مثل الدنيا في الآخرة برقم (٦٤١٥) بمثله (٥٣٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الرقاق. باب الأمل وطوله، ص(٥٣٩)، موسوعة الحديث الشريف.

(٣) صحيح البخاري. كتاب الرقاق. باب قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، ص(٥٣٩)، موسوعة الحديث الشريف.

مصحوبًا بالشفقة من الموت واليقين بمجيئه لا محالة، حتى لا يغتر المرء بهذه الحياة، فيأخذه طول الأمل فيها؛ ومن ثم يؤثرها على الحياة الآخرة، فيخسر بذلك حظ الدنيا والآخرة.

فقد قال العلماء عن ذلك: ينبغي للعبد أن تصحبه الشفقة أبدًا ما صحب الدنيا، لأنه لا يدري على ما يموت، وبم يختم له، وعلى ما يلقى الله عز وجل، وإن عمل كل عمل من الخير(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد أخبر سبحانه وتعالى عمّا يمنع العبد من إيثار ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة، وهو حب العاجلة، وإيثارها على الآخرة، تقديمًا لداعي الحس على داعي العقل، وقد جعل الله - سبحانه وتعالى - استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران)(٢).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – عن ذلك أيضًا: (مفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شر حب الدنيا، وطول الأمل)(٣).

أخيرًا: فإن هذه الخصلة ما تزال موجودةً حتى عصرنا الحاضر، فالناظر في حال أهل الكفر من اليهود والنصارى وغيرهم يجد أن لسان حالهم ينطق بشدة حرصهم على الحياة، واستبعادهم للموت، وقد تمثل ذلك في أكلهم

---

(١) السنة للبربهاري (٨٨).

(٢) جامع الرسائل (١/ ٧٥)،وللاستزادة انظر. الفتاوى (٧/ ٥٦٠).

(٣) حادي الأرواح (٥٠) وللاستزادة انظر: عدة الصابرين (١٧٦ – ١٨٥).

للحرام، واستباحتهم له، وخيانتهم للعهود والمواثيق وسعيهم في الأرض فسادًا، واغتصابهم للأموال والأعراض[١].. ولا عجب من ذلك فهؤلاء أقوام غرتهم الدنيا، وأعرضوا عن الحق، ولكن العجب حين تظهر هذه الخصلة عند بعض المسلمين، مما دفع الكثير منهم إلى التحايل على أوامر الشارع ونواهيه، والاستمراء على أكل الحرام، وسماع الحرام ورؤيته، فطال بهم الأمل، وسوّف الكثير منهم بالتوبة، متناسين أن وراءهم يومًا كان شره مستطيرًا.

* * *

(١) للاستزادة: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (١٥٣ – ١٥٥).

المسألة الرابعة والعشرون بعد المائة
عداوة بعض الملائكة كجبريل

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية التي ظهرت، واشتهرت عند اليهود، ووافقتهم عليها الرافضة، وهي عداوتهم لبعض الملائكة، وذمهم، كعداوتهم لجبريل - عليه السلام - ، معللين ذلك بأن جبريل - عليه السلام - لا ينـزل إلا بالحرب، والقتل، والعذاب كما تزعم بذلك اليهود، أو لأنه خان الرسالة التي أرسله الله بها حين بعثه الله عز وجل لينـزل بالوحي على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، فنـزل به على محمد ﷺ كما زعمت بذلك جماعة من الروافض.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين خص جبريل - عليه السلام - بالذكر في عدة نصوص من كتابه تشريفًا له، ولبيان فضله وعلو منـزلته.

وقد نص على أن من عادى جبريل - عليه السلام - أو عادي غيره من الملائكة، فقد عادى الباري - عز وجل -، وأن معاداة جبريل - عليه السلام - كفرٌ بالله وآياته. فالواجب علينا محبته ومحبة سائر الملائكة، لأن محبتهم من الإيمان بهم، فمحبتهم عقيدةٌ ندين بها إلى الله، ونتقرب بها إليه من غير إفراط أو تفريط، لهذا حذرنا الباري من معاداتهم عامة، أو معاداة جبريل خاصة، فقال تعالى في ذلك: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ

فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[١] وسبب نزول هذه الآية: «أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبيّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: «جبريل» قالوا: ذاك الذي ينـزل بالحرب، وبالقتال، وذلك عدوّنا! لو قلت: ميكائيل الذي ينـزل بالقطر، وبالرحمة تابعناك؛ فأنزل الله الآية...» [٢].

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (لقد دلت الآية الأولى على شرف جبريل - عليه السلام - وذمّ معاديه، ثم دلت الآية الثانية على الوعيد والذم لمن عادى جبريل - عليه السلام -، والإعلان عن أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم، وعداوة العبد لله: هي معصيته واجتناب طاعته، ومعاداة أوليائه، وعداوة الله للعبد تعذيبه، وإظهار أثر العداوة عليه، وقد خص الله جبريل، وميكائيل - عليهما السلام - بالذكر تشريفًا لهما، ولأن اليهود ذكروهما)[٣].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: (لقد حكم الله في هذه الآية بالكفر على من عادى جبريل؛ لأن من عادى جبريل فإنه عدو لله؛ ولأن جبريل لا ينـزل بالأمر من تلقاء نفسه؛ وإنما ينـزل بأمر ربه)[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: (٩٧ – ٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب أحاديث الأنبياء. باب خلق آدم وذريته برقم (٣٣٢٩) بنحوه مطولاً (٢٦٨)، وفي كتاب مناقب الأنصار. باب (٥١) برقم (٣٩٣٨) بنحوه مطولاً (٣٢٢)، وفي كتاب التفسير. باب (من كان عدوًا لجبريل) برقم (٤٤٨٠) بنحوه مطولاً (٣٦٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٣٨).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٣)،وللاستزادة انظر: الفصل في الملل (٣/ ٢٦٠).

وعن هذه الآية يقول الشيخ ابن سعدي – رحمه الله –: (كذلك دلت الآية على تناقض اليهود، وتهافتهم، وتكبرهم على الله، حين نص الباري على أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلب نبيه، وهو الذي ينـزل على الأنبياء من قبله، فهو رسول محض. فعداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينـزل به من عند الله من الحق على رسل الله. فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك)[١].

لهذا فإن الذم والوعيد الوارد في الآية لمن عادى جبريل عليه السلام بصورةٍ خاصة أو الملائكة بصورةٍ عامة، ليس خاصًا باليهود فقط، بل هو عام في كل من عادى جبريل – عليه السلام – خاصة، أو الملائكة عامة في أي زمان أو مكان.

إلا أن هذه الخصلة ظهرت كما بينت سابقًا عند الروافض، لهذا حذر علماء الإسلام في كل عصر منهم، فقالوا: (احذروا الأهواء المضلة، وشرها الروافض، وذلك أن منهم يهود يغمصون الإسلام لتحيا ضلالتهم... فقد دخلوا في الإسلام مقتًا لأهله، وطعنا عليهم، فمحنة الرافضة محنة اليهود، فاليهود يبغضون جبريل، ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الرافضة يقولون: غلط بالوحي إلى محمد ﷺ)[٢]. فنسأل الله العافية.

* * *

(١) تفسير السعدي (٦٠).

(٢) للاستزادة انظر: السنة للخلال (٣/ ٤٩٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة. للالكائي (٨/ ١٥٥١)، الفرق بين الفرق (٢٢٥)، تلبيس إبليس (١١٩)، منهاج السنة (١/ ١٧، ٢٠).

المسألة الخامسة والعشرون بعد المائة
إنكار النسخ كما حكى الله عن اليهود

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند اليهود، والتي تجلت فيها أحد صور كفرهم وعنادهم للحق حين أنكروا نسخ الله للشرائع، زعمًا منهم أن النسخ يستلزم البداء، والبداء محال على الله؛ مع العلم أن هناك فرقًا بين النسخ والبداء.

فالنسخ في اللغة: هو إبطال الشيء، وإقامة آخر مقامه[(١)].

والنسخ اصطلاحًا: قال الطبري: (هو نقل حُكم آية، إلى غيره وبدله، وذلك بأن يحول الحلال حرامًا، والحرام حلالاً، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي. أما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ)[(٢)].

والبداء في اللغة: ظهور الرأي بعد أن لم يكن[(٣)].

البداء اصطلاحًا: قال النحاس[(٤)]: (هو ترك ما عزم عليه، كقولك:

---

(١) لسان العرب (٣/ ٦١).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٢١).

(٣) التعريفات (٥٨).

(٤) هو: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري المعروف بالنحاس، اللغوي، المفسر، من مصنفاته كتاب الناسخ والمنسوخ، شرح أبيات سيبويه. توفي سنة ٣٣٨هـ. انظر: البداية والنهاية (١١/ ٢٢٢).

امض إلى فلان اليوم، ثم تقول: لا تمض إليه، فيبدو لك عن القول الأول، وهذا يلحق البشر لنقصانهم، وكذا إذا قلت ازرع كذا في هذه السنة، ثم قلت: لا تفعل، فهذا البداء)(١).

وقال القرطبي - رحمه الله -: (لقد جعلت اليهود النسخ والبداء شيئًا واحدًا؛ لذلك لم يجوّزوه فضلُّوا)(٢).

وقال أحد العلماء عن هذه الخصلة عند اليهود: (لقد زعمت اليهود أنه يستحيل من الله أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه، ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً، والطاعة معصية، والباطل حقًا، والمعصية طاعة)(٣).

وقال آخر: (قال اليهود بعدم جواز النسخ لأن النسخ في الأوامر كما يزعمون بداء، ولا يجوز البداء على الله تعالى؛ فالشريعة لا تكون إلا واحدة، ابتدأت بموسى - عليه السلام -، وتمت به، فلا يكون بعده شريعة أصلاً، وما كان قبله ليس بشريعة، إنما هو حدود عقلية، وأحكام مصلحية)(٤).

ويستشهد اليهود على زعمهم هذا بنصوص وردت في كتبهم تقول: (يَبِسَ العشب، ذَبُلَ الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبُت إلى الأبد)(٥)... وقالوا

---

(١) الناسخ والمنسوخ: لأبي جعفر النحاس. ت: محمد عبد السلام محمد. مكتبة الفلاح. الكويت، (ط١)، ١٤٠٨هـ، ص(٦٢).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٦٢).

(٣) الفصل في الملل والنحل (١/ ١٠٠).

(٤) الملل والنحل (٩٥).

(٥) العهد القديم. سفر إشعياء (٤: ٨) ص(١٠٣٩).

أيضًا في موضع آخر: (الحق أقول لكم: قبل أن تزول السماء والأرض لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء)[١]. وقالوا أيضًا: (السماء والأرض تزولان وكلامي لن يزول)[٢]. إن الناظر لكلام اليهود يعتقد أنهم أنكروا النسخ على الله تنـزيهًا له تعالى، مع العلم أنه لم يكن ذلك هو مرادهم من الإنكار، فمرادهم في الحقيقة هو الكفر والعناد.

وعن ذلك يقول أهل العلم: لم يكن مقصد اليهود من إنكار النسخ على الله تنـزيها له كما يزعمون في ظاهرهم، إنما هو من باب الكفر والعناد؛ فقد تواطؤوا على امتناع النسخ على الله فيما شرعه لعباده تمسكًا منهم باليهودية، وإنكارًا لنبوة النبي محمد ﷺ[٣].

لهذا خالفهم الباري عز وجل في محكم كتابه بالنص الصريح على إثبات وجود النسخ في كتابه، فقال تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾[٤].

---

(١) العهد الجديد: إنجيل متى (٥: ١٨) ص(١١).

(٢) العهد الجديد: إنجيل متى (٢٤: ٣٢ – ٣٥) مرقس (١٣: ٢٨ – ٣١) لوقا (٢١: ٣٣) ص(٦٩، ١٢٨، ٢١٦).

(٣) للاستزادة. انظر: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: لمحمد الطيب الباقلاني. ت: عماد الدين أحمد حيدر. مؤسسة الكتب. بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤٠٧هـ (١٨٧)، الفصل في الملل والنحل (١/ ١٠٠)، الإرشاد: للجويني (٣٣٨، ٣٣٩)، تلبيس إبليس (٨٩)، هداية الحيارى (١٤٩)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٤٧، ٢٥٢)، البدائع في علوم القرآن (١٩٣ – ١٩٤).

(٤) سورة البقرة، الآيتان: (١٠٦ – ١٠٧).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره للآية: (في هذه الآية ردٌّ عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود، وتزييف لشبهتهم في دعوى استحالة النسخ، وتكذيب لهم حين أنكروا نسخ التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة، فأخبرهم سبحانه وتعالى في هذه الآية بأن له ملك السموات، والأرض، وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته، وطاعته، وعليهم السمع والطاعة، لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه)(١).

كما خالفهم الباري حين نص على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وبيّن موقف اليهود والمنافقين من هـذا النسخ، فقال تعـالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢) ثم بيّن بعدها مباشرةً الحكمة من النسخ فقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾(٣).

قال القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره: (في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى وكتابه ناسخًا ومنسوخًا، وقد أجمعت الأمة على

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٢).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٤٢).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

ذلك إلا من شَذّ من المتأخرين، وهم محجوجون بإجماع السلف، أما طوائف اليهود المنكرة للنسخ، فهم محجوجون أيضًا بما جاء في توراتهم ما يثبت ورود النسخ، كأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم... وغيره كثير)[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: (لقد ارتابت اليهود والمنافقون حين نسخت القبلة من بيت المقدس نحو الكعبة، فأنكر اليهود استقبال المؤمنين للكعبة، مع علمهم أن الله سيوجه نبيه إليها كما ورد ذلك في كتبهم عن أنبيائهم)[(٢)]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ ﴾[(٣)].

قال ابن كثير والمراد بهذه الآية أي: (يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن اليهود كانوا يعلمون أن الله سيوجه نبيه إلى الكعبة مما ورد في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به، وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكنهم كتموا ذلك بينهم حسدًا، وكفرًا، وعنادًا، لهذا تهددهم تعالى، وأخبر بأنه لو أقام عليهم كل دليل على

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٦٣، ١٤٧)، وللاستزادة انظر: تلبيس إبليس (٨٩)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥١ - ٢٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٣ - ١٩٥).

(٣) سورة البقرة، الآيتان: (١٤٤، ١٤٥).

صحة ما جاءهم به النبي ﷺ لما تبعوه وتركوا أهواءهم)[(١)].

كما وقد خالفهم الباري حين نص على إثبات النسخ من التوراة لما قبلها من الشرائع، فكما أجازوا له تعالى أن ينسخ بالتوراة ما قبلها من الشرائع؛ فكيف يحرمون عليه أن ينسخ بشرائع القرآن شرائع التوراة، قال تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[(٢)].

قال ابن كثير - رحمه الله - عن هذه الآية: (لقد أخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الطعام كله كان حلاً لهم، قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائمًا، وأنه لم يبعث نبيًا آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين، والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ فأولئك هم الظالمون)[(٣)].

كذلك خالفهم حين نص على وقوع النسخ لبعض شرائع التوراة قبل نسخ القرآن لها بنصوص الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام فقال تعالى عنه: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٣ - ١٩٥).

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: (٩٣ - ٩٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٣).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٥٠).

قال ابن كثير - رحمه الله -: (أي جاءهم مقررًا للتوراة، ومثبتًا وناسخًا لبعض شرائعها)(١).

ثم جاء الإسلام بشرائعه ناسخًا لجميع الشرائع السابقة، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾(٢). قال القرطبي - رحمه الله - أي: (أظهر دين الإسلام على الأديان، وأكمل شرائعه وأحكامه، فرضي الإسلام لنا دينًا باقيًا كاملاً لا ناسخ له)(٣).

وقد خالف النبي ﷺ في هديه أهل الجاهلية في هذه الخصلة قولاً، وعملاً، فقد امتثل أمر الله - عز وجل - حين نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فتوجه في صلاته إلى البيت الحرام في مكة.

وحين وقع النسخ لبعض الشرائع على لسانه ﷺ حين نسخ الوصية للوارث(٤)، وحين نسخ النهي عن زيارة القبور(٥)... وغيرها من الشرائع

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٦).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٦١ - ٦٢).

(٤) انظر: ما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الوصايا. باب لا وصية لوارث برقم (٢٧٤٧)، ص(٢٢٠)، وفي كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (ولكم نصف ما ترك أزواجكم) برقم (٤٥٧٨)، ص(٣٧٧)، وفي كتاب الفرائض. باب ميراث الزوج مع الولد وغيره برقم (٦٧٣٩)، ص(٥٦٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) انظر: ما أخرجه مسلم في صحيحه. في كتاب الجنائز. باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه برقم (٢٢٦٠)، ص(٨٣١). موسوعة الحديث الشريف.

التي أثبتت حصول النسخ في الشريعة الواحدة، مما يدل على حصوله بين الشرائع المختلفة من باب أولى.

ومعلوم أن وقوع النسخ في الشرائع عائدٌ لعموم مشيئته وحكمته، وأن التحريم والتحليل تابعان لمصلحة العباد، فالمصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال، لهذا يعجب المرء حين يحرم اليهود على الله نسخ شرائعه التي شرعها لعباده، ويبيحون ذلك لأحبارهم وعلمائهم، وهذا إن دل فهو دال على فساد عقولهم وتهافتها.

وعن ذلك يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (من العجب على هذه الأمة الغضبية أنها تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه. ويجوّزون ذلك لأحبارهم وعلمائهم)[1].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥١ - ٢٥٢)،وللاستزادة انظر. البدائع في علوم القرآن (١٩٣ - ١٩٤).

المسألة السادسة والعشرون بعد المائة
اقتراح الآيات مع عدم الإيمان بها

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية التي تمثلت في موقف كل أمة من الأمم السابقة مع أنبيائهم - عليهم السلام -، فما من رسولٍ إلا وبعث الله معه ما يؤيده من الآيات البينات الدالة على صدق دعواه، والمستلزمة إقامة الحجة على أقوامهم، إلا أن موقف كل أمةٍ من هذه الأمم قد اتسم بالتكذيب والتعامي عن الحق تجاه كل هذه الآيات، وليس هذا فحسب؛ بل طلبوا من أنبيائهم أن يأتوهم بآيات اقترحوها من عند أنفسهم، وما كان اقتراحهم لمثل هذه الآيات طلبًا للاهتداء إلى الحق، وإنما قصدوا منه التعنت والعناد والاستكبار، وقد أشار الباري - عز وجل - في محكم كتابه إلى وجود هذه الخصلة عند جميع الأمم، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. قال المفسرون في المراد بقولهم ﴿ بِسُلْطَٰنٍ

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: (٩، ١٠).

مُّبِينٍ ﴾ : أي بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبيانات، وإنما أرادوا بالسلطان المبين أي آية خارقة قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا(١).

ثم سمى لنا الباري - عز وجل - البعض من هذه الأمم الذين تمثلت لديهم هذه الخصلة الجاهلية، والتي عبروا من خلالها عن شدة عنادهم، واستكبارهم، وكفرهم بالحق.

فقال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٣).

وقال تعالى عن قوم عيسى عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾(٤).

وقال تعالى عن فرعون وملئه تجاه موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٥)، وقال تعالى أيضًا عما

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٢٥٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٦).

(٢) سورة هود، الآية: (٥٣).

(٣) سورة الشعراء، الآية: (١٥٤).

(٤) سورة المائدة، الآية: (١١٢).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٠٦).

اقترحه بنو إسرائيل لكي يؤمنوا بموسى عليه السلام ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾(١).

وقال تعالى عن موقف قريش تجاه نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾(٢).

قال الطبري - رحمه الله -: (لقد أنزل الله الآية السابقة على نبيه ﷺ بسبب ما قاله ملأ قريش حين اجتمعوا لمناظرة النبي ﷺ ومُحاجته، فكلموه بما أخبر الله عنهم في هذه الآيات)(٣).

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: (لو علم الله من هؤلاء الذين اجتمعوا في هذا المجلس أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا)(٤).

لهذا فما من أمةٍ من الأمم جاءهم ما اقترحوا من الآيات، ثم كفروا بها

(١) سورة البقرة، الآية: (٥٥).
(٢) سورة الإسراء، الآيات: (٩٠ - ٩٣).
(٣) تفسير الطبري (٨/ ١٤٩ - ١٥٠).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣).

إلا أخذهم الله - عز وجل - بعذاب الاستئصال؛ وذلك لأن الآيات لا تستلزم الهدى، ولكنها توجب إقامة الحجة، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها، كما حصل لقوم هود حين كفروا بآيات الله، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[1].

وقال تعالى عن عاقبة قوم ثمود حين كفروا بالآيات: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]، وقال أيضًا عن عاقبة فرعون وملئه: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾[3]، وقال أيضًا عن عاقبة بني إسرائيل حين طلبوا رؤية الله ليؤمنوا بموسى عليه السلام: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[4]، وقال تعالى متوعدًا القوم الذين سألوا عيسى عليه السلام أن ينـزل عليهم مائدة من السماء: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة هود، الآيات: (٥٨ - ٦٠).

(٢) سورة الشعراء، الآية: (١٥٨).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٣٦).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٥٥).

(٥) سورة المائدة، الآية: (١١٥).

قال الطبري - رحمه الله -: (لقد جحد القوم وكفروا بعدما أنزلت عليهم، فيما ذكر لنا، فعذبوا، فيما بلغنا بأن مسخوا قردة وخنازير)[١].

لهذا بيّن الله - عز وجل - في محكم كتابه الحكمة من إرساله للآيات، فقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[٢]، (أي: لعل الناس يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون)[٣].

وقد خالف الباري - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنص في مواضع كثيرة من كتابه بعدة طرق:

أولاً: تكذيبهم في زعمهم عن السبب الذي لأجله اقترحوا الآيات، وهو الإيمان، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾[٤].

ثانيًا: نصه تعالى على أنهم كذبوا وأعرضوا عن جميع الآيات التي بعثها الله مع أنبيائه ابتداءً، فإذا كان هذا هو موقفهم من الآيات التي بعثها الله لهم ابتداءً ليستبين الحق لهم، ورغم هذا كذبوا، فلا شك في أن يكون موقفهم ومقصدهم من اقتراح الآيات بعد معرفتهم للحق هو الكفر والعناد والاستكبار عن قبول الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٣٦).
(٢) سورة الإسراء، الآية: (٥٩).
(٣) تفسير الطبري (٨/ ١٠٠).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١١١).

رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[(٥)].

ثالثًا: بيّن سبحانه لماذا امتنع عن أن يرسل الآيات التي اقترحتها قريش على النبي محمد ﷺ؛ وذلك لأن الأولين قد كذبوا بها، فاستحقوا بذلك الهلاك بعذاب الاستئصال، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ ﴾[(٦)].

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعل بمن كان قبلهم)[(٧)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٤).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٢٥).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٤٦).
(٤) سورة الروم، الآية: (٥٨).
(٥) سورة يس، الآية: (٤٦).
(٦) سورة الإسراء، الآية: (٥٩).
(٧) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٤٤).

وقد تبين ذلك في الآيات التي ذكرت سابقًا، والتي نص فيها الباري - عز وجل - على إهلاكه لكل أمة من الأمم كذبت بالآيات التي اقترحوها بعد إرسالها لهم. لهذا حين سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال حتى يزرعوا، قال: فقيل له: إن شئت تستأنى بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: «لا بل أستأني بهم، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾»[1].

لهذا حذر الباري هذه الأمة من عاقبة هذه الخصلة حين بيّن عاقبة الأمم السابقة عندما اقترحوا الآيات، وكفروا بها بعد إرسالها لهم، فقال تعالى: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[2].

قال الطبري - رحمه الله -: (كسنة آل فرعون وعادتهم، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم والجاحدين للآيات، أهلكنا بعضهم بالرجفة، والبعض بالخسف، والبعض بالريح)[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٣٣) بمثله (٢٠١)، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى: في كتاب التفسير سورة الإسراء، باب قوله تعالى: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) برقم (١١٢٩) بمثله (٦/ ٣٨٠)، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه أحمد شاكر في المسند برقم (٢٣٣٣).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٥٢).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٦٩).

ثم بيّن تعالى أن هذه الخصلة علامة على غاية الجهل، فمن حُرم الاستدلال بالآيات الأولى وضل عنها، فسيحرم الاستدلال عند نزول غيرها وسيضل عنها، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾[١].

قال القرطبي - رحمه الله -: (بيّن الله تعالى أن اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق، حين طالبوا بالآيات، ثم بيّن أيضًا أنه كما أضلكم بعدما أنزل من الآيات، وحرمكم الاستدلال بها يضلكم عند نزول غيرها، في حين يهدي إليه من رجع إليه)[٢].

وعلق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على ذلك، فقال: (لقد أرسل الله رسوله بآيات بان بها الحق، وقامت بها الحجة، وكانوا يطلبون آيات تعنتًا فيظن من يظن أنهم يهتدون بها، لكن لا يحصل بها المقصود، وقد تكون موجبة لعذاب الاستئصال، فتكون ضررًا بلا نفع)[٣].

كما قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (قد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال، كما ذكره تعالى في كتابه، من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاءوا بها، فتارة يجيبهم الله إلى ذلك، لما فيه من الحكمة والمصلحة، وتارة لا يجيبهم، لما في

---

(١) سورة الرعد، الآية: (٢٧).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢٦٨).

(٣) النبوات (٤٣٧).

ذلك من المضرة والمفسدة...، فربما طلب النبي ﷺ تلك الآيات، رغبة منه في إيمانهم بها، فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى، بل تستلزم إقامة الحجة، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها)[١].

هذا والله أعلم.

* * *

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٥١٤).

المسألة السابعة والعشرون بعد المائة
منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها

يبيّن المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية الكتابيين والأميين على حدٍ سواء أنهم يمنعون عمارة المساجد بعبادة الله من ذكرٍ، وصلاةٍ، وقراءة، ويسعون في خرابها حقيقة ومجازًا، وخرابها حقيقة بهدمها، وإلقاء الأذى فيها، ومجازًا بمنع المؤمنين عن إقامة شعائر دينهم فيها.

وقد ظهرت هذه الخصلة عند النصارى، فقال مجاهد – رحمه الله – عن ذلك: (كان النصارى يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه)[1].

كما ظهرت هذه الخصلة عند اليهود، وعن ذلك يقول الرازي: (حين حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود، فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، كما سعوا أيضًا إلى تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضًا في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يصلّوا فيه متوجهين إلى القبلة)[2].

كما وقد ظهرت هذه الخصلة عند المشركين حين أخرجوا النبي ﷺ

---

(١) انظر.تفسير الطبري (١/ ٥٤٥)، تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ١١).

وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام حين جاءوا لمكة معتمرين[(١)]، واستحوذوا عليها بأصنامهم، فدعوا غير الله عنده، وطافوا بالمسجد عريًا[(٢)].

لهذا خالف الباري - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة الجاهلية حين نص في محكم كتابه أن هذه الخصلة تُعد من أشد التعدي والجراءة على الله، فقال - عز وجل - في محكم كتابه متوعدًا: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[(٣)].

وقد بين أئمة التفسير المراد بهذه الآية، فقالوا: أي لا أحد أظلم ممن منع أن تُعمر مساجد الله بذكر الله تعالى فيها، وبإقامة شعائر شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك، بل وسعى إلى خرابها حقيقة كتخريب النصارى بيت المقدس، وقذفهم فيه الأذى، وإلى خرابها مجازًا كمنع المشركين المسلمين حين صدوا الرسول ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام؛ ولهذا توعد الله من قام بذلك بالعار، والشر، والذلة، والقتل في الدنيا، وبعذاب جهنم في

---

(١) المراد حين منعوا النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة يوم الحديبية عام (٦هـ) حتى نحر هديه بذي طوى. للاستزادة. انظر: سيرة ابن هشام (٢٦٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٤٦)، تفسير القرطبي (٢/ ٧٥)، تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١١٤).

الآخرة(١).

قال ابن العربي - رحمه الله -: (لقد دلت هذه الآية على أن منع الصلاة من أعظم الإثم؛ لأن في منعها خرابٌ للمساجد، وتعطيلٌ لها، وقطعٌ بالمسلمين في إظهار شعائرهم وتأليف كلمتهم)(٢).

كما خالف الباري - عز وجل - أهل الجاهلية حين نهى عباده المعتكفين في المساجد عن مباشرة نسائهم حفاظًا على قلوبهم، حتى لا تُشغل إلا بذكر الله تعظيمًا وإجلالاً له تعالى، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾(٣).

كذلك خالفهم حين أمر سبحانه وتعالى عباده بإخلاص العبادة له عند القيام بها في كل مسجدٍ، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾(٥). كما خالفهم حين شهد سبحانه وتعالى بأن عمارة بيوت الله تعالى لا تكون إلا على يد المؤمنين بالله، الوجلين منه، فيرجى لهؤلاء أن يكونوا من عباده المهتدين، قال تعالى:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٤٧-٥٤٨)، تفسير القرطبي (٢/ ٧٥)، تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٧).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٨٧).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٢٩).

(٥) سورة الجن، الآية: (١٨).

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(١)، وقد قال بمثل هذه الشهادة نبي الرحمة ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾» (٢).

لهذا نبه سبحانه وتعالى عباده إلى وجوب تكريم المساجد، وحفظها من اللغو، وامتدح عباده الذين لم تشغلهم الدنيا بمتاعها عن عمارة المساجد بذكر الله، فقال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾(٣).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (البيوت هي المساجد تُكرم، ونهى عن اللغو فيها)(٤).

ويقول الطبري - رحمه الله -: (ذكر تعالى رجالاً يصلون في هذه المساجد أنهم لم تشغلهم التجارة، والبيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة فيها،

---

(١) سورة التوبة، الآية: (١٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١٦٧٤، ١١٧٤٨) بمثله (٨٠٠، ٨٠٥)، وابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة برقم (٨٠٢) بمثله (٢٥٢٤)، موسوعة الحديث الشريف، وصححه ابن خزيمة برقم (١٥٠٢)، وابن حبان برقم (١٧٢١)، والحاكم (١/ ٢١٢)، وفي أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٢٧)، وقال الألباني: ضعيف.

(٣) سورة النور، الآيتان: (٣٦ – ٣٧).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٣١).

بحدودها، وفي أوقاتها[١]. لهذا ظهرت مخالفة النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بعدة طرق:

أولها: حين شهد بالإيمان لمن حرص على الصلاة فيها، كما جاء سابقًا، فهذه الشهادة تتضمن امتداحًا لمن عمرها بالصلاة.

ثانيًا: حين حث على شهود الجمعة والجماعة والعيدين في المساجد.

ثالثًا: حثه على بنائها مبينًا الأجر العظيم المترتب على ذلك في الآخرة، فقال: «من بنى مسجدًا... يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[٢].

رابعًا: حثه على وجوب طهارتها ونصه على أنها للذكر والصلاة، كما في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد[٣] وغيرها كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (لقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسول الله ﷺ شرع لأمته عمارة المساجد بالصلوات، والاجتماع للصلوات الخمس، ولصلاة الجمعة والعيدين وغير ذلك)[٤].

ولذلك حذر علماء السلف - رحمهم الله تعالى - من أهل البدع والضلالات ممن ظهرت عندهم بدعٌ وضلالات قصدوا بها بث الوهن في الإسلام، فمنعوا الجمع والجماعات، وسعوا لتعطيل المساجد والجوامع كالجهمية، فقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - عنهم: (الجهمي كافر وليس

(١) تفسير الطبري (٩/ ٣٣٢).
(٢) سبق تخريجه ص(٥٦٧).
(٣) سبق تخريجه ص(٥٦٧).
(٤) منهاج السنة (١/ ٢٩٩).

من أهل القبلة؛ لأنه قال: لا جمعة ولا جماعة ولا عيدين، وأراد تعطيل المساجد والجوامع)[١].

ولم تقتصر هذه الخصلة في ظهورها فقط عند الجهمية، بل وظهرت عند الروافض والصوفية إلا أنها ظهرت بطابعٍ آخر، ولكنها أدت إلى نفس النتيجة، وهي تعطيل المساجد ونشر البدع والضلالات فيها، حيث صرفوا أمر الباري - عز وجل - لعمارة المساجد بذكره وعبادته، إلى عمارة المشاهد والقبور، والمحافظة عليها ومن ثم تعطيل المساجد.

قال ابن الجوزي[٢] عن الصوفية: (لبَّس إبليس على جماعة الصوفية، فاعتزلوا في الأربطة، ففاتتهم الجمعة والجماعة، والسعي إلى المساجد)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن الروافض: (لقد أمر الله في كتابه بعمارة المساجد، ولم يذكر المشاهد، إلا أن الرافضة بدّلوا دين الله، فعمروا المشاهد التي على القبور، وخربوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه، فعطلوها عن الجماعات والجمعات.. مضاهاة للمشركين، ومخالفة للمؤمنين)[٤].

---

(١) السنة للبربهاري (٩٣).

(٢) هو: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي. ولد عام (٥١٠هـ). من علماء عصره تفرد بفن الوعظ. من مصنفاته: المنتظم، الناسخ والمنسوخ. توفي عام (٥٩٧هـ). انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٨).

(٣) تلبيس إبليس (٣٥٢).

(٤) للاستزادة انظر: الفتاوى: لابن تيمية (١٧/ ٤٩٧)، (٢٧/ ١٩١ - ١٩٢)، اقتضاء الصراط المستقيم (٥٠١)، منهاج السنة (١/ ٢٩٦ - ٢٩٩).

هذا وقد ظهرت هذه الخصلة جلية للعيان في عصرنا الحاضر، فما حصل وما يحصل من اليهود تجاه المسلمين في فلسطين، والذي تمثل في إحراقهم للمسجد الأقصى، ومنعهم المصلين بين الحين والآخر من الصلاة فيه، وما يحصل من الهندوس تجاه مساجد المسلمين في بلاد الهند، وذلك بإحراقهم لها، وقتل المصلين في داخلها، ومنعهم من الصلاة فيها، كذلك ما يحصل من النصارى في البلاد الأوربية من أخذ المساجد، وتحويلها إلى كنائس، ما هي إلا صور حية تمثل هذه الخصلة. فالله المستعان.

* * *

المسألة الثامنة والعشرون بعد المائة
كونهم إذا حجوا أو اعتمروا لم يدخلوا البيوت من أبوابها

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية الأميين بأنهم كانوا إذا حجوا أو اعتمروا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، وإنما من ظهورها ويرونه بِرًا.

وهكذا عُهد عن مشركي العرب في الجاهلية أنهم كانوا يتقربون إلى الله بأفعالٍ لم يأمرهم بها الشارع، ولم يندب إليها، بزعم أنها من الطاعة والبر، والتي منها ما ذكره المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة.

فقيل عن ذلك: (إن مشركي العرب كانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها أيام منى، وهم محرمون بحج أو عمرة، ولا يستظلون تحت سقف، ويقولون: لا ينبغي أن يحول بيننا وبين السماء شيء. لهذا كانوا إذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهور بيوتهم، وأدبارها حتى يظهروا على السطوح، ثم ينزلون في حجرتهم، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب، وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا من خلف الخيام بزعم أن قيامهم بهذا الفعل من البر والقربة لله تعالى)(١).

---

(١) انظر: أخبار مكة: لأبي الوليد محمد الأزرقي. ت: رشدي الصالح ملحس. دار الأندلس للنشر. بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م (١/ ١٨١)، المعارف: لابن قتيبة، ص(٦١٦)، البدء والتاريخ: للمطهر بن طاهر المقدسي، (٤/ ٣٣) تاريخ اليعقوبي: لأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي. دار صادر. بيروت (١/ ٢٥٦).

وقد نص الشارع - عز وجل - على إبطال هذه الخصلة الجاهلية، وعلى فساد المعتقد الذي قامت لأجله، وعلى الدعوة إلى مخالفتها، فقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

وقد بيّن البراء[٢] - رضي الله عنه - سبب نزول هذه الآية، فقال: (كانوا في الجاهلية إذا، أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، ولم يأتوا من أبوابها)[٣].

قال الطبري - رحمه الله تعالى - في تأويل هذه الآية: (أي ليس البر أيها الناس بأن تأتوا البيوت في حال إحرامكم من ظهورها، ولكن البر من اتقى الله، فخافه، وتجنب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها. فأما إتيانُ البيوت من ظهورها فلا بر لله فيه، فأتوها من حيث شئتم من أبوابها وغير أبوابها، مالم تعتقدوا تحريم إتيانها من أبوابها في حال من الأحوال، فإن ذلك غير جائزٍ لكم اعتقاده؛ لأنه مما لم يحرمه عليكم، وتقوى الله بالرهبة من الله،

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٨٩).

(٢) هو: البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي. شهد أحدًا، وغزا مع الرسول ﷺ أربع عشرة غزوة. توفي عام ٧٢هـ في الكوفة. انظر: الإصابة برقم (٦٥٢)، ص(١١٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحج والعمرة، باب (وأتوا البيوت من أبوابها) برقم (١٨٠٣) بنحوه، وفي كتاب التفسير، باب (ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها) برقم (٤٥١٢) بمثله (١٤١، ٣٧٠)، ومسلم في صحيحه: كتاب التفسير، باب تفسير آيات متفرقات برقم (٧٥٤٩) بنحوه (١٢٠١). موسوعة الحديث الشريف.

وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه لتنالوا الفلاح)[١].

وقال الجصاص[٢] - رحمه الله -: (إن إتيان البيوت من ظهورها ليس بقربة إلى الله تعالى، ولا هو مما شرعه، ولا ندب إليه. كما أرشد إلى أن تؤتى الأمور من مأتاها الذي أمر الله تعالى به، وندب إليه، وأن ما لم يشرعه قربة، ولا ندب إليه لا يصير قربة، ولا دينًا يتقرب به متقرب، ويعتقده دينًا)[٣].

وقال ابن الجوزي - رحمه الله -: (هذه عادة كانت لهم في الجاهلية، واستمروا عليها، فأُعلموا أن البر والطاعة ليست بهذا الفعل، إنما البر باتقاء ما حُرم عليهم)[٤].

كما وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية، ودعا أمته إلى مخالفتهم في هذه الخصلة، وذلك أنه لما حج - عليه الصلاة والسلام - حجة الوداع، أقبل يمشي ومعه رجل مسلم، إلا أنه - من الحمس[٥] - وهم المتشددون في

(١) تفسير الطبري (٢/ ١٩٥)،للاستزادة انظر: للاستزادة أحكام القرآن لابن العربي (١/ ١٤٣)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٤٢)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٧).

(٢) هو: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الفقيه الحنفي، أحد أئمة المذهب الحنفي، عُرف بالجصاص، من مصنفاته أحكام القرآن. كان عابدًا زاهدا ورعًا. توفي سنة ٣٧٠هـ. انظر: البداية والنهاية (١١/ ٦٩٧)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٣٨).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٣٥٦).

(٤) كشف المشكل (٢/ ٢٣٩).

(٥) الحمس هو الشدة في الدين والصلابة، وهي تسميةٌ ابتدعتها قريش، وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيمًا زائدًا مبتدعًا.

انظر: للاستزادة البداية والنهاية (٢/ ٣٠٥).

الدين الذين إذا حجوا لم يدخلوا بيوتهم من أبوابها - فلما بلغ رسول الله ﷺ باب البيت، احتبس الرجل خلفه، وأبى أن يدخل، قال: يا رسول الله، إني أحمس! يقول: إني محرم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أيضًا احمس! فادخل» فدخل الرجل[(١)].

قال أحد العلماء ويستدل من ذلك: (على أن الأشياء التي وضعها العباد من عند أنفسهم من غير شرع - كهذه الخصلة - أنها من التشدد، وليست ببر ولا قربة)[(٢)].

والتشدد في الدين من الابتداع فيه ما ليس منه، لهذا نهى النبي ﷺ عن الابتداع في الدين، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مبينًا المراد بذلك: (لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت، لم يحرم عليه ذلك، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون إذا أحرموا، فنهوا عن ذلك؛ لأن هذا ليس ببر، وإن لم يكن حرامًا، فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصيًا، مذمومًا، مبتدعًا؛ لأن من فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب، فهو ضال مبتدع، وفعله على هذا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ١٩٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٩٢).

(٢) عدة القارئ (١٠/ ١٣٧).

(٣) سبق تخريجه ص(٤٨٣).

الوجه حرام بلا ريب)[١].

وقد بيّن النبي ﷺ لأمته في الحديث القدسي أحب الأعمال التي يتقرب بها العباد إلى الله - عز وجل - فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إن الله قال: ما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[٢].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: (وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر، واحترام الآمر، وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية، وذل العبودية كان التقرب بذلك أعظم العمل)[٣]، وقال أحد أهل العلم: (معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به إلى محبة الله تعالى)[٤].

ولهذه الخصلة الجاهلية نظائر في عصرنا هذا، وإن اختلفت هذه النظائر عن هذه الخصلة في الظاهر، فهن في الحقيقة قمن على ما قامت عليه هذه الخصلة، وهو التشدد في التدين، وهدفن إلى ما هدفت إليه هذه الخصلة، وهو البر والقربة والطاعة لله، كتخصيص الحجاج والمعتمرين لكل شوط

(١) الفتاوى (١١/ ٦٣٣ - ٦٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب الرقاق، باب التواضع برقم (٦٥٠٢) بمثله (٥٤٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٤٣).

(٤) المصدر السابق.

من السعي أو الطواف دعاءً معينًا، والالتزام بالتمسح بأستار الكعبة أو المقام، والصعود إلى غار جبل النور، ولزوم الحجاج بيوتهم أسبوعًا بعد عودتهم من الحج لا يخرجون لقضاء حوائجهم ولا حتى للصلاة وغيرها من الأعمال، مع العلم أن كل هذه الأعمال التي يقومون بها بزعم التقرب لله والطاعة ونحوها هي في الحقيقة من الابتداع في الدين. فليس لها أصل من الشرع[١].

* * *

(١) للاستزادة. انظر: الحوادث والبدع: للطرطوشي (١٣٣)، البدع والمحدثات وما لا أصل له (٣٧٧-٤١٣).

المسألة التاسعة والعشرون بعد المائة
الاستقسام بالأزلام

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين، وهي استقسامهم بالأزلام، وذلك حين يُشكل عليهم أمر من الأمور، أو حين يريدون الشروع في سفر، أو غزوة، أو نكاح، أو نحوها من الأمور، فما ظهر لهم من هذه الأزلام من أمر أو نهي أو إثبات أو نفي عملوا بموجبه.

والمراد بالاستِقسام لغة: طلب القِسم الذي قُسِم له، وقُدر مما لم يُقَسم ولم يُقدَّر، وهو استِفعال منه، وقد كان أهل الجاهلية إذا أرادوا سفرًا، أو تزويجًا أو نحو ذلك ضربوا بالأزلام(١).

والمراد بالأزلامُ لغة: من الزلم وهو القدحُ، والجمع أزلام، وقيل الأزْلامُ: هي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها(٢).

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالاستقسام بالأزلام: هي طلب علم ما قُسِم للمرء، أو لم يقسم بالأزلام؛ وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادوا سفرًا، أو غزوةً، أو تجارةً، أو نكاحًا، أو اختلفوا في نسب، أو أمر قتيل، أو تحمل دية مقتول، أو غير ذلك من الأمور العظيمة، أجالوا القداح

---

(١) لسان العرب (١٢/ ٤٧٨).

(٢) لسان العرب (١٢/ ٢٧١).

وكانت قِداحًا مكتوبًا على أحدها: نهاني ربي، والثاني: أمرني ربي، والثالث: غفل، فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه (أمرني ربي) مضى لما أراد من سفر، أو غزوة، وإن خرج ما قد كتب عليه (نهاني ربي) كفّ عن المضي لذلك وأمسك، وإن خرج ما كتب عليه «غفل» أعاد استقسامه(١).

قال القرطبي - رحمه الله تعالى -: (وأزلام العرب ثلاثة أنواع:

أحدها: التي كان يتخذها كل إنسان لنفسه، على أحدها: افعل، وعلى الثاني: لا تفعل، والثالث: مُهمل لا شيء عليه، فإذا أراد فعل شيء أدخل يده، فإذا خرج أحدها ائتمر وانتهى بحسب ما يخرج له.

والنوع الثاني: سبعة أقداح كانت عند هُبل في جوف الكعبة، مكتوب عليه ما يدور بين الناس من النّوازِل، كما كانت أيضًا عند كل كاهن من كهان العرب، وحكامهم، وقد كُتب على أحدها: العقل من أمر الديات، والثاني: منكم، والثالث: ملصق.

والنوع الثالث: هو قِدَاح الميسر، وهي عشرة، سبعة منها فيها حُظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة لهوًا ولَعِبا، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدم في زمن الشتاء)(٢).

والاستقسام بالأزلام ضرب من ضُروب التكهن، وادعاء علم الغيب،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٤١٥)، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣١١، ٤٦٥)، أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٢٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٢)، نهاية الأرب (٣/ ١١٧)، بلوغ الأرب (٣/ ٦٦)، فتح الباري (٨/ ٢٧٧)، معارج القبول (٢/ ٥١٢).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٥٧، ٥٨).

لهذا خالف الشارع أهل الجاهلية، فحرم الاستقسام بالأزلام على عباده، ونهاهم عنها، ونص على أن الاستقسام بالأزلام من الفسق، فقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ﴾[1].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره: (أي أن جميع هذه الأمور التي ذكرها الشارع في هذه الآية محرم عليكم، وخروج عن أمر الله عز ذكره وطاعته إلى ما نهى عنه وزجر إلى معصيته، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أي من أكل من ذلك كله، فهو فسق)[2].

وقال القرطبي - رحمه الله -: (الاستقسام بالأزلام بأنواعها الثلاثة هو طلب القسم والنصيب، وهو أكل المال بالباطل، وهو حرام، وكل مُقامَرة بحمام، أو بنرد، أو شطرنج، أو بغير ذلك من هذه الألعاب، فهو استقسام بما هو في معنى الأزلام حرام كله، فهو ضرب من التكهُّن والتعرّض لدعوى علم الغيب، وليس للأزلام في تعريف المغيبات أثر)[3].

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (أخبر الشارع عز وجل أن الاستقسام بالأزلام فسق، وغي، وضلالة، وجهالة، وشرك)[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤١٧).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٥٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣).

لذلك حين دخل النبي ﷺ في الكعبة فرأى صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، قال - عليه الصلاة والسلام - عن المشركين: «قاتلهم الله، أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط»(١).

يقول ابن حجر - رحمه الله - عن معنى هذا الحديث: (أي أنهم كانوا يعلمون اسم أول من أحدث الاستقسام بها، وهو عمرو بن لحيّ، وكانت نسبتهم إلى إبراهيم وولده الاستقسام بها افتراء عليهما لتقدمهما على عمرو)(٢).

لهذا قد شرع الله - عز وجل - لعباده حين يشكل عليهم أمر من الأمور، أو يترددون فيه سواء في بيع، أو شراء، أو نكاح، أو سفر... أو نحوها طريقين لكي يعزم المرء على ما يريد.

الطريق الأول: الإستخارة، قال ابن حجر - رحمه الله -: (الاستخارة: هو طلب العبد من الله خير الأمرين، فيقال: خار الله له أي أعطاه ما هو خير له)(٣). وقد حث النبي ﷺ أمته على الاستخارة في أمورهم كلها، فقد ورد أن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كالسورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحج، باب من كبر في نواحي الكعبة برقم (١٦٠١) بمثله، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) برقم (٣٣٥١، ٣٣٥٢) بمثله (١٢٦، ٢٧١). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٣/ ٤٦٩).

(٣) فتح الباري (١١/ ١٨٣).

الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» أو قال «عاجل أمري وآجله، فأقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» أو قال: «عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» قال: ويسمي حاجته(١).

والطريق الثاني: استشارة أهل الرأي والصلاح والأمانة(٢).

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد حرم الله الاستقسام بالأزلام في آيتين من كتابه... فمما يدخل في الاستقسام بالأزلام مثل الضرب بالحصى، والشعير، واللوح، والخشب، والورق المكتوب عليه حروف أبجد، أو أبيات من الشعر، أو نحو ذلك مما يطلب به الخيرة، فما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى برقم (١١٦٢) بمثله، وفي كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة برقم (٦٣٨٢) بمثله، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (قل هو القادر) برقم (٧٣٩٠) بمثله (٩١، ٥٣٦، ٦١٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٤) سورة الشورى، الآية: (٣٨).

يفعله الرجل ويتركه ينهى عنها؛ لأنها من باب الاستقسام بالأزلام، وإنما يسن له استخارة الخالق، واستشارة المخلوق، والاستدلال بالأدلة الشرعية التي تبين ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه وينهى عنه)(١).

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (لقد عوَّض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء، عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين، يطلبون بها عِلمَ ما قُسِمَ لهم في الغيب، وقد تضمن هذا من كمال العلم، والقُدرة، والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به...، فهو محض التوحيد والتوكل)(٢).

وكما كانت هذه الخصلة عند العرب في جاهليتها، فقد ابتلي بها فئات من الناس للتكهن، وطلب علم ما استأثر الله به، فقد أدخلت الشيعة الاستخارة بالأزلام في دينها، وأضافت عليها بعض الإضافات، وسموها الاستخارة بالرقاع، أو بالبنادق، أو بالسبحة والحصى وغيرها.. ورجحوا العمل بها، فساروا بعملهم هذا في خطى المشركين(٣).

* * *

---

(١) الفتاوى (٢٣/ ٦٧، ٦٨).

(٢) زاد المعاد (١/ ٤٧١)، (٢/ ٤٠٥)، وللاستزادة انظر. أعلام الموقعين (٢/ ٤٠١)، أحكام أهل الذمة (٢/ ٧١٨).

(٣) للاستزادة. انظر: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية. القفاري (٢/ ٦٠٤ - ٦١١)، موقف الإسلام من السحر: حياة با أخضر (١/ ٢٥٣ - ٢٧٤).

المسألة الثلاثون بعد المائة
عدم مؤاكلة الحائض ومشاربتها

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد خصال أهل الجاهلية الموجودة عند اليهود، ومن استن بسنتهم من أهل الجاهلية الأميين من عرب المدينة ومن والاها، وذلك في امتناعهم عن مؤاكلة الحائض، ومشاربتها في زمن حيضها.

والمراد بالحيض: هو دمٌ طبيعي يخرج مع الصحة من غير سبب ولادة من قعر الرحم، يعتاد الأنثى إذا بلغت في أوقات معلومة[(١)].

فقد كان اليهود يرون أن الحائض نجسة، لذلك كانوا لا يؤاكلونها زمن حيضها، ولا يشاربونها، ولا يخالطونها في بيوتهم خشية أن تنجسهم، ونصوا على ذلك في كتبهم، فقالوا: إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا تكون نجسة سبعة أيام، كما في أيام طمث علتها تكون نجسة[(٢)].... وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسًا، وكل ما تجلس عليه يكون نجسًا، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء[(٣)].

وقد استن عرب المدينة وما والاها بمثل هذه الخصلة التي عند اليهود. قال القرطبي - رحمه الله عنهم -: (إن العرب في المدينة، وما والاها كانوا قد

---

(١) الإقناع (١/ ٦٣).

(٢) التوراة. سفر اللاويين (١٢: ١ - ٢)، ص(١٧٥).

(٣) التوراة. سفر اللاويين (١٥: ١٩ - ٢٠ - ٢١)، ص(١٨٣).

استنُّوا بسنة بني إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها)[١].

وقد خالف الشارع - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين نص على اعتزال وطء الحائض فقط، مما يدل على جواز ما سوى الوطء من المخالطة، والملامسة، والمؤاكلة، والمشاربة ونحوها...

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾[٢].

قال أنس - رضي الله عنه - عن سبب نزول هذه الآية «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه...)[٣].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عنهما: (والمراد بقوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ ﴾ أي اعتزلوا نكاح فروجهن)[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، ترجيله، وطهارة سؤرها، والاتكاء في حجرها، وقراءة القرآن فيه برقم (٦٩٤) بمثله (٧٢٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٤).

قال أحد العلماء: (والمراد من قوله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» أي اصنعوا كل شيء من أنواع الاستمتاع، كالمباشرة فيما فوق السرة وتحت الركبة بالذكر، أو القبلة، أو المعانقة، أو اللمس، والمخالطة في البيوت بالمجالسة، والمؤاكلة، والمشاربة، والمضاجعة دون الجماع؛ وبهذا يتبين أن المراد من اعتزال الحائض هو ترك وطئها فقط)[١].

كذلك حرص النبي ﷺ على مخالفة اليهود في هذه الخصلة الجاهلية بفعله عليه الصلاة والسلام، فقد ورد عن عائشة - رضي الله عنها - أم المؤمنين أنها قالت: «كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب وأتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ»[٢].

قال بعض العلماء: والمراد من قولها «أتعرق العرق» أي آخذ ما على العظم من اللحم بأسناني فأعطي العظم الذي آخذ منه اللحم النبي ﷺ فيضعه في فمه، وهذا نص صريح في المؤاكلة، والمشاربة مع الحائض، وأن سؤرها[٣]، وفضلها طاهران[٤].

وقد دعا - عليه الصلاة والسلام - إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه

---

(١) عون المعبود (١٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها، والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه برقم (٦٩٢) بمثله (٧٢٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أي لعابها.

(٤) انظر: عون المعبود (١٥٤)، تحفة الأحوذي (٤٣٤)، ونيل الأوطار (١/ ٣٥٥).

الخصلة أيضًا حين سئل - عليه الصلاة والسلام - عن مؤاكلة الحائض، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «فواكلها»[١]. وقال أحد العلماء: والمراد من قوله (فواكلها) صيغة أمر من المؤاكلة، أي كُل معها. وفيها دلالة على جواز مؤاكلة الحائض[٢].

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: (بدن الحائض، وعرقها، وسؤرها طاهر، ولا يكره طبخها وعجنها وغير ذلك)[٣].

وقد اتفق العلماء على مؤاكلة الحائض ومشاربتها[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن اليهود منعوا مؤاكلة الحائض والجلوس معها في بيت، فشرع الله لنا مقاربة الحائض في غير محل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٩٢١٦) بمثله وزيادة في أوله، وبرقم (٢٢٨٧٢) بمثله (١٩٢٢٠، ١٦٥٠) وأبو داود في سننه: كتاب الطهارة، باب في المذي برقم (٢١٢) بنحوه (١٢٣٧)، والترمذي في سننه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في مؤاكلة الجنب والحائض وسؤرهما برقم (١٣٣) بمثله. قال الترمذي: حسن غريب (١٦٤٦)، وابن ماجه في سننه. كتاب الطهارة، باب مؤاكلة الحائض برقم (٦٥١) بمثله (٢٥١٥)، موسوعة الحديث الشريف، صححه ابن خزيمة برقم (١٢٠٢) وقال الألباني: صحيح.

(٢) تحفة الأحوذي (٤٣٤).

(٣) الإقناع (١/ ٦٥).

(٤) مراتب الإجماع، لابن حزم (٤٥).

الأذى، مخالفةً لهم في صفة الحكم[(١)][(٢)].

* * *

(١) المراد أي: مخالفةً لليهود في صفة تحريم المقاربة للحائض، إذ ما زال الحكم قائمًا في تحريم مقاربة الحائض، ولكن صفة المقاربة التي حرمها البارئ على هذه الأمة تختلف عما يزعمه اليهود لأنفسهم، إذ المراد من التحريم في المقاربة للحائض هو تحريم وطئها فقط كما دلت النصوص السابقة على ذلك. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٤)، للاستزادة انظر: الجواب الصحيح (١/ ٤١٩).

المسألة الواحدة والثلاثون بعد المائة
قولهم إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من دبرها كان الولدُ أحول فرد الله ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[١]

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود، وهي في زعمهم أن الرجل إذا أتى امرأته في قبلها من دبرها كان الولدُ أحول، لذلك كانوا لا يأتون نساءهم إلا على حرف[٢]، ووافقهم في ذلك عباد الأوثان الموجودون مع اليهود في المدينة.

فالمراد بالحول هو: أن يظهر بياض العين في مؤخرها، ويكون السواد من قِبَل الماقِ[٣].

وقد كذّب الشارع اليهود فيما يزعمون، وخالفهم في ذلك، حين أباح للرجال أن يأتوا نساءهم في أقبالهن من أي جهة شاءوا، من خلفهن، أو من أمامهن، وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على هذه المخالفة بقوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: (كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٢٣).

(٢) على حرف: أي طرف، يعني لا يجامعون إلا على طرف واحد، وهي حالة الاستلقاء، وقيل على جنب. عون المعبود (٩٦٠).

(٣) لسان العرب (١١/ ١٩١).

في قبلها كان الولد أحول! فنـزلت هذه الآية) [١].والمراد من هذه الآية كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما -: (إن المراد من قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ يعني بالحرث هو موضع الولد، وهو الفرج، فتأتيها كيف شئت، مقبلة، ومدبرة، مالم تأتها في الدُّبر والحيض)[٢].

وقال أيضًا عن سبب نزول هذه الآية: (أنه كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن، مع هذا الحي من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحًا منكرًا، ويتلذذون منهن مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات؛ فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنعُ بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبْني، حتى شرى أمرها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل قوله تعالى ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ أي: مقبلات، ومدابرات، ومستلقيات، يعني بذلك موضع الولد)[٣]. قال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) برقم (٤٥٢٨) بمثله (٣٧١)، ومسلم في صحيحه: كتاب النكاح، باب جواز جماعة امرأته في قبلها من قدامها، ومن ورائها من غير تعرض للدبر برقم (٣٥٣٥، ٣٥٣٦، ٣٥٣٧) بمثله (٩١٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر.تفسير الطبري (٢/ ٤٠٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: في كتاب النكاح، باب في جامع النكاح برقم (٢١٦٤) بمثله =

بعض العلماء: عن المراد بقوله عن النساء أنهن حرث: أي هن مواضع زراعة أولادكم، فهن بمنـزلة الأرض المعدة للزراعة ومحله القبل، فأتوه كيف شئتم من قيام أو قعود، أو اضطجاع، أو من ورائهن في فروجهن على أي هيئة كانت، فهي مباحة لكم مفوضة إليكم، ولا يترتب منها ضرر عليكم(١).

هذا وكما نص القرآن على المخالفة لهم في هذه الخصلة، كذلك نص النبي ﷺ على مخالفة اليهود ومن وافقهم في هذه الخصلة، فأباح للأزواج أن يأتوا نساؤهم في أقبالهن من حيث شاءوا، فقال - عليه الصلاة والسلام: «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج» (٢)،في رواية أخرى قال - عليه الصلاة والسلام - أيضًا:«أقبل وأدبر وأتق الدبر والحيضة»(٣).

وعن المراد بهذا الحديث قال أحد العلماء: (أي جامع من جانب القبل،

=

وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن الإسناد.

(١) انظر: المنهاج (١٠٨٤)، عون المعبود (٩٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٠٥)، تحقيق: أسعد محمد الطيب. المكتبة العصرية. صيدا، والبيهقي في سننه الكبرى في جماع أبواب ما يحرم من نكاح الحرائر وما يحل منه. باب إتيان النساء في أدبارهن برقم (١٣٨٨٤، ١٣٨٨٦) بنحوه (٧/ ١٩٥، ١٩٧)، وهي زيادة على رواية البخاري ومسلم المتقدمة. وينظر: آداب الزفاف للألباني (٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة برقم (٢٩٨٠) بمثله قال الترمذي: حسن غريب، والنسائي في كتاب عشرة النساء، باب (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) برقم (٨٩٧٧) بمثله (٥/ ٣١٤). موسوعة الحديث الشريف، وحسنه الألباني.

وأولج في القبل من جانب الدبر، واتق إيلاجه في الدّبر وفي زمن الحيض)[١].

وعن ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (لقد أباح الله للرجل أن يأتي امرأته من جميع جهاتها، من قبلها، أو من دبرها، أو عن يمينها، أو عن شمالها؛ لكن في الفرج خاصة؛ لأنه موضع الزرع، وهو الولد، والشارع رخص في إتيان الحروث، والحرث إنما يكون في الفرج)[٢].

* * *

(١) تحفة الأحوذي (٢/ ٢١٩٨).

(٢) الفتاوى (٣٢/ ٢٦٨).

المسألة الثانية والثلاثون بعد المائة
استحلال الربا وتشبيهه بالبيع فرد الله عليهم

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين، وهي استحلالهم للربا والتعامل به، زعمًا منهم أنه مشابه للبيع.

والمراد بالربا لغة: من الزيادة والنماء[(١)].

اصطلاحًا: الزيادة في أشياء مخصوصة[(٢)].

والربا نوعان الأول: ربا الفضل، وهو الزيادة في مكيل بيع بجنسه كالبر والشعير، والذرة، أو موزون بيع بجنسه كالسكر، أو الدهن، أو الخل.

والنوع الثاني: ربا النسيئة، وهو التأخير في بيع كل جنسين اتفقا في علة ربا الفضل، وهي الكيل والوزن[(٣)].

والبيُع لغة: ضد الشراء، ويراد بالبيَعْ الشراء أيضًا، يقال: باع يبيع أي حسب يحسب، وبَاعهُ أي اشتراه، فهو من الأضداد[(٤)].

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٣٠٤).

(٢) المغني (٦/ ٥١).

(٣) انظر.الإقناع (٢/ ١١٤ - ١٢٠)، الروض المربع (٤/ ٤٩٢ - ٥١٨).

(٤) انظر.لسان العرب (٨/ ٢٣)، (١٣/ ٥٤٤)، مختار الصحاح (٧٣).

واصطلاحًا: مبادلة مال ولو في الذمة، أو منفعة مباحة بمثل أحدهما على التأبيد غير ربًا وقرض[(١)].

وقد ذكر العلماء لصحة البيع شروطًا لابد منها، وهي:

تراضي المتبايعين، وأن يكون العاقد جائز التصرف، وأن يكون المبيع مما يباح الانتفاع به، وأن يكون مملوكًا للبائع، أو مأذونًا له في بيعه، وأن يكون معلومًا للمتعاقدين برؤية أو صفة، وأن يكون الثمن معلومًا، وأن يكون المبيع مقدورًا على تسليمه[(٢)].

وقد كان الربا عند أهل الجاهلية الأميين في الزيادة التي يأخذها أرباب الأموال من غرمائهم مقابل زيادة الأجل عليهم، وتأخير الدين عليهم. وقد استحلوا هذه الزيادة الربوية بناءً على قياسهم الفاسد حين قالوا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[(٣)]، فقد زعموا أن هذه الزيادة الربوية مثل الثمن الحاصل في أول البيع والشراء، فقال تعالى عن زعمهم هذا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾.

قال الطبري - رحمه الله -: (إن الذين يأكلون الرّبا من أهل الجاهلية، كان إذا حلّ مال أحدهم على غريمه، يقول الغريم لغريم الحق: زدني في

(١) الإقناع (٢/ ٥٦).

(٢) انظر: الإقناع (٢/ ٥٧، ٧٢)، الروض المربع (٤/ ٣٥٢، ٣٩٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥).

الأجل وأزيدك في مالك. فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: هذا ربا لا يحل. فإذا قيل لهما ذلك قالا: سواء زدنا في أول البيع، أو عند مَحِلّ المال!) (١).

وقال الجصاص - رحمه الله -: (الربا الذي كانت تعرفه العرب وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجل، بزيادة على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به، وقد زعم هؤلاء الكفار المعتقدين إباحته أنه لا فرق بين الزيادة المأخوذة على وجه الربا وبين سائر الأرباح المكتسبة بضروب البيعات، وجهلوا ما وضع الله أمر الشريعة عليه من مصالح الدنيا والدين فذمهم الله على جهلهم، وأخبر عن حالهم يوم القيامة، وما يحل بهم من عقابه)(٢). لهذا خالفهم الشارع حين نص على تحريم الربا وتحليل البيع، وتوعد المصرين على الربا بالعذاب في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾(٣).

قال الطبري - رحمه الله -: (أحل الله الأرباح في التجارة والشراء، والبيع، وحرم الزيادة التي يزاد رب المال بسبب زيادته غريمه في الأجل، وتأخيره دينه عليه. فليست الزيادتين التي إحداهما من وجه البيع؛ والأخرى من وجه تأخير المال والزيادة في الأجل سواء؛ لأنه تعالى أحل

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٠٤)، وللاستزادة. انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٣٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٨).
(٢) أحكام القرآن: للجصاص (١/ ٤٦٥، ٤٦٩).
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥).

البيع وحرم الربا، فالأمر أمره، والخلق خلقه... فمن عاد لأكل الربا بعد التحريم وقال بما كان يقوله قبل مجيء الموعظة فهم من أهل النار)[١].

كذلك خالفهم حين نص سبحانه على محق بركة المال المرابى به، فقال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[٢].

والمراد كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي ينقصه)[٣].

وقال الطبري - رحمه الله -: (أي ينقص الله الربا فيذهبه، ويضاعف أجر الصدقات وينميها له، ولا يحب سبحانه كلّ مصرٍّ على كفر بربه، مقيم عليه، مستحل أكل الربا وطعامه)[٤].

كذلك خالف سبحانه وتعالى أهل الجاهلية حين نهى عباده المؤمنين عن الربا في عدة آيات، وحذرهم من مغبة الإصرار على التعامل بالربا، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٥].

وعن مراد الآية قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (أي استيقنوا

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٠٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٧٦).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ١٠٥).

(٤) المرجع السابق.

(٥) سورة البقرة، الآيتان: (٢٧٨، ٢٧٩).

بحرب من الله ورسوله والقتل)[١].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَـٰفٗا مُّضَـٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٢]. قال المفسرون والمراد بالآية: أي لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد إذ هداكم له، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، واتقوا الله لعلكم تفلحون في الأولى والآخرة[٣].

وقد بيّن سبحانه في موضع آخر من كتابه أن التعامل بالربا وأكله من صفات اليهود التي استحقوا عليها اللعنة الخالدة والمتواصلة، قال الله تعالى: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ ﴾[٤].

قال ابن كثير - رحمه الله -: (أي بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة من صد الناس، وصدهم هم بأنفسهم عن اتباع الحق، وتناولهم للربا وأخذهم له بعد أن نهاهم الله عنه... فبسبب هذه الذنوب حرم الله عليهم طيبات كان قد أحلها لهم، وأعد للكافرين منهم في الآخرة عذابًا أليمًا)[٥].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية الأميين، وأهل الكتاب من اليهود

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٠٨).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٣٠).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٣٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٥).
(٤) سورة النساء، الآيتان: (١٦٠، ١٦١).
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٥).

في هذه الخصلة، حين نص في حجة الوداع على وضع ربا الجاهلية وإهداره، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «كل ربا الجاهلية موضوع»(١). قال العلماء والمراد بقوله موضوع: أي الربا الذي كانوا يترابون به في الجاهلية موضوع مهدر باطل(٢).

ونص في حديث آخر على تحريم الربا ومعانيه من العمل به، وأكله، وأخذه، وإعطائه، وفي هذا دلالةٌ على مدى شناعة حرمة الربا، فقال ﷺ: «لعن الله آكل الربا، ومؤكله، وشاهده، وكاتبه»(٣).

وقد عدّهُ - عليه الصلاة والسلام - من كبائر الذنوب، فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وما هن، فقال: الشرك بالله... وأكل الربا»(٤). ثم بيّن - عليه الصلاة والسلام - شدة عقوبة آكل الربا في الآخرة،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠٩٧١) بمثله مطولاً (١٥٠١)، وأخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في وضع الربا برقم (٣٣٣٤) بمثله مطولاً (١٤٧٣)، موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى: كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (يوم الحج الأكبر) برقم (١١٢١٣) بمثله مطولاً (٦/ ٣٥٣). قال الألباني: حسن.

(٢) انظر: عون المعبود (١٤٣٥)، شرح رياض الصالحين (٤/ ١٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب البيوع، باب مؤكل الربا برقم (٢٠٨٦) بنحوه (١٦٣)، ومسلم في صححيه: كتاب المساقاة، باب لعن أكل الربا ومؤكله برقم (٤٠٩٢، ٤٠٩٣) بمثله (٩٥٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا) برقم (٢٧٦٦) بمثله، وفي كتاب الطب: باب الشرك والسحر من الموبقات برقم (٥٧٦٤) بمثله، وفي كتاب الحدود، باب رمي المحصنات قوله تعالى: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم) برقم (٦٨٥٧) بمثله =

فقال - عليه الصلاة والسلام - عن رؤيا رآها: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني... فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يسبح، وإذا على شط النهر رجلٌ قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح سبح ما سبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه فيلقمه الحجر، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرًا... قلت ما هذان؟ قال: أما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويُلقم الحجارة فأنه آكل الربا...)[1].

والأحاديث الواردة عن حكم أكل الربا، والتعامل به، وعقوبته كثيرة لا مجال لحصرها في هذه المسألة، فأكتفي بما ذكرت سابقًا.

وقد اتفق علماء الأمة على تحريم الربا[2]، وعلى إباحة البيع بشروطه السابقة. أما من قاس البيع بالربا فقياسه مذموم باطل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (إن من القياس المذموم، القياس المعارض للنص، كقياس من قالوا إن البيع مثل الربا، وقد حرم الله الربا؛ لأنه متضمن

=

(٢٢٣، ٤٩٢، ٥٧٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها برقم (٢٦٢) بمثله (٦٩٣). موسوعة الحديث الشريف، كتاب الإيمان: لابن منده (٢/ ٥٤٨، ٥٤٩)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ١١٠٥، ١١١١)، (٤/ ١٢٨٦)، الكبائر للذهبي (٢٦).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح برقم (٧٠٤٧) بمثله مطولاً (٥٨٨)، كتاب البيوع، باب آكل الربا وشاهده، وكاتبه برقم (٢٠٨٥) بمثله مختصرًا (١٦٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) مراتب الإجماع: لابن حزم (١٤٩، ١٥٧).

للظلم، فإنه أخذ فضلاً من المحتاج بلا مقابل له، وهذا ظلم محقق)[١].

كما لابد أن يُعلم أن تحريم الربا تابعٌ لحقيقته، وإن تغيرت صورته واسمه، فالتحريم باقٍ، بل هو أشد؛ لأنه أعظم للمفسدة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية عن ذلك: (ومعلوم أن التحريم تابع للحقيقة والمفسدة لا للاسم والصورة؛ فإن استحلال الربا باسم البيع ظاهر كالحيل الربوية التي صورتها وحقيقتها حقيقة الربا[٢]، ومعلوم أن الربا إنما حرم لحقيقته ومفسدته، لا لصورته واسمه. لذلك فإن تغير صورة المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادةٌ في المفسدة التي حُرمت لأجلها، مع تضمنُّه لمخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه)[٣].

ولا يخفى ظهور صور عديدة للربا باسم البيع في العصر الحاضر، فقد استحل الكثير من المسلمين مع الأسف بعض هذه الصور، كبيع الشيكات والكمبيالات بأقل من سعرها، أو تأخير دفع الإيجار بشرط الزيادة، أو أخذ القروض البنكية المؤجلة مع الزيادة[٤].

وكل هذه صور للربا باسم البيع إلا أنها محرمة.

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٤٧٥)بتصرف، وللاستزادة انظر: للفتاوى (٢٠/ ٣٤١، ٣٤٧).

(٢) كبيع العينة، وهو أن يبيع سلعة إلى أجل ثم يشتريها منه بأقل من قيمتها نقدًا، وهو بيع محرم لأنه ذريعة للربا.

انظر: الإقناع (٢/ ٧٦)، الفتاوى (٢٩/ ٤٣٩)، الروض المربع (٤/ ٣٨٥) مختصر الفقه الإسلامي (٧٠٥).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٢٩٥)للاستزادة انظر .أعلام الموقعين (٣/ ٩٥).

(٤) للاستزادة. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة المتعلقة بالبيوع المحرمة (١٣/ ٢٩٣، ٣٣٩).

المسألة الثالثة والثلاثون بعد المائة
قلب الدين على المعسر فأمر الله بإنظاره

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين لدى أرباب رؤوس الأموال في الجاهلية تجاه غرمائهم؛ وذلك بأنهم حين يحل وقت قضاء الدين ويكون الغريم معسرًا يقلب عليه رب المال دينه، ويكون ذلك بأن يطلب منه قضاء الدين في الحال، أو التأجيل مع الزيادة.

والمعسر في اللغة: نقيض الموسر، والعسرة قلة اليد[(١)].

واصطلاحًا: ضيق الحال من جهة عدم المال[(٢)].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية الأميين في هذه الخصلة بعدة صور، أولاً بالنص على تحريمها، إذ أن هذه الخصلة هي أصل الربا في الجاهلية، وقد بين ذلك العلماء فقالوا عنه: ذلك بأن الرجل يكون له على الرجل مال مؤجل، فإذا حل الأجل طالبه بالقضاء، أو التأجيل مع الزيادة[(٣)]، فهذا القلب للدين على الغريم بهذه الصورة، لهو صورةٌ من صور الربا الذي نص الشارع على تحريمه، كما تبين ذلك في المسألة السابقة[(٤)].

---

(١) لسان العرب (٤/ ٥٦٣).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٣٥٤).

(٣) انظر. الفتاوى (٢٩/ ٤١٨ - ٤١٩)، الملخص الفقهي. (٢/ ٢٨).

(٤) المسألة الثانية والثلاثون بعد المائة.

ثانيًا: أن الشارع عز وجل أمر رب المال بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾(١).

قال مجاهد - رحمه الله -: (أي يؤخره، ولا يزد عليه، وكان إذا حلّ دين أحدهم فلم يجد ما يعطيه، زاد عليه وأخره)(٢). وهذا مخالف لأمر الله تعالى المنصوص عليه في الآية.

قال المفسرون عن تفسير الآية: إن الله تعالى أمر بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فمن كان من غرمائكم ذا عسرة، فعليكم أن تنظروه حتى يُوسر بالدَّين الذي لكم، فيصير من أهل اليسر به(٣).

وقال النحاس - رحمه الله - عن هذه الآية: (بأن الإنسان في أول الإسلام كان إذا أعسر من دين عليه بيع حتى يستوفي المدين دينه، فنسخ الله - عز وجل - ذلك بهذه الآية، وقيل إنها نزلت في الربا، وذلك أنه إذا كان لرجل على رجل دين ولم يكن عنده ما يقضيه إياه حبس أبدًا حتى يوفيه، وقيل إنها نزلت في من أعسر من دين أو ربا أن ينظر إلى ميسرة، وهذا قول عامة الفقهاء)(٤).

ثالثًا: أن الشارع - عز وجل - لم يكتفى بأمر أرباب الأموال بالعدل حين أمرهم بالصبر على المعسرين، بل حثهم إلى الارتقاء إلى مرتبة الفضل،

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١١٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١١٠)، ابن كثير (١/ ٣٣٣).

(٤) الناسخ والمنسوخ: للنحاس (١/ ٢٦١ - ٢٦٥).

فقال تعـالى: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (ندب الله في هذه الآية إلى أن يتركوا رأس المال بالكلية، ويضعوه عن المدين، ووعد على ذلك بالخير والثواب الجزيل)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (لقد جعل الله الصدقة على المدين المعسر بإسقاط الدين عنه خيرًا للمتصدق من مجرد إنظاره، وهذا من الفضل المستحب المندوب إليه، من فعله أثابه الله ورفع درجته، ومن تركه لم يعاقبه)[٣].

هذا وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين حث أمته على إنظار المعسر، وندبهم إلى الوضع عنه، ورتب على ذلك الأجـر العظيم، فقال - عليه الصـلاة والسلام -: «من أنظر معسرًا، أو وضع عنه، أظله الله في ظله» [٤]،وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «من أنظر معسرًا كان له كل يوم صدقةٌ، ومن أنظره بعد حله كان له مثله في كل يوم صدقة» [٥]، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «كان تاجر يداين الناس فإذا

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٢).

(٣) الفتاوى (٣٠/ ٣٦٦)، الجواب الصحيح (٣/ ٣٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الزهد. باب حديث جـابر الطويـل. وقـصة أبي اليـسر بـرقم (٧٥١٢) بمثله مطولاً (١١٩٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٣٥٨) بمثلـه (١٦٩٠)، وابـن ماجـه في سـننه. كتـاب الصدقات. باب إنظار المعسر برقم (٢٤١٨) بمثله (٢٦٢١). موسوعة الحديث الشريف. قـال الألباني صحيح.

رأى معسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»(١).

وقد علق الإمام النووي - رحمه الله - على هذه الأحاديث فقال: (في هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر والوضع عنه، إما كل الدين، وإما بعضه من كثير، أو قليل، وفضل المسامحة في الاقتضاء وفي الاستيفاء، سواء استوفى من موسر أو معسر، وفضل الوضع من الدين، وأنه لا يحتقر شيئًا من أفعال الخير، فلعله سبب السعادة والرحمة)(٢).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن حكم قلب الدين عن المعسر فقال - رحمه الله -: (إذا حل الدين وكان الغريم معسرًا، لم يجز بإجماع المسلمين أن يُقلب بالقلب لا بمعاملة، ولا غيرها؛ بل يجب إنظاره، وإن كان موسرًا كان عليه الوفاء، فلا حاجة إلى القلب لا مع يساره، ولا مع إعساره؛ لأن هذه الزيادة من الربا الذي حرمه الله ورسوله)(٣).

وعن حكم من استحل هذا العمل يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله-: (ومتى استحل المرابي قلب الدين، وقال للمدين: إما أن تقضي، وإما أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب البيوع. باب من انظر معسرًا برقم (٢٠٧٨) بمثله، وفي كتاب أحاديث الأنبياء. باب (٥٤) برقم (٣٤٨٠) بمثله (١٦٢، ٢٨٤)، ومسلم في صحيحه. كتاب المساقاة. باب فضل إنظار المعسر والتجاوز في الاقتضاء من الموسر والمعسر برقم (٣٩٩٨) بمثله، وبرقم (٣٩٩٣، ٣٩٩٤، ٣٩٩٥، ٣٩٩٦، ٣٩٩٧) بنحوه (٩٤٩، ٩٥٠). موسوعة الحديث الشريف. أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ١١٤٠).

(٢) المنهاج (١١٩٤).

(٣) الفتاوى (٢٩/ ٤١٩، ٤٣٨)، للاستزادة انظر: الدرر السنية (٦/ ١٢٩، ١٣٠).

تزيد في الدين والمدة: فهو كافر، يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وأخذ ماله فيئًا لبيت المال)[١].

وعن فضل إنظار المعسر يقول الإمام ابن رجب - رحمه الله -: (التيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين: إما بإنظاره إلى الميسرة، وذلك واجبٌ، وتارةً بالوضع عنه إن كان غريمًا، وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره، وكلاهما له فضل عظيم)[٢].

ولكن مما يؤسف له في عصرنا هذا أن هذه الخَصلة تتجلى في قروض البنوك في البلاد الإسلامية، وفي ما يعرف ببطاقات الفيزا، كما أن الكثير من أرباب الأموال المسلمين من تتمثل لديه هذه الخَصلة حيث نجد الكثير من أرباب الأموال من يصر على مطالبة غريمه بالمال في الحال رغم ثبوت إعساره مما نتج عن ذلك حبس الكثير من هؤلاء المعسرين متناسين ندب الشارع وحثه إلى إنظار المعسر[٣]. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (١٨٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٦٣٠)، وللاستزادة انظر: شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٣) للاستزادة. انظر: الدرر السنية (٦/ ١١٧، ١١٨، ١٢٣)، فتاوى للجنة الدائمة (١٣/ ٣٣٠، ٣٣٧).

المسألة الرابعة والثلاثون بعد المائة
عدم اعتبارهم بما يمرون عليه من الآيات كما قال تعالى:
﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١)

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا في هذه المسألة أحد خصال الجاهلية عند أهل الكفر عامة من أهل الكتاب والأميين وغيرهم، وهي عدم تفكرهم واعتبارهم بما يمرون عليه من آيات الله الظاهرة في الكون، وإعراضهم عما اشتملت عليه هذه الآيات من دلالات وحجج دالة على وحدانية الخالق – عز وجل –، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له وحده تعالى دون سواه.

وما كان قيام هذه الخصلة عند عامة أهل الكفر إلا من باب العناد، والاستكبار عن قبول الحق، والإذعان إليه، والعمل بموجبه.

لهذا فقد خالف الشارع عز وجل أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حيث وردت آيات كثيرة في كتاب الله – جلا وعلا – ذم فيها أهل الجاهلية على هذه الخصلة.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على ذلك بقوله تعالى: ﴿

(١) سورة يوسف، الآية: (١٠٥).

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

قال الطبري - رحمه الله - والمراد: (أي وكم آية في السموات والأرض لله وعبرةٍ وحجةٍ، يعاينونها فيمُّرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها، وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهية لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبَّرها)[١].

وقال الجصاص - رحمه الله - عن هذه الآية: (لقد اشتملت هذه الآية على الحث على الاستدلال على الله تعالى بآياته ودلائله، والفكر فيما يقتضيه من تدبير مدبرها العالم بها القادر عليها... مما هو ظاهر للحواس ومدرك بالعيان)[٢].

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره للآية: (أخبر الله في هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض)[٣].

كما ذم الشارع في موضع آخر المشركين على هذه الخصلة، فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[٤]، وقال

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣١١).

(٢) أحكام القرآن: للجصاص (٣/ ١٧٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٥).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (٤).

أيضًا عنهم: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[(١)]. قال المفسرون في تفسير الآية: فقد أخبر تعالى هنا عن المشركين المكذبين أنهم كلما أتتهم آية أي دلالة، ومعجزة، وحجة من الدلالات على وحدانية الله، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون إليها، ولا يبالون بها، ولا يقرون بما شهدت على حقيقته، ودلت على صحته، فيتولون عنها مكذبين بها، إنكارًا للحق الذي دلت عليه، وجهلاً منهم بالله، واغترارًا بحلمه عليهم[(٢)].

كذلك ذم الشارع قوم صالح - عليه السلام - على هذه الخصلة فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[(٣)]. قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره للآية: (أي أريناهم آياتنا، وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحًا، فكانوا على آياتنا التي آتيناهموها معرضين لا يعتبرون بها، ولا يتعظون)[(٤)].

ومن الآيات الواردة في ذم هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[(٥)]، وقال: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ

(١) سورة القمر، الآية: (٢).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٤٩)، (١١/ ٥٤٧)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٤).
(٣) سورة الحجر، الآية: (٨١).
(٤) تفسير الطبري (٧/ ٥٣٢).
(٥) سورة الأنبياء، الآية: (٣٢).

ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[١]. قال الطبري -رحمه الله-: (أي معرضين لا يتفكرون فيها، ولا يتدبرونها، فيعلموا بها ما احتجّ الله عليهم بها)[٢].

ولا أدل على شدة ذم الشارع - عز وجل - لهذه الخصلة من تنصيصه في عدة آيات على أن المعرض عن آياته تعالى وتذكيره هو من أظلم الناس لنفسه، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله -: يقول عز ذكره: (وأي الناس أوضع للإعراض والصدّ في غير موضعهما ممن ذكره بآياته وحججه، فدله بها على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلته التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك)[٤].

لذلك تهدد الشارع هؤلاء المعرضين عن آياته بالانتقام منهم، فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[٥]. قال ابن كثير - رحمه الله - (فقد تضمنت هذه الآية تهديدًا

---

(١) سورة يس، الآية: (٤٦).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٤٤٧).

(٣) سورة الكهف، الآية: (٥٧).

(٤) تفسير الطبري (٨/ ٢٤٣).

(٥) سورة السجدة، الآية: (٢٢).

من الله - عز وجل - لمن فعل ذلك بالانتقام منه أشد الانتقام)[١].

لذلك دعا الباري - عز وجل - عباده المؤمنين إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين دعاهم إلى التفكر، والاعتبار بآياته تعالى السمعية، والمرئية حتى يستدلوا بها على ربوبية خالقهم، ووحدانيته، وألوهيته وحده وأنه لا معبود بحق سواه.

فقال تعالى داعيًا عباده إلى التفكر في آياته المرئية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي علامات ودلالات لمن عَقل مواضع الحجج، وفهم عن الله أدلته الدالة على وحدانيته وأنه خالق ذلك كلِّه ومنشئه وحده)[٣].

كما قال تعالى ممتدحًا عباده المتفكرين والمعتبرين بآياته ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٦٤).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٧٠).

وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

ومن آياته تعالى التي تضمنت الدعوة إلى التفكر والاعتبار قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[2]، وقال أيضًا: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: (١٩٠ – ١٩١).

(٢) سورة النحل، الآيتان: (٣ – ٤).

(٣) سورة الروم، الآية: (٨).

بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[(١)]، وقال تعالى داعيًا إلى التفكر والتدبر بآياته السمعية: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[(٢)]، وقال أيضًا: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٣)]، وقال أيضًا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[(٤)].

قال الطبري والمراد: (أي حتى يتدبر أولوا العقول في حجج الله التي في كتابه، ويتفكروا ويعتبروا بها، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمين، ليرتدعوا عنه، وينتهوا إلى ما دلهم عليه سبحانه وتعالى من الرشاد وسبيل الصواب)[(٥)].

هذا وقد خالف هدي النبي ﷺ أيضًا أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حيث دعا النبي ﷺ أمته إما بفعله، أو بقوله إلى التفكر والاعتبار في آيات الله السمعية، والمرئية، فقال - عليه الصلاة والسلام - داعيًا إلى التفكر في إحدى آيات الله المرئية: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا

(١) سورة الروم، الآيات: (١٨ - ٢٤).
(٢) سورة النساء، الآية: (٨٢).
(٣) سورة ص، الآية: (٢٩).
(٤) سورة محمد، الآية: (٢٤).
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٥٧٦)، (١١/ ٣٢١).

باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»[١].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه للحديث: (نهي النبي ﷺ بمعنى الخبر، أي خشية أن يصيبكم، ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعثه على التفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مقلب القلوب فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك. والتفكر أيضًا في مقابلة أولئك نعمة الله بالكفر وإهمالهم إعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارًا بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال)[٢].

كذلك جاءت رواية أخرى عنه - عليه الصلاة والسلام - دعا فيها إلى التفكر في آيات الله السمعية، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لقد نزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣]»[٤]. وقال ابن عباس - رضي الله عنه -:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصلاة. باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب برقم (٤٣٣) بمثله، وفي كتاب المغازي. باب نزول النبي ﷺ الحجر برقم (٤٤١٩، ٤٤٢٠) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) برقم (٤٧٠٢) بمثله (٣٧، ٣٦٣، ٣٩٢)، موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (١/ ٥٣١).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٩٠).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب التوبة. باب ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات، وإن كان بائنًا عنها مجدًا في إثبات ضدها برقم (٦٢٠)، بمثله =

(التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه)[١].

وقال الإمام الغزالي[٢] - رحمه الله - عن ذلك أيضًا: (كثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر، والاعتبار والنظر، والافتكار. ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف، والفهوم، وأكثر الناس عرفوا فضله، ولكن جهلوا ثمرته، وحقيقته وهي المعرفة المغيرة لحال القلب، والمبدلة لإرادته، ورغبته، فيثمر تغير إرادة أعمال الجوارح، فيطرح الدنيا ويُقبل على أعمال الآخرة)[٣].

وقال أيضًا الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (مفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن)[٤].

لهذا يعد الإعراض عن الاعتبار والتفكر في آيات الله الكونية والشرعية أحد أهم الأسباب في كفر أهل الجاهلية الأميين، وأهل الكتاب وغيرهم ممن وافقهم في هذه الخصلة.

=

مطولاً (٢/ ٣٨٦)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٦٥٦) والهيثمي في موارد الظمآن (١/ ١٤٠).

(١) إحياء علوم الدين: للغزالي (٥/ ٨٧).

(٢) هو: الشيخ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي من أصبهان، ولد عام (٤٥٠هـ) درس بالنظامية في بغداد. من مصنفاته إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة. توفي سنة (٥٠٥هـ). انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٧٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٥/ ٨٥ - ٩٠).

(٤) شرح قصيدة الإمام ابن قيم الجوزية (٢/ ٤٧٥)،للاستزادة انظر. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٥٠).

كما أن ما حصل وما يحصل من الابتداع في الدين على أيدي المبتدعة من أصحاب الفرق الكلامية، وغيرهم المنتسبين للإسلام على اختلاف الأزمنة والأمكنة، لهو نابعٌ عن عدم الاعتبار، والتدبر، والتفكر في آيات الله، والإعراض عنها[١].

* * *

(١) للاستزادة انظر: الفتاوى (١٩/ ١٦٢)، وللاستزادة عن فوائد التفكر والاعتبار في آيات الله. انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠ - ٢٠٣).

المسألة الخامسة والثلاثون بعد المائة
التعبير بقلة البيان لقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[1]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية التي تمثلت فيمن غلا في العتو والطغيان ضد الحق، فعمد إلى الافتراء على دعاة الحق للتنقيص من شأنهم في أعين من حولهم من الناس، كالتعبير بقلة البيان في كلامهم.

والمراد بالبيان في اللغة هو: إظهار المقصود بأبلغ لفظ – وأوجزه –، وهو من الفهم وذكاء القلب واللسان، وقيل إن البيان هو الفصاحة في اللسان، يقال فصيح اللسان أي بيّن اللسان[2].

وقد تمثلت هذه الخصلة الجاهلية على لسان الطاغية فرعون، بعد أن انبلج له الحق على لسان موسى – عليه السلام –، إذ عمد هذا الطاغية حينها إلى محاربة هذا الحق، ومحاولة رده بشتى الوسائل، والتي منها ما قام به من خلال استنقاصه لمن حَمَّلَهُ الشارع مهمة تبليغه؛ وذلك بالافتراء على موسى – عليه السلام – قائلاً عنه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

قال ابن كثير – رحمه الله – في بيان معنى الآية: (أي لا يكاد يفصح عن كلامه وقيل: أي لا يكاد يفهم، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب،

---

(١) سورة الزخرف، الآية: (٥٢).

(٢) لسان العرب (٢/ ٥٤٤)، (١٣/ ٦٩).

واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، ومما يدل على كذب واختلاق فرعون أن موسى - عليه السلام - قد سأل الله - عز وجل - أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك)(١).

فقال تعالى عن دعاء موسى - عليه السلام - لربه ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾(٢) فقال تعالى مجيبًا له دعوته: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله - والمراد أي: (قد كان أصيب لسان موسى - عليه السلام - باللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه - فلما بعث الله موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة)(٤).

كما قال أحد المفسرين أيضًا في تفسيره لهذه الآيات: (إن مقام موسى - عليه السلام - يومئذ ليس مقام خطابة، ولا تعليم وتذكير حتى تكون قلة الفصاحة نقصًا في عمله، ولكنه مقام استدلال، وحجة، فيكفى أن يكون

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣١).
(٢) سورة طه، الآيات: (٢٤ - ٢٧).
(٣) سورة طه، الآية: (٣٦).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٨).

قادرًا على إبلاغ مراده ولو بصعوبة، وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل، كما قال: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾)[1].

ومعنى ذلك أن الفصاحة ليست من لوازم الكلام في خطاب كل متكلم، بل هي من لوازم خطاب من قام مقام الخطابة، والتعليم، والتذكير؛ أما ما كان من الكلام في سوى مقام الخطابة، فمن لوازمه الإفهام، كالكلام الآتي في معرض الاستدلال والحجة عند التبليغ، ويدل على ذلك ما جاء عن موسى - عليه السلام -، حين سأل ربه حل عقدة من لسانه تمنع الإفهام، لهذا فإن كان مراد فرعون أن كلام موسى - عليه السلام - خالٍ من الإفهام، فهو كلام باطل، وقد دلت النصوص على بطلانه، ونصت على أن الإفهام حاصلٌ وثابتٌ عند جميع الأنبياء والرسل، ومن زعم خلو كلامهم أو كلام أحدهم من الإفهام فهو ضالٌ مضل.

لهذا فقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بيّن ونص في آيات كثيرة من كتابه على أنه لم يبعث رسولاً إلا بلسان قومه ليحصل الغاية من بعثهم وهو التبليغ، والإفهام، وإقامة الحجة، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[2].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي ما أرسلنا إلى أمة من الأمم رسولاً إلا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣١).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

بلسان الأمة التي أرسلناه إليهم ولغتهم، ليفهمهم ما أرسله الله به، وليثبت حجة الله عليهم)[١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٤]، وقال أيضًا على لسان رسل أصحاب القرية: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٥].

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - كلامًا موجزًا وجميلاً قد اشتمل على ردٍ صريح على من يزعم بأن الكلام لا يُعلم مراده إلا بالبيان والفصاحة، فقال: (إن أبلد الناس وأبعدهم فهمًا يعلم مراد أكثر من يخاطبه بالكلام الركيك[٦] العادم للبلاغة والفصاحة)[٧].

وعلى هذا فمن باب أولى أن يعلمه أذكى الناس وأصحهم أذهانًا وإفهامًا.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤١٥).
(٢) سورة المائدة، الآية: (٩٢).
(٣) سورة النحل، الآية: (٣٥).
(٤) سورة النور، الآية: (٥٤).
(٥) سورة يس، الآية: (١٧).
(٦) أي الكلام الضعيف في كل شيء. انظر: لسان العرب (١٠/ ٤٣٣).
(٧) الصواعق المرسلة (٢/ ٦٤٤).

إن التعبير بقلة البيان قلما ينسب لغير من كانت مهمتهم تبليغ الحق ومحاربة الباطل، إذ إن القصد من وراء ذلك ليس إلا لجحد الحق، والاستنقاص من شأن أهله، وعن ذلك يقول أحد العلماء: (إن من جادل نوحًا، وعيسى، وموسى، ومحمد... صلوات الله عليهم أجمعين، كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول في إظهار شبهاته، وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم، وجحد أصحاب الشرائع، والتكاليف بأسرهم، إذ لا فرق بين قولهم: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[1]، وبين قوله: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾[2]) [3].

لهذا فليس من شروط قبول الحق أنه لابد أن يكون بلسانٍ فصيح؛ بل لابد أن يكون بلسانٍ مفهوم، إذ ليس كل صاحب لسانٍ فصيح، أو صاحب فهم، أو علم أو جاه هو داعٍ للحق يقتدى به ويتبع، وقد حذر الشارع من الاغترار بمثل ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾[4]. إلا أن هناك من خالف الحق وزعم أن الأنبياء لم يتبين الحق على ألسنتهم، وعن هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله-:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: (٥٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٦١).

(٣) الملل والنحل (٤).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).

(وقد تجلت هذه الخصلة عند الفلاسفة[١] وغيرهم الذين زعموا أنهم أكثر فهمًا وبيانًا من الأنبياء ومن تبعهم من السلف تجاه النصوص المتعلقة بأمور الغيب، وبأسماء الله وصفاته ونحوها)[٢].

وكما أن هذه الخصلة الجاهلية لأعداء الله تعالى قديمًا، فهي كذلك حديثًا، فها هي اليوم تظهر لدى الكثير من الناس ممن يصفون المتدينين بقلة البيان، وقلة العقل، وضعفه، ويزعمون أن غيرهم أقوى منهم عقولاً، وأكثر بيانًا[٣]. فبمثل هذا الزعم يحارب أعداء الله الحق وأهله بقصد تنفير العامة من الناس عن الحق، وسعيًا وراء الرئاسة، كما أن من خلال هذا تتحقق لهم أغراض في أنفسهم من الظلم والفحش ونحوها. فأسأل الله العافية.

* * *

(١) وهم أهل التجهيل الذين حقيقة قولهم إن الأنبياء وأتباعهم جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه، وكأهل التضليل الذين زعموا أن الأنبياء خاطبوا الناس بما يتخيلون به ويتوهمون به، وأن هناك من نظار الفلاسفة وأمثالهم يفضلون الأنبياء. انظر: درء التعارض (١/ ٨).

(٢) انظر. درء التعارض (١/ ٨). بتصرف.

(٣) انظر: شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (١/ ٢٢٨ – ٢٣١).

المسألة السادسة والثلاثون بعد المائة
عبادتهم الكواكب فأنكر الله عليهم ذلك بقوله تعالى:
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾[1]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند الصابئة المشركين والأميين، وهي عبادتهم للكواكب؛ لاعتقادهم بتأثير هذه الكواكب على العالم السفلي، فهم يرون أنها هي المؤثرة والفاعلة فيه، وهي التي تخلق الحوادث والشرور.

فهذا دين الصابئة المشركين قوم إبراهيم – عليه السلام –، فقد عبدوا الكواكب وزعموا: أن مدبر هذا العالم وخالقه هي هذه الكواكب والنجوم، لذا كانوا يعبدونها، ويصورون الأصنام على صورها وأسمائها في (هياكلهم)، ويعيدون لها الأعياد، ويذبحون لها الذبائح، ويقربون لها القرب والقرابين، ويقولون إنها تعقل وتدبر وتضر وتنفع، ويقيمون لكل كوكب منها شريعة محدودة[2]. وقد تمثلت هذه العبادة أيضًا عند صنف من مشركي العرب في الجاهلية في عبادتهم كوكب الشعرى الذي يتبع

---

(١) سورة النجم، الآية: (٤٩).

(٢) انظر: مروج الذهب (٢/ ٢٣٦ – ٢٤٧ – ٢٥٠)، الفصل في الملل والنحل (٤/ ٧)، الملل والنحل (٢٥١)، تلبيس إبليس (٧٨ – ٧٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي. ت: علي سامي النشار. دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤٠٢هـ، ص(٩٠)، إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٤ – ١٩٩).

الجوزاء[١].

لذا فقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة التي تُعد صورةً من صور الشرك الأكبر في آيات كثيرة أنزلها الشارع على نبيه ﷺ، وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - بأحد هذه الآيات الدالة على بطلان هذه العبادة الشركية التي ظهرت عند مشركي العرب بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[٢].

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (هو الكوكب الذي يُدعى الشِّعرى؛ وقال مجاهد: هو الكوكب الذي خلف الجوزاء، كان يُعبد في الجاهلية)[٣].

وقال القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآية: (الشعرى هو كوكب مضيء، وقد ذكر تعالى في هذه الآية أنه رَبُّ الشِّعرى، وإن كان ربًّا لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده؛ فأعلمهم الله جل وعز أن الشِّعْرى مربوبٌ وليس بربّ)[٤].

وكما أبطل الشارع هذه العبادة الشركية عند مشركي العرب، فقد أبطلها عند الصابئة من قبل ببعثة إبراهيم - عليه السلام - بالملة الحنيفية؛

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٣٦)، تفسير القرطبي (١٧/ ١٠٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٠)، بلوغ الأرب (٢/ ٢٣٩).

(٢) سورة النجم، الآية: (٤٩).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٥٣٦).

(٤) تفسير القرطبي (١٧/ ١٠٦).

فقد استدل - عليه الصلاة والسلام - على بطلان عبادة الصابئة للكواكب بأفول[(١)] هذه الكواكب. وأفول الكواكب يُعد حجةً دامغة على بطلان هذه العبادة، وعلى أنه تعالى هو وحده المستحق للعبادة دون سواه، فقال تعالى عن استدلال إبراهيم - عليه السلام - لإبطال مزاعم قومه في قولهم بربوبية الكواكب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[(٢)].

قال الرازي - رحمه الله - في تفسير الآية والمراد: (لقد استدل إبراهيم عليه السلام بأفول الكواكب على أنها لا يجوز أن تكون أربابًا له، وخالقةً له،.. وعلى أن من كان قادرًا على خلق الكواكب والأفلاك دون واسطة، فهو قادرٌ على الشيء الأضعف، وعلى تدبير العالم الأسفل بدون واسطة الأجرام الفلكية، وإذا كان الأمر كذلك، كان الاشتغال بعبادة الإله الأكبر

---

(١) الأفول هو: من أفَلَ أي غاب بعد ظهوره، يقال أفلت الشمس. أي غابت، وأفل القمر أي غاب، وكذلك سائر الكواكب. انظر: لسان العرب (١١/ ١٨).

(٢) سورة الأنعام، الآيات: (٧٥ – ٧٩).

أولى من الاشتغال بعبادة الشمس والنجوم والقمر)[١].

وقال القرطبي - رحمه الله تعالى -: (لقد عرف إبراهيم - عليه السلام - ربه بقلبه، واستدل عليه بدلائله، فعلم أن له ربًّا وخالقًا، لهذا وبخ قومه، منكرًا فعلهم)[٢].

وقال أحد العلماء أيضًا: (لقد أرى الله الصابئة على لسان إبراهيم - عليه السلام - ضعف عقولهم في تعظيمهم لهذه الأجرام المسخرة الجمادية، وبيّن لهم أنهم مخطئون، وأنها مدبرة تنتقل في الأماكن)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن استدلال إبراهيم - عليه السلام -:لقد بعث الله تعالى إمام الحنفاء إبراهيم خليل الرحمن داعيًا الخلق من الشرك إلى الإخلاص، ونهاهم عن عبادة الكواكب، فاحتج على بطلان عبادتها بأفولها[٤].

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (لقد بيّن نبي الله إبراهيم عليه السلام بطلان إلهية الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفُل، بل لا يكون إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا، غير مغلوبٍ ولا مقهور، نافعًا لعباده، يملك لعابده الضُّر والنفع... وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل. فلما رأى إمام

---

(١) التفسير الكبير (٥/ ٤٢ – ٤٤).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٧).

(٣) الفصل في الملل والنحل (٤/ ٧).

(٤) انظر: منهاج السنة (١/ ١٢٦)، الفتاوى (٢٨/ ٦٠٤).

الحنفاء أن الشمس، والقمر، والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلى فاطرها، وخالقها، ومبدعها. فقال ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[1])[2].

كذلك خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص في آيات عدة على أنه تعالى خلق هذه الكواكب والنجوم زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها... وقد ذكرت ذلك بشيء من التفصيل في موضعٍ سابق[3].

كما قد أجمع علماء المسلمين على: أن من اعتقد أن الكواكب مؤثرة فاعلة مختارة في موجودات العالم السفلي، وأنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فقد كفر لأن ذلك من الشرك الأكبر[4].

لهذا حرص النبي ﷺ في هديه على مخالفة أهل الجاهلية بدعوة أمته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما حارب جميع وسائل الشرك، وسد الباب أمام جميع الذرائع الموصلة للشرك، لهذا فقد نهى عن الصلاة حال طلوع الشمس وغروبها، مبينًا العلة من النهي أنه وقت سجود الكفار لها. وقد

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٧٩).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٧).

(٣) انظر: المسألة الخامسة والخمسين، والسادسة والخمسين.

(٤) للاستزادة انظر: تيسير العزيز الحميد (٣٥٣)، فتح الحميد (٣/ ١٢٨٤)، فتح المجيد (٣١٧)، القول المفيد (٢/ ١٠٢).

بينت ذلك أيضًا في موضع سابق[١]. إلا أن هذه العبادة الشركية قد تجلت عند من ينتسبون للإسلام من أصحاب الأهواء والبدع من أهل الكلام والصوفية وأصحاب الأحوال الشيطانية من الكهان والسحرة، حين لبس عليهم الشياطين، فجوزوا لأنفسهم عبادة الأصنام والكواكب لما رأوا فيها من الأحوال العجيبة التي تعينهم عليها الشياطين، ولأن بها يحصل بعض أغراضهم من الظلم والفحش، فلم يبالوا بشركهم بالله، وبكفرهم به، أو بكتابه سعيًا وراء الرئاسة والمال[٢].

* * *

(١) انظر: المسألة السابعة، والمسألة الثانية بعد المائة.

(٢) للاستزادة. انظر: توحيد الألوهية (٨/ ٢٣٣)، الفتاوى (٩/ ١١ - ٣٤)، (١٤/ ٣٦١)، (٢٧/ ١٧٧)، الجواب الصحيح (٣/ ١٥)، اقتضاء الصراط المستقيم (١٣٦).

المسألة السابعة والثلاثون بعد المائة
استبدالهم الغناء عن سماع القرآن كما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾[1]

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - أن من خصال أهل الجاهلية الأميين استبدالهم الغناء عن سماع القرآن، وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على ذلك بالآية التي ذم فيها الشارع أهل الجاهلية الأميين على هذه الخصلة، فقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾[2].

وقد فسر ابن عباس السمود في قوله تعالى: ﴿سَٰمِدُونَ﴾ قال: (هو الغناء، فكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا)[3].

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فكان مما أنزله الله عليه في الدلالة على تحريم الغناء قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ

(١) سورة النجم، الآيات: (٥٩ - ٦١).

(٢) الآيات السابقة.

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٥٤١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[(١)] . قال الطبري – رحمه الله – والمراد (باللهو): (هو الغناء، كما فسره ابن مسعود - رضي الله عنه - حين سئل عن معنى الآية، فقال: الغناء، والذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات)[(٢)].

لهذا حذر النبي ﷺ من أثر الغناء فقال: «إن الغناء ينبت النفاق في القلب» [(٣)].

قال أحد العلماء والمراد من ذلك: (لأن من خواص الغناء أنه يلهي القلب، ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب لما بينهما من التضاد، فالقرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة الشهوات، وأسباب الغي، والغناء يأمر بضد ذلك ويحسنه، ويهيج النفوس إلى شهوات الغي. كما أن الغناء قرآن الشيطان، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب، وهذا معنى النفاق. كذلك فإن أساس النفاق أن يخالف الظاهر الباطن، وصاحب الغناء بين أمرين: إما أن يتهتك فيكون فاجرًا، أو يظهر النسك فيكون منافقًا، فإنه يظهر الرغبة في الله والدار الآخرة وقلبه يغلي بالشهوات، لذا فإن المفتونين بالغناء يتسمون بقلة ذكر الله، والكسل عن القيام إلى الصلاة، ونقرها)[(٤)].

---

(١) سورة لقمان، الآية: (٦).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الأداب. باب كراهية الغناء والزمر برقم (٤٩٢٧) بمثله (١٥٨٤). موسوعة الحديث الشريف. وقد ضعفه الألباني، السنة للخلال (٥/ ٧٢ – ٧٦).

(٤) عون المعبود (٢١٢١).

لهذا استدل العلماء على أن مما حرمه الشارع وغلظ فيه استعمال الغناء، فلا يحل لمسلم أن يسمعه أو أن يستعمل أدواته كالأوتار والمزامير، أو يُسمِعَها فإن فعل ذلك كان عاصيًا آثمًا(١).

وقد أجمع العلماء على تحريم سماع آلات الملاهي، وسماع الغناء الكائن من الشعر الرقيق الذي فيه تشبيب بالنساء ونحوه مما توصف فيه محاسن من تهيج الطباع بسماع وصف محاسنه(٢).

وبعد: فرغم بيان الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على تحريم الغناء فقد وجد هناك من خالف الحق باستحلاله للغناء، وذلك حين استحسنت إحدى الفرق المنتسبة للإسلام، وهي الصوفية هذه الخصلة الجاهلية؛ بل واتخذوه دينًا يتقربون به لله - عز وجل -، وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن هذا الأمر بكلامٍ وافٍ في العديد من مؤلفاته، فمما قال عن ذلك: (إن من اتخذ الغناء والتصفيق عبادة، وقربة فقد ضاهى المشركين في ذلك، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين، فسماع الغناء من

---

(١) انظر: الشرح والإبانة لابن بطة (٣٥٨)، الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٨٣، ٥٤٠).

(٢) للاستزادة. انظر: المسائل والرسائل (٢/ ٢٩٨)، تلبيس إبليس (٢٨٠ - ٢٨٢)، منهاج السنة (٢/ ٤٩٠)، الاستقامة (٢١٦ - ٢١٩)، أحكام أهل الذمة (٢/ ٧١٨)، إغاثة اللهفان (١/ ١٩٦ - ٢٢٥)، مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٤٤٣ - ٤٦٣)، كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع. لأبي العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيثمي. ت: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، (٦٥ - ٧١)، الدرر السنية (٧/ ٢٤٨ - ٢٥٣) (١٥/ ١١٩، ١٣٠، ١٤٢)، شرح مسائل الجاهلية. د. السعيد (٣٠٣ - ٣١٢).

أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية، فهو سماع المشركين، بخلاف أصحاب رسول الله ﷺ الذين إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن والباقون يستمعون، ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم، أما سماع الغناء، والكف، والدف، والقصب فلم تكن الصحابة وسائر الأكابر من الأئمة في الدين يجعلون هذا طريقًا إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدونه من القرب والطاعات، بل يعدونه من البدع المذمومة)[1].

كذلك لا يخفى على أحد مدى انتشار هذه الخصلة في هذا الزمن الحاضر في جميع بلاد المسلمين بصورةٍ تبث الحزن في قلب كل مسلمٍ غيورٍ على دينه حين يرى هذا الاستمراء لهذا العمل المحرم؛ بل والمجاهرة به من خلال وضع ميزانيات مالية خاصة به، ولمن يقومون به، وإنشاء منشآت خاصة لهم، وليس هذا وحسب، بل إعطاء الهيمنة الإعلامية، والمجد الزائف للقائمين بهذا العمل المحرم، وتمجيد أعمالهم هذه.

فنسأل الله لي ولهم الهداية والسداد.

* * *

(١) انظر: الفتاوى (٣/ ٣٥٩) (١١/ ٢٩٥ - ٢٩٨، ٥٩٦) (١٥/ ٣١٣)، وللاستزادة انظر: تلبيس إبليس (٢٧٥).

المسألة الثامنة والثلاثون بعد المائة
نسبة الأنبياء إلى الضلال كقولهم لنوح ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ ﴾[(١)]
المسألة التاسعة والثلاثون بعد المائة
نسبتهم إياهم إلى السفاهة كقولهم لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾[(٢)]

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هاتين المسألتين خصلتين من خصال أهل الجاهلية، والتي تمثلت فيهما صورتان من صور إيذاء الأقوام لأنبيائهم، وهي اتهامهم بالضلال أو بالسفاهة عند قيامهم بتبليغ ما بعثهم البارئ لأجله؛ من الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه من الأنداد والأضداد.

هذا وقد برز في هاتين الخصلتين ما اتسم به موقف هؤلاء الأقوام من العناد، والكفر، والاستكبار عن قبول الحق الذي جاء به أنبياؤهم إليهم.

وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على إحدى هاتين الخصلتين وهي: ما نسبه قوم نوح - عليه السلام - لنوح حين دعاهم إلى عبادة الله وحده، والبراءة من الأنداد، فنسبوا له الضلالة عن الحق فقال تعالى عنهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال الطبري - رحمه الله -: (أي أنه فيما دعاهم إليه من عبادة الله وحده

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٦٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٦٦).

لا شريك قد زال عن الحق زوالاً مبينًا لمن تأمله)[١].

كما واستدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على الخصلة الثانية، وهي النسبة إلى السفاهة بموقف قوم هود – عليه السلام – من هود حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فنسبوا له السفاهة لما تتضمنه من معنى الجهالة والضلال عن الحق بسبب دعوته لقومه إلى الحق، قال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾[٢].

قال المفسرون والمراد بقولهم في (سفاهة): أي في حمق، وخفة عقل، وضلال عن الحق والصواب حين تدعونا إلى ترك عبادة آلهتنا، وترك ديننا والإقبال على عبادة الله وحده[٣].

لهذا فقد نص الشارع على لسان أنبيائه على مخالفة ما نسبه هؤلاء الأقوام لأنبيائهم، وذلك بنفيه تعالى عنهم ما نسب إليهم، وبوصفهم بأسمى الأوصاف وأنبلها. فحين نفى عن نوح – عليه السلام – الضلالة، وعن هود – عليه السلام – السفاهة، وخصهما بضد هذه الأوصاف مما حباهما، وفضلهما الباري به من الفضائل والمكارم كالعلم، والرسالة، والتبليغ، فقال تعالى على لسان نوح – عليه السلام –: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٥٢١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٦٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٢٢)، تفسير القرطبي (٧/ ٢١١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٤).

وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١).

قال المفسرون والمراد: أي أنني لست ضالاً، فأنا رسول من الله، مبلغ لكم، وناصح، عالم بأن عقاب الله لا يرد عن القوم المجرمين(٢).

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٣).

قال المفسرون: والمراد أنني لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله، مبلغًا، وناصحًا لكم، وأمينٌ على وحي الله، وعلى ما ائتمنني الله عليه من الرسالة، ومنذركم من بأس الله وعقابه، ومذكرًا لكم بنعمة الله عليكم، فاشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد حتى تنجوا في الآخرة(٤).

كذلك خالف الشارع هؤلاء الأقوام في هذه الخصلة حين وصفهم بما

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: (٦١ – ٦٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٢١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٤).

(٣) سورة الأعراف، الآيات: (٦٧ -٦٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٢٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥).

نسبوه لأنبيائهم، فهم أولى وأحق بهذه الأوصاف. فقد نسب تعالى الضلال لكل من أشرك في عبادته، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٣).

كما وقد نسب تعالى السفاهة لكل من شك أو ارتاب في أمر الله، وأمر رسوله، وأمر نبوته، لهذا فالاتصاف بالسفاهة في حق من كفر بأمر الله، أو أمر رسله، أو أنكر نبوة نبي من الأنبياء من باب أولى، وقد بيّن الباري ذلك في سياق ذمه للمنافقين الذين تمثلت بهم هذه الخصلة: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

يقول الإمام الطبري - رحمه الله - عن المراد بالوصف الوارد في هذه الآية: (هذا وصفٌ من الله تعالى لهؤلاء المنافقين بأنهم هم الجهال في أديانهم، الضعفاء الآراء في اعتقاداتهم، واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشك والريب في أمر الله، وأمر رسوله، وأمر نبوته، فذلك هو عين السِّفه)(٥).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (٥٤).
(٢) سورة سبأ، الآية: (٨).
(٣) سورة الزمر، الآية: (٢٢).
(٤) سورة البقرة، الآية: (١٣).
(٥) تفسير الطبري (١/ ١٦٢).

وقد علق على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقال: (لا ريب أن الاستخفاف بالنبي ﷺ كفر، والضالون مستخفون بتوحيد الله يعظمون دعاء غيره. فإذا أمروا بالتوحيد، ونهوا عن الشرك استخفوا به.. وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة، والضلال، والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد؛ لما في أنفسهم من عظيم الشرك)[1].

وقد ظهرت هذه الخصلة عند من ينتسبون إلى الإسلام من أصحاب الفرق وأهل البدع والضلالات كالشيعة والصوفية وغيرهم الذين عظموا الأضرحة، وعمروا المشاهد، وأحدثوا عبادات مبتدعة في الدين، فحين يُدعون إلى الحق ويبين لهم؛ نجد أن ردود أفعالهم تجاه هذا الحق قد شابهوا بها هؤلاء المشركين في هذه الخصلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن أمثال هؤلاء: (وتجد من فيه شبه من هؤلاء المشركين، فإذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك لما عنده من الشرك. فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثانًا تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله وعبادته، وهناك أفراد من طوائف متعددة يرى أن استغاثته بالشيخ عند قبره أو غير قبره أنفع له من أن يدعو الله في المسجد عند السحر؛ ويستهزئ بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد)[2].

كما ظهرت هذه الخصلة كثيرًا على السطح في الزمن الحاضر على ألسن

---

(١) الفتاوى (١٥/ ٤٨)، للاستزادة انظر. الاستغاثة في الرد على البكري: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت. د. عبد الله بن دجين السهلي. مكتبة دار المنهاج. الرياض، (ط١)، ١٤٢٦هـ، ص(٣٧٨).

(٢) الفتاوى (١٥/ ٤٨ - ٤٩).

من ينادون بفصل الدين[١] عن شئون الحياة، وذلك لأن هؤلاء السفهاء الضالين ينسبون ما يُعد وصفًا لازمًا لأمثالهم من السفاهة والضلال لأهل الدين والفقه، فيزعمون أن بسبب سفاهة وضلال رجال الدين والفقه لازلنا نعيش بأفكارهم الكهنوتية - كما يدعون - في العصر الأمي والحجري، لهذا فهم يطلقون على المجتمعات المحافظة مجتمعات رجعيةً متأخرة... كذلك تظهر هذه الخصلة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتجد الكثير منهم ما ينسبون السفاهة والضلال للمجتمعات المسلمة بسبب تحكيمهم لكتاب الله في جميع أمور حياتهم.

فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) المراد بهم هم: العلمانيون.

المسألة الأربعون بعد المائة

التكذيب بالنار كما قال تعالى: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[١]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أحد خصال أهل الجاهلية، وهي التكذيب بالنار وجحدها.

وقد ظهرت هذه الخصلة عند مشركي العرب، وعند البعض من الطوائف والفرق وأصحاب المذاهب، إلا أن صورة إظهار هذه الخصلة قد اختلفت باختلاف القائلين بها مع العلم بأن جميع القائلين بها متفقون على أصلها، وهو التكذيب بالنار.

فهناك من صرح بالتكذيب بها وجحدها كمشركي العرب[٢]، وهناك من صرف المراد بها حقيقةً كالفلاسفة[٣]، فقالوا عنها إنها مجرد ضرب من الخيالات، وأن ما أخبر به الأنبياء عنها إنما هو تخييل وكذب اقتضته

(١) سورة الطور، الآية: (١٤).

(٢) وهؤلاء هم معطلة العرب ممن أنكروا الخالق والبعث والإعادة، فقصروا الحياة والموت على تركب وتحلل طبائع العالم السفلي المحسوس فقط، فالمهلك هو الدهر، وقد وافقتهم في طريقة تكذيبهم بالنار فرقتان من الفلاسفة، وهم الدهريون والطبيعيون. انظر: الملل والنحل (٢٣٥)، شرح العقيدة الأصفهانية (١٨٦، ١٨٧).

(٣) أهل التخييل والوهم وهم أحد فرق الفلاسفة الذين كذبوا بالجنة والنار ونسبوا الكذب للأنبياء. انظر: درء التعارض (١/ ٨ – ٩).

مصلحة الجمهور، وآخرون أنكروا وجودًا حقيقيًا للنار وعذابهم، وقالوا إن مسألة العذاب حاصلة بانتقال أرواح العصاة بعد موتهم من أجسادهم لتحل في أجساد أمثالهم من البشر، أو في أجساد الحيوانات لتهذب بها، ثم تفارقها لتحل في أبدان أخرى تناسب أعمالها وأخلاقها، وهؤلاء هم القائلون بالتناسخ[١].

وآخرون كذبوا بالنار نظرًا لتكذيبهم بجميع الأمور والعلوم الغيبية، فأقروا وآمنوا فقط بما هو[٢] مادي محسوس.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين جعل الإيمان بوجود النار وحقيقتها ضمن ركن من أركان الإيمان، لهذا فقد استفاضت الآيات في توبيخ من كذب بها وجحدها. وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على ذلك بالآية التي وبخ فيها الشارع المكذبون بالنار حين يدفعون إليها يوم القيامة فقال تعالى متوعدًا وموبخًا لهم ﴿ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا

---

(١) وقد وجدت هذه العقيدة عند البراهمة، وهي أحد الأديان الموجودة في الهند، وعند النصيرية، والبابية وغيرهم.

للاستزادة انظر: الفصل في الملل والنحل (١/ ٩٠)، الملل والنحل (٢٤٨)، تلبيس إبليس (٩٩)، الروح (١١٤)، البابية (١٥٤)، الحركات الباطنية: د. محمد أحمد الخطيب (٣٥٥) الموجز في الأديان (١٣٥)، الموسوعة الميسرة في الأديان (١/ ٣٩٠-٤٠٩).

(٢) وهم أصحاب المذاهب المادية التي لا تؤمن بالغيبات، فلا تؤمن إلا بما كان داخلاً تحت دائرة الحس، أو خاضعًا للتجربة، كالمذهب التجريبي والوجودية والدروانية وغيرها من المذاهب المادية والفلسفية. للاستزادة انظر: المذاهب المعاصرة: د. عبد الرحمن عميرة (٢٠٥)، الموسوعة الميسرة للأديان (٢/ ٨١٨، ٩٣٣).

تُكَذِّبُونَ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي يوم يدفعون هؤلاء المكذبون يوم القيامة إلى نار جهنم، يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون، فتجحدون أن تردوها، وتصلوها)(٢).

وقال تعالى أيضًا: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٣).

قال القرطبي - رحمه الله -: (أي يقال لهم هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم)(٤).

وكما استفاضت الآيات في توبيخ المكذبين بالنار، كذلك استفاضت الآيات والأحاديث الواردة في وصف النار، ووصف عذاب أهلها للدلالة والتأكيد على ثبوتها ووجودها حقيقة فأذكر بعضًا منها، كقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ

(١) سورة الطور، الآية: (١٤).
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٤٨٦).
(٣) سورة الرحمن، الآية: (٤٣).
(٤) تفسير القرطبي (١٧/ ١٥٢).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٤).
(٦) سورة إبراهيم، الآيتان: (٤٩ - ٥٠).

مَّقْسُومٌ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾(٥).

كما قد وردت أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ في وصف النار، وعذابها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون في الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»(٦).

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: (٤٣ – ٤٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٢٩).

(٣) سورة الملك، الآيتان: (٦ – ٧).

(٤) سورة المعارج، الآيتان: (١٥ – ١٦).

(٥) سورة النبأ، الآيات: (٢١ – ٢٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مواقيت الصلاة. باب الإبراد بالظهر في شدة الحر برقم (٥٣٧) بمثله، وفي كتاب بدء الخلق. باب صفة النار وأنها مخلوقة برقم (٣٢٦٠) بمثله ٤٤، ٢٦٤)، ومسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه برقم (١٤٠١، ١٤٠٢) بمثله (٧٧٤). موسوعة الحديث الشريف.

وقال ﷺ: «الحُمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»[١]، وقال أيضًا: «ناركم جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم»[٢] كما ذكر - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الطويل أنواع المعذبين في النار كمن يثلغ رأسه بالحجر في النار؛ لأنه يأخذ القرآن فيرفضه، ومن نام عن الصلاة المكتوبة، ومن يشرشر شدقيه إلى قفاه لأنه يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، ورأى رجالاً ونساءً عراة في مثل بناء التنور، تأتيهم النار من أسفلهم وهم الزناة والزواني، ورجلٌ يسبح في نهر كالدم يلقم الحجر وهو آكل الربا[٣]... فكل هذه الآيات والأحاديث هي دلائل وبراهين على ثبوت وجود النار وحقيقتها.

لهذا فقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه استعاذ من النار، ودعا أمته إلى الاستعاذة منها في دبر كل صلاة، فقيل عن ذلك: كان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق. باب صفة النار وأنها مخلوقة برقم (٣٢٦٣، ٣٢٦٤) بمثله، وفي كتاب الطب، باب الحمى من فيح جهنم برقم (٥٧٢٣) بمثله (٢٦٤، ٤٨٩)، ومسلم في صحيحه. كتاب السلام. باب لكل داء دواء واستحباب التداوي برقم (٥٧٥١، ٥٧٥٢، ٥٧٥٣، ٥٧٥٤، ٥٧٥٥، ٥٧٥٦، ٥٨٥٧، ٥٨٥٨، ٥٨٥٩، ٥٨٦٠) بمثله (١٠٦٩، ١٠٧٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق. باب صفة النار وأنها مخلوقة برقم (٣٢٦٥) بمثله (٢٦٤)، ومسلم في صحيحه. كتاب الجنة. باب جهنم أعاذنا الله منها برقم (٧١٦٥) بمثله (١١٧١) موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح برقم (٧٠٤٧) بمثله (٥٨٨) موسوعة الحديث الشريف.

ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[١].

وقد أجمع علماء الأمة خلفًا عن سلف أن الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة فيما يتعلق في هذه المسألة هو: أن من أصل التوحيد، وما يجب الإيمان به؛ الإيمان بأن الجنة حق، والنار حق، والجنة والنار مخلوقتان، الجنة في السماء السابعة، وسقفها العرش، والنار تحت أرض السابعة السفلى، وهما مخلوقتان، وقد علم الله – تعالى – عدد أهل الجنة ومن يدخلها، وعدد أهل النار ومن يدخلها، لا تفنينان أبدًا، وبقاؤهما مع بقاء الله تبارك وتعالى أبد الآبدين[٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب الجنائز. باب التعوذ من عذاب القبر برقم (١٣٧٧) بمثله (١٠٧)، ومسلم في صحيحه. كتاب المساجد. باب استحباب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال ومن المأثم والمغرم برقم (١٣٢٤، ١٣٢٦، ١٣٢٨، ١٣٣٢، ١٣٣٣) بمثله (٧٦٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) للاستزادة انظر: الشرح الميسر للفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة: د. محمد بن عبد الرحمن الخميس. دار مسلم للنشر. الرياض، (ط١)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م (١٩)، الإبانة عن أصول الديانة: للإمام أبي الحسن الأشعري. ت: بشير عيون. مكتبة المؤيد. الرياض، (ط٤)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (٤٤)، شرح السنة للبربهاري (٦٦)، والشرح والإبانة: لابن بطة (٢٢٧)، كتاب التوحيد لابن منده (١٩٢، ١٩٣)، شرح أصول الاعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٩١)، (٤/ ٦٨٣، ٩٢٩)، (٥/ ٩٨٢، ١٢٣٠)، عقيدة السلف وأهل الحديث: الصابوني (١٠٣، ١٢٤)، الحجة في بيان المحجة (١/ ٥٠٩)، (٢/ ٢٨٠، ٤٦٣)، لوامع الأنوار البهية. للسفاريني (٢/ ٢١٨، ٢١٩)، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٨١)، الشرح الممتع (١/ ٥٣٨).

المسألة الحادية والأربعون بعد المائة

أنهم طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فأخبر الله أن أهل الإيمان ليسوا كذلك فقال تعالى:

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾(١) الآية

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا خصلة من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهي أنهم لما طال بهم الزمان تركوا الانقياد للحق الموجود في كتبهم المنزلة، فإضمحل الإيمان من قلوبهم، وزال اليقين عنها؛ عند ذلك بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، فاتبعوا الأقوال المختلفة، وقلدوا الأحبار والرهبان في دينهم، فقست قلوبهم عن الحق.

وقد دعا الشارع – عز وجل – عباده المؤمنين بعدة أساليب إلى مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، فاستدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بإحدى الآيات التي اشتملت على أحد هذه الأساليب، والتي من خلالها دعا الشارع – عز وجل – عباده المؤمنين إلى مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، وهو أسلوب المدح لصفات أهل الإيمان، والمدح لحالهم عند سماعهم لكلام الله – عز وجل –، ولأفعالهم المترتبة على سماعهم لآيات الكتاب، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٢٣).

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: (أي أن هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار لما يفقهون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، وتلين قلوبهم لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار؛ لأنهم يسمعون تلاوة آيات الرحمن فيخرون سجدًا وبكيًا بأدب، وخشية، ورجاء، ومحبة، وفهم، وعلم، ولأنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكونوا يتصارخون، ولا يتكلفون ما ليس فيهم؛ بل عندهم من الثبات، والسكون والأدب، والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك)[(١)].

وقال تعالى أيضًا ممتدحًا عباده المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[(٢)]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠ - ٥١).
(٢) سورة الأنفال، الآيات: (٢ - ٤).

ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[(١)]، وقال أيضًا: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[(٢)].

كما نهج الشارع عز وجل مع عباده المؤمنين في دعوته لهم إلى مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة إلى أسلوب النهي والتحذير من مشابهة أهل الكتاب في مثل هذه الخصلة فقال تعالى معاتبًا لعباده المؤمنين، ومحذرًا لهم: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[(٣)].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عن المراد بهذه الآية: (نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله؛ فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد، ولا وعيد، لهذا فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة)[(٤)].

---

(١) سورة الرعد، الآية: (٢٨).

(٢) سورة الحج، الآيتان: (٣٤ - ٣٥).

(٣) سورة الحديد، الآية: (١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١).

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: (أي لا تكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يداوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم، وزال إيقانهم فقست قلوبهم)[١]. لذلك دعا الشارع إلى مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة بأسلوب الوعيد لمن قست قلوبهم عن ذكر الله، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

قال الإمام الطبري - رحمه الله -: (أي ويلٌ للذين جفت قلوبهم، ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدّق بما فيه، فإن هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مُبين، لمن تأمله وتدبّره بفهم أنه في ضلال عن الحقّ جائر)[٣].

وقد حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، لهذا حث أمته على تلافي ما وقع فيه أهل الكتاب حين طال بهم الأمد في تركهم للكتاب الذي بين أيديهم، ومللهم من القيام بالطاعات، فقال - عليه الصلاة والسلام - في خطبته التي خطبها في حجة الوداع[٤] «... وقد

(١) تفسير ابن سعدي (٨٤٠).

(٢) سورة الزمر، الآية: (٢٢).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٦٢٧ - ٦٢٨).

(٤) حجة الوداع حجها النبي ﷺ في السنة (١٠هـ)، ولم يحج غيرها. انظر: المنهاج (٩٣٢)، سيرة ابن هشام (٥١٠).

تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله»[١].

كما وقد حثهم على القيام بالطاعات وفق ما يطيقون، وعلى الثبات والمداومة عليها، فقال - عليه الصلاة والسلام - «... عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»[٢].

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح الحديث: (في هذا الحديث حثٌّ على المداومة على العمل، وأن قليلاً دائمًا خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطاعة، والذكر... والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، وهذا من كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته، بأن أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر، لأن من تعاطى من الأعمال ما يشق، فإنه بصدد أن يتركه، أو بعضه، أو يفعله بكلفة، وبغير انشراح القلب، فيفوته خير عظيم)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الحج. باب حجة النبي ﷺ رقم (٢٩٥٠) بمثله مطولاً (٨٨٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان. باب أحب الدين إلى الله أدومه برقم (٤٣) بمثله، وفي كتاب التهجد. باب ما يكره من التشديد في العبادة برقم (١١٥١) بمثله (٥، ٩٠)، ومسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين. باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، والأمر بالاقتصاد في العبادة، وهو أن يأخذ منها ما يطيق الدوام عليه، وأمر من كان في صلاة وفتر عنها ولحقه ملل ونحوه بأن يتركها حتى يزول ذلك برقم (١٨٣٤) بمثله (٨٠١). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج (٦٤٨).

كذلك حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على التحذير من هذه الخصلة، فقد ورد عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: (هلك من لم يعرف قلبه معروفًا، ولم ينكر قلبه منكرًا، إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم اخترعوا كتابًا من بين أيديهم وأرجلهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، فقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب، فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه، قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين ثندوتيه، فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به، ويومئ إلى القرن الذي بين ثندوته، وما لي لا أؤمن بهذا الكتاب؟ فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن) (١).

كذلك ما ورد عن أبي موسى الأشعري(٢) - رضي الله عنه - حين بعث إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال لهم: (أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم...) (٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان في تفسيره الآية (١٦) من سورة الحديد (١١/ ٦٨١) بلفظه، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٣٩) بمثله، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٣١١) بنحوه.

(٢) هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن الأشعر، مشهور بكنيته واسمه معًا، أسلم وهاجر إلى الحبشة، وقيل إنه لم يهاجر، وهذا قول الأكثر، روى أبو موسى عن النبي ﷺ وعن الخلفاء الأربعة، وهو من أفقه أهل البصرة وأقرئهم. مات سنة ٤٢هـ، وقيل سنة ٤٤هـ. انظر: الإصابة (٨٢٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الزكاة. باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا برقم (٢٤١٩) بمثله (٨٤٣). موسوعة الحديث الشريف.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (لقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن مشابهة أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[١] نهى مطلق عن مشابهتهم، وهو خاص أيضًا في النهي عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم، وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي)[٢].

ورغم هذا فقد وجدت هذه الخصلة الجاهلية في هذا العصر الحاضر، فمع طول الزمان وكثرة النعم، والرفاهية في العيش، عاش الكثير من المسلمين في حالةٍ من الترف، ففتروا عن طاعة الله، وعن الالتزام بأحكام الله تعالى، بل وعلى الاجتراء من قِبل البعض منهم على معصية الله تعالى، والتهاون في القيام بالطاعات المفترضة عليهم؛ الأمر الذي نجم عنه قسوة قلوب الكثير منهم، فلا يقبلون موعظة ولا مناصحًا.

* * *

---

(١) سورة الحديد، الآية: (١٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٤ – ١٧٥).

المسألة الثانية والأربعون بعد المائة
أنهم يبخلون
المسألة الثالثة والأربعون بعد المائة
أنهم يأمرون بالبخل

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - خصلتين من خصال الجاهلية تُعدان من أشهر خصال اليهود والمنافقين، فرغم أن اليهود كانوا أهل علمٍ ومال، إلا أنهم كانوا بخلاء بهما، فقد شحوا بأموالهم، وبخلوا بها، كما كتموا ما عندهم من العلم، ولم يبينوه لغيرهم، بل وكانوا يأمرون غيرهم بالبخل.

والمراد بالبخل هو: ضد الكرم، وهو المنع من مال نفسه، وقيل هو الشح، إلا أن الشح هو بخل الرجل من مال غيره، وقيل البخل: ترك الإيثار عند الحاجة[(١)].

قال القرطبي - رحمه الله -: (البخل هو امتناع المرء من أداء ما أوجب الله تعالى عليه)[(٢)].

وقال ابن حجر - رحمه الله - عن البخل: (هو منع ما يطلب مما يقتني، وشره ما كان طالبه مستحقًا، ولا سيما إن كان من غير مال المسئول)[(٣)].

---

(١) انظر .لسان العرب (١١/ ٤٧)، التعريفات (٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ١٨٦).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٥٧).

ويعبر عن البخل أحيانًا بالشح، فيدل على المعنى نفسه في حال افترق اللفظان، أما في حال اجتمع اللفظان يكون أحدهما ثمرة للآخر، فقد قيل إن المراد بالشح: هو البخل مع الحرص، والإحفاء في طلب الشيء، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه، أما البخل فهو: منع إنفاق الشيء بعد حصوله، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله. فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل[(١)].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة المذمومة، حيث وردت آيات وأحاديث كثيرة في ذم البخل والشح، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[(٢)].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تأويل الآية: (أي الذين يبخلون على الناس بفضل ما رزقهم الله من أموالهم)[(٣)].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره للآية: (توعد الله بالعقاب المذل اليهود الذين يبخلون بتبيين ما أمرهم الله بتبيينه للناس من العلم، ويأمرون الناس الذين يعلمون ذلك مثل علمهم، بكتمان ما أمرهم الله بتبيينه، أيضًا والذين يبخلون بأموالهم التي ينفقونها في حقوق الله وسُبُله، ويأمرون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٨٧)، تفسير القرطبي (٤/ ٢٨٤)، الوابل الصيب (٦٨)، سبل السلام (٤/ ٢٧٨)، شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٧٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (٣٧).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٨٩)، للاستزادة انظر: الفتاوى (١٤/ ٢١٢).

الناس من أهل الإسلام بترك النفقة في ذلك)[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (يذم الله تعالى في هذه الآية الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب، واليتامى.. ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل، فالبخلاء جاحدون لنعمة الله، لهذا توعدهم الله، كما وقد حمل السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ، وكتمانهم ذلك، ولا شك أن الآية محتملة لذلك)[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ ﴾[(٣)].

قال الطبري - رحمه الله - والمراد: (أي لا يحب الله الباخلين بما أوتوا في الدنيا على اختيالهم به، وفخرهم بذلك على الناس، فهم يبخلون بإخراج حق الله الذي أوجبه عليهم فيه، ويشحون به، وهم مع بخلهم به أيضًا يأمرون الناس بالبخل)[(٤)]. لذلك فقد توعد الشارع الباخلين بما آتاهم الله، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾[(٥)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٧).

(٣) سورة الحديد، الآيتان: (٢٣ - ٢٤).

(٤) تفسير الطبري (١١/ ٦٨٨).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (١٨٠).

قال ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما - وغيرهم معنى قوله تعالى: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ ﴾ هو الذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً فلم يُود زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوّق يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك – ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ... ﴾»(١).

قال القرطبي - رحمه الله -: (نزلت هذه الآية في البخل بالمال، والإنفاق في سبيل الله، وأداء الزكاة المفروضة)(٢).

ولأجل ذلك بيّن الشارع أن المتضرر الأول من البخل هو البخيل نفسه، فقال تعالى: ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾(٣).

قال ابن كثير والمراد: (إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه)(٤).

هذا وقد حذر النبي ﷺ من البخل، وبيّن أنه من أسباب هلاك من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الزكاة. باب إثم مانع الزكاة برقم (١٤٠٣) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب (لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم...) برقم (٤٥٦٥) بمثله وفي كتاب الحيل. باب في الزكاة، وأن لا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة برقم (٦٩٥٧) بنحوه (١١٠، ٣٧٥، ٥٨١). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٢٨٢).

(٣) سورة محمد، الآية: (٣٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٨٣).

كان قبلنا، فقال: «... واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» (١).

قال أهل العلم والمراد بقوله: «أهلك من كان قبلكم»: أي كان الشح سببًا لهلاكهم في الدنيا والآخرة؛ لأن بالشح يحصل التهاجر والتقاطع، وذلك يؤدي إلى التشاجر والتعادي من سفك الدماء، واستباحة المحارم من الفروج، والأعراض، والأموال وغيرها(٢).

لهذا فقد وردت أحاديث كثيرة في الاستعاذة من هذه الخصلة، مما يدل على سوء ودناءة هذه الخصلة، ومما نقل عن النبي ﷺ في ذلك أنه كان يتعوذ دبر الصلاة، فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر» (٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تحريم الظلم برقم (٢٥٧٨) بمثله (١١٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر: المنهاج (١٨٤٥)، مرقاة المفاتيح (٤/ ٣٢٠)، سبل السلام (٤/ ٢٧٩)، شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) برقم (٤٧٠٧) بنحوه، وفي كتاب الدعوات. باب التعوذ من عذاب القبر برقم (٦٣٦٥) بمثله، وباب الاستعاذة من الجبن والكسل برقم (٦٣٦٩) بمثله مع تقديم وتأخير، وفي باب التعوذ من البخل برقم (٦٣٧٠) بمثله، وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدنيا ومن فتنة النار برقم (٦٣٧٥) بتقديم وتأخير، وباب التعوذ من فتنة الدنيا برقم (٦٣٩٠) بمثله (٣٩٢، ٥٣٥، ٥٣٦، ٢٣٧)، ومسلم في صحيحه. كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من العجز والكسل وغيره بأرقام (٦٨٧٣، ٦٨٧٤، ٦٨٧٥، ٦٨٧٦) بمثله مع تقديم وتأخير (١١٤٨).
=

لهذا لم يقتصر الشارع على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنهي الصريح عنها، وذمها في آيات كثيرة في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ فقط؛ بل خالفهم كذلك حين أخبر أن من صفات عباده المؤمنين الأبرار الجود والسخاء، والإيثار على النفس حين ينفقون على غيرهم في كل حين، وعلى كل حال؛ سواء في السراء أو الضراء.

فقال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

قال ابن كثير والمراد: (أنهم تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وآثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، فمن سلم من الشح

=

موسوعة الحديث الشريف.

(١) سورة البقرة، الآيتان: (٢، ٣).

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: (١٣٣، ١٣٤).

(٣) سورة الحشر، الآية: (٩).

فقد أفلح ونجح)[١].

كما حث - عليه الصلاة والسلام - على الإنفاق فقال: «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثُديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا ألا لزقت كل حلقةٍ مكانها فهو يوسعها ولا تتسع»[٢].

قال ابن حجر - رحمه الله - عن المراد بالتشبيه الوارد في هذا الحديث: (والمراد هنا بتشبيه النبي ﷺ أن شبه البخيل والمتصدق، برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعًا يستتر به من سلاح عدوه، فصبها على رأسه ليلبسها، والدروع أول ما تقع على الصدر والثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كميها فجعل المنفق كمن لبس درعًا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه، أما البخيل كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه، كلما أراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته، وهو معنى قوله (قلصت) أي تضامت واجتمعت، فالجواد إذا هم بالصدقة انشرح صدره، وطابت نفسه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الزكاة. باب مثل البخيل والمتصدق برقم (١٤٤٣، ١٤٤٤) بمثله، وفي كتاب الجهاد. باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب برقم (٢٩١٧) بمثله، وفي كتاب الطلاق. باب = =الإشارة في الطلاق والأمور برقم (٥٢٩٩) بمثله، وفي كتاب اللباس. باب لبس القميص برقم (٥٧٩٧) بمثله (١١٣، ٢٣٤، ٤٥٨، ٤٩٥)، ومسلم في صحيحه. كتاب الزكاة. باب مثل المنفق والبخيل برقم (٢٣٥٩، ٢٣٦٠) بمثله وبرقم (٢٣٦١) بنحوه (٨٣٩) موسوعة الحديث الشريف.

فتوسعت في الإنفاق، أما البخيل إذا حدث نفسه بالصدقة، ضاق صدره، وانقبضت يداه)(١).

ومما قال - عليه الصلاة والسلام - أيضًا في الحث على الإنفاق والجود: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»(٢).

وقد خطب عمر بن الخطاب يومًا فقال - رضي الله عنه -: (قد أفلح منكم من حُفظ من الطمع، والغضب والهوى)(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن ما في القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء وذم من ترك ذلك: كله ذم للبخل)(٤).

وقال أيضًا في موضع آخر: (ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم، بيّن سبحانه وتعالى أنه من تولى عنه بانفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك، قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الزكاة. باب قوله تعالى: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) برقم (١٤٤٢) بمثله (١١٣)، ومسلم في صحيح كتاب الزكاة. باب في المنفق والممسك برقم (٢٣٣٦) بمثله (٨٣٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٢٣).

(٤) الفتاوى (٢٨/ ١٥٦).

﴿لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[1]، كما أن بالكرم والشجاعة في سبيل الله فضل الله السابقين، فقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[2])[3].

لقد تبين من خلال ما سبق أن البخل يتناول البخل بالمال، والبخل بالعلم بكتمانه، وكلاهما من خصال اليهود، إلا أن هناك من أهل العلم من ابتلي به، وعن ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (وصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم بخلاً به تارة، وتارة اعتياضًا عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفًا من أن يحتج عليهم بما أظهروه منه. وهذا قد ابتلي به طوائف من المنتسبين إلى العلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلاً به، وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضًا عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته، أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى[4] إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه، وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل... وهذا قد ابتلي به طائفة معينة في العلم أو الدين من المتفقهة أو المتصوفة أو

---

(١) سورة محمد، الآية: (٣٨).

(٢) سورة الحديد، الآية: (١٠).

(٣) الاستقامة (٤٨٨).

(٤) أي انتسب وانتمى.

غيرهم)[١].

وممن ابتلي بذلك أتباع الفرق المعتزلة، والجهمية، والشيعة، وغيرهم، وأصحاب الاتجاهات والأحزاب[٢] المعاصرة، وأتباع النحل المعاصرة، كالبهائية والقاديانية وغيرهم[٣].

❋ ❋ ❋

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٩ – ٦٠).

(٢) كالقومية، والبعثية، والاشتراكية، والماركسية. للاستزادة عن هذه المذاهب انظر: موسوعة الأديان، المذاهب المعاصرة: عبد الرحمن عميرة.

(٣) للاستزادة. انظر: القاديانية والبهائية: لإحسان إلهي ظهير، موسوعة الأديان الميسرة.

المسألة الرابعة والأربعون بعد المائة
ابتداعهم الرهبانية

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - أن مما ابتدعه أهل الجاهلية، الأميون والكتابيون الرهبانية؛ بل واعتقدوها دينًا يدينون لله بها، فأحدثوا من عند أنفسهم عبادات لم يأمرهم الله بها، وشددوا على أنفسهم في المآكل والمشارب وجميع ملاذ الدنيا تحت مسمى الرهبانية.

فالرهبانية في اللغة: أصلها من الرهبة، ثم صارت اسمًا لما فضل عن المقدار، وأفرط فيه، والمراد بالرهبة الخوف؛ فكانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهد مشاقها[١].

والرهبانية في الاصطلاح: هي المبالغة في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس، وتحميل الأنفس المشاق في الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والنكاح، وغيرها من ملاذ الدنيا[٢].

لقد عمد النصارى إلى التعبد لله بعبادات لم يأمرهم الشارع بها، فشددوا على أنفسهم في تلك العبادات التي أحدثوها، وتركوا فعل ما أمرهم الشارع به، وفعلوا ما حرمه الشارع عليهم. كذلك كان لأهل

---

(١) لسان العرب (١/ ٤٣٧ - ٤٣٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٢٢٤)، تفسير أبي السعود العمادي. دار إحياء التراث - بيروت، (٨/ ٢١٣).

الجاهلية الأميين نصيب وافر من الرهبانية فيما أحدثوه من عبادات بزعم التقرب بها لله تعالى، وقد تناولت بيان بعض تلك العبادات، والأدلة على بطلانها في مسائل سابقة(١).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص سبحانه وتعالى على ذم الرهبانية التي ابتدعها النصارى، فقال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾(٢).

قال القرطبي - رحمه الله - والمراد: (أن ما حملوه أنفسهم من المشاق في الامتناع عن المطعم والمشرب والنكاح.. ما فرضناها عليهم، ولا أمرناهم بها، فما أمرناهم إلا بما يرضي الله، لكنهم ابتدعوها إبتغاء رضوان الله، فما قاموا بها حق القيام)(٣).

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله – عن المراد الآية: (أي أن الرهبانية ابتدعتها أمة النصارى، فما شرعناها، وإنما هم التزموا بها من تلقاء أنفسهم، وقصدوا بها رضوان الله، فما قاموا بما التزموه حق القيام، فذمهم سبحانه وتعالى على الابتداع في دينه مالم يأمر به؛ وفي عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله - عز وجل -)(٤).

---

(١) انظر: المسألة الستون، والتاسعة والثمانون، والتاسعة بعد المائة، والعاشرة بعد المائة.

(٢) سورة الحديد، الآية: (٢٧).

(٣) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٢٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٦).

كما قد ذم رهبانية أهل الجاهلية الأميين، حتى استنكر عليهم وذمهم فيما حرموه على أنفسهم من الزينة والحلي من باب الديانة، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾(١)، لذلك أبطل ما حرموه من البهائم بزعم التدين، فقال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾(٣).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنهي عنها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تشددوا على أنفسكم، فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»(٤).

كذلك وردت آيات كثيرة تدعو إلى نبذ وإبطال جميع صور الرهبانية التي تمثلت بها، والتي منها: نهي الشارع - عز وجل - عن تحريم زينته التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، فقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) سورة الأعراف، الآية: (٣٢).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٠٣).

(٣) سورة يونس، الآية: (٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الأدب. باب في الحسد. برقم (٤٩٠٤) بمثله وزيادة في أوله وأخره (١٥٨٣) . موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف.

ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[١].

وحين أمر – تعالى – عباده المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾[٣].

يقول الدكتور يوسف السعيد في بيان ذلك: (فهدي المرسلين الأكل من الطيبات، وهو هدي المؤمنين؛ لأنهم يستنون بهم)[٤].

كذلك حين بيّن سبحانه وتعالى في آيات أخرى لطفه بعباده، ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وتيسيره عليهم، فقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[٥]، وقال أيضًا: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ ﴾[٦].

كذلك حين حث عباده المؤمنين على أن يتقوه، وأن يؤمنوا بنبيه ﷺ وأن يتبعوا هديه، مبينًا الأجر المترتب على ذلك، فهديه خير هدي، فقال

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٨٧).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٥١).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧٢).

(٤) شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٥٩٥).

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٨٦).

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله -: (هذا وعد من الله أن يجعل لمن آمن به نورًا يمشون به، والقرآن مع اتباع رسول الله ﷺ نور لمن آمن بهما، وصدّقهما، وهدى)(٢).

أيضًا خالف - عليه الصلاة والسلام - أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أراد بعض الصحابة أن يتركوا بعضًا مما أحل الله لهم، اجتهادًا منهم، فاشتد نكيره - عليه الصلاة والسلام - عليهم؛ فقد ورد أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم؛ فقام النبي ﷺ خطيبًا فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، أصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٣). كما قال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٤)، وقال أيضًا: «عليكم بسنتي وسنة

(١) سورة الحديد، الآية: (٢٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٦٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب النكاح. باب الترغيب في النكاح برقم (٥٠٦٣) بنحوه (٤٣٨)، ومسلم في صحيحه. كتاب النكاح. باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤنة بالصوم برقم (٣٤٠٣) بمثله (٩١٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) سبق تخريجه (٤٨٣).

الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»[(١)].

كذلك حث أمته على العمل وفق طاقتهم، فإنه أدعى للمداومة على العمل والثبات عليه. فقال - عليه الصلاة والسلام -: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا وأن أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل»[(٢)].

قال ابن حجر - رحمه الله -: (أشار النبي ﷺ إلى أن خير العمل ما داوم عليه صاحبه؛ لأن المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد، فإنه أمكن لاستمراره، كما أشار - عليه السلام - إلى أن من ترك طريقته، وأخذ بطريقة غيره فليس منه، ولمح بذلك إلى طريقة الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوا بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٧٢٧٢) بنحوه، وبرقم (١٧٢٧٤) بمثله مطولاً (١٢١٦)، وأبو داود في سننه. كتاب السنة. باب لزوم السنة برقم (٤٦٠٧) بمثله مطولاً (١٥٦١)، والترمذي في سننه. كتاب العلم. = = باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة برقم (٢٦٧٦) بمثله مطولاً (١٩٢١)، وابن ماجه في سننه في كتاب السنة. باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين رقم (٤٢) بمثله مطولاً، وبرقم (٤٣) بنحوه مطولاً (٢٤٧٩) قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان. باب أحب الدين إلى الله أدومه برقم (٤٣) بنحوه، وفي كتاب التهجد. باب ما يكره من التشديد في العبادة برقم (١١٥١) بنحوه (٥، ٩٠)، ومسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين. باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره... برقم (١٨٢٧، ١٧٢٨) بمثله (٨٠١). موسوعة الحديث الشريف.

ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس، وتكثير النسل)(١).

فاليسر والسماحة من سمات هذا الدين، وقد نص النبي ﷺ بذلك فقال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» (٢).

قال ابن حجر - رحمه الله - فمراده في قوله: «ولن يشاد الدين إلا غلبه»: (أي لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية، ويترك الرفق إلا عجز وانقطع، فيغلب؛ وقيل أيضًا إن في هذا الحديث: منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، لذلك فالزموا التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط، وإن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، وأبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل)(٣).

وعن ذلك قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (عليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق)(٤).

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان. باب الدين يسر برقم (٣٩) بمثله (٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (١/ ٩٥).

(٤) انظر.السنة: للمروزي. ت: سالم أحمد السلفي. مؤسسة الكتب. بيروت، (ط١)، ١٤٠٨هـ ص(٣٠)، شرح أصول الاعتقاد: للالكائي (١/ ٩٧).

وقد ذكر عند الإمام عبد الرحمن[١] بن مهدي قوم من أهل البدع، واجتهادهم في العبادة، فقال: (لا يقبل الله إلا ما كان على الأمر والسنة، ثم قرأ: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[٢] فلم يقبل ذلك منهم، ووبخهم عليه، ثم قال: الزم الطريق والسنة)[٣]. وذلك لأن الرهبانية ناتجةٌ عن أمرين، وهما: أولاً: الرغبة في العبادة. ثانيًا: ترك الاتباع للنصوص الواردة عن الشارع.

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - على ذلك فقال: (لما تركوا اتباع نصوص الكتاب إيمانًا وعملاً، وعندهم رغبة العبادة والتأله ابتدعوا الرهبانية؛ وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة، فمن ابتغى رضوان الله فإن إرضاءه تعالى بفعل المأمور، وبترك المحظور، لا بفعل ما لم يأمر بفعله، وبترك ما لم ينه عن تركه كما في الرهبانية... لذلك فمخالفة الرهبانية لا تكون إلا بالإيمان بالرسول بتصديقه، وطاعته، واتباع شريعته)[٤].

وقد وجدت هذه الخصلة الجاهلية عند الكثير من العباد والزهاد من المتصوفة وغيرهم بتحريم البعض منهم على نفسه تعبدًا وتقربًا لله، وزهدًا

---

(١) هو: أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي البصري اللؤلؤي، حافظ مشهور، فقيه، مفت. توفي في البصرة سنة ١٩٨هـ. انظر: المعارف لابن قتيبة، ص(٥١٣)، شذرات الذهب (١/ ٣٥٥).

(٢) سورة الحديد، الآية: (٢٧).

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٩).

(٤) انظر: الفتاوى (٢٠/ ١٠٨)، الجواب الصحيح (١/ ٤٨٣، ٤٨٤)، اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٧).

أن ينكح، أو أن يأكل نوعًا من أنواع الطعام المباح، أو أن يتكلم، أو يذبح... وهذه الأنواع من الرهبانية التي ابتدعوها، إنما ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس، وقهر الهوى والشهوة. ولا ريب أن المسلم مأمور بمجاهدة النفس، ولكن مجاهدتها تكون باتباع الشريعة الإسلامية، وذلك بتحريم ما حرمه الله ورسوله، وتحليل ما أحله الله ورسوله، وليس بتحميل النفس ما لا تطيق(١).

كما وجدت هذه الخصلة الجاهلية - وللأسف - في أناس ليسوا ولله الحمد من التصوف في شيء، لكنهم راموا الزهد. فأخطئوا الطريق، فكان منهم من حرم ركوب السيارات، ومنهم من حرم ركوب الطائرات، ومنهم من حرم الكهرباء، وغير ذلك، وبهذا يتبين أن هذه الخصلة الجاهلية لا تزال موجودة في هذا العصر، فالله المستعان(٢).

* * *

(١) للاستزادة. انظر: تلبيس إبليس (٢١٠ - ٢٧٥)، الفتاوى (١٠/ ٤٦٢، ٧١٥)، (١٤/ ٤٦٠) (٢٠/ ٧٣)، الاستقامة (٤٠٩).

(٢) للاستزادة. انظر: شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٥٩١ - ٥٩٧).

المسألة الخامسة والأربعون بعد المائة
وصفهم بالجبن لقوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾[1] الآية

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال اليهود والمنافقين البارزة، والمشهورة عنهم، وهي الجبن؛ إذ يُعد هؤلاء من أجبن الخلق؛ نظرًا لما تحمله أنفسهم من سوء الظن.

والجبن **في اللغة**: من يَجْبُن وجَبُنَ جبنًا، والجبان هو الذي يهاب التقدم على كل شيء، ليلاً كان أو نهارًا[2].

واصطلاحًا: هي هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بها يحجم عن مباشرة ما ينبغي وما لا ينبغي[3].

يُعد الجبن خُلقًا مذمومًا، ذمه الشارع في محكم كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وقد استدل المؤلف رحمه الله تعالى بإحدى الآيات التي ذم فيها الشارع هذه الخصلة عند اليهود، قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) سورة الحشر، الآية: (١٤).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٨٤).

(٣) التعريفات: للجرجاني (٨٧).

قال المفسرون عن المراد بهذه الآية: لقد عنى الله بهذه الآية اليهود والمنافقين الذين من جبنهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة إلا من وراء الجدر، أو في الحصون، مستترين بها لجبنهم ورهبتهم(١).

وقد وردت آيات كثيرة دلت على وجود هذه الخصلة المذمومة عند اليهود والمنافقين، وعند المواطن التي تجلت فيها هذه الخصلة، والتي منها ما ذكره البارئ عن بني إسرائيل حين امتنعوا عن الدخول إلى الأرض المقدسة التي أمرهم الله على لسان نبيه موسى - عليه السلام - جبنًا منهم، وقلة يقين بنصر الله لهم، فقال تعالى عنهم: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ۝ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾(٢). قال المفسرون: أي أن هذا الامتناع من الدخول سببه الجبن، وقلة اليقين، وإلا لعلموا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك(٣).

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٣٣)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤١).

(٢) سورة المائدة، الآيتان: (٢١ - ٢٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٥١٦، تفسير ابن سعدي (٢٢٨).

(٤) سورة التوبة، الآية: (٥٦).

قال القرطبي - رحمه الله -: (أي أن من أخلاق المنافقين الخوف، أي يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيقتلون)[١].

كما قال تعالى أيضًا عنهم: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله - والمراد بهذه الآية: (وصف الله عز وجل هؤلاء المنافقين بالجبن والشح، فهم جبناء عند البأس، أشحاء عند قسم الغنيمة)[٣].

كما وصفهم تعالى بالجبن والخور في موضع آخر من باب الذم والتوبيخ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

إن جميع الآيات السابقة جاءت في سياق الذم لهذه الخصلة، مما يدل على وجوب مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك بالتحلي بالشجاعة، وإحسان الظن بالله تعالى، والتوكل عليه، والاستعاذة من هذه الخصلة

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ١٤٩).

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: (١٨، ١٩).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٢٧٥).

(٤) سورة المنافقون، الآية: (٤).

المذمومة، فقد امتدح الشارع عباده المؤمنين بصدق يقينهم بوعد الله، وتوكلهم عليه، لذلك جازاهم على ذلك بالنصر والغنيمة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[١].

كما قد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بهديه الفعلي والقولي، فما عُرف عن النبي ﷺ الجبن، بل كان أشجع الناس، قال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: (كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس...)[٢]، وقال - عليه الصلاة والسلام - عن نفسه: «لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوبًا، ولا جبانًا»[٣].

لذا فقد استعاذ - عليه الصلاة والسلام - من الجبن، فكان يقول متعوذًا دبر الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا...»[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: (١٧٣، ١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجهاد. باب الشجاعة في الحرب والجبن برقم (٢٨٢٠) بمثله (٢٢٧)، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل. باب شجاعته ﷺ برقم (٦٠٠٦) بمثله مطولاً (١٠٨٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجهاد. باب الشجاعة في الحرب والجبن برقم (٢٨٢١) بمثله (٢٢٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) سبق تخريجه ص(٧٠٨).

قال النووي - رحمه الله – في شرحه للحديث: (لقد استعاذ النبي ﷺ من الجبن لما فيه من التقصير عن أداء الواجبات، والقيام بحقوق الله تعالى، وإزالة المنكر، والإغلاظ على العصاة، ولأنه بشجاعة النفس، وقوتها المعتدلة تتم العبادات، ويقوم بنصر المظلوم والجهاد)[١].

ولعلماء السلف ومن تبعهم أقوال في ذم الجبن، فمنها:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن ما في القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه، وذم الناكلين عنه والتاركين له: كله ذم للجبن... إذ أنه داء عظيم، وخلق ذميم)[٢].

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: (يتولد الجبن من سوء الظن، وعدم الصبر، فلا يظن الظفر، ولا يساعده الصبر، وأصل الجبن من سوء الظن، ووسوسة النفس بالسوء)[٣].

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: أيضًا (الجبن هو شح بالنفس؛ لأن الإنسان بالجبن يشح بنفسه؛ لا يقدم في جهاد يخشى أن يقتل، ولا يتكلم بكلام حق يخشى أن يسجن، وما أشبه ذلك، فهذا جبن)[٤].

وقد برزت هذه الخصلة عند بعض من ينتسبون للإسلام، كالروافض،

---

(١) المنهاج (١٩٠٥)، وللاستزادة انظر: عون المعبود (٦٩٨).

(٢) الفتاوى (٢٨/ ١٥٧ – ٤٣٧).

(٣) الروح لابن قيم الجوزية (٢٣٦).

(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٩).

فمعلومٌ أن الروافض قد شابهوا اليهود والمنافقين في الكثير من خصالهم[١]، كما وجدت هذه الخصلة في العصر الحاضر لدى منافقي هذا العصر من العلمانيين وغيرهم الذين يظهرون خلاف ما يضمرون، جبنًا وخورًا منهم.

* * *

(١) للاستزادة انظر: منهاج السنة (٤/ ١٩٠).

المسألة السادسة والأربعون بعد المائة
شدة بأسهم بينهم كما في الآية

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند اليهود والأميين ومن وافقهم من المنافقين، والمتمثلة في علاقاتهم بعضهم بعض، تلك العلاقات التي ملئت بالعدوات والاختلافات؛ وإن كان ظاهر البعض منهم يوحي بالاتفاق والتناصر، ولكن الحقيقة هي التباغض والتنافر.

وقد خالفهم الشارع في هذه الخصلة حين ذمهم على هذه الخصلة، فقال تعالى عنهم: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله -: (المراد أي أن عداوة المنافقين وأهل الكتاب من اليهود مع بعضهم البعض شديدة، لأن قلوبهم مختلفة، وأهواءهم مشتتة)(٢).

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - والمراد من الآية: (أي أن فيما بينهم تدابر وعداوة شديدة، فهم لا يتفقون، لا لآفة في أبدانهم، ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم، وعدم اجتماع كلمتهم، وإن تظاهروا

---

(١) سورة الحشر، الآية: (١٤).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٥).

بالاجتماع فهم في الحقيقة قلوبهم متباغضة متفرقة متشتته)[١].

وقال أحد المفسرين: (إن الشارع قد أراد بهذه الآية تربية المسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر، ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر، يرون رأيًا متماثلاً في أصول مصالحها المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقص أصول مصالحها، ولا تفرق جامعتها، وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال، ولا التوافق على الأغراض، إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات)[٢].

لهذا خالف الشارع أهل الجاهلية حين بعث الله عز وجل النبي محمدًا ﷺ بالشريعة الإسلامية السمحة المشتملة على محاسن الأخلاق، ومكارمها، والمتضمنة لعوامل الألفة والمحبة والرحمة، والتي بها قُضي على الكثير من العدوات القائمة بين قبائل العرب، لتتألف قلوبهم، كالعداوة التي كانت بين الأوس والخزرج[٣]، فقد قضى الإسلام عليها بعد أن دامت بينهم زمنًا طويلاً، وألف بين قلوبهم بأخوة الإسلام، فما أن يدخل الإيمان قلب عبد من العباد حتى تدخل معه الألفة والمحبة والرحمة، قال تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ

---

(١) تفسير ابن سعدي (٨٥٢).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٣/ ١٠٦).

(٣) الأوس والخزرج: الأنصار، وهم من كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، سكنوا المدينة، حصل بينهم الكثير من المنازعات والحروب التي عمل على زيادة اشتعالها اليهود في المدينة، فبقيت حروب هاتين القبيلتين إلى يوم بعاث، حتى جاء الإسلام وجمع هاتين القبيلتين، وآخى بينهما. انظر: البدء والتاريخ (١/ ٥٣٨) (٤/ ١٢٠ – ١٢١).

بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

قال ابن جريـر الطبري - رحمه الله -: (يريد الله عز وجل بقوله: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ أي جمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداء)[٢].

كما خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أخبر عباده بخبر يتضمن الثناء والمدح لصفات تُعد من أكمل الصفات التي اتصف بها الرسول ﷺ وأصحابه بعضهم مع بعض، فاستحقوا على إثرها المدح والثناء. وعلى هذا؛ فإن هذا المدح والثناء دليلٌ على ما يجب أن تكون عليه علاقة المسلمين بعضهم مع بعض. علاقةٌ يملؤها الرحمة والعطف والتواصل. قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٣]، وقال أيضًا: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾[٤].

قال الطبري - رحمه الله -: (﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أرقاء عليهم رحماء بهم، و﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أشداء عليهم، غُلظاء بهم)[٥].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٢٨٠).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٥٤).

(٤) سورة الفتح، الآية: (٢٩).

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٦٢٦ – ٦٢٧).

وقال ابن كثير - رحمه الله - في المراد من قوله تعالى: (﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ خبرٌ مشتمل على كل وصف جميل، فهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن)(١).

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: (أي أنهم متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه)(٢).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حث أمته على التراحم، والتواد، والتعاطف، والتواصل، ونهاهم عن التنافر، والتباغض، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ثم شبك بين أصابعه» (٣)، وقال أيضًا: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا»(٤)، وقال أيضًا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥).

(٢) تفسير ابن سعدي (٧٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب. باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا برقم (٦٠٢٦) بمثله (٥١٠)، ومسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم برقم (٦٥٨٥) بمثله (١١٣٠) موسوعة الحديث الشريف.

(٤) سبق تخريجه ص(٢٢٩).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم برقم (٦٠١١) بمثله (٥٠٩)، ومسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم برقم =

قال الإمام النووي - رحمه الله -: (أمر النبي ﷺ في قوله: «كونوا عباد الله إخوانًا» بأن يتعاملوا ويتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة، والرفق والشفقة، والملاطفة، والتعاون في الخير، ونحو ذلك مع صفاء القلوب، والنصيحة بكل حال، كما أن في نهيه عن التباغض إشارة إلى النهي عن الأهواء المضلة الموجبة للتباغض)(١).

وقال الإمام ابن حجر - رحمه الله -: لقد أمر النبي ﷺ أمته في الأحاديث السابقة بالتراحم بأخوة الإيمان، وبالتواصل جلبًا للمحبة، وأن يعين بعضهم بعضًا، لذا شبه عليه الصلاة والسلام المسلمين في تواصلهم وتوادهم وتراحمهم بالجسد تعظيمًا لحقوق بعضهم على بعض، ولحضهم على التعاون والملاطفة مع بعضهم البعض(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (لقد بعث الله النبي ﷺ بالشريعة الكاملة العادلة، فجعلهم أمة عدلاً خيارًا، لا ينحرفون إلى هذا الطرف، ولا إلى هذا الطرف، بل يشتدون على أعداء الله، ويلينون لأولياء الله، ويستعملون العفو والصفح فيما كان لنفوسهم، فقد وصفهم الله بالرحمة للمؤمنين، والذلة لهم، والشدة على الكفار، والعزة عليهم)(٣).

=

(٦٥٨٦) بمثله (١١٣٠). موسوعة الحديث الشريف.

(١) المنهاج (١٨٣٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٤٣٩، ٤٨٣) بتصرف.

(٣) الجواب الصحيح (٣/ ٤٩ - ٥١).

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية قد ظهرت كثيرًا بين أصحاب البدع والأهواء الذين اختلفوا في الآراء والأقوال، فتولدت بينهم العداوة والتفرق والشتات، وما ذلك إلا لضعف الإيمان في القلوب فحين تتفرق الضمائر تحصل العداوة والتفرق، فالله المستعان.

* * *

المسألة السابعة والأربعون بعد المائة
أنهم نسوا الله فنسيهم

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والأميين ومن وافقهم فيها من المنافقين وغيرهم من أهل البدع والأهواء، وهي نسيانهم لله تعالى؛ وذلك بتركهم القيام بطاعة الله، وبعصيانهم، ومخالفتهم لأمره تعالى.

فكان عاقبة أمثال هؤلاء أن نسيهم الله - عز وجل - كما نسوه، وذلك بتركه لهم؛ فأنساهم مصالح أنفسهم فلم يعرفوها ولم يسعوا إليها.

والمراد بالنَسيان: بفتح النون أي الترك، يقال: أنْسَيته: أي أمرت بتركه[١].

فمراد النسيان في هذه الخصلة هو الترك عن علمٍ وعمد، وهذا النوع من النسيان مذموم، يدل على ذلك ورود آيات ذم فيها الشارع أهل الكتاب والأميين والمنافقين على هذه الخصلة، فقال تعالى عن اليهود ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾[٢] قال الطبري - رحمه الله - والمراد: (أي تركوا نصيبًا، وهو كقوله تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[٣] أي تركوا أمر الله فتركهم الله)[٤].

(١) لسان العرب (١٥/ ٣٢٢)، وانظر: معجم ألفاظ العقيدة (٤٢٥).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٣).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٦٧).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٤٩٦)، وللاستزادة انظر: شرح المسألة السابعة والأربعين.

وقال تعالى عن النصارى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله -: (سلك النصارى منهاج اليهود، فبدلوا دينهم، وتركوا حظهم من ميثاق الله الذي أخذه عليهم بطاعته، وأداء فرائضه، وضيعوا أمر الله الذي أمرهم به)[٢].

كما قال تعالى موبخًا المشركين على هذه الخصلة بعد أن أدخلهم النار: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[٣].

قال ابن كثير - رحمه الله - والمراد بالآية: (أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، لهذا سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئًا، ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة)[٤].

كما قال تعالى ذامًا وموبخًا ومتوعدًا المنافقين على هذه الخصلة ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ

---

(١) سورة المائدة، الآية: (١٤).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤٩٩).

(٣) سورة السجدة، الآية: (١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٩).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي أن هؤلاء المنافقين المظهرين للإيمان بألسنتهم، والمسرين الكفر بالله ورسوله، يأمرون بالكفر بالله ورسوله، وينهون عن الإيمان، ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، تاركين طاعة الله واتباع أمره، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته)(٢).

وقيل أيضًا المراد: (نسيان الله إياهم مشاكلة، أي حرمانه إياهم مما أعدَّ للمؤمنين؛ لأن هذا يشبه النسيان عند قسمة الحظوظ)(٣).

لهذا دعا الشارع – عز وجل – إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نهى نهيًا صريحًا عن مشابهتهم في مثل هذه الخصلة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾(٤). قال المفسرون والمراد بالآية أي: لا تنسوا ذكر الله، فتكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم، فأنساهم عز وجل حظوظ أنفسهم من العمل الصالح الذي ينفعهم في معادهم(٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – عن ذلك: (لما نسوا الله عز

(١) سورة التوبة، الآية: (٦٧).
(٢) تفسير الطبري (٦/ ٤١١).
(٣) تفسير التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٥).
(٤) سورة الحشر، الآية: (١٩).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٠)، تفسير القرطبي (١٨/ ٤٠)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٣).

وجل بتركهم العمل بما أمرهم به، عاقبهم الله عز وجل بأن أنساهم أنفسهم، ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم، وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم؛ فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرًا ينفعها ويصلحها)(١).

كما قال أيضًا الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (عاقب الله من تركوا ذكره والثناء عليه وتحميده، وتمجيده وفعل ما يحبه، بأن أنساهم أنفسهم، فنسوا مصالحها أن يفعلوها، وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها، فلم يعرفوها، ولم يطلبوها؛ بل تركوها مهملة معطلة مع نقصها وعيوبها، كما أحدث لهم هذا النسيان ارتكاب ما يبغض الله ويسخطه)(٢).

ولهذا أمر البارئ - عز وجل - عباده المؤمنين بذكره في جميع الأحوال، وحذرهم من الغفلة، وأثنى على الذاكرين منهم، وبيّن لهم العاقبة الحميدة المترتبة على ذكرهم لله تعالى، فقال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾(٣).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي اذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمركم به، وفيما أنهاكم عنه، أذكركم برحمتي إياكم، ومغفرتي لكم)(٤).

---

(١) الفتاوى (١٦/ ٣٤٩ - ٣٥٢).

(٢) شفاء العليل (٢٣٣)، للاستزادة انظر. الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٨١)، الروح (٢١٢)، الجواب الكافي (١١٣)، مفتاح دار السعادة (١/ ٨٦)، مدارج السالكين (٣/ ٢٠٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٥٢).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٤٠).

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[(١)] . قال الشيخ ابن السعدي – رحمه الله – في تفسيره للآية: (وهذا الذكر يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتمامها)[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[(٣)]. قال الطبري: أي: (تذكروا وعيد الله على ما أتوا من معصيتهم إياه، فسألوا الله أن يستر عليهم ذنوبهم، ويصفح عنهم)[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[(٥)]، وقال أيضًا عز من قائل: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[(٦)].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسير الآية والمراد: (اذكر الله بقلبك ولسانك؛ متضرعًا بلسانك، وخائفًا من الله بقلبك مما يدفعك إلى الاجتهاد في تكميل العمل، وإصلاحه والنصح به، ولا تكن من الذين نسوا الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٣٩).

(٢) تفسير ابن سعدي (١٠٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٣٥).

(٤) تفسير الطبري (٣/ ٤٤٠).

(٥) سورة النساء، الآية: (١٠٣).

(٦) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة)[١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[٢]. قال ابن سعدي – رحمه الله – أي بدوام ذكرهم لله شملهم برحمته ولطفه، فجعل من صلاته عليهم، وصلاة ملائكته عليهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان، والتوفيق، والعلم، وهذه رحمته بهم في الدنيا، أما في الآخرة فأجل، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضاه عليهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل)[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤]. قال ابن سعدي – رحمه الله – أي: (في حال قعودكم وقيامكم وعلى جنوبكم، فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح)[٥]. كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[٦].

---

(١) تفسير ابن سعدي (٣١٤).
(٢) سورة الأحزاب، الآيات: (٤١ – ٤٤).
(٣) تفسير ابن سعدي (٦٦٧).
(٤) سورة الجمعة، الآية: (١٠).
(٥) تفسير ابن سعدي (٨٦٣).
(٦) سورة الأعلى، الآيتان: (١٤، ١٥).

قال المفسرون المراد بالآية: قد فاز وربح من طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، ونقاها من الشرك، واتصف بذكر الله، وانصبغ قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، فأقام الصلاة في أوقاتها، وابتغى رضوان الله، فأطاع أوامره، وامتثل شرائعه(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة قولاً وعملاً. فكان أخشى عباد الله لله، وأكثرهم ذكرًا وشكرًا لله تعالى، فكان صوامًا قوامًا، مجاهدًا صابرًا محتسبًا. كما وقد حث أمته على ذلك؛ حين حثهم على ذكر الله بالقول والعمل من خلال الأحاديث الواردة عنه في الحث على القيام والمداومة على الأعمال الصالحة من صلاة، أو صيام، أو جهاد... أو ذكر أو نحوها من الطاعات فرضًا كان أو نفلاً.

فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يقول الله تبارك وتعالى أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرتهُ في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم، وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا؛ تقربت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي، أتيته هرولة» (٢)،قال البخاري(٣) - رحمه الله - في بيان معنى الحديث: (إن ذكر

(١) انظر.تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٢)، تفسير ابن سعدي (٩٢١).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٤٩).

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري، إمام أهل الحديث، ولد عام ١٩٤هـ، وتوفي سنة ٢٥٦هـ. من مصنفاته كتابه الصحيح، وهو من أصح الكتب في الحديث، وله كتاب خلق أفعال العباد وغيرها. كان من أفقه علماء زمانه، وكان ورعًا زاهدًا. انظر: البداية والنهاية (١١/ ٢٤ - ٢٧).

العبد ربه غير ذكر الله عبده؛ لأن ذكر العبد: الدعاء والتضرع، وذكر الله الإجابة)[١]، وقال أحد أهل العلم: (ذكر العبد ربه بدعائه وتسبيحه وتحميده وتمجيده وعبادته ونحو ذلك. وذكر الله للعبد في نفسه، وفي الملأ الأعلى، وبإجابة دعائه)[٢].

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «سبق المفردون، قال الصحابة رضي الله عنهم: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا، والذاكرات»[٣].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرح الحديث: (ذكر العباد لربهم أن يدعوه، ويتضرعوا إليه، ويبلغوا رسالاته إلى الخلق، فحين يذكر العبد ربه بالطاعة، يذكره الله بالرحمة والمعونة)[٤].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (إن حال من ذكروا الله ولم ينسوه، تذكير الله لهم بمصالح أنفسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبهم فأصلحوها، وعرفهم حظوظهم العالية فبادروا إليها)[٥].

إلا أن هذه الخصلة قد تمثلت عند كل من حاد عن جادة الحق من أهل

---

(١) خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل. للبخاري، (٢/ ٢٧٩).

(٢) حاشية المرجع السابق (٢/ ٢٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الذكر والدعاء. باب الحث على ذكر الله تعالى برقم (٦٨٠٨) بمثله (١١٤٤) . موسوعة الحديث الشريف.

(٤) فتح الباري (١٣/ ٤٨٩).

(٥) شفاء العليل (٢٣٣).

البدع والأهواء والعصاة.

وعن هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (وأهل البدع الجهمية نحوهم؛ لما أعرضوا عن ذكر الله – الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجاءت به الشرعة، الذي يتضمن معرفته ومحبته وتوحيده – نسوا الله من هذا الوجه. فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه، فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري، والمحبة الفطرية، والتوحيد الفطري)[١].

لذا فإن كل من عصى الله أو خالف أمرًا من أوامره فهو ناسٍ لله تعالى فيما عصى الله به. فالله المستعان.

* * *

(١) الفتاوى (١٦/ ٣٥٠).

المسألة الثامنة والأربعون بعد المائة
النهي عن الصلاة لقوله تعالى:
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[1]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين ممن أعرضوا عن الحق، وكذبوا به، وجهلوا عظم حق الله تعالى، فتجرؤوا على الاستخفاف بأوامره تعالى، ومنعها بالقول، أو الفعل، أو بكليهما. كما هو ظاهرٌ في هذه الخصلة التي ذكرها المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة وهي النهي عن الصلاة، ويدخل ضمنها النهي عن كل معروف وطاعة.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بالآية التي استنكر فيها البارئ عز وجل وتوعد فيها بالوعيد الشديد لمن قام بهذه الخصلة وهو أبو جهل حين نهى النبي ﷺ عن الصلاة ومنعه؛ علمًا أن هذا الوعيد شامل وعام لكل ناهٍ عن خير وطاعة. فقال تعالى مستنكرًا ومتوعدًا ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[2]. فقد ورد (أن

---

(١) سورة العلق، الآيتان: (٩، ١٠).

(٢) سورة العلق، الآيات: (٩ – ١٦).

أبا جهل قال: هل يُعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل له: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطان على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا، فأنزل الله هذه الآيات») [١].

قال الطبري - رحمه الله تعالى - والمراد بالآية: (أي ألم يعلم أبو جهل إذ ينهى محمدًا عن عبادة ربه، والصلاة له، بأن الله يراه، فيخاف سطوته وعقابه. فلنسودن وجهه، ولنأخذن بناصيته إلى النار)[٢].

وقال الرازي - رحمه الله -: (وقد اشتملت هذه الآية على التخويف لكل من نهى عن الصلاة، أو نهى عن طاعة الله، فهو داخل ضمن الوعيد الوارد في الآية، ولا يدخل ضمن هذا الوعيد من نهى عن الصلاة في الأرض المغصوبة، أو في أوقات النهي، لأنها معصية)[٣].

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - والمراد بالآية: (أن الإنسان لجهله وظلمه، إذا رأى نفسه غنيًا، طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسي أن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب قوله تعالى: (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) برقم (٧٠٦٥) بمثله (١١٦٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٦٤٨).

(٣) التفسير الكبير (١١/ ٢٢٢، ٢٢٣).

إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أن يترك الهدى بنفسه، ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان، لهذا توعده الشارع إن استمر على حاله بالعقوبة، وهذا الوعيد عامٌ لكل ناهٍ عن الخير)[١].

لهذا فقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بأمر عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، والمواظبة عليها في أوقاتها المعلومة، وأن يأمروا أهليهم بها، ويصطبروا، عليها، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٦].

قال المفسرون والمراد بالآية: أي حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل، واصطبر على إقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها[٧].

---

(١) تفسير ابن سعدي (٩٣٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٤٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٨٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٣٨).

(٥) سورة النساء، الآية: (١٠٣).

(٦) سورة طه، الآية: (١٣٢).

(٧) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٧٩)، ابن سعدي (٥١٧).

كما قد خالف النبي ﷺ في هديه أهل الجاهلية في الخصلة حين أمر الآباء والأمهات بتنشئة أبنائهم على الصلاة، وذلك من خلال أمرهم بها من سن سبع سنوات، وضربهم عند تركها في سن عشر سنوات، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين»(١).

قال أهل العلم والمراد بهذا الحديث: هنا أمر النبي ﷺ أولياء الأمور بأن يعلموا أبناءهم ما يتعلق بالصلاة من شروط وأركان، ويأمروهم بأدائها بعد التعلم وهم أبناء سبع؛ ليعتادوا عليها، ويستأنسوا بها، وأن يضربوهم على تركها لعشر؛ لأنهم قاربوا البلوغ(٢).

فهنا أمر النبي ﷺ بالنهي عن تركها؛ بل والضرب في حال تركها، خلافًا لهذه الخصلة.

ولا يخفى ظهور هذه الخصلة في هذا الزمن الحاضر في البعض من بلاد الكفر التي تضم نسبة قليلة من المسلمين، والبلاد الإسلامية المستعمرة من قِبل أهل الكفر، وما يعانونه في سبيل القيام بشعائر دينهم الحنيف؛ وقد تبدى ذلك للجميع من خلال حرقهم لمساجد المسلمين، أو بإقفالها، أو سلب ما فيها وتحويلها من دورٍ للعبادة إلى دورٍ للخنا والفجور، ليس إلا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٧٥٦، ٦٦٨٩) بمثله (٤٨٠، ٤٨٥)، وأبو داود في سننه. كتاب الصلاة. باب متى يؤمر الغلام بالصلاة برقم (٤٩٤، ٤٩٥) بمثله (١٢٥٩). موسوعة الحديث الشريف. قال شعيب: إسناده حسن، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) انظر: عون المعبود (٢٤٦)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٢٥٧).

لمنعهم من الصلاة. وكثيرًا ما نسمع ونرى عبر وسائل الإعلام منع المصلين من الصلاة، ونهيهم عن ذلك في المسجد الأقصى. وكما تبين خلال الشرح السابق، فإن كل أمرٍ قد أقره الشرع معروفًا وطاعة، فإن النهي عنه ومنعه داخلٌ تحت الوعيد الوارد في الآيات السابقة. فالله المستعان.

* * *

المسألة التاسعة والأربعون بعد المائة
استحلال البيت الحرام كفعل أصحاب الفيل(١)

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا أحد خصال أهل الجاهلية عند النصارى حين هموا بالذهاب إلى مكة لهدم الكعبة؛ مستحلين بذلك حرمة البيت الحرام.

وقد جعل الشارع مكة بلدًا آمنًا من الجبابرة، وتسلطهم، ومن عقوباته تعالى، لهذا فقد حرم الشارع أن يهتك هذا الأمن، فنص على حرمتها وأمنها. وعاقب من شرع لانتهاك حرمتها.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على ظهور هذه الخصلة عند النصارى بفعل أصحاب الفيل الذين أرسل عليهم الشارع عقوبته حين أرادوا دخول مكة لهدم الكعبة وتخريب الحرم، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ أَلَمْ

---

(١) أصحاب الفيل: هم قومٌ من الحبشة، قدموا من اليمن بقيادة أبرهه الحبشي، وهو أحد جند النجاشي في اليمن، بنى أبرهه كنيسة في اليمن ليحج العرب إليها بدل أن يحجوا إلى الكعبة، فجاء أحد العرب فأحدث في هذه الكنسية، فحين علم أبرهه بذلك غضب فأمر الحبشة فجهزوا جيشًا، وساروا بالفيلة، يريد بذلك هدم الكعبة بيت الله الحرام، فحين هموا بالدخول إلى مكة برك الفيل، فضربوه ليقوم فلم يقم، فحين يوجهون لغير مكة يقوم، وحين يعاودون توجهه إلى مكة يبرك على الأرض، حينها أرسل الله إليهم طيرًا متتالية تحمل بأرجلها ومناقيرها حجارة، فألقته عليهم، فما أصيب أحد بالحجارة هذه إلا هلك. للاستزادة انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٦٩١)، تفسير القرطبي (٢٠/ ١٧٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٠)، سيرة ابن هشام (٦٩).

تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝ ﴾[(١)]. قال المفسرون: والمراد: أي أبطل الله كيد أصحاب الفيل، وصنيعه حين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة وهدمها، وذلك بأن أرسل عليهم البارئ عز وجل طيورًا متتابعة تحمل الحجارة في أظافيرها ومناقيرها، رمت بها أصحاب الفيل، حتى جعلهم الباري كورق الزرع الذي أكلته الدواب[(٢)].

وقد وردت نصوصٌ كثيرة في الكتاب والسنة تدل على تعظيم حرمة البيت الحرام وأمنه، وتشهد له بذلك، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[(٤)]. قال الطبري - رحمه الله - والمراد: (أي ألم يكونوا آمنين في حرمهم، لا يُغزون فيه ولا يخافون)[(٥)].

وقال تعالى: ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ ﴾[(٦)]

(١) سورة الفيل، الآيات: (١ - ٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٦٩٣ - ٦٩٩)، تفسير القرطبي (٢٠/ ١٨١ - ١٨٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥١ - ٥٥٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٢٥).

(٤) سورة القصص، الآية: (٥٧).

(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٨٩).

(٦) سورة العنكبوت، الآية: (٦٧).

قال الطبري: (أي خص الله هذه البلد بأنها آمنة، والناس من حولهم يقتلون ويسبون)[١].

لهذا فقد حرم الشارع استحلاله، وتوعد بالعذاب الأليم لمن اقترف مثل هذه الخطيئة، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾[٢]. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (أي أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم). وقال آخرون في معنى الظلم: هو استحلال الحرم متعمدًا[٣].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على حرمة البيت الحرام، فقال - عليه الصلاة والسلام - حين قام خطيبًا من الغد ليوم فتح مكة: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٦٠).

(٢) سورة الحج، الآية: (٢٥).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ١٣١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العلم. باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب برقم (١٠٤) بمثله، وفي كتاب جزاء الصيد. باب لا يعضد شجر الحرم برقم (١٨٣٢) بمثله (١٢، ١٤٤)، =

كذلك حين نص – عليه الصلاة والسلام – على أن استحلال الحرم يُعد من الكبائر فحين سئل عن الكبائر قال - عليه الصلاة والسلام - منهن: «استحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءًا وأمواتًا»[١]، كما قال - عليه الصلاة والسلام - ستة لعنتهم لعنهم الله – فذكر منهم «المستحل لحرم الله»[٢].

وقد قال العلماء عن هذه الأحاديث: إن جميع هذه الأحاديث ظاهرةٌ في تحريم القتال في مكة، وأن الشارع عز وجل قد حرمها بوحي من عنده[٣].

لهذا حين سئل ابن عمر - رضي الله عنه - عن الكبائر ذكر منها: (استحلال آمنين البيت الحرام)[٤].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله – عن تحريم مكة: (إن تحريم مكة تحريم شرعي قدري، سبق به قدر الشارع يوم خلق – البارئ – هذا

=

ومسلم في صحيحه. كتاب الحج. باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام برقم (٣٣٠٢) بنحوه، وبرقم (٣٣٠٤) بمثله (٩٠٣). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الوصايا. باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم برقم (٢٨٧٥) بمثله (١٤٣٨). موسوعة الحديث الشريف، قال الألباني: حسن، شرح أصول الاعتقاد لأهل السنة (٣/ ١١٠٨)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب القدر. باب عظم أمر الإيمان بالقدر برقم (٢١٥٤) بمثله (١٨٦٨). موسوعة الحديث الشريف، قال الألباني: ضعيف، كتاب السنة، للحافظ أبي بكر بن أبي عاصم الشيباني. ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة. بقلم محمد ناصر الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت، (ط٤)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، (١٦٢)، الاعتصام للشاطبي (١/ ١٠١).

(٣) للاستزادة انظر. فتح الباري (١/ ١٩٨) (٤/ ٤٥ – ٤٦)، المنهاج (١٠٢٥، ١٠٢٦).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ١١١٢).

العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، فلم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها. فقد حرم الباري فيها سفك الدم، وعضد الشجر، واختلاء خلائها، والتقاط لقطتها، وهذا أمر مختص بها، وهو مباحٌ في غيرها)(١).

وبعد فرغم وضوح الأدلة وصراحتها في حرمة استحلال بيت الله الحرام إلا أن هذه الخصلة الجاهلية قد ظهرت عند القرامطة حين استحلوا حرمة الحرم، فدخلوا المسجد الحرام فسفكوا دماء الحجيج وسط الحرم، وكسروا الحجر الأسود واقتلعوه من موضعه، فذهبوا به إلى بلادهم في عام ٣١٧هـ(٢).

وعن هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (ومعلوم أن من أعظم الناس كفرًا: القرامطة الباطنية، الذين قتلوا الحُجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وبقي عندهم مدة، ثم أعادوه وهم من أكفر خلق الله تعالى)(٣).

* * *

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٨٨، ٣٩٤).

(٢) للاستزادة. انظر: الفرق بين الفرق (٢٥٧ - ٢٥٨)، البداية والنهاية (١١/ ٦١ - ٦٣)، منهاج السنة (٣/ ١٨٨)، إعلام الساجد بأحكام المساجد (١١٨ - ١١٩)؛ تاريخ مكة دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران. لأحمد السباعي، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م (١/ ١٩٦ - ١٩٧)، صفحات من تاريخ مكة المكرمة. لسنوك هور خرونية. نقله للعربية د. علي عودة الشيخ. دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ (١/ ١٣٨ - ١٣٩).

(٣) منهاج السنة (٣/ ١٨٨).

المسألة الخمسون بعد المائة
عدم العمل بالعلم كما وصف الله به المغضوب عليهم

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية، والتي اشتهر بها اليهود، وهو عدم العمل بالعلم مخالفين بذلك ما ورد في كتبهم المقدسة من الدعوة إلى العمل بالعلم، مما استوجب لهم حلول غضب الله عليهم، ووصفهم بالمغضوب عليهم، فصارت هذه الصفة من أخص ما وصفوا بها، وقد اتفق المنافقون مع اليهود في هذه الخصلة.

لهذا فقد خالف الشارع عز وجل أهل الجاهلية في هذه الخصلة في جميع كتبه حين ذم اليهود والمنافقين على هذه الخصلة، فقال عز من قائل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي أن أهل الكتاب، والمنافقين يأمرون الناس بالصوم والصلاة بما عندهم من العهد ومن التوراة، ويدعون هم العمل بما يأمرون الناس به)(٢).

كما ذم الشارع - عز وجل - اليهود على هذه الخصلة حين شبههم بالحمار الذي يحمل أسفارًا؛ ذلك لأنهم حملوا العلم وعلموه وكُلفوا بالعمل به، إلا أنهم لم يعملوا به، ولم يستفيدوا منه، وقد بينت ذلك في موضع سابق(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٤٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٨٦).

(٣) انظر: المسألة الثانية عشرة بعد المائة.

وتُعد هذه الخصلة هي الأصل في كفر اليهود، لهذا بين البارئ - عز وجل - حين ذمهم على هذه الخصلة ما استوجب عليهم على إثرها من حلول غضب الله عليهم، وذلك عائدٌ لما اشتملت عليه هذه الخصلة من العناد والاستكبار عن قبول الحق والأنقياد له، قال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(١).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيره للآية: (في الغضب على الغضب، أي غضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بالنبي ﷺ) (٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن أصل كفر اليهود من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق، ولا يتبعونه عملاً، أو لا قولاً ولا عملاً)(٣).

وعلى هذا فحين كانت هذه الخصلة هي الأصل في كفر اليهود، وهي السبب في حلول غضب الله عليهم، استحقوا على إثر ذلك وصف الشارع لهم بالمغضوب عليهم؛ بل وجعل هذه الصفة من أخص صفاتهم.

لهذا حرص الله - عز وجل - على وقاية هذه الأمة من الوقوع في هذه

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٩٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٦١).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٦).

الخصلة، وذلك حين دعا - عز وجل - عباده المؤمنين أن يسألوه في كل ركعة أن يقيهم من الوقوع في هذه الخصلة ليخالفوا بذلك اليهود في هذه الخصلة المذمومة، قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي وفقنا للثبات على ما ارتضيته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول، وعمل)[٢].

كما قال ابن كثير - رحمه الله -: (أي وفقنا إلى طريقة أهل الإيمان المشتملة على العلم بالحق والعمل به، غير صراط المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، وفقدوا العمل)[٣].

كذلك حرص الشارع - عز وجل - على مخالفة اليهود في هذه الخصلة، وعلى وقاية عباده المؤمنين من الوقوع بها حين أمر عباده في جميع كتبه بالعمل بما عملوه، وأثنى على من استفادوا من علمهم، ووعدهم بالمثوبة والأجر على عملهم بما علموا، فقال تعالى في محكم كتابه: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[٤].

قال القرطبي - رحمه الله -: (الربانيين هم أرباب العلم، والعلماء

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: (٦، ٧).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٠٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٧٩).

الربانيون هم الذين يعملون بعلمهم، فمن لم يعمل بعلمه فليس بعالم)[١].

وقال تعالى مثنيًا عليهم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٢].

قال ابن كثير - رحمه الله - المراد أي: (أن من يخشاه حق الخشية هم العلماء العارفون؛ لأنه كلما كانت المعرفة به تعالى أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر، فقد قيل: وإن العالم هو العالم بالله، وبأمر الله، أي الذي يخشى الله، ويعلم الحدود، والفرائض)[٣].

وقال تعالى مثنيًا على المؤمنين الذين عملوا بما ورد في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[٤].

قال ابن كثير - رحمه الله - والمراد: (يخبر سبحانه وتعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه، ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى سرًا، وعلانية، يرجون ثواب الله، فإنه تعالى سيوفيهم ثواب ما عملوه، ويضاعفه لهم، وسيغفر لهم ذنوبهم)[٥].

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ١٢٠).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

(٤) سورة فاطر، الآيتان: (٢٩ - ٣٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٥).

كما أن الناظر إلى كتب أهل الكتب المقدسة، يجد أنها قد اشتملت كذلك على نصوص تدعو إلى العمل بالعلم وتثني على من قام بذلك، ومن ذلك ما ورد في التوراة من الأمر بالعمل بما علموا، فقيل عن ذلك: (يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التي أعلمكم لتعملوها، لكي تحيوا، وتدخلوا، وتمتلكوا الأرض التي الرب إله آبائكم يعطيكم)(١).

وقيل أيضًا: (قد علمتكم فرائض وأحكامًا كما أمرني الرب إلهي؛ لكي تعملوا هكذا الأرض التي أنتم داخلون إليها، لكي تمتلكوها فاحفظوا، واعملوا)(٢).

وقيل أيضًا: (أنا الرب إلهكم، اسلكوا في فرائضي، واحفظوا أحكامي واعملوا بها)(٣).

كذلك ما ورد في الإنجيل من الأمر بالعمل بالعلم، والثناء على من عمل بالعلم المتضمن لوصايا الشريعة وتعاليم الأنبياء فقيل عن ذلك: (من خالف وصية من أصغر هذه الوصايا، وعلم الناس أن يعملوا مثله، عُد صغيرًا في ملوك السموات، وأما من عمل بها وعلمها، فهو يعدّ عظيمًا في ملكوت السموات)(٤).

هذا وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حذر أمته

---

(١) العهد القديم سفر التثنية (٤: ١)، ص(٢٨٥).

(٢) العهد القديم سفر التثنية (٤: ٥ - ٦)، ص(٢٨٥).

(٣) العهد القديم سفر حزقيال (٢٠: ١٩)، ص(١٢٠٥).

(٤) إنجيل متى (٥: ١٧ - ١٩)، ص(١١).

من اتباع سبلهم بخطاب عام وشامل لهذه الخصلة وغيرها من خصال أهل الجاهلية، فقال عليه - الصلاة والسلام -: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه» قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال النبي ﷺ: «فمن»»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن من عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود)[(٢)].

هذا وقد حذر النبي ﷺ كذلك من التهاون في أمر هذه الخصلة، حين نص - عليه الصلاة والسلام - على سؤال الله – عز وجل – للعبد يوم القيامة عما عمل بعلمه، فقال - عليه الصلاة والسلام - في ذلك: «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل...» [(٣)].

قال أحد أهل العلم والمراد بقوله - عليه الصلاة والسلام -: («علمه فيم فعل» إيذانٌ بأن العلم مقدمة العمل، وهو لا يعتد به لولا العمل)[(٤)].

وقد وردت أقوالٌ للسلف - رحمهم الله - كثيرة يحثون فيها على العمل بالعلم، فمنها:

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٣٤).

(٢) الفتاوى (١/ ١٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع. باب في القيامة برقم (٢٤١٦) بنحوه، وبرقم (٢٤١٧) بمثله، قال الترمذي حسن صحيح (١٨٩٤). موسوعة الحديث الشريف، قال الألباني: صحيح.

(٤) تحفة الأحوذي (٢/ ١٨٩٩).

ما قاله علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: (يا حملة العلم اعملوا به؛ فإنما العالم من عَلِمَ ثم عَمِلَ، ووافق عمله علمه)(١).

وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (أيها الناس تعلموا، فمن عَلِم فليعمل)(٢).

ورغم ذلك فقد ظهرت هذه الخصلة عند أهل الكلام في باب القدر، وباب الأسماء والصفات؛ إذ أنهم علموا ما الواجب تجاه أسماء الله وصفاته، ومع هذا لم يعملوا بما علموا، بل عمدوا إلى التحريف، أو التعطيل، أو التمثيل، وفي باب القدر نفوا القدر عن الله تعالى، ونسبوه للخلق(٣).

كما ظهرت هذه الخصلة عند أهل البدع والأهواء من الشيعة والصوفية وغيرهم فيما يحدثه علماؤهم ومشايخهم من شركيات ومحرمات، وينسبونها للدين، مع علمهم ببطلان ذلك، كتعظيمهم للمشايخ والتوسل بالأموات... وغيرها(٤).

* * *

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٧)، اقتضاء العلم العمل (٢٥) وقال الألباني: إسناده موقوف حسن.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٥)، اقتضاء العلم العمل (٢٦).

(٣) وقد بين ذلك علماء السلف في كثيرٍ من كتبهم، وأسهب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان ذلك في كثير من كتبه. للاستزادة انظر: الفتاوى لابن تيمية الجزء الرابع والخامس والثامن.

(٤) للاستزادة انظر: الجزء الثاني من كتاب أصول مذهب الشيعة: للقفاري، مصرع التصوف للبقاعي (٢٠٢)، هذه هي الصوفية (٩٩).

المسألة الحادية والخمسون بعد المائة
قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية عند اليهود، والتي تتضمن صفةً اشتهروا بها في جميع تعاملاتهم مع غير اليهود، بل ويزعمون كذبًا وزورًا أن قيامهم بهذه الخصلة في تعاملاتهم هي من ركائز دينهم التي أمرهم الشارع بها في حق من لم يكن على دينهم. فقد كانوا يستبيحون خيانة غيرهم من غير اليهود، ونقض عهودهم معهم، وظلمهم وأكل أموالهم. وقد بيّن الشارع لعباده في محكم كتابه أن اليهود كانوا يستحلون ظلم العرب وذلك بحبس أموالهم، واستحلالها، وتركهم لأداء حقوقهم التي عندهم والإضرار بهم، زعمًا منهم أنه لا حرج عليهم، ولا إثم عليهم في ذلك، فلن يلحقهم ذم في استحلالهم لأموال العرب، وخيانتهم لهم؛ لأن العرب على غير الحق. وقد خالف الله - عز وجل - اليهود في هذه الخصلة بتكذيبهم فيما زعموا، وذمهم على فعلهم هـذا، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: (٧٥ - ٧٦).

قال الطبري – رحمه الله –: (كما وقد كذبهم النبي ﷺ في ذلك، فقال – عليه الصلاة والسلام – حين سمع قولهم هذا: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ، إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البر والفاجر») (١).

وقال المفسرون – رحمهم الله – في تفسير هذه الآيات: كان اليهود إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأمين سبيل، أي لا حرج ولا إثم في ظلمهم، فكانوا يستحلون ظلمهم بحبس أموالهم، والإضرار بهم، وترك أداء حقوقهم، نظرًا لمخالفتهم إياهم في الدين، مدعين أن ذلك في كتابهم، فأكذبهم الله – عز وجل – ورد عليهم بقوله: «بلى»، أي بَلَى عليهم سبيل العذاب بكذبهم، واستحلالهم أموال العرب، ثم أخبر سبحانه وتعالى مقررًا بجملة مستأنفة بعد الآيات التي كذب فيها مزاعم اليهود في خيانتهم وظلمهم أن كل من أوفى بعهد الله واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه(٢).

كذلك خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة في آيات كثيرة في محكم كتابه حين دعا عباده المؤمنين إلى العدل، والإحسان،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره الآية: (٧٥) من سورة آل عمران برقم (٧٢٦٦، ٧٢٦٧) بمثله (٣/ ٣١٦).

(٢) انظر: إلى تفسير الطبري (٣/ ٣١٨)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣٢٣)، التفسير الكبير للرازي (٣/ ٢٦٤)، تفسير القرطبي (٤/ ١١٧)، تفسير النسفي (١/ ١٦٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٧٥)، التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٨).

وإلى الوفاء بالعهد، وإلى أداء الأمانات إلى أهلها، وحين امتدح من كان هذا خُلقهم.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾[1].

قال ابن كثير – رحمه الله – والمراد بالآية: (يأمر الله عباده هنا بالعدل، وهو القسط، والموازنة، ويندب إلى الإحسان؛ كما يأمر تعالى عباده بالوفاء بالعهود، والمواثيق)[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ ﴾[4].

قال القرطبي - رحمه الله – عن مراد الشارع بهذه الآية: (هنا في هذه الآية أمر من الله معناه الوجوب بقرينة الإجماع على وجوب أداء الديون والأمانة، وأن يتقي الله، ولا يكتم من الحق شيئًا)[5].

---

(١) سورة النحل، الآيتان: (٩٠، ٩١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٣ – ٥٨٤).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٥٢).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٣).

(٥) تفسير القرطبي (٣/ ٣٩٤).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[١].

قال القرطبي - رحمه الله -: (هذا إجماع، فقد أجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها، الأبرار منهم والفجار)[٢].

كذلك خالف الله - عز وجل - أهل الجاهلية حين نص على النهي عن الخيانة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[٣] قال ابن عباس - رضي الله عنه - مفسرًا الآية: ﴿ لَا تَخُونُواْ ﴾ أي لا تنقصوها)[٤].

وفي المقابل امتدح الشارع - عز وجل - عباده المؤمنين على وفائهم بالعهود، وأدائهم لما ائتمنوا عليه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾[٦]. قال الطبري - رحمه الله - أي: (التي ائتمنوا عليها، وعهدهم محافظون عليها لا يضيعونها، بل يوفون بذلك كله)[٧]. وقد

---

(١) سورة النساء، الآية: (٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٤٦).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٢٧).

(٤) تفسير الطبري (٦/ ٢٢٢).

(٥) سورة الرعد، الآيات: (١٩ - ٢١).

(٦) سورة المؤمنون، الآية: (٨)، وسورة المعارج الآية: (٣٢).

(٧) تفسير الطبري (٩/ ٢٠٠).

خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحين نص الشارع في الآيات السابقة على أن من صفات المؤمنين الوفاء بالعهود، وحفظها وأداء الأمانات، والعدل في جميع تعاملاتهم، نص النبي ﷺ بالمقابل على أن خيانة الأمانة من خصال النفاق، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف»(١). قال ابن حجر - رحمه الله - عن دلالة هذا الحديث: (هذا الحديث دالٌ على ذم الخيانة، ووجوب تركها)(٢).

وفي المقابل بيَّن النبي ﷺ في موضع آخر عظم قدر الأمانة في الدين، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «... ترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط يمينًا وشمالاً» (٣).

وقال ابن العربي - رحمه الله - عن عظم مكانة الأمانة في الدين: (إن الأمانة عظيمة القدر في الدين، ومن عظيم قدرها أنها تقف على جنبتي الصراط، ولا يمكنُ من الجواز إلا من حفظها؛ لهذا وجب عليك أن تؤديها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان. باب علامات المنافق برقم (٣٣) بمثله وبرقم (٣٤) بمثله وزيادة في آخره. وفي كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد برقم (٢٦٨٢) بمثله (٥، ٢١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب خصال المنافق برقم (٢١١، ٢١٢) بمثله (٦٩٠). موسوعة الحديث الشريف، وشرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ١٠٩٤)، والإيمان لابن منده (٢/ ٥٨٤).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٤٨٢) بمثله مطولاً (٧١٥)، موسوعة الحديث الشريف.

إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)(١).

وقال الإمام النووي - رحمه الله - عن ذلك أيضًا: (تصوران الإمانة والرحم مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى، فترسلان لتقوما على جانبي الصراط، وما هذا إلا لعظم أمرهما، وكبير موقعهما، فتقوما لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما)(٢).

لهذا أمر النبي ﷺ بأداء الأمانة للبر، والفاجر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»(٣).

قال أحد العلماء عن دلالة هذا الحديث: (وفي هذا الحديث دلالةٌ على أن الأمانة لا تخان أبدًا؛ لأن صاحبها إما أمين أو خائن، فعلى التقديرين لا تخان)(٤).

كما وقد نص - عليه الصلاة والسلام - على أن المؤمن هو من أمنه الناس على أموالهم وأرواحهم، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(٥)، أما من خانهم في أموالهم،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣٢٣).

(٢) المنهاج (٢٩٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٥٠٢) بمثله (١٠٥٩)، وأبو داود في سننه، كتاب البيوع. باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده برقم (٣٥٣٤) بمثله زيادة في أوله وبرقم (٣٥٣٥) بمثله (١٤٨٥) قال الترمذي: حسن غريب. موسوعة الحديث الشريف. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) عون المعبود (١٥١٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٩١٨) بمثله (٦٢٩)، والنسائي في سننه الكبرى. كتاب =

فقد استحل حقوقهم، وفي هذا علامة على نقص إيمانه، بل ويُعد فعله هذا ضربًا من ضروب الظلم التي ظلم بها نفسه بعدم منعها عما حرم الله، وبظلم غيره من الناس باستحلال حقوقهم.

ومعلومٌ أن النبي ﷺ قد حذر من مغبة الظلم في أحاديث كثيرة، فمما قاله - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «الظلم ظلمات يوم القيامة»(١)، كما حذر من صور عديدة للظلم قد اندرجت هذه الخصلة ضمن هذه الصور، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار» (٢)، وقال - عليه الصلاة والسلام - أيضًا عن ذلك: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد

=

الإيمان وشرائعه. باب صفة المؤمن برقم (١١٧٢٦) بمثله (٦/ ٥٣٠) وفي سننه الصغرى. كتاب الإيمان، باب صفة المؤمن برقم (٤٩٩٨) بمثله (٢٤١٠). موسوعة الحديث الشريف، والإيمان لابن منده (١/ ٤٥٢)، وقال الألباني: حسن صحيح برقم (٤٩٩٥).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المظالم. باب الظلم ظلمات يوم القيامة برقم (٢٤٤٧) بمثله (١٩٢)، ومسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تحريم الظلم برقم (٦٥٧٧) بمثله (١١٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تحريم الظلم برقم (٦٥٧٩) بمثله (١١٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[(١)].

وبهذا يتبيّن أن هذه الخصلة خصلة جاهلية مذمومةٌ بصريح القرآن والسنة، لكن مما يؤسف له أن هذه الخصلة التي حكاها الشارع عن اليهود، وذمهم بها، قد وجدت عند البعض من المسلمين ممن اتصفوا بها، فاستحلوا أموال الناس في البيع أو الشراء، أو في أي عرضٍ من أعراض الدنيا؛ كما وقد برزت هذه الخصلة بوضوح عند الرافضة قديمًا وحديثًا.

قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن اليهود يستحلون أموال الناس كلهم، وكذلك الرافضة يستحلون مال كل مسلم)[(٢)].

ولا زالت هذه الخصلة حتى عصرنا الحاضر، فها هي دماء وأموال الكثير من المسلمين قد استحلت في الكثير من البلاد الإسلامية المستعمرة من قِبل أهل الكتاب، وما ذلك إلا لأنهم يدينون بكلمة التوحيد التي تخالف ما يدين به هؤلاء الكفار.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر. باب تحريم الظلم برقم (٢٥٨٢) بمثله (١١٢٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) منهاج السنة (١/ ١٧ - ٢١)، للاستزادة انظر: أصول مذهب الشيعة للقفاري (٣/ ١٤٨٠ - ١٤٨١).

المسألة الثانية والخمسون بعد المائة
محبتهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا إلى إحدى خصال أهل الجاهلية عند اليهود والمنافقين وهي محبتهم أن يُمتدحوا ويثْنى عليهم بأفعال خيرٍ لـم يفعلوها، وبأقـوال حـقٍ لم يقولوها.

فقد كان دأب اليهود والمنافقون دومًا على الزعم بزكاة أنفسهم، وبرائتها من الذنوب والمساوئ بهدف أن ينالوا امتداح الناس لهم، وثناءهم عليهم؛ لهذا فقد خالفهم الشارع حين توعدهم، وذمهم على هذه الخصلة الجاهلية، وهي محبتهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا، كما ذم في موضع آخر الطريق الموصل لهذه الخصلة، وذلك من خلال تزكيتهم لأنفسهم لينالوا بذلك مديح الناس لهم وثناءهم عليهم، قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١].

وقد روى البخاري – رحمه الله – رواية عن سبب نزول هذه الآية فقال: (إن هذه الآية نزلت في رجال من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كان إذا خرج الرسول ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٨٨).

يحمدوا بما لم يفعلوا، فنـزلت الآية) [(١)]، وقيل: (نزلت في يهود، دعاهم النبي ﷺ، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم) [(٢)].

وقال الرازي – رحمه الله –: (الأولى أن يحمل على الكل، فقد أريد بهذه الآيات الإنسان يأتي بالفعل الذي لا ينبغي، ويفرح به، ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة، واستقامة الطريقة، والزهد، والإقبال على طاعة الله)[(٣)].

وقد قال تعالى في ذم السبب الموصل لهذه الخصلة وهو تزكية النفس: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[(٥)].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية والمراد منها: (أي لا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب، والمعاصي فهو تعالى أعلم بمن خاف عقوبته، فاجتنب معاصيه)[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) برقم (٤٥٦٧) بمثله (٣٧٦)، ومسلم في صحيحه. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٧٠٣٣) بمثله (١١٦٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) برقم (٤٥٦٨) بمثله (٣٧٦)، ومسلم في صحيحه. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٧٠٣٤) بمثله (١١٦٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) التفسير الكبير (٣/ ٤٥٧).

(٤) سورة النساء، الآية: (٤٩).

(٥) سورة النجم، الآية: (٣٢).

(٦) تفسير الطبري (١١/ ٥٣٠).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (أي لا تمدحوها وتشكروها، وتمنوا بأعمالكم، فهو تعالى أعلم بحقائق الأمور وغوامضها)[١].

ومعلومٌ أن في حب العبد للمدح والثناء مخالفٌ لكمال مقام العبودية لله؛ فمحبة العبد أن تمتدح نفسه يعمل على اضمحلال مقامي العبودية، وهما كمال الحب لله، وكمال الذل له؛ ذلك لأن المدح مؤدٍ إلى تعظم العبد في نفسه، والإعجاب بها. فكمال مقام العبودية حاصل بلزوم أمرين: أن يرى العبد نفسه في مقام الذم لها، فذم النفس تقضي قيامها في مقام يحبه الله، وهو الخشية والخضوع له تعالى، وأن يحب العبد ما يحبه الله تعالى، فمحبة العبد للمدح مخالف لما يحبه الله منه، لهذا فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح، وقد دلت نصوص السنة المطهرة وأقوال العلماء على ذلك.

فقد كره النبي ﷺ ونهى عن أن يمتدح الشخص بما فعله، فكيف إذن في حق من لم يفعل فالنهي في حقه من باب أولى.

قال - عليه الصلاة والسلام - حين سمع رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة: «أهلكتم – أو قطعتم – ظهر الرجل» [٢]. وفي رواية أخرى قال: «ويحك قطعت عنق صاحبك – يقول له مرارًا – إن كان

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥١٣) (٤/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الشهادات. باب ما يكره من الأطناب في المدح وليقل ما يعلم برقم (٢٦٦٣) بمثله وفي كتاب الأدب. باب ما يكره من التمادح برقم (٦٠٦٠) بمثله (٢١١، ٥١٢)، ومسلم في صحيحه. كتاب الزهد، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخيف منه فتنة على الممدوح برقم (٧٥٠١، ٧٥٠٤) بمثله (١١٩٦). موسوعة الحديث الشريف.

أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك، والله حسيبه، ولا يزكي على الله أحدًا»[(١)].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (مراد النبي ﷺ في قوله: «قطعتم ظهر الرجل» أي أهلكتموه، وهذه استعارة من قطع العنق، الذي هو القتل، لاشتراكهما في الهلاك، لكن هلاك هذا الممدوح في دينه، وقد يكون من جهة الدنيا لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب، ونهي النبي ﷺ محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب، ونحوه إذا سمع المدح. أما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كتنشيطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، أو الاقتداء به، كان مستحبًا والله أعلم)[(٢)].

وقال ابن حجر - رحمه الله - أيضًا في بيانه وشرحه للحديث السابق: (حاصل النهي أن من أفرط في مدح آخر بما ليس فيه لم يأمن على الممدوح العجب؛ لظنه أنه بتلك المنزلة، فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالاً على ما وصف به)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الشهادات. باب إذا زكى رجل رجلاً. كفاه برقم (٢٦٦٢) بمثله وبرقم (٦٠٦١) بمثله (٢١١، ٥١٢)، ومسلم في صحيحه. كتاب الزهد. باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه على الممدوح برقم (٧٥٠١، ٧٥٠٢) بمثله (١١٩٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (٢٠٤٩).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٧٧).

وقد بين بعض أهل العلم كيفية معارضة هذه الخصلة لمقامات العبودية، فقالوا عن ذلك: (إن محبة الممدوح للمدح تفضي إلى التعاظم في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد، فالعبادة لا تقوم إلا على غاية الذل في غاية المحبة، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية، والاستكانة لله، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها... وكذلك الحب، لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال، والأعمال، والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، لهذا فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأسًا، والنهي عنه صيانة لهذا المقام. والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية فصار يكره أن يمدح(١)، صيانة لهذا المقام، وقد أرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه)(٢).

إلا أن هذه الخصلة قد ظهرت كثيرًا عند من انحرفوا عن الصراط المستقيم ممن ينتسبون إلى العلم والفقر والعبادة، فيرتكبون البدع والضلالات، مبتغين في ذلك الرياء والسمعة، فيحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم(٣).

* * *

---

(١) ودليل ذلك حين قال أناس للنبي ﷺ يا خيرنا، وابن خيرنا وسيدنا، وابن سيدنا فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يا أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تعالى أنا محمد بن عبد الله عبده ورسوله» أخرجه النسائي في سننه الكبرى برقم (١٠٠٧٨) بمثله (٦/ ٧١)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ١٤٧٨).

(٢) للاستزادة انظر: تيسير العزيز الحميد (٥٩٢)، فتح المجيد (٥٢٢، ٥٢٣).

(٣) للاستزادة مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية (١/ ١٠٩).

المسألة الثالثة والخمسون بعد المائة
استئثار الرجل موليته لنفسه إذا كانت كثيرة المال ومنعها من غيره من غير أن يقسط لها في صداقها.

المسألة الرابعة والخمسون بعد المائة
عدم الرغبة فيها إذا كانت قليلة المال والجمال

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هاتين المسألتين خصلتين من خصال أهل الجاهلية عند الأميين؛ حيث كان الرجل منهم حين تكون عنده موليته[١]، وتكون ذات مالٍ وجمال، فيرغب أن يتزوجها، فيتزوجها بأدنى من سنة صداق مثيلاتها من النساء، وفي حال كانت دميمة وقليلة المال، فإنه يعضلها بمنعها عن الزواج أبدًا - حتى تموت ليرث هو مالها.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين، فنهاهم عنهما، ودعاهم إلى العدل مع النساء عامة، ومع يتامى النساء خاصة، فمن رغب منهم أن ينكح موليته اليتيمة، فعليه أن يقسط لها في الصداق، ومن لم يرغب منهم في نكاح موليته، فعليه أن لا يعضلها، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ

---

(١) وهي اليتيمة.

(٢) سورة النساء، الآية: (٣).

فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾[١].

وقد فسرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الآيات حين سألها عروة بن الزبير[٢] عن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرُبَٰعَ ﴾ فقالت: (يا ابن أختي، هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ هي رغبة أحدكم يتيمته التي تكون في حجره حتى تكون قليلة المال والجمال –وفي رواية أخرى– فيعضلها لمالها،

(١) سورة النساء، الآية: (١٢٧).

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله القرشي الأسدي، سمع أباه، وعائشة، وعبد الله بن عمر، كان ورعًا، صوامًا، قوامًا، أصابته الأكلة في رجله، فقطعت رجله، توفي وهو صائم عام ٩٣هـ. انظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٢٤١)، العبر في خبر من غبر (١/ ١١٠).

ولا ينكحها غيره، كراهية أن يشركه أحد في مالها، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن)(١).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية وبيان سبب نزولها: (كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا؛ فإن كانت ذات مال وجمال، فقد تُعجب وليها فيهواها، ويريد أن يتزوجها، لكن من غير أن يقسط لها في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، أما إن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها؛ فحرم الله ذلك، ونهى عنه)(٢). لهذا لم يقتصر الباري - عز وجل - على مخالفة أهل الجاهلية بتحريم هاتين الخصلتين والنهي عنهما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الشركة. باب شركة اليتيم وأهل الميراث برقم (٢٤٩٤) بمثله، وفي كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) برقم (٢٧٦٣) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) برقم (٤٥٧٣، ٤٥٧٤) بمثله، وباب قوله تعالى: (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء) برقم (٤٦٠٠) بنحوه، وفي كتاب النكاح. باب الترغيب في النكاح برقم (٥٠٦٤) بنحوه، وباب الأكفاء في المال وتزويج المقل المثرية برقم (٥٠٩٢) وباب لا يتزوج أكثر من أربع لقوله تعالى: (مثنى وثلاث ورباع) برقم (٥٠٩٨) بنحوه، وباب لا نكاح إلا بولي برقم (٥١٢٨) بنحوه، وباب إذا كان الولي هو الخاطب برقم (٥١٣١) بنحوه، وباب تزويج اليتيمة برقم (٥١٤٠) بنحوه، وفي كتاب الحيل. باب ما ينهى عن الاحتيال للولي في اليتيمة المرغوبة وأن لا يكمل لها صداقها برقم (٦٩٦٥) بنحوه (١٩٦، ٢٢٢، ٣٧٦، ٣٧٩، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥، ٥٨١)، ومسلم في صحيحه كتاب التفسير. باب تفسير آيات متفرقة برقم (٧٥٢٨) بمثله، وبرقم (٧٥٢٩، ٧٥٣٠، ٧٥٣١، ٧٥٣٢) بنحوه (١٢٠٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٠، ٥٦٢).

فقط، بل خالفهم كذلك حين إفتراض الصداق لعامة النساء اليتيمة وغيرها في حق من رغب أن ينكحهن، فجعل الصداق حقًّا من حقوقهن عند نكاحهن، بل وجعل لهن الحرية الكاملة في التصرف بصدقاتهن، وفي هذا قال الشارع - عز وجل -: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله تعالى -: (يعني بذلك تعالى - ذكره - أي أعطوا النساء مهورهن عطية واجبة، وفريضة لازمة، وإن وهبت النساء شيئًا من صدقاتهن للرجال عن طيب أنفسهن، فكلوه هنيئًا مريئًا)(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ ﴾(٣).

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (أي إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله)(٤).

وقيل في قوله تعالى: ﴿ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ ﴾ قال الطبري: (أي ولا جناح فيما وضعت عنكم نساؤكم من صدقاتهن من بعد الفريضة)(٥).

---

(١) سورة النساء، الآية: (٤).
(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٨٣، ٥٨٤).
(٣) سورة النساء، الآية: (٢٤).
(٤) تفسير الطبري (٤/ ١٣).
(٥) تفسير الطبري (٤/ ١٦).

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية حين نص على أن على الولي أن يستأمر اليتيمة في نفسها عند النكاح، مما يدل على تحريم عضلها عن الأزواج، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «تستأمر اليتيمة في نفسها، فإن سكتت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها»[(١)].

قال بعض أهل العلم والمراد: (أي لا تنكح حتى تستأمر أي تستأذن، فلا تعدٍ عليها ولا إجبار)[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (أذن الله للأولياء أن يزوجوا اليتامى من النساء إذا فرضوا لهن صداق مثلهن، ولم يأذن في تزويجهن بدون صداق المثل؛ كما لا تزوج إلا بإذنها. وهذا هو الصحيح الذي دلت عليه السنة)[(٣)].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٧٥١٩، ٨٩٧٦، ١٠١٥١) بمثله (٥٤٠، ٦٣٢، ٧٠٠)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب النكاح. باب في الاستئمار برقم (٢٠٩٣) بمثله (١٣٧٧)، والترمذي في سننه. كتاب النكاح، باب ما جاء في إكراه اليتيمة على التزويج برقم (١١٠٩) بمثله (١٧٥٩) والنسائي في سننه الصغرى. كتاب النكاح. باب البكر يزوجها أبوها وهي كارهة برقم (٣٢٧٢) بمثله (٣٢٩٩). موسوعة الحديث الشريف وأخرجه النسائي في سننه الكبرى في كتاب النكاح. باب البكر يزوجها أبوها وهي كارهة برقم (٥٣٨١) بمثله (٣/ ٢٨٢) قال شعيب إسناده حسن، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) انظر.عون المعبود (٩٣٣)، تحفة الأحوذي (١/ ١١٥٠).

(٣) الفتاوى (٣٢/ ٤٥ - ٤٦).

المسألة الخامسة والخمسون بعد المائة
توريث الرجال دون النساء

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية الأميين، وهي توريثهم للذكور دون الإناث.

لقد كان أهل الجاهلية الأميون يورثون الذكور دون الإناث، وقد كان التوارث بينهم بشيئين:

أحدهما: النسب، والآخر العهد، أما النسب فهم ما كانوا يورثون الصغار ولا الإناث. وإنما كانوا يورثون من الأقارب الرجال الذين يقاتلون على الخيل، ويأخذون الغنيمة، وأما العهد فمن وجهين: الأول: الحلف، كان الرجل في الجاهلية يقول لغيره: دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، فإذا تعاهدا على هذا الوجه فأيهما مات قبل صاحبه كان للحي ما اشترط من مال الميت.

والثاني: التبني، فإن الرجل منهم كان يتبنى ابن غيره، فينسب إليه دون أبيه من النسب، ويرثه، وهذا التبني نوع من أنواع المعاهدة(١).

فخالف الشارع أهل الجاهلية الأميين في هذه الخصلة بالنص على

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٦١٦)، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٧٣ – ٧٧)، أحكام القرآن. لابن العربي (١/ ٣٨٣)، التفسير الكبير للرازي (٣/ ٥٠٨ – ٥٠٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٨)، عمدة القاري (١٨/ ١٩١)، (٢٣/ ٢٢٩ – ٢٣٠).

توريث النساء، فقد نص على توريث البنات تسويةً بالأبناء الذكور في أصل الميراث، إلا أنهن مفاوتات لهم في المقدار، كما نص على توريث الأمهات، قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله تعالى - عن المراد بالآية: (أي يعهد إليكم ربكم إذا مات الميت منكم وخلف أولادًا ذكورًا وإناثًا، فلولده الذكور والإناث ميراثه أجمع بينهم، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين، إذا لم يكن له وراث غيرهم، سواء فيه صغار ولده وكبارهم وإناثهم، في أن جميع ذلك بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين)(٢).

وقال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: (أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة

---

(١) سورة النساء، الآية: (١١).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٦١٦).

التجارة، والتكسب، وتحمل المشاق، فناسب أن يُعطي ضعفي ما تأخذه الأنثى)[١].

وقال تعالى أيضًا مورثًا الزوجة: ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ ﴾[٢]، وقال أيضًا مورثًا الأخت ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ ﴾[٣].

قال المفسرون في المراد بالكلالة: هو من لا ولد له ولا والد، وكان له إخوة من أم فهم شركاء في الثلث، ذكرهم وإناثهم فيه سواء[٤].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحين عاد النبي ﷺ جابرًا - رضي الله عنه - وهو مريض لا يعقل، توضأ النبي ﷺ وصب على جابر من وضوئه فعقل، فقال جابر رضي الله عنه للرسول ﷺ: (يا رسول الله لمن الميراث، إنما يرثني كلالة فنزلت آية الفرائض ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ ﴾)[٥]، كذلك حين نزلت آية الفرائض أمر النبي

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٨).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٢).

(٣) الآية السابقة.

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٦١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء. باب صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه برقم (١٩٤) بمثله، وفي كتاب المرضى. باب عيادة المغمى عليه برقم (٥٦٥١) بمثله، وباب وضوء العائد =

ﷺ عم ابنتي سعد بن الربيع(١) بإعطائهما الثلثين من ميراث أبيهما سعد، وبإعطاء أمهما الثمن، وما بقي فهو له؛ وذلك (حين جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال، قال: «يقضي الله في ذلك، قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل النبي ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك»(٢).

=

للمريض برقم (٥٦٧٦) بمثله، وفي كتاب الفرائض، باب قوله تعالى: (يوصيكم الله في أولادكم) إلى قوله: (وصية من الله والله عليكم حكيم) برقم (٦٧٢٣) بمثله، باب ميراث الأخوات والإخوة برقم (٦٧٤٣) بمثله، وفي كتاب الاعتصام، باب ما كان النبي ﷺ مما لم ينزل عليه الوحي فيقول (لا أدري) ولم يجب حتى ينزل عليه الوحي ولم يقل برأي ولا بقياس لقوله تعالى: (بما أراك الله) برقم (٧٣٠٩) بمثله (١٩، ٤٨٤، ٤٨٦، ٥٦٢، ٥٦٣، ٦٠٩)، ومسلم في صحيحه. كتاب الفرائض باب ميراث الكلالة برقم (٤١٤٥، ٤١٤٦، ٤١٤٧، ٤١٤٨) بمثله (٩٥٩). موسوعة الحديث الشريف.

(١) هو: سعد بن الربيع بن عمرو الأنصاري الخزرجي أحد نقباء الأنصار. توفي في معركة أحد في السنة الثالثة.
انظر: الإصابة (٤٨٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٤٨٥٨) بمثله (١٠١٣)، وأبو داود في سننه. كتاب الفرائض. باب ما جاء في ميراث الصلب برقم (٢٨٩١) بنحوه برقم (٢٨٩٢) بمثله (١٤٣٩)، والترمذي في سننه كتاب الفرائض. باب ما جاء في ميراث البنات برقم (٢٠٩٢) بمثله قال الترمذي حسن صحيح (١٨٦١)، وابن ماجه في سننه أبواب الفرائض، باب فرائض الصلب برقم (٢٧٢٠) بمثله (٢٦٤٠). موسوعة الحديث الشريف، وصححه الحاكم (٤/ ٣٣٣)، وقال الألباني: حسن صحيح، وقال شعيب: إسناده محتمل التحسين.

قال أحد العلماء عن سبب ورود هذين الحديثين: (وقد ورد هذان الحديثان لأن العرب في الجاهلية كانت لا تورث النساء والصبيان، فقد كانت الوراثة عندهم بالرجولية والقوة، فلما جاء الإسلام صارت الوراثة بوجهين: بالنسب والسبب، فالسبب النكاح والولاء، والنسب القرابة، وقد نسخ الله بآية الميراث ما كانت تفعله الجاهلية من عدم توريث النساء، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين)[(١)].

وقد أجمع علماء الأمة على أن مال الميت بين جميع ولده للذكر مثل حظ الأنثيين إذا لم يكن معهم أحد من أهل الفرائض، وإذا كان معهم من له فرض معلوم بدئ بفرضه فأعطيه، وجعل الفاضل من المال بين الولد للذكر حظ الأنثيين[(٢)].

* * *

---

(١) عمدة القاري (١٨/ ١٩١) (٢٣/ ٢٢٩ – ٢٣٠).

(٢) الإجماع لابن المنذر (١٢٧).

المسألة السادسة والخمسون بعد المائة
وراثة النساء كرهًا

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين، والتي تمثل صورةً من صور الظلم والاستبداد الذي كانت تعاني منه المرأة في الجاهلية حيث كانت تُعد المرأة كالمال، فحين يموت زوجها فإنها تُورث مع ماله؛ فإن شاء وارثها تزوجها، وإن شاء منعها من الزواج حتى تموت فيرثها.

وقد أبطل الشارع – عز وجل – هذه الخصلة الجاهلية فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[١] وقد نزلت هذه الآية حين جاءت[٢] امرأة إلى النبي ﷺ: فقالت يا نبي الله، لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تُركت فأنكح! فنـزلت هذه الآية[٣].

وقال ابن عباس – رضي الله عنه – في سبب نزول هذه الآية: (كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤا زوجوها، وإن شاؤا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنـزلت هذه الآية)[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٩).

(٢) هي كبشة بنت معن بن عاصم الأنصارية كانت زوج لأبي قيس بن الأسلت. انظر: الإصابة (١٧٥٧).

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى. كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) برقم (١١٠٩٥) بمثله (٦/ ٣٢١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير. باب (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها...) برقم =

قال العلماء: والمراد بهذه الآية: (أي يا أيها الذين آمنوا، لا يحل لكم أن ترثوا آباءكم وأقاربكم نكاح نسائهم كرهًا، ولا يحل لكم أن ترثوا النساء تَركاتهن كرها؛ حيث كانت المرأة في الجاهلية تُورث كما يُورث المال عند موت زوجها، فيكون ابن زوجها من غيرها، أو بعض أقاربه أحق بها من سائر الناس حتى من نفسها، فإن شاء تزوجها بغير صداق، إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره، وأخذ صداقها، وإن شاء منعها من الأزواج حتى تموت، فيرثها، فحرم الشارع ذلك كله)(١).

ولم يقتصر الشارع في مخالفته لأهل الجاهلية في هذه الخصلة بتحريمها، بل عمد الشارع إلى رفع مكانة المرأة، وذلك بتوريثها من مال زوجها المتوفى عنها، بعد أن كانت من عرض إرثه الذي يُورثه، فقال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ ﴾(٢).

هذا وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة كما جاء في

=

(٤٥٧٩) بمثله، وفي كتاب الإكراه. باب من الإكراه برقم (٦٩٤٨) بمثله (٣٧٧، ٥٨٠). موسوعة الحديث الشريف.

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٦٤٦ - ٦٤٨)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٤١٠)، التفسير الكبير للرازي (٤/ ١١)، تفسير القرطبي (٥/ ٩١)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٦)، تفسير ابن سعدي (١٧٢)، الفتح (٨/ ٢٤٧)، عون المعبود (٩٣٢)، الأم للشافعي (٦/ ٣٦٨)، بلوغ الأرب (٢/ ٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٢).

حديث[١] امرأة سعد بن الربيع حين أمر النبي ﷺ أخا زوجها بإعطائها الثمن من تركة زوجها سعد - رضي الله عنه -.

ولكن مما يؤسف له أن هذه الخصلة قد وجدت لها صورٌ مشابهة لدى بعض من إخواننا المسلمين هداهم الله، فما يحصل في عصرنا الحاضر من عضل بعض الآباء أو الأخوة لبناتهم أو أخواتهم حين يكُنّ صاحبات مال، أو ممن يعملن ويكون لهن رواتب على عملهن، فيعضلونهن عن الأزواج حتى لا يشاركهم أحدٌ في مالهن في حياتهن، أو بعد مماتهن. فنسأل الله العافية.

* * *

---

(١) سبق تخريجه في المسألة السابقة ص(٧٦٦).

المسألة السابعة والخمسون بعد المائة
استحلال نكاح ذوات المحارم كما يفعل المجوس

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية قد بلغ القبح فيها غايته، وهي استحلال نكاح ذوات المحارم كما يفعل المجوس.

فقد استحل المجوس نكاح البنات والأمهات والأخوات، كذلك استحل أهل الجاهلية الأميون نكاح زوجات آبائهم بعد وفاة آبائهم، أو طلاقهم لهن، وكانوا يسمون ذلك نكاح المقت، كذلك استحل اليهود أن ينكحوا بنات الإخوة والأخوات دون العكس، واستحلت كذلك إحدى فرق الخوارج، والتي تعرف بالميمونية[١]، نكاح بنات البنات، وبنات الأولاد، وقالوا إن الشارع حرم نكاح البنات وبنات الإخوة والأخوات، ولم يحرم أولاد هؤلاء[٢].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بتحريم نكاح ذوات

---

(١) الميمونية: أصحاب ميمون بن خالد، وقد كان من جملة العجاردة، وهي إحدى فرق الخوارج، تفردت الميمونية بإثبات القدر خيره وشره للعبد، وباستحلال نكاح بنات الأولاد وبنات البنات. انظر: الملل والنحل (٥٥).

(٢) للاستزادة انظر: الشرح والإبانة لابن بطة (١٧٢)، الفرق بين الفرق (٢٥٤)، الملل والنحل (٥٥)، تلبيس إبليس (٨٩، ٩٤)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٠)، بلوغ الأرب (٢/ ٥٢، ٥٣)، دراسات في اليهودية والنصرانية د. سعود الخلف. مكتبة أضواء البيان. الرياض، (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، (١٣٧).

المحارم من الصهر[١] والنسب[٢]، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٣].

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ هذه الآيات)[٤].

وقال المفسرون - رحمهم الله - عن تفسير الآية: كل هؤلاء النساء

---

(١) الصهر هو ما كان من خلطة يشبه القرابة يحدثها التزوج وهن الأمهات من الرضاعة والأخوات من الرضاعة وأمهات النساء وبنات النساء، بشرط أن يكون قد دخل بالنساء وأزواج الأبناء والآباء والجمع بين الأختين.

انظر: عمدة القاري (٢٠/ ١٠٠).

(٢) فالنسب: هو ما رجع إلى ولادة قريبة من جهة الآباء وهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت. عمدة القاري (٢٠/ ١٠٠).

(٣) سورة النساء، الآيتان: (٢٢ - ٢٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب النكاح. باب ما يحل من النساء. ما يحرم وقوله تعالى: (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم) إلى قوله تعالى: (عليمًا حكيمًا) برقم (٥١٠٥) بمثله (٤٤٠). موسوعة الحديث الشريف.

اللواتي سماهن الله تعالى، وبين تحريمهن في هذه الآية، محرمات، غير جائز نكاحهن لمن حرم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمة، لا إختلاف بينهم في ذلك، باستثناء الربيبة وهي بنت المرأة، فإنها لا تحرم على الرجل حتى يدخل بأمها)(١).

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال عليه الصلاة والسلام عن ذلك: «إن الرضاعة يحرم منها ما يحرم من الولادة»(٢).

بين الإمام النووي - رحمه الله - أن هذا الحديث دليل على: (ثبوت حرمة الرضاع، وأجمعت الأمة على ثبوتها بين الرضيع والمرضعة، وأنه يصير ابنها، يحرم عليه نكاحها أبدًا، ويحل له النظر إليها والخلوة بها، والمسافرة بها...، وأجمعوا أيضًا على انتشار الحرمة بين المرضعة وأولاد الرضيع، وبين الرضيع وأولاد الرضيع، وبين الرضيع وأولاد المرضعة، وأنه في ذلك

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٦٥٩ - ٦٦٣)، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ١١٢)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٤١٧)، تفسير القرطبي (٥/ ٩٩ - ١٠٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٦ - ٤٦٧)، الإجماع لابن المنذري (١٤٠)، الفتاوى لابن تيمية (٣٢/ ٦٢ - ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الشهادات. باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم برقم (٢٦٤٦) بمثله، وفي كتاب فرض الخمس. باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ وما نسب من البيوت إليهن برقم (٣١٠٥) بمثله وفي كتاب النكاح. باب (وأمهاتكم اللاتي أرضعناكم) برقم (٥٠٩٩) بمثله (٢٠٩، ٢٥٠، ٤٤١)، ومسلم في صحيحه. كتاب الرضاع. باب ما يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة برقم (٣٥٦٨، ٣٥٦٩) بمثله (٩٢١). وموسوعة الحديث الشريف.

كولدها من النسب)[١].

وبناء على هذا فإن مثل هذا النوع من النكاح، لو عُقد فهو باطل، لأنه عُقد على وجه محرم. وعن ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله-: (لقد دل القياس والاعتبار بسائر أصول الشرع أن كل عقد يباح تارة ويحرم تارة، كالبيع والنكاح إذا فعل على الوجه المحرم لم يكن لازمًا نافذًا، كما يلزم الحلال الذي أباحه الله ورسوله، ولهذا اتفق المسلمون على أن ما حرمه الله من نكاح المحارم ونحو ذلك يقع باطلاً غير لازم..)[٢].

* * *

(١) المنهاج (١٠٩٠)، وللاستزادة انظر: فتح الباري (٩/ ١٤١ - ١٤٢).

(٢) الفتاوى (٣٣/ ١٨)، للاستزادة انظر. الفتاوى الكبرى (٣/ ٥٢).

المسألة الثامنة والخمسون بعد المائة
إقامة الحدود على الضعيف دون الشريف

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والتي كانت أحد أسباب هلاكهم وهي إقامتهم الحدود فقط على الضعفاء دون الشرفاء.

إذ للشرفاء ما يفتدون به أنفسهم عن إقامة الحدود عليهم، خلافًا للضعفاء الذين لا يملكون ما يفادون به أنفسهم عن إقامة الحدود عليهم، لهذا كانت الحدود تقام على الضعفاء دون الشرفاء.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنص على وجوب العدل بين الناس في إصدار الأحكام وتطبيقها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾[1].قال الطبري - رحمه الله -: (أي يأمركم إذا حكمتم بين رعيتكم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، فذلك حكم الله الذي أنزله في كتابه، وبينه على لسان رسوله، لا تعدوا ذلك فتجوروا عليهم)[2].

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، بل وشدد على ذلك، وقد ظهر حرص النبي ﷺ على إبطال هذه الخصلة حين دفعت

---

(١) سورة النساء، الآية: (٥٨).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٤٩).

قريش أسامة بن زيد[١] ليشفع في المرأة التي سرقت، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٢].

قال أهل العلم فالمراد هنا من هذا الحديث: إن من أسباب هلاك بني إسرائيل محاباتهم في الحدود، ففي حال استوجب الحد على الشريف تركوه، وفي حال استوجب الحد على الضعيف أقاموه عليه، لهذا حرص النبي ﷺ على تثبيت إقامة الحد على كل مكلف، وترك المحاباة في ذلك، فقد بالغ في خطابه حين خص ابنته فاطمة - رضي الله عنها - بالذكر؛ لأنها أعز أهله عنده، فقال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٣].

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على هذا الحديث، فقال: (لقد حذرنا النبي ﷺ من مشابهة من قبلنا، في أنهم كانوا يفرقون في

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي الحب بن الحب، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ ولد في الإسلام. وتوفي عام (٥٤هـ). انظر: الإصابة (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤) برقم (٣٤٧٥) بمثله، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أسامة بن زيد برقم (٣٧٣٣) بمثله، وفي كتاب المغازي، باب (٥٤) برقم (٤٣٠٤) بمثله، وفي كتاب الحدود. باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع برقم (٦٧٨٧) بمثله، وفي باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان برقم (٦٧٨٨) بمثله (٢٨٤، ٣٠٤، ٣٥٢، ٥٦٦)، ومسلم في صحيحه. كتاب الحدود. باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود برقم (٤٤١٠، ٤٤١١) بمثله (٩٧٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) انظر: فتح الباري (١٢/ ٩٤ - ٩٥)، المنهاج (١٢٩٦)، عون المعبود (١٨٩٨).

الحدود بين الأشراف، والضعفاء، وأمر أن نسوي بين الناس في ذلك، وبيّن أن هلاك بني إسرائيل إنما كان بتخصيص رؤساء الناس بالعفو عن العقوبات، فأخبر أن فاطمة ابنته – التي هي أشرف النساء – لو سرقت، وقد أعاذها الله من ذلك، لقطع يدها، ليبين: أن وجوب العدل والتعميم في الحدود، لا يستثنى منه بنت رسول الله ﷺ، فضلاً عن بنت غيره... كما أن الحدود حقوقٌ لله، وليست لقوم معينين، بل منفعتها لمطلق المسلمين ، وكلهم محتاج إليها، فحد قطاع الطريق، والسُّراق، والزناة ونحوهم حدود يجب إقامتها على الشريف، والوضيع، والضعيف، ولا يحل تعطيله لا بشفاعة، ولا بهديه ولا بغيرهما، ولا تحل الشفاعة فيه ومن عطله وهو قادر على إقامته، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، وهو ممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلا)[١].

كما وقد أجمع علماء الأمة على عدم جواز الكفالة في الحدود[٢].

وقد تجلت هذه الخصلة في هذا العصر عند من يحكمون بقوانين وضعية، بل وأحيانًا عند من يزعمون أنهم يحكمون بأحكام إسلامية في بعض الدول الإسلامية، وللأسف إذ تجد أن الكثير من الأحكام والحدود تلغى ولا تطبق على أصحاب المناصب، وأرباب الأموال الذين يدرؤون هذه الحدود بأموالهم أو بمكاناتهم، بينما تجد أن هذه الأحكام تُعمل في حق الضعفاء فقط، وتطبق عليهم ممتثلين بهذه الخصلة اسمًا ورسمًا.

---

(١) انظر: الفتاوى (٢٨/ ٢٩٧ – ٢٩٩)، السياسة الشرعية (٦٣ – ٦٥)، اقتضاء الصراط المستقيم (١٩٧).

(٢) الإجماع لابن المنذر (١٨٧).

المسألة التاسعة والخمسون بعد المائة
قولهم (إن الله ثالث ثلاثة) فرد الله عليهم ذلك

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى إحدى خصال أهل الجاهلية عند النصارى، والتي تُعد أساس عقيدتهم التي يعتقدونها، ويدينون بها، إذا زعموا أن الإله ثلاثة: الله - عز وجل -، وعيسى - عليه السلام -، وأمه مريم، وقال آخرون: الله، وعيسى - عليه السلام -، وروح القدس، ويسمون كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلهًا وربًا[(١)].

وقد نصوا على هذه العقيدة الشركية في كتبهم المحرفة، وزعموا أن عيسى - عليه السلام - قد قال بذلك، فمن مزاعمهم في ذلك قالوا: (حين دنا يسوع إلى تلاميذه الأحد عشر، قال لهم: نلت كل سلطان في السماء والأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس) [(٢)].

وقالوا أيضًا: (نؤمن بالله واحد: الأب، والابن، وروح القدس، إله واحد، جوهر واحد، متساوين في القدرة والمجد، وهذه عقيدة سامية ترتفع فوق الإدراك البشري، لا يدركها العقل مجردًا، لأنها ليست وليدة التفكير البشري، بل هي إعلان سماوي يقدمه الوحي المقدس، ويدعمه

---

(١) للاستزادة انظر: الفصل في الملل (١/ ٦٥)، الملل والنحل (١٠١)، دقائق التفسير (٢/ ٨٨ - ٨٩) (٣/ ٤٥)، الفتاوى (١٧/ ٢٧٤، ٥٧٥)، الجواب الصحيح (١/ ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) إنجيل متى (٢٨: ١٨ - ١٩).

الاختبار المسيحي)[١].

كما قالوا أيضًا: (نؤمن برب واحد أب ضابط الكل، وخالق السموات والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن بربٍّ واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور، إله حق مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاص نفوسنا، نزل من السماء، وتجسد في الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس، وصُلب عنا...)[٢].

وقد رد الشارع على مزاعم النصارى، فكذبهم بنصوص صريحة نصت على بطلان هذا المعتقد، وعلى وحدانيته تعالى، وعلى كفر القائلين به، وفي المقابل توعد فيها القائلين بهذه المقالة بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله تعالى -: (أي لئن لم ينته هؤلاء الإسرائيليون

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٣٣٢ - ٣٣٣)، دراسات في اليهودية والنصرانية للخلف (٢٧٠ - ٢٧١)، دراسات في اليهودية والمسيحية: للأعظمي (٤٨٦ - ٤٩٣).

(٢) قاموس الكتاب المقدس (٣٣٢ - ٣٣٣)،للاستزادة انظر. دقائق التفسير لابن تيمية (٢/ ٨٨ - ٨٩)، (٣/ ٤٥)، الفتاوى (١٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، الجواب الصحيح (١/ ٢٧٣ - ٢٧٤)، هداية الحيارى (٢١٦ - ٢١٩)، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: للخلف (٢٧١)، المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها: د. عبد المنعم فؤاد. مكتبة العبيكان (ط١)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م (١٥٢، ١٥٣)، دراسات في اليهودية والنصرانية وأديان الهند: للأعظمي، (٤٨٧).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٧٣).

عما يقولون في الله من عظيم القول، ليمسَّن الذين يقولون منهم (إن المسيح هو الله) والذين يقولون (إن الله ثالث ثلاثة) وكل كافر سلك سبيلهم، عذابٌ أليم بكفرهم بالله)[١].

وقال القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير الآية: (أي لقد أكفرهم الله بقولهم هذا، لأن الإله لا يتعدد، ولأن قولهم بأن الأب، والابن، وروح القدس إله واحد يلزم عنه؛ القول بثلاثة آلهة، وإن لم يصرحوا بذلك لفظًا، فإن لم يكفوا عن قولهم بالتثليث ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة)[٢].

كما أكذبهم الشارع في الآية التي بعدها حين بيّن أن غاية المسيح عليه السلام هي الرسالة، وأن أمه مريم امرأة مؤمنة، ومصدقة بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٣].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسير الآية: (أي أن المسيح - عليه السلام - له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله، ورسول من رسله الكرام، وأمه مؤمنة به مصدقه له، وهذا أعلى مقاماتها، وهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلهين، كما زعمت فرق

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٦٥٣).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٧٥).

النصارى الجهلة)[١].

كذلك كذبهم الشارع في موضع آخر من كتابه وأمرهم بالانتهاء عما يقولون، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي ما الله أيها القائلون إن الله ثالث ثلاثة كما تقولون، لأن من كان له ولد، فليس بإله؛ وكذلك من كان له صاحبة، فغير جائز أن يكون إلهًا معبودًا. ولكن الله الذي له الألوهة والعبادة، إله واحد معبود لا ولد له، ولا والد، ولا صاحبة، ولا شريك)[٣].

كما خالفهم الشارع - عز وجل - على لسان عيسى - عليه السلام -، وذلك بتكذيبهم في زعمهم أن عيسى عليه السلام هو الذي أمرهم بهذه العقيدة فقال تعالى على لسان عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِنۡ كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٢ - ٨٣).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٧١).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٥).

عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

هذا ولم يقتصر الشارع على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بتكذيبهم فقط فيما زعموا؛ بل قد جاءت آيات كثيرة نص فيها الشارع على استحقاقه وحده تعالى للألوهية والربوبية، وليستدل منها على بطلان هذه الخصلة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٣)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ ﴾(٥)، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾(٦) والآيات في ذلك كثيرة. كذلك جميع الآيات التي بيّن فيها الشارع عظيم قدرته في الخلق، والإيجاد، وتدبير الخلق، هي آياتٌ دالة

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: (١١٦ – ١١٧).

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: (١ – ٤).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٦٣).

(٤) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٥) سورة الحج، الآية: (٣٤).

(٦) سورة الصافات، الآية: (٤).

على بطلان هذه الخصلة الشركية، وفي الوقت نفسه دالةٌ على أنه لا معبود بحق إلا الله.

ولا يخفى على صاحب البصيرة أن جميع الرسل الذين بعثهم الله - عز وجل - لعباده ابتداءً من نوح - عليه السلام - وانتهاءً بمحمد ﷺ أنه قد بعثهم لتقرير عقيدة التوحيد، ونبذ الشرك، فكيف لهؤلاء أن ينسبوا مجيء، هذه العقيدة الباطلة الشركية لنبي من أنبيائه، وهو عيسى - عليه السلام - ؟! هذا وقد خالف النبي ﷺ النصارى في هذه الخصلة حين نص على وحدانية الباري - عز وجل -، ودعاهم إلى عبادته وحده تعالى دون سواه، ونص على عبودية عيسى - عليه السلام -، فحين بعث النبي ﷺ معاذًا[1] نحو أهل اليمن، أمره النبي ﷺ بالدعوة لهذه العقيدة، فقال له: «إنك تقدم قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول...» [2]، وقال له أيضًا: «يا معاذ، أتدري ما حق الله

(١) معاذ بن جبل بن عمرو، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي، شهد المشاهد كلها، روى أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، كان الإمام المقدم في علم الحلال والحرام، توفي بالشام أثر إصابته بالطاعون سنة (١٧هـ).
انظر: الإصابة (١٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة برقم (١٣٩٥) بمثله، وباب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة برقم (١٤٥٨) بمثله، وباب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا برقم (١٤٩٦) بمثله، وفي كتاب المغازي. باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع برقم (٤٣٤٧) بمثله، وفي كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى برقم (٧٣٧٢) بنحوه (١٠٩، ١١٥، ١١٨، ٣٥٥، ٦١٤). موسوعة الحديث الشريف.

على العباد، قال: الله ورسوله أعلم: قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حقهم عليه؟ قال الله ورسوله أعلم قال: أن لا يعذبهم»(١).

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (وعبادة الله هي بمعرفة الله تعالى، والإقرار بوحدانيته وطاعته، والخضوع له، ثم نهى عن الشرك بعد الأمر بالعبادة؛ لأن الكفار كانوا يعبدونه سبحانه وتعالى في الصورة، ويعبدون معه أوثانًا يزعمون أنها شركاء، فنفى هذا، والله أعلم)(٢).

إن الناظر لأقوال النصارى في هذه المسألة ليجد فيها الحظ الوافر من الجنون والسخف، والسمج الذي يدركه كل صاحب أدنى بصيرة، لما فيها من التخليط والتخبط العقلي. وعن ذلك يقول الإمام ابن حزم(٣) - رحمه الله -: (لولا أن الله - تعالى - وصف قولهم في كتابه، يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ...﴾ ، وإذ يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾، وإذ يقول تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ... ﴾ ، لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع، السمج السخيف، وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٦٢).

(٢) المنهاج (١٠١).

(٣) هو الإمام الحافظ العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري، ولد في قرطبة عام (٣٨٤هـ). قرأ القرآن، واشتغل في العلوم النافعة الشرعية، من مصنفاته كتابه الفصل في الملل والأهواء، وكتابه مراتب الإجماع. توفي عام (٤٥٦هـ). انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٩١)، العبر في خبر من غبر (٣/ ٢٤١).

عقلاً يسع هذا الجنون، ونعوذ بالله من الخذلان... لذا فيقال للقائلين بأن الباري تعالى ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس: أخبرونا، إذ هذه الثلاثة الأشياء لم تزل كلها، وأنها مع ذلك شيء واحد، إن كان ذلك كما ذكرتم؟ فبأي معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى أبًا، والثاني ابنًا، والثالث روح القدس، وأنتم تقولون: إن الثلاثة واحد، وأن كل واحد منهم هو الآخر؟ فالأب هو الابن، والابن هو الأب، وهما روح القدس، وليس روح القدس سواهما؟ وهذا هو عين التخليط، وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه: (سأقعد عن يمين أبي)، وبقولهم فيه: (إن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده، وإن الابن لا يعلمها).... وقد اتفق العلماء على أن الله – عز وجل – وحده لا شريك له، خالق كل شيء غيره، وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كلها كما شاء، وأن النفس مخلوقة... والعالم كله مخلوق، واتفقوا على أن عيسى – عليه السلام – عبدٌ مخلوق.. وأن الملائكة حقٌّ، وأن جبريل وميكائيل ملكان رسولان لله – عز وجل –، مقربان عظيمان عند الله – تعالى –) (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في إبطال هذه الخصلة: (لقد علم بالاضطرار من دين محمد ﷺ وبالنقل المتواتر عنه، وبإجماع أمته إجماعًا يستندون فيه إلى النقل عنه، وبكتابه المنـزل عليه، وسنته المعروفة عنه، أنه كان يقول: إن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسولاً، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله، وهو ابن الله، والذين يقولون: ثالث

(١) الفصل في الملل (١/ ٦٥)، مراتب الإجماع لابن حزم (٢٦٧ – ٢٧٠).

ثلاثة، وأمثال ذلك) [١].

وبعد، فرغم وضوح الأدلة وصراحتها في إبطال هذه الخصلة إلا أنها قد ظهرت لدى الصوفية، وعن ذلك قال أحد العلماء: (زعموا أن الله خلق آدم من روحه لأنه اشتاق إلى نفسه، واشتق من آدم شخصًا على صورته سماه امرأة، فأحب الله من خلقه على صورته وأسجد له ملائكته، وهذه مناسبة حق، فظهر الثلاثة: حق، ورجل، وامرأة...) [٢].

فهذا هو التثليث ولكن بصورة أخرى كما ظهرت هذه الخصلة عند الديانة الوثنية الهندوسية الذين قالوا بثلاثة آلهة: إله السماء والأرض، وإله الشمس والقمر، وإله العدالة والتشريع[٣]... فنسأل الله العافية من هذا التخبط العقلي.

* * *

(١) الجواب الصحيح (١/ ٣٦٨).

(٢) للاستزادة انظر: مصرع التصوف (١٤٢ – ١٤٣).

(٣) للاستزادة انظر: دراسات في اليهودية المسيحية وأديان الهند (٤٨٠)، فصول في أديان الهند (١٠٠ – ١٠٥).

المسألة الستون بعد المائة
استحلالهم لحم الخنـزير

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا خصلة من خصال أهل الجاهلية عند النصارى، وهي استحلالهم لحم الخنـزير؛ زعمًا منهم أن الله تعالى أحله لهم حين نسخ كل ما في التوراة على لسان عيسى - عليه السلام -، فجاء بشرائع أخرى، وبتوراةٍ جديدة، وهو الإنجيل.

فقالوا عن ذلك في كتبهم: (إن عيسى - عليه السلام - دعا الجموع، وقال لهم: اسمعوا وافهموا، ما يدخل الفم لا ينجس؛ بل ما يخرج من الفم هو الذي ينجّس الإنسان)(١) وقد استدل بولس(٢) بهذا القول عن عيسى - عليه السلام - حين استحل لحم الخنـزير، فقال: (إن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما في التوراة، وجـاء بنواميس أخـر، وبتوراة جديدة، وهو الإنجيل)(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عنهم: (لقد أحدث النصارى وابتدعوا شرائع بعد المسيح، كتعظيمهم للصليب، واستحلالهم

---

(١) إنجيل متى (١٥: ١٠).

(٢) بولس اسمه العبري شاول، يعده الكثير من الباحثين هـو المؤسـس الحقيقـي للمـسيحية بعـد المسيح، ولد في طرطوس، وهو رجل يهـودي، كـان أبـوه فريـسيًا، لكـن بـولس تـابع الديانـة المسيحية، وكرس حياته كلها للديانـة المـسيحية، مـات سـنة ٦٧، وقيـل ٦٨م. انظـر: قـاموس الكتاب المقدس (١٩٨ - ١٩٩)، المسيحية: د. عبد المنعم فؤاد (١١٩)، دراسـات في اليهوديـة والمسيحية وأديان الهند (٣٣٧).

(٣) إنجيل متى (١٥: ١٦)،وانظر. هداية الحيارى (٢٢٠).

لحم الخنـزير... وقد دان بهذه الشرائع أئمتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها)(١).

كما قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (لقد استباح عباد الصلبان كل خبيث من الفيل إلى البعوضة ، فالحلال ما حلله القس، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، فصار من دينهم تعبدهم بأكل الخنـزير)(٢).

لذا فقد خالف الشارع النصارى في هذه الخصلة حين نص على تحريم لحم الخنـزير، وعلى تكذيب زعمهم بأن الشارع هو من أحله لهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: (ذكر الله لعباده المؤمنين في هذه الآية ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة، والدم، ولحم الخنـزير... كما توعد كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباحه الله بمجرد رأيه وتشهيه، بالعذاب الأليم في الآخرة)(٤).

وقال تعالى في تحريم لحم الخنـزير: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (١/ ٢١٧)، (٢/ ٥٩، ١٠٤) بتصرف.

(٢) هداية الحيارى (١٥ - ١٨٣)، للاستزادة انظر. الصواعق المرسلة (١/ ٣٥٩).

(٣) سورة النحل، الآيتان: (١١٥ - ١١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٠ - ٥٩١).

وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾[١].

قال القرطبي - رحمه الله -: (خص الله تعالى ذكر اللحم من الخنـزير ليدل على تحريم عينه، ذُكي أو لم يُذكَّ، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها)[٢].

وقال تعالى أيضًا: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[٣]، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[٤].

ومما يدل على كذبهم وإفترائهم على عيسى - عليه السلام - في زعمهم أنه أبطل شرائع التوراة، وجاء بشرائع جديدة في الإنجيل؛ أنه لم يرد عنه نص واحد أباح فيه لحم الخنـزير؛ بل كان من المعلوم لديهم أن استحلالهم للحم الخنـزير كان على لسان قساوستهم، أما عيسى - عليه السلام - فمعلوم في صريح نصوص السنة أنه ينـزل آخر الزمان فيقتل الخنـزير، وهذا دليلٌ على تحريمه له، قال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـزل ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنـزير...» [٥]،قال ابن حجر - رحمه الله - في شرح الحديث:

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٧٣).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٢١٨).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٤٥).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب البيوع. باب قتل الخنـزير برقم (٢٢٢٢) بمثله، وفي كتاب =

(«يقتل الخنـزير» أي يأمر بإعدامه، مبالغة في تحـريم أكله، وفي هذا توبيخ عظيم للنصارى الذين يدعـون أنهم على طريقة عيسى - عليه السلام -، ثم يستحلون أكل الخنـزير، ويبالغون في محبته)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (ليس مع النصارى نقل متواتر عن المسيح.. فإحلال الخنزير، وترك الختان... وغير ذلك من شرائعهم ليست منقولة عن المسيح، ولا لها ذكر في الأناجيل التي ينقلونها عنه)[٢].

لذا فقد أجمعت الأمة واتفقت على أن: لحم الخنـزير حرام بجميع أجزائه، ذكره وأنثاه صغيره وكبيره، وأن من لم يحرم الخبائث التي حرمها الله ورسوله كالبول، والعذرة، والدم، ولحم الميتة، والخمر، فهو كافر باتفاق المسلمين[٣]. بل وقال العلماء: أن أكل لحم الخنـزير يُعد كبيرة من الكبائر[٤]. فنسال الله العافية.

=

المظالم. باب كسر الصليب وقتل الخنـزير برقم (٢٤٧٦) بمثله، وكتاب أحاديث الأنبيـاء. بـاب نزول عيـسى عليـه الـسلام بـرقم (٣٤٤٨) بمثلـه وزيـادة (١٦٥، ١٧٢، ١٨٢)، ومـسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب نزول عيسى عليه السلام حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ وإكرام الله هذه الأمة زادها الله شرفًا، وبيان الدليل على أن هذه الملة لا تنسخ، وأنـه لا تـزال طائفـة منهـا ظاهرين عـلى الحـق إلى يـوم القيامـة بـرقم (٣٨٩، ٣٩١) بمثلـه (٧٠٣). موسـوعة الحـديث الشريف، الإيمان لابن منده (١/ ٥١٢).

(١) فتح الباري (٤/ ٤١٤).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٤٩٦).

(٣) انظر.أحكام القرآن للجـصاص (١/ ١٣٤)، أحكـام القـرآن لابـن العـربي (١/ ٨٧)، تفـسير القرطبي (٢/ ٢١٨)، مراتب الإجماع (٢٤٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٨)، أعلام الموقعين (٤/ ٦٠٢).

المسألة الحادية والستون بعد المائة
نكولهم عن القتال وقولهم
اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية عند اليهود الدالة على قبح طبائعهم، والتي اتسمت بتعمد المخالفة للحق، والتباعد عنه، والمتضمن على ضعف يقينهم بوعد الله بالنصر، مما أدى إلى امتلاء قلوبهم بالجبن، والخور، فحين أمرهم الشارع - عز وجل - بالجهاد على لسان موسى - عليه السلام - ليدخلوا الأرض المقدسة(١) التي كتبها الله لهم، ظهر جبنهم وخوفهم حين نكلوا(٢) عن القتال، وقالوا لموسى - عليه السلام - ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾(٣)(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (حين أمر الشارع - عز وجل - بني إسرائيل بالجهاد نكلوا عنه، وقالوا لموسى - عليه السلام -:

---

(١) الأرض المقدسة قيل: إنه الطور - وما حوله، وقيل هي الشام، أو هي أرض أريحا، قال الطبري: وأولى الأقوال أن يقال هي الأرض المقدسة، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام. انظر: تفسير الطبري (٤/ ٥١٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨).

(٢) أي نكصوا وجبنوا، يقال: نكل الرجل عن الأمر إذا جبن عنه. انظر: لسان العرب (١١/ ٦٧٧).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٢٤).

(٤) التوراة سفر العدد، الإصحاح (١٣ - ١٤).

اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)(١).

وقد أمر الشارع - عز وجل - بني إسرائيل على لسان موسى - عليه السلام - بالجهاد للدخول إلى الأرض المقدسة، وحذرهم في الوقت نفسه من عصيان أمره؛ إلا أن بني إسرائيل لم يبالوا بتحذير الله لهم؛ فقد امتنعوا عن تنفيذ ما أمرهم الله - جل وعلا - به وخذلوا نبيهم، بل وأظهروا الاستخفاف بالبارئ - عز وجل - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا وبنبيهم.

فاستحقوا على إثر ذلك أن عاقبهم البارئ بتحريم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة والتيه في الأرض، قال تعالى على لسان موسى - عليه السلام - ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٥٠)، وللاستزادة انظر: هداية الحيارى لابن قيم الجوزية (١٧٠)، وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٤١ - ٢٤٢).

عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية:لقد أمر البارئ - عز وجل - بني إسرائيل بقتال من في الأرض المقدسة من أهل الكفر به، وفرض عليهم دخولها، فاستوجب القوم الخسارة بتركهم إذًا فرض الله عليهم من وجهين: أحدهما: تضييع فرض الجهاد الذي كان الله - عز وجل ذكره - فرضه عليهم، والثاني: خلافهم أمر الله في تركهم دخول الأرض، وقولهم لنبيهم موسى عليه السلام إذ قال لهم: ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ إلا أنهم أبوا وجبنوا، وقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ وذلك بعد أن بعث موسى عليه السلام اثني عشر نقيبًا لينظروا أخبار القوم الجبارين المقيمين في القرية، فحين رجعوا إليهم بأخبار القوم، وما هم عليه من شدة البطش، وعظيم الخلقة، قال بنو إسرائيل جبنًا منهم وجزعًا عن قتالهم ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(٢).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (إن في قولهم ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء)(٣).

---

(١) سورة المائدة، الآيات: (٢١ - ٢٦).

(٢) انظر.تفسير الطبري (٤/ ٥١٢ - ٥٢١) بتصرف.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩).

وقـد تمثلت هذه الخصلة أيضًا في المنافقين في عهد رسـول الله ﷺ حين استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد معه في معركة تبوك[1] من غير عذر بيّن، فقال تعـالى عنهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[2].

وقال تعالى أيضًا في شأن أحد المنافقين، يقال له الجد بن قيس[3]، حين أستأذن النبي ﷺ في تخلفه عن الجهاد في معركة تبوك خشـية أن يفتتن بنساء الـروم، فقال تعـالى عنه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[4].

قال الطبري – رحمه الله – في المراد بالآية: (أي إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، فكفى للجدّ بن قيس وأشكاله من المنافقين بصلي نار جهنم خزيًا)[5].

لهذا فقد حرص الشارع – جل وعلا – على مخالفة أهل الجاهلية في هذه

---

(١) غزوة تبوك قامت بين المسلمين والروم في رجب السنة (٩هـ) فكان النصر للمسلمين. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٣٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٤٥).

(٣) الجد بن قيس بن صخر بن كعب بن سلمة الأنصاري سيد بني سلمة، كـان منافقًـا، يقـال: إنـه تاب، وحسنت توبته، مات في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: الإصابة (١٨٠).

(٤) سورة التوبة، الآية: (٤٩).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٣٨٦ – ٣٨٧).

الخصلة حين حذر عبادة المؤمنين من التخاذل عن الخروج للجهاد حين استنفرهم الرسول ﷺ لمعركة تبوك، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

كما خالفهم حين امتدح عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره لهم بالخروج إلى حمراء الأسد(٢) من الغد ليوم أحد(٣) لموجهة المشركين، رغم ما بهم من جراح وألم، ورغم ما نقل لهم عن كثرة عدوهم وقوتهم، فقال تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: (٣٨ – ٣٩).

(٢) حمراء الأسد هي مكان على ثمانية أميال من المدينة، خرج لها النبي ﷺ في أثر المشركين بعد انقضاء معركة أحد، توجه المشركون إلى مكة، ثم تراجعوا، فهموا بالرجوع للمسلمين حتى يستأصلوا شأفتهم، فاستنفرا الرسول ﷺ من شارك من المسلمين في معركة أحد للخروج إلى حمراء الأسد، فخرجوا، فنصرهم الله من غير حرب بأن صرف العدو عنهم. انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٥٧)، زاد المعاد (٣/ ٢١٦).

(٣) معركة أحد، نسبة إلى جبل أحد الموجود بالقرب من المدينة، حدثت هذه المعركة بين المسلمين والمشركين من قريش، وانتصر فيها المشركون في العام الثالث الهجري. انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤)، زاد المعاد (٣/ ١٧٣)، البداية والنهاية (٤/ ٩).

ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي أنهم أرضوا الله بفعلهم ذلك، واتباعهم رسوله إلى ما دعاهم إليه من اتباع أثر العدو، وطاعتهم،... فصرف الله عدوهم عنهم، وأحسن إليهم بما أصابوا من التجارة والأجر)(٢).

كذلك خالفهم بإنزاله لآياتٍ اشتملت على الترغيب في الجهاد في سبيله تعالى، وتهوين القتل عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

هذا وقد دعا النبي ﷺ أمته إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك بوجوب الطاعة عند استنفار الإمام رعيته إلى الجهاد، وبالصبر والثبات عند لقاء العدو، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»(٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: (١٧٢ - ١٧٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٥٢٤).

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: (١٦٩ - ١٧٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجهاد. باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية برقم (٢٨٢٥) بمثله (٢٢٨)، ومسلم في صحيحه. كتاب الحج. باب تحريم مكة وتحريم صيدها =

وقال أيضًا: «إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[١].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديثين: (أراد النبي ﷺ بهذين الحديثين ما يلي:

أي إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا، فيتعين الخروج في الغزو على من عينه الإمام، ثم الحث على الصبر في القتال، وبيان أنه سببٌ موصل إلى الجنة لمن ضرب بسيفه في سبيل الله بصدق وثبات)[٢].

وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحين استشار النبي ﷺ أصحابه في القتال يوم بدر[٣]، قال له المقداد بن الأسود[٤]: (يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو

= وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام برقم (٣٣٠٢) بمثله، وفي كتاب الإمارة. باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير برقم (٤٨٢٩، ٤٨٣١) بمثله (٩٠٣، ١٠١٢). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد. باب الصبر عند القتال برقم (٢٨٣٣) بمثله (٢٢٨)، ومسلم في صحيحه في كتاب الجهاد. باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء برقم (٤٥٤١، ٤٥٤٢) بمثله وزيادة في أوله وآخره (٩٨٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٣٤٠، ١٤٤١)، للاستزادة انظر: شرح رياض الصالحين (١/ ١٧).

(٣) معركة بدر حدثت في رمضان من السنة الثانية هجرية، وكان النصر للمسلمين. انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٣٧)، البداية والنهاية (٣/ ٢٣٦).

(٤) المقداد بن الأسود الكندي، يكنى أبا الأسود، أسلم قديمًا، وتزوج ضباعة بنت الزبير ابنة عم النبي ﷺ، مات سنة (٣٣هـ). انظر: الإصابة (١٢٨٢).

إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وخلفك، فأشرق وجه النبي ﷺ وسره قول المقداد)(١).

لذلك فحرص الصحابة الفعلي على الخروج مع الرسول ﷺ في جميع معاركه لنصرة الإسلام، ولرفع راية التوحيد، واستشهاد الكثير منهم في هذه المعارك لهو دليلٌ فعلي يحمل في طياته المخالفة الفعلية الصريحة منهم لأهل الجاهلية في هذه الخصلة.

لذا فالذي عليه أهل السنة والجماعة خلفًا عن سلف: (إقامة فرض الجهاد مع أئمة المسلمين في كل دهر وزمان، ولا يرون الخروج على الأئمة، ولا القتال في الفتنة، والسمع والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين، وأن لا تُنـزع يد من طاعة، وباتباع السنة والجماعة، وتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة. وأن الجهاد ماض مذ بعث الله - عز وجل - نبيه - عليه الصلاة والسلام - إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من أئمة المسلمين، كما اتفقوا على أن الإمام إذا عين أهلاً للجهاد تعين عليهم، وكذلك عند الدفاع عن بيضة أهل الإسلام ضد المشركين وأهل الكفر، فإن الجهاد في مثل هاتين الحالتين يكون فرضًا على الأحرار البالغين المطيقين)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الجهاد. باب غزوة بدر برقم (٤٦٢١) بنحوه (٩٩٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) للاستزادة انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٩٩)، مراتب الإجماع لابن حزم (٢٠١)، الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٨٦)، الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٨٧).

المسألة الثانية والستون بعد المائة
قبول الحق إذا وافق أهواءهم فقط
لقوله: ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾[١]

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إلى إحدى خصال أهل الجاهلية من أهل الكتاب والأميين، ومن وافقهم من المنافقين، والتي قامت على إثرها الكثير من خصالهم الجاهلية التي اتسمت بالقبح، وتعمد المخالفة للحق، والبعد عنه، والخوض في الباطل، والمسارعة فيه، حيث كان قبولهم للحق مبنيًا على موافقة أهوائهم فقط؛ فما وافق أهواءهم من الحق قبلوه، وعملوا به، وما خالف أهواءهم من الحق رفضوه، ونبذوه، وأبدلوه بباطلٍ ابتدعته لهم أهواؤهم، فعملوا به اتباعًا لها.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بذم اتباع الهوى في قبول الحق في مواضع كثيرة من كتابه، وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بالآية التي ذم فيها الباري – عز وجل – اليهود والمنافقين على هذه الخصلة الجاهلية، وتوعدهم عليها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٤١).

هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقد أنزل الباري - عز وجل - هذه الآية لأنه مُر على النبي ﷺ بيهودي محممًا[١] مجلودًا، فدعاهم، فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى! أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجدُهُ الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف، أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فرجم، فأنزل الله - عز وجل - قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ يقول: ائتوا محمدًا ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٢]. قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره للآية: (يقول هؤلاء الباغُون السماعون للكذب من اليهود للمنافقين إن أفتاكم محمدًا بالجلد والتحميم في صاحبنا

---

(١) التحميم هو تسويد الوجه بالفحم. انظر: المنهاج (١٣٠٩)، فتح الباري (١٢/ ١٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحدود. باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى برقم (٤٤٣٧) بنحوه وبرقم (٤٤٤٠) بمثله (٩٧٩). موسوعة الحديث الشريف.

فاقبلوا منه، وإن لم يفتكم بذلك وأفتاكم بالرجم، فاحذروا)[١].

وقال بعض أهل العلم في المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ ﴾: أي سيحصل منهم القبول، والطاعة، والاتباع للأحكام إن حُكم لهم بما يهوونه، وإن حُكم بخلاف ذلك لم يقبلوه ولم يتبعوه، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس[٢].

وكما تجلت هذه الخصلة عند اليهود والمنافقين، كذلك تجلت عند النصارى، وذلك في تبديلهم للكثير من شرائع دينهم وأحكامه التي شرعها لهم الباري - عز وجل - على لسان عيسى عليه السلام؛ لأنها لا توافق أهواءهم بشرائع وأحكام توافقها؛ فبرز ذلك في استحلالهم للكثير من المحرمات التي حرمت عليهم، وقد بينت ذلك في مسائل سابقة[٣].

لهذا فقد ذم الشارع - عز وجل - النصارى على تركهم تحكيم ما أنزله تعالى إليهم، وتحكيمهم لما أملته عليهم أهواؤهم فقال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[٤]. كذلك وجدت هذه الخصلة الجاهلية عند أهل الجاهلية الأميين، فقد كان السبب في رفض المشركين لدعوة التوحيد التي جاء بها

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٥٧٧).

(٢) للاستزادة انظر: دقائق التفسير لابن تيمية (٣/ ٩٩)، تفسير التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٠)، تفسير ابن سعدي (٣٣٢).

(٣) انظر: المسائل (١٠٥، ١٢٥، ١٣٢، ١٦٠).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٤٧).

نبينا محمد ﷺ ومحاربتهم له؛ عائدٌ إلى أن كل ما كان يدعو إليه من الشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي غير موافق لأهوائهم، فقال تعالى في ذمهم: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَـٰخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾(١) ثم بيّن تعالى أن ماهم عليه من العصيان والشرك موافقٌ لأهوائهم، لهذا قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٢) . قال الطبري - رحمه الله -: (أي لن أتبعكم فيما تدعونني إليه من عباده الأوثان، ولا أوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه، وإن فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق، فصرت ضالاً مثلكم)(٣). لذا فقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة؛ حيث تضافرت الآيات في الذم والنهي عن تحكيم الهوى لقبول الحق؛ وبالدعوة إلى قبول ما كان موافقًا لأمر الله ورسوله ﷺ، والرضا، والعمل به قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ ﴾(٤).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي لا تتبعوا أهواء أنفسكم هربًا من أن

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٥٠).
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٥٦).
(٣) تفسير الطبري (٥/ ٥٦).
(٤) سورة النساء، الآية: (١٣٥).

تعدلوا عن الحق)(١).

وقال تعالى: : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٤)، ثم قال تعالى متوعدًا من عمدوا إلى تحكيم أهوائهم وأرائهم عن تحكيم كتاب الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٥)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٦)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٧).

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٢١).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٣) سورة ص، الآية: (٢٦).

(٤) سورة الجاثية، الآيتان: (١٨ – ١٩).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٤٤).

(٦) سورة المائدة، الآية: (٤٥).

(٧) سورة المائدة، الآية: (٤٧).

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة بدعوته إلى التمسك بكتاب الله تعالى المتضمن للعمل بما فيه، فقال - عليه الصلاة والسلام - في حجة الوداع: «وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت»[١].

قال أحد العلماء والمراد: أي تركت فيما بينكم كتاب الله، فلن تضلوا بعد تركي إياه فيكم، والتمسك به والعمل بما فيه، وقد اقتصر على الكتاب؛ لأنه مشتمل على العمل بالسنة، قال تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾[٢][٣].

وعلى ذلك فإن قبول الحق بناءً على موافقة الهوى ضلالٌ وغي، فالحق ما كان موافقًا للكتاب والسنة مجردًا من الأهواء.

وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (لا عذر لأحدٍ في ضلالةٍ ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، فقد بينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر، فالسنة والجماعة قد احكما أمر الدين كله، وتبين للناس، فعلى الناس الاتباع)[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الحج. باب حجة النبي ﷺ برقم (٢٩٥٠) بمثله مطولاً (٨٨١). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) سورة النساء، الآية: (٥٩).

(٣) عون المعبود (٨٥٣).

(٤) شرح السنة للبربهاري (٦٠).

إلا أن هذه الخصلة قد تجلت عند أهل البدع، فلذلك سموا أهل أهواء، وعن ذلك قال أحد أهل العلم: (سمي أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتّبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك)[١].

كذلك نجد هذه الخصلة الجاهلية في زماننا عند بعض البلاد الإسلامية الذين عمدوا إلى وضع قوانين وأحكام وضعية يحكمون بها؛ ذلك لأن تحكيم شرع الله يضاد أهواءهم، فما وافق أهواءهم من أحكام الشرع حكموا وعملوا به، وما خالف أهواءهم منه ردوه وعملوا بقوانينهم الوضعية[٢]. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

---

(١) الاعتصام (٢/ ٦٨٣).

(٢) للاستزادة انظر: شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد، (٨٧٧، ٨٨٣).

المسألة الثالثة والستون بعد المائة
تركهم الرجم واستبدالهم به غيره
فخالفهم النبي ﷺ فرجم الزانيين منهما

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية عند اليهود والتي نتجت عن عدم عملهم بالحق، لعدم موافقته لأهوائهم، كما جاء في المسألة السابقة.

فقد تركوا الحكم بالرجم الذي أوجبه الشارع في جميع كتبه، وعلى لسان جميع رسله - عليهم السلام -، في حق الزاني المحصن، واستبدلوا هذا الحكم الإلهي بحكم بشري آخر ابتدعوه من عند أنفسهم موافق لأهوائهم. بل وزعموا أن هذا الحكم البشري هو الحكم الذي أوجبه الشارع في كتابه في حق الزاني المحصن، مع العلم أن نصوص التوراة تكذب زعمهم هذا وتخالفهم.

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عنهم:(لقد تواطأ اليهود على الزيادة والنقصان، وتبديل أحكام الله، كما تواطؤوا على تعطيل فريضة الرجم على الزاني، وهو في التوراة نصًا)(١). وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على بطلان هذه الخصلة الجاهلية بفعل النبي ﷺ حين رجم اليهودي واليهودية اللذين زنيا، فقد ورد (أن اليهود جاءوا إلى رسول الله

(١) هداية الحيارى (١٤٩)، للاستزادة انظر. إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٢).

ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيه آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يحنأ على المرأة يقيها الحجارة) (١).

قال النووي – رحمه الله – عن مراد النبي ﷺ في سؤاله لليهود: (سؤال النبي ﷺ لهم حين قال: «ما تجدون في التوراة» ليس لتقليدهم، ولا لمعرفة الحكم منهم، إنما لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجنائز. باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد برقم (١٣٢٩) بنحوه، وفي كتاب المناقب. كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ. باب قوله تعالى: (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم...) برقم (٣٦٣٥) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) برقم (٤٥٥٦) بمثله، وفي كتاب الحدود. باب الرجم في البلاط برقم (٦٨١٩) وفي باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام برقم (٦٨٤١) بمثله، وفي كتاب الاعتصام. باب ما ذكر النبي ﷺ وخص على اتفاق أهل العلم وما اجتمع عليه الحرمان... برقم (٧٣٣٢) بنحوه، وفي كتاب التوحيد. باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها لقوله تعالى: (فأتوا بالتوراة...) برقم (٧٥٤٣) بنحوه (١٠٣، ٢٩٦، ٣٧٤، ٥٦٨، ٥٧١، ٦١٠، ٦٢٩)، ومسلم في صحيحه. كتاب الحدود. باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا برقم (٤٤٣٧) بمثله وزيادة في أخره (٩٧٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٣٠٧).

وقد كذّب الشارع عز وجل اليهود في تغييرهم لحكم الرجم إلى الجلد والتحميم، عندما زعموا بذلك حين سألهم النبي ﷺ كما في الحديث السابق، فقال تعالى مكذبًا لهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾[(١)].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي يحرف هؤلاء اليهود التوراة بتغييرهم لحكم الله تعالى الذي أنزله في المحصنات والمحصنين من الزناة بالرجم إلى الجلد والتحميم)[(٢)].

هذا وقد ثبت أن النبي ﷺ خالف اليهود، ليس فقط في هذه الحادثة، بل ثبت عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه أمر برجم ماعز[(٣)] والغامدية[(٤)].

لذا فحكم رجم الزاني المحصن حقٌّ ثابتٌ بالسنة المتواترة، وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم إذا قامت عليه البينة، أو اعتراف[(٥)].

وقد خطب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يومًا فذكر الرجم،

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٤١).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٥٧٦).

(٣) ماعز بن مالك الأسلمي وهو الذي رجم في عهد النبي ﷺ قال عنه النبي ﷺ لقد رأيته يتحضحض في أنهار الجنة. انظر: الإصابة (١١٤٨).

(٤) هي امرأة من غامد، وهي من بطن جهينة، قيل اسمها سبيعة، وقيل أبية القرشية. انظر: الإصابة (١٧٠٣).

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٩٠ - ٩٤)، كتاب المسائل والرسائل لابن حنبل (٢/ ٤٢٤)، الإجماع لابن المنذر (١٨٥)، شرح السنة للبربهاري (٧٢)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (١/ ١٨٢)، مراتب الإجماع لابن حزم (٢١٤)، الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٨٣)، الفتاوى (٢٠/ ٣٩٩)، منهاج السنة (٣/ ٥٧٤)، السياسية الشرعية (١٠٢)، زاد المعاد (٥/ ٣٣).

فقال: (إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها، ووعيناها، وعقلناها فرجم ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف)[١].

وكما أن حكم رجم الزاني المحصن قد ثبت بالسنة المتواترة، وإجماع الصحابة؛ كذلك هو ثابتٌ في كتبهم، وإن زعموا غير ذلك، فقد ورد حكم رجم الزاني في التوراة، فقيل عن ذلك: (يُخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت؛ لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها... وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبةً لرجل، فوجدها رجلٌ في المدينة واضطجع معها، فأخرجوهما كليهما إلى باب المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا)[٢].

هذا وقد ظهرت هذه الخصلة عند الأزارقة من الخوارج الذين خالفوا الأدلة رغم صراحتها، فقد أنكروا أحكامًا كثيرة، واستحلوا حرمات كثيرة، فمما أنكروه حكم الرجم للزاني المحصن[٣].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الحدود. باب رجم الثيب في الزنى برقم (٤٤١٨) (٩٧٧). موسوعة الحديث الشريف، السنة لابن أبي عاصم (١٦٤)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٣/ ١١٨١) (٤/ ١٣٦١)، الاعتصام للشاطبي (١/ ١٠٥).

(٢) التوراة سفر التثنية (٢٢: ٢٠ – ٢٤)، سفر حزقيال (٢٣: ٤٤ – ٤٨).

(٣) للاستزادة انظر: الفرق بين الفرق (٨٧ – ٩٠).

المسألة الرابعة والستون بعد المائة
تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إلى إحدى خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهي تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ذمهم الشارع على ذلك، فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[١].

قال الطبري – رحمه الله تعالى – في تفسير الآية: (لعن الله الذين كفروا من اليهود على لسان داود، وعيسى – عليهما السلام – فقد كانوا يتجاوزون حدوده، كما كانوا لا يتناهون عن المعاصي التي كانوا يعصون الله بها، لهذا أقسم الله لبئس ما كانوا يفعلون)[٢].

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أمر عباده المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحين نص على أن خيرية هذه الأمة وفلاحها حاصلٌ عند القيام بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: (٧٨ – ٧٩).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٦٥٩).

ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[٢].

كذلك حين امتدح الله عباده المؤمنين امتدحهم بصفاتٍ عديدة، ابتدأها بأنهم آمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ... ﴾[٣]، وقال أيضًا عنهم: ﴿ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

قال الطبري - رحمه الله -: (الأمر بالمعروف هو كل ما أمر الله به عباده، أو رسوله ﷺ، والنهي عن المنكر: هو كل ما نهى الله عنه عباده، أو رسوله)[٥].

فللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكانةٌ عظيمة لدى الشارع - عز وجل - لما فيه من صلاح العباد والبلاد.

ومما يدل على عظم مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهمية القيام بهما أن الشارع - عز وجل - قد ذكرهما بصيغة العطف على القيام بركنين عظيمين من أركان الدين، وهما الصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٧١).

(٤) سورة التوبة، الآية: (١١٢).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٤٨٦).

إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(١).

كذلك حين نص الشارع - عز وجل - على أن القيام بهما سببٌ من الأسباب المنجية من الهلاك، وقد ذكر الباري - عز وجل - ذلك في سياق قصة أصحاب السبت(٢)، بأنه تعالى قد أنجى البعض منهم من العذاب لأنهم كانوا يأمروا بالمعروف، وينهون عن المنكر قال تعالى: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾(٣).

وقد خالف هدي نبينا - عليه الصلاة والسلام - أهل الكتاب في هذه الخصلة حين أمر أمته بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحثهم على ذلك بالنص على أنه أحد مكفرات الذنوب.

فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «فتنة الرجل في أهله وولده وجاره تكفره الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..»(٤).

---

(١) سورة الحج، الآية: (٤١).

(٢) هم قوم من اليهود، حرم عليهم الشارع الصيد من البحر يوم السبت، وكانت الحيتان لا تأتي إلا يوم السبت، فاحتالوا بوضع شباك تمسك الأسماك يوم السبت، وإذا كان يوم الأحد أخذوها، وكان هناك أناس ينهونهم عن هذا المنكر، ويأمرونهم بالمعروف، فعذب الله هؤلاء العصاة بأن مسخهم قردة خاسئين، وأنجى هؤلاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر. انظر: تفسير الطبري (٦/ ٦١ - ١٠١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٦٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب مواقيت الصلاة. باب الصلاة كفارة برقم (٥٢٥) بمثله مطولاً، وفي كتاب الزكاة. باب الصدقة تكفر الخطيئة برقم (١٤٣٥) بمثله، مطولاً، وفي كتاب =

لذلك أكد على أهميته ووجوبه حين جعله أحد حقوق الطريق، وحين جعل لإنكار المنكر مراتب حرصًا منه على بقاء هذه الشعيرة، ومراعاةً لأحوال الداعي والمدعو، فقال - عليه الصلاة والسلام - لأصحابه: «فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حقها؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف، ونهي عن المنكر» (١). وقال - عليه الصلاة والسلام - مبينًا مراتب إنكار المنكر: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٢).

قال العلماء في شرح هذا الحديث: لقد جاء في هذا الحديث مراتب تغيير المنكر وأنها ثلاث درجات: التغيير باليد للقادر عليه، كالحكام والرجل مع ولده وزوجته، فإن لم يتمكن المكلف من التغيير باليد فبلسانه،

= المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٥٨٦) بمثله مطولاً، وفي كتاب الفتن. باب الفتنة تموج كموج البحر برقم (٧٠٩٦) بمثله مطولاً (٤٤، ١١٢، ٢٩٢، ٥٩٢). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المظالم. باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات برقم (٢٤٦٥) بمثله، وفي كتاب الاستئذان. باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم) برقم (٦٢٢٩) بمثله (١٩٣، ٥٢٥)، ومسلم في صحيحه. كتاب اللباس باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه برقم (٥٥٦٣) بمثله (١٠٥٧). وموسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان برقم (١٧٧) بمثله (٦٨٨). موسوعة الحديث الشريف.

كالعلماء ومن في حكمهم، وإذا لم يتمكن من التغيير باللسان فينتقل إلى التغيير بالقلب، والتغيير بالقلب يكون بكراهة فعل المنكر، وكراهة المنكر نفسه، والتغيير بالقلب من عمل القلب، وعمل القلب إذا كان خالصًا صوابًا يثاب عليه الشخص، ومن تمام الإنكار بالقلب مغادرة المكان الذي فيه المنكر(١).

ومما يؤكد وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل أحد حين جعله النبي ﷺ - عليه الصلاة والسلام - حقًا لكل أحد، وإن كان ظالمًا، فقال - عليه الصلاة والسلام – عن ذلك: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا» (٢). وفي مقابل وجوبه، وأهميته، وعظم مكانته حذر النبي ﷺ أمته من مغبة ترك هذا الأمر، فقال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجب لكم»(٣). يقول الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله – في شرح هذا الحديث: (فقد أقسم النبي ﷺ في هذا الحديث بنفسه بأن نقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو

(١) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي برقم (٤٣٣٦) بمثله (١٥٣٩)، والترمذي في سننه في تفسير القرآن كتاب ومن سورة المائدة برقم (٣٠٤٧، ٣٠٤٨) بمثله (١٩٥٩) وابن ماجه في سننه. كتاب الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برقم (٤٠٠٦) بمثله (٢٧١٧) قال الترمذي: حسن غريب. موسوعة الحديث الشريف. وضعفه المنذري والألباني.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٦٩٠، ٢٣٧١٦) بمثله (١٧١٥، ١٧١٧).

يعمنا الله بعقاب من عنده حتى ندعوه فلا يستجيب لنا)(١).

وبعد فإن جميع الأحاديث السابقة قد دلت على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحذرت من عدمه إذ إن المؤمن الحق هو الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فلا يرى معروفًا إلا ويقره، ولا يرى منكرًا إلا وينهى عنه بالحكمة والموعظة الحسنة.

لهذا فقد عد العلماء خلفًا عن سلف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنان وثيقان من أركان الدين، واتفقا على وجوبه على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (إن صلاح المعاش والعباد، في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... كذلك بالأمر بالمعروف

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٥).

(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٩ - ٣٠)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣٤٠)، المسائل والرسائل (٢/ ٣١٥)، الإبانة للأشعري (٥٦)، شرح السنة للبربهاري (٨٥)، الشرح والإبانة لابن بطه (٣٠٨)، السنة للخلال (١/ ٦٠٦)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٥/ ١٠٠٥)، عقيدة السلف وأصحاب الحديث (٢٩٧)، الفصل في الملل والنحل (٤/ ١٧١)، إحياء علوم الدين (٢/ ٤٢٩)، الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٤٧)، العبودية لابن تيمية. ت: علي حسن عبد الحميد، دار المغني، (ط٤)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٣٥)، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠)، الاستقامة (٤٤٧)، الجواب الصحيح (٢/ ٦٢)، السياسية الشرعية (٧٣، ٧٤)، الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية (١٨٣، ١٨٤)، الدرر السنية (٨/ ٦٢)، (١٥/ ٧)، (١٦/ ١٤٢)، شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٣ - ٢٥).

والنهي عن المنكر وُصف نبينا ﷺ، قال تعالى عنه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[(١)]، فقد أمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر... كما وصفت هذه الأمة بهذا الأمر، وكانت لها الخيرية على الأمم بذلك، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحسانًا إليهم؛ لأنهم كمَّلوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، من جهة الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف، ونهوا عن كل منكر لكل أحد... أما سائر الأمم فلم يأمروا كل أحد بكل معروفٍ، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك)[(٢)].

وقد ظهر هناك من الفرق الضالة من خالف مراد الشارع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن هؤلاء قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: (إلا أن هناك من أهل البدع من فهم مراد الشارع في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الخروج على الأئمة والولاة وقتالهم، كالخوارج، والمعتزلة، وهذا فهم باطل مردود بدلالات النصوص الشرعية وأقوال العلماء)[(٣)].

وأيضًا مما يؤسف له في زمننا الحاضر أن هناك البعض من المسلمين من ينادى بإلغاء هذه الشعيرة؛ بل ويزعم أمثال هؤلاء[(٤)] أن مسألة إتيان المعروف وترك المنكر أمرٌ عائد إلى الحرية الشخصية، والرقابة الشخصية، لا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٥٧).

(٢) السياسية الشرعية (٧٣)،للاستزادة انظر. الاستقامة (٤٤٧، ٤٤٨).

(٣) للاستزادة انظر: الفتاوى (١٣/ ٩٨ – ٣٨٧) (١٤/ ٤٧٢).

(٤) كالعلمانيين ممن ينادون بفصل الدنيا عن الدين عن الحياة. انظر: جاهلية القرن العشرين: محمد قطب.

تحتاج كما يزعم هؤلاء إلى تطفل البعض من الناس.

أيضًا مما يؤسف له في هذا الزمن تجاه هذه الشعيرة أن هناك البعض ممن ينتسبون إلى الدعوة من بعض المسلمين، قد صاروا بين طرفي نقيض عند قيامهم بهذه الشعيرة، فبعضهم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلية، زعمًا منهم أنهم يئسوا من محاولة إصلاح حال الناس،

والبعض الآخر ترك النهي عن المنكر كجماعة التبليغ[١]، بينما جماعات أخرى نهجو منهج

الإنكار باليد؛ سواء على جمهور المسلمين، أو على الولاة، مما سبب خللاً في الأمن، وخروجًا على الأئمة والحكام، كالجماعة الإسلامية[٢] في مصر، وجماعة الإخوان المسلمين[٣].

* * *

(١) هي جماعة إسلامية قامت للوعظ والإرشاد على يد محمد الياس الكاندهلوي، وهو من أسس هذه الجماعة للتبليغ والدعوة دون التعرض إلى إزالة المنكرات، وقد تأثرت هذه الجماعة بالطرق الصوفية، حتى برز ذلك في كثير من أمورهم. للاستزادة انظر: القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ للشيخ حمود بن عبد الله التويجري. دار الصميعي. الرياض، (ط٢)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص(١٥، ٢٢٧، ٢٧١)، موسوعة الأديان (١/ ٣٢٠).

(٢) هي جماعة إسلامية نشأت في مصر، تدعو إلى الجهاد والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال جماعة منضبطة حركتها بالشرع، وقد أخذ على هذه الجماعة أنها غلت في استخدام مصطلح الجهاد، وبحصره في القتال فقط. انظر: للاستزادة موسوعة الأديان (١/ ٣٤٨).

(٣) الإخوان المسلمون هي حركة من كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، تأسست على يد الشيخ حسن البنا، تنادي هذه الحركة بالرجوع إلى الإسلام، والبعد عن مواطن الخلاف والبعد عن هيمنة الأعيان والكبراء . من المآخذ على هذه الحركة: المواجهة المباشرة للسلطات الحاكمة، وغلو الأتباع في شيوخهم، وتأثرهم بالمذهب الصوفي. للاستزادة. انظر: موسوعة الأديان (١/ ١٩٨).

المسألة الخامسة والستون بعد المائة
تفضيلهم الميتة على المذكاة لقولهم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله فذكر الله فيه ما ذكر

يشير المؤلف – رحمه الله تعالى – إلى إحدى خصال أهل الجاهلية عند المجوس[١] والأميين، وهي أكلهم للميتة من غير ذكاة. كما وقد عمد الأميون إلى تفضيل الميتة على المذكاة؛ ووجه تفضيلهم لها على المذكاة زعمهم بأن ما قتله الله – عز وجل – أفضل مما قاموا هم بقتله.

قال الطبري – رحمه الله –: (والميتة هو كل ما فارقتها الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية، مما أحل الله أكله)[٢].

والمذكاة هي: ما فارقت الروح جسدها بالذبح، وذلك بقطع الحلقوم والمري[٣].

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة بنهي عباده المؤمنين عن أكل كل ما مات من غير ذكاة شرعية، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾[٤].

(١) انظر: تلبيس إبليس (٩٤)، هداية الحيارى (١٧).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤٠٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٥١)، الروض المربع (٧/ ٤٤١) بتصرف.

(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٢١).

وعن سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (إنه أتى ناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله هذه الآية) (١).

وقال السدي(٢) - رحمه الله - في تفسير الآية: (إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، فما قتل الله لا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فأنزل تعالى قوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ... ﴾ أي أيها المؤمنون لا تأكلون مما مات فلم تذبحوه أنتم، أو يذبحه موحد يدين لله بشرائع شرعها له في كتاب منـزل، فإنه حرام عليكم)(٣).

وقد وردت آيات كثيرة نص فيها الشارع عز وجل على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بتحريم الميتة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ... ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ

---

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه كتاب التفسير. ومن سورة الأنعام برقم (٣٠٦٩) بمثله. قال الترمذي: حسن غريب (١٩٦١). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) هو: أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن الأعور السدي، صاحب التفسير، وسمي السدي لأنه نزل بالسدة. كان أبوه من كبار أهل أصبهان، أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ. توفي عام ١٢٧هـ. انظر: الطبقات الكبرى: محمد بن سعد الزهري، دار صادر. بيروت (٦/ ٣٢٣)، تاريخ أصبهان: لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية. بيروت، (ط١)، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ت: سيد كردي حسن (١/ ٢٤٧)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٠٨).

(٣) انظر. تفسير الطبري (٥/ ٣٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٧٣).

وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾[١]، وقال أيضًا ردًا على المشركين الذين حرموا من الأنعام مالم يحرمه الله، وأحلوا منها ما حرم الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله تعالى - في المراد بهذه الآية: (في هذه الآية إعلام من الله جل ثناؤه للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلالٌ قد أحله الله، وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله)[٣]. كما نص الشارع عز وجل في آية أخرى على تحريم الميتة) وفي الموضع نفسه أستوفى البارئ بحكمته وعلمه ورحمته الواسعة أحوال عباده في حال أخطر، وذلك عند حلول المجاعة بهم، ولم يجدوا إلا الميتة ففي هذه الحال أحلها لهم البارئ - عز وجل -، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي ما حرم الله تعالى عليكم أيها الناس إلا الميتة، والدم، ولحم الخنـزير، وما ذبح على الأنصاب، فسمي عليه غير الله،

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٤٥).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٣٧٨).

(٤) سورة النحل، الآية: (١١٥).

فمن اضطر غير باغ في أكله، ولا عاد، أن يتعدى حلالاً إلى حرام إنما لمجاعةٍ حلت، فأكله، فإن الله غفور رحيم)(١).

كما وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على تحريم أكلها فقال - عليه الصلاة والسلام - حين وجد شاة ميتة «هلا انتفعتم بجلدها؟ قالوا: إنها ميتة. قال: إنما حُرم أكلها» (٢).

قال ابن حجر – رحمه الله -: (لقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث وجه التحريم للميتة بأنه خاصٌ بالأكل فقط) (٣).

كما أن تحريم الشارع لأكل الميتة خاصٌ بميتة البر فقط، إذا أباح الشارع لعباده ميتة البحر مطلقًا، قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ ﴾(٤).

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير الآية: (أي أحل لكم ما أخذ حيًا، وما لفظه ميتًا)(٥).

وقال النبي ﷺ عن ميتة البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» (٦).

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الزكاة. باب الصدقة على موالي أزواج النبي ﷺ برقم (١٤٩٢) بمثله، وفي كتاب البيوع. باب جلود الميتة قبل أن تدبغ برقم (٢٢٢١) بمثله، وفي كتاب الذبائح والصيد. باب جلود الميتة برقم (٥٥٣١) بمثله (١١٨، ١٧٢، ٤٧٦)، ومسلم في صحيحه. كتاب الحيض. باب طهارة جلود الميتة بالذبائح برقم (٨٠٦، ٨٠٧) بمثله (٨٣٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) فتح الباري (٩/ ٦٥٨).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٩٦).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٠٧٦) بمثله (١٠٢٩)، والنسائي في سننه الكبرى. كتاب الصيد، والذبائح باب ميتة البحر برقم (٤٨٦٢) بمثله (٣/ ١٦٤)، وفي سنن أبي داود. كتاب =

وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على تحريم ميتة البر، فقالوا إن كل ما خرجت نفسه بالبت، ولم تدرك ذكاته في شيء من ذلك، قبل زهوق نفسه، فإنه لا يؤكل إذا كان من غير صيد البحر(١).

وفي تحريم الشارع لأكل الميتة رحمة عظيمة بالعباد، وفي بيان ذلك قال أحد العلماء: (فتحريمها موافق للعقول؛ لأن الدم جوهر لطيف جدًا، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس دمه في عروقه، وتعفن، وفسد، وحصل من أكله ما لا ينبغي، بخلاف من زالت عنه الحياة بذكاة شرعية)(٢).

إلا أن هناك من الضُلال الذين غمّ الضلال على قلوبهم وعقولهم من أصحاب الفرق الضالة، كالمقنعية(٣)، والمنصورية(٤)، قد استحلوا أكل الميتة رغم وضوح الأدلة الشرعية التي تنص على تحريم أكل الميتة. فنسأل الله العافية(٥).

= الطهارة. باب الوضوء بماء البحر برقم (٨٣) بمثله (١٢٢٨)، والترمذي في سننه. كتاب الطهارة. باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور برقم (٦٩) بمثله وقال الترمذي: حسن صحيح (١٦٣٨)، والنسائي في سننه الصغرى. كتاب الطهارة. باب في ماء البحر برقم (٥٩) بمثله (٢٠٩٠)، وابن ماجه في سننه. كتاب الطهارة. باب الوضوء بماء البحر برقم (٣٨٦، ٣٨٧) بمثله (٢٥٠٠). موسوعة الحديث الشريف. قال شعيب: إسناده حسن. وقال الألباني: حسن صحيح.

(١) مراتب الإجماع (٢٤٢).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٣١٠).

(٣) هي أحد فرق الحلوليه، وهم أتباع عطاء المقنع الخراساني، ادعى الربوبية عن طريق المناسخة، استحل الميتة والخنزير، وقد مات بإحراق نفسه. للاستزادة انظر: الفرق بين الفرق (٢٣١ - ٢٣٢).

(٤) هم أتباع أبي منصور العجلي، وهي أحد فرق الشيعة التي خرجت عن الإسلام، ادعى أبو منصور أنه خليفة الباقر، ثم ألحد في دعواه، استحل الخمر والخنزير والميتة. انظر: الفرق بين الفرق (٢٢٢)، منهاج السنة (٢/ ١٤٣).

(٥) للاستزادة انظر: الفرق بين الفرق (٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٢)، منهاج السنة (٢/ ١٤٣).

المسألة السادسة والستون بعد المائة
قطع الطريق كفعل قوم شعيب لقوله تعالى:
﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[١]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية، وهو قطعهم للطريق؛ وذلك بالاعتراض للناس بالسلاح في الطرق لاغتصاب الأموال والأنفس.

وقد كان هذا الفعل أحد أفعال قوم شعيب – عليه السلام – التي نهاهم عنها فقال تعالى على لسان شعيب – عليه السلام –: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾.

قال الطبري – رحمه الله –: (نهى شعيب – عليه السلام – هنا قومه عن قطع الطريق، لأنهم كانوا قطاع طريق، ويدل على ذلك خبر أبي هريرة – رضي الله عنه – حين قال: أتى النبي ﷺ ليلة أسري به على خشبة على الطريق، لا يمُّر بها ثوبٌ إلا شقته، ولا شيء إلا خرقته، قال: «ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه»[٢])[٣].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره للآية (٨٦) من سورة الأعراف (٥/ ٥٤٤).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٥٤٤).

كما ظهرت هذه الخصلة عند بعض قبائل العرب من أهل الجاهلية الأميين (١).

وقد خالف الشارع - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نص على مدى شناعة هذا الفعل؛ وذلك بالتصريح على أن هذا الفعل يُعد محاربةً له تعالى ولرسوله، وإفسادًا في الأرض، لذلك شَرَعَ له الشارع حدًا يقام على من فعلوا بمثل هذا الفعل، وتوعدهم في الوقت نفسه بالخزي في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢).

قال البخاري – رحمه الله –: (لقد نزلت هذه الآية في قوم(٣) أتوا النبي ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، إنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا(٤) المدينة. فأمر لهم النبي ﷺ بذودٍ وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيها

---

(١) كقبيلة طيئ التي ينتسب إليها حاتم الطائي فقد كانت هذه القبيلة تقطع الطريق على كل من يمر عليها بغير جواز منها. انظر: فتح الباري (٦/ ٦١٣).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٣٣).

(٣) والمراد بهؤلاء القوم هم: العرنيون من قبيلة عرينة، وهم من بجيلة، وهم قومٌ أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام، وحاربوا الله ورسوله، وقصتهم مشهورة في كتب التفسير والحديث. انظر: تفسير الطبري (٤/ ٤٥٧)، الفتح (١٢/ ١١٠)، المنهاج (١٢٨٠).

(٤) استوخمنا المدينة أي استثقلوها ولم يوافق هواؤها أبدانهم. انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ١٦٣).

فيشربوا من ألبانها وأبوالها. فقتلوا راعي رسول الله ﷺ، واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. فأتى بهم النبي ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم في الحرَّة حتى ماتوا) (١).

وقال ابن جرير الطبري - رحمه الله -: (أنزل الله هذه الآية على نبيه ﷺ، معرِّفة حكمه على من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادًا، بعد الذي كان من فعل رسول الله ﷺ بالعرنيين ما فعل)(٢).

وقال بعض العلماء أيضًا: لقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن هذه الآية نزلت فيمن خرج من المسلمين يسعى في الأرض بالفساد، ويقطع الطريق... وإن نزلت في العرنيين بأعيانهم، لكن لفظها عام يدخل في معناه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوضوء. باب أبواب الإبل والدواب والغنم ومرابضها برقم (٢٣٣) بنحوه، وفي كتاب الزكاة باب استعمال إبل الصدقة وألبانها لأبناء السبيل برقم (١٥٠١) بنحوه، وكتاب الجهاد. باب إذا أحرق المشرك المسلم هل يحرق برقم (٣٠١٨) بنحوه، وفي كتاب المغازي. باب قصة عكل وعرينة برقم (٤١٩٢) بمثله، وفي كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله..) برقم (٤٦١٠) بنحوه، وفي كتاب الطب. باب الدواء بألبان الإبل وبأبوال الإبل برقم (٥٦٨٥، ٥٦٨٦) بنحوه، وباب من خرج من أرض لاتلائمه برقم (٢٧٢٧) بمثله، وفي كتاب المحاربين. باب قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله برقم (٦٨٠٢، ٦٨٠٣، ٦٨٠٤، ٦٨٠٥) بنحوه، وفي كتاب الديات. باب القسامة برقم (٦٨٩٩) بنحوه مطولاً (٢١، ١١٩، ٢٤٢، ٣٤٤، ٣٨٠، ٤٨٧، ٤٨٩، ٥٦٧، ٥٧٥)، ومسلم في صحيحه. كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات برقم (٤٣٥٣) بنحوه (٤٣٥٤) بمثله، وبرقم (٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧، ٤٣٥٩) بنحو. موسوعة الحديث الشريف.

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٥٤٩).

كل من فعل مثل فعلهم من المحاربة والفساد[١].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في حد قطاع الطرق: (إنهم إذا قتلوا، وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قَتلوا، ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا هربوا طلبوا حتى يؤخذوا فتقام عليهم الحدود، وإذا أخافوا السبيل، ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض)[٢]، وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على قول ابن عباس - رضي الله عنه - فقال: (وهذا قول كثير من أهل العلم)[٣].

* * *

(١) انظر: المغني (١٢/ ٤٧٣)، فتح الباري (١٢/ ١١٠).

(٢) أخرجه الإمام الشافعي في الأم برقم (٢٠٠٢) بمثله (٨/ ٨٠)، والبيهقي في سننه الكبرى، باب السرقة. باب الردء ولا يقتل برقم (١٧٠٩٠) (٨/ ٢٨٣)، وفي معرفة السنن والآثار للبيهقي. كتاب السرقة. باب قطاع الطريق برقم (٥١٩٢) (٦/ ٤٢٦).

(٣) دقائق التفسير (٣/ ٥٣ - ٥٥)، الفتاوى (٢٨/ ٣١٠)، السياسية الشرعية (٧٨).

المسألة السابعة والستون بعد المائة
الأمن من مكر الله

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى إحدى خصال أهل الجاهلية عند أهل الكفر من أهل الكتاب والأميين على حد سواء، والتي نجم عنها استرسالهم في التكذيب بالحق الذي جاء به الأنبياء والرسل عن ربهم، وكفرهم به؛ كما نجم عنها استرسال العصاة من المؤمنين في ارتكابهم للمعاصي.

قال أحد العلماء في المراد بالأمن من مكر الله: (إن الأمن من مكر الله يكون بالاسترسال في المعاصي، مع الاتكال على رحمة الله وعفوه)[١].

وقال آخر: (هو استدراج الله للعبد، أو سلبه ما أعطاه من الإيمان، وذلك لجهل العبد بالله، وبقدرته، وثقته بنفسه، وعجبه بها)[٢].

وعلى هذا فما كان استرسال هؤلاء جميعًا ولا استدراج الله لهم إلا نتاجًا عن هذه الخصلة الجاهلية الشنيعة التي كان أساس مدخلها عليهم وقوامها اتكالهم التام على عفو الله تعالى ورحمته، بيد أنهم في الحقيقة قد تجاهلوا عذاب الله وسخطه، فأفرطوا في جانب رجاء رحمة الله تعالى وعفوه، وفرطوا تفريطًا عظيمًا في جانب الخوف والخشية من عذابه وسخطه.

---

(١) الزواجر للهيثمي (١/ ١٢٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٠٩).

وقد أوضح القرآن الكريم لنا عددًا من الصور لمن أمِنوا مكر الله، وما ترتب على ذلك من الوعيد الشديد، وسوء العاقبة، فممن أمن مكر الله:

المنافقون، وذلك بخداعهم الله ورسوله والمؤمنين، وذلك بإظهارهم للإيمان، وإبطانهم للكفر، وقد بيّن الباري كيف كان ذلك منهم؟ وكيف عاقبهم عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[١].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية: قالوا: (إنما نستهزئ بهؤلاء القوم، ونسخر بهم، لذلك سخر الله بهم للنقمة بهم)[٢].

وقال الطبري - رحمه الله -: (أملى الله لهم، وتركهم في عتوهم، وتمردهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم)[٣].

وممن أمن مكر الله أيضًا أهل الكفر، وذلك بكفرهم بالله تعالى وبنعمه، فقال تعالى متوعدًا لهم: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٤].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (أي لا يظنن الذين

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: (١٤، ١٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٦٥ - ١٦٧).

(٣) المرجع السابق (١/ ١٦٩).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٧٨).

كفروا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم، إنما نؤخر آجالهم فنطيلها ليزدادوا إثمًا، ولهم في الآخرة عقوبة مهينة مذلة)[١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله - في المراد بهذه الآية: (لما تركوا العمل بما أمرهم الله به على ألسن الرسل، بدلهم الله مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، استدراجًا منه لهم)[٣].

لذلك نص الباريء على الوعيد بالخسران لكل من أمن مكره، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٥٢٨).

(٢) سورة الأنعام، الآيات: (٤٢ - ٤٤).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٩٢).

ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي أأمن يا محمد، هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله، ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان، ورخاء العيش، كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه - يقول: لا يأمن من ذلك أن يكون استدراجًا، مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم إلا الهالكون)[٢].

والمتدبر لهذه الآيات يجد أن البارئ - عز وجل - لم يكتفِ في التحذير من هذه الخصلة ببيان عقوبة من أمن مكره من أصحاب القرية فقط، بل بيّن كذلك على سبيل التحذير من الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى أن يأمنوا مكر الله، وهو جهلهم بالله وبقدرته، واغترارهم بأنفسهم.

قال أحد العلماء عن ذلك: (إن سبب الأمن من عذاب الله، وعدم الخوف منه هو الجهل والغرة بالله، فأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء بأن يكون استدراجًا، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٣] أي الهالكون، دل على وجوب الخوف

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: (٩٦ - ٩٩).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ١١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٩٩).

من مكر الله)[١].

لهذا فقد دعا الشارع إلى مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين نبه عباده بوجوب الجمع بين رجاء رحمته، والخوف من عذابه وسخطه، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾[٢].

قال ابن كثير - رحمه الله - في المراد بالآية: (أي لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يَنْكَف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات)[٣].

وقال تعالى مثنيًا على زكريا عليه السلام وعلى أهل بيته: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[٤].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله، ورهبة من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته، وركوبهم معصيته)[٥].

وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين شنع من

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٧، ٤٠٨).
(٢) سورة الإسراء، الآية: (٥٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨).
(٤) سورة الأنبياء، الآية: (٩٠).
(٥) تفسير الطبري (٩/ ٨٠).

أمرها بالنص على أنها إحدى الكبائر، فقال - عليه الصلاة والسلام - حين سئل عن الكبائر: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»(١).

كذلك حرص - عليه الصلاة والسلام - على تحذير الأمة من هذه الخصلة، ففي حين حثهم كثيرًا على التعلق بالله، ورجاء رحمته وعفوه، حذرهم كذلك كثيرًا من سخط الله وعذابه، وحذرهم من الاغترار بأعمالهم، أو الاتكال عليها، فقال - عليه الصلاة والسلام - «... فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراعٌ، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»(٢).

قال النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: (في هذا الحديث تحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها، ولا يركن

(١) سبق تخريجه ص(٢٣٩).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق. باب ذكر الملائكة صلوات الله عليكم برقم (٣٢٠٨) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب أحاديث الأنبياء. باب خلق آدم وذريته برقم (٣٣٣٢) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب القدر. الباب الأول برقم (٦٥٩٤) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) برقم (٧٤٥٤) بمثله وزيادة مع أوله (٢٦٠، ٢٦٩، ٥٥٢، ٦٢١)، ومسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عُذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة برقم (٣٠٦) بمثله مطولاً، وفي كتاب القدر. باب كيفية خلق الأدمي، في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته برقم (٦٧٤٠، ٦٧٤١) بمثله (٦٩٧، ١١٤٠). موسوعة الحديث الشريف، السنة لابن أبي عاصم (١٧٥)، الإيمان لابن منده (٢/ ٦٤٢، ٦٤٣).

إليها مخافة من انقلاب الحال للقدر السابق)[١].

وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: (كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، قال فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: «نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله - عز وجل - يقلبها») [٢].

قال أحد العلماء في المراد بهذا الحديث: إن النبي ﷺ أراد تعليم الأمة الإكثار من هذا القول، وذلك لأنه تعالى مصرف القلوب تارة إلى الطاعة، وتارة إلى المعصية، وتارة إلى الحضرة، وتارة إلى الغفلة، لذا فقد كان النبي ﷺ يخاف على أمته، لهذا حذرهم من زوال نعمة الإيمان، أو الانتقال من الكمال إلى النقصان، فدعاهم إلى سؤال الله أن يجعل قلوبهم ثابتة على دينه، غير مائلة عن الدين القويم والصراط المستقيم[٣].

وقال - عليه الصلاة والسلام - معززًا جانب الخوف من الله عز وجل في قلوب أمته: «يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً

---

(١) المنهاج (٢٠٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢١٣١، ١٢٧٣١) بمثله (٨٣٣، ٩٤١)، والنسائي في سننه الكبرى في كتاب الجهاد. باب قوله: (ولتصنع على عيني) برقم (٧٧٣٧، ٧٧٣٨) بمثله (٤/ ٤١٤)، والترمذي في سننه. كتاب القدر. باب ما جاء في القلوب بين أصبعي الرحمن برقم (٢١٤٠) بمثله (١٨٦٦) قال الترمذي: حسن، وابن ماجه في سننه. كتاب السنة. باب فيما أنكرت الجهمية برقم (١٩٩) بنحوه (٢٤٨٩) وصححه الحاكم (١/ ٥٢٦) وقال الألباني: صحيح، وقال شعيب: إسناده قوي. موسوعة الحديث الشريف.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٢/ ١٧٤٦) بتصرف.

ولبكيتم كثيرًا»[(١)].

قال ابن حجر - رحمه الله -: (أراد النبي ﷺ في هذا الحديث تحذير الأمة وتخويفهم من عظيم قدرة الله وانتقامه من أهل الإجرام، وتنبيههم على وجوب سلوك طريق الخوف مع الرجاء، وأن المؤمن لابد أن يكون من ربه على خوف ورجاء)[(٢)].

وقد حث السلف - رحمهم الله - على ذلك، فقد ورد عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال في إحدى خطبه: (أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة)[(٣)].

وقال الحسن البصري[(٤)] - رحمه الله تعالى -: (المؤمن يعمل بالطاعات، وهو مشفق وجل وخائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الكسوف. باب الصدقة في الكسوف برقم (١٠٤٤) بمثله مطولاً، وفي كتاب النكاح. باب الغيرة برقم (٥٢٢١) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب الإيمان والنذور. باب كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم (٦٦٣١) بمثله (٨٣، ٤٥١، ٥٥٥)، ومسلم في صحيحه. كتاب الصلاة. باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما برقم (٩٦١) بمثله مطولاً، وفي كتاب الفضائل. باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك برقم (٦١١٩) بمثله وزيادة في أوله وآخره (٧٤٦، ١٠٩٢). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٢/ ٥٣١ - ٥٣٢).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٦٩).

(٤) هو: الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد إمام أهل البصرة وحبر زمانه، كان عالمًا رفيعًا فقيهًا وحجة مأمونًا عابدًا ناسكًا كثير العلم فصيحًا ولد في خلافة عمر بن الخطاب. وتوفي سنة ١١٠هـ. انظر: العبر في خبر من غبر (١/ ١٣٦)، المنتظم (٧/ ١٣٦).

آمن)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (ينبغي للعبد أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه، لأن من غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله)[٢].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (من درجات الأدب: حبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن، أي أن لا يبلغ الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، بل حد الرجاء: ما طيب لك العبادة، وحملك على السير)[٣].

وقال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: (إن السائر إلى الله يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط، ويستبعد الفرج، ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله فتجد الإنسان مقيمًا على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق، فلا شك أن هذا استدراج)[٤].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥).

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٤٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٣).

(٤) القول المفيد (٢/ ٢٠٨).

المسألة الثامنة والستون بعد المائة
الإلحاد في أسماء الله لقوله تعالى:
﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾[١]

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة موقف أهل الجاهلية الأميين والكتابيين من أسماء الله – تعالى – بأنهم قد ألحدوا في أسماء الله تعالى.

والإلحاد في اللغة: هو الميل والعدول عن الشيء[٢].

قال ابن قيم الجوزية – رحمه الله – (والإلحاد في أسماء الله – تعالى – يكون بالعدول بها، وبحقائقها، ومعانيها عن الحق الثابت لها)[٣].

وقد بيّن العلماء – رحمهم الله تعالى – أنواع الإلحاد في أسماء الله تعالى، فقالوا عن ذلك:

النوع الأول: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزّى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة[٤].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٢) لسان العرب (٣/ ٣٨٩).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٠٦).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٨٨)، بدائع الفوائد (١/ ٢٠٧)، الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧)، =

وقد وقع أهل الجاهلية الأميون في هذا النوع من الإلحاد، وقد استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على ذلك بالآية التي اشتملت على التهديد والوعيد لكلٍ من ألحد في أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيره لهذه الآية: («الإلحاد» التكذيب، وإلحاد الملحدين أن دعوا «اللات» في أسماء الله، وقال مجاهد: اشتقوا العزى من العزيز، واللات من الله، وقال قتادة: يلحدون أي يشركون في أسمائه)[١].

والنوع الثاني: التكذيب بها، وجحودها[٢]، فكما كان من ديدن أهل الجاهلية الأميين العدول بأسماء الله تعالى إلى أوثانهم، وآلهتهم الباطلة، كذلك كان من ديدنهم التكذيب بها وإنكارها، فقد أنكروا اسمًا من أسماء

= تيسير العزيز الحميد (٥٢٠)، فتح الحميد (٤/ ١٨٣٣)، فتح المجيد (٤٥٩)، القول السديد (٢٥٧)، القول المفيد (٣/ ٧٧)، السبك الفريد(٢/ ٣٩٨)، شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٤١٥ - ٤٢٧).

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٣٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٨٨)، التحفة المهدية (٣٣)، بدائع الفوائد (١/ ٢٠٧)، الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧)، تيسير العزيز الحميد (٥٢٠)، فتح الحميد (٤/ ١٨٣٣)، فتح المجيد (٤٥٩)، القول السديد (٢٥٧)، القول المفيد (٣/ ٧٧)، السبك الفريد (٢/ ٣٩٨)، شرح مسائل الجاهلية (٤١٥ - ٤٢٧).

الله تعالى، وهو الرحمن قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾[١].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: (أن رسول الله ﷺ لما أمر الكاتب أن يكتب في صلح الحديبية (بسم الله الرحمن الرحيم) قال سهيل بن عمرو[٢]: «أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب) [٣].

كما ورد عن عبد الرحمن بن عوف[٤] – رضي الله تعالى عنه – أنه قال: «كاتبت أمية ابن خلف[٥] كتابًا: يحفظني في صاغيتي[٦] بمكة، وأحفظه في

---

(١) سورة الفرقان، الآية: (٦٠).

(٢) هو: سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، أسلم يوم الفتح، كان محمود الإسلام من حين أسلم. توفي بالطاعون في العام (١٨هـ). انظر: الإصابة (٥٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الشروط. باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) بمثله مطولاً (٢١٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، هاجر الهجرتين، شهد بدرًا وسائر المشاهد. مات سنة (٣١هـ).

انظر: الإصابة (٧٢١).

(٥) هو: أمية بن خلف بن وهب بن لؤي، أحد رؤوس الكفر، قتل في معركة بدر. انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٨٥)، الكامل في التاريخ (٢/ ٢٥).

(٦) الصاغية بصاد مهملة وغين معجمة خاصة الرجل، يقال صاغية الرجل كل من يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال. انظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٠).

صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، اكتب اسمك الذي أعرفك به في الجاهلية) [١].

النوع الثالث: تسميته تعالى بما لا يليق بجلاله وكماله، كتسمية اليهود والنصارى له «أبـًا» فمما ورد في كتبهم عن ذلك قولهم: (لنا أب واحد هو الله ذاته) [٢]، وقولهم أيضًا: (تبارك الله أبو ربنا يسوع) [٣]، وقولهم أيضًا: (وإله واحد أب لجميع البشر وفوقهم...)[٤] والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد قال تعالى عن تسمية اليهود والنصارى إياه «أبـًا»: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[٥]. ويدخل في هذا النوع من الإلحاد التسميات التي يطلقها الفلاسفة على الله - عز وجل -، كتسميتهم له «موجبًا بذاته»، أو «علة فاعلة بالطبع»، ونحو ذلك[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوكالة. باب إذا المسلم حربيًا في دار الحرب أو في دار الإسلام جار برقم (٢٣٠١) بمثله مطولاً (١٧٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) إنجيل يوحنا (٨: ٤١).

(٣) رسالة بولس إلى كنيسة أفسس (١: ٣).

(٤) رسالة بولس إلى كنيسة أفسس (٤: ٦).

(٥) سورة التوبة، الآية: (٣٠).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٨٨)، التحفة المهدية (٣٣)، بدائع الفوائد (١/ ٢٠٧ - ٢٠٨)، الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧)، تيسير العزيز الحميد (٥٢٠)، فتح الحميد (٤/ ١٨٣٣)، فتح المجيد (٤٥٩)، القول السديد (٢٥٧)، القول المفيد (٣/ ٧٧)، السبك الفريد (٢/ ٣٩٨)، شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٤١٥ - ٤٢٧).

والنوع الرابع: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعًا ولغة وفطرة، وهذا يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها، وعطَّلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه(١).

والنوع الخامس: تشبيه صفاته بصفات المخلوقين، كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وهذا الإلحاد في مقابل إلحاد المعطِّلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه(٢).

والنوع السادس: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه(٣).

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنص على ثبوت الأسماء الحسنى له تعالى، وبأمره لعباده أن يدعوه بها، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٨٨)، منهاج السنة (١/ ٥)، التحفة المهدية (٣٣ – ٣٤)، بدائع الفوائد (١/ ٢٠٧ – ٢٠٨)، الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧)، تيسير العزيز الحميد (٥٢٠)، فتح الحميد (٤/ ١٨٣٣)، فتح المجيد (٤٥٩)، القول المفيد (٣/ ٧٧)، السبك الفريد (٢/ ٣٩٨)، شرح مسائل الجاهلية د. يوسف السعيد (٤١٥ – ٤٢٧).

(٢) انظر: السابق.

(٣) انظر: السابق.

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾(٣).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد وصف النبي ﷺ ربه بما وصف به نفسه، وسماه بما سمى به نفسه، ولم يلحد فيها بتعطيل، أو تمثيل، أو إشراك، بل أثبتها كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، تصديقًا وعملاً بقوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾(٤).

كما وتعبد لله تعالى بها عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾(٥).

فقال - عليه الصلاة والسلام -: «ما أصاب أحدًا قط همٌ، ولا حزنٌ، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

(٢) سورة طه، الآية: (٨).

(٣) سورة الحشر، الآية: (٢٤).

(٤) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا...» [١].

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة»[٢]. وقد بيّن العلماء - رحمهم الله - المراد بقوله - عليه الصلاة والسلام -: (أحصاها)، فقالوا: أي حفظها، وأحصى ألفاظها، وعددها، وفهم معانيها ومدلولاتها، والعمل بالأسماء والصفات التي يسوغ للعبد الاقتداء به تعالى فيها، كالرحيم، والكريم، فإن الله يحب أن يرى حلاها على عبده، وما كان يختص بالله تعالى كالجبار والعظيم، فيجب على العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها؛ كما أن من أحصاها دعاه بها، دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة؛ فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، كذلك لا يسال إلا بها[٣].

لذلك فالذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة؛ متقدمهم ﷺ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٣٧١٢، ٤٣١٨) بمثله (٢٩٦ - ٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الشروط. باب ما يجوز من الاشتراط، والثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفه الناس بينهم، وإذا قال: مائة إلا واحدة أو ثنتين برقم (٢٧٣٦) بمثله، وفي كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة برقم (٦٤١٠) بمثله، في كتاب التوحيد. باب إن لله مائة اسم إلا واحد برقم (٧٣٩٢) بمثله (٢١٩، ٥٣٩، ٦١٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها برقم (٦٨٠٩، ٦٨١٠) بمثله (١١٤٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) انظر: المنهاج للنووي (١٨٩٣، ١٨٩٤)، فتح الباري (١١/ ٢٢٥ - ٢٢٦)، بدائع الفوائد (١/ ٢٠٠ - ٢٠١)، تيسير العزيز الحميد (٥١٥)، السبك الفريد (٢/ ٣٩٦، ٣٩٧).

ومتأخرهم تجاه أسماء الله وصفاته:أن أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى والصفات إثباتًا من غير تمثيل، أو تشبيه، أو تكييف، وتنزيها من غير تعطيل أو تحريف[(١)].

وقد وُجد الإلحاد في أسماء الله – تعالى – في هذا العصر، وله صور عدة، منها: نفي الأسماء الحسنى، أو نفي بعضها، أو إثباتها إثباتًا مقاربًا للنفي، وقد وقع في هذه الصور من الإلحاد طوائف كثيرة من المبتدعة، كالجهمية الذين ينفون الأسماء الحسنى لله، والصفات العلا، فلا يثبتون سوى ذات مجردة[(٢)]، والمعتزلة الذين يثبتون الأسماء؛ أثبتوها إثباتًا مقاربًا للنفي، حيث سلبوا عنها معانيها، فجعلوها مجرد أعلام فقط، ومثلهم في ذلك الرافضة والإباضية[(٣)(٤)].

كذلك من صور الإلحاد في أسماء الله تعالى في هذا العصر تسميته تعالى

---

(١) مراتب الإجماع لابن حزم (٢٧١)، التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية (٣١ – ٣٢)، شرح الواسطية (١/ ٨٦ – ١١٨)، القول السديد (٢٥٥)، معارج القبول (١/ ١١٣، ١٢٩)، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى. للشيخ محمد بن عثيمين. أضواء السلف الرياض، أضواء المجتمع. بريدة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٦٤).

(٢) انظر: الفرق بين الفرق (١٩٤)، الملل والنحل (٣٦)، دراسات في الأهواء والفرق والبدع: د. ناصر العقل (١/ ٢٦٠)، شرح مسائل الجاهلية (٤٢٣).

(٣) هم أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد، كان يقول: بتكفير المخالفين له من أهل القبلة، وبجواز مناكحتهم، وموارثتهم، وكان يرى أن أهل الكبائر موحدون لا مؤمنون. انظر: الفرق بين الفرق (١٠٣)، الملل والنحل (٥٧).

(٤) انظر: الفرق بين الفرق (١٠٣، ١١٢)، الملل والنحل (٢١، ٥٧)، شرح مسائل الجاهلية (٤٢٣).

بما لم يسمي به نفسه، ولم يسمه به رسوله ﷺ، كتسمية المتصوفة إياه بـ «هو»[١]، وإطلاق المتكلمين لفظ «الجسم»، و«الجوهر»[٢]، و«العرض»[٣]، وغير ذلك من الألفاظ على الله تعالى[٤].

ومن الإلحاد في أسمائه - سبحانه وتعالى - القول فيها بغير علم، كما يدعي بعض شُراحها[٥]، أو الاستهانة بها فيما يجعله السحرة منها في الحروز، واستجلاب الشياطين من الجن بجعلها رموزًا عليهم[٦]. وغيرها كثير. فنسأل الله العافية.

* * *

---

(١) انظر. مصرع التصوف (٤)، شرح مسائل الجاهلية، د. يوسف السعيد (٤٢٤).

(٢) الجوهر: هو لفظ يستعمله الفلاسفة والمتكلمون، ويعنون به الجزء الذي لا يقبل القسمة، وهو الشيء الذي لم يدركه أحد بحسه، ولا يتميز منه جانب عن جانب، وما من شيء يفرض إلا وهو أصغر منه عند القائلين به.

انظر: معجم ألفاظ العقيدة لأبي عبد الله عامر عبد الله فالح. تقديم فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين. مكتبة العبيكان، (ط٢)، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (١٣٥).

(٣) العرض: هو الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي محل يقوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله، ويقوم هو به، والأعراض على نوعين: قار الذات، وهو الذي تجتمع أجزاؤه في الوجود، كالبياض والسواد، وغير قار الذات، وهو الذي لا تجتمع أجزاؤه في الوجود، كالحركة والسكون. انظر: التعريفات (١٦٢).

(٤) انظر. بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٩٨)، شرح مسائل الجاهلية (٤٢٤).

(٥) شرح مسائل الجاهلية (٤٢٧).

(٦) انظر: الألوهية في العقائد الشعبية (١٤٢)، موقف الإسلام من السحر (١/ ٢٤٩، ٢٧٥).

المسألة التاسعة والستون بعد المائة
تعبيد الاسم لغير الله

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية الأميين والنصارى من أهل الكتاب، ومن تبعهم من أصحاب الفرق الضالة، أنهم كانوا يعبدون أسماءهم، وأسماء أولادهم لغير الله، فقد كثرت الأسماء المعبدة لغير الله تعالى لدى مشركي العرب، كتسميتهم بعبد الكعبة، وعبد شمس، وعبد العزى، وعبد اللات، وعبد مناة، وغيرها من الأسماء التي يضيفون فيها التعبيد لغير الله، من شمس أو وثن أو بشر، أو غير ذلك، مما قد يشرك بالله. ونظير ذلك أيضًا تسمية النصارى بعبد المسيح، وتسمية الرافضة الغالية بعبد علي، وعبد الحسين، وغيرها من الأسماء المعبدة لغير الله تعالى[(١)].

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد ورد (أن النبي ﷺ سمع وفدًا يسمون رجلاً منهم عبد الحجر، فقال النبي ﷺ: «ما اسمك؟ قال: عبد الحجر، قال: لا أنت عبد الله»[(٢)]، وقد كان هذا من هدي النبي ﷺ السائد أمام كل من يقابله من الصحابة – رضوان الله عنهم – ممن تسموا بمثل هذه الأسماء الشركية؛ فقد غيرّ اسم الصحابي

(١) انظر: الفتاوى (١/ ٣٧٨)، تحفة المودود (١٠٨)، بلوغ الأرب (٣/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد. باب كنية أبي الحكم برقم (٨١١) بمثله (٢٤٢).

الجليل عبد الكعبة إلى عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -؛ واسم الصحابي أبي هريرة حين كان عبد شمس إلى عبد الرحمن - رضي الله عنه - وغيرهم كثير.

كما وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين بيّن لأمته أحب الأسماء إلى الله تعالى وأفضلها فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبدالله، وعبد الرحمن»[1].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه للحديث: (إنما كانت هذه الأسماء أحب الأسماء إلى الله؛ لأنها تضمنت ما هو وصفٌ واجب لله تعالى، وما هو وصف للإنسان وواجب له، وهو العبودية)[2].

وقد اتفق علماء الأمة - رحمهم الله - على تحريم كل اسم معبد لغير الله - عز وجل -، كعبد العزَّى، وعبد عمرو، وعبد هبل، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، واتفقوا على استحسان الأسماء المضافة إلى الله - عز وجل - ، كعبد الرحمن وما أشبه ذلك[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - (وشريعة الإسلام الذي هو الدين الخالص لله وحده: تعبيد الخلق لربهم، كما سنه رسول الله ﷺ، وتغيير الأسماء الشركية إلى الأسماء الإسلامية، والأسماء الكفرية إلى الأسماء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الآداب باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء برقم (٥٥٨٧)، بمثله (١٠٥٩)، موسوعة الحديث الشريف.
(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٧٠).
(٣) مراتب الإجماع (٢٤٩).

الإيمانية، وعامة ما سمى به النبي ﷺ عبد الله وعبدالرحمن. كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾[١] فإن هذين الاسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى)[٢].

* * *

(١) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

(٢) الفتاوى (١/ ٣٧٩).

المسألة السبعون بعد المائة
الاستعاذة بالجن من دون الله

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد خصال أهل الجلية الأميين وهي الاستعاذة بالجن من دون الله.

فقد كان من عادة العرب في جاهليتهم أنهم إذا نزلوا واديًا، أو مكانًا موحشًا استعاذوا بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسؤهم(١).

والاستعاذة في اللغة: من عاذ به، يَعُوذُ عَوْذًا وعِياذًا ومَعاذًا: أي لاذ به، ولجأ إليه، واعتصم(٢).

واصطلاحًا: هي الالتجاء إلى الله تعالى، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير(٣).

وقد أبطل الشارع -عز وجل- ببعثة نبيه محمد ﷺ ما كان عليه أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، وبيّن العاقبة المترتبة على استعاذتهم بهم، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾(٤).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيره للآية: (كان رجال من

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٦٥)، تفسير القرطبي (١٩/ ١٣)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٩)، بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٣)، تيسير العزيز الحميد (١٦٦)، فتح الحميد (٢/ ٦٦٣)، فتح المجيد (١٦١)، القول المفيد (١/ ٢٥١)، السبك الفريد (١/ ٢٤٩)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٢٥).

(٢) لسان العرب (٣/ ٤٩٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦)، بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٩)، التوضيح عن توحيد الخلاف (٢٨٦).

(٤) سورة الجن، الآية: (٦).

الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم ذلك إثماً. وقال قتادة رحمه الله: (وازدادت الجن عليهم جراءة)[١].فالاستعاذة عبادة لا تصرف لغير الله – تعالى –، فمن استعاذ بمخلوق مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، فقد أشرك، وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله؛ لأن من استعاذ بغير أسماء الله وصفاته، يكون بذلك قد صرف شيئًا من عبادته لغيره – سبحانه –، فلا تكون الاستعاذة إلا بالله، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلا[٢].

لذلك أبدل الشارع - عز وجل - عباده عن الاستعاذة بالجن وغيرهم من المخلوقات بالتوحيد، فهداهم إلى الاستعاذة به تعالى، فهو القوي العزيز، الذي ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وقد أمر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[٤]، وقال أيضًا:

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٩٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٣)، خلق أفعال العباد (٢/ ٢٣٢)، المسائل والرسائل (١/ ١٩٧)، الفتاوى (١/ ٣٣٦)، الاستغاثة في الرد على البكري (٢٩٤)، بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٠)، تيسير العزيز الحميد (١٦٦)، توحيد الخلاق (٢٨٧)، فتح الحميد (٢/ ٦٧٣)، فتح المجيد (١٦١)، القول المفيد (١/ ٢٥٦)، السبك الفريد (١/ ٢٤٩)، عقيدة الموحدين (٥٣٧)، فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ١٦٢).

(٣) سورة فصلت، الآية (٣٦).

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: (٩٧ – ٩٨).

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[(٢)]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[(٣)].

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد حث - عليه الصلاة والسلام - أمته على الاستعاذة بالله لمن نزل منزلاً، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «إذا نزل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه»[(٤)].

وقد كان عليه الصلاة والسلام يعوّذ الحسن[(٥)] والحسين[(٦)]، فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامات، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة»، ويقول - عليه الصلاة والسلام -: «إن أباكما كان يعوّذ بهما إسماعيل وإسحاق عليهما الصلاة والسلام»[(٧)].

---

(١) سورة غافر، الآية: (٥٦).

(٢) سورة الفلق، الآية: (١).

(٣) سورة الناس، الآيات: (١ - ٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الذكر والدعاء. باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره برقم (٦٨٧٨) بنحوه وبرقم (٦٨٧٩) بمثله. موسوعة الحديث،خلق أفعال العباد (٢/ ٣٤)، السنة للخلال (٦/ ٨٦).

(٥) هو: الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته ولد في السنة ٣هـ، بايع معاوية على الخلافة حفظًا لدماء المسلمين مات سنة ٤٩هـ. ودفن بالبقيع. انظر: الإصابة (٢٧٥).

(٦) هو الحسين بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته ولد سنة ٤هـ، قتل في سنة ٦١هـ. انظر: الإصابة (٣٧٨).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب أحاديث الأنبياء. باب (١٠) برقم (٣٣٧١) بمثله (٢٧٤) موسوعة الحديث الشريف، خلق أفعال العباد (٢/ ٢٣٧)، السنة للخلال (٦/ ٨٥).

كما وقد حث عليه الصلاة والسلام على الاستعاذة بالمعوذتين، فقال عنهما (... تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما)[١]. قال أحد العلماء والمراد بقوله: (فما تعوذ متعوذ بمثلهما) أي هما أفضل التعاويذ[٢].

والأحاديث الواردة عنه - عليه الصلاة والسلام - في هذا الباب كثيرة جدًا، مما يدل على حرصه - عليه الصلاة والسلام - على تحذير أمته عمَّا يضرهم في الدنيا والآخرة، وأمرهم بما هو خير لهم في الدارين من خلال توحيده تعالى في جميع أنواع العبادات. إلا أن هذه الخصلة الجاهلية قد تمثلت على أرض الواقع في هذا العصر لدى الجهال من العامة ويظهر، ذلك بفرشهم للملح على الأرض طلبًا لرضا الجن، ومؤاخاتهم، أو بنشر الملح في اليوم السابع لولادة المولود؛ تعويذًا له من العفاريت والشياطين، أو باستخدام ما يُعرف بالتحويطة[٣]، أو العزائم، والطلاسم الشركية التي يقوم بها السحرة والكهان، كما تتجلى هذه الخصلة لدى أصحاب القبور، ممن يتبركون ويتقربون إلى أهل القبور؛ طمعًا منهم بأن يعيذوهم من الشر، ويجلبوا لهم الخير[٤]. فنسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الوتر. باب في المعوذتين برقم (١٤٦٣) بمثله (١٣٣٢)، موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) عون المعبود (٦٧١).

(٣) هي ضرب من الأحجبة يعمل تحرزًا من أي عمل سحري ضار بالإنسان. انظر: الألوهية في العقائد الشعبية (١٤٣).

(٤) للاستزادة انظر: التبرك أنواعه وأحكامه (٤٨٤)، الألوهية في العقائد الشعبية (٧٢، ١٤٢)؛ موقف الإسلام من السحر (١/ ٢٤٨).

المسألة الحادية والسبعون بعد المائة

قولهم لما تلي عليهم القرآن: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾(١)

المسألة الثانية والسبعون بعد المائة

قولهم فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٢)

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هاتين المسألتين خصلتين من خصال أهل الجاهلية الأميين، والتي قد تمثل فيهما صورةٌ من صور عتوهم، وتمردهم، وعنادهم، وادعائهم للباطل، وذلك عند سماعهم لآيات القرآن تتلى؛ فما أن يسمعوا تلاوة آيات القرآن الكريم، إلا وسارعوا بإطلاق مزاعمهم الباطلة، قائلين بكل عتوٍ وعناد بأنهم لو شاؤا فلديهم القدرة على القول بمثل آيات القرآن، وأن ما جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام - من الآيات ما هو إلا اقتباسٌ ونقلٌ، نقله واقتبسه عن كتب السابقين الأولين.

ومن الأدلة على وجود هاتين الخصلتين لدى أهل الجاهلية الأميين الآية التي استدل بها المؤلف - رحمه الله تعالى - فقال عز من قائل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، قال القرطبي - رحمه الله -: (وقد نزلت هذه الآية في

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٣١).

(٢) الآية السابقة.

النَّضر بن الحارث[١]؛ كان خرج إلى الحيرة في التجارة فاشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكسرى وقيصر؛ فلما قصّ رسول الله ﷺ أخبار من مضى. قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا)[٢].

ومن الأدلة كذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٣].

قال ابن كثير - رحمه الله -: في المراد بالآية: (أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل، ومنقول عنهم)[٤].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٥]، وقال أيضًا: ﴿ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[٦]، وقال أيضًا عز من قائل: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٧].

---

(١) هو: النضر بن الحارث بن علقمة بن عبد الدار يكنى أبا قائد، كان أشد قريش في تكذيب النبي ﷺ، والأذى له ولأصحابه، كان ينظر في كتب الفرس، ويخالط اليهود والنصارى، قال عن القرآن إنما جاء محمد بأساطير الأولين، قتل يوم بدر صبرًا بعد أن أسره المقداد. انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٨).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٢٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٨).

(٥) سورة النحل، الآية: (٢٤).

(٦) سورة الفرقان، الآية: (٥).

(٧) سورة النمل، الآية: (٦٨).

والذي حمل الأميين على زعمهم الباطل هذا استبعادهم أن ينـزِّل الله على أحد من البشر شيئًا.

لهذا فقد خالفهم الشارع – عز وجل – في هاتين الخصلتين، وذلك بتحديهم إن كانوا يملكون الاستطاعة على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فليأتوا بمثل سورة واحدة من سوره؛ فهم أهل الفصاحة والبلاغة وأئمة العربية، قال تعالى متحديًا لهم: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[1]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2].

كما وقد بيّن الشارع - عز وجل - بطلان زعمهم هذا حين بيّن عجزهم عن الإتيان بمثله، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[3].

فبعد أن تحداهم الشارع - عز وجل - ليفند مزاعمهم بالحجة والبرهان، نص في مواضع كثيرة من كتابه على أن القرآن الكريم كلامـه،

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٣).

(٢) سورة هود، الآيتان: (١٣، ١٤).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٨٨).

وأنه تعالى هو الذي أنزلـه قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾(١)، وقال تعـالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ ﴾(٢)، وقال عز من قائل: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾(٣)، وقـال أيضـًا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٥).

هذا وقد خالف هدي رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هاتين الخصلتين، فقد تضافرت عبارات النبي ﷺ التي تنص على أن القرآن منـزل عليه، فتارة يقول: «لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾(٦)»(١). وتارة

(١) سورة البقرة، الآية: (١٧٦).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (٧).
(٣) سورة الإسراء، الآيتان: (١٠٥، ١٠٦).
(٤) سورة الشعراء، الآيات: (١٩٢ – ١٩٥).
(٥) سورة الزمر، الآية: (٢٣).
(٦) سورة الفتح، الآية: (١).

يقول - عليه الصلاة والسلام -: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر»(٢).

فهذه الشواهد من الكتاب والسنة لم تشهد فقط ببطلان هاتين الخصلتين؛ بل وكانت شاهدًا على عجز أهل الجاهلية الأميين، ومن يحذو حذوهم على مر الزمان من الإتيان ولو بسورة من مثل سور كتاب الله تعالى.

كما تضمنت هذه الشواهد برهانًا ناصعًا إلى قيام الساعة على أن هذا الكتاب العظيم هو كلام الله حقيقة، وليس كلامًا من كلام البشر، فليس بوسع البشر أن يأتوا بمثله.

وقد أجرى الله عز وجل هذه الحقيقة الناصعة في يومٍ من أيامهم على

=

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المغازي. باب غزوة الحديبية برقم (٤١٧٧) بمثله مطولاً، وفي كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح برقم (٤٨٣٣) بمثله وزيادة في أوله (٣٤٣، ٤١٣)، ومسلم في صحيحه. كتاب الجهاد باب صلح الحديبية برقم (٤٦٣٧) بنحوه (٩٩٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات باب كلام الخصوم بعضهم في بعض برقم (٢٤١٩) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف برقم (٤٩٩٢) بمثله مطولاً، وفي باب من لم ير بأسًا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا برقم (٥٠٤١) بمثله مطولاً، وفي كتابه استتابة المرتدين باب ما جاء في المتأولين برقم (٦٩٣٦) بمثله مطولاً وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (فاقرؤوا ما تيسر منه) برقم (٧٥٥٠) بمثله مطولاً (١٨٩، ٤٣٣، ٤٣٦، ٥٧٨، ٦٣٠)، ومسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين (فضائل القرآن). باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها برقم (١٨٩٩) بمثله مطولاً، وبرقم (١٩٠٢، ١٩٠٤، ١٩٠٦) بنحوه (٨٠٦). موسوعة الحديث الشريف.

لسان أحد طغاتهم؛ وذلك في قصة الوليد بن المغيرة[١] حين قرأ عليه النبي ﷺ أحد من آيات الكتاب، فحين رجع لقريش قال لهم: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر، ووالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، ووالله ما يشبه هذا الذي يقول شيئًا من هذا...، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته)[٢].

لهذا فالذي عليه مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين، كالأئمة الأربعة وغيرهم، ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منـزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود[٣].

وقد وجدت هذه الخصال الجاهلية عند أحد أتباع الفرق الضالة المنتسبة للإسلام، وعند غيرها، فقد قال أحد أتباع الصوفية عن القرآن إنه

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم يكنى أبا عبد شمس، كان أحد المستهزئين الذين استهزءوا برسول الله ﷺ الذين كفاه الشارع إياهم، حيث اتهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر يفرق بين المرء وأخيه وزوجته، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر أثر خدش ناله حين مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فوطئ على سهم فخدشه، فأوما جبريل عليه السلام لهذا الخدش فانتقض ومات منه. انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢٦٠)، والحاكم في مستدركه تفسير سورة المدثر برقم (٣٨٧٢) بمثله (٢/ ٥٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٣٤) بمثله (١/ ١٥٧)، وفي الاعتقاد (٢١٨) عن عكرمة مرسلاً.

(٣) للاستزادة انظر: الرد على الجهمية للدارمي، (١٨٤)، المسائل والرسائل (١/ ١٩١)، الاعتقاد للبيهقي (٧٥)، الفتاوى (١٢/ ٣٧)، معارج القبول (١/ ٢٥٨).

أساطير الأولين[١].

كما ويزعم المستشرقون بأن القرآن ليس من كلام الله – تعالى –، إنما هو مما جاءت به عبقرية محمد ﷺ، أو من الكتب قبله، أو من القوانين الرومانية[٢].

كما وقد نهج نهجهم بعض تلامذتهم من المنتمين إلى الإسلام، الذين تأثروا بهم، كطه حسين الذي يرى أنه قد يكون ما في الأخبار من قصص استقاها النبي ﷺ من البيئة التي عاش فيها، خصوصًا أنها كانت معروفة لدى كثير من العرب، أو استقاها نتيجة لاتصاله بأهل الكتاب[٣].

* * *

(١) للاستزادة انظر: مصرع التصوف (٥٠).

(٢) للاستزادة انظر: افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد د. عبد العظيم إبراهيم المطعني بمكتبة وهبة، القاهرة (ط١)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م (١٣ – ٣٢)، مجلة المنهل المجلد (٣٨) مقال: المستشرقون وحدهم هم الذين تعثروا في مجال اللغة. السيد أمين مدني (٢٢٤ – ٢٢٨)، مجلة المنهل (٥٣) مقال: المستشرقون والقرآن د. إسماعيل سالم عبد العال (٢١٥ – ٢٢٠)، مجلة الاجتهاد، العدد (٥٠ – ٥١) مقال: المستشرقون والقرآن. عمر لطفي العالم (٣٤٣ – ٣٤٨)، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي. لأنور الجندي. المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، (٨٧)، الموسوعة الميسرة للأديان (٢/ ٦٨٧)، شرح مسائل الجاهلية: د.يوسف السعيد (٥٠٧).

(٣) للاستزادة ينظر: شرح مسائل أهل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٥٠٧).

المسألة الثالثة والسبعون بعد المائة
إنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – أن من خصال أهل الجاهلية الأميين إنفاقهم لأموالهم في محاولتهم لصد المسلمين عن سبيل الله.

وقد قامت هذه الخصلة عند أهل الجاهلية الأميين مبارزةً منهم لله ولرسوله؛ لإبطال الحق، ونصرة الباطل.

قال تعالى عن هذه الخصلة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾(١).قال المفسرون عن هذه الآية: إن الله – تعالى – أخبر بأن الكفار ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين؛ ليتقووا بهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لاستئصالهم وصدهم عن اتباع طريق الحق، لهذا أنذرهم الباريء – عز وجل –؛ وتوعدهم بأنهم سينفقون أموالهم في ذلك الوجه، وستكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة؛ لأن أموالهم ستذهب، وسيغلبون، ولن يظفروا بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله؛ لأنه تعالى مُعلٍ كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى...، وقد قيل: عن هذه الآية إنها نزلت في أبي سفيان(٢)،

(١) سورة الأنفال، الآية: (٣٦).

(٢) هو: أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي أسلم عام الفتح. شهد حنين والطائف.
=

ونفقته على المشركين يوم أحد[١]، وقيل: نزلت في المشركين من أهل بدر، ونفقتهم على الجيش، وعلى كل تقدير فهي عامة في كل من أنفق ماله لإبطال الحق، ونصرة الباطل[٢].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هـذه الخصلة بتحذير العباد من مغبة هذا الفعل الحاصلة في الدنيا والآخرة، فقد قال تعالى في نهاية الآية السابقة ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

كذلك خالف الشارع أهل الجاهلية حين حث عباده ورغبهم في الإنفاق في سبيله، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣].قال الطبري - رحمه الله -: (قيل: المراد بذلك الذين ينفقون أموالهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم، فله أجره

=

توفي سنة ٣٤هـ وقيل ٣٢هـ. انظر: الإصابة (٦٠٣).

(١) معركة أحد قامت بين المسلمين والمشركين سنة (٣هـ) وهزم فيها المسلمون إثـر مخالفـة الرمـاة، حيث مالوا إلى العسكر فخلوا ظهور المسلمين فأنكفأ المشركون على المسلمين فكانـت الهزيمـة. انظر: سيرة ابن هشام (٣-٤/ ٦٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٤١)، تفسير البغوي (٣/ ٢٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٨)، التحرير والتنوير (٥/ ٣٤٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٦١).

سبعمائة، والله يضاعف على السبعمائة إلى ما يشاء من التضعيف)(١).

والآيات الواردة في الحث على الإنفاق في سبيل الله والترغيب فيه كثيرة، فمنها على سبيل الذكر لا الحصر، قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ... ﴾(٣)، وقال أيضًا عز من قائل: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾(٤)، وقال أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾(٦).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد وردت عنه أحاديث كثيرة حث فيها أمته على الإنفاق في سبيل الله، والترغيب في ذلك مبينًا فضل الإنفاق في سبيل الله، فقال - عليه الصلاة والسلام -:

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٦٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٧٤).

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: (١٣٣، ١٣٤).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٦٠).

(٥) سورة الرعد، الآية: (٢٢).

(٦) سورة سبأ، الآية: (٣٩).

«من انفق زوجين في سبيل الله، دعاه خزنة الجنة، كل خزنة باب: أي فُلُ هَلُمَّ» (١).

قال أهل العلم والمراد (بالزوجين) في هذا الحديث: أي إنفاق شيئين من أي صنف من أصناف المال، وهنا تنبيه على فضل الصدقة والنفقة في الطاعة، والاستكثار منها(٢).

كما ورد أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ومعه ناقة مخطومة، فقال للنبي ﷺ: هذه في سبيل الله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة»(٣).

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في سبيل الله بخير فقد غزا» (٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصوم. باب الريان للصائمين برقم (١٨٩٧) بنحوه، وفي كتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله برقم (٢٨٤١) بمثله، وفي كتاب بدء الخلق. باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم برقم (٣٢١٦) بمثله، وفي كتاب فضائل الصحابة برقم (٣٦٦٦) بنحوه (١٤٨، ٢٢٩، ٢٦١، ٢٩٨)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة. باب فضل من ضم إلى الصدقة غيرها من أنواع البر برقم (٢٣٧١، ٢٣٧٣) بمثله (٨٤٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر: المنهاج (٧٩١)، الفتح (٤/ ١١٢) (٦/ ٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإمارة. باب فضل الصدقة في سبيل الله تعالى وتضعيفها برقم (٤٨٩٧) بمثله (١٠١٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجهاد. باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير برقم (٢٨٤٣) بمثله (٢٢٩)، ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة. باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير برقم (٤٩٠٢، ٤٩٠٣) بمثله (١٠١٧). موسوعة الحديث الشريف.

قال النووي - رحمه الله -: (في هذا الحديث حثٌ على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم)[١].

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق...» [٢]. قال النووي: (والمراد بقوله: (فسلطه على هلكته) أي إنفاقه في الطاعات)[٣].

والأحاديث الواردة في الحث على الإنفاق في سبيل الله، وبيان فضله كثيرة، لا مجال لحصرها في هذه المسألة، فكلها قد دلت على فضل الإنفاق في سبيل الله؛ لهذا نجد أن السلف الصالح قد حرصوا على المسابقة إلى هذا الباب، فها هو عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قد

بذل ماله لنصرة الإسلام والمسلمين حين جهز جيش العسرة[٤]

---

(١) المنهاج (١٤٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العلم. باب الاغتباط في العلم والحكمة برقم (٧٣) بمثله، وفي كتاب الزكاة. باب إنفاق المال في حقه برقم (١٤٠٩) بمثله، وفي كتاب الأحكام. باب أجر من قضى بالحكمة برقم (٧١٤١) بمثله، وفي كتاب الاعتصام. باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى برقم (٧٣١٦) بمثله (٩، ١١٠، ٥٩٥، ٦٠٩)، ومسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين (فضائل القرآن). باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها برقم (١٨٩٦) بمثله (٨٠٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج (٦٦١).

(٤) سمي جيش معركة تبوك بجيش العسرة؛ لأن هذه المعركة قد قامت في زمان عسرة من الناس، وشدة حر وجدب من البلاد، وقد قامت هذه المعركة بين المسلمين والروم في السنة (٩هـ) وقد نُصر فيها المسلمون.

انظر: البدء والتاريخ (٤/ ٢٣٩)، البداية والنهاية (٥/ ٤) (٧/ ٧٧ - ٢٠١).

بثلاثمائة بعير بأقتابها[١] وأحلاسها[٢]، وجاء بألف دينار وضعها في حجر رسول الله ﷺ نصرةً للحق، وكذلك حين بذل ماله لشراء بئر رومة فجعله للمسلمين[٣].

كما وقد كان للمهاجرين والأنصار مواقف عظيمة بذلوا فيها أموالهم وأنفسهم في سبيل الله[٤].

فحياة السلف - رحمهم الله - كانت زاخرةً بالمواقف الدالة على سخائهم في بذل أموالهم في سبيل الله تعالى، مخالفين بذلك أهل الجاهلية الأميين في هذه الخصلة الجاهلية.

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية قد ظهرت في هذا العصر الحديث جلية عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ممثلةً في تلك الحملات التبشيرية التي يقوم النصارى بإرسالها إلى بلاد المسلمين، ودعمها ماديًا لصد المسلمين عن الإسلام.

كذلك تلك الحملات الإعلامية، والمطبوعات، والندوات التي يقيمها اليهود والنصارى بين الحين والآخر، وقد عملوا على إيجادها ليحققوا من خلالها مقاصدهم الخبيثة، والتي من أهمها تشويه صورة الإسلام،

---

(١) أقتاب: جمع قتب، وهو رحل صغير على قدر السنام. انظر: لسان العرب (١/ ٦٦١).

(٢) أحلاس: جمع حلس، وهو الكساء على ظهر البعير تحت القتب. انظر: لسان العرب (٦/ ٥٥).

(٣) انظر: السنة لابن أبي عاصم (٥٨٣)، حلية الأولياء (١/ ٩٦)، البدء والتاريخ (٤/ ٢٣٩)، البداية والنهاية (٥/ ٤) (٧/ ١٧٧ - ٢٠١).

(٤) انظر: معارج القبول (٣/ ١٠٨٧).

والتشكيك فيه لصد المسلمين عن الإسلام، وصدّ غيرهم عن الدخول فيه بتمويلٍ مادي ومعنوي من اليهود والنصارى.

وكذلك قيامهم بتمويل تلك المذاهب الهدامة، كالقاديانية، والبهائية، وغيرها من المذاهب التي تزعم انتسابها للإسلام، والإسلام منها بري، فقد أقيمت هذه المذاهب تحت مظلة الاستعمار، ومولت من قِبل هؤلاء المستعمرين من اليهود والنصارى لتشتيت وحدة المسلمين، وصدهم عن اتباع الحق(١).

* * *

(١) انظر: التبشير والاستعمار: د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ. المكتبة العصرية. بيروت صيدا، ١٩٨٢م، القرآن والمبشرون: لمحمد عزه دروزه، المكتب الإسلامي. بيروت، (ط٣)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، القاديانية، البهائية: لإحسان إلهي ظهير.

المسألة الرابعة والسبعون بعد المائة
خروجهم للقتال بطرًا ورئاء الناس وصدًا عن سبيل الله

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية الأميين، والتي تمثل دوافع خروجهم للقتال وهي للبطر، ولمراءاة الناس بكثرة عددهم وعتادهم، ولمنع الناس من الدخول في الإسلام بقتالهم، وبتعذيب من كانوا تحت أيديهم ممن دخلوا في الإسلام.

ومن الأدلة على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية الأميين قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[١].

وقد نزلت هذه الآية باتفاق المفسرين في كفار قريش حين خرجوا إلى بدر، ولهم فخر وبغي، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني به»[٢] قالوا: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا -، وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، تجتمع لهم بها سوق كل عام -، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي

(١) سورة الأنفال، الآية: (٤٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٢٦٢).

الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا.. لهذا نهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية، والحسبة في نصر دينه، ومؤازرة نبيه ﷺ(١).

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالنهي الصريح لعباده المؤمنين عن هذه الخصلة كما في الآية السابقة، وبأمرهم في موضعٍ آخر من كتابه بإخلاص النية لله – تعالى – في الباعث على خروجهم للقتال؛ وذلك بأن يكون باعثهم إلى ذلك إعلاءً لكلمة الله تعالى، ونصرة لدينه، وإقامة لشرعه؛ وقد رتب سبحانه وتعالى على ذلك الأجر العظيم، والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢).

ثم ذكر سبحانه في موضع آخر من كتابه الفارق بين باعث المؤمنين للخروج للقتال، وبين باعث الكافرين في ذلك، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٦٢)، تفسير البغوي (٣/ ٣٣)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٧)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٨).

(٢) سورة النساء، الآية: (٧٤).

أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾(١).

كما وقد بيَّن سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بأن الخيرية لمن قاتل بماله ونفسه في سبيله، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وأخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر من كتابه بمحبته لمن قاتلوا في سبيله فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (هذا إخبار من الله - تعالى - بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كَفَر بالله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان)(٤).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فتارةً ببيان الوعيد المترتب على من خرج للقتال بطرًا ورئاءً، وتارةً ببيان الوعد المترتب على من خرج للقتال إعلاء لكلمة الله.

فقال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا من العاقبة المترتبة على هذه

---

(١) سورة النساء، الآية: (٧٦).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٤١).

(٣) سورة الصف، الآية: (٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/٣٥٩).

الخصلة: «أن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجلٌ استشهد، فأتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد

قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...» (١).

قال النووي - رحمه الله -: (هذا دليلٌ على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال)(٢).

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «الغزو غزوان، فأمَّا من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجر كله، وأما من غزا فخرًا ورياءً وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف» (٣).

قال أحد العلماء: والمراد بقوله: ((فإنه لم يرجع بالكفاف) أي: لم يرجع لا عليه ولا له من ثواب تلك الغزوة وعقابها، بل يرجع وقد لزمه الإثم؛

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة. باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار برقم (٤٩٢٣) بمثله مطولاً (١٠١٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٤٩٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٩٢) بمثله (١٦١١)، وأبو داود في سننه في كتاب الجهاد. باب فيمن يغزو ويلتمس الدنيا برقم (٢٥١٥) بمثله (١٤٠٩). موسوعة الحديث الشريف، والنسائي في سننه الكبرى. كتاب الجهاد. باب فضل الصدقة في سبيل الله برقم (٤٣٩٧)، وفي كتاب البيعة. باب التشديد في عصيان الإمام برقم (٧٨١٨) بمثله، وفي كتاب إجلاء أهل الكتاب. باب عصيان الإمام برقم (٨٧٣٠) بمثله (٣/ ٣٣)، (٤/ ٤٣٢)، (٥/ ٢٢٣)، وصححه الحاكم (٢/ ٨٥)، وقال الألباني: حسن، وقال شعيب: إسناده ضعيف.

لأن الطاعات إذا لم تقع بصلاح سريرة انقلبت معاصي، والعاصي آثم)(١).

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام - محذرًا من الريا: «... وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا بعثك الله مرائيًا مكاثرًا، على أي حالٍ قاتلت أو قتلت بعثك الله على تيك الحال» (٢).

لذا فقد حث النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك بالنص على أن القتال في سبيل الله حين يكون بقصدِ جعلِ كلمة الله هي العليا، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل» (٣).

قال النووي - رحمه الله -: (أي أن الفضل الوارد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا)(٤).

---

(١) عون المعبود (١٠٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الجهاد. باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا برقم (٢٥١٩) بمثله (١٤١٠) . موسوعة الحديث الشريف. وقد ذكره الألباني في ضعيف سنن أبي داود برقم (٥٤١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العلم. باب من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا برقم (١٢٣) بمثله، وفي كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا برقم (٢٨١٠) بمثله، وفي كتاب فرض الخمس. باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره برقم (٣١٢٦) بمثله، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) برقم (٧٤٥٨) بمثله (١٣، ٢٢٦، ٢٥١، ٦٢٢)، ومسلم في صحيحه. كتاب الإمارة. باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله برقم (٤٩١٩، ٤٩٢٠، ٤٩٢١، ٤٩٢٢) بمثله (١٠١٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) المنهاج (١٤٦١).

وقد ذكر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة فضل القتال في سبيل الله، ودرجة المقاتل في سبيل الله عنده تعالى، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالمًا مع أجرٍ أو غنيمة»(١). وقال أيضًا: «ما اغبرتا قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسه النار»(٢).

يقول الإمام ابن رجب - رحمه الله -: إن من أقسام العمل لغير الله ما كان رياءً محضًا؛ بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي، وقد وصف الله الكفار بالرياء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٣). فهذا الرياء المحض، ومثل هذا العمل لا يشك مسلم أنه حابطٌ، وأن صاحبه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجهاد والسير. باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله برقم (٢٧٨٧) بمثله، وفي كتاب فرض الخمس. باب قول النبي ﷺ (احلت لكم الغنائم) برقم (٣١٢٣) بمثله، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) برقم (٧٤٥٧) بمثله، وفي باب قوله تعالى: (قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي) إلى قوله: (ولو جئنا بمثله مددًا) برقم (٧٤٦٣) بمثله (٢٢٤، ٢٥١، ٦٢٢)، ومسلم في صحيحه. كتاب الإمارة. باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى برقم (٤٨٦٩) بنحوه (١٠١٥) موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجمعة. باب المشي إلى الجمعة برقم (٩٠٧) بمثله، وفي كتاب الجهاد. باب من اغبرت قدماه في سبيل الله برقم (٢٨١١) بمثله (٧١، ٢٢٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٤٧).

يستحق المقت من الله والعقوبة[١].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: (المقاتلون في سبيل الله لهم نوايا متعددة، من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ، ومن قاتل وطنية ففي سبيل الطاغوت، ومن قاتل حمية على قومية فهو في سبيل الطاغوت، ومن قاتل لينال دنيا فهو في سبيل الطاغوت، لكن لو قاتل الإنسان قومية أو وطنية، لا من أجل القومية ولا الوطنية، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدي عليه الكفار، فهذا في سبيل الله؛ لأن حماية بلاد المسلمين ثمرتها أن تكون كلمة الله هي العليا، وكذلك حماية المسلمين ثمرتها أن تكون كلمة الله هي العليا)[٢].

* * *

(١) انظر.جامع العلوم والحكم (٢٩ - ٣٠) بتصرف يسير.

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٠٦).

المسألة الخامسة والسبعون بعد المائة
افتخارهم بالنحر والإطعام وسقاية الحجاج مع ما هم فيه من الشرك فرد الله عليهم ذلك

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – أن من خصال أهل الجاهلية الأميين أنهم كانوا يتفاخرون بالنحر والإطعام وسقاية الحجاج مع ما هم فيه من الشرك؛ زعمًا منهم أن القيام بهذه الأعمال خيرٌ من الإيمان والجهاد.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين وبخهم عليها، فقال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير هذه الآية: (إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفاخرون بالحرم، ويستكبرون من أجل أنهم أهله وعمّاره...، فأخبر سبحانه وتعالى أن الإيمان به، والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ من عمارة المشركين البيت، وقيامهم على السقاية، ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، أنهم كانوا يعمرون بيته ويخدمونه)(٢).

---

(١) سورة التوبة، الآية: (١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٣٦)، تفسير البغوي (٣/ ٥٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٢).

وقال الطبري - رحمه الله -: (في هذه الآية توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله لا في الذي افتخروا به من السِّدانة والسقاية)(١).

وقد دلت الآية السابقة وآيات كثيرة ذكرها الشارع في محكم كتابه على أمرين مهمين وهما:

أولاً: حبوط وبطلان كل عملٍ صالح خلا من أصل الدين وشروطه فأصله الإيمان بالله، وشروطه الإخلاص له تعالى، والمتابعة لشرعه.

ثانيًا: سوء عاقبة من خلت أعمالهم الصالحة من ذلك.

فمن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾(٢).

قال القرطبي - رحمه الله -: (في هذه الآية دلالة على أن من الناس من يعمل العمل، وهو يظن أنه محسن، وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي: إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر... وهذه الآية توبيخ

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٣٥).

(٢) سورة الكهف، الآيات: (١٠٣-١٠٦).

لهؤلاء الكفرة)[١].

وقال تعالى أيضًا عن مثل ذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[٢].

قال ابن كثير - رحمه الله - والمراد بذلك: (حال الكفار يوم القيامة يحسبون أنهم قد عملوا أعمالاً، وأنهم قد حصَّلوا شيئًا من أعمالهم واعتقاداتهم، فإذا وافوا الله يوم القيامة، وحاسبهم عليها، ونوقشوا على أفعالهم، لم يجدوا لهم شيئًا بالكلية قد قُبِل إما لعدم الإخلاص، أو لعدم سلوك الشرع)[٣].

ومن الأدلة على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾[٤].

قال ابن كثير - رحمه الله -: (هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين،

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٦٣).

(٢) سورة النور، الآية: (٣٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٧).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (٢٣).

وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعد من القبول حينئذ)(١).

وفي مقابل هذه النصوص التي دلت على حبوط الأعمال الصالحة التي قام بها المشركون وهم على الشرك، وعلى سوء عاقبتهم، جاءت نصوص أخرى تدل على مخالفة الشارع عز وجل لأهل الجاهلية في هذه الخصلة؛ حيث دلت هذه النصوص على أمرين:

أولهما: قبوله تعالى للأعمال الصالحة القائمة على أصل الدين، وهو الإيمان به تعالى والنابعة منه؛ والمتوافر فيها الشروط الشرعية لقبول العمل، وهما الإخلاص له تعالى، والمتابعة لشرعه.

ثانيًا: دلت هذه النصوص على العاقبة الحميدة لمن قاموا بمثل هذه الأعمال.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٥).

(٢) سورة التوبة، الآية: (١٨).

(٣) سورة التوبة، الآيات: (٢٠ - ٢٢).

قال الطبري - رحمه الله تعالى - في هذه الآيات: (قضاءٌ من الله بَيْن فرق المفتخرين بالسقاية والسدانة وهم بالله مشركون، وبين من آمنوا بالله وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، فهؤلاء أرفع منـزلة عنده من سُقاة الحاج وعُمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون، وهم الفائزون بالجنة الناجون من النار)(١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾(٣).

قال قتادة - رحمه الله -: (أي إنما يقبل الله من العمل ما كان في إيمان)(٤).

ومن الآيات التي نبّه فيها البارئ عز وجل عباده على الشروط اللازم توافرها في العمل الصالح لقبوله قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٥).

قال المفسرون: عملاً صالحًا أي موافقًا لشرع الله؛ وخالصًا لوجه الله

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٣٨).
(٢) سورة الكهف، الآيتان: (١٠٧ - ١٠٨).
(٣) سورة طه، الآية: (١١٢).
(٤) تفسير الطبري (٨/ ٤٦٢).
(٥) سورة الكهف، الآية: (١١٠).

تعالى، أما ما عدا ذلك من العمل فإن صاحبه خاسر في دنياه وأخراه(١).

هذا وقد خالف هدي رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أرشد أمته إلى الإيمان الذي هو أصل الدين، وأول الأعمال الصالحة وأفضلها، والذي به تقبل الأعمال، وتزكو الخصال؛ ثم أرشدهم إلى ذروة سنام الدين الذي به يحفظ الدين، ويتسع، وينصر الحق، ويخذل الباطل مخالفًا بذلك - عليه الصلاة والسلام - أهل الجاهلية الأميين الذين أعمتهم أهواؤهم وشهواتهم، فأصبحوا يرون الحق باطلاً والباطل حقًا.

فقال - عليه الصلاة والسلام -: (حين سئل عن أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيله» قيل: ثم ماذا قال: «حج مبرور»)(٢).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك فقال: (التوحيد هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه... كما وقد أخبر النبي ﷺ أن الجهاد ذروة سنام العمل، وهو أعلاه وأشرفه، وهو أفضل ما تطوع به العبد)(٣).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٩)، تفسير السعدي (٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب. الإيمان. باب من قال: إن الإيمان هو العمل برقم (٢٦) بمثله، وفي كتاب الحج. باب فضل الحج المبرور برقم (١٥١٩) بمثله (٤، ١٢٠)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال برقم (٢٤٨) بمثله، وبرقم (٢٥٠) بنحوه (٦٩٢، ٦٩٣). موسوعة الحديث الشريف، الإيمان لابن منده (١/ ٤٠٠).

(٣) الفتاوى (٣/ ٤٠٠)، (١٠/ ٥٧).

المسألة السادسة والسبعون بعد المائة
استحلالهم الشهر الحرام وتحريمهم غيره فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[1] الآية

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية الأميين عند العرب قبل الإسلام، وذلك حين كانوا يحتاجون القتال في بعض أوقات الأشهر الحرم؛ فكانوا يعمدون إلى استحلال القتال فيها، ثم يحرمون غيرها، اعتقادًا منهم أن التحريم متعلق بعددٍ معين، لا بزمنٍ معين، وكانوا يطلقون على عملهم هذا النسيء.

والنسيء في اللغة هو: من نسأ الشيء ينسؤُه نَسْأً وأنْسَأَه: أخّره؛ يقال: أنسأ أَجَلَهَ: أخره، والنسءُ: التأخير[2].

لقد كان العرب في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في تحريم الأشهر الحرم[3]، لذا كانوا يعظمون هذه الأشهر، ويتحرجون فيها عن القتال، وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضًا إلى أن تنصرم هذه الأشهر، بيد أن هذا الأمر كان يشق عليهم، فقد كانوا يحتاجون القتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، فحين يحتاجون القتال فيها

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣٧).

(٢) لسان العرب (١/ ١٦٦).

(٣) وهي ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب.

كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى الشهر الذي بعده من أشهر الحل، وهو صفر، ويقولون: نسأنا الشهر، واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون من قابل في شهر غيره[١].

وقد أبطل الشارع - عز وجل - هذه الخصلة مخالفًا بذلك أهل الجاهلية حين ذمهم عليها في محكم كتابه، ومبينًا المبلغ الذي بلغته بهم آراؤهم الفاسدة النابعة من أهوائهم وشهواتهم، والتي جعلتهم يتطاولون على تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي إنما التأخير الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهن حلالاً، والحلال منهن حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم لأحكام الله وآياته)[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٦٨)، تفسير القرطبي (٨/ ١٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٧)، أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١١١)، أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٤١٠)، معالم السنن (٢/ ٢٠٧)، المنهاج (١٢٨٧)، فتح الباري (٣/ ٤٢٦)، سيرة ابن هشام (١/ ٦١)، مروج الذهب (٢/ ٢٠٤)، بلوغ الأرب (٣/ ٧١ - ٧٢).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٣٧).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٣٦٨).

وقال ابن العربي - رحمه الله -: (كان العرب يحفظون عدة الأشهر الحُرم التي هي أربعة، لكنهم يُبدلون ويؤخرون، ويزعمون أن الموطأة على العدة تكفي، وإن خالفت في أعيان الأشهر المحرمات)(١).

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: (حين أخبر الشارع عنهم أن عملهم هذا زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنـزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حرامًا، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم موّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل)(٢).

لذلك نص الشارع - عز وجل - ببيان قضائه وقدره في عدة الشهور، فلا ينبغي لكائن من كان أن يغيرها عما رتبها الشارع عليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٤١٣).

(٢) تفسير ابن سعدي (٣٣٧).

أَنفُسَكُمْ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي لا تظلموا في الأشهر الحرم الأربعة أنفسكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظم حرمتها)(٢).

وقال القرطبي - رحمه الله -: (والمقصود من هذه الآية اتباع أمر الله فيها، ورفضُ ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها، وتعليق الأحكام على الأسماء التي رتبوها)(٣).

كما وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال - عليه الصلاة والسلام - في خطبته في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»(٤).

قال الخطابي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: (قوله: «إن الزمان قد استدار...» لأن العرب في الجاهلية كانت قد بدلت أشهر الحرم،

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣٦).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٣٦٧).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض...) برقم (٤٦٦٢) بمثله (٣٨٦) وفي كتاب الأضاحي. باب الأضحى يوم النحر برقم (٥٥٥٠) بمثله مطولاً (٣٨٦، ٤٧٧)، ومسلم في صحيحه. كتاب القسامة. باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال برقم (٤٣٨٣) بمثله مطولاً (٩٧٤)، موسوعة الحديث الشريف.

وقدمت وأخرت أوقاتها من أجل النسيء الذي كانوا يفعلونه، حتى اختلط حساب النسيء عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون من قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ، فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضع الله حساب الأشهر عليه يوم خلق السموات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا تتغير أو تتبدل فيما يستأنف من الأيام)[(١)].

كما وقد أبطل النبي ﷺ هذه الخصلة، وكل خصلة ينجم عنها الابتداع في أمور الدين، ضمن قوله - عليه الصلاة والسلام -: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» [(٢)].

يقول الإمام ابن حزم الظاهري - رحمه الله -: (وبحكم اللغة التي نزل بها القرآن أن الزيادة في الشيء لا تكون البتة إلا منه، لا من غيره، فصح أن النسيء كفر، وهو عمل من الأعمال، وهو تحليل ما حرم الله تعالى، فمن أحلّ ما حرّم الله تعالى وهو عالم بأن الله تعالى حرّمه فهو كافر بذلك الفعل نفسه)[(٣)].

---

(١) معالم السنن (٢/ ٢٠٧).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٨٣).

(٣) الفصل في الملل والنحل: لابن حزم الظاهري. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان، (ط٢)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م (٢/ ٢٢٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن لله تعالى حقوقًا لا تقبل المعاوضة ولا البدل، فلا يجوز إبدال وقت الحج ومكانه بوقت آخر ومكان آخر، لهذا لما ابتدع أهل الجاهلية النسيء قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾[(١)]؛ لأن النسيء يتضمن إبدالاً لوقت الحج بوقت آخر)[(٢)].

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: (حرم الله القتال في هذه الأشهر؛ لأنها أشهر سير الناس إلى حج بيت الله، فجعلها محرمة لئلا يقع القتال في هذه الأشهر والناس

سائرون إلى بيت الله الحرام، وهذه من حكمة الله عز وجل، وحكم القتال ما زال محرمًا، فإنه يحرم ابتداء القتال فيها)[(٣)].

* * *

(١) سورة التوبة، الآية: (٣٧).

(٢) الفتاوى (٣١/ ٢٣٣).

(٣) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥١).

المسألة السابعة والسبعون بعد المائة
التربص بالمؤمنين الدوائر

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند المنافقين، والمتمثلة في علاقتهم بالمؤمنين؛ إذ كانوا يتمنون وينتظرون أن تحل بالمؤمنين نوائب الدهر، وفجائع الزمان، وأن تنزل بهم الحوادث والآفات، ففضحهم الباري - عز وجل - في محكم كتابه، وتوعدهم بأن يحل بهم نظير ما يتمنونه للمؤمنين، فقال تعالى عن ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

قال المفسرون: أي: ينتظرون أن تدور بكم الأيام والليالي، وأن تنزل بكم الحوادث والآفات، وغلبة عدوٍّ لكم إلا أن هذا سينعكس عليهم، فسيجعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم، لا بالمؤمنين(٢).

وقد خالف الشارع - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة من عدة جوانب:

أولاً: حين توعدهم بنظير ما يتمنونه للمؤمنين، كما هو مذكور في الآية السابقة.

ثانيًا: حيث امتدح علاقات المؤمنين بعضهم مع بعض؛ مؤكدًا على أنها

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٩٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٥١)، تفسير القرطبي (٨/ ٢١٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٤)، تفسير ابن سعدي (٣٤٩).

علاقات مفعمة بالأخوة الإيمانية، فهي علاقات يسودها التراحم، والتعاطف، والتآلف فيما بينهم قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

قال الطبري – رحمه الله -: والمراد بالآية: (أي لا تجعل في قلوبنا غلاً لأحد من أهل الإيمان بك يا ربنا)(٤).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين نص منبهًا أمته على أن من كمال الإيمان محبتهم بعضهم لبعض، فقال – عليه الصلاة والسلام -: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (٥).

قال ابن رجب – رحمه الله – عن ذلك: (أي من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه؛ فإذا زال ذلك عنه، فقد نقص إيمانه بذلك)(٦).

كما خالف أهل الجاهلية بحثه – عليه الصلاة والسلام – المؤمنين على

---

(١) سورة الفتح، الآية: (٢٩).
(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٠).
(٣) سورة الحشر، الآية: (١٠).
(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٤٣).
(٥) سبق تخريجه ص(٦٠٦).
(٦) جامع العلوم والحكم (٢١٣)، وانظر: فتح الباري (١/ ٥٧ – ٥٨).

التعاضد، والتعاون فيما بينهم حين تمر بأحدٍ منهم شدة، ورتب على ذلك الأجر العظيم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من نفّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة..»(١).

قال النووي - رحمه الله - في شرح هذا الحديث: (هذا الحديث عظيم جامع لأنواع من العلوم، والقواعد، والآداب، وبيانٌ لفضل قضاء حوائج المسلمين، وإزالة شدائدهم، ونفعهم بما تيسر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة وغير ذلك)(٢).

والأحاديث في مثل ذلك كثيرة، كلها تشير إلى فضل التعاون، والتآلف، والتراحم في علاقات المؤمنين بعضهم مع بعض، وتحث على ذلك، خلافًا لما عُرف عن موقف المنافقين تجاه المؤمنين.

وكما عُرفت هذه الخصلة واشتهرت عن المنافقين، فهي تُعد كذلك من أهم السمات التي اتسمت بها علاقات أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالمسلمين على مر العصور، وواقعنا خير شاهدٍ على ذلك(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء. باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم (٦٨٥٣) بمثله (١١٤٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٩٠١).

(٣) فما أن تنزل ببلد من بلاد الإسلام والمسلمين نازلة، أو تحل بهم نكبة إلا والبِشر قد ملأ قلوب أهل الكتاب ومحياهم والشاهد على ذلك وقوفهم تجاه ما يحل بالمسلمين من حروب، وجوع، وفقر موقف المتفرج الشامت بعبارة تتردد كثيرًا على مسامع المسلمين: (الشعوب الإسلامية شعوب نامية)، أو أن يقفوا موقف المعين التجاري، كعبارة: (النفط مقابل الغذاء)، (النفط مقابل الأرض)، ونحوها من العبارات والمواقف التي تدل على أنهم من أكثر من مثلوا في العصر الحديث التربص بالمؤمنين الدوائر.

المسألة الثامنة والسبعون بعد المائة
أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل

يبيّن المؤلف - رحمه الله تعالى - أن من خصال أهل الجاهلية الأميين عند كفار قريش وعند المنافقين قطعهم الأرحام التي أمرهم الله بوصلها، بل وتجاوز الأمر بهم من القطيعة للأرحام إلى إلحاق الأذى بهم؛ والشاهد على ذلك ما لاقاه سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ من القطيعة والأذى من أرحامه بعد بعثته نبيًا، وما لاقاه أصحابه - رضوان الله عليهم - من أرحامهم عند اتباعهم له.

وقد دل على وجود هذه الخصلة لدى كفار قريش والمنافقين ورود آيات كثيرة في ذم هذه الخصلة وذمهم عليها، وفي بيان الوعيد المترتب عليها ليخالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال تعالى عن المنافقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾[1].

قال الطبري - رحمه الله -: في هذه الآية وصف الله المنافقين بقطع الأرحام، فذمهم على ذلك،... غير أنها تُعد أيضًا ذمًا لكل قاطع رحم، وقطع الرحم يكون: بظلمه في ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجب من برها، ووصلها يكون بأداء الواجب لها إليها من حقوق الله التي أوجب

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٧).

لها، والتعطف عليها بما يحقُّ التعطف به عليها[١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله -: والمراد بقوله تعالى: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ (أي: يقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾[٣]، ونقض العهد، وقطيعة الرحم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أي: سوء العاقبة)[٤].

ودل على وجود هذه الخصلة عند المشركين قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾[٥].

قال الطبري - رحمه الله -: (يعني الله - جل ثناؤه - أن هؤلاء المشركين الذين لو ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم عهدًا ولا قرابة، عن

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٢١).
(٢) سورة الرعد، الآية: (٢٥).
(٣) سورة الحج، الآية: (٣١).
(٤) تفسير الطبري (٧/ ٣٧٨).
(٥) سورة التوبة، الآية: (٨).

ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «الإل» يعني القرابة، «والذمة» العهد)[١].

وقد شدد الشارع - عز وجل - في ذم هذه الخصلة، والتحذير من عاقبتها، وذلك حين جعلها من أنواع الإفساد في الأرض، وبأن مرتكبها مستحق للطرد من رحمة الله تعالى.

قال تعالى عن ذلك: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[٢].

قال القرطبي - رحمه الله -: (ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع الكفار، وعن معنى الآية قال قتادة وغيره: أي لعلكم إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك الدماء، وقطع الأرحام)[٣].

ثم قال القرطبي - رحمه الله - والرحم على وجهين:

(عامة وخاصة؛ فالعامة رحم الدين، ويوجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم، والعدل بينهم، والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المرضى، وحقوق الموتى...، أما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٢٥).

(٢) سورة محمد، الآية: (٢٣).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٠٨).

الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة، وتفقد أحوالهم... وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة)(١).

وقد خالف الشارع - عز وجل - أهل الجاهلية في هذه الخصلة بتحذير عباده من هذه الخصلة، وبيان الوعيد المترتب عليها، كما جاء في بعض الآيات السابقة، وبأمره لهم في آيات كثيرة بصلة الأرحام، والإحسان إليهم، وترغيبهم بذلك قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾(٢).

قال ابن كثير - رحمه الله -: (أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بعبادته وحده لا شريك له، ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء)(٣).

وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾(٤).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي إعطاء ذي القربى الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم)(٥).

بل ورغب الشارع - عز وجل - عباده المؤمنين في الصفح والعفو عن

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٢١١).

(٢) سورة النساء، الآية: (٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٥).

(٤) سورة النحل، الآية: (٩٠).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٦٣٤).

أرحامهم الذين قد تطول المرء منهم إساءة، وحثهم على مقابلة الإساءة بالإحسان والصلة، ووعدهم على أثر ذلك بالجنة، وبزيارة الملائكة لهم، وتسليمهم عليهم.

فقال تعالى في حث عباده على الصفح والإحسان: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله -: (أي لا يحلف من كان ذا فضل من مال وسعة منكم أيها المؤمنون بالله ألا يعطوا ذوي قرابتهم، فيصلوا به أرحامهم، وليعفوا عما كان منهم إليهم من جرم، وليتركوا عقوبتهم على ذلك)(٢).

وقال تعالى عن العاقبة الحميدة للواصلين في الآخرة: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

(١) سورة النور، الآية: (٢٢).
(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٨٩).

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ إلى آخر الآية(١).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين أمر - عليه الصلاة والسلام - أمته بصلة الأرحام، والإحسان إليهم، ورغبهم بذلك، فقد نص - عليه الصلاة والسلام - على أن صلة الرحم سبب لتأخير الأجل، وسعة الرزق، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره، فليصل رحمه»(٢).

قال النووي - رحمه الله -: (أي أن صلة الرحم تؤخر الأجل، وتوسع الرزق وتكثره)(٣).

كما وقد حرص النبي ﷺ على تعظيم أمر صلة الرحم؛ وذلك حين بيّن - عليه الصلاة والسلام - أن الشارع قد علق صلته بعبده، بصلة العبد لرحمه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»(٤).

---

(١) سورة الرعد، الآيات: (١٩ - ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع. باب من أحب البسط في الرزق برقم (٢٠٦٧) بمثله، وفي كتاب الأدب. باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم برقم (٥٩٨٥، ٥٩٨٦) بمثله (١٦١، ٥٠٧)، ومسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والأدب. باب صلة الرحم وتحريم قطعتها برقم (٦٥٢٣، ٦٥٢٤) بمثله (١١٢٦). موسوعة الحديث.

(٣) المنهاج (١٨٣٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (وتقطعوا أرحامكم) برقم (٤٨٣٠) بنحوه، وفي كتاب الأدب. باب من وصل وصله الله برقم (٥٩٨٧، ٥٩٨٨، ٥٩٨٩) بنحوه (٤١٣، ٥٠٧)، ومسلم في صحيحه. كتاب البر والصلة والأدب باب صلة الرحم =

قال النووي - رحمه الله - في شرح الحديث: (حقيقة الصلة العطف والرحمة، فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفه بهم، ورحمته إياهم، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته)[١].

كما وقد حذر عليه الصلاة والسلام من سوء عاقبة القاطع، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا يدخل الجنة قاطع»[٢].

وقد وضح النووي - رحمه الله - المراد من هذا الحديث فقال: (وهذا الحديث يتأول بتأويلين في كتاب الإيمان: أحدهما: حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة، مع علمه بتحريمها، فهذا كافر يخلد في النار، ولا يدخل الجنة أبدًا. والثاني: معناه: ولا يدخلها في أول الأمر مع السابقين، بل يعاقب بتأخيره القدر الذي يريده الله تعالى)[٣].

ومن خلال هذه الآيات والأحاديث السابقة يتبين أنه لا خلاف في أن صلة الرحم واجبه في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة[٤]، لهذا حين حرص

=

وتحريم قطيعتها برقم (٦٥١٩) بمثله (١١٢٦). موسوعة الحديث الشريف، السنة لابن عاصم (٢٤٧).

(١) المنهاج (١٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب. باب من إثم القاطع برقم (٥٩٨٤) بمثله (٥٠٧)، ومسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والأدب. باب صلة الرحم وتحريم قطعتها برقم (٦٥٢١) بمثله (١١٢٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج (١٨٣٥).

(٤) انظر: الزاهر للقرطبي (٢٩٩)، المنهاج للنووي (١٨٣٥)، الكبائر للذهبي (٨٩)، الزواجر للهيثمي (٢/ ١٠٧).

النبي ﷺ على التأكيد على وجوب وصل الأرحام، والتحذير من قطيعتهم، أكد في موضع آخر على أن حكم الوصل يتأكد في حق من لاقى من أرحامه قطيعة أو أذى، فقال - عليه الصلاة والسلام - حين جاءه صحابي يشكو له قطيعة رحمه له رغم وصله لهم، وإساءتهم له رغم إحسانه لهم، فقال له الرسول ﷺ: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك» [(١)].

قال النووي - رحمه الله -: (المل هو الرماد الحار، ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته، وإدخالهم الأذى عليه، وقيل أيضًا معناه: إنك بالإحسان إليهم تخزيهم، وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك، وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم، كمن يسف المل)[(٢)].

والأحاديث الواردة عنه - عليه الصلاة والسلام - في الحث على صلة الرحم والترغيب بها، كثيرة، ولا عجب في ذلك، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - مثالاً يحتذى به في صلة الرحم، والإحسان إليهم، وقد سادت هذه الخصلة الجاهلية في هذا العصر مجتمعات أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فالناظر إلى مجتمعاتهم في العصر الحديث يتجلى له التفكك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر والصلة والأدب. باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها برقم (٦٥٢٥) بمثله (١١٢٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٨٣٥).

الحاصل في علاقاتهم الأسرية القريبة منها، والبعيدة، حيث سادت مجتمعاتهم القطيعة للأرحام، والعقوق للوالدين، فنسأل الله العافية.

ولا عجب في ذلك في حق من حاربوا الله ورسوله، وأصروا على قطع صلتهم بالله.

ولكن يحزن المرء حين تعم هذه الخصلة مجتمعات المسلمين، الذين يعلمون ما جعل الله ورسوله للأرحام من حقوق وواجبات، ومع هذا يتغافلون عن ذلك، حتى أصبح البعض منا يشهد في هذا الزمن الحاضر وقوع قطيعة بين بعض الأرحام تصل إلى عشرات السنوات. فنسأل الله العافية لنا ولهم.

❊ ❊ ❊

المسألة التاسعة والسبعون بعد المائة
أنهم يتسرولون ولا يأتزرون فقال:
(تسرولوا واتزروا وخالفوا أهل الكتاب)[١]

يبيّن المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب أنهم يلبسون السراويل ولا يلبسون الإزار.

والمراد بالإزار: هو الملحفة، وهو ما يستر أسافل البدن من اللباس[٢].

لقد كان من زي أهل الكتاب أنهم يلبسون السراويل ولا يلبسون الإزار، والدليل على ذلك (سؤال أبي أمامة[٣] رضي الله عنه للنبي ﷺ حين أمرهم - عليه الصلاة والسلام - بمخالفة أهل الكتاب، فقال أبو أمامة: يا رسول الله إن أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون؟ فقال رسول الله ﷺ: «تسرولوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب...»)، قال أحد العلماء في المراد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٦٣٩) بمثله مطولاً (١٦٣١) قال شعيب: إسناده صحيح، وقال صاحب كتاب الآداب الشرعية محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي: إسناد هذا الحديث جيد، والقاسم وثقه الأكثرون، وحديثه حسن (٨٥٣).

(٢) انظر: لسان العرب (٤/ ١٦)، القاموس المحيط (١/ ٣٧٧)، التعاريف: لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي. ت: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر. بيروت. دمشق، (ط١)، ١٤١٠هـ، (٥٢).

(٣) هو صُديّ بالتصغير ابن عجلان بن الحارث الباهلي، أبو أمامة، مشهور بكنيته، روى أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، وكان ممن بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة، توفي عام (٨٦هـ). انظر: الإصابة (٦٠٦).

بقوله إن أهل الكتاب: «يتسرولون ولا يأتزرون» (أي يلبسون السروايل، ولا يلبسون الإزار)[١].

وقال أحد أهل العلم في شرح الحديث: (إن في هذا الحديث إذن بلبس السراويل، وإن مخالفة أهل الكتاب تحصل بمجرد الاتزار)[٢].

فحين ذُكر للنبي ﷺ أن من زي أهل الكتاب التسرول من دون اتزار، عمد - عليه الصلاة والسلام - إلى الحث على مخالفتهم في ذلك فقال: «تسرولوا واتزروا»، ومن ثم نص - عليه الصلاة والسلام - على مراده من ذلك، وهو القصد في مخالفتهم فقال: «وخالفوا أهل الكتاب».

وكما حرص النبي ﷺ في هذا الحديث على مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة بالنص عليها، كذلك حرص على مخالفتهم في هذه الخصلة وفي غيرها من خصالهم ضمن نص عام منع من خلاله كل ما من شأنه أن يورث التناسب والتشاكل عند مشابهتهم، فقال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا من مشابهتهم: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان ذلك: (قد بعث الله محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل

---

(١) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، ترتيب وتأليف: أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار الشهاب. القاهرة، (١٧/ ٢٣٧).

(٢) نيل الأوطار (٢/ ١٠٢).

(٣) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

المغضوب عليهم والضالين، فأمن بمخالفتهم في الهدي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور، منها: أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب، وأسباب الضلال، ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر، توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهرًا، بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين)[(١)].

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية قد انتشرت في هذا العصر الحاضر لدى الكثير من المسلمين، فنجد الكثير من أبناء المسلمين قد اقتصروا على لبس السراويل الأفرنجية، وهي ما تُعرف الآن باسم البنطال.

وقد قال علماؤنا رحمهم الله عن حكم ذلك: (قد وردت أحاديث كثيرة تصرح بالأمر بمخالفة أهل الكتاب في لباسهم، وفي تحريم ثياب الكفار على المسلمين، وقد دلت هذه الأحاديث على المنع من لبس ملابس أعداء الله تعالى... وكالاقتصار على لبس البنطلونات، والقمص القصار، وغير ذلك من زي أعداء الله تعالى، وملابسهم، لوجود علة النهي فيها)[(٢)].

* * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٦٤ – ٦٥).
(٢) الدرر السنية (١٥/ ٣٦٨ – ٣٦٩).

المسألة الثمانون بعد المائة

غسل أولادهم بماء المعمودية وصبغهم كما تفعله النصارى فأنزل الله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾[١]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة إحدى خصال أهل الجاهلية عند النصارى، وهي غسلهم لأبنائهم بماءٍ يطلقون عليه المعمودية؛ لتطهيرهم ولتنصيرهم حقًا. وذلك لاعتقادهم أن من لم يُعمد بالمعمودية فليس بنصراني، فهي آية التنصر عندهم.

وقد أكد النصارى على أهمية القيام بهذه الخصلة في مواضع عديدة من كتبهم، فقالوا عن ذلك: (تعمد يسوع، وخرج في الحال من الماء، وانفتحت السماوات له، فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينـزل عليه. وقال صوت من السماء: هذا هو النبي الحبيب الذي به رضيت)[٢]، وقيل أيضًا في ذلك: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس)[٣].

وقالوا إن المراد بالمعمودية: (هي طقس الغسل بالماء رمزًا للنقاوة والانخراط في سلك طائفة ما، وقد تبنى يسوع هذا الطقس، وجعله فريضة

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٣٨).

(٢) انظر: إنجيل متى (٣: ١٦)، إنجيل مرقس (١: ٩ – ١١)، إنجيل لوقا (٣: ٢١ – ٢٢).

(٣) انظر: إنجيل متى (٢٨: ١٩)، إنجيل مرقس (١٦: ١٤ – ١٨)، إنجيل لوقا (٢٤: ٣٦ – ٤٩)، إنجيل يوحنا (٢٠: ١٩ – ٢٣)، كتاب أعمال الرسل (١: ٦ – ٨).

في الكنيسة المسيحية، إذ أنه جعل التعميد بالماء باسم الثالوث الأقدس علامة على التطهير من الخطيئة، والنجاسة وعلى الانتساب رسميًا إلى كنيسة المسيح، والمعمودية في العهد الجديد تشبه الختان في العهد القديم)[(١)].

والمراد من قولهم (تشبه الختان في العهد القديم) أي في الهدف من ذلك فقط، الذي من أجله أقام النصارى بالمعمودية، وقام اليهود بالختان، وهو التطهير والانتساب للدين.

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عن المعمودية: (كان النصارى إذا وُلد لهم ولد، فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال لهم ماء المعمودية، فصبغوه بذلك ليطهروا به مكان الختان، لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك، قالوا: الآن صار نصرانيًا حقًا)[(٢)].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية من النصارى في هذه الخصلة، فاستدل المؤلف - رحمه الله تعالى - على ذلك بالآية التي أبطل فيها الشارع هذه الخصلة، وذلك بالنص على أن دين الإسلام هو الدين الحق، الذي به

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٦٣٧).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٤٠)، وللاستزادة. انظر: التفسير الكبير (٢/ ٧٥)، فتح الباري (٨/ ١٦١)، الإعلام بما في دين النصارى (٤٠٣)، الاقتضاء (٣٣٦)، تحفة المودود (١٦٣)، البدء والتاريخ (٤/ ٤٦)، المسيحية النصرانية دراسة وتحليل. ساجد مير. دار السلام. الرياض (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م (١٣٧)، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د. سعود الخلف (٣٤٣)، المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيادة، وحامد عبد القادر، ومحمد على النجار. المكتبة الإسلامية. استطنبول - تركيا، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، (٦٢٦).

ينال العباد كل ما يرمون إليه من الطهارة القلبية، والبدنية، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾(١).

قال قتادة - رحمه الله -: (إن اليهود تصبغ أبناءهم يهودًا، وإن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى؛ وإن صبغة الله الإسلام، وقال قتادة ومجاهد رحمهما الله: والصبغة الدين. وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمُّونه المعمودية، ويقولون: هذا تطهير لهم، فرد الله عليهم بأن صبغة الله أحسن صبغة، وهي الإسلام)(٢).

ولأن دين الإسلام هو الملة الحنيفية التي بها تتطهر القلوب، والأبدان، نص الشارع على بطلان ما سواه من دين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾(٣)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٤).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره للآية: (أي من يطلب دينًا غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه)(٥).

فالطهارة القلبية حاصلة بأن يدين العبد لله بالملة الحنيفية التي تربى القلوب على الإخلاص لله تعالى، وعلى عبادته وحده لا شريك له، قال

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٣٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٤٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٩).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٥) تفسير الطبري (٣/ ٣٣٧).

تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

قال مجاهد - رحمه الله - في المراد بقوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي: (الإسلام)(٢).

كما وقد خالفهم الشارع في هذه الخصلة حين بيّن أن الطهارة من الذنوب والخطايا حاصلة بالتوبة له تعالى، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾(٣).

وخالفهم كذلك في هذه الخصلة حين بيّن أن طهارة الأبدان حاصلة بالوضوء، والغسل، والتيمم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ

(١) سورة الروم، الآية: (٣٠).
(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣).
(٣) سورة الفرقان، الآيتان: (٧٠ – ٧١).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

كذلك خالفهم الشارع حين شرع لذكور هذه الأمة الختان، وجعله من علامات دين الحنيفية، وقد ذكرت الأدلة على ذلك في موضع سابق[٢].

هذا وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي النصارى في هذه الخصلة حين بيّن أن الدين الحق هو الإسلام؛ وأن مفتاح الدخول إليه بالنطق بالشهادتين والعمل بهما كما ورد في حديث أركان الإسلام، وحديث جبريل - عليه السلام -، وحديث معاذ - رضي الله عنه - حين بعثه لليمن.

كذلك خالفهم في هذه الخصلة حين حث أمته على المواظبة على تطهير قلوبهم وأعمالهم من الشرك، وذلك من خلال الأحاديث التي حمى فيها النبي ﷺ جانب التوحيد، والتي حث فيها على سلامة القلوب والأعمال من الريا، والعجب...، كذلك حرص على تطهير القلوب من خلال الأحاديث التي نهى فيها عن الحسد، والغل، والتي دعا فيها إلى المحبة والتواصل.

خالفهم كذلك حين حث أمته على تطهير أبدانهم في أحاديث كثيرة ومختلفة، حث فيها على الوضوء، والغسل، والتيمم، والختان، والعقيقة... وغيرها من الأعمال التي تُطهر بها الأبدان... والتي تُعد شعارًا لدين الفطرة دين الحنيفية، والتي بها تزكو القلوب، والأبدان معًا.

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٦).

(٢) انظر: المسألة الثانية والأربعون.

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (إن صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته، ومحبته، والإخلاص له، وعبادته وحده لا شريك له، وصبغت الأبدان بخصال الفطرة من الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، والاستنجاء، فظهرت فطرة الله على قلوب الحنفاء وأبدانهم)[١].

* * *

(١) تحفة المودود (١٦٤).

المسألة الحادية والثمانون بعد المائة
عبادة الصليب وتعظيمه

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية عند النصارى عبادتهم للصليب، وتعظيمهم له، زعمًا منهم أنه الوسيلة التي من خلالها خلص عيسى عليه السلام آدم وذريته من عذاب الجحيم عندما صلب عليه.

لهذا فهو في نظر النصارى عبادةٌ تبعث في نفوسهم الفخر والاعتزاز.

وها هي بعض من أقوالهم الدالة على ذلك: (فلن أفاخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح. به صار العالم مصلوبًا بالنسبة إلي، وصرت أنا مصلوبًا بالنسبة إلى العالم)[١]. وقالوا أيضًا: (فالمسيح هو سلامنا، جعل اليهود وغير اليهود شعبًا واحدًا، وهدم الحاجز الذي يفصل بينهما أي العداوة، وألغى بجسده شريعة موسى بأحكامها ووصاياها ليخلق في شخصه من هاتين الجماعتين، بعدما أحل السلام بينهما، إنسانًا جديدًا، ويصلح بينهما وبين الله بصليبه، فقضى على العداوة، وجعلهما جسدًا واحدًا) [٢].

والمراد بالصليب: هو كل ما كان على شكل خطين متقاطعين من خشب، أو معدن، أو نقش، أو غير ذلك، وهو عند النصارى الخشبة التي

---

(١) رسالة القديس بولس الرسول إلى كنائس غلاطية (٦: ١٤).

(٢) رسالة القديس بولس الرسول إلى كنيسة أفسس (٢: ١٤ - ١٥ - ١٦).

يزعمون أن عيسى - عليه السلام - قد صلب عليها[١].

إن عبادة النصارى للصليب، وتعظيمهم له من شعائر الكفر التي أحدثها النصارى وابتدعوها بعد عيسى - عليه السلام -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (إن تعظيم النصارى للصليب، واستحلالهم لحم الخنـزير، وامتناعهم عن الختان... كلها شرائع أحدثوها، وابتدعوها بعد المسيح عليه السلام، ودان بها أئمتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها)[٢].

وقال أيضًا الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير، حتى تناسخ واضمحل، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء، بل ركّبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُباد الأصنام... فلم يُعظم المسيح عليه السلام صليبًا قط، فعظَّموا هم الصليب وعبدوه... زعمًا منهم أن هذا الصليب هو الذي صلب عليه إلههم وربهم)[٣].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية النصارى في هذه الخصلة الجاهلية، وذلك بإبطال قدسية الصليب التي يزعمونها، وذلك من خلال إبطال حادثة صلب المسيح - عليه السلام - بنص صريح، قال فيه تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾[٤].

---

(١) المعجم الوسيط (٥١٩).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٢١٧)، (٢/ ٢٦٣ - ٥٢٦).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٢١٠ - ٢٢٩)، وللاستزادة انظر. هداية الحيارى (١٥، ١٨٣).

(٤) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

كما وقد كذبهم الشارع - عز وجل - على لسان عيسى - عليه السلام - في جميع ما يزعمونه من شعائر الكفر الظاهرة، والباطنة التي ينسبونها لعيسى - عليه السلام - في قوله تعالى عن عيسى - عليه السلام -: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

وقد جاءت نصوص كثيرة أمر فيها الشارع - عز وجل - عباده بأن يعبدوه وحده لا شريك له، مما يدل على بطلان عبادة كل ما سواه، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢).

قال الطبري - رحمه الله -: والمراد بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾: أي (تنزيهًا وتطهيرًا لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته)(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾(٤)، وقال أيضًا عز من قائل: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٥)، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: (١١٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٣٥٥).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (٢٣).

(٥) سورة الزمر، الآيتان: (١١، ١٢)

لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - في بيان المراد بالآية: (أي وما أمر الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك)(٢).

كما وقد خالف هدي نبينا محمد ﷺ هدي النصارى في هذه الخصلة ضمن الخبر الذي أخبر به هذه الأمة عليه الصلاة والسلام بنص صريح يشهد على كذب وبهتان النصارى في عبادتهم للصليب، وتعظيمهم له، حين قال - عليه الصلاة والسلام -: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنـزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» (٣).

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (والمراد من قوله - عليه الصلاة والسلام -: «فيكسر الصليب» أي: يكسره حقيقة، ويبطل ما يزعمه النصارى من تعظيمه، وفيه دليل على تغيير المنكرات وآلات الباطل)(٤).

وقد منع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - النصارى من إظهار الصليب في البلاد التي تقع تحت حكم المسلمين، وكان ذلك ضمن شروطه

(١) سورة البينة، الآية: (٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٦٥٦).

(٣) سبق تخريجه ص(٧٨٥).

(٤) المنهاج (٢٣٨)، وللاستزادة انظر: فتح الباري (٦/ ٤٩١).

التي اشترطها على أهل الذمة من النصارى وغيرهم.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (كان الصليب من شعائر الكفر الظاهرة، وكانوا ممنوعين من إظهاره، فقيل: (ولا يرفعوا صليبًا...) لأن إظهار الصليب بمنزلة إظهار الأصنام؛ فإنه معبود النصارى، كما أن الأصنام معبود أربابها، ومن أجل هذا يسمون عبّاد الصليب، ولا يمكنون من التصليب على أبواب كنائسهم وظواهر حيطانهم، ولا يتعرض لهم إذا نقشوا ذلك داخلها)[(١)].

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية والتي تُعد إحدى علامات الكفر، ما تزال موجودة حتى هذا العصر عند النصارى، فها هي كنائسهم مملوءة من هذه الصلبان، بل ويتقلدونها في أعناقهم، ويقلدونها أبناءهم.

ولكن مما يحزن له المرء أنه قد وجد بعض من البلاد الإسلامية قد سمحت لهؤلاء النصارى أن يقيموا لهم الكنائس المملوءة بهذه الصلبان، ليمارسوا عبادتهم لها، بل وسمحوا لهم بأن يظهروا هذه الصلبان على ثيابهم وفي أعناقهم، وقد تجاوز الأمر ذلك إلى المتاجرة بها من خلال ابتياعها عليهم وعلى أبناء المسلمين أيضًا.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن خياط خاط للنصارى سير حرير فيه صليب ذهب، هل يأثم على ذلك فقال - رحمه الله -:

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧١٩)، وللاستزادة انظر: الرسائل والمسائل (٢/ ٣٣٩)، واقتضاء الصراط المستقيم (٢١٧)، الفتاوى (٢٨/ ٦٥٢)، الجواب الصحيح (١/ ١٨٨)، تاريخ دمشق، (٢/ ١٢١ - ١٧٨ - ١٧٩).

(نعم! إذا أعان الرجل على معصية الله كان آثمًا؛ لأنه أعان على الإثم والعدوان، فقد لعن النبي ﷺ الإعانة على المعاصي، كلعنه لعاصر الخمر، فكيف بالإعانة على الكفر وشعائر الكفر.

فالصليب لا يجوز عمله بأجر، ولا غير أجر، ولا بيعه صليبًا، كما لا يجوز بيع الأصنام، ولا عملها، فصانع الصليب ملعون لعنه الله ورسوله)(١).

وقال جمعٌ من أهل العلم عن حكم صنع الصليب: صنع الصليب حرام، سواء كان مجسمًا أم نقشًا، أم رسمًا أو غير ذلك، على جدار، أو فراش أو غير ذلك، ولا يجوز إدخاله مسجدًا، ولا بيوتًا، ولا دور تعليم من مدارس ومعاهد ونحو ذلك. ولا يجوز الإبقاء له، بل يجب القضاء عليه، وإزالته بما يذهب بمعالمه من كسر ومحو وطمس وغير ذلك، ولا يجوز بيعه، ولا الصلاة عليه (٢).

* * *

(١) الفتاوى (٢٢/ ١٤١ – ١٤٢).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (٣/ ٤٣٨).

المسألة الثانية والثمانون بعد المائة
ذبح الفرعة
المسألة الثالثة والثمانون بعد المائة
ذبح العتيرة فنفى ذلك كما في الصحيح لا فرع ولا عتيرة[١]

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هاتين المسألتين أن من خصال أهل الجاهلية الأميين أنهم كانوا يوجبون على أنفسهم ذبح الفرعة والعتيرة لطواغيتهم؛ طلبًا للبركة، وكثرة النسل.

والفرعة هي: أول نتاج الإبل والغنم، فقد كان أهل الجاهلية يذبحونه لآلهتهم، ولا يملكونه، رجاء البركة في الأم، وكثرة نسلها[٢].

والعتيرة هي: ذبيحة كان أهل الجاهلية يذبحونها في العشر الأول من رجب، يتقربون بها لأصنامهم، ويسمونها الرجبية؛ وقيل أيضًا هي: نذر كانوا ينذرونه؛ من بلغ ماله كذا أن يذبح من كل عشرة منها رأسًا في رجب، وقيل أيضًا: هي ما كان الرجل يقوله في الجاهلية من أن إبله إذا بلغت مائة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأطعمة. باب الفرع برقم (٥٤٧٣) بمثله، وباب العتيرة برقم (٥٤٧٤) بمثله (٤٧١)، ومسلم في صحيحه في كتاب الأضاحي. باب الفرع والعتيرة برقم (٥١١٦) بمثله (١٠٣٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٨٤)، المنهاج (١٥٠٤)، فتح الباري (٩/ ٥٩٧)، عون المعبود (١٢٠٩)، نيل الأوطار (٥/ ٢٣٤)، الفتح الرباني (١٣/ ١٢١)، بلوغ الأرب (٣/ ٤٠)، لسان العرب (٨/ ٢٤٨).

عتر منها عتيرة في رجب[١].

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في صفة ذبحهم للفرع والعتيرة؛ حيث وردت عنه أحاديث عدة نص فيها عليه الصلاة والسلام على الجوانب التي تحصل فيها المخالفة لأهل الجاهلية في صفة ذبحهم للفرع والعتيرة.

فتارةً يكون بنفي وجوبهما، وتارةً بالتشديد على المراد من ذبحهما أن لا يكون لغير الله، وتارةً بنفي تخصيص ذبح العتيرة بشهر رجب، وتارةً بنفي ذبح الفرع أول ولادته.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بحديث النبي ﷺ الذي خالف فيه أهل الجاهلية في صفة ذبحهم للفرع والعتيرة، والذي قال فيه - عليه الصلاة والسلام -: «لا فرع ولا عتيرة»[٢]. والفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم، والعتيرة في رجب[٣].

وقد توافقت مدلولات أقوال العلماء أنه لا يراد من نفي النبي ﷺ للفرع والعتيرة في هذا الحديث إبطالهما من أصلهما، وأجابوا عن مراد النفي

---

(١) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٨٤)، المنهاج (١٥٠٤)، فتح الباري (٩/ ٥٩٧)، عون المعبود (١٢٠٩)، نيل الأوطار (٥/ ٢٣٤)، الفتح الرباني (١٣/ ١٢١)، نهاية الأرب (٣/ ١٢٠)، بلوغ الأرب (٣/ ٤٠)، لسان العرب (٤/ ٥٣٧)، مختار الصحاح (٣٧٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٨٨٤).

(٣) زيادة في صحيح البخاري في كتاب الأطعمة. باب الفرع وفي باب العتيرة (٤٧١). موسوعة الحديث الشريف.

الوارد في هذا الحديث للفرع والعتيرة بثلاثة أوجه: أحدها: أن المراد نفي الوجوب، أي لا فرع واجب، ولا عتيرة واجبة، والثاني: أن المراد نفي ما كان أهل الجاهلية يذبحونه لطواغيتهم، الثالث: أنهما ليسا كالأضحية في الاستحباب[(١)].

وقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - حديثان نص فيهما على إباحة ذبح الفرع والعتيرة على صفةٍ تخالف ذبح أهل الجاهلية لهما. وذلك حين سأل رجلٌ النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله، إنا كنا نعتر عتيرة في الجاهلية في رجب، فما تأمرنا؟ فقال له النبي ﷺ: «اذبحوا لله في أي شهر كان، وبروا الله وأطعموا، ثم قال الرجل: وإنا كنا نفرع فرعًا في الجاهلية فما تأمرنا؟ قال: في كل سائمة فرع تغذوه ما شيتك حتى إذا استحمل ذبحته فتصدقت بلحمه»[(٢)].

قال أهل العلم والمراد بهذا الحديث: أي اذبحوا لله، واذبحوا إن شئتم،

---

(١) انظر: المنهاج (١٥٠٥)، فتح الباري (٩/ ٥٩٧)، عون المعبود (١٢٠٩)، الفتح الرباني (١٣/ ١٢٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠٩٩٨، ٢١٠٠٤) بمثله، وبرقم (٢١٠٠٣) بنحوه (١٥٠٣)، والنسائي سننه الكبرى كتاب الفرع والعتيرة في باب تفسير العتيرة برقم (٤٥٥٤، ٤٥٥٥، ٤٥٥٦) بمثله، وفي باب تفسير الفرع برقم (٤٥٥٧، ٤٥٥٨) بمثله (٣/ ٨٠ - ٨١)، وفي سنن أبي داود، كتاب الضحايا، باب في العتيرة برقم (٢٨٣٠) بمثله (١٤٣٤)، وسنن النسائي الصغرى، كتاب الفرع والعتيرة. باب تفسير العتيرة برقم (٤٢٣٣، ٤٢٣٤) بمثله (٤٢٣٥) بمثله، وفي باب تفسير الفرع برقم (٤٢٣٦، ٤٢٣٧) بمثله (٢٣٦٥)، موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

واجعلوا الذبح في رجب وغيره سواء(١).

كما قد ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الفرع؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: «والفرع حق، وإن تتركوه حتى يكون بكرًا شغزبًا(٢) ابن مخاض، أو ابن لبون فتعطيه أرملة، أو تحمل عليه في سبيل الله خير من أن تذبحه فيلزق لحمه بوبره، وتكفي إناءك، وتوله ناقتك»(٣).

قال بعض أهل العلم عن مراد النبي ﷺ في هذا الحديث: أراد النبي ﷺ في هذا الحديث إخبار الصحابة - رضي الله عنهم - أنه لا كراهة عليهم في ذبح الفرع، ولكن أمرهم استحبابًا أن يتركوه حتى يكبر، وينتفعوا بلحمه، أو أن يغذوه ثم يحمل عليه في سبيل الله خير لهم من أن يذبحوه فينقطع لبن أمه(٤).

وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن في كلا هذين الحديثين السابقين دلالة نصية على أن النبي ﷺ لم يبطل الفرع والعتيرة من أصلهما، وإنما أبطل صفة من كل منهما، فمن العتيرة خصوص الذبح في شهر رجب، وفي الفرع كونه يُذبح أول ما يولد، وكون الذبح في كل منهما لغير الله تعالى(٥).

---

(١) انظر: المنهاج (١٥٠٥)، عون المعبود (١٢٠٩)، الفتح الرباني (١٣/ ١٢٠).

(٢) شغب: هو الذي اشتد لحمه وغلظ. انظر: النهاية في غريب الأثر (٢/ ٤٨٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٧٥٩) بمثله (٤٨٥)، وأبو داود في سننه في كتاب الضحايا. باب في العقيقة برقم (٢٨٤٢) بمثله، وزيادة في أوله (١٤٣٥) موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(٤) انظر: عون المعبود (١٢١٣)، الفتح الرباني (١٣/ ١٢٠).

(٥) انظر: عون المعبود (١٢١٣)، فتح الباري (٩/ ٥٩٧)، الفتح الرباني (١٣/ ١٢٠)، بلوغ الأرب (٣/ ٤١).

وقد خلص العلماء - رحمهم الله - إلى أن حكم الفرع، والعتيرة جائزة، وليست بمكروهة، فأدلة النفي دلت على نفي الوجوب، ونفى أنهما سنة، وأدلة الإباحة دلت على جواز فعلها[١]. والله أعلم.

فقد ثبت بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة بأن الذبح عبادة لا تكون إلا لله وحده، فهو من أجل العبادات، وأكبر الطاعات، لذا كان الذبح لغيره تعالى شركًا أكبر مخرج عن دائرة الإسلام.

فقال تعالى مخالفًا أهل الجاهلية في مرادهم في ذبائحهم ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (أي قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام: إن صلاتي وذبحي، وحياتي، ووفاتي ذلك كله لله رب العالمين، خالصًا دون ما أشركتم به أيها المشركون من الأوثان)[٣].

وقد أمر تعالى في موضع آخر من كتابه بأن يكون الذبح له، فقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[٤] . قال الطبري - رحمه الله -: (أي أجعل نحر

---

(١) المغني (١٣/ ٤٠٢).

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: (١٦٢، ١٦٣).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٤٢٠).

(٤) سورة الكوثر، الآية: (٢).

البدن له تعالى دون الأوثان)[١].

وفي مقابل هذه النصوص التي نص فيها الشارع على مخالفة أهل الجاهلية في مراد ذبائحهم، جاءت نصوص أخرى تنص أيضًا على مخالفتهم بتحريم كل ما ذبح لغير الله. فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾[٢].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية: (أي ما ذبح للطواغيت)[٣].

وقد حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في مراد عامة الذبائح بعبارات صريحة ومختلفة، إما بالنص ابتداءً على أن يكون مراد الذبح خالصًا لله، أو على الوعيد الشديد لمن ذبح لغير الله. فقد أمر النبي ﷺ بأن يكون الذبح لله كما في الحديث السابق الذي سئل فيه النبي ﷺ عن العتيرة فقال: «اذبحوا لله» [٤] قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (أي اجعلوا الذبح لله)[٥].

وفي نص آخر توعد النبي ﷺ من ذبح لغير الله بالإبعاد عن رحمة الله،

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٧٢٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٧٣).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٩٠).

(٤) سبق تخريجه ص(٨٨٥).

(٥) المنهاج (١٥٠٥).

فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لعن الله من ذبح لغير الله...»[(١)].

والمراد باللعن هو الطرد عن رحمة الله.

قال النووي - رحمه الله -: (أي من ذبح باسم غير الله تعالى، ومن ذبح للصنم أو الصليب.. فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة)[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (كان الكافرون تارة يسمون آلهتهم على الذبائح، وتارة يذبحونها قربانًا لهم، وتارة، يجمعون بينهما، وكل ذلك - والله أعلم - يدخل فيما أهلّ لغير الله به)[(٣)].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الأضاحي. باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله برقم (٥١٢٤، ٥١٢٥، ٥١٢٦) بمثله وزيادة في أوله (١٠٣١). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (١٥٠٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٦٥).

المسألة الرابعة والثمانون بعد المائة
التسمي بالأسماء المستكرهة كما غير اسم عاصية(١) وقال: بل أنت جميلة(٢)

المسألة الخامسة والثمانون بعد المائة
التسمي بما فيه تزكية، فنهى عنه كما كانت زينب(٣) تسمى برة فسميت زينب، وكذلك جويرية(٤)

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هاتين المسألتين خصلتين من خصال

(١) هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، أخت عاصم زوج عمر، تكنى أم عاصم كان اسمها عاصية، فسماها رسول الله ﷺ جميلة، تزوجها عمر سنة ٧هـ ولدت له عاصمًا ثم طلقها، ثم تزوجت يزيد بن الحارث. انظر: الإصابة (١٦٥٦).عمر سنة ٧هـ ولدت له عاصم ثم طلقها، ثم تزوجت يزيد بن الحارث. اصية فسماها رسول الله وأفلح، وبرة، فحين يقال إثم هو؟

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تغير الاسم القبيح إلى حسن، وتغير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما برقم (٥٦٠٤، ٥٦٠٥) بمثله (١٠٦٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) هي زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، تزوجها النبي سنة ٣هـ، وكانت قبله عند مولاه زيد ابن حارثة، كان اسمها برة فسماها النبي ﷺ زينب عندما دخل عليها، كانت صوامة قوامة، وهي أول من لحقت بالنبي ﷺ بعد وفاته من زوجاته. توفيت سنة ٢٠هـ. انظر: الإصابة (١٦٩٥).

(٤) هي جويرية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية من بني المصطلق، وقعت في السبي حين غزا النبي ﷺ بني عبد المصطلق في غزوة المريسيع، فتزوجها النبي ﷺ، فكان زواجها بركة على قومها أن اعتقوا جميعهم بزوجها، كان اسمها برة فسماها النبي ﷺ جويرية. توفيت سنة (٥٠هـ). انظر: الإصابة (١٦٦٠).

أهل الجاهلية الأميين عند العرب في تسميتهم لأبنائهم، فقد كان من مذاهبهم في ذلك التسمي بأسماء مكروهة وقبيحة، كالتسمية بأسماء السباع: كذئب، وضرغام، ونحوها من أسماء السباع ترهيبًا لأعدائهم، أو التسمية بما غلظ، وخشن من الأجسام: كالعاصية، وحجر، وصخر تفاؤلاً بالقوة.

كما كان من مذاهبهم في التسمية التسمي بأسماء حسنة تتضمن التزكية عند الإثبات، والطيرة عند النفي؛ كرباح، وأفلح، وبرة، فحين يقال أثَمَّ هو؟ فعند نفي وجود صاحبها يقال: لا أفلح، ولا برة، ولا رباح؛ وعند إتيان وجود صاحبها يقال: نعم رباح، هو أفلح، خرج من عند برة[١].

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية الأميين في تسميتهم لأبنائهم، فغيَّر كثيرًا من الأسماء المكروهة إلى أسماء حسنة، وأسماءً حسنة إلى غيرها اجتنابًا؛ لئلا يتطير بها عند النفي، أو لتضمنها تزكية النفس عند الإثبات.

فقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه غيَّر اسم عاصية، وقال: «أنت جميلة»، كما ورد «أن جويرية كان اسمها برة، فحول رسول الله ﷺ اسمها جويرية، وكان يكره أن يقال: خرج من عند برة»[٢]، «كما ورد أن

---

(١) للاستزادة انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٦، ٢٤٩)، تحفة المودود (١١٠، ١١٣)، بلوغ الأرب (١٩٣، ١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الآداب. باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم بره إلى زينب وجويرية ونحوها برقم (٥٦٠٦) بمثله (١٠٦٠). موسوعة الحديث الشريف.

رسول الله ﷺ غير اسم برة وسماها زينب وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم» (١).

وقد ورد أيضًا أن نفرًا أتوا النبي ﷺ وكان معهم رجلٌ يقال له أصرم، فقال له النبي ﷺ: «ما اسمك قال: أنا أصرم، قال: بل أنت زرعة» (٢). هذا وقد نهى - عليه الصلاة والسلام - عن التسمي ببعض الأسماء المكروهة، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «ولا تسمين غلامك يسارًا، ولا رباحًا، ولا نجيحًا، ولا أفلح، فإنك تقول: أثم هو؟ فلا يكون، فيقول: لا» (٣).قال الخطابي - رحمه الله - في معني الحديث: لقد بيّن النبي ﷺ المعنى في ذلك، وذكر العلة التي من أجلها وقع النهي عن التسمية بيسار، ورباح... ذلك لأنهم إنما كانوا يقصدون بهذه الأسماء وبما في معانيها إما التبرك بها، أو التفاؤل بحسن ألفاظها، فحذرهم أن يفعلوه لئلا ينقلب عليهم ما قصدوه في هذه التسميات إلى الضد، وذلك إذا سألوا، فقالوا: اثم يسار أثم رباح، فإذا قيل: لا، تطيروا بذلك وتشاءموا به، وأضمروا على

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه برقم (٦١٩٢) بنحوه (٥٢٢)، ومسلم في صحيحه. كتاب الآداب. باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما برقم (٥٦٠٧، ٥٦٠٨) بنحوه، وبرقم (٥٦٠٩) بمثله (١٠٦٠). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب. باب في تغيير الاسم القبيح برقم (٤٩٥٤) بمثله (١٥٨٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الآداب. باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه برقم (٥٥٩٩، ٥٦٠٠، ٥٦٠٣) بنحوه، وبرقم (٥٦٠١) بمثله وزيادة في أوله (١٠٥٩). موسوعة الحديث الشريف.

الإياس من اليسر والرباح، فنهاهم عن السبب الذي يجلب لهم سوء الظن بالله سبحانه، ويورثهم الإياس من خيره)[١].

وقال النووي - رحمه الله - أيضًا: (ومن معنى هذه الأحاديث يكره أن يسمى باسم قبيح، فإن سمي باسم قبيح غيره)[٢].

وكما جاءت الأحاديث السابقة لتدل على حرص النبي ﷺ على تغيير الأسماء القبيحة إلى حسنة، وتغيير الأسماء الحسنة المتضمنة لتزكية النفس إلى أحسن منها، كذلك جاءت أحاديث أخرى عنه - عليه الصلاة والسلام - أرشد فيها أمته إلى أحب الأسماء إلى الله تعالى، أسماء تضمنت معاني العبودية لله تعالى، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»[٣]، كما أرشدهم - عليه الصلاة والسلام - إلى أسماءٍ اشتملت على معانٍ سامية، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «... وأصدقها حارث وهمام...»[٤]. قال بعض أهل العلم في شرحهم لهذا الحديث: لقد عد النبي ﷺ هذين الاسمين من أصدق الأسماء: لأن الأول بمعنى الكاسب، والثاني بمعنى فعال من همّ بالأمر يهم، إذا عزم عليه، وإنما كان أصدقها؛ لأنه ما من أحد إلا وهو يهم بأمر خيرًا كان أو شرًا[٥].

---

(١) معالم السنن (٤/ ١٢٨).

(٢) المنهاج (١٦٠٨)، والمجموع (٨/ ٣٢٥).

(٣) سبق تخريجه ص (٨٣٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٩٢٤١) بمثله (١٣٧٥)، أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الآداب، باب في تغيير الأسماء برقم (٤٩٥٠) بمثله (١٥٨٦)، قال الألباني: ضعيف.

(٥) انظر النهاية في غريب الأثر (٥/ ٢٧٣)، عون المعبود (٢١٢٩).

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله – عن ذلك: (كان النبي ﷺ يكره الاسم القبيح لأنه كان يتفاؤل بالحسن من الأشياء... وقد غيرَّ النبي ﷺ كثيرًا من الأسماء القبيحة بأحسن منها، وغير أسماء حسنة إلى غيرها خشية الطيرة والتأذي عند نفيها والخروج من عند المسمى، أو لتضمنها تزكية النفس ونحوها، فالأول كتغييره اسم الحباب إلى عبد الرحمن، فقال الحباب اسم الشيطان، والثاني كتغييره اسم برة بزينب، والثالث كتغييره أبا الحكم بأبي شريح، وبرة بزينب)(١).

وقال أيضًا - رحمه الله -: (ومن الأسماء التي يكره التسمي بها: أسماء الشياطين: كالأعور، والأجدع، والولهان، وكذلك أسماء الفراعنة والجبابرة: كفرعون، وقارون... وأسماء الملائكة: كجبرائيل، وميكائيل... والأسماء التي لها معان تكرهها النفوس ولا تلائمها: كحرب، ومرة، وكلب، وحية)(٢).

إلا أن هاتين الخصلتين الجاهليتين مازالتا حتى هذا العصر الحاضر، فقد ظهرت لدى الكثير من المسلمين ممن سموا أبناءهم وبناتهم بأسماء مكروهه وقبيحة. كوحش، وحنش، وعاصي، أو بأسماء حسنة تتضمن التزكية للنفس كأبرار، وإيمان، أو بأسماء الملائكة: كجبريل، بل والبعض منهم من لقب نفسه بأسماء الشياطين كالولهان، والأعور ونحوها. فالله المستعان.

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٩).

(٢) تحفة المودود (١١٠ – ١١٣).

المسألة السادسة والثمانون بعد المائة
إنكار الجن

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أن من خصال الجاهلية إنكار الجن.

فقد أنكر شرذمة قليلة من ملاحدة الفلاسفة والأطباء، وجماهير من متأخري القدرية، وكافة الزنادقة قديمًا وحديثًا[(١)]، وإحدى فرق[(٢)] اليهود وجود الجان والشياطين وجودًا حسيًا متميزًا، وقالوا إن المراد بالجان والشياطين قوى النفس الخبيثة وصفاتها، فلا وجود لهم في الخارج. وقد كان إنكارهم هذا مبنيًا على إنكارهم العقلي لكل ما هو خارجٌ عن دائرة الحس والمشاهدة؛ إذ لا يؤمنون إلا بما هو داخلٌ تحت دائرة الحس والمشاهدة[(٣)].

---

(١) انظر: عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة: د. عبد الكريم نوفان عبيدان. رسالة علمية بإشراف الشيخ عبد الرحمن ابن ناصر البراك. دار كنوز إشبيليا. الرياض (ط٣)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (١١٢).

(٢) هي فرقة الصادقيون (الصدوقيون) وهي إحدى فرق اليهود الرئيسة، اختلف في سبب تسميتها، فقيل إنها نسبة لكاهن اسمه صادق في عهد سليمان عليه السلام، وقيل: إن هذه النسبة غير صحيحه، ويسمون أهل العدل، وهم طبقة ارستقراطية ذات ثراء عريض، كما كان لهم فلسفات يرجع أصلها لفلسفات الإغريق. من عقائدهم إنكار جميع الغيبيات، من ضمنها الملائكة والجن، ولا يؤمنون بالبعث. انظر: قاموس الكتاب المقدس (٥٣٩)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم د. محمد علي البار. دار القلم دمشق، دار الشامية. بيروت (ط١)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، (٢٥٣).

(٣) انظر: التفسير الكبير (١٠/ ٦٦١)، تفسير القرطبي (١٩/ ٩)، شرح أصول الاعتقاد لأهل =

والمراد بالجن في اللغة: من جَنَّ الشيء يجنُّه جنا: ستره، وكل شيء سُتر عنك فقد جن عنك. يقال: جن عليه الليل: أي ستره، وبه سمي الجنُّ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار(١).

والجن في الاصطلاح: هم نوع من الأرواح العاقلة، المميزة المتعبدة، الموعودة والمتوعدة، يتناكحون ويتناسلون، يأكلون، ويشربون، ويموتون، مأمورون، ومنهيون، ومحاسبون على أعمالهم في الآخرة، مستترون عن الحواس، مجردون عن المادة، لا يُرون على طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقة، ولهم القدرة على التشكل، فليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعم الملاحدة(٢).

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في نصوص كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، أثبت فيها الباري خلقه للجان، وأصل خلقتهم، وسبب خلقه لهم لتكليفهم بعبادته تعالى، كما بيّن بعضًا من صفاتهم كالسمع، والكلام، والعقل... وغيرها من الأوصاف والأمور

=

السنة (٤/ ١٢٩١)، الفرق بين الفرق (١٣٠)، الإرشاد (٣٢٣)، الفتاوى (٤/ ٣٤٦)، (١٩/ ١٠، ٣٢)، (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨٢)، بدائع الفوائد (٢/ ٢٨٠)، آكام المرجان في أحكام الجان. لبدر الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الشبلي الحنفي. ت: إبراهيم محمد الجمل. مكتبة القرآن. مصر. القاهرة (١٩، ٢٢)، فتح الباري (٦/ ٣٤٣)، عالم الجن د. عبد الكريم عبيدان (١٠٨ – ١١٥).

(١) لسان العرب (١٣/ ٩٢).

(٢) انظر: الفصل في الملل والنحل (١٧٩)، المحلى (٥١)، الفتاوى (١٩/ ١٠)، آكام المرجان (٢٩ – ٣٧)، عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (٩).

الدالة على أنهم خلقٌ مستقل، فيهم المؤمن والكافر؛ لذا فظهور مثل هذه الخصلة يُعد مخالفة صريحة لأمرٍ ثابت بنصوص الكتاب والسنة التي لا ينكرها إلا إنسانٌ جاهلٌ أو معاند. فقال تعالى عن خلقه لهم والمادة التي خلقهم منها: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[٢] قال ابن عباس - رضي الله عنه -: في المراد بقوله تعالى: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ أي: (خلقت الجن من لهب النار من أحسن النار)[٣].

وقال تعالى عن سبب خلقه لهم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤]. قال ابن عباس - رضي الله عنه - في المراد بالآية: (أي ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا)[٥].

كما أنزل البارئ فيهم سورة كاملة وباسمهم، ذكر فيها البعض من صفاتهم، كالسمع والكلام، والبعض من أقوالهم، وأن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون فقال تعالى عن ذلك: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٢٧).

(٢) سورة الرحمن، الآية: (١٥).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٥٨٤).

(٤) سورة الذاريات، الآية: (٥٦).

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٤٧٦).

نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[١] ثم قال تعالى عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾[٢]، وقال أيضًا عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (أي منا المسلمون الذين خضعوا لله بالطاعة، ومنا الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل، فأولئك توقد بهم جهنم)[٤].

هذا وقد جاءت نصوص أخرى أكدت على وجود الجان من خلال دلالتها التي نصت على وقوع النكاح لديهم، فقال تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[٥] . قال الطبري - رحمه الله - أي: (لم يمسهن إنس قبل هؤلاء ولا جان)[٦].

وقد خالف هدي نبينا محمد ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة عبر نصوص كثيرة ومتواترة دلت على إثبات وجود الجان.

فقد أخبر النبي ﷺ عن الأصل الذي خُلق منه الجان، فقال - عليه

(١) سورة الجن، الآيتان (١، ٢).
(٢) سورة الجن، الآية: (١١).
(٣) سورة الجن، الآيتان: (١٤، ١٥).
(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٢٦٨).
(٥) سورة الرحمن، الآية: (٧٤).
(٦) تفسير الطبري (١١/ ٦٠٦).

الصلاة والسلام -: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (١).

قال النووي - رحمه الله -: (المارج هو اللهب المختلط بسواد النار)(٢).

كذلك ما ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - من نصوص دلت على أن الجان يأكلون ويشربون، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها، وقال له: «ولا تأتيني بعظم ولا روثة»، ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ بعد ذلك عن سرّ نهيه عن العظم والروثة، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جنِّ نصيبين، ونعِمَ الجنُّ! فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظمٍ ولا روثةٍ إلا وجدوا عليها طعمًا»(٣).

ومعلومٌ من الدين بالضرورة أن جميع النصوص الواردة في الكتاب والسنة المتعلقة بالأحكام والشرائع، والعقائد، والوعد والوعيد، تُعد خطابات شاملة خاطب فيها الشارع الإنس والجن على حد سواء الذكور منهم والإناث، وكل هذه دلالات متعددة دلت على إثبات وجود الجان.

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٣١).

(٢) المنهاج (٢٠٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الوضوء، باب الاستنجاء بالحجارة برقم (١٥٥) بنحوه، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن برقم (٣٨٦٠) بمثله (١٦، ٣١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن برقم (١٠٠٧) بنحوه (٧٤٩). موسوعة الحديث الشريف.

كما وقد أجمع كافة العلماء في عصر الصحابة والتابعين على إثبات وجود الجن والشياطين والاستعاذة بالله من شرورهم... فقد أخبرت الرسل الذين شهد الله - عز وجل - بصدقهم بوجود الجن في العالم، وجاءت النصوص بأنهم أمة أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، مأمورون منهيون، ينسلون ويموتون، فيهم المؤمن والكافر، يروننا ولا نراهم، يأكلون ويشربون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة. فمن أنكرهم أو تأول فيهم تأويلاً يخرجهم به عن الظاهر، فهو كافر مشرك حلال الدم والمال[1].

* * *

(١) انظر: المحلى (٥١)، الفصل في الملل والنحل (٣/ ١٧٩)، الإرشاد (٣٢٣)، الفتاوى (١٩/ ١٠ – ٣٢) (٢٤/ ٢٧٦)، آكام المرجان (١٩ – ٢٢)، عالم الجن والشياطين. أ. د. عمر سليمان عبدالله الأشقر، دار النفائس. الأردن، (ط١٥)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م، (١٣ – ١٨).

المسألة السابعة والثمانون بعد المائة
اكتساب المال بالميسر

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية الأميين وأهل الكتاب في اكتسابهم للأموال، اكتسابهم إياها بالميسر.

والميسرُ في اللغة: اللعب بالقداح، يقال: يَسَرَ يَيْسَرُ يسرًا، واليسرُ: المُيَسَّرُ المُعدُّ[(١)]. وقيل أن الميسر: القمار، وهو قمارُ العرب بالأزلام، أو اللعب بالقداح في كل شيء والجزور التي كانوا يتقامرون عليها[(٢)].

والميسر اصطلاحًا: القمار، وهي المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد، والشطرنج؛ وكل مغالبة قولية، أو فعلية بعوض. سوى مسابقة الخيل، والإبل، والسهام؛ لأنها مباحة ولكونها معينة على الجهاد فلهذا رخص فيها الشارع[(٣)].

فقد كان من طرق اكتساب المال عند أهل الجاهلية الأميين القمار، حيث كان العرب في الجاهلية إذا أرادوا التقامر اشتروا جزورًا بثمن مؤجل إلى ما بعد التقامر، وقسموه إلى أجزاء، ثم يأتون بسهام عشرة قد أطلقوا على كل منها اسمًا، سبعة منها لها حظوظ، وثلاثةٍ منها لا حظوظ لها تسمى أغفالا، وقد خطوا على كل سهم منها علامة في أسفله، ومن ثم

---

(١) لسان العرب (٥/ ٢٩٨).

(٢) المعجم الوسيط (١٠٦٤).

(٣) تفسير ابن سعدي (٩٨).

قاموا بوضع هذه السهام في خريطة من جلد تسمى الرِّبابة، وهي مثل كنانة النبال، فهي واسعة لها مخرج ضيق يضيق عن أن يخرج منه سهمان أو ثلاثة، وقد وكلوا بهذه الربابة رجلاً، يقومون بإغشاء عينية مغمضتين، ويكون على رأسه رجلٌ يُطلق عليه الوكيل كي لا يحتال أحد على أحد، فيأمر هذا الوكيل الرجل الذي بيده الربابة أن يحركها كي تختلط، ثم يدفعها إلى جهة مخرج السهام دفعة واحدة على اسم أحد المتقامرين، وهكذا فمن خرجت لهم سهام الأغفال دفعوا ثمن الجزور، ومن خرجت لهم سهام الحظوظ أخذوا قسمًا من الجزور، وقد كان مراد أهل الجاهلية من هذا العمل هو الربح واللهو حتى جاء الإسلام ونهاهم عن هذه الأخلاق القبيحة(١).

ومن الأدلة على وجود هذه الخصلة عند أهل الجاهلية النصوص الواردة من الشارع - عز وجل - في النهي عن هذه الخصلة، فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾(٢).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيره للآية: (الميسر القمار. كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله، فأيهما قمر بصاحبه ذهب بأهله وماله)(٣).

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص (١/ ٣٢٩)، تفسير البغوي (١/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٩٢)، تفسير التحرير والتنوير (٢/ ٣٤٧)، نهاية الأرب (٣/ ١١٨)، بلوغ الأرب (٣/ ٥٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١٩).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٧١).

وقد جاء في موضع آخر من كتاب الله نصٌ صَرَحَ فيه الشارع على نهي عباده المؤمنين عن تعاطي هذه الخصلة، وعلى بيان العلة من هذا النهي، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾(١).

وقد أمر الشارع باجتناب الميسر لما يوقعه من العداوة، والبغضاء، ومن إضاعة الوقت، والاعتياد على الكسل، والبطالة، واللهو، والصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وعن التفقه في الدين، وعن التجارة ونحوها مما به قوام المدِنَّية، وتلك آثام لها آثارها الضارة في الآخرة(٢).

لهذا خاطب الشارع عباده المؤمنين بخطابٍ عامٍ وشامل يتضمن النهي عن هذه الخصلة، وعن كل ما يماثلها في أكل الناس للأموال بالباطل، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا، والقمار وما جرى مجرى ذلك

(١) سورة المائدة، الآيتان: (٩٠ - ٩١).

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢/ ٣٤٩).

(٣) سورة النساء، الآية: (٢٩).

من سائر صنوف الحيل)[١].

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة بنصه على تحريم الشارع للميسر فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إن الله حرم عليكم الخمر والميسر...»[٢].

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «من قال لصاحبه تعالَ أقامرك فليتصدق»[٣].

قال الذهبي - رحمه الله -: (فإذا كان مجرد القول معصية موجبة للصدقة المكفرة، فما ظنك بالفعل؟! وهذا داخل في أكل المال بالباطل)[٤].

قال أحد العلماء في المراد بهذا الحديث: (لم يختلف العلماء في تحريم القمار، وقد اتفق علماء التفسير على أن الميسر هنا القمار، حيث كان أهل

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٤٧٦) بنحوه، وبرقم (٢٦٢٥، ٣٢٧٤) بمثله (٢١١، ٢٢٢، ٢٦٥)، وفي سنن أبي داود في كتاب الأشربة. باب في الأوعية برقم (٣٦٩٦) بمثله وزيادة في أوله (١٤٩٧). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (أفرأيتم اللات والعزى) برقم (٤٨٦٠) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب الاستئذان باب كل لهو باطل إذا شغله عن طاعة الله برقم (٦٣٠١) بمثله وزيادة في أوله، وفي كتاب الأيمان والنذور، باب لا يحلف باللات والعزى، ولا بالطواغيت برقم (٦٦٥٠) بمثله وزيادة في أوله (٤١٥، ٥١٥، ٥٣٠، ٥٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان. باب من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله برقم (٤٢٦٠) بمثله وزيادة في أول، وبرقم (٤٢٦١) بنحوه وزيادة في أول (٩٦٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) الكبائر (١٢٥).

الجاهلية يجعلون جعلاً في المقامرة، ويستحقونه بينهم، فنسخ الله تعالى أفعال الجاهلية، وحرم القمار، وأمرهم بالصدقة عوضًا مما أرادوا استباحته من الميسر المحرم، وكانت الكفارة من جنس الذنب؛ لأن المقامر لا يخلو إما أن يكون غالبًا أو مغلوبًا؛ فالصدقة كفارة لما كان يدخل في يده من الميسر، وإن كان مغلوبًا، فإخراجه الصدقة لوجه الله تعالى أولى من إخراجه عن يده شيئًا لا يحل له إخراجه)(١).

وقد كان تحريم الشارع - عز وجل - للميسر عائدًا لما اشتمل عليه هذا العمل من الظلم في أكل الناس أموال بعضهم لبعض بالباطل، لهذا فكل مالٍ يدفعه الإنسان من باب المغالبة وعلى سبيل المجازفة، وهو لا يعلم هل سيحصل على عوض أم لا، فهو متناولٌ لمعنى القمار، كبيوع الغرر التي نهى عنها النبي ﷺ.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك فقال عنه: (لقد نهى الشارع - عز وجل - عن الميسر لما فيه من الظلم، فهو آكل للمال بالباطل، وقد اتفق المسلمون على تحريم الميسر، واتفقوا على أن المغالبات المشتملة على القمار من الميسر؛ سواء كان بالشطرنج أو بالنرد، أو بالجوز، أو بالكعاب، أو البيض... فلفظ الميسر يتناول ذلك كله، كما يتناول بيوع الغرر التي نهى عنها النبي ﷺ؛ لأن فيها معنى القمار الذي هو ميسر، إذ القمار معناه أن يؤخذ مال الإنسان على مخاطرة هل يحصل له عوضه أو لا يحصل؟

---

(١) عمدة القارئ (٢٢/ ٢٧٤).

كالذي يشتري العبد الآبق[١]، والبعير الشارد، وحبلة الحبلة[٢]، ونحو ذلك مما قد يحصل له، وقد لا يحصل له، وعلى هذا فلفظ الميسر في كتاب الله تعالى يتناول هذا كله)[٣].

وقد وجدت هذه الخصلة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فعرفت واشتهرت حديثًا باسم اليانصيب، وقد جعلوا لها أماكن خاصةً بها، ليتداولوا فيها هذا العمل، بل وعمدوا إلى ترويج هذه المعصية بالدعايات التجارية في جميع وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، ولا عجب أن يجاهر هؤلاء بمثل هذه المعصية المنصوص على تحريمها، فليس بعد الكفر معصية. ولكن مما يعجب له المرء حين تنتشر هذه الخصلة المحرمة لدى المجتمعات الإسلامية ضمن تلك المسابقات والعروض التي تقام من حينٍ لآخر لدى البعض من المحلات التجارية، والشركات والمؤسسات، والبنوك، ووسائل الأعلام، وغيرها، وذلك من خلال دعوتهم الناس إلى احتمال دخولهم في السحب على جوائز وعروض معينة عند الشراء منهم، أو بأن يكون شرط المشاركة في مثل تلك المسابقات نظير شرائهم لكوبونات خاصة بهذه المسابقات بأسعار رمزية، أملاً في الفوز بإحدى الجوائز أو العروض المقننة لعددٍ محدد من الفائزين[٤]. فالله المستعان.

---

(١) هو المملوك الذي يفر من مالكه قصدًا. انظر: التعريفات (٢٦).

(٢) وهو بيع نتاج النتاج، فالحبل ما في البطون، والحبل الآخر ما يحمله البطن الذي سيولد. انظر: الفائق (١/ ٢٥١).

(٣) الفتاوى (١٩/ ٢٨٣)، (٢٠/ ٥١٠)، (٣٢/ ٢٢٠).

(٤) انظر: الدرر السنية (١٥/ ٢٠٨)، فتاوى اللجنة الدائمة (٣/ ١٩٢ – ٢٠٥).

المسألة الثامنة والثمانون بعد المائة
كونهم يحيون عظماؤهم بقولهم أبيت اللعن وانعم صباحًا وأشباهها فعوض الله المسلمين بالسلام

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا إحدى خصال أهل الجاهلية الأميين، والمتمثلة في ألفاظهم التي يحيون بها عظماءهم كقولهم: أَبيتَ اللعن، وانعم صباحًا، وانعم مساءً وأشباهها. والمراد بقولهم أبيت اللعن: أي أبيت أيها الملك أن تأتي من الأمور ما تُلعن عليه(١).

والمراد من قولهم: انعم صباحًا: من النعمة، وهي طيب العيش والحياة، ويصلونها بقولهم صباحًا، لأن الصباح في أول النهار؛ فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها، واستمرت اليوم كله، فخصوها بأوله إيذانًا بتعجيلها، وعدم تأخيرها إلى أن يتعالى النهار(٢).

وقد كان للعرب في جاهليتهم ألفاظ يتلاقون بها، ويتراحبون بها؛ التماسًا منهم للبقاء على أحسن الحالات، والبعد عن الآفات، كقول بعضهم: انعم صباحًا، وانعم مساءً... وغيرها، كذلك كان لهم تحية خاصة ذات ألفاظ خاصة يخصون بها ملوكهم وعظماءهم، والكبراء منهم، ليميزوا به هؤلاء الكبراء عن السوقة في تحيتهم لهم، كقولهم: أبيت اللعن، وكل

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٣٨٧)، مختار الصحاح (١٣).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٦).

ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها[١].

وقد خالف الشارع – عز وجل – في محكم كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ أهل الجاهلية فيما كانوا يخصون به عظماءهم من التحية، وذلك حين اختص عباده المسلمين بتحية هي أفضل التحيات، وأكملها، وأزكاها، تحية اشتقها تعالى لهم من اسم من أسمائه، وهو السلام، وهي تحية أبيهم آدم – عليه السلام – وتحيتهم في الجنة، والتي بها يحييهم البارئ – عز وجل – في الجنة، وبها تسلم عليهم الملائكة إذا دخلوا الجنة.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ ﴾[٣].

قال الطبري – رحمه الله – أي: (فليسلم بعضكم على بعض)[٤].

ومن الأدلة على سلامه تعالى بهذا السلام على عباده المؤمنين إذا دخلوا الجنة، وعلى سلام الملائكة لهم أيضًا بذلك، قال تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٨٩)، الصلاة وحكم تاركها لابن تيمية (٢١٢، ٢١٣)، أحكام أهل الذمة (١/ ١٩٦)، بدائع الفوائد (٢/ ١٦٦ – ١٦٧).

(٢) سورة النور، الآية: (٢٧).

(٣) سورة النور، الآية: (٦١).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٥٨).

مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾(٢)، وقال عز من قائل: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٣).

أيضًا ومن الأدلة على أنها تحيتهم في الجنة قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾(٤).

هذا وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحين دخل عليه عمير بن وهب(٥) رضي الله عنه وهو مشرك قال للنبي ﷺ: انعموا صباحًا، وقد كانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال له النبي ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة...»(٦).

---

(١) سورة يس، الآية: (٥٨).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤٤).

(٣) سورة الرعد، الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٤) سورة يونس، الآية: (١٠).

(٥) هو: عُمير بن وهب بن خلف القرشي الجمحي، شهد أحدًا وما بعدها، عاش حتى خلافة عمر رضي الله عنه. انظر: الإصابة (١٠١٤).

(٦) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار مسند علي. ت: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة. في ذكر من قال إن الذي جعل له الجعل على قتل رسول الله × ولم يقتل ولم يصلب برقم (١٢٣) بمثله وقصة، وأخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة. ت: محمد الحداد. دار طيبة، (ط١)، ١٤٠٩هـ (١٤٠)، والطبراني في المعجم الكبير. ت: حمدي السلفي. مكتبة الزهراء. الموصل، (ط٢)، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م برقم (١١٧) بمثله وقصه (١٧/ ٥٦)، وذكره البيهقي في شعبه (٦/ ٤٥٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. دار الريان للتراث. القاهرة. بيروت، ١٤٠٧هـ (٨/ ٢٨٥)، والهندي في كنز العمال (٩/ ٥٠).

كما وقد ورد عن عمران بن حصين[١] - رضي الله عنه - قال: (كنا نقول في الجاهلية: أنعم الله بك عينًا، وأنعم صباحًا، فلما كان الإسلام نهينا عن ذلك)[٢].

وقد بيّن بعض أهل العلم العلة في النهي عن ذلك فقالوا: لأن هذا الكلام كلامٌ جاهليٌ، فينبغي هجره وتركه، فهي تحية الجاهلية.[٣]

وقد نهى النبي ﷺ عن مشابهة أهل الجاهلية في عموم خصالهم حين قال - عليه الصلاة والسلام -: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٤].

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين حث أمته على إفشاء السلام، وحين بيّن الأجر المترتب على ألفاظه، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٥].

---

(١) هو: عمران بن حصين بن عبيد الخزاعي أسلم عام خيبر، روى عن النبي عدة أحاديث، غزا عدة غزوات، حمل راية خزاعة يوم الفتح، كان من فضلاء الصحابة رضوان الله عليهم وفقهائهم، توفي سنة ٥٢هـ، وقيل ٥٣هـ.
انظر: الإصابة (٩٥٤، ٩٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الآداب. باب في الرجل يقول أنعم الله بك عينًا برقم (٥٢٢٧) بمثله (١٦٠٥) موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني ضعيف الإسناد، وضعفه المنذري.

(٣) انظر: عون المعبود (٢٢٢١)، الآداب الشرعية (٢٤٤).

(٤) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

(٥) سبق تخريجه ص(٤٤٢).

قال النووي - رحمه الله - في شرح هذا الحديث: (في هذا الحديث حث عظيم على إفشاء السلام، وبذله للمسلمين كلهم، من عرفت ومن لم تعرف، فهو أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، ولإظهار شعار المسلمين المميز لهم من غيرهم من أهل الملل)(١).

كما وقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - في بيان فضل السلام ببيان الأجر المترتب على ألفاظه، وذلك حين جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه رسول الله ﷺ فقال: «عشر»، ثم جلس، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه رسول الله ﷺ، وقال: «عشرون»، ثم جلس، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه رسول الله ﷺ، وقال: «ثلاثون» (٢).

قال العلماء: والمراد بقوله: عشر، ثم قوله: عشرون، ثم قوله: ثلاثون أي: له عشر حسنات، أو كتب، أو حصل له عشر، وكذا في قوله: عشرون، وقوله: ثلاثون(٣).

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (شرع الملك

---

(١) المنهاج (١٦١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠١٩٠) بمثله (١٤٤٦)، وأبو داود في سننه، كتاب الآداب. باب كيف السلام برقم (٥١٩٥) بمثله (١٦٠٣)، والترمذي في سننه، أبواب الاستئذان والآداب، باب ما ذكر في فضل السلام برقم (٢٦٨٩) بمثله (١٩٢٣). قال الترمذي: حسن غريب. موسوعة الحديث الشريف، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى في باب ثواب السلام برقم (١٠١٦٩) بمثله (٦/ ٩١). قال الألباني: صحيح، وقال شعيب: إسناده قوي.

(٣) انظر: عون المعبود (٢٢١٢)، تحفة الأحوذي (٢/ ٢٠٤٤).

القدوس السلام - تبارك وتعالى - لأهل الإسلام تحية بينهم سلام عليكم، وكانت أولى وأحسن من جميع تحيات الأمم التي منها ما هو محال وكذب، كقولهم: تعيش ألف سنة، وما هو قاصر المعنى مثل: انعم صباحًا. فكانت التحية بالسلام أولى وأحسن من ذلك كله؛ لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم على كل شيء، ومقصود العبد من الحياة لينتفع بحياته إنما يحصل بشيئين : بسلامته من الشر، وحصول الخير كله... وقد انتظم هذين الأصلين – في لفظ السلام – الذين لا تتم الحياة إلا بهما مع كونها – التحية بالسلام – مشتقة من اسم السلامة، ومتضمنة له)[1].

وهذه الخصلة الجاهلية ما تزال موجودة في هذا العصر، فها هي تحيات أهل الكتاب من اليهود والنصارى تحمل ألفاظًا قريبة مما ورد في هذه المسألة، فمن تحياتهم كقول صباح الخير، ومساء الخير... وغيرها من الألفاظ التي يحيون بها بعضهم بعضًا، لكن قد نجد مثل هذه الألفاظ قد درجت على ألسن كثير من المسلمين في تحية بعضهم لبعض ، بل ودرج بينهم تحيات بألفاظ أعجمية، فكان الأولى لمن علم فضل السلام، وأنه شعار هذه الملة، وتحية المسلمين في الدارين أن لا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. فالله المستعان.

* * *

(١) للاستزادة انظر: بدائع الفوائد (٢/ ١٦٧)، أحكام أهل الذمة (١/ ١٩٧)،روح المعاني .محمود الألوسي.دار إحياء التراث .بيروت(١٨/ ١٣٦).

المسألة التاسعة والثمانون بعد المائة
دخول نسائهم الحمام فنهى عن ذلك
كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ [١]

يبيّن المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب والعجم[٢] وهي دخول نسائهم الحمام.

والمراد بالحمام: هو المكان الذي يستحم فيه، وسمي حمامًا لما فيه من الماء الحار، والماء الحار يطلق عليه حَميم، ولأن فيها يُعرق المرء، والعرق يسمى حميمًا[٣].

لقد أقيمت في بلاد العجم، وفي الشام والعراق حمامات اشتملت على الماء الحار، والهواء الحار المعينان على نظافة البدن، وسرعة تحلل الأوساخ والأدران منه، وقد كانت نساء العجم، ونساء أهل الكتاب في تلك البلاد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٥٥٢٠، ٢٥٥٩٨، ٢٥٩٧١) بمثله (١٨٥٦، ١٨٦١، ١٨٨٦)، وأبو داود في سننه في كتاب الحمام، باب الدخول في الحمام برقم (٤٠٠٩) بمثله (١٥١٦)، والترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في دخول الحمام برقم (٢٨٠٢) بمثله. قال الترمذي: إسناده ليس بذاك القائم، وابن ماجه في سننه في كتاب الأدب، باب دخول الحمام برقم (٣٧٤٩) بمثله (٢٧٠٠). موسوعة الحديث الشريف. وصححه ابن حبان (٤٤٨٨)، وقال الحازمي: أحاديث الحمام كلها معلولة، وقال الألباني: ضعيف.

(٢) أي بلاد فارس وخراسان.

(٣) انظر: لسان العرب (١٢/ ١٥٣)، التعاريف: للمناوي (٢٩٧).

يدخلن تلك الحمامات طلبًا للنظافة والزينة(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدى أهل الجاهلية في هذه الخصلة في حين نهى - عليه الصلاة والسلام - نساء المسلمين من دخول هذه الحمامات لغير ضرورة؛ لعلمه بالمحاذير اللازمة والناتجة عن دخول النساء لهذه الحمامات، فقد ورد عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: (أن رسول الله ﷺ نهى عن دخول الحمامات، ثم رخص للرجال أن يدخلوها في الميازر (بالميازر)(٢)، وقال أيضًا: «إنها ستفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتًا يقال لها الحمامات، فلا يدخلها الرجال إلا بالأزر، وامنعوها النساء إلا مريضةً أو نفساء»(٣)، وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من ذكور أمتي فلا يدخل الحمام إلا بإزار، ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدخل الحمام»(٤).

وقد دلت هذه الأحاديث على أن النبي ﷺ لم يرخص للنساء في دخول الحمام؛ لأن جميع أعضائهن عورة وكشفها غير جائز إلا عند الضرورة، مثل أن تكون مريضة تدخل للدواء، أو تكون قد انقطع نفاسها تدخل

---

(١) انظر: الفتاوى (٢١/ ٣٠٠-٣٠٨).

(٢) سبق تخريجه ص(٩٠٩).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الحمام. باب الدخول في الحمام برقم (٤٠١١) بمثله (١٥١٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب دخول الحمام برقم (٣٧٤٨) بمثله (٢٧٠٠). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف، وضعفه المنذري.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢٥، ٨٢٥٨) بمثله (٣٢، ٥٨٧) وقال شعيب: حسن لغيره.

للتنظيف، أو تكون جنبًا والبرد شديد، ولم تقدر على تسخين الماء، وتخاف من استعمال الماء البارد حصول الضرر؛ أما في حال عدم العذر، فلا يباح لهن الدخول للحمام(١).

لهذا فدخول النساء إلى الحمامات من غير ضرورة يُعد مخالفة صريحة للنهي الوارد في النصوص السابقة، مع العلم أن النبي ﷺ قد حذر النساء من كل ما من شأنه أن يُخل بحيائها؛ إذ أن الدخول للحمامات يستلزم عليه أن تضع المرأة ثيابها الساترة لجسدها، ووضعها لثيابها من غير ضرورة دلالةٌ على نقص حياء من وضعته.

فقد ورد أن نساء من أهل الشام دخلن على عائشة - رضي الله عنها -، فقالت: أنتن اللاتي يدخلن نساؤكن الحمامات؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت الستر بينها وبين ربها» (٢).

قال بعض العلماء: والمراد بهذا الحديث: أي أن ما من امرأة نزعت

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٢)، عون المعبود (١٧٢٠)، المغني (١/ ٣٠٥-٣٠٦)، شرح العمدة (١/ ٤٠٦)، الفتاوى (١٥/ ٣٧٩)، الآداب الشرعية (٧٤٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٥٩٢١، ٢٥٩٢٢) بمثله وبرقم (٢٦١٤٥) بنحوه (١٨٨٢، ١٨٩٩)، وأبو داود في سننه في كتاب الحمام. باب الدخول في الحمام برقم (٤٠١٠) بمثله (١٥١٦)، والترمذي في سننه، كتاب الأدب. باب ما جاء في دخول الحمام برقم (٢٨٠٣) بمثله (١٩٣٣)، قال الترمذي: حديث حسن، وابن ماجه في سننه في كتاب الأدب. باب دخول الحمام برقم (٣٧٥٠) بمثله (٢٧٠٠)، موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: حديث صحيح.

ثيابها الساترة لها في غير بيتها؛ إلا وكانت بذلك قد خرقت حجاب الحياء، وجلباب الأدب الذي بينها وبين الله؛ لأنها مأمورة بالتستر والتحفظ من أن يراها أجنبي، وإذا كشفت المرأة أعضاءها في الحمام من غير ضرورة، فقد هتكت الستر الذي أمرها الله تعالى به[١].

لهذا فقد ذكر العلماء رحمهم الله: أنه في حين يتعذر على المرأة الغسل في بيتها لتعذر ذلك، كفقد الماء، أو في حال الخشية من الضرر، كأن يكون الماء باردًا، ويتعذر عليها تسخينه، أو في حال المرض، فيباح للمرأة دخول الحمام إذا غضت بصرها، وسترت عورتها[٢]. عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...﴾[٣].

قال ابن كثير - رحمه الله – في تفسيره للآية: (أي (يغضضن من أبصارهن) عما حرم الله عليهن النظر إلي غير أزوجهن،... (ويحفظن فروجهن)أي: أن لا يراها أحد)[٤].

إلا أن هذه الحمامات ما زالت موجودة حتى هذا العصر عند أهل الكتاب والفرس وأهل الشام والعراق، وقد أطلق عليها في هذا الزمن حمامات البخار، والحمامات الشامية وغيرها؛ وليس هذا وحسب؛ بل وقد

(١) انظر: عون المعبود (١٧٢٠)، تحفة الأحوذي (٢/ ٢١٠٤).
(٢) انظر: المغني (١/ ٣٠٥–٣٠٦–٣٠٧)، شرح العمدة (١/ ٤٠٦)، الفتاوى (١٥/ ٣٧٩).
(٣) سورة النور، الآية: (٣١).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٤).

انتشرت انتشارًا ذريعًا في جميع بلاد المسلمين، وأعطيت مسميات عدة، كحمامات البخار، والحمامات المغربية، وحمامات الجاكوزي، وغيرها من الأسماء. ولا يخفى على من اطلع على مثل هذه الحمامات ما يحصل فيها من مخالفات صريحة، كالدخول إليها من غير ضرورة، وكشف العورات، وإطلاق البصر بالنظر؛ مخالفين بذلك شروط إباحة الدخول إليها. فالله المستعان.

* * *

المسألة التسعون بعد المائة
التألي على الله كما في قصة الرجلين من بني إسرائيل

يبيّن المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، وهي الإقسام على الله تعالى؛ بقسمٍ دافعهُ الإعجاب بالنفس، وسوء الظن بالله تعالى، والجهل بفضله وكرمه عز وجل.

والمراد بالتألي: هو الحلف، يقال تألى بمعنى حلف، والألية: اليمين[١].

إن تألي العبد على الله تعالى بقسمٍ متضمنٍ لتحجير فضل الله وكرمه، ومنازعته تعالى في علمه وقدرته؛ ما هو إلا سوء أدبٍ من العبد مع ربه.

إذ إن هذا النوع من الإقسام على الله ما قام إلا بدافع إعجاب العبد بنفسه، وسوء ظنه بربه - عز وجل -؛ لذا فقد توعد الشارع - عز وجل - العبد المتألي عليه بوعيد شديد، وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على وعيد البارئ - عز وجل - للعبد المتألي عليه بقصة الرجلين اللذين كانا من بني إسرائيل، وكان أحدهما عابدًا، وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية ويزجره وينهاه، فيقول المسرف: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيبا؟ ثم يأتيه من الغد، ويقول له كما قال، والثاني يقول كما سبق.

وفي المرة الثالثة لما رآه على حاله قال له العابد: (والله لا يغفر الله لفلان،

---

(١) كشف المشكل (٢/ ٥٠).

فقال الله - عز وجل -: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»(١).

قال أحد العلماء في المراد بمعنى الحديث: (وهذا المتألي جهل سعة الكرم فعُوقب بإحباط العمل)(٢).

وقد نهى النبي - عليه الصلاة والسلام - عن التألي على الله تعالى، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تألوا على الله، لا تألوا على الله، فإنه من تألى على الله أكذبه الله» (٣).

قال بعض العلماء: والمراد من قوله «أكذبه الله»: أي أبطل قسمه، وجعل حلفه كذبًا، فلا تحلفوا عليه تعالى كأن تقولوا: والله ليدخلن الله فلانًا الجنة أو النار، فليس لأحد، الجزم بالعفو أو العقاب لأحد بل هو تحت المشيئة(٤).

هذا وقد بيّن أهل العلم المراد بالقسم على الله وأقسامه، فقالوا عن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمه الله تعالى برقم (٦٦٨١) بمثله (١١٣٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) كشف المشكل (٢/ ٥٠).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٧٨٩٨) بمثله (٨/ ٢٢٩)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧١)، وفي (٧/ ٢٠٨) قال الهيثمي: وفيه علي بن يزيد وهو ضعيف، وفي كنز العمال (٣/ ٢٢٤).

(٤) انظر.مرقاة المفاتيح (٥/ ٢٤٤)، التيسير بشرح الجامع الصغير. للمناوي. مكتبة الإمام الشافعي الرياض، (ط٣)، ١٤٠٨هـ، (٢/ ٤٨٩).

ذلك[١]: إن القسم على الله إما أن يحلف العبد على الله أن يفعل، أو أن لا يفعل، مثل: والله ليفعلن الله كذا، أو والله لا يفعل الله كذا؛ والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله ليُشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» [٢].

والقسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل - الله عز وجل -، وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم؛ لأن من تألى على الله - عز وجل - فقد أساء الأدب معه، وتحجر فضله، وأساء الظن به، لأن هذا النوع من الإقسام على الله الذي هو إلزام يعتبر تنقصًا للتوحيد، وقادحًا في العقيدة، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصًا في حقه.

وتعتبر هذه الخصلة من مزلات اللسان التي قد يهلك صاحبها بسببها؛ لهذا فقد حذر النبي ﷺ أمته من أن يزل أحدهم بكلمة، فيهلك بسببها،

---

(١) القول المفيد (٣/ ٢٦١ - ٢٦٢)، وانظر: السبك الفريد (٢/ ٥٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب البر. باب فضل الضعفاء والخاملين برقم (٦٦٨٢) بمثله (١١٣٥). موسوعة الحديث الشريف.

قال - عليه الصلاة والسلام -: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» [(١)].

قال النووي - رحمه الله - في بيان معنى الحديث: (أي :لا يتدبرها ويفكر في قبحها ولا يخاف ما يترتب عليها..وهذا كله حث على حفظ اللسان...وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه، فإن ظهرت مصلحته تكلم، وإلا أمسك)[(٢)].

وتقع هذه الخصلة الجاهلية لدى من أعجب بنفسه، أو من فُتح له بعض من أبواب العلم أو العبادة، ولو قليل، فأساء الظن بغيره، وأحسن الظن بنفسه، ومن ثم أصبح منازعًا لله رب العالمين من خلال ما يتلفظ به، كالجزم على الله بأنه تعالى لا يعين فلانًا، أو لا يحبه، أو لن ينصره، وهكذا... لهذا فعلى العبد الحذر من أن يغتر بنفسه، ويتصرف تصرف من هو بكل شيء عليم.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الزهد، باب حفظ اللسان برقم (٧٤٨٢) بمثله (١١٩٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) انظر.المنهاج (٢٠٤٥).

المسألة الحادية والتسعون بعد المائة
العلاج بالرقى الشركية ونحوها فنهى عن ذلك كما في حديث ابن مسعود إن الرقى والتمائم والتولة شرك(١)

المسألة الثانية والتسعون بعد المائة
تعليق التمائم فنهى عنه كما في الحديث السابق

المسألة الثالثة والتسعون بعد المائة
عمل التولة فنهى عنها كما تقدم

يريد المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسائل بيان بعض ما وقع فيه أهل الجاهلية الأميين من الأعمال الداخلة في دائرة الشرك: كعلاجهم مرضاهم بالرقى الشركية، وتعليقهم التمائم من خرزات وأحجار ونحوها في أعناق صبيانهم وكبارهم من الرجال والنساء، أو في أعناق دوابهم دفعًا للضر أو لرفعه، وقيامهم بعمل التولة، وهي نوعٌ من أنواع السحر بهدف جلب محبة الزوج لزوجته أو العكس(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٣٦١٥) بمثله مطولاً (٢٨٨)، وأبو داود في سننه في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم برقم (٣٨٨٣) بمثله مطولاً (١٥٠٨)، وابن ماجه في سننه في كتاب الطب. باب تعليق التمائم برقم (٣٥٣٠) بمثله مطولاً (٢٦٨٩)، موسوعة الحديث الشريف صححه الحاكم (٤/ ٢١٧)، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. والسنة للخلال (٥/ ١٥، ١٨).

(٢) ينظر: بلوغ الأرب (٣/ ٥ - ١٠).

والرَقى لغة: جمع رقية أي العوذة، تقول استرقيته فرقاني رقية فهو راقٍ، إذ عوّذ ونفث في عوذته(١).

والرقى اصطلاحًا: جمع رقية، وهي ما تسمى العزائم، والقراءة، فيقال: رقى عليه من القراءة(٢).

وقد خص المؤلف - رحمه الله - هنا في هذه المسألة الرقى الشركية.

والرقى الشركية هي: الرقى التي فيها شرك من دعاء غير الله، والاستغاثة، والاستعاذة به، كالرقي بأسماء الملائكة والأنبياء والجن مثل: «ياجني أنقذه، يا فلان الميت اشفه» ونحو ذلك(٣).

والتمائم لغة: هي العُوذ، واحدتها تميمةٌ، وأريد بها الخرز الذي ينظم ثم يعقد في العنق عوذًا(٤).

والتمائم إصطلاحًا: هي خرزات كانت العرب في الجاهلية تعلقها على أعناق الصبيان والكبار من الرجال، والنساء، أو الدواب يتقون بها العين، لذا فقد سميت تميمة زعمًا منهم أن بها يتم دفع العين(٥).

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٣٣٢).

(٢) انظر: غريب الحديث لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (١/ ١٨٣)، تيسير العزيز الحميد (١٢٨)، فتح المجيد (١٢٤)، القول السديد (١٠٨)، القول المفيد (١/ ١٧٥).

(٣) انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ١٨٣)، تيسير العزيز الحميد (١٢٨)، معارج القبول (٢/ ٥٠٧)، القول المفيد (١/ ١٨٣).

(٤) لسان العرب (١٢/ ٦٩).

(٥) انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ١٨٣)، النهاية في غريب الأثر (١/ ١٩٧)، تيسير العزيز الحميد (١٢٩)، فتح الحميد (٢/ ٥١٢)، فتح المجيد (١٢٥)، القول السديد (١٠٨)، معارج القبول (٢/ ٥١٠)، القول المفيد (١/ ١٧٧)، السبك الفريد (١/ ١٧٠) بتصرف.

والتولة لغة: الداهية، وهي ضَرْب من الخرز يوضع للسحر فتحبب بها المرأة إلى زوجها[١].

والتولة اصطلاحًا: هي ضرب من السحر، وقيل: خيط يُرقى فيه من السحر، أو قرطاس يكتب فيه شيء من ذلك للمحبة، والحاصل أنّه عملٌ يزعمون أنه يُحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى أمرأته[٢].

لهذا فحين جاء الإسلام أبطل الشارع –عز وجل– على لسان نبيه ﷺ جميع هذه الأعمال الشركية مخالفًا بذلك أهل الجاهلية؛ وقد تواترت الأدلة على ذلك؛ ومن هذه الأدلة ما استدل به المؤلف – رحمه الله تعالى – من حديث عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– الذي نص فيه النبي ﷺ على بطلان هذه الخصال الثلاث في آن واحد، فيقول عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرُّقى والتَّمائم والتِّولة شرك».

قال أحد العلماء: (وقد جعل النبي ﷺ هذه الأعمال الثلاثة من الشرك لاعتقادهم أنها مؤثرة بنفسها)[٣].

ومعلومٌ أن الشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر، لذلك فإن هذه الأعمال قد تندرج تارةً تحت الشرك الأكبر، وتارة تحت الشرك الأصغر، لهذا فقد بيّن العلماء –رحمهم الله– القول مفصلاً في هذه المسألة، فقالوا –

---

(١) لسان العرب (١١/ ٨١).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (١٣١)، فتح الحميد (٢/ ٥٠٩)، فتح المجيد (١٢٧)، القول السديد (١٠٩)، القول المفيد (١/ ١٧٨)، السبك الفريد (١/ ١٩٠) بتصرف.

(٣) نيل الأوطار (٩/ ١٠٤).

رحمهم الله - عن ذلك: إن اتخـذ الإنسان هذه الأعمال معتقدًا أن المسبب هو الله، فهذا شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها، فهذا شرك أكبر(١).

ومن الأدلة التي جاءت أيضًا في إبطال هذه الخصال قوله ﷺ: «من تعلق شيئًا وكِلَ إليه»(٢). قال بعض أهل العلم في شرح الحديث: أي من علق على نفسه شيئًا من التعاويذ والتمائم وأشباهها معتقدًا أنها تجلب إليه نفعًا، أو تدفع عنه ضرًا، وأن الشفا منها لا من الله تعالى لم يشفه الله، بل وكل شفاؤه إلى ذلك الشيء، وحينئذ لا يحصـل شفاؤه؛ لأن الأشـياء لا تنفع ولا تضر إلا بإذن الله تعالى(٣).

وقال أيضًا: - عليه الصلاة والسلام -: «من تعلق تميمة فقد أشرك»(٤).

قال ابن الأثير - رحمه الله - والمراد من جعلها شركًا: (لأنهم أرادوا بها دفع المقادير المكتوبة عليهم، فطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه)(٥).

---

(١) انظر: توحيد الخلاف (٢٦٨)، القول المفيد (١/ ١٧٩)، السبك الفريد (١/ ١٧٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٨٩٨٨) بمثله، وبرقم (١٨٩٩٣) بنحوه (١٣٥١)، والترمذي في سننه، كتاب الطب. باب ما جاء في كراهية التعليق برقم (٢٠٧٢) بمثله (١٨٥٩)، والنسائي في سننه الصغرى. كتاب المحاربة، باب الحكم في السحرة برقم (٤٠٨٤) بمثله وزيادة في أوله (٢٣٥٥). موسوعة الحديث الشريف، والنسائي في سننه الكبرى في كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة برقم (٤٠٧٩) بمثله وزيادة في أوله (٧/ ١١٢) صححه الحاكم (٤/ ٢١٦)، وقال الألباني: حسن، وقال شعيب: حسن لغيره. وهذا إسناد ضعيف.

(٣) انظر: شرح السيوطي لسنن النسائي (٧/ ١١٢)، مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٧٦)، تحفة الأحوذي (٢/ ١٧٠١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٧٥٥٨) بمثله وزيادة في أوله (١٢٣٨)، وصححه الحاكم (٤/ ٢١٩) قال شعيب: إسناده قوي.

(٥) النهاية في غريب الأثر (١/ ١٩٨).

وقد أمر الشارع - عز وجل - بمخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصال، فأمر عباده وحثهم على العمل بأول وأعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، وتمتلئ بها القلوب طمأنينة وسكينة، وذلك بصدق التوكل على الله - عز وجل - وحده، فقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام -: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(١).

قال الطبري - رحمه الله - أي: (رب العالمين هو الذي يبرئه ويعافيه)(٢).

ومن الأدلة أيضًا التي حث فيها الشارع عباده على التوكل عليه والاستعانة به على كشف ما بهم من ضُر؛ لأنه وحده كاشف الضر النازل بهم، قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣).

قال الطبري - رحمه الله -: (وقيل السوء: هو الضر)(٤).

وفي دليل آخر بيّن الشارع - عز وجل - لعباده حين حثهم على التوكل عليه بأنه هو القادر وحده على كل شيء، وأنه ليس لأحد أن يرفع ضرًا أمر الله بنزوله، أو يدفع رحمةً أمر تعالى بحلولها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

---

(١) سورة الشعراء، الآية: (٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٤٥٢).

(٣) سورة النمل، الآية: (٦٢).

(٤) تفسير الطبري (١٠/ ٦).

ﭐلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: (فقل حسبي الله مما سواه من الأشياء كلها، إياه أعبد، وإليه أفزع في أموري دون كل شيء سواه، فإنه الكافي، وبيده الضر والنفع)[٢].

كما وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصال بإرشاد عباده المؤمنين إلى الطريق الشرعي الصحيح الذي من خلاله يستشفون به من أسقامهم الجسدية والقلبية، فقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٣]، وقال أيضًا: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ ﴾[٤]، كذلك أرشدهم إلى التداوي بما جعله لهم فيه شفاءً، وهو العسل، فقال تعالى: ﴿ شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ ﴾[٥].

هذا وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصال، وذلك بالنهي عنها، كما ورد فيما تقدم من الأحاديث السابقة، وبإباحة العمل بخلافها، كما جاء عنه - عليه الصلاة والسلام -؛ ومن ذلك إباحته لأمته الرقية شريطة أن تكون رقية شرعية خالية من الشرك.

فقد ورد أن أحد الصحابة - رضوان الله عليهم - سأل النبي ﷺ

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٣٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٨).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٨٢).

(٤) سورة فصلت، الآية: (٤٤).

(٥) سورة النحل، الآية: (٦٩).

قائلاً: كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك، فقال: «اعرضوا عليَّ رقاكم لا بأس بالرقى مالم يكن فيه شرك»[١].

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: (ولا تعارض ولله الحمد فإنما رخص النبي صلى الله عليه وسلم في الرقى التي لا ضرر فيها من جهة الشرع، كأن تكون بآيات قرآنية، أو بأسماء الله تعالى وصفاته، وإذا كانت بغير ذلك فهي ممنوعة)[٢].

وقد أجمع العلماء على جواز الرقي بشروطٍ ثلاثة، ذكرها الإمام ابن حجـر - رحمه الله - في كتابه الفتح فقال عنها: (أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

أولاً: أن تكون بكلام الله تعالى، أو أسمائه أو صفاته، ثانيًا: أن تكون باللسان العربي مفهومة معلومة، ثالثًا: أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، بل يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها؛ بل بتقدير الله تعالى)[٣].

هذا وقد وردت عنه - عليه الصلاة والسلام - أحاديث كثيرة وبطرق مختلفة دلت على إباحة الرقية إذا كانت رقية شرعية. ومن ذلك ما ورد عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ رقاه جبريل - عليه السلام -، فقالت عائشة - رضي الله عنها - عن ذلك: «كان إذا اشتكى رسول الله

---

(١) أخرجـه مسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب لا بـأس بـالرقى مـالم يكـن فيـه شرك بـرقم (٥٧٣٢) بمثله (١٠٦٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المسائل والرسائل (٢/ ١١٤).

(٣) فتح الباري (١٠/ ١٩٥).

ﷺ رقاه جبريل - عليه السلام -، قال: باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسدٍ إذا حسد، وشر كل ذي عين» [١].

كذلك ما ورد عنه بأنه كان يرقي أهله، قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله، نفث عليه بالمعوذات، فلما مرض مرضه الذي مات فيه، جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه؛ لأنها كانت أعظم بركة من يدي» [٢].

وقد وردت أحاديث كثيرة أرشد فيها النبي ﷺ أمته إلى السور والآيات والأدعية التي يرقى فيها، كسورة الفاتحة، وآية الكرسي... وغيرها مما يدل على إباحة الرقية الشرعية.

كذلك خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية فيما قاموا به من تعويذ أبنائهم وأنفسهم من العين بتعليق التمائم في أعناقهم حين كان - عليه الصلاة والسلام - يعوذ الحسن والحسين أبناء بنته فاطمة - رضي الله عنها - ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» [٣].

كذلك ما ورد من فعله - عليه الصلاة والسلام - من أنه كان يعوذ نفسه قبل أن ينام، وإذا نزل في مكان ما، أيضًا ما ورد عنه - عليه الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب السلام. باب الطب والمرض والرقى برقم (٥٦٩٩) بمثله وبرقم (٥٧٠٠) بنحوه (١٠٦٦). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب السلام في باب رقية المريض بالمعوذات والنفث برقم (٥٧١٤) بمثله (١٠٦٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) سبق تخريجه ص(٨٣٤).

والسلام - من أحاديث كثيرة أرشد فيها أمته إلى كيفية الاستعاذة من العين، وكيفية الاسترقاء منها، وذلك بسور وآيات من كتاب الله، وأورادٍ شرعية قوامها جميعًا على التصديق التام الذي لا ينازعه شك بأن الله تعالى وحده هو القادر على كل شيء، وأن كل شيء بمشيئته تعالى.

إلا أن هذه الخصال الجاهلية ما تزال موجودة حتى هذا العصر، فقد تجلت هذه الخصال جميعًا عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الديانات، فما يتعلق بجانب الرقى فإنهم يسترقون على أيدي الكهان، والسحرة، والمشعوذين برقية شركية تقوم على

استخدام الشياطين، والجان، أما في جانب التمائم فقد كانوا يعمدون إلى دفع العين بزعمهم عن طريق الاحتفاظ بتلك الطلاسم المكتوبة، أو الصور المرسومة لبعض الحيوانات، أو بالخرز، أو الأوتار، أو الحلق من الحديد وغيره التي يلبسونها تحت ثيابهم، أو يضعونها في بيوتهم، بل ويزعم البعض منهم أنه يمكن دفع العين والأرواح الشريرة عن طريق اقتناء بعض الحيوانات كالذئاب، أو الأفاعي....

أما ما يتعلق بجانب التولة فنجدهم يشترطون عند الزواج اشتراء خاتم يوضع في يد الزوج، فإذا ألقاه الزوج فهذا يعني أن الزوجة فقدت حب الزوج، وبقاء هذا الخاتم المعروف (بالدبله) في يد الزوج دليلٌ على دوام العلاقة ثابتة بينهما.

وما ينقل عن هذه الخصال عند أهل الكفر لا يعجب منها الإنسان في حقهم؛ لأنهم كفرة، ولكن يعجب المرء من ظهور هذه الخصال الشركية لدى الكثير من المسلمين في شتى البقاع الإسلامية، ففي جانب الرقية نجد

الكثير ممن انبروا للرقية من المشعوذين والمتحذلقين الذين لاقت رقياهم رواجًا شائعًا لدى ضعفاء العقول، وأعمياء البصائر من الناس، علمًا أن البعض منهم أصبح يرقي بالسريانية أو العبرانية؛ زعمًا منهم أنهم ترجموها من عند أنفسهم، والبعض يرقى بأسماء وصفات يزعم أنها لله، وأنه قد علمها من غير الكتاب والسنة...

أما في جانب التمائم فنجدهم يعمدون إلى تعويذ أنفسهم وأبنائهم عن طريق تلك الحروز المشتملة على صور وطلاسم غير معروفة، أو بتعليق الخرز، أو العيون الزرقاء على صدورهم أو في سيارتهم، أو على جدران بيوتهم، أو بتعليق آيات ونحوها، كذلك في جانب التولة نجد أن بعض المسلمين قد شابه اليهود والنصارى في الاعتقاد المتعلق بخاتم الزواج المعروف

بالدبلة... فرغم تضافر الأدلة على تحريم كل هذه الخصال الشركية، إلا أن هناك البعض من المسلمين قد وقع فيها جهلاً، والبعض تهاونًا... فالله المستعان(١).

* * *

(١) للاستزادة انظر: معارج القبول (٢/ ٥٠٨، ٥١٢)، القول المفيد (١/ ١٧٩)، الألوهية في العقائد الشعبية (١٤٤)، موقف الإسلام من السحر (١/ ٢٤٧ - ٢٨٣)، البدع والمحدثات وما لا أصل له (٥٤٥)، فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٢٩٢ - ٣٣٢).

المسألة الرابعة والتسعون بعد المائة
استعمال النشرة المنهي عنها فقال هي من عمل الشيطان[١]

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة أن من خصال أهل الجاهلية الأميين في علاجهم للمسحور أنهم كانوا يحلون عنه السحر بسحر مثله وهي ما تُعرف بالنشرة[٢].

فالنُشرة لغة: هي التفريق[٣].

والنشرة اصطلاحًا: قيل: هي إطلاق السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر على ذلك إلا من يعرف السحر[٤]، وقيل: هي ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مسّ من الجن، سميت نشرة لأنه ينتشر بها عنه ما خامره من الداء؛ أي يكشف ويزول[٥].

والنشرة أنواع، فمنها ما هو محرم، وهو المراد في هذه المسألة، ومنها ما هو مباح ويدخل هذا النوع في باب الدواء والمعالجة بالأدوية المباحة.

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - عن ذلك: (والنشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٤١٨١) بمثله (٩٦٩)، وأبو داود في سننه في كتاب الطب. باب في النشرة برقم (٣٨٦٨) بمثله (٥٠٧) موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) بلوغ الأرب (٣/ ٩).

(٣) لسان العرب (٥/ ٢٠٨).

(٤) غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٧٠٨).

(٥) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٢٠)، النهاية في غريب الحديث (٥/ ٥٣).

الأول: حل السحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإن السحر من عمله، فيتقرب إليه الناشر، والمنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور، الثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المُباحة، فهذا جائز، بل مستحب، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن البصري: لا يحل السحر إلا ساحر)[١].

وقد أبطل الشارع - عز وجل - النشرة التي كان يمارسها أهل الجاهلية، وهي حل السحر بسحر على لسان نبيه ﷺ، فقد سئل النبي ﷺ عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان». قال أحد العلماء والمراد بقوله: «من عمل الشيطان»: (أي من النوع الذي كان أهل الجاهلية يعالجون به، ويعتقدون فيه، أما ما كان من الآيات القرآنية، والأسماء، والصفات الربانية، والدعوات المأثورة النبوية، فلا بأس به)[٢].

يقول الشيخ سليمان[٣] - رحمه الله -: (سئل الإمام أحمد - رحمه الله -

---

(١) أعلام الموقعين (٤/ ٥٩٧).

(٢) عون المعبود (١٦٥١).

(٣) هو: الشيخ الفقيه المحدث سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعًا، ولد في مدينة الدرعية عام ١٢٠٠هـ، تربى في بيت علم وصلاح وتقى، من شيوخه والده العلامة الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد، وحسين بن غنام، أجازه الشيخ محمد الشوكاني مؤلف نيل الأوطار كان محدثًا، وفقيهًا، ونحويًا، لغويًا، خطاطًا، تولي منصب القضاء في مكة، ثم تولى القضاء في الدرعية. من مؤلفاته: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، رفع الإشكال، منسك لطيف مفيد وغيرها. توفي غدرًا من الباشا إبراهيم قائد الجيش العثماني عام (١٢٣٣هـ)، ودفن في الدرعية. انظر: علماء نجد (٢/ ٣٤١ - ٣٤٩).

عنها -أي النشرة- فقال: ابن مسعود يكره هذا كله، ومراد الإمام أحمد والله أعلم أن ابن مسعود يكره النشرة التي من عمل الشيطان، والنشرة التي بكتابة وتعليق كالتمائم، فإن ابن مسعود كان يكره التمائم كلها من القرآن وغير القرآن، أما النشرة بالتعويذ والرقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق، فلا أعلم أحدًا كرهه)(١).

ويستدل مما سبق على أن النشرة التي كان يتداولها أهل الجاهلية هي من النوع الأول وهي حل السحر بسحر مثله، وهذا النوع من النشرة حرمه الشارع، وشدد في تحريمه، والشاهد على ذلك أن النبي ﷺ حين سئل عن النشرة قرنها بعمل الشيطان تشديدًا في قبحها.

يقول الشيخ حافظ الحكمي(٢) - رحمه الله - عن حكم النشرة: (أما حل السحر عن المسحور بسحر مثله فيحرم، فإنه معاونة للساحر، وإقرار له على عمله، وتقرب إلى الشيطان بأنواع القرب ليبطل عمله عن المسحور، ولهذا قال الحسن البصري: لا يحل السحر إلا ساحر)(٣).

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٣٣).

(٢) هو: الشيخ العلامة حافظ بن أحمد بن علي الحكمي أحد أعلام منطقة الجنوب (تهامة)، ولد عام (١٣٤٢هـ) بقرية السلام جنوب المملكة العربية السعودية. حفظ القرآن وعمره لم يتجاوز الثانية عشرة، تتلمذ على يد الشيخ عبد الله محمد القرعاوي. من مؤلفاته: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الاصطلاح، متن (لامية المنسوخ) وغيرها كثير. توفي يرحمه الله عام (١٣٧٧هـ) عن عمر (٣٥ سنة). انظر: مقدمة المحقق لكتاب معارج القبول بقلم د. أحمد بن حافظ الحكمي.

(٣) معارج القبول (٢/ ٥٦٦).

ويقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: (وهذا الحديث بيّن الرسول ﷺ حكم النشرة وأنها من عمل الشيطان، وهذا يغني عن قوله إنها حرام، بل هذا أشد من قوله إنها حرام، لأن ربطها بعمل الشياطين يقتضي تقبيحها، والتنفير عنها)[١].

وفي حين حرم الشارع على عباده النوع الأول من النشرة، وهي حل السحر عن المسحور بسحر مثله، أباح لهم في المقابل النوع الثاني من النشرة، وهو حل السحر عن المسحور بالرقية الشرعية، والتعوذات، والأدوية المباحة، والدعوات المباحة، والدليل على ذلك ما نُقل عن النبي ﷺ حين سُحر من قِبل اليهودي لبيد الأعصم[٢]، فرقى جبريل، وميكائيل - عليهما السلام - رسول الله ﷺ بالمعوذتين، فانحل ما به من السحر[٣].

وقد ذكر بعض العلماء صفات عدة للنشرة الجائزة ؛فمن ذلك ما نقل عن بعض أهل العلم - رحمهم الله - فيما روي عن ليث بن أبي سليم[٤] - يرحمه الله - قال: (بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم تصب على رأس المسحور الآية التي في يونس قوله تعالى:

---

(١) القول المفيد (٢/ ٧١).

(٢) هو: لبيد بن الأعصم اليهودي، حليف بني زريق، كان ساحرًا، وأعلم اليهود بالسحر. انظر: البداية والنهاية (٢٣٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٤)، فتح الباري (١٠/ ٢٣٠)، زاد المعاد (٤/ ١١٤).

(٤) ليث بن أبي سليم الكوفي يُعد من صغار التابعين، محدث الكوفة وأحد علمائها، كان أعلم أهل زمانه في المناسك أخذ عن الشعبي، ومجاهد، وطاووس ولد بعد الستين، وتوفي قبل (١٣٨هـ) وقيل (١٤٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٧٩ - ١٨١).

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٢) إلى أخر أربع آيات، وقوله: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾(٣)) (٤). أيضاً مما جاء في صفة النشرة الجائزة قيل: أن يأخذ سبع ورقات من سدرٍ أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل(٥)، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما به، وهو جيدٌ للرجل إذا حبس عن أهله(٦).

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية لا تزال حتى هذا العصر الحاضر، فقد ظهرت هذه الخصلة في هذا الزمان وللأسف بكثرة في دولٍ إسلامية ودول عربية(٧)، بل إن البعض من هذه الدول اشتهرت شعوبها بممارستهم عقد السحر، وحله؛ متخذين بعملهم هذا بابًا للتجارة، بل ويرون أنها تجارة رائجة ومربحه، ويزيدون رواجها بزعمهم أنه عملٌ للخير؛ وهذه بلية ابتلي

---

(١) سورة يونس، الآيتان: (٨١ – ٨٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١١٨).

(٣) سورة طه، الآية: (٦٩).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٣٣٥)، وانظر: موقف الإسلام من السحر (٢/ ٦٤٢).

(٥) أي سورة الإخلاص، والناس، والفلق.

(٦) للاستزادة انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٤٩)، مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٣)، فتح الباري (١٠/ ٢٣٣)، عمدة القاري (١٤/ ٦٤)، (٢١/ ٢٨٤)،فتح المجيد(٣٠٤،٣٠٣).

(٧) انظر: الألوهية في العقائد الشعبية (١٠٩)، موقف الإسلام من السحر (١/ ٩٣ – ١١٢).

بها بعض المسلمين، وانطلت على كثيرٍ من العوام والجهال.

ومما زاد الأمر بلية في هذا الزمن، أن هناك بعضًا من طلاب العلم هداهم الله قد انبرى للإفتاء، فأجاز حل السحر عن المسحور بالسحر، مع العلم أن جميع الفتاوى التي وقفت عليها في بحثي لهذه المسألة قد أفتى فيها العلماء - رحمهم الله - بتحريم النشرة التي من هذا النوع، والنص على جواز حل السحر بالرقية والأدعية الشرعية الواردة في القرآن والثابتة في السنة[١]. فالله المستعان.

* * *

---

(١) للاستزادة انظر: باب ما جاء في النشرة في تيسير العزيز الحميد (٣٣٢ - ٣٣٥)، فتح الحميد (٣/ ١١٨١ - ١١٩٩)، معارج القبول (٢/ ٥٦٥ - ٥٦٧)، القول المفيد (٢/ ٦٩ - ٧٥)، السبك الفريد (٢/ ٥٩ - ٦٥)، فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٥٥٦ - ٥٦٤)، فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله (١/ ٢٣٨)، موقف الإسلام من السحر (٢/ ٥٩٢ - ٦٤٥).

المسألة الخامسة والتسعون بعد المائة
ترك الحيات مخافة ثأرهن فنهى عنه بقوله من ترك الحيات مخافة ثأرهن فليس منا(١)

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة أحد خصال أهل الجاهلية الأميين، وهي تركهم للحيات، وعدم قتلها، خشيةً من غائلتها؛ وما ذلك إلا لاعتقادهم السائد في الجاهلية من أنهن سيثأرن ممن قام بقتلهن؛ بإيذائه، وإصابته بالخبل(٢).

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة على لسان نبيه محمد ﷺ بنصٍ قد اشتمل على أمرٍ متضمن بطلان هذا المعتقد الذي سادت بسببه هذه الخصلة عند أهل الجاهلية الأميين، وهو تركهم قتل الحيات خشيةً من ثأرهن؛ فقد نص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة بالأمر بقتل الحيات اقتداءً بسنته – عليه الصلاة والسلام –، وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بحديث النبي ﷺ المشتمل على هذا الأمر، الذي قال فيه – عليه الصلاة والسلام –: «من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا، ما سالمناهن منذ حاربناهن»، وقال أيضًا في حديث

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠٣٧) بنحوه (١٨٠)، وبرقم (٣٢٥٤) بزيادة في آخره (٢٦٤)، وأخرجه أبو داود في سننه. كتاب الآداب، باب في قتل الحيات برقم (٥٢٥٠) بنحوه (١٦٠٦). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٦)، لسان العرب (١/ ٢٠٩)، بلوغ الأرب (٢/ ٣٦٠).

آخـر: «اقتلوا الحيات كلهن، فمن خـاف ثأرهن فليس مني»(١).

قال أحد العلماء والمراد من قول النبي ﷺ في هذا الحديث: «ما سالمناهن منذ حاربناهن»: (أي ما صالحنا الحيات، منذ وقع بيننا وبينهن الحرب، فإن المحاربة والمعاداة بين الحية والإنسان جبلية؛ لأن كلاً منهما مجبول على طلب قتل الآخر، فمن ترك التعرض لهن خوفًا من ضررهن، أو من صاحبها، فإنه بذلك ليس من المقتدين بسنتنا الآخذين بطريقتنا)(٢).

وقد كان أمر النبي ﷺ الوارد في الحديث السابق بقتل الحيات أمرًا عامًا شاملاً مطلقًا؛ حيث عمّ وشمل - عليه الصلاة والسلام - في أمره بقتل الحيات، جميع الحيات دون استثناء، كما لم يقيد - عليه الصلاة والسلام - قتل الحيات بأمرٍ معين كزمانٍ، أو مكان، أو نحوها من القيود؛ بل جعل الأمر مطلقًا؛ مع العلم أن هناك أحاديث أخرى ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - فيما بعـد، جاء فيها أمـره بقتل الحيات مخصصًا ومقيدًا. ومن ذلك مـا ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «اقتلوا الحيات، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر، فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحبل»(٣)،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٥٧٥٥) بمثله وزيادة في وسـطه (١٨٧٢)، وأبـو داود في سننه في كتاب الآداب، باب في قتل الحيات برقم (٥٢٤٩) بمثله (١٦٠٦). موسـوعة الحـديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) عون المعبود (٢٢٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق، باب قوله تعالى: (وبث فيها من كل دابة) بـرقم (٣٢٩٧) بمثله (٢٦٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام. باب قتـل الحيـات وغيرهـا بـرقم (٥٨٢٣) بنحوه، وبـرقم (٥٨٢٤، ٥٨٢٥) بمثلـه، وبـرقم (٥٨٢٦، ٥٨٣٢، ٥٨٣٣) بنحـوه =

وقال أيضًا: «لا تقتلوا الجنَّان إلا كل أبتر ذي طفيتين، فإنه يسقط الولد، ويذهب البصر، فاقتلوه»[١]، كما ورد عنه - عليه الصلاة والسلام -: «أنه أمر بقتل الحيات، ثم نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت وهي العوامر»[٢].

كذلك ما ورد عنه في قصة الفتى الذي هوى برمحه على حية كانت في بيته، فمات هو والحية، فقال النبي ﷺ: «إن في المدينة جنًا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان»[٣].

قال بعض أهل العلم والمراد بقوله: «ذي الطفيتين» هي حية خبيثة على ظهرها خطان أبيضان، وقيل: أسودان كالطفيتين، وهي خوصة المقل، والخوص بالضم ورق النخل الواحدة، وقد شبه النبي ﷺ الخطين اللذين على ظهر الحية بخوصتين من خوص المقل. والمراد من قوله (الأبتر) هو الذي يشبه المقطوع الذنب لقصر ذنبه، وهو من أخبث الحيات، وقوله

= وبزيادات في أولها (١٠٧٤، ١٠٧٥). موسوعة الحديث الشريف.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال برقم (٣٣١١) بمثله (٢٦٦)، ومسلم في صحيحه. كتاب السلام. باب قتل الحيات وغيرها برقم (٥٨٣٢، ٥٨٣٣) بمثله (١٠٧٤، ١٠٧٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق، باب قوله تعالى: (وبث فيها من كل دابة) برقم (٣٢٩٨) بمثله وبرقم (٣٣١٣) بنحوه (٢٦٧)، ومسلم في صحيحه في كتاب السلام. باب قتل الحيات وغيرها برقم (٥٨٢٦) بمثله، وبرقم (٥٨٢٧، ٥٨٢٨، ٥٨٢٩، ٥٨٣١، ٥٨٣٣) بنحوه وبرقم (٥٨٣٢) بمثله وزيادة في أوله وآخره (١٠٧٤، ١٠٧٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. في كتاب السلام. باب قتل الحيات وغيرها برقم (٥٨٣٩) بمثله مطولاً (١٠٧٥). موسوعة الحديث الشريف.

يطمسان البصر، فيه وجهان أحدهما: أنهما يخطفان البصر ويطمسانه، وذلك لخاصية في طباعهما إذا وقع بصرهما على بصر الإنسان، وقيل معناه: أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش، والمراد من قوله (العوامر) أي عمار البيوت سكانها من الجن، وتسميتهن عوامر لطول لبثهن في البيوت، مأخوذ من العمر، وهو طول البقاء[١].

وقال النووي - رحمه الله - والمراد بقوله «فآذنوه ثلاثة...»: (أي إذا لم يذهب بالإنذار علمتم أنه ليس من عوامر البيوت، ولا ممن أسلم من الجن، بل هو شيطان، فلا حرمة عليكم فاقتلوه، ولن يجعل الله له سبيلاً للانتصار عليكم بثأره، بخلاف العوامر، ومن أسلم)[٢].

وقد جمع العلماء - رحمهم الله - قولاً جمعوا فيه بين الأحاديث التي فيها الأمر بقتل الحيات من غير تخصيص ولا تقييد؛ وبين الأحاديث التي ورد فيها الأمر بقتل الحيات مخصصًا ومقيدًا، فقالوا عن ذلك: لا يجوز قتل حيات البيوت إلا بعد الإيذان بالقتل، ما عدا الأبتر، وذا الطفيتين، فإنهما يقتلان من غير إيذان، والإيذان ثلاثة أيام، فإن بدا بعد ذلك قتل، فأما في الصحاري والأودية فلا بأس بالقتل من غير إيذان[٣].

* * *

---

(١) انظر: معالم السنن (٤/ ١٥٧)، كشف المشكل (٢/ ١٠٦)، المنهاج (١٦٦٢، ١٦٦٣)، فتح الباري (٦/ ٣٤٧ - ٣٥٣)، عون المعبود (٢٢٣٠).

(٢) المنهاج (١٦٦٥).

(٣) انظر: كشف المشكل (٢/ ١٠٧)، التمهيد لابن عبد البر (١٦/ ٢٣)، الآداب الشرعية (٧٦٠ - ٧٦١)، نيل الأوطار (٨/ ٢٩٥ - ٢٩٧).

المسألة السادسة والتسعون بعد المائة
أنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى إحدى خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، والمشركين، وغيرهم ممن ينتسبون للإسلام، كالشيعة والمنافقين وغيرهم؛ حيث عمد جميع هؤلاء إلى إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات؛ وقد كانت إضاعتهم للصلاة إما بتركها بالكلية تركًا تامًا، والسعي وراء شهوات أنفسهم وإرادتها، أو بتأخيرها عن وقتها والإخلال بشيء من أركانها وواجباتها.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في هذه الخصلة بكلا نوعيها؛ وذلك بالتحذير منها، وبيان الوعيد المترتب عليها، وبحثّ عباده المؤمنين على العمل بخلاف هذه الخصلة، وذلك بالقيام بالصلاة قيامًا تامًا، وبالمحافظة على وقتها وأركانها وواجباتها، والمداومة عليها.

فقال تعالى محذرًا من إضاعة الصلاة بكلا نوعيها: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[١].

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في تفسير الآية: (أضاعوا الصلاة بإضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها)[٢]، وقال الطبري - رحمه

(١) سورة مريم، الآية: (٥٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٥٥)، تفسير القرطبي (١١/ ١١٢)، السنة للخلال (٤/ ١٢٣ - ١٤٤)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٩٠٨).

الله -: (أضعتموها بتركها)[١].

وقال المفسرون عن وعيد الله الوارد في هذه الآية: لقد توعد الله في آخر الآية هؤلاء المضيعين لصلاتهم المتبعين لشهواتهم بالعذاب في نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر[٢].

وفي موضع آخر من كتابه توعد الشارع المشركين التاركين للصلاة تركًا تامًا بذكر مآلهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[٣] كذلك توعد الشارع المنافقين المضيعين لصلاتهم لقيامهم بها رياءً وكسلاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٤].

قال الطبري – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: (إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض قاموا كسالى إليها، رياءً للمؤمنين ليحسبوهم منهم وليسوا منهم، لأنهم غير معتقدي فرضها ووجوبها عليهم، فهم في قيامهم إليها كسالى)[٥].

هذا وقد حذر الشارع المؤخرين صلاتهم عن وقتها بذكره للوعيد

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٥٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٥٦)، تفسير القرطبي (١١/ ١١٦).

(٣) سورة المدثر، الآيتان: (٤٢، ٤٣).

(٤) سورة النساء، الآية: (١٤٢).

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٣٣٣).

المترتب على تأخير الصلاة عن وقتها، فقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[١].

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في معنى الآية: (الساهون الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها)[٢].

وكما حذر الشارع عباده من هذه الخصلة، نبّه كذلك في موضع آخر إلى أن للصلوات وأقاتًا معلومة، ومفروضة، فحثهم على القيام بها في أوقاتها المعلومة، وعلى المحافظة على أركانها وواجباتها، والمداومة عليها، وامتدح المحافظين منهم عليها. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[٣].

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: (أي أن للصلاة وقتًا كوقت الحج)[٤].

وقال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[٥].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره للآية:(واظبوا على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، وتعاهدوهن والزموهن)[٦].

---

(١) سورة الماعون، الآيتان: (٤، ٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٧٠٦).

(٣) سورة النساء، الآية: (١٠٣).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٢٦٢).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٣٨).

(٦) تفسير الطبري (٢/ ٥٦٩).

وقال تعالى ممتدحًا المؤمنين في محافظتهم على صلاتهم: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[(١)]، وقال أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[(٢)].

قيل لابن مسعود - رضي الله عنه -: (إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، و﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾، و﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ فقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذاك الكفر)[(٣)].

وقال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره للآيات السابقة: (فالدوام خلاف المحافظة فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراب المأثم فالدوام إلى نفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها(أولئك في جنات مكرمون)أي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات)[(٤)].

كذلك امتدح الشارع - عز وجل - المؤمنين بعدم انشغالهم عن الصلاة بأعراض الدنيا وشهواتها، فقال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا

(١) سورة الأنعام، الآية: (٩٢).
(٢) سورة المعارج، الآية: (٢٣).
(٣) تفسير الطبري (٨/ ٣٥٥)، اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨٢٨).
(٤) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٥٣).

بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾(١).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيره للآية: (أي رجالٌ لا تشغلهم التجارة، والبيع عن إقامة الصلاة المكتوبة بحدودها في أوقاتها)(٢).

وقد خالف هدي النبي ﷺ القولي والفعلي هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقد نص النبي ﷺ على كفر من أضاع الصلاة بتركها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة»(٣).

قال النووي - رحمه الله -: (أي أن الذي يمنعه من كفره كونه لم يترك الصلاة، فإذا تركها لم يبق بينه وبين الشرك حائل، بل دخل فيه)(٤).

كذلك بيّن عليه الصلاة والسلام الوعيد الشديد المترتب على إضاعة الصلوات، واتباع الشهوات، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًا...» (٥).

---

(١) سورة النور، الآية: (٣٧).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب: إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة برقم (٢٤٦، ٢٤٧) بمثله (٦٩٢) موسوعة الحديث الشريف.

(٤) المنهاج (١٧٩).

(٥) أخرجه الإمام في مسنده برقم (١١٣٦٠) بمثله (٧٧٨)، والبخاري في خلق أفعال العباد برقم (٦٤٤) بمثله مطولاً، وبرقم (٦٤٩) بمثله (٢/ ٣٠٩-٣١٣)، صححه ابن حبان (٧٥٥) والحاكم (٣/ ٣٧٤) ووافقه الذهبي والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٦). قال شعيب: إسناده حسن.

وأكد في خطاب آخر - عليه الصلاة والسلام - على وجوب أدائها في وقتها بالنهي عن متابعة المؤخرين لها، وإن كانوا هم أئمة المسلمين وأمرائهم، فقال - عليه الصلاة والسلام - مخاطبًا أحد الصحابة - رضي الله عنهم -: «كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، أو يميتون الصلاة عن وقتها»؟ قال الصحابي: قلت: فما تأمرني؟ قال: «صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة»(١).

قال النووي - رحمه الله - معنى الحديث: (أي إذا علمت من حالهم، تأخيرها عن وقتها المختار، فصلها لأول وقتها، ثم إن صلّوها لوقتها المختار، فصلها أيضًا معهم، وتكون صلاتك نافلة، وإلا كنت قد أحرزت صلاتك بفعلك في أول الوقت، أي صنتها)(٢). كذلك حث النبي ﷺ في خطاب آخر على المحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها، وعلى المحافظة على أركانها وواجباتها مبينًا الأجر العظيم المترتب على ذلك.

فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «من حافظ على الصلوات الخمس: ركوعهن، وسجودهن، ووضوئهن، ومواقيتهن، وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة، أو قال: وجبت له الجنة»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد. باب كراهة تأخير الصلاة عن وقتها المختار، وما يفعله المأموم إذا أخرها الإمام برقم (١٤٦٥) بمثله، وبرقم (١٤٦٦) بنحوه (٧٧٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (٥٧٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٨٥٣٥) بمثله (١٨٥٣٦) بنحوه (١٣١٨)، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة. باب المحافظة على الصلوات برقم (٤٢٩) بنحوه (١٢٥٥). موسوعة =

كما وقد حث النبي ﷺ في خطاب آخر على أداء الصلوات في أوقاتها باستثارة الهمم لذلك، حين نص - عليه الصلاة والسلام - على أن أداء الصلوات في وقتها من أحب الأعمال لله تعالى، وذلك حين سئل - عليه الصلاة والسلام -: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»(١). قال ابن حجر – رحمه الله – في بيان المراد بهذا الحديث نقلاً عن بعض العلماء: (فيه أن البدار إلى الصلاة في أول أوقاتها أفضل من التراخي فيها لأنه إنما شرط فيها أن تكون أحب الأعمال إذا أقيمت لوقتها المستحب...وكأن المقصود به الاحتراز عما إذا وقعت قضاء...ولفظ(أحب)يقتضي المشاركة في الاستحباب فيكون المراد الاحتراز عن إيقاعها آخر وقتها)(٢).

وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - على عدم جواز تأخير الصلاة عن وقتها عمدًا(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – عن ذلك: (لقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل، ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار؛ لا لمسافر ولا لمريض ولا غيرهما، ولكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار، وهي الظهر والعصر في وقت أحدهما،

=

الحديث الشريف. قال الألباني: حسن.

(١) سبق تخريجه ص(٥٤٧).

(٢) انظر.فتح الباري (٢/ ٩).

(٣) انظر.مراتب الإجماع (٤٨)، شرح العمدة (٤/ ٦٠).

ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت أحدهما، وذلك لمثل المسافر والمريض وعند المطر، ونحو ذلك من الأعذار)[١].

وقال أيضًا - رحمه الله - عن حكم تارك الصلاة: (وإن من ترك الصلاة عمدًا مع علمه بوجوبها كافر)[٢].

ويندرج في هذه الخصلة كل من أخر الصلاة من باب الابتداع في الدين، كما هو حال الشيعة في الصلوات بالإخلال في أركانها، وواجباتها وتأخيرها عن وقتها[٣]، أو من باب التكاسل كالمنافقين[٤]، أو من باب العبث، واللهو كالاعتياض عنها بالرقص، وسماع الغناء، أو بالانشغال عنها باللعب واللهو، كاللعب بالشطرنج والكرة ونحوها[٥]. نسأل الله العافية.

* * *

---

(١) الفتاوى (٣/ ٤٢٨) (٢٢/ ٤٨، ٤٩)،وللاستزادة انظر. شرح العمدة (٤/ ٧٣ - ٩٤) وانظر: الدرر السنية (٤/ ١٩٨).

(٢) المراجع السابقة.

(٣) للاستزادة انظر.السنة للخلال (٣/ ٤٩٧)، شرح أصول الاعتقاد (٤/ ١٥٥٠).

(٤) للاستزادة انظر.الفتاوى (٢٢/ ٢٤)، (٣٢/ ٢١٧)، صفات المنافقين لابن قيم (٨).

(٥) للاستزادة انظر.الفتاوى (١٤/ ٤٦٦)، (٢٢/ ٣١٢)، وانظر: الدرر السنية (١٥/ ٢٠٤).

المسألة السابعة والتسعون بعد المائة
عدم فصلهم في صلاتهم بين الفرض والنافلة
كما في حديث عمر(١)

يشير المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة إلى أحد خصال الجاهلية التي كانت عند أهل الكتاب، ثم ظهرت لدى الكثير من المسلمين، وهي عدم فصلهم في صلاتهم بين الفرض والنافلة.

ومما يدل على وجود هذه الخصلة عند أهل الكتاب ما استدل به المؤلف - رحمه الله تعالى - من حديث عمر - رضي الله عنه - الذي جاء فيه: (أن رسول الله ﷺ صلى العصر، فقام رجل يصلي، فرآه عمر، فقال له: اجلس، فإنما هلك أهل الكتاب، أنه لم يكن لصلاتهم فصل، فقال رسول الله ﷺ: «أحسن ابن الخطاب»).

قال أهل العلم في بيان معنى الحديث: أي: فرق بالتسليم أو التحويل، فيحتمل أنهم كانوا أُمروا بالفصل، فلم يمتثلوا، ويحتمل أنهم لم يؤمروا به، فاعتقدوا اتصال الصلوات، وأنها صلاة واحدة، فصلوا، أو أنهم لم يؤهلوا إلى ذكر الله عقب صلاتهم، فأدى بهم ذلك إلى قسوة القلب المؤدية إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٥٠٩) بمثله (١٧٠١)، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة. باب في الرجل يتطوع في مكانه الذي صلى فيه المكتوبة برقم (١٠٠٧) بمثله مطولاً (١٢٩٧). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف.

الإعراض عن الله وأوامره[١].

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الكتاب في هذه الخصلة. ويدل على ذلك إقرار النبي ﷺ لقول عمر - رضي الله عنه - وفعله مع الرجل، كما هو واردٌ في الحديث السابق الدال على مشروعية فصل صلاة الفرض عن النافلة.

كذلك ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - النهي عن وصل صلاة الفرض بالنافلة، فيقول معاوية - رضي الله عنه -، عن ذلك: (أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نوصل صلاة بصلاة حتى نتكلم أو نخرج)[٢].

قال النووي - رحمه الله -: (في هذا الحديث دليلٌ على أن النافلة الراتبة، وغيرها يستحب أن يتحول لها عن موضع الفريضة إلى موضع آخر، وأفضله التحول إلى بيته، وإلا فموضع آخر من المسجد، أو غيره ليكثر مواضع سجوده، ولتنفصل صورة النافلة عن صورة الفريضة)[٣].

كما وقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - في حديث آخر ما يدل على ترغيبه وحثه على تغيير المكان الذي صلى فيه المسلم صلاته المكتوبة عند عزمه على التنفل بعدها، كما ورد في حديث لأبي هريرة - رضي الله عنه - الذي قال فيه الرسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يتقدم أو يتأخر، أو عن

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٣/ ٤٧)، عون المعبود (٤٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الجمعة. باب الصلاة بعد الجمعة برقم (٢٠٤٢) بمثله (٨١٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) المنهاج (٦٩٧).

يمينه أو عن شماله في الصلاة»[١]. قال أحد العلماء: والمراد من قوله: «أيعجز» دليل على أنه لا ينبغي أن يصلي النفل في المكان الذي صلى فيه المكتوبة بل يتقدم أو يتأخر عن يمينه أو شماله ليفصل بين الفرض والنافلة، فالفصل بين الفريضة والنافلة إما أن يكون بالزمان كما في حديث عمر ومعاوية - رضي الله عنهما -، أو بالمكان بأن يتقدم من مكان إلى مكان كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -[٢].

وقد كان كذلك فعل النبي ﷺ، فقد كان من هديه - عليه الصلاة والسلام - أن يصلي المكتوبة في المسجد، والنافلة في بيته - عليه الصلاة والسلام -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (والسنة أن يفصل بين الفرض والنفل في الجمعة، وغيرها، كما ثبت عنه في الصحيح أنه نهى أن توصل صلاة بصلاة حتى يفصل بينهما بقيام أو كلام فلا يفعل ما يفعله كثير من الناس. يصل السلام بركعتي السنة، فإن هذا ركوب لنهي النبي ﷺ، وفي هذا من الحكمة للتمييز بين الفرض، وغير الفرض، كما يميز بين العبادة وغير العبادة)[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٩٤٩٢) بمثله (٦٦٣)، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة. باب في الرجل يتطوع في مكانه الذي صلى فيه المكتوبة برقم (١٠٠٦) بمثله (١٢٩٧). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(٢) انظر: عون المعبود (٤٧٨) بتصرف يسير.

(٣) الفتاوى (٢٤/ ٢٠٣).

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: (نهى - عليه الصلاة والسلام - عن أن توصل صلاة بصلاة الجمعة حتى يتكلم أو يخرج لئلا يتخذ ذريعة إلى تغيير الفرض، وأن يزاد فيه ما ليس منه)(١).

لهذا فقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أنه يستحب التحول للنافلة من موضع الفريضة، والأفضل أن يتحول إلى بيته، فإن فعل النوافل في البيوت أفضل، وإلا فإلى موضع في المسجد أو غيره لئلا يشتبه الفرض بالنافلة، وفيه تكثير لمواضع السجود(٢).

وهذه الخصلة الجاهلية لا تزال موجودة عند كثيرٍ من المسلمين ممن يجهلون ورود نص شرعي في النهي عنها، فالله المستعان.

* * *

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١١٧).

(٢) سبل السلام (٢/ ٨٥).

المسألة الثامنة والتسعون بعد المائة
تأخير الفطر فأمر بتعجيله

يذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية عند أهل الكتاب، وعند البعض من أهل البدع كالروافض، وهي تأخيرهم الفطر عند الصيام(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الكتاب في هذه الخصلة بالقول والعمل؛ فقد ورد عنه – عليه الصلاة والسلام – حديث نص فيه على وجود هذه الخصلة عند أهل الكتاب، وفي الوقت نفسه أرشد فيه هذه الأمة إلى كيفية مخالفة أهل الكتاب في هذه الخصلة، فقال – عليه الصلاة والسلام –: «لا يزال الدين ظاهرًا ما عجل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون»(٢).

قال العلماء: والمراد بهذا الحديث: أي ما دام الناس يبادرون إلى السنة بتعجيل الفطر فلا يزالون بخير، ولا يزال الدين غالبًا، وعاليًا، وواضحًا؛ لأن فيه مخالفةً لأعداء هذا الدين من أهل الكتاب، وقوام هذا الدين الحنيفي على مخالفتهم(٣).

---

(١) انظر.السنة للخلال (٣/ ٤٩٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ١٥٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الصيام. باب ما يستحب من تعجيل الفطر (٢٣٥٣) بمثله (١٣٩٨)، وابن ماجه في سننه في كتاب الصيام. باب ما جاء في تعجيل الفطر برقم (١٦٩٨) بمثله (٢٥٧٨) موسوعة الحديث الشريف، وصححه الحاكم (١/ ٤٣١). وقال الألباني: حسن.

(٣) انظر: سبل السلام (٢/ ٢٤٦)، نيل الأوطار (٤/ ٣٠٠)، عون المعبود (١٠٤٠)، شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٢٦).

وقال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[(١)].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: (في هذا الحديث حثٌّ على تعجيل الفطر بعد تحقق غروب الشمس، ومعناه: لا يزال أمر الأمة منتظمًا، وهم بخير، ما داموا محافظين على هذه السنة، وإذا أخروه كان ذلك علامة على فساد يقعون فيه)[(٢)].

وقد كان تعجيل الفطر من سنة النبي ﷺ الفعلية، فقد ورد عن عائشة - رضي الله عنها - أنه حين قيل لها عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ أحدهما يعجل الإفطار ويعجل الصلاة، والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة، فسألت - رضي الله عنها -: (أيهما الذي يعجل الإفطار ويعجل الصلاة؟ فقيل: عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -، فقالت - رضي الله عنها -: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ)[(٣)].

هذا وقد ورد في الحديث القدسي ما من شأنه أن يثير الهمم إلى العمل، والالتزام بسنة تعجيل الفطر، وذلك حين رُبطت هذه السنة بمحبة الله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «قال الله - عز وجل -: أحب عبادي إليّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الصوم. باب تعجيل الفطر برقم (١٩٥٧) بمثله (١٥٣)، ومسلم في صحيحه في كتاب الصيام. باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (٢٥٥٤) بمثله (٨٥٣) موسوعة الحديث الشريف.

(٢) المنهاج (٨٣٥).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الصيام. باب فضل السحور، وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (٢٥٥٦، ٢٥٥٧) بمثله (٨٥٣). موسوعة الحديث الشريف.

أعجلهم فطرًا»[١]. قال أحد العلماء عن هذا الحديث: (وقد صرح الحديث القدسي بأن معجل الإفطار أحب عباد الله إليه، فلا يرغب عن الاتصاف بهذه الصفة إلا من كان حظه من الدين قليلاً، كما تفعله الرافضة)[٢]. وقال آخر: (لعل السبب في هذه المحبة المتابعة للسنة، والمباعدة عن البدعة، والمخالفة لأهل الكتاب)[٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن حديث الرسول ﷺ القائل فيه: («لا يزال الدين ظاهرًا ما عجل...». هذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر هو لأجل مخالفة اليهود والنصارى، وإذا كان مخالفتهم سببًا لظهور الدين، فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة)[٤].

وقد ذكرت في مقدمة المسألة أن هذه الخصلة لا تزال موجودة حتى هذا العصر، حيث برزت هذه الخصلة عند الرافضة الذين اقتفوا في الكثير من عباداتهم آثار اليهود والنصارى[٥]، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب الصوم. باب ما جاء في تعجيل الفطر برقم (٧٠٠) بمثله (١٧١٦). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف.

(٢) نيل الأوطار (٤/ ٣٠٠).

(٣) تحفة الأحوذي (١/ ٩١٨).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١٣١).

(٥) انظر: السنة للخلال (٣/ ٤٩٨)، شرح أصول الاعتقاد (٤/ ١٥٥٠).

المسألة التاسعة والتسعون بعد المائة
أنهم اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية عند علماء أهل الكتاب ورؤسائهم، والتي نتجت عن كفرهم، وحبهم لمتاع الدنيا وعرضها الزائل. فقد كان سفلة اليهود والجهال منهم يجعلون لعلمائهم ورؤسائهم مأكلة[١] يأخذونها كل عام منهم، من ضروعهم، وزروعهم، ونقودهم؛ لهذا فقد حرص هؤلاء العلماء والرؤساء على العمل لاستبقاء هذه المأكلة، والرئاسة على هؤلاء السفلة والجهال؛ لهذا لم يتوانوا في سبيل الحصول على مرادهم هذا عن العمل على تحريف ما أنزله الله إليهم من الأحكام والحجج الواردة في الكتب المنزلة، كتغييرهم لحكم رجم الزاني، وتغييرهم لنعت النبي محمد ﷺ، واسمه خشية أن يؤمن به الناس ويتبعوه، فتنقطع عنهم هذه المأكلة[٢].

وقد أطلق الشارع - عز وجل - على عملهم هذا لفظ الشراء؛ فجاء ذكر هذه الخصلة في جميع الآيات الواردة في كتاب الله، والتي تناولت هذه الخصلة، على سبيل التوبيخ والوعيد والنهي عنها، فقال تعالى ناهيًا عنها:

---

(١) المراد بالمأكلة: ما جعل للإنسان لا يحاسب عليه. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٢٢)، تفسير البغوي (١/ ٤٥)، تفسير القرطبي (١/ ٣٧٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٧)، الدر المنثور (١/ ٢٠٢).

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾[(١)]، وقال تعالى متوعدًا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[(٢)]، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(٣)]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[(٤)].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: (وصف الله عز وجل محمدًا في التوراة في كتب بني إسرائيل، فلما قدم رسول الله حسده أحبار اليهود، فغيروا صفته في كتابهم، وقالوا: لا نجد نعته عندنا، وقالوا للسفلة: ليس هذا نعت النبي، الذي يخرج كذا وكذا كما كتبوه وغيروا، ونعت هذا كذا كما وصف، فلبّسوا بذلك على الناس قال: وإنما فعلوا ذلك لأن الأحبار كانت لهم مأكلة تطعمهم إياها السفلة لقيامهم على التوراة، فخافوا أن يؤمن

(١) سورة البقرة، الآية: (٤١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٧٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧٤).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٨٧).

السفلة، فتنقطع تلك المأكلة)[١].

قال البغوي - رحمه الله -: (وذلك أن رؤساء اليهود وعلمائهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سفلتهم وجهالهم، يأخذون كل عام منهم شيئًا معلومًا من زروعهم، وضروعهم، ونقودهم، فخافوا إن بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة، فغيروا نعته، وكتموا اسمه، فاختاروا الدنيا على الآخرة)[٢].

قال المفسرون: هذا توعد من الشارع - عز وجل - في الآيات السابقة لبني إسرائيل، ومن فعل فعلهم: بالهلاك والدمار والعذاب في الآخرة في واد الويل، وهو وادٍ في جهنم، لو سيرت فيه الجبال لماعت، وأن ما يأكلونه مقابل كتمان الحق سيكون نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة[٣].

يقول القرطبي - رحمه الله - عن هذه الآيات: (وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل، فهي تتناول من فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه، وقد تعين عليه حتى يأخذ عليه أجرًا، فقد دخل في مقتضى الآية... والله أعلم)[٤].

إن جميع الوعيد الذي ذكره الشارع في الآيات السابقة كان مراد الشارع

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة. باب في دخول عبد الله بن سلام على رسول الله × (٢/ ٥٣٧).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٤٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١١ - ٢٣٠)، تفسير ابن كثير (١/ ١١٨ - ٢٠٧).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ٣٧٤).

منه: تحذير عباده المؤمنين من قيام هذه الخصلة عندهم، وحثهم على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة.

لهذا جاءت آيات أخرى أثنى فيها الشارع على بعضٍ من أهل الكتاب؛ ممن خالفوا أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك لإيمانهم بما أنزل عليهم من الكتب، وتبليغهم لها كما أنزلت، والعمل بها من غير تحريف أو تبديل للأحكام، أو الحجج الواردة فيها.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي لا يحرفون ما أنزل إليهم في كتبه من نعت محمد ﷺ فيبدِّلونه، ولا غير ذلك من أحكامه وحججه فيه، لعَرَضٍ من الدنيا خسيس يُعطونه على ذلك التبديل، وابتغاء الرياسة على الجهال، ولكن ينقادون للحق، فيعملون بما أمرهم الله به فيما أنزل إليهم من كتبه، وينتهون عما نهاهم عنه فيها، ويؤثرون أمر الله تعالى على هوى أنفسهم)[٢].

كما وقد امتدح الشارع من العلماء من أتقنوا علمهم، ووعوه فحفظوه، وعملوا به لوجه الله، ثم دعوا إليه كما علموه، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[٣]، وقال

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩٩).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٦١).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٧).

تعالى: ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[١].قال الطبري - رحمه الله – في تفسير الآية: (أي كونوا أيها الناس سادة الناس وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربانيين بتعليمكم إياهم كتاب الله وما فيه من حلال وحرام، وفرض وندب، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم)[٢].

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فحذر - عليه الصلاة والسلام - من أن يكون مراد المرء بتعلمه للعلوم الشرعية عرض الدنيا، فقال - عليه الصلاة والسلام - محذرًا: «من تعلم علمًا يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة، يعني ريحها»[٣].قال العلماء: والمراد بهذا الحديث: أي من قصد في طلب علمٍ من العلوم التي يراد به وجه الله من العلوم الشرعية، وما يساندها من علوم عربية أمرًا من أمور الدنيا من المال أو الجاه، فإنه بذلك قد أتى على كبيرة من كبائر الذنوب، وقد حُرم عليه بذلك

(١) سورة آل عمران، الآية: (٧٩).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٤٣٨) بمثله (٥٩٩)، وأبو داود في سننه في كتاب العلم. باب في طلب العلم لغير الله برقم (٣٦٦٤) بمثله (١٤٩٤)، وابن ماجه في سننه في كتاب السُنة. باب الانتفاع بالعلم والعمل به برقم (٢٥٢) بمثله (٢٤٩٢) موسوعة الحديث الشريف. وصححه ابن حبان (٧٨)، والحاكم (١/ ٨٥). قال شعيب: إسناده حسن، وقال الألباني: صحيح.

رائحة الجنة[١].

وقال الإمام ابن رجب - رحمه الله – في الحض على المخالفة لهذه الخصلة: (وملاك الأمر أن يقصد بطلبه للعلم وجه الله، والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل على رسوله، وسلوك طريقه، والعمل بذلك، ودعاء الخلق إليه، ومن كان كذلك وفقه الله وسدده، وألهمه رشده، وعلّمه مالم يكن يعلم، وكان مـن العلماء الممدوحين في قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[٢]، وكان من الراسخين في العلم)[٣].

ويندرج تحت هذه الخصلة كل من كان عالمًا بالحق، ثم يعمد بعد ذلك إلى تحريف النصوص وتأويلها تأويلاً باطلاً، لينال بذلك رئاسة، أو حظًا من المال، أو الجاه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله – عن ذلك: (لقد وصف الله المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم اعتياضًا عن إظهاره بالدنيا... وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم، فإنهم قد يكتمون العلم اعتياضًا عنه برئاسة، أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله)[٤].وقال أيضًا: (فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان: أحدهما: عالم بالحق يتعمد خلافه، والثاني: جاهل متبع لغيره.فالأولون:

---

(١) انظر: الكبائر للذهبي (٧٥)، عون المعبود (١٥٦٦)، شرح رياض الصالحين (٤/ ١٧).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (١٦٨).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٩).

يبتدعون ما يخالف كتاب الله، ويقولون هو من عند الله، إما أحاديث مفتريات، وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل، ويعضدون ذلك بما يدعونه من الرأي والعقل، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكل، فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنًا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل)(١).

وقد ظهرت هذه الخصلة كثيرًا في هذا الزمان لدى أهل الأهواء جملة، كالرافضة، وتفصيلاً لدى البعض من المنتسبين إلى الفقهاء، ممن تلاعبوا في الأحكام وصرفوا النصوص إلى ما تهواه أنفسهم، فبدلوا الحق وأبطلوه، بما ينالونه من الرشا، وغير ذلك مما هم عليه اليوم(٢).

* * *

(١) الفتاوى (١٧/ ٤٣٣).

(٢) انظر: تفسير ابن سعدي (٥٧)، شرح مسائل الجاهلية للألوسي (٩٤)، شرح مسائل الجاهلية: د. صالح الفوزان (١١٣)، شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٣٤٠–٣٤٩).

المسألة المائتين
اشتراؤهم بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية، والتي كانت من خصال اليهود المشتهرة عنهم، وهي تركهم الوفاء بالعهود والمواثيق، ونقضهم لها، والحلف بأيمان كاذبة نظير الحصول على عوضٍ وبدلٍ خسيس من أعراض الدنيا وحطامها.

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حيث نص في كتابه على بيان الوعيد الشديد لمن قام بهذه الخصلة؛ وذلك من خلال ذكر العقوبات المترتبة عليها، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

قال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم هو عليها فاجرٌ لقي الله وهو عليه غضبان»(٢). فأنزل الله تعالى تصديق ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المساقاة، باب الخصومة في البئر والقضاء فيها برقم (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) بمثله، وفي كتاب الخصومات. باب كلام الخصوم بعضهم في بعض برقم =

ٱللَّهِ ...﴾ قال: فجاء الأشعث بن قيس[(١)]، فقال: فيَّ نزلت، كان لي بئر في أرض ابن عم لي، فقال لي رسول الله: شهودك، قلت: ما لي شهود، قال: فيمينه، قلت: يا رسول الله، إذًا يحلف، فذكر النبي ﷺ هذا الحديث، فأنزل الله ذلك تصديقًا له[(٢)]، وفي رواية: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقال النبي ﷺ: «بيِّنتك أو يمينه»، فقلت: إذا يحلف يا رسول الله، فقال النبي ﷺ[(٣)].... وذكر الحديث.

=

(٢٤١٦، ٢٤١٧) بمثله، وفي كتاب في الرهن في الحضر برقم (٢٥١٥، ٢٥١٦) بمثله، وفي كتاب الشهادات. باب سؤال الحاكم المدعي هل لك بينة؟ قبل اليمين برقم (٢٦٦٦، ٢٦٦٧، ٢٦٦٩، ٢٦٧٠) بمثله، وباب يحلف المدعى عليه حيثما وجبت عليه اليمين، ولا يصرف من موضع إلى غيره برقم (٢٦٧٣) بمثله، وفي باب قوله تعالى: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً...) برقم (٤٥٤٩، ٤٥٥٠) بمثله، وفي كتاب الإيمان والنذور. باب عهد الله عز وجل برقم (٦٦٥٩) بمثله، وباب قوله تعالى: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً)، وقوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)، وقوله تعالى: (ولا تقضوا الأيمان بعد توكيدها) برقم (٦٦٧٦) بمثله، وفي كتاب الأحكام. باب الحكم في البئر ونحوها برقم (٧١٨٣) بمثله، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) برقم (٧٤٤٥) بمثله (١٨٤، ١٨٩، ١٩٨، ٢١١، ٢١٢، ٣٧٣، ٥٥٦، ٥٥٨، ٥٩٩، ٦٢١)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة في النار برقم (٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، بمثله (٧٠١) . موسوعة الحديث الشريف.

(١) هو: الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية الكندي، كان من ملوك كندة، شهد اليرموك، والقادسية، شهد صفين، مات بعد قتل علي رضي الله عنه بأربعين ليلة سنة (٤٢هـ). انظر: الإصابة (٥٨).

(٢) سبق تخريجه ص(٩٥٠).

(٣) سبق تخريجه ص(٩٥٠).

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير الآية: (يعني بذلك - جل ثناؤه -: الذين يستبدلون بتركهم عهد الله الذي عهد إليهم، ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب التي أنزلها إلى أنبيائه، باتباع محمد وتصديقه، والإقرار به، وما جاء به من عند الله، وبأيمانهم الكاذبة التي يستحلون بها ما حرّم الله عليهم من أموال الناس التي ائتمنوا عليها عوضًا وبدلاً خسيسًا من عرض الدنيا وحطامها، فإن الذين يفعلون ذلك لاحظ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة وما أعد الله لأهلها فيها دون غيرهم....، ولا يكلمهم الله بما يسرُّهم، ولا يعطف عليهم بخير،......كما لا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذابٌ موجع)[1].

وقد وردت آيات عدة نهى الشارع فيها عن هذه الخصلة، وحذر منها ليخالف بذلك أهل الجاهلية، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[2].

قال الطبري - رحمه الله -: (أي لا تتخذوا أيمانكم بينكم دخلاً وخديعة بينكم)[3].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ

(١) انظر.تفسير الطبري (٣/ ٣١٩).

(٢) سورة النحل، الآية: (٩٤).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٦٤٠).

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

قال الطبري - رحمه الله - في معنى الآية: (أي لا تنقضوا عهودكم أيها الناس، وعقودكم التي عاقدتموها من عاقدتم مؤكِّديها بأيمانكم، تطلبون بنقضكم ذلك عرضًا من الدنيا قليلاً، ولكن أوفوا بعهد الله الذي أمركم بالوفاء به، يثبكم الله على الوفاء به، فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بذلك، هو خير لكم إن كنتم تعلمون)[٢].

وقد أرشد الشارع - جل ثناؤه - عباده المؤمنين بنص صريح في محكم كتابه إلى ما يلزم عليهم القيام به تجاه عهودهم، وأيمانهم من الوفاء والالتزام بها ليخالفوا بذلك أهل الجاهلية.

فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٣].

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (إن الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم، ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين، بعقود تكون بينهم بحقّ، مما لا يكرهه الله)[٤].

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة،

---

(١) سورة النحل، الآية: (٩٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٦٤٠).

(٣) سورة النحل، الآية: (٩١).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٦٣٦).

فقد حذر عليه الصلاة والسلام من نقض العهود، ونص على أنها خصلة من خصال النفاق، وحث على الوفاء بالعهود والالتزام بها، فجاءت نصوص السنة الدالة على ذلك متضافرة، وقد جاء ذكر بعض من هذه النصوص في موضع سابق[١].

وقد حذر النبي ﷺ من الأيمان الكاذبة، كما جاء في حديث الأشعث بن قيس – رضي الله عنه – السابق.

وكذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في التحذير عن مثل هذه الأيمان، وعن الأعراض التي لأجلها قامت هذه الأيمان الكاذبة، وإن كانت أعراضًا يسيرة، فقال – عليه الصلاة والسلام –: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال لـه رجـلٌ: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسـول الله؟ قال: «وإن كان قضيبًا من أراك»[٢].

قال أحد العلماء في قوله – عليه الصلاة والسلام –: («وإن كان قضيبًا من أراك» مبالغة في القلة، وأن استحقاق النار يكون بمجرد اليمين في اقتطاع الحق، وإن كان شيئًا يسيرًا لا قيمة له)[٣].

هذا وقد غلّظ – عليه الصلاة والسلام – في التشديد على مثل هذه الأيمان؛ وذلك بإدراجها ضمن كبائر الذنوب، فقال – عليه الصلاة

---

(١) في المسألة التاسعة والعشرين.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان. باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار برقم (٣٥٣) بمثله (٧٠١). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) نيل الأوطار (٩/ ٢٢٢).

والسلام -: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»(١).

قال ابن الأثير في المراد باليمين الغموس: (هي اليمين الكاذبة الفاجرة، كالتي يقتطع بها الحالف مال غيره، سميت غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار)(٢).

ويدخل في هذه الخصلة ما يقوم به بعض الباعة في سبيل إنفاق السلعة، وذلك بالحلف الكاذب.

لهذا حذر النبي ﷺ من ذلك، فقال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ» - فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات - فقيل له: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ فقال: المسبل إزاره، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»(٣).

قال ابن الجوزي - رحمه الله - والمراد بذلك: (أن يحلف لقد أعطيت بها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس برقم (٦٦٧٥) بمثله، وفي كتاب الديات، باب (ومن أحياها) برقم (٦٨٧٠) بمثله، وفي كتابه استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم. باب إثم من أشرك بالله، وعقوبته في الدنيا والآخرة قال الله عز وجل: (إن الشرك لظلم عظيم) برقم (٦٩٢٠) بمثله (٥٥٨، ٥٧٣، ٥٧٧). موسوعة الحديث الشريف. الكبائر: للذهبي (٥٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأيمان. باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، برقم (٢٩٣، ٢٩٤) بمثله (٦٩٦). موسوعة الحديث الشريف.

كذا، وما أعطي؛ لتنفق)[1].

وتظهر هذه الخصلة عند الكثير من ضعاف النفوس الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا وأعراضها، كقيام كثير من الباعة على إنفاق سلعهم بالحلف الكاذب، وقيام البعض من أصحاب الرئاسة من المسلمين على اغتصاب أموال وأملاك غيرهم من المسلمين الضعفاء بأيمان كاذبة.

كذلك ظهرت هذه الخصلة عند استشهاد الكثير من أهل البدع الضالة على صدق مذاهبهم الباطلة بالأيمان الكاذبة.

ومما يدخل أيضاً في هذه الخصلة ما يقوم هؤلاء الإرهابيون في هذا العصر من نقضهم للعهود، والمواثيق، وخروجهم عن جادة الحق بالخروج على ولاة أمرهم، وسفكهم للدماء، وزعزعة الأمن..وغيرها من الأعمال التي لا ينتج عنها الا الإفساد في الأرض . فأسأل الله لنا ولهم الهداية للحق والعمل به.

* * *

(١) كشف المشكل (١/ ٣٦٥).

المسألة الحادية بعد المائتين
القول بدوران الأرض كقول بعض الفلاسفة فأتى الشرع بالأدلة على ثبوتها

المسألة الثانية بعد المائتين
القول بثبوت الشمس فرده الله بقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾(١)

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هاتين المسألتين خصلتين من خصال الجاهلية عند بعض الفلاسفة، واللتان تمثلتا في زعمهم بدوران الأرض، وثبوت الشمس.

يذكر علماء الفلك أن للأرض دورتين دورة حول الشمس خلال سنةٍ كاملة لينتج عن ذلك الفصول الأربعة، ودورة حول نفسها خلال يومٍ كامل لينتج عن ذلك الليل والنهار، وهذه المسألة تُعد من المسائل الاجتهادية كما أنها من المسائل الخلافية بين العلماء، وذلك لأنه لم يرد فيها نصوص صريحة بنفي أو إثبات لا في الكتاب ولا في السنة. فالعلماء فيها على قولين:

منهم من يقول بدوران الأرض، مستدلين على ذلك بأدلة شرعية،

---

(١) سورة يس، الآية: (٣٨).

ولكنها غير صريحة في دلالتها.

ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ ﴾ فقالوا عن دلالة هذه الآية: إن هذه الآية تقول إن المجموعة الشمسية وما حولها تتحرك في الفلك(١)...

كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾(٢)، وقالوا عن دلالة هذه الآية: إن الله ضرب المثل في هذه الآية بحركة الأرض بمرور الجبال، وهي أبرز ما عليها، وليس ذلك في يوم القيامة، فليس في القيامة جبال(٣)... وغيرها من الأدلة.

وفي المقابل كان هناك من العلماء من قالوا بثبوت الأرض، واستدلوا على هذا القول بأدلة شرعية غير صريحة في دلالتها أيضًا. والتي منها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾(٤)، وقوله تعالى:

---

(١) انظر: حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن. لمحمد علي الصابوني. دار القلم، دمشق، سوريا، (ط١)، ٢٠٠٤م، ص(٣٣)، أدلة النصوص المصدقة على رد الأكاذيب الملفقة من أهل الإلحاد والزندقة. لسليمان بن عبدالرحمن بن حمدان. المدرس في المسجد الحرام، ص(٦٧)، هداية الحيران في مسألة الدوران، للشيخ عبد الكريم ابن صالح بن حميد، التميز للطباعة، بريدة. المملكة العربية السعودية، (ط٣)، ١٤٢٤هـ، (١٢٠).

(٢) سورة النمل، الآية: (٨٨).

(٣) انظر: حركة الأرض ودورانها (٤٣)، من علم الفلك القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم: د. عدنان الشريف. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان (ط٦)، ٢٠٠٤م، (١١١)، أدلة النصوص المصدقة (٧٦)، الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب. للشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز، (ط١)، ١٣٩١هـ، ص(٢٥).

(٤) سورة الرعد، الآية: (٣).

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[1] وغيرها من الأدلة إلا أن الناظر لأدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء يجدها أدلة غير صريحة بنفي دوران الأرض، أو إثبات دورانها؛ لهذا فهي من المسائل التي ينبغي للمسلم أن يتوقف فيها؛ نظرًا لعدم وضوح الأدلة المستدل بها على كل قول، ولعدم صراحتها في الدلالة على إثبات الدوران أو نفيه، وقد بين الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله – القول الصحيح في هذه المسألة، حين سئل عنها فأجاب عن ذلك بقوله: (خلاصة رأينا حول دوران الأرض أنه من الأمور التي لم يرد فيها نفي ولا إثبات، لا في الكتاب ولا في السنة، فقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[2] ليس بصريح في دورانها وإن كان بعض الناس قد استدل بها محتجًا بأن قوله: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يدل على أن للأرض حركة، لولا هذه الرواسي لاضطربت بمن عليها، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[3] ليس بصريح في انتفاء دورانها؛ لأنها إذا كانت محفوظة من الميَدَان، فإن دورانها بما ألقى الله فيها من الرواسي صارت قرارًا، وإن كانت تدور... أما ما ذكره علماء الفلك العصريون، فإنه لم يصل عندنا إلى حد اليقين، فلا ندع من أجله ظاهر كتاب ربنا وسنة نبينا..)[4].

أما ما يتعلق بما ذكره بعض علماء الفلك من الزعم بأن الشمس ثابتة لا

---

(١) سورة النمل، الآية: (٦١).

(٢) سورة النحل، الآية: (١٥).

(٣) سورة غافر، الآية: (٦٤).

(٤) فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله – رقم (٨٥٠٦).

تتحرك، فمعلومٌ بطلانه بصحيح المنقول وصريح المعقول؛ إذ أن جميع الأدلة النقلية، والحسية دالة على خلاف ذلك.

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في زعمهم هذا، بنصوصٍ صريحةٍ من الكتاب والسنة دالةٍ على حركة الشمس. ومن هذه النصوص الصريحة ما استدل به المؤلف – رحمه الله تعالى – من قول الشارع – عز وجل – في محكم كتابه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[(١)].

وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر – رضي الله عنه – حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ﴾»[(٢)].

وقال ابن عباس، وابن مسعود – رضي الله عنهما – عن مراد هذه الآية: (أي أن الشمس لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهارًا لا تفتر ولا تقف)[(٣)].

---

(١) سورة يس، الآية: (٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الخلق باب صفة الشمس والقمر برقم (٣١٩٩) بمثله، وفي كتاب التفسير، باب سورة يس، برقم (٤٨٠٢) بمثله وبرقم (٤٨٠٣) بمثله مختصرًا، وفي كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: (وكان عرشه على الماء)، وقوله تعالى: (وهو رب العرش العظيم) برقم (٧٤٢٤) بمثله، وفي باب قوله تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه)، وقوله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيب) برقم (٧٤٣٣) بمثله مختصرًا (٢٥٩، ٤٠٨، ٦١٨، ٦١٩). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٣).

وقال بعض العلماء عن دلالة هذه الآية: إن هذه الآية تقول إن المجموعة الشمسية وما حولها تتحرك في الفلك، وإن الشمس تجري إلى بعيد فيه، وليس إلى قريب؛ إذ لا ينبغي لها أن تدرك القمر بالنزول إلى فلكه، وأنها تجري لمستقر لها(١).

وقال آخرون: إن الآية السابقة نص صريح في جريان الشمس في فلكها لمستقرها للذين أنكروه، وزعموا أنها ثابتة تدور حول نفسها(٢).

ومن الأدلة على إثبات حركة الشمس أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾(٣)، وقوله تعالى أيضًا: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(٥)، وقال أيضًا: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ

---

(١) انظر: حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن: لمحمد علي الصابوني. ص(٣٣)، أدلة النصوص المصدقة على رد الأكاذيب الملفقة من أهل الإلحاد والزندقة: سليمان بن عبدالرحمن بن حمدان المدرس في المسجد الحرام، (٦٧)، هداية الحيران (١٢٠).

(٢) انظر: أدلة النصوص المصدقة على رد الأكاذيب الملفقة من أهل الإلحاد والزندقة (٦٧)، الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب. ابن باز. ص(٣٨ – ٣٩).

(٣) سورة الرعد، الآية: (٢).

(٤) سورة الكهف، الآية: (١٧).

(٥) سورة لقمان، الآية: (٢٩).

ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ﴾[١].

وقد علق ابن حزم - رحمه الله – على هذه الآية فقال: (هذه الآية نص على دوران الشمس، فهي التي يكون منها ضوء النهار بإشراقها وظلمة الليل بمغيبها...، وقد قام البرهان الضروري المشاهد بالعيان على دورانها حول الأرض من مشرق إلى مغرب... كذلك أخبر تعالى – في سورة يس[٢] – أن الشمس والقمر والنجوم سابحة في الفلك، ولم يخبر أن لها سكونًا)[٣].

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله – عن ذلك أيضًا: (اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوع الشمس من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عند العالم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم)[٤]. هذا والله أعلم.

* * *

(١) سورة الزمر، الآية: (٥).

(٢) سورة يس، الآية: (٤٠). قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾.

(٣) الفصل (١/ ٣٥٢ – ٣٥٥).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٩).

المسألة الثالثة بعد المائتين
أنهم يتدينون في السياحة فخالفهم النبي ﷺ فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»[(١)]

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة أن من خصال الجاهلية عند أهل الكتاب التعبد لله تعالى والتقرب إليه بالخروج عن الديار، ومفارقة الأمصار، والذهاب في الأرض وسكن البراري.

قال ابن قتيبة[(٢)] – رحمه الله –: (السياحة مفارقة الأمصار، والذّهاب في الأرض، كفعل يحيى بن زكريا – عليه السلام – حين ساح ولزم أطراف الأرض، وفِعْل غيره من عبّاد بني إسرائيل)[(٣)].

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الكتاب في هذه الخصلة، فقد أرشد عباده المؤمنين على لسان نبيه محمد ﷺ إلى أن سياحة هذه الأمة هي الجهاد في سبيل الله. وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – على ذلك

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد. باب النهي عن السياحة برقم (٢٤٨٦) بمثله (١٤٠٧). موسوعة الحديث الشريف. وصححه الحاكم (٢/ ٨٣)، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن.

(٢) هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، كان فاضلاً، ثقة سكن بغداد من تصانيفه: غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن، وتأويل مشكل الحديث توفي (٢٩٦هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/ ٤٤).

(٣) غريب الحديث. لابن قتيبة (١/ ١٨١).

بالحديث الذي ورد فيه: (أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياحة [في السياحة]، فقال النبي ﷺ: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله - عز وجل -).

قال أحد العلماء والمراد بالسياحة: (مفارقة الأمصار، وسكنى البراري، وترك الجمعة والجماعات، وقد قال النبي ﷺ للسائل (إن سياحة أمتي الجهاد...)؛ لأن هذا السائل استأذن النبي ﷺ في الذهاب في الأرض قهرًا لنفسه بمفارقة المألوفات، والمباحات، واللذات، وترك الجمعة، والجماعات، وتعليم العلم ونحوه، فرد عليه بذلك)(١).

وقد رغب الشارع - عز وجل - عباده المؤمنين بالجهاد في سبيله، وحثهم على ذلك، تارةً ببيان فضل الجهاد وعظم جزائه، وتارة بالنص على محبته تعالى للمجاهدين، وإلى غير ذلك من الوسائل والأساليب التي حث فيها عباده على الجهاد في سبيله.

ولا عجب في ذلك، فالجهاد عبادة من العبادات ذات النفع المتعدي؛ إذ لا يعود نفعها على فاعلها فقط؛ بل ويتعداه لغيره في الدين، والدنيا؛ كما وأنه عبادة قد اشتملت على جميع أنواع العبادات الباطنة، والظاهرة من المحبة لله، والخشية منه، والتوكل عليه، وذكر الله، وبذل الأنفس والأموال... وغيرها من الأعمال الظاهرة والباطنة.

وسأذكر بإذن الله - تعالى - بعضًا من النصوص الواردة في الكتاب والسنة الدالة على عِظم مكانة الجهاد في سبيل الله، وعِظم فضله وثوابه من

---

(١) عون المعبود (١٠٨٥).

غير حصر لهذه الأدلة؛ إذ لا مجال لحصرها واستقصائها في هذا الموضع.

فقال تعالى مرغبًا بالجهاد ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣)، وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾(٤)، ثم بيّن الشارع - عز وجل - في آيات أخرى الجزاء العظيم الذي رتبه لهؤلاء المجاهدين في سبيله، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾(٥)، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ

(١) سورة الأنفال، الآية: (٧٤).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٢٠).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٤١).

(٤) سورة الحجرات، الآية: (١٥).

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٥٤).

وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

قال القرطبي - رحمه الله -: (اشترى الله سبحانه وتعالى من العباد إتلاف أنفسهم، وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضًا عنها إذا فعلوا ذلك)(٢).

كذلك رغب الشارع عباده المؤمنين بالجهاد في سبيله بالنص على محبته تعالى لهؤلاء المجاهدين في سبيله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٣).

إن القارئ لكتاب الله - عز وجل - قلما يجد سورة قد خلت من الحث على الجهاد في سبيل الله، أو في بيان فضل الجهاد وعظم ثوابه، وهذا إن دل، إنما يدل على عِظم شأن هذه العبادة عند الله - عز وجل - لما فيه من إعلاء كلمة الله، ونصر الإسلام، والمسلمين، وغير ذلك من المصالح العظيمة الدينية والدنيوية.

لهذا فقد خالف هدي نبينا محمد ﷺ هدى أهل الكتاب في هذه الخصلة، فقد تواترت عنه - عليه الصلاة والسلام - الأحاديث المتعلقة بالجهاد، والتي اشتملت على الحث والترغيب في الجهاد في سبيل الله، وعلى

---

(١) سورة التوبة، الآية: (١١١).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٢٤٣).

(٣) سورة الصف، الآية: (٤).

بيان فضله وعِظم جزائه. فقد سئل النبي ﷺ: «أي العمل أحب إليه؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي قال: الجهاد في سبيل الله...»(١).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض...» (٢).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»(٣).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة إن قتل أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، مع ما نال من أجر أو غنيمة»(٤).

---

(١) سبق تخريجه (٥٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجهاد. باب درجات المجاهدين في سبيل الله برقم (٢٧٩٠) بمثله، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس) برقم (٧٤٢١) بمثله (٢٢٥، ٦١٨). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد. باب الغدوة والروحة في سبيل الله وقاب قوس أحدكم في الجنة برقم (٢٧٩٢) بمثله، وفي باب الحور العين وصفتهن برقم(٢٧٩٦) بمثله وزيادة في آخره، وفي كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار برقم (٦٥٦٨) بمثله وزيادة في آخره (٢٢٥، ٥٥٠)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة. باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله برقم (٤٨٧٣، ٤٨٧٤، ٤٨٧٥) بمثله (١٠١٥). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ×: (أحلت لكم الغنائم، وقال الله عز وجل: (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) برقم (٣١٢٣) بمثله (٢٥١)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله برقم (٤٨٦١) بمثله =

قال النووي - رحمه الله - عن معنى هذا الحديث: (إن الله تعالى ضمن أن الخارج للجهاد ينال خيرًا بكل حال، فإما أن يستشهد فيدخل الجنة، وإما أن يرجع بأجر، وإما أن يرجع بأجر وغنيمة)(١).

إن جميع هذه الأدلة من الكتاب والسنة دلت دلالةً نصية على فضل الجهاد في سبيل الله، كما ودلت دلالةٌ ضمنية على بطلان هذه الخصلة الجاهلية، إلا أن هذه الخصلة قد ظهرت عند بعض أهل البدع من عباد ونساك الصوفية، مع العلم أن جمعًا من العلماء - رحمهم الله - قد بينوا فساد وبطلان هذه الخصلة بعبارات صريحة.

فقد سئل الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - عن الرجل يسيح يتعبد أحب إليك، أو المقام في الأمصار؟ فقال - رحمه الله -: (ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين)(٢).

وقال ابن الجوزي - رحمه الله - عن هذه الخصلة: (قد لبّس إبليس على خلق كثير من الصوفية، فأخرجهم إلى السياحة، لا إلى مكان معروف، ولا إلى طلب علم... لذا فالسياحة والخروج لا إلى مكان مقصود منهي عنه، إذ نهى النبي ﷺ عن السعي في الأرض في غير حاجة، ومن قال بغير ذلك

=

(١٠١٤). موسوعة الحديث الشريف، الإيمان لابن منده (١/ ٣٩٦).

(١) المنهاج (١٤٤٧).

(٢) المسائل والرسائل (٢/ ٢٧٠).

فقد خالف السنة)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه، وليس من عمل هذه الأمة، وهي من الرهبانية المبتدعة)[٢].

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - أيضًا: (عوض الله عباد المؤمنين عن السياحة، والرهبانية بالجهاد)[٣].

وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - معاني أخرى للسياحة مع معنى الجهاد، فقالوا: إن من معاني السياحة أيضًا الصيام، وذكر الله ومحبته، والإنابة إليه، والشوق إلى لقائه، وكل سفر في القربات كالحج، والعمرة، وطلب العلم، وصلة الأقارب... ونحو ذلك[٤].

والناظر لمعاني السياحة التي نص عليها الشرع، والتي فسرها العلماء - رحمهم الله - لا يجد من ضمنها السياحة بمعنى الخروج من الديار، ومفارقة الأمصار، وسكنى البراري، وترك الجمعة والجماعات كما هو ظاهرٌ عند هؤلاء المبتدعة، وهذا دليلٌ صريح على بطلان هذه الخصلة.

أخيرًا لابد من التنبيه على أن لفظ السياحة في هذا العصر يطلق على السفر للنـزهة ونحوها، لهذا فلفظ السياحة بهذا المعنى لفظ مجمل منها ما

---

(١) تلبيس إبليس (٣٦٣).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦٤٣)، للاستزادة انظر. الاقتضاء (١٩٥).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧١٨).

(٤) انظر. تفسير ابن سعدي (٣٥٣)، حادي الأرواح (٥٩).

هو مشروع كالسفر لصلة الأرحام، وطلب العلم، والعلاج، والنـزهة في المناطق المباحة، ومنها ما هو ممنوع، كالسفر لبلاد الكفر، والإباحية باسم السياحة، وكالسفر لزيارة القبور ونحوها، فهذا النوع من السياحة داخلٌ تحت دائرة الممنوع الذي وردت النصوص الشرعية بالنهي عنه[١].

* * *

(١) للاستزادة انظر: الآداب الشرعية (٢٧٤)، فتاوى اللجنة الدائمة (٢/ ١٠٧)، فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز، رقم الفتوى (٣٧٣٨).

المسألة الرابعة بعد المائتين
أنهم يقومون على عظمائهم فنهى عنه
فقال: (فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم....)[١] الحديث

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – بهذه المسألة أن من خصال الجاهلية عند الفرس والروم قيام أعوان الملوك وتُباعهم على ملوكهم وعظمائهم وهم قعود.

وقد استدل المؤلف – رحمه الله تعالى – بالحديث الدال على وجود هذه الخصلة عند أهل فارس والروم، والذي تضمن نهي النبي ﷺ عن هذه الخصلة، والأمر بمخالفتهم فيها.

قال جابر – رضي الله عنه –: اشتكى رسول الله ﷺ، فصلينا وراءه، وهو قاعد، وأبو بكر – رضي الله عنه – يُسمع الناس تكبيرهُ، فالتفت إلينا فرآنا قيامًا، فأشار إلينا فقعدنا، فصلينا بصلاته قعودًا، فلما سلم قال: «إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم، إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا، وإن صلى قاعدًا فصلوا قعودًا».

قال النووي – رحمه الله –: في هذا الحديث نهي عن قيام الغلمان والتُّباع

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. في كتاب الصلاة. باب ائتمام المأموم بالإمام برقم (٩٢٨) بمثله (٧٤٤). موسوعة الحديث الشريف.

على رأس متبوعهم الجالس لغير حاجة)[١]، وقال أحد العلماء أيضًا: وفي هذا الحديث حثٌ في نفس الوقت على الاقتداء بالإمام في قوله: «ائتموا بأئمتكم»[٢].

كما ورد حديث آخر عن النبي ﷺ تضمن الحث على متابعة الإمام والاقتداء به في القيام والجلوس؛ حرصًا منه - عليه الصلاة والسلام - على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، فقال ﷺ في ذلك: «إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، وإذا صلى جالسًا فصلوا جلوسًا»[٣].

قال بعض أهل العلم في شرح الحديث: (وهذا مراد قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ليؤتم به»، أي: ليقتدى به في حال كان قائمًا يكونون قائمين، وفي حال كان جالسًا يكونون جالسين)[٤].

وقد أجمع الصحابة - رضوان الله عليهم - على أن الإمام إذا صلى

---

(١) المنهاج (٤٤٨).

(٢) انظر.عون المعبود (٣٠٢) بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب الأذان. باب إنما جعل الإمام ليؤتم به برقم (٦٨٨، ٦٨٩) بمثله، وفي كتاب التقصير. باب صلاة القاعد برقم (١١١٣، ١١١٤) بمثله، وفي كتاب السهو. باب الإشارة في الصلاة برقم (١٢٣٦) بمثله، وفي كتاب المرض، باب إذا عاد مريضًا فحضرت الصلاة فصلى بهم جماعة برقم (٥٦٥٨) بمثله (٥٥، ٨٧، ٩٦، ٤٨٤)، ومسلم في صحيحه في كتاب الصلاة. باب ائتمام المأموم بالإمام برقم (٩٢١، ٩٢٩، ٩٣٠) بمثله (٧٤٤). موسوعة الحديث الشريف.

(٤) عون المعبود (٣٠٢).

قاعدًا كان على المأمومين أن يصلوا قعودًا، وأفتى بذلك بعض التابعين[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: علل النبي ﷺ أمره للصحابة بترك القيام الذي هو فرض في الصلاة؛ بأن قيام المأمومين مع قعود الإمام يشبه فعل فارس والروم بعظمائهم في قيامهم وهم قعود، ومعلوم أن المأموم إنما نوى أن يقوم لله لا لإمامه، وهذا تشديد عظيم في النهي عن القيام للرجل القاعد)[(٢)].

وقال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - أيضًا عن ذلك: (إن أمر النبي ﷺ للصحابة أن يصلوا خلفه جلوسًا إذا صلى جالسًا، وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لكي لا يقوموا على رأسه وهو جالس؛ وما ذاك إلا سدًا لذريعة مشابهة الكفار؛ حيث يقومون على ملوكهم وهم قعود)[(٣)].

إلا أن هذه الخصلة قد ظهرت في هذا الزمن الحاضر لدى الكثير من المسلمين، ممن ابتلوا بالتشبه بأعداء الله تعالى، فقد تجلت في قيام الشُّرط، وغيرهم من أعوان الملوك وخدامهم، على الملوك والرؤساء وهم قعود، مع العلم أنه لا نزاع في كراهة هذا الأمر والمنع منه[(٤)].

كما وتظهر هذه الخصلة جليةً عند أهل الكتاب في محافلهم ومؤتمراتهم، فعند جلوس الملوك والرؤساء والسادة ورجال الدين والوجهاء وغيرهم يبقى الأتباع والخدم قائمين طوال الوقت. فالله المستعان.

---

(١) نيل الأوطار (٣/ ٢١٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١٤٠).

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١١٦)، للاستزادة انظر. الطب النبوي (١١٦).

(٤) للاستزادة. انظر: الدرر السنية (١٥/ ٣٧٩ - ٣٩٥).

المسألة الخامسة بعد المائتين
الدعاء بدعوى الجاهلية فقال: ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية[1]

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين، والتي كانت عند العرب قبل الإسلام قد جرت بها عاداتهم، وهي دعاؤهم بدعوى الجاهلية حين يموت لهم ميت، وذلك بالدعاء بالويل والثبور، وبندب الميت والنياحة عليه، والتعزي بعزائهم، وذلك بالدعاء إلى القبائل، والعصبية لها، وللأنساب، والمذاهب، والمشايخ، والطوائف ونحوها.

فمما قيل عن ذلك: (كان العرب في الجاهلية يوصون أهليهم بالنوح عليهم إذا ماتوا، وبندبهم، وذلك بتعديد محاسن الميت؛ كذلك كان إذا مات فيهم ميت له قدر، ركب راكب فرسًا، وجعل يسير في الناس ويقول: نعاء فلانًا، أي أظهر خبر وفاته)[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز. باب ليس منا من شق الجيوب برقم (١٢٩٤) بمثله، وفي باب ليس منا ضرب الخدود برقم (١٢٩٧) بمثله، وفي باب ما ينهى عن الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة برقم (١٢٩٨) بمثله وفي كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية برقم (٣٥١٨) بمثله (١٠١، ٢٨٧)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية برقم (٢٨٥) بمثله (٦٩٥). موسوعة الحديث الشريف، السنة للخلال (٥/ ٣ -–٧)، الإيمان لابن منده (٢/ ٦٢٢).

(٢) بلوغ الأرب (٣/ ١١ - ١٤).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة حين توعد بالبراءة ممن قام بهذه الخصلة، وقد استدل المؤلف - رحمه الله - بالحديث المشتمل على هذا الوعيد، فقد قال - عليه الصلاة والسلام -: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

قال بعض أهل العلم في بيان المراد من هذا الحديث والمراد بدعوى الجاهلية: بقوله «ليس منا»: أي ليس على طريقتنا وسنتنا من دعا بدعوى الجاهلية، فقد نهى النبي ﷺ في هذا الحديث عما يدخل تحت الكسب، ولم ينه عن البكاء والحزن، والمراد (بدعوى الجاهلية) ما كانوا يذكرونه عند موت الميت تارة من تعظيمه ومدحه، وتارة من الندب عليه، مثل قولهم: واجبلاه، واعضداه وانقطاع ظهراه، والدعاء بالويل والثبور، ونحو ذلك[(١)].

وقال القاضي عياض - رحمه الله - في بيان المراد بدعوى الجاهلية: (دعوى الجاهلية هي النياحة، وندب الميت، والدعاء بالويل والثبور وشبهه)[(٢)].

وقال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: ودعوى الجاهلية ندب الميت، وتكون دعوى الجاهلية في العصبية، وقد ذم النبي في هذا الحديث من دعا بدعوى الجاهلية، فمعلومٌ أن إضافة النبي ﷺ أي أمرٍ إلى الجاهلية يقتضي بذلك أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في

---

(١) انظر: كشف المشكل (١/ ٢٧٩)، عمدة القاري (٨/ ٨٧)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٨٢).

(٢) المنهاج (١٩٨).

دين الإسلام[١].

أيضاً بين الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله – المراد بدعوى الجاهلية ،وأنها من الألفاظ التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يكرهها وينهى عنها فقال: (ومنها النهي عن سب الديك.... ومنها الدعاء بدعوى الجاهلية، والتعزي بعزائهم كالدعاء إلى القبائل والعصبية لها وللأنساب، ومثله التعصب للمذاهب، والطرائق والمشايخ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونه منتسبًا إليه، فيدعو إلى ذلك، ويُوالي عليه، ويُعادي عليه، ويزِنُ الناس به، كل هذا من دعوى الجاهلية)[٢].

ويقول الشيخ سليمان- رحمه الله – عن جميع أقوال العلماء التي سبق ذكرها في بيان المراد بدعوى الجاهلية: (والصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله)[٣]، لهذا لم يقتصر النبي ﷺ حين حث أمته على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة فقط بالوعيد على من قام بها بالبراءة منه وحسب، بل وجاء عنه وعيد في حديث آخر بعبارة أشد، حين نص - عليه الصلاة والسلام - على لعن من قام بأفعالٍ تدخل ضمن هذه الخصلة فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور»[٤].

---

(١) انظر.اقتضاء الصراط المستقيم (١٤٤ – ١٤٥)بتصرف.

(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٢١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الجنائز. باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود وشق =

ويستدل من هذا على أن كل فعل يدخل ضمن هذه الخصلة من النياحة، ولطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، وغيرها من أفعال الجاهلية المشتملة على التسخط على الله - عز وجل -، وعدم الصبر على أقداره كبيرةٌ من كبائر الذنوب.

وقد قال العلماء - رحمهم الله - عن ذلك: ويحرم الندب، وهو تعديد محاسن الميت، والنوح وهو رفع الصوت بالندب، ومثله إفراط رفعه بالبكاء، وإن لم يقترن بندب، ولا نوحٍ وضرب، نحو لطم الخدّ، وشق الجيب، ونشر الشعر، وحلقه، ونتفه، وتسويد الوجه، وإلقاء الرماد على الرّأس، والدعاء بالويل والثبور: أي الهلاك، فهذا كله تسخط على قضاء الله، وعدم رضا بالمقضي، وقد جاء الحديث بلعن من فعلها، مما يدل على أن هذه الأمور من الكبائر(١).

فالواجب على المسلم مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك بالصبر على أقدار الله تعالى، والرضى والتسليم له تعالى.

وقد خالف الشارع - عز وجل - في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ أهل الجاهلية في هذه الخصلة، وذلك بنهي عباده المؤمنين عن القيام بهذه الخصلة، كما جاء في الأحاديث السابقة ثم بإرشادهم إلى ما يعود عليهم

=

الجيوب برقم (١٥٨٥) بمثله (٢٥٧١) موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: صحيح.

(١) انظر: الكبائر للذهبي (٩٤)، عدة الصابرين (١١٢، ١١٣)، الزواجر (١/ ٢٣٠)، تيسير العزيز الحميد (٤١٥)، فتح المجيد (٣٦٩).

بالنفع العميم، والخير العظيم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾(١).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسيره لهذه الآية: (أخبر الله أن المؤمن إذا سلم الأمر إلى الله، ورجع واسترجع عند المصيبة، كتب له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى)(٢).

وقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»(٣).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أمر المؤمن كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»(٤)، وفي حين حث النبي ﷺ في هذه الأحاديث على الصبر والرضا على أقدار الله، بيّن في حديث آخر - عليه الصلاة والسلام - بهديه إباحة البكاء على وجه الرحمة والرقة،

---

(١) سورة البقرة، الآيات: (١٥٥ - ١٥٧).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الزهد. باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم (٢٣٩٦) بمثله (١٨٩٢)، وابن ماجه في سننه في كتاب الفتن. باب الصبر على البلاء برقم (٤٠٣١) بمثله (٢٧١٩). قال الترمذي: حسن غريب. موسوعة الحديث الشريف. وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٤٤٢٠) بمثله (١٧٧٧).

مما يدل على عدم معارضة ذلك للصبر والرضا، فقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - لما مات ابنه إبراهيم قال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزنون»(١).

وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في الحث على الصبر: (لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت)(٢).

وقال الحسن البصري - رحمه الله - عن ذلك: (الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده)(٣).

إلا أن هذه الخصلة الجاهلية لا تزال موجودة إلى هذا اليوم، وأعظم من تتمثل فيهم هم الرافضة، وذلك في ذكرى العزاء الحسيني يوم عاشوراء، فلهم في ذلك حماقات عجيبة، منها: ضرب أنفسهم بالسياط، وشق جباههم بالسيوف والسكاكين، ولطمها بالأكف، وشق الجيوب، والنياحة على من قد قتل من أمد طويل، وندبهم، بل ونظموا لذلك المسيرات، وكتبوا اللافتات السوداء المعبرة عن عميق حزنهم. كما ويدخل في هذه الخصلة ما يكون في بعض البلاد الإسلامية عند موت الملوك والرؤساء، مما يسمى بإعلان الحداد الرسمي، وما يصاحبه من بدع، كذلك ما يجرى عند

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز. باب قول النبي ×: «إنا بك لمحزنون» برقم (١٣٠٣) بمثله مطولاً (١٠٢)، ومسلم في صحيحه في كتاب الفضائل. باب رحمته × الصبيان والعيال، وتواضعه، وفضل ذلك برقم (٦٠٢٥) بمثله (١٠٨٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) عدة الصابرين (١٠٢).

(٣) عدة الصابرين (١٠٢).

كثير من المسلمين حين يموت لهم ميت من لطم الخدود، والنياحة، والدعاء بالويل، ورفع الأصوات بالبكاء، والتسخط على القدر، وغيرها من الصور الداخلة في هذه الخصلة[١]. فنسأل الله لنا ولهم الهداية والسداد.

* * *

(١) انظر: تلبيس إبليس (٤٨٢)، الفتاوى (٤/ ٥١٢ – ٥١٣)، (٢٥/ ٣٠٧ – ٣١٠)، منهاج السنة النبوية (١/ ٣٣ – ٣٦)، (٤/ ٤٦٨)، الاستقامة (٢١٧ – ٢١٨)، اللمع في تجلية البدع: لمحمد حسين. تقديم خيري ركوة. دار الدعوة. الإسكندرية. مصر (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م (٥١ – ٥٧)، شرح مسائل الجاهلية: د. يوسف السعيد (٦٧٨ – ٦٨٥)، البدع والمحدثات وما لا أصل له (٣٣١).

المسألة السادسة بعد المائتين
الاشتمال بالثوب كفعل اليهود فنهى عنه

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية، والتي كانت عند اليهود، وهي الاشتمال بالثوب.

والاشتمال بالثوب عند اليهود له صورتان، أطلق على أحدهما الصماء، وكلتا الصورتين نص الشارع على النهي عنهما.

فالاشتمال بالثوب عند أهل اللغة يراد به: هو أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى، وعاتقه الأيسر؛ ثم يرد ثانيه من خلف على يده اليمنى وعاتقه الأيمن، فيغطيهما جميعًا، أو أن يشتمل بثوبٍ واحد ليس عليه غيره ثم يضعه من أحد جانبيه، فيضعه على منكبه، فيبدو منه فرجه[(١)].

وقال الخطابي - رحمه الله - عن المراد بالاشتمال المنهي عنه: (اشتمال اليهود المنهي عنه هو أن يجلل بدنه الثوب، ويسبله من غير أن يشيل طرفه، واشتمال الصماء هو أن يجلل بدنه الثوب، ثم يرفع طرفيه على عاتقه الأيسر)[(٢)].

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي اليهود في هذه الخصلة بالنهي عنها، كما ورد في حديث عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا

(١) القاموس المحيط (٤/ ١٤٢).

(٢) معالم السنن (١/ ١٧٨).

كان لأحدكم ثوبان فليصل فيهما، فإن لم يكن إلا ثوب واحد فليتزر به، ولا يشتمل اشتمال اليهود»(١).

وفي حديث آخر ورد عنه - عليه الصلاة والسلام -: «أن النبي ﷺ نهى عن اشتمال الصماء»(٢). كما ورد في حديث جابر - رضي الله عنه - أنه صلى بثوب واحد اشتمل به، فسأله النبي ﷺ: «ما هذا الاشتمال الذي رأيت» قال جابر - رضي الله عنه -: كان ثوبٌ، فقال له النبي ﷺ: «فإن كان واسعًا فالتحف به، وإن كان ضيقًا فاتزر به»(٣).

قال أحد العلماء: ويكره اشتمال الصماء، وهو أن يضطبع بالثوب ليس عليه غيره؛ سواء كان في الصلاة أو في غير الصلاة، لأن التشبه بالكفار

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٣٥٦) بمثله (٤٥٦)، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة. باب إذا كان الثوب ضيقًا يتزر به برقم (٦٣٥) بمثله (١٢٧٠) موسوعة الحديث الشريف. وصححه النووي. وقال الألباني صحيح وقال: جاء مرفوعًا وموقوفًا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة. باب ما يستر من العورة برقم (٣٦٧، ٣٦٨) بمثله، وفي كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر برقم (١٩٩١) بمثله، وفي كتاب اللباس، باب اشتمال الصماء برقم (٥٨١٩) بمثله، وبرقم (٥٨٢٠) بمثله مطولاً، وبرقم (٥٨٢٢) بمثله، وفي كتاب الاستئذان، باب الجلوس كيفما تيسر برقم (٦٢٨٤) بمثله (٣٢، ١٥٦، ٤٩٦، ٤٩٧)، ومسلم في صحيحه في كتاب اللباس، باب النهي عن اشتمال الصماء والاحتباء في ثوب واحد كاشفًا بعض عورته وحكم الاستلقاء على ظهره رافعًا إحدى رجليه على الأخرى برقم (٥٤٩٩، ٥٥٠١، ٥٥٠٢) بمثله وبرقم (٥٥٠٠) بنحوه (١٠٥٣). موسوعة الحديث الشريف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، باب إذا كان الثوب ضيقًا برقم (٣٦١) بمثله (٣١). موسوعة الحديث الشريف.

مكروه في كل وقت، ولأن التشبه بهم منهي عنه بالإجماع[١].

وقال النووي - رحمه الله -: واشتمال الصماء عند أكثر أهل اللغة هو بأن يشتمل بالثوب حتى يجلل به جسده لا يرفع منه جانبًا، فلا يبقى ما يخرج منه يده. أما عند الفقهاء فيقولون: هو أن يشتمل بثوب ليس عليه غيره، ثم يرفعه من أحد جانبيه، فيضعه على أحد منكبيه. وقد قال العلماء: فعلى تفسير أهل اللغة يكره الاشتمال المذكور، لئلا تعرض له حاجة من دفع بعض الهوام ونحوها. أو غير ذلك، فيعسر عليه أو يتعذر، فيلحقه الضرر، وعلى تفسير

الفقهاء يحرم الاشتمال المذكور إن انكشف به بعض العورة، وإلا فيكره[٢].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - الحكمة من نهي النبي صلى الله عليه وسلم أمته عن مشابهة اليهود: (..فما كان من زي اليهود الذي لم يكن عليه المسلمون: إما أن يكون مما يعذبون عليه، أو مظنة لذلك، أو يكون حسمًا لمادة ما عذبوا عليه، لا سيما إذا لم يتميز ما هو الذي عذبوا عليه من غيره، فإنه يكون قد اشتبه المحظور بغيره، فيترك الجميع، كما أن ما يخبرون - أهل الكتاب - به لَمَّا اشتبه صدقه بكذبه: ترك الجميع ،....وإنما الغرض من قوله ﷺ: «ولا يشتمل اشتمال اليهود» فإن إضافة المنهي عنه

---

(١) انظر.الإقناع (١/ ٩١).

(٢) انظر.المنهاج (١٥٨٧)بتصرف، وللاستزادة انظر: المغني (٢/ ٣١٧)، الكافي (١/ ١١٧)، المجموع (١٧٥).

إلى اليهود، دليل على أن لهذه الإضافة تأثيرًا في النهي)[١].

وقد نص النبي ﷺ في الأحاديث السابقة حين نهى عن الاشتمال بالثوب على العلة من النهي، وذلك بإضافة الاشتمال بالثوب إلى اليهود، وهذا نص صريح على أن هذا الزي من زي اليهود، وليس من زي المسلمين، ومعلومٌ من الدين بالضرورة أن المسلمين منهيون عن عموم التشبه باليهود وغيرهم من الأعاجم في جميع أمورهم وأحوالهم، والدليل على ذلك عموم الحديث الوارد عن النبي ﷺ والذي نهى فيه أمته عن التشبه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٢].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن احتجاج العلماء بحديث النهي عن التشبه: (وبهذا احتج غير واحد من العلماء على كراهة أشياء من زي غير المسلمين)[٣].

والله أعلم.

* * *

(١) انظر. اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٤).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٦٥).

المسألة السابعة بعد المائتين
السدل لأنه من فعل اليهود

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند اليهود وهي سدلهم لثيابهم.

والسدل في اللغة: من سَدَلَ الشعر والثوب والستر، يَسدِلُه ويَسْدُله سدلاً، وأَسْدَله: أرخاه وأرسله[(١)].

والسدل في الاصطلاح: إسبال الرجل ثيابه من غير أن يضم جانبيه بين يديه، وذلك بأن يطرح على كتفيه ثوبًا ولا يرد أحد طرفيه إلى كتفه الآخر[(٢)].

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي اليهود في هذه الخصلة بالنهي عنها، فقد ورد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - (أن رسول الله ﷺ نهى عن السدل في الصلاة...)[(٣)].

---

(١) لسان العرب (١١/ ٣٣٣).

(٢) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد الله القاسم بن سلام الهروى. ت: د. عبد المعيد خان. دار الكتاب العربي. بيروت، (ط١)، ١٣٩٦هـ، (٣/ ٤٨٢)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٢٣)، وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٤٧٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٥٥)، شرح العمدة (٤/ ٣٤٩)، الإقناع (١/ ٩٠)، تحفة الأحوذي (١/ ٦٧٦)، عون المعبود (٣١٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٧٩٢١، ٨٤٧٧، ٨٥٣٢، ٨٥٦٥) بمثله (٥٦٧، ٦٠١، ٦٠٥، ٦٠٧)، وأخرجه أبو دواد في سننه في كتاب الصلاة، باب السدل في الصلاة برقم (٦٤٣)

=

قال الخطابي - رحمه الله - في المراد بالسدل: (السدل إرسال الثوب حتى يصيب الأرض)[١].

وقال أحد العلماء عن حكم السدل:(يكره في الصلاة السدل؛ سواء كان تحته ثوب أو لا،.... لأنه يكره التشبه بالكفار في كل وقت،...التشبه بهم منهيٌ عنه إجماعا)[٢].

وقد كان عمر وأبو هريرة - رضي الله عنهما - يكرهان السدل في الصلاة[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (وأكثر العلماء يكرهون السدل مطلقًا،...والسدل المذكور: هو أن يطرح الثوب على أحد كتفيه، ولا يرد أحد طرفيه على كتفه الآخر، هذا هو المنصوص عن أحمد، وعلله:بأنه فعل اليهود،قال الإمام أحمد بن حنبل : والسدل أن يسدل أحد طرفي الإزار ولا ينعطف به عليه وهو لبس اليهود، وهو على الثوب وغيره،

=

بمثله (١٢٧١)، والترمذي في سننه في كتاب الصلاة. باب ما جاء في كراهية السدل في الصلاة برقم (٣٧٨) بمثله (١٦٧٨) قال الترمذي: لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث عسل بن سفيان. موسوعة الحديث الشريف. وصححه ابن حبان (٢٢٨٩)، وابن خزيمة (٧٧٢)، وقال الألباني: حسن، وقال شعيب: إسناده ضعيف.

(١) معالم السنن (١/ ١٧٩).

(٢) انظر.الإقناع (١/ ٩٠ – ٩١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٦٢).

ومكروه السدل في الصلاة)[١].

وبما أن السدل من زي اليهود فالمسلمون منهيون عن مشابهتهم في هذا الزي وغيره مما عرفوا به واختصوا به في سائر عاداتهم وعباداتهم؛ لعموم حديث النبي ﷺ الذي نهى فيه عن عموم التشبه بهم وبغيرهم من الأعاجم، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن عموم ذلك: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٢].

وهذه الخصلة الجاهلية لا تزال موجودة حتى هذا العصر عند اليهود، ولكن لم تقتصر على اليهود؛ بل وتمثلت عند الرافضة، فكما أن اليهود تسدل أثوابها في الصلاة. فكذلك الرافضة[٣].

* * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٢٨)، وللاستزادة انظر. شرح العمدة (٤/ ٣٤٩ - ٣٥١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة. للالكائي (٤/ ١٥٥٠).

المسألة الثامنة بعد المائتين
تغطية الفم في الصلاة كما يفعل المجوس عند عبادتهم النار

يبين المؤلف – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند المجوس عباد النار، والتي يمتثلون بها في حين جلوسهم حول النار لعبادتها، فقد كانوا يعمدون إلى تغطية أفواههم لئلا يصل إليها شيء من أنفاسهم.

فقيل عن ذلك: أكثر ملوك الهند وعظمائها يعظمون النار، فمنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين، يسدون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس صدر عن صدر محرم(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي المجوس في هذه الخصلة بالنهي عنها. فقد ورد في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه –: (إن النبي ﷺ نهى عن السدل في الصلاة وأن يغطى الرجل فاه) (٢).

قال الخطابي – رحمه الله –: («وأن يغطي الرجل فاه» فإن من عادة العرب التلثم بالعمائم على الأفواه، فنهوا عن ذلك في الصلاة، إلا أن يعرض للمصلي التثاؤب، فيغطي فمه عند ذلك)(٣).

---

(١) انظر: الملل والنحل (٢٥٣)، إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٣).

(٢) سبق تخريجه ص(٩٧٧).

(٣) معالم السنن (١/ ١٧٩).

وعن حكم هذا الفعل قال العلماء - رحمهم الله - أيضًا: ويكره تغطية الوجه، والتلثم على الفم، والأنف في الصلاة؛ لأنه من زي المجوس[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أيضًا: (ويكره التلثم على الفم لما روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم >أنه نهى عن يغطي الرجل فاه في الصلاة< لأنه تشبه بفعل المجوس في عبادة النيران، ويخاف معه منْ تركِ تجويد القراءة، والذكر والدعاء، لا سيما والملك يضع فاه على فيه)[(٢)].

وكما ورد عن النبي ﷺ نهى صريح عن هذه الخصلة، كما في الحديث السابق، كذلك ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - نهي عنها ضمن حديث عام نهى فيه النبي ﷺ عن مشابهة الأعاجم وغيرهم حين قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(٣)]، فتغطية الفم في الصلاة من عادات المجوس في عباداتهم؛ لهذا فنحن منهيون عن هذه الخصلة بصريح حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، وضمن الحديث الذي نهى فيه النبي ﷺ عن عموم التشبه. والله أعلم.

* * *

(١) للاستزادة انظر: الإقناع (١/ ٩١)، نيل الأوطار (٢/ ٦٨).

(٢) شرح العمدة (٤/ ٣٥٨)،وللاستزادة انظر. اقتضاء الصراط المستقيم (٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

المسألة التاسعة بعد المائتين
تفضيل العجم على جنس العرب كفعل الشعوبية الذين لا يعترفون بفضل العرب

يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - هنا في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية قد ظهرت عند طائفة من أهل الكلام، يطلق عليهم الشعوبية، وقد تمثلت هذه الخصلة لديهم في احتقارهم لجنس العرب، والاستصغار من شأنهم، وتفضيل سائر الشعوب من جنس العجم على جنس العرب، وما ذلك إلا انتصارًا للشعوب المغايرة للعرب.

والشعوبية: هم طائفةٌ من أهل الكلام، ذهبوا إلى احتقار أمر العرب، واستصغار شأنهم، وأنه لا فضل لجنس العرب على جنس العجم، يقولون: إن العرب والمَوَالي عندنا واحد، لا يرون للعرب حقًا، ولا يعرفون لهم فضلاً، ولا يحبونهم، بل يبغضون العرب، ويضمرون لهم الغل، والحسد والبغضة في قلوبهم، لهذا فكل من احتقر أمر العرب، واستصغر شأنهم فهو شعوبي(١).

وقد خالف هدي النبي ﷺ هدي أهل الجاهلية من الشعوبية ومن

---

(١) للاستزادة انظر: مروج الذهب (٢/ ٥٣ - ٥٦)، الفرق بين الفرق (٢٦٦)، طبقات الحنابلة: للقاضي أبي يعلى البغدادي الحنبلي. ت: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين. مكتبة العبيكان. الرياض (ط١)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م (١/ ٧١)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢٥٢)، منهاج السنة (٣/ ٢٠١)، لسان العرب (١/ ٥٠٠)، القاموس المحيط (١/ ٩١)، بلوغ الأرب (١/ ١٥٩).

وافقهم في مذهبهم المخالف للحق، وذلك ضمن نصوص عديدة وردت عنه - عليه الصلاة والسلام - دلت على أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، ومن ذلك ما ورد أن العباس بن عبد المطلب[(١)] - رضي الله عنه - قال للرسول ﷺ: يا رسول الله إن قريشًا جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض، فقال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق، فجعلني في خير فرقهم، ثم خيَّر القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم خيَّر البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم وخيرهم بيتًا»[(٢)].

قال بعض أهل العلم والمراد بقوله: «نخلة في كبوة» الكبوة أي الكناسة والتراب الذي يكنس من البيت، والمعنى أن النخلة طيبة في نفسها، وإن كان أصلها ليس بذاك، فقال لهم النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم، وهم الأنس، وفي خير الفريقين أي في العرب، وجعلني في خير القبائل، وهي قريش، وجعلني من خير بيوتهم أي من بطن بني هاشم، فأنا خيرهم نفسًا، أي خيرهم ...»[(٣)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه

---

(١) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عم رسول الله ×، ولد قبل النبي × بسنتين. أسلم وكتم إسلامه، شهد الفتح، وحنينًا. روى عن النبي × أحاديث كثيرة. مات في المدينة عام (٣٢هـ). انظر: الإصابة (٦٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب. باب ما جاء في فضل رسول الله × برقم (٣٦٠٧)، بمثله (٢٠٢٣) قال الترمذي: حديث حسن. موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف.

(٣) للاستزادة انظر. تحفة الأحوذي (٢/ ٢٥٣٥)، جامع الرسائل (١/ ٢٨٧).

الله - عن هذا الحديث: (وعلى كل تقدير ،فالحديث صريح بتفضيل العرب على غيرهم)(١).

وقد ورد عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال: (قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك». قلت: يا رسول الله وكيف أبغضك وبك هداني الله؟ قال: »تبغض العرب فتبغضني»)(٢). قال أحد العلماء في شرح الحديث أي: (حين تبغض العرب عمومًا فتبغضني في ضمنهم خصوصًا، أو إذ أبغضت جنس العرب، فربما يجر ذلك إلى بغضك إياي، نعوذ بالله من ذلك، والحاصل أن بغض العرب قد يصير سببًا لبغض سيد الخلق)(٣).

وقال - عليه الصلاة والسلام - أيضًا في فضل العرب: «حب العرب إيمان، وبغضهم نفاق»(٤)، كما قال أيضًا - عليه الصلاة والسلام -: «لا يبغض العرب إلا منافق»(٥).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان ذلك: (إن بغض جنس العرب، ومعاداتهم، كفر أو سبب للكفر، ومقتضاه أنهم أفضل من

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه. كتاب المناقب، باب فضل العرب برقم (٣٩٢٧) بمثله (٢٠٥٣) قال الترمذي: حسن غريب. موسوعة الحديث الشريف. وقال الألباني: ضعيف.

(٣) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٦٦٠).

(٤) أخرجه الإمام الحاكم في مستدركه (٤/ ٩٧)، وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٢٣) وقال: حديث ضعيف.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦١٤) بمثله (٧٤). قال الألباني: إسناده ضعيف.

غيرهم، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان؛ لأنه لو كان تحريم بغضهم كتحريم بغض سائر الطوائف، لم يكن ذلك سببًا لفراق الدين، ولا لبغض الرسول ﷺ، بل كان نوع عدوان، فلما جعله سببًا لفراق الدين وبغض الرسول دل على أن بغضهم أعظم من بغض غيرهم، وذلك دليل على أنهم أفضل؛ لأن الحب والبغض يتبع الفضل، فمن كان بغضه أعظم، دل على أنه أفضل، ودل حينئذٍ على أن محبته دين، لأجل ما فيه من زيادة فضل)[1].

وقد بيّن العلماء - رحمهم الله - سبب هذا الفضل بأنه عائدٌ - والله أعلم - لما جعله الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال.

وقد وفّى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - الكلام في بيان سبب الفضل فقال عن ذلك:(وسبب ما اختصوا به من الفضل - والله أعلم - ما جعل الله لهم من العقول والألسنه والأخلاق والأعمال، وذلك أن الفضل: إما بالعلم النافع، أو العمل الصالح، والعلم له مبدأ: وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمام: وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا، وتمييزًا للمعاني. وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم، فهم أقرب إلى السخاء والحلم والشجاعة والوفاء من غيرهم، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطلة عن فعله، ليس عندهم علم منـزل، ولا شريعة مأثورة، ولا اشتغلوا ببعض العلوم، بخلاف غيرهم، فإنهم كانت بين

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٦٠).

أظهرهم الكتب المنـزلة، وأقوال الأنبياء، فضلُّوا لضعف عقولهم، وخبث غرائزهم. وإنما كان علم العرب ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب... فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى تلقفوه عنه بعد مجاهدة شديدة، ونقلهم الله عن تلك العادات الجاهلية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون عن قلوبهم ،فقبلوا هذا الهدي العظيم ، وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزله الله إليهم ،بمنزلة أرض طيبة في نفسها لكن معطلة عن الحرث..)[١].

وبناءً على هذا فالذي عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة في جنس العرب، أنهم أفضل من جنس العجم، فمن قال بخلاف ذلك دل قوله على خللٍ في الاعتقاد، واتباع للهوى.

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله – عن ذلك: (ويَعرف للعرب حقها، وفضلها، وسابقتها، ويحبهم لحديث رسول الله ﷺ: «فإن حبهم إيمان وبغضهم نفاق». ولا يقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب، ولا يُقرون لهم بفضل، فإن لهم بدعةً، ونفاقًا، وخلافًا)[٢].

وقال البربهاري[٣] - رحمه الله - أيضًا: (واعرف لبني هاشم فضلهم،

(١) جامع الرسائل (١/ ٢٨٧ – ٢٩٠)،للاستزادة انظر. اقتضاء الصراط المستقيم (٢٦٦ – ٢٦٨).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٦٤).

(٣) هو شيخ الحنابلة أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه من مصنفاته كتاب السنة. توفي عام ٣٢٨هـ وقيل ٣٢٩هـ. انظر: طبقات الحنابلة (٢/ ١٨)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٩٣).

لِقرابتهم من رسول الله ﷺ، وتعرف فضل قريش، والعرب وجميع الأفخاذ، فاعرف قدرهم، وحقوقهم في الإسلام)(١).

لهذا فقد عمد العلماء - رحمهم الله - في الوقت الذي حرصوا فيه على محاربة هذه البدعة على ضرورة التنبيه لأمرٍ جلل، وهو أن يكون مراد كل من يسعى لمحاربة هذه البدعة والقضاء عليها إظهار الحق وبيانه، وأن لا يكون للشيطان نصيبٌ منهم، فتحصل الفرقة والاختلاف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك: (والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا نوع نفاق، إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهات اقتضت ذلك،ولهذا جاء في الحديث «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق» مع أن الكلام في هذه المسائل لا يكاد يخلو عن هوى للنفس، ونصيب للشيطان من الطرفين، وهذا محرم في جميع المسائل، فإن الله قد أمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله جميعًا، ونهاهم عن التفرق والاختلاف...)(٢).

لهذا فعلى كل من يسعى في بيان مثل هذه المسألة وأمثالها من المسائل أن يكون مراده بيان الحق وإظهاره، وأن يتحرى الصدق والعدالة في كل ما يسطره قلمه وينطق به لسانه.

وقد تجلت الدعوة إلى الشعوبية في هذا العصر الحديث عن طريق

---

(١) شرح السنة للبربهاري (٩٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٥٢).

كتابات المستشرقين وأتباعهم من دعاة التغريب من أبناء المسلمين الذين عاشوا وتربوا في محاضن الغرب، وتأثروا بهم، كطه حسين، ويوسف الخال وغيرهم، وذلك من خلال كتاباتهم التي عمدوا فيها إلى جمع صور من صور الفواحش الموجودة في تاريخ العرب، وذلك لانتقاصهم، وإذاعتها، فهاجموا العرب قبل الإسلام وبعده، واتهموهم في فصاحتهم، وأنسابهم، وأخلاقهم، قاصدين بذلك في حقيقة الأمر مهاجمة العرب ولغتهم العربية، وبالتالي محاربة الإسلام لنشر الفساد واستحلاله(١).

وقد تمثلت هذه الخصلة أيضا في بغض الطورانية(٢) للعرب ،وسعيها للقضاء على الجنس العربي.

❊ ❊ ❊

(١)انظر: المؤامرة على الإسلام. لأنور الجندي. دار الاعتصام. القاهرة.مصر، (ط٢)، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص(١٠١).

(٢) الطورانية حركة عنصرية فاشية نشأة في تركيا وهي نتاج لسياسة السلاطين العثمانيين القائمة على تميز العنصر التركي ،من أهم غايات هذه الحركة وأهدافها العمل على تطهير اللغة التركية من الألفاظ العربية ،أتركة العناصر الغير تركية لا سيما الأمة العرب وإدغامهم في الترك حتى لاتبقى لهم قومية قائمة بذاتها،العمل على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية واستعمالها في العبادة ،التضييق على العنصر العربي واغتيال زعماء العرب ومفكريهم وغيرها.للاستزادة انظر .نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني.د.خليل موسى،ونعيم اليافي(ط١)١٩٩٥مدار الحوار اللاذقية.سوريا.ص(٩،٢١)،الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية.جهاد صالح(ط١)١٩٨٧م .دار الصداقة.بيروت،سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية.مجدي عبد المجيد الصافوري(ط١)١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.دار الصحوة. مصر.ص(٢١٥،٢٢٢)، الطورانية.مجلة المنار العدد الثامن عام ١٣٣٥هـ.

المسألة العاشرة بعد المائتين
قولهم إن المسيح قد قتل وصلب فرد الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[1] وأخبر أنه رفعه إليه

يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية عند أهل الكتاب، والتي تُعد صورةً من صور الكذب والبهتان عند اليهود؛ وفي الوقت نفسه تُعد عقيدةً من عقائد الديانة النصرانية التي يدين بها النصارى، والمتمثلة في القول بأن المسيح قتل وصلب على يد اليهود.

وقد سطروا هذه المزاعم في جميع كتبهم المقدسة، فمما ورد عن ذلك قولهم: (... أخذ جنود الحاكم يسوع... واستهزأوا به، نزعوا عنه الثوب القرمزي، وألبسوه ثيابه، وساقوه ليصلب... فصلبوه واقترعوا على ثيابه واقتسموها)[2].

كما زعموا في موضع آخر أن عيسى - عليه السلام - قال حين صلب (صرخ يسوع صرخة قوّية، وقال: (يا أبي، في يديك أستودع روحي)، قال هذا وأسلم الروح... فجاء أحد أعضاء مجلس اليهود، فطلب جسد يسوع، ثم أنزله عن الصليب، ولفّه في كفن، ووضعه في قبر محفور في الصخر، ما

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٢) إنجيل متى (٢٧: ٢٧ - ٣٨)، إنجيل مرقس (١٥: ١٦ - ٣٢)، إنجيل يوحنا (١٩: ٢ - ٢٧)، إنجيل لوقا (٢٣: ٢٦ - ٤٣).

دفن فيه أحد من قبل...) [١] وغيرها من النصوص التي يستشهدون بها على زعمهم بقتل المسيح وصلبه. وقد ذكر علماء المسلمين – رحمهم الله – هذه المزاعم في كتبهم في معرض الرد عليهم.

فيقول الإمام ابن حزم – رحمه الله – عن ذلك: (يزعم النصارى أن عيسى – عليه السلام – هو الذي قتل وصلب)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: (يقول النصارى إن المسيح عيسى – عليه السلام – مكن الكفار من صلبه؛ ليحتال بذلك على عقوبة إبليس؛ لأن إبليس يريد أن يأخذ روحه إلى الجحيم؛ كما أخذ أرواح الأنبياء نوح...)[٣].

وقال ابن قيم الجوزية – رحمه الله –: (لقد اتفقت الأمة الصليبية بأسرها على أن اليهود أخذوا عيسى – عليه السلام –، وساقوه بينهم ذليلاً مقهورًا، وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها، واليهود يبصقون في وجهه، ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات، وتركوه مصلوبًا حتى التصق شعرهُ بجلده، لما يبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن)[٤].

وقد خالف الشارع – عز وجل – أهل الكتاب في هذه الخصلة بنص صريح في محكم كتابه أبطل فيه زعمهم الباطل بأن المسيح قتل وصلب.

---

(١) إنجيل متى (٢٧: ٣٢ – ٤٤، ٥٧ – ٦١)، إنجيل مرقس (١٥: ٢١ – ٣٢، ٤٢ – ٤٧)، إنجيل يوحنا (١٩: ١٧ – ٢٧، ٣٨ – ٤٢)، إنجيل لوقا (٢٣: ٢٦ – ٣٣، ٤٤ – ٤٥، ٥٠ – ٥٤).

(٢) الفصل (١/ ٦٥).

(٣) الجواب الصحيح (١/ ٣٣٢).

(٤) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٥)، للاستزادة انظر. هداية الحيارى (١٧٩ – ١٨٤).

وقد استدل المؤلف – رحمه الله – بالآية التي صرح فيها الشارع ببطلان ما تضمنته هذه الخصلة عند أهل الكتاب من القول بقتل المسيح وصلبه، فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾(١).

قال مجاهد – رحمه الله –: (صلبوا رجلاً شبَّهوه بعيسى، يحسبونه إياه، ورفع الله إليه عيسى حيًا)(٢).

وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾(٣).

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير الآية: (أي إني قابضك من الأرض، ورافعك إليّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن عيسى ابن مريم ينـزل فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه)(٤).

وقد خالف هدي النبي ﷺ أهل الكتاب في هذه الخصلة في الحديث الذي دل على بطلانها، حين نص – عليه الصلاة والسلام – على نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان، ففي هذا دلالةٌ ضمنية على بطلان هذه

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٥٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٥٥).

(٤) تفسير الطبري (٣/ ٢٨٩).

الخصلة، فقال - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «والله لينـزلن ابن مريم حكمًا عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنـزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها الشحناء...)[(١)].

إن هذا الحديث نص صريح على حياة عيسى - عليه السلام -، وأنه قد رفع للسماء، وسينـزل منها في آخر الزمان ليحكم بهذه الشريعة المحمدية.

لهذا فالذي عليه أهل السنة والجماعة خلفًا عن سلف هو الإيمان بأن عيسى - عليه السلام - ابن مريم ينـزل من السماء إلى الأرض، فيكسر الصليب، ويقتل الخنـزير وتكون الدعوة واحدة[(٢)].

إلا أن هذه الخصلة ما زالت عند اليهود والنصارى حتى هذا العصر، بل وكما ذكرت سابقًا هي عقيدة من عقائد النصارى الأساسية التي يدينون بها، مع العلم أن المطلع على هذه العقيدة لديهم يجد أن النصارى أنفسهم ليسوا متفقين على صلب[(٣)] المسيح، ولا عجب في ذلك، فهم من وصفهم الباري في محكم كتابه بالضالين. فنسأل الله العافية.

* * *

(١) سبق تخريجه ص(٧٨٥).

(٢) انظر.شرح السنة للبربهاري (٦٧)، الشرح والإبانة (٢٤٢)، الإبانة (٥١٢).

(٣) للاستزادة انظر.الفتاوى (١٣/ ١٠٤ – ١٠٩)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٢٨٧ – ٣١٠)، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (٣٠٦ – ٣١٩)، المسيحية النصرانية دراسة وتحليل: لساجد مير، دار السلام للنشر والتوزيع. الرياض (ط١)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (١٤٣ – ١٤٧).

المسألة الحادية عشرة بعد المائتين
رفع الصوت عند القتال والذكر والجنائز، فجاء شرعنا بخفض الصوت في هذه المواطن قال قيس بن عباد[١] وهو من كبار التابعين كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند القتال وعند الجنائز[٢] ذكره في الاقتضاء

يبيّن المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المسألة خصلة من خصال الجاهلية، وهي رفع الصوت عند القتال، والذكر والجنائز.

فقد كانت هذه الخصلة من خصال أهل الكتاب والفرس، إذ كانوا يرفعون أصواتهم عند القتال، وعند الذكر، والجنائز، كذلك كانوا يعمدون إلى رفع أصوات الأبواق، والنواقيس، والطبول في تلك المواضع[٣].

---

(١) هو: قيس بن عُباد القيسي الضبعي نزيل البصرة، ذكره العجلي في التابعين، وقال ثقة من كبار الصالحين، ووثقه النسائي، كان من جملة من قتلهم الحجاج ممن خرج مع ابن الأشعث. انظر: الإصابة (١٠٩٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه في باب خفض الصوت عند الجنازة برقم (٦٢٨١) بمثله (٣/ ٤٥٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الجنائز في رفع الصوت في الجنازة برقم (١١٢٠١) بمثله (٢/ ٤٧٤)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الجنائز، باب كراهية رفع الصوت في الجنائز والقدر الذي لا يكره منه (٤/ ٧٤) بنحوه. السنن الكبرى للإمام أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي. وفي ذيله الجوهر النقي للعلامة علاء الدين بن علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني. دار المعرفة. بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) للاستزادة انظر: الاستقامة (٢٣٨)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٢ - ٢١٤)، الفتاوى (٢٤/ ٢٩٥).

أيضًا كانت هذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية الأميين؛ حيث كانوا يرفعون أصواتهم عند القتال بالصياح، ليُعرفوا بأنفسهم على طريق الفخر والعُجب، أو للحمية والعصبية، كذلك كانوا يرفعون أصواتهم عند الجنائز بالبكاء والنياحة والندب للتعبير عن حزنهم[١].

وقد خالف الشارع أهل الجاهلية في رفعهم الصوت عند القتال، والذكر والجنائز بكراهته في جميع هذه المواطن، وقد استدل المؤلف - رحمه الله - على ذلك بما ورد عن التابعي قيس بن عباد - رحمه الله - حين قال: (كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الجنائز، وعند القتال، وعند الذكر)[٢].

كما قد وردت نصوص عدة حث فيها الشارع على مخالفة أهل الجاهلية في هذه الخصلة من خلال الحث على العمل بضدها في تلك المواطن الثلاثة، وما ذلك إلا خشيةً على العباد من الوقوع في الرياء برفع الصوت حال الذكر، أو الوقوع في الجزع برفع الصوت عند الجنائز، أو زوال هيبتهم ورهبتهم عند عدوهم حال رفعهم الصوت عند القتال.

فقال تعالى في الحث على خفض الصوت عند الذكر والدعاء: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[٣]، وقال تعالى عن نبيه

---

(١) انظر .لسان العرب (٢/ ٥٧)، الزواجر (١/ ٢٢٨)، بلوغ الأرب (٣/ ١١ - ١٤).

(٢) سبق تخريجه (٩٩٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٥٥).

زكريا عليه السلام: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾(٢).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيره للآية: (خفية أي السر). وقال ابن جرير الطبري - رحمه الله -: (خفية أي بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بواحدنيته، وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارًا مراءاة)(٣).

وقد خالف هدي رسول الله ﷺ هدي أهل الجاهلية في هذه الخصلة، حين ندب الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى خفض أصواتهم عندما جهروا بالتكبير والذكر حين كانوا في سفرٍ معه، فقال لهم - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سمعيًا قريبًا وهو معكم»(٤).

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: (ندب النبي ﷺ في هذا الحديث إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه، فإنه إذا

(١) سورة مريم، الآية: (٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٥١٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه كالتلبية وغيرها واستحباب الإكثار من قول لا حول ولا قوة إلا بالله برقم (٦٨٦٢) بمثله، وبرقم (٦٨٦٣، ٦٨٦٧) بنحوه (١١٤٨). موسوعة الحديث الشريف.

خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه)[١]. كذلك ندب النبي ﷺ بهديه إلى خفض الصوت عند القتال فقد ورد «أن النبي ﷺ كان يكره الصوت عند القتال»[٢]. قال أحد العلماء في العلة في كراهة النبي ﷺ لرفع الصوت في القتال: (أن العلة في كراهة النبي ﷺ لرفع الصوت في القتال؛ لأن السكوت أهيب، وأرهب)[٣].

وفي حين كره النبي ﷺ رفع الصوت عند ذكر الله تعالى استثنى من ذلك رفع الصوت عند التلبية والأذان.

فقد ندب النبي ﷺ إلى رفع الصوت في هذين الموضعين من الذكر فقط.

فقال - عليه الصلاة والسلام - لأحد أصحابه - رضوان الله عليهم - يحثه على رفع الأذان «فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[٤]. كما قد ورد من فعله - عليه الصلاة والسلام -

(١) المنهاج (١٩٠٣).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه في كتاب الجهاد (٢/ ١٢٧)، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) فيض القدير (٢/ ٢٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء برقم (٦٠٩) بمثله، وفي كتاب بدء الخلق، باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم برقم (٣٢٩٦) بمثله، وفي كتاب التوحيد، باب قوله ×: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»، وقوله: «زينوا القرآن بأصواتكم» برقم (٧٥٤٨) بمثله (٤٩، ٢٦٦، ٦٣٠). موسوعة الحديث الشريف.

وفعل أصحابه رفع الصوت بالتلبية، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «صلى النبي ﷺ بالمدينة الظهر أربعًا، والعصر بذي الحليفة ركعتين، وسمعتهم يصرخون بهما جميعًا» (١).

قال ابن حجر - رحمه الله -: (وفي الحديث حجة للجمهور في استحباب رفع الصوت بالتلبية)(٢).

كما وقد خالف النبي ﷺ أهل الجاهلية في رفعهم الصوت عند الميت بالنياحة والندب، وذلك بالنهي عن هذا العمل، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لا تتبع الجنازة بصوت ولا نار»(٣). قال أحد العلماء عن دلالة هذا الحديث: (دل النهي الوارد في هذا الحديث على كراهة اتباع الجنازة مع صوت وهو النياحة)(٤).

هذا وقد وردت نصوص كثيرة شدد فيها النبي ﷺ النهي عن رفع الصوت بالنياحة، والندب، والبكاء على الميت؛ وقد ذكرت بعضًا من هذه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحج. باب رفع الصوت بالإهلال برقم (١٥٤٨) بمثله، وفي كتاب الجهاد، باب الخروج بعد الظهر برقم (٢٩٥١) بمثله (١٢٢، ٢٣٧). موسوعة الحديث الشريف.

(٢) فتح الباري (٣/ ٤٠٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٩٥١١، ١٠٨٤٣، ١٠٨٩٣) بمثله (٦٦٤، ٧٣٨، ٧٤٢)، وأبو داود في سننه في كتاب الجنائز، باب في اتباع الميت بالنار برقم (٣١٧١) بمثله (١٤٦١). موسوعة الحديث الشريف. قال الألباني: ضعيف، وضعفه المنذري.

(٤) عون المعبود (١٣٥٢).

الأدلة في موضع سابق، فلا حاجة إلى إعادة ذكرها في هذا الموضع(١).

وقد اشتملت هذه الأدلة على دلالة نصية ودلالة ضمنية، حيث جاء النهي فيها عن رفع الصوت عند الجنائز بالنص على ذلك، كما قد تضمنت الدلالة على استحباب خفض الصوت عند الجنائز. فقد سئل الإمام سفيان ابن عينية - رحمه الله -: (لماذا كان يستحب خفض الصوت عند الجنائز؟ فقال: شبهوه بالحشر إلى الله، أما سمعته يقول: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾(٢)) (٣).

وبعد فقد تبين من خلال عرض الأدلة السابقة الواردة في النهي عن هذه الخصلة أنه عائدٌ لسببين:

أولاً: لما قد يعود عن الخصلة الجاهلية من عوائد مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة من الوقوع في الريا، أو الوقوع في الجزع، والاعتراض على قدر الله، أو الوقوع في العصبية والفخر.. وغيرها من العوائد السيئة.

ثانيًا: أن هذه الخصلة هي من خصال أهل الجاهلية من أهل الكتاب والفرس والأميين وغيرهم، لذا فالقيام بهذه الخصلة داخلٌ في عموم التشبه بهم، والمؤمنون منهيون عن التشبه بهؤلاء؛ ضمن أحاديث كثيرة وردت عن

---

(١) انظر: المسألة الخامسة بعد المائتين.

(٢) سورة طه، الآية: (١٠٨).

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. للإمام محمود بن عمر الزمخشري. ت: د. سليم النعيمي. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية: إحياء التراث الإسلامي في الجمهورية العراقية. الكتاب الثالث عشر (٢/ ٥٨٥).

نبي الرحمة محمد ﷺ حذر فيها أمته عن مشابهة أهل الجاهلية ومن تبعهم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو...»(١)، وقال أيضًا: «من تشبه بقومٍ فهو منهم»(٢)، وقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٣).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن رفع الصوت في الجنازة فقال: (لا يستحب رفع الصوت مع الجنازة، لا بقراءة، ولا ذكر، ولا غير ذلك، هذا مذهب الأئمة الأربعة، وهو المأثور عن السلف من الصحابة والتابعين، ولا أعلم فيه مخالفًا)(٤).

وقد علق - رحمه الله - في موضع آخر على هذه الخصلة، فقال: (إن رفع الصوت في هذه المواطن الثلاثة من عادة أهل الكتاب والأعاجم، وقد ابتلي بها كثير من هذه الأمة، بينما كان المسلمون على عهد نبيهم، وبعده، لا يعرفون وقت الحرب إلا السكينة، وذكر الله سبحانه، مع امتلاء القلوب بذكر الله، وإجلاله وإكرامه...، كذلك رفع الأصوات في الذكر المشروع لا يجوز إلا حيث جاءت به السنة، كالأذان والتلبية ونحو ذلك. فالسنة للذاكرين والدّاعين ألا يرفعوا أصواتهم رفعًا شديدًا، كما ثبت في الحديث الذي ندب فيه النبي ﷺ الصحابة إلى خفض أصواتهم بقوله «... اربعوا

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٣٤).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٠٤).

(٣) سبق تخريجه ص(٤٨٣).

(٤) الفتاوى (٢٤/ ٢٩٤).

على أنفسكم». لذا فرفع الأصوات في هذه المواطن الثلاثة مضرته أكبر من منفعته، بل قد يكون ضررًا محضًا، وإن كانت النفس تطلبه)[١]...

إلا أن هذه الخصلة لا تزال ظاهرة، وأعظم من تمثلت عنده هم أهل البدع والأهواء من الصوفية، والروافض، فقد اشتهروا برفع أصواتهم عند الجنائز بالنياحة، والندب، وعند الذكر بالدعاء والتسبيح والصلاة على النبي ﷺ بأصوات مرتفعة، أو بمصاحبة أصوات المعازف والغناء ونحوها[٢]. فنسأل الله العافية.

* * *

(١) انظر: الاستقامة (٢٣٦ – ٢٣٨)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٣ – ٢١٤).

(٢) للاستزادة انظر: تلبيس إبليس (٢٨٤، ٤٨٢)، الباعث على إنكار البدع والحوادث (١٤٣)، الفتاوى (٤/ ٥١٢ – ٥١٣) (٢٥/ ٣٠٧ – ٣١٠) (٢٦/ ١٥٥)، (٤/ ٤٦٨)، الاستقامة (٢١٧، ٢١٨، ٢٣٧، ٢٣٨)، منهاج السنة (١/ ٣٣ – ٣٦).

الخاتمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمـــة

الحمد لله على ما أنعم علي من إتمام شرح كتاب (زوائد مسائل الجاهلية)، وتيسر إخراجه على هذه الصورة، فله الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه.

وبعد أن منّ الرحمن - عز وجل - عليّ بذلك، أقدم في ختام شرحي لهذه المسائل أهم النتائج والثمرات التي توصلت إليها، فأوجزها فيما يأتي:

١ - ظهور حرص الشيخ العلامة عبد الله بن محمد الدويش - رحمه الله - الشديد للتعريف بالجاهلية والتحذير منها، والذي برز من خلال إيراده هذا العدد الكبير من خصال الجاهلية.

٢ - سعة علم الشيخ - رحمه الله - وقوة ملكته العلمية، والتي ظهرت من خلال منهجه في الاستدلال؛ حيث اعتمد في كتابه هذا وغيره من المؤلفات التي ألفها - رحمه الله - على الاستدلال بالكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، أو التابعين، أو من السلف الصالح.

٣ - أن المراد بالجاهلية الحالة التي تكون عليها أمة من الأمم؛ أو بعضها، على غير هدى الله؛ كما أنها لا تختص بزمان معين، أو مكان، أو بقوم معينين. وقد جاء ذكرها في القرآن والسنة من باب الذم لها، ولمن تمثلت فيهم، لهذا فمعرفة المراد بالجاهلية، وصور الجاهلية، والأحكام المتعلقة بها من أقوى الأسباب المساعدة والمعينة على عدم الوقوع فيها.

٤ – أن الأحكام المتعلقة بخصال الجاهلية متفاوتةٌ، فمن الخصال ما هو كفر، كالسجود للشمس، وعبادة الكواكب، ومنها ما هو فسق، كاستبدال الغناء عن سماع القرآن، ومنها ما هو مكروه، كزخرفة المساجد.

٥ – إيراد المؤلف لصور عدة من صور إيذاء الأقوام لأنبيائهم، ولأتباع الأنبياء.

٦ – بيان أن أكثر خصال الجاهلية قائمة على الكبر والتعالي عن قبول الحق، وعلى اتباع الهوى.

٧ – اتفاق العلماء خلفًا عن سلف على عدم جواز تولية المرأة للولايات العظمى، كالقضاء، والإمامة، والحكم.

٨ – أن من شك في الدار الآخرة، فهو منافق يُبطن الكفر ويظهر الإيمان.

٩ – أن ظهور صفة الظلم والطغيان من اللوازم لكل عصر، وإن اختلفت صوره وأساليبه، وأشخاصه.

١٠ – انتشار شرك الطاعة لدى الكثير من الدول الإسلامية، والمندرج ضمن خضوع الشعوب للرؤساء والحكام في وضع الأحكام الوضعية وتطبيقها، وإقصاء أحكام الشريعة الإسلامية، وفي استحلال الكثير من المحرمات، كالربا، والغناء، والخناء والفجور.

١١ – أن الفرح بالنعمة نوعان: فرح محمود، وهو ما دفع إلى الشكر، وفرح مذموم، وهو ما دفع إلى الطغيان بالنعمة والعصيان.

١٢ – أن اليأس من – رحمة الله – تكذيب بالنصوص القطعية، وتصميمٌ على عدم وقوع رحمة الله.

١٣ – صيانة الإسلام للمرأة، والرفع من مكانتها وتكريمها في جميع مجالات الحياة العبادية، والاجتماعية، والاقتصادية... وغيرها.

١٤ – حرص أعداء الإسلام على القضاء على الإسلام وأهله، والمتمثل في تسلسل جهودهم، وتضافرها على اختلاف مللهم ومذاهبهم وعصورهم؛ لتفكيك وحدة المسلمين، ونشر العداوة بينهم، وإثارة النعرات القبلية، وتأجيج كل ما يساعد على إثارة الشهوات والرغبات.

١٥ – حرص النبي ﷺ على حماية جناب التوحيد بالقضاء على كل صور الشرك وذرائعه، كنفيه للعدوى، ونهيه عن الطيرة، والنهي عن السجود وقت شروق الشمس وغروبها، ونهيه عن التبرك بالأشجار والأحجار...

١٦ – تأسيس الإسلام للمبدأ الصحيح في المفاضلة بين الناس القائم على التقوى والتوحيد، والقضاء على مبدأ أهل الجاهلية في المفاضلة القائم على الحمية الجاهلية والعصبية القبلية.

١٧ – حرص الإسلام على تربية الأفراد والجماعات على الدعوة والإصلاح الشخصي والمتعدي، والشامل لجميع جوانب الحياة.

١٨ – بيان أن المتشابه هو مالم يظهر معناه واحتاج إلى بيان، وأن الاشتباه أمرٌ نسبي، قد يشتبه على أحد أمر ما، لا يشتبه على غيره ممن لديه علم.

١٩– أن جميع النصوص الشرعية الدالة على بطلان خصال الجاهلية المتعلقة بمسائل الاعتقاد جاءت صريحة الدلالة، كما في مسألة إبطال القول بقدم العالم، ونسبة الصاحبة لله، والاعتقاد بمعرفة علم الغيب،

وصلب عيسى - عليه السلام - وغيرها.

٢٠ - إنكار الشارع لمعتقد أهل الجاهلية في سبب حصول بعض الآيات الكونية، كالكسوف والخسوف أنها حاصلة من باب تخويف العباد من الله تعالى لتستقيم أحوالهم على دين الله الحق، وليس كما في اعتقادهم الباطل.

٢١ - أن علم النجوم ينقسم إلى قسمين: محمود كعلم الفلك، وهو ما يدرك بالمشاهدة والخبر؛ ليعرف به الزوال وجهة القبلة، ومذموم وهو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع، وأن الكواكب لها تأثير، فهي فاعلة مختارة.

٢٢ - أن من اعتقد في شيء أنه سببٌ دافعٌ للضر أو جالبٌ للنفع، ولم يكن سببًا شرعيًا، ولا عادياً، فقد أشرك بذلك الاعتقاد، لاعتقاده بأن هذا الشيء سبب، ولم يجعله الشارع سببًا.

٢٣ - أن من الافتراء على الله - عز وجل - التحريم والتحليل بناءً على الرأي والهوى، فالرأي على ثلاثة أقسام: صحيح، وهو ما وافق ما شهدت له النصوص، ورأي هو موضع اشتباه؛ لأن دلالة النصوص على مثله ضعيفة، فهذا يفتي به العلماء عند الاضطرار، ورأي باطل؛ لأنه لا برهان له من الله ورسوله، وهو رأي مذموم.

٢٤ - ذم صفة الكبر، وبيان الوعيد الشديد المترتب على هذه الصفة بشتى الصور التي تمثلت بها، ودلت عليها، كعقد اللحى، والاتكاء على اليد اليسرى من الخلف حال الجلوس، وإرخاء الإزار، والمشي تكبرًا.

٢٥ – النهي عن المفاضلة بين الأنبياء على وجه الفخر أو الانتقاص بالمفضول منهم، وبيان أن المفاضلة المحمودة بينهم ما كان بذكر الواقع المستند إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان، وللعلم به، واعتقاده، كالإعلام بأن موسى كليم الله، ومحمدًا خليل الله، وعيسى روح الله، وهكذا.

٢٦ – يُراد بالمثل أحد أمرين: إما الند والشريك، أو الأمثال القولية التي تورد للتعريف بالله، وقوام هذا النوع من الأمثال على المقايسة والاستدلال بحال على حال، وقد وقع من أهل الجاهلية كلا النوعين، الأول باتخاذهم الشركاء، والثاني حين استدلوا على زعمهم بأن النبي ﷺ مجنون وشاعر بضرب الأمثال، فقالوا عن ذلك: إنه يزعم أننا سنبعث بعد موتنا، وبعد أن صرنا عظامًا ورفاتًا.

٢٧ – حماية الإسلام الأنساب بتشريعه للنكاح الصحيح، وتحريم ما كان في الجاهلية من الأنكحة، كنكاح الاستبضاع، ونكاح البغايا، ونكاح المرأة العدد من الرجال، ونكاح المحارم.

٢٨ – أن من خصال الجاهلية زخرفة المساجد، والمبالغة في بناء الناس ما لا يحتاجون من البيوت، وموارد المياه.

٢٩ – ذم الشعراء المتبجحين بشعرهم بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا عنهم المشتغلين به عن ذكر الله، وفي المقابل أثنى الله – عز وجل – على الشعراء المؤمنين بالله الذاكرين في جميع أحوالهم.

٣٠ – تربية الإسلام أفراده على تعظيم الحق واتباعه مطلقًا من غير تعين شخص أو طائفة غير الرسول ﷺ، وعلى مخالفة الباطل وأتباعه،

وإن كانوا من الأسلاف والكبراء.

٣١ – بيان الفرق بين التوكل والتواكل، فالتوكل هو عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله، مع القيام بالأسباب المأمور بها، بينما التواكل هو اعتماد العبد على الناس في تحصيل ما يريده، تاركًا العمل بالأسباب.

٣٢ – أن الملائكة عبادٌ لله، مكرمون، خلقهم الله من نور لعبادته، ليسوا بناتًا له، ولا أولادًا، ولا شركاء معه، فيجب الإيمان بهم ومحبتهم من غير إفراط ولا تفريط.

٣٣ – اليقين بأن ما وهبه البارئ – عز وجل – للكفار والعصاة من الطيبات في هذه الحياة الدنيا، إنما هو من باب الإمهال والاستدراج لهم، وتعجيلاً للطيبات لهم في الدنيا دون الآخرة.

٣٤ – امتنان الشارع – عز وجل – على هذه الأمة المحمدية بتحية السلام على صفة معينة، وبألفاظ مخصوصة مرتبًا على ذلك الأجر، ومبينًا السبب في ذلك.

٣٥ – أن الجهل بحكمة الله وقدره وعظمته يؤدي بالعبد إلى سوء الظن به تعالى؛ ليخالف بذلك ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسله.

٣٦ – الامتنان على هذه الأمة بالأذان المشتمل على ألفاظ التوحيد؛ للإعلام بوقت الصلاة، وترتيب الأجر العظيم لمن قام به، ولمن تابع المؤذن في جميع ما يقول، خلافًا لطريقة أهل الكتاب في الإعلام بوقت الصلاة من الضرب بالناقوس للنصارى، واستعمال البوق لليهود.

٣٧ – أن التعبد لله بالإمساك عن الكلام من العبادات المحرمة لما ينتج عنه من ترك ذكر الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقراءة

القرآن، وغيره من كلام الخير، وبيان أن التعبد لله بالإمساك عن الكلام حين يكون الكلام فاحشًا أو غيبة.

٣٨ – قصد النبي ﷺ من أداء العمرة في أشهر الحج، والدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس، والدخول إلى البيوت من الأبواب بعد الحج والعمرة ليبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم العمرة في أشهر الحج، والدفع من مزدلفة بعد طلوع الشمس، وكونهم إذا حجوا أو اعتمروا لم يدخلوا البيوت من أبوابها.

٣٩ – النهي عن عددٍ من الخصال المتعلقة باللباس، كشد الزنار، ولبس المعصفر، أو التسرول دون الاتزار للرجال، والاشتمال بالثوب، والسدل.

٤٠ – حرص النبي ﷺ على مخالفة أهل الجاهلية فيما يتعلق بأحكام الصوم، كنهيه عن تقديم رمضان بصيام يوم أو يومين، وعن صيام يوم العيد، وبالحث على التسحر، وعلى تعجيل الفطر.

٤١ – تحريم عبادة غير الله من كوكب، أو نار، أو صنم، أو حيوان، وكفر من فعل ذلك.

٤٢ – وجوب الحرص على أداء الصلوات في أوقاتها، والمحافظة على أركانها، وواجباتها والحث على ذلك، والتحذير من الإخلال بشيء من ذلك، أو من التهاون في أدائها، أو الابتداع فيها.

٤٣ – تحريم الأعياد المبتدعة، أو المشاركة في الاحتفال بها.

٤٤ – أن معرفة الشهور قائمة برؤية الهلال، لا بالعدد والحساب.

٤٥ – أن البركة في المآكل، والمشارب، والمكاسب حاصلة باتباع الأحكام

الشرعية التي سنها الشارع لكل منها.

٤٦ – أن التحليل والتحريم المتعلق بالمآكل والمشارب والمكاسب وسائر الأمور المتعلقة بحياة الأفراد والجماعات مقيدة بالنصوص الشرعية، فما جاءت النصوص بتحريمه فهو محرم، وما جاءت النصوص بإباحته فهو مباح.

٤٧ – مخالفة المسلمين لغيرهم من أصحاب الملل في اختيار الشق على اللحد للميت.

٤٨ – وجوب العمل بالعلم والحذر من مغبة ترك العمل به، أو من مخالفة العمل به.

٤٩ – تحريم بناء الكنائس والصوامع في ديار المسلمين.

٥٠ – يجب السعي إلى الإصلاح في الأرض، وعمارتها بالخير، والحذر من الإفساد فيها.

٥١ – التحذير من الاتصاف بصفة الحسد، وبيان شدة الوعيد المترتب على من اتصف بها.

٥٢ – التحذير من التعنت في السؤال، ووجوب العمل والالتزام بجميع ما ورد من النصوص الشرعية.

٥٣ – ثبوت وقوع النسخ في القرآن والسنة.

٥٤ – مشروعية الاستخارة.

٥٥ – إباحة العزل للأزواج، وإتيان الزوجات في القبل من أي طريق.

٥٦ – تحريم الربا، وبيان شدة الوعيد المترتب عليه.

٥٧ – الحث على إنظار المعسر، وتحريم قلب الدين عليه.

٥٨ – الحث على أخذ العظة والعبرة من جميع ما يمر به العباد من الآيات الكونية.

٥٩ – وجوب التصديق الجازم بوجود النار على الحقيقة، وبأبديتها.

٦٠ – أن البخل من الصفات المذمومة شرعًا، وعرفًا، فينبغي على العبد أن يحذر من الاتصاف بها.

٦١ – الحث على الوسطية في جميع العبادات، والحذر من الوقوع في الرهبانية.

٦٢ – وجوب تعظيم حرمة البيت الحرام، وبيان الوعيد الشديد المترتب على المستحل لها.

٦٣ – التحذير من الوقوع في الرغبة في الثناء، والمدح بما لم يفعله العبد.

٦٤ – حث أولياء الموالي باتقاء الله فيما أولاهم الله من أمورهن، وذلك بالمحافظة على أموالهن، والإقساط لهن في صداقهن، والتحذير من عضلهن.

٦٥ – مشروعية إقامة الحدود على جميع من وجب في حقه حدٌّ من هذه الحدود، دون التفريق بين الشريف والضعيف.

٦٦ – على الأمة الامتثال لأمر الحاكم متى ما أمر بالخروج إلى الجهاد.

٦٧ – أن من أسباب خيرية هذه الأمة قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب الالتزام بهذه الشعيرة العظيمة لأن بها صلاح الأمم وبقاؤها.

٦٨ – التحذير من الأمن من مكر الله – عز وجل –.

٦٩ – الحرص على تسمية الأبناء بأحسن الأسماء، وفي حين تسميتهم

بالأسماء المعبدة يجب الالتزام بالأسماء المعبدة لله تعالى؛ كذلك ينبغي الحذر من التسمي بالأسماء المستكرهة، وما فيه تزكية.

٧٠ – بيان أن الجن خلقٌ من خلق الله، خلقهم تعالى من مارج من نار لعبادته تعالى وحده، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا.

٧١ – الإيمان بأن القرآن الكريم كلام الله حقيقة، وليس من كلام البشر، منه صدر وإليه يعود، مُعجزٌ في لفظه ومعناه، ومتعبدٌ في تلاوته.

٧٢ – الحث على إنفاق المال في سبيل نشر الدين الحق، والتحذير من انفاق الأموال في سبيل الصد عنه.

٧٣ – التحذير من الوقوع في الشرك الأصغر وهو الرياء في جميع أمور العبادات والمعاملات، كطلب العلم، والجهاد، والصلاة، والذبح، والصدقات.

٧٤ – بيان فساد كل عملٍ صالح خلا من أصل الأعمال الصالحة، وأساسها وهو التوحيد.

٧٥ – وجوب تعظيم حرمة الأشهر الحرم، وأن الحرمة فيها متعلقة بزمنٍ معين، ولذات الأشهر وليست بالعدد، لذا فيحرم استحلال هذه الأشهر بالقتال، أو إنساؤها عن زمنها الذي نص عليه الشارع – عز وجل –.

٧٦ – بطلان مزاعم النصارى في قداسة الصليب.

٧٧ – أن المراد من نفي النبي ﷺ للفرع والعتيرة هو نفي وجوبها، وإبطالٌ للصفة المتعلقة بذبح كلٍ منهما، ولإباحة ذبحهما على غير هذه الصفة.

٧٨ – تحريم اكتساب الأموال بالميسر.
٧٩ – كراهية دخول النساء للحمامات المتعارف عليها في هذا الزمن باسم الحمامات المغربية، والسونا، وغيرها من غير حاجة ماسة، وذلك لما ينجم عنها من المحاذير، وكشف العورات.
٨٠ – التحذير من التألي على الله تعالى، وبيان الوعيد الشديد المترتب على ذلك.
٨١ – إباحة الشارع العلاج بالرقى الشرعية إذا كانت على الوجه المشروع، والتحذير من العلاج بالرقى الشركية.
٨٢ – عدم مشروعية تعليق التمائم، وعمل التولة، واستعمال النشرة لأنها من الشرك.
٨٣ – جواز قتل حيات البيوت بعد الإيذان بالقتل، والإيذان ثلاثة أيام عدا الأبتر، وذا الطفيتين منهن، فإنهما يقتلان من غير إيذان، أما حيات الصحارى والأودية فلا بأس بقتلهن من غير إيذان.
٨٤ – الحث على الفصل بين صلاة الفرض والنافلة بالجلوس للذكر، أو بالتقدم والتأخر عن المكان.
٨٥ – الحث على وجوب الوفاء بالعهد، والتحذير من نقضه.
٨٦ – إن مسألة القول بدوران الأرض أو بثبوتها تُعد من المسائل الاجتهادية التي لم يرد فيها نصوص صريحة بنفيٍ أو إثبات.
٨٧ – تضافر الأدلة الشرعية الصريحة على إثبات حركة الشمس وبطلان القول بثبوتها.
٨٨ – أن سياحة الأمة المحمدية بالجهاد في سبيل الله.

٨٩ – يجب متابعة الإمام في جميع أحوال صلاته.

٩٠ – تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء بالثبور، أو نحوها، لما في ذلك من الاعتراض الصريح على قضاء الله وقدره.

٩١ – بيان فضل العرب على غيرهم، وأن من احتقر أمر العرب، واستصغر شأنهم فهو شعوبي.

٩٢ – بطلان الزعم بأن عيسى – عليه السلام – قد قتل وصلب، وثبوت رفعه إلى السماء ونزوله آخر الزمان بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة.

٩٣ – حث الشارع على خفض الصوت في مواطن ثلاثة: عند الذكر خشية الوقوع في الرياء، وعند الجنائز خشية الوقوع في الجزع، وعند القتال خشية الرياء، وزوال الهيبة والرهبة عند الأعداء.

٩٤ – بيان شدة حرص النبي ﷺ على أمته، والذي تمثل في نهيه لهم عن جميع خصال الجاهلية المذمومة وإرشادهم إلى الخصال الكريمة والجامعة لحظ الدنيا والآخرة.

* * *

الاقتراحات والتوصيات

أولاً: أوصي نفسي وكل مسلم ومسلمة بإخلاص النية لله – عز وجل – في طلب العلم والعمل به، والحذر من الوقوع في مثل هذه الخصال وغيرها من الخصال المذمومة، والحرص على الالتزام بالعمل بما يقابلها من خصال كريمة محمودة.

ثانيًا: الحرص على التحذير من الوقوع في مثل هذه الخصال، وبيان وجه الذم لها، وذلك من خلال إقامة الدروس، والمحاضرات، وطباعة المنشورات التي يقصد منها التنبيه على الكثير من الخصال الجاهلية التي استمرأ عليها الكثير من الناس، اعتقادًا من البعض منهم جوازها، أو لعدم تصور ورود نصوص ناهية عنها.

ثالثًا: أن يحرص علماؤنا الأفاضل، وطلاب العلم على السير على منهج الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله –، والشيخ عبد الله الدويش – رحمه الله – في جمع خصال للجاهلية، والتي قد انتشرت بين المسلمين في زمننا هذا.

رابعًا: كما أوصي نفسي وكل مسلم ومسلمة بضرورة القيام والحرص على الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر إحياءً لسنة المصطفى ﷺ، وحفاظًا على دوام خيرية هذه الأمة.

وبعد...

ففي ختام رسالتي هذه أسال الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل في

ميزان حسناتي، وميزان كل من أعانني من قريب أو بعيد، وأن يغفر لي كل خطأ، أو سهو، أو تقصير، فجهدي المبذول في هذه الرسالة إنما هو جهد المقل، وجهدٌ بشري لا يخلو من الخطأ والنسيان، فإن أحسنت فهو بفضل الله وكرمه، وعظيم جوده، فله الثناء والمنة على كل ما امتن به عليّ، وإن كانت الأخرى، فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله العظيم، والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء، وخاتم المرسلين؛ نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

*　　*　　*

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد وفيه:	
أولاً: نبذة موجزة عن كتاب مسائل الجاهلية للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله -	١٥
ثانيًا: نبذة موجزة عن كتاب زوائد مسائل الجاهلية للشيخ عبد الله بن محمد الدويش - رحمه الله -	١٧
السبب في تأليف الكتاب، وسبب تسمية الكتاب بهذا الاسم	١٨
القسم الأول: الدراسة	
الفصل الأول: ترجمة المؤلف، وحياته العلمية	٢٣
الفصل الثاني: مفهوم الجاهلية، وأنواعها، وأحكامها، وصورها، وآثارها	٣٠
الفصل الثالث: موازنة بين المؤلفات في هذا الباب	٤٣
القسم الثاني: شرح الزوائد على مسائل الجاهلية	
المسألة الأولى: إتيان الذكور وترك إتيان الإناث كفعل قوم لوط	٥٣
الثانية: توعدهم أنبياءهم بالإخراج من بين أظهرهم	٦٢

العنــــــوان	الصفحة
الثالثة: نقص المكيال والميزان كفعل أصحاب الأيكة	٧٧
الرابعة: نسبة الأنبياء إلى الكذب كقول أصحاب الأيكة وغيرهم	٨٩
الخامسة: استعجالهم العذاب	١٠٢
السادسة: ترك العمل بالحق وجحده مع العلم به	١١٠
السابعة: السجود للشمس والقمر من دون الله	١٢٦
الثامنة: تأمير النساء	١٣٧
التاسعة: التشاؤم بالرسل وأتباعهم	١٥٠
العاشرة: إعمال المكر في قتل الأنبياء	١٥٨
الحادية عشرة: الشك في الدار الآخرة	١٦٧
الثانية عشرة: تقتيل الأبناء واستحياء النساء	١٨٠
الثالثة عشرة: تبرج النساء	١٨٥
الرابعة عشرة: اتباع السادة والكبراء فيما خالف الحق	١٩٢
الخامسة عشرة: إيذاء الأنبياء	٢٠١
السادسة عشرة: نسبتهم إلى الجنون	٢٠١
السابعة عشرة: الاستهزاء بالرسل وأتباعهم	٢٠١
الثامنة عشرة: قولهم في النبي ﷺ إنه شاعر	٢٠١
التاسعة عشرة: التحريف لمن دعاهم إلى الحق	٢١٣
العشرون: نسبة الصاحبة إليه – تعالى عن ذلك وتنزه –	٢٢١

العنوان	الصفحة
الحادية والعشرون: أنهم يخوفون من دعاهم إلى الله بمعبوداتهم	٢٣٠
الثانية والعشرون: اشمئزاز قلوبهم إذا ذكر الله وحده	٢٣٩
الثالثة والعشرون: استبشارهم إذا ذكر الذين من دونه	٢٣٩
الرابعة والعشرون: سؤالهم أمور دنياهم دون آخرتهم	٢٤٧
الخامسة والعشرون: البطر والفرح إذا أذاقهم الله رحمة منه	٢٥٥
السادسة والعشرون: الكآبة والقنوط إذا أصابتهم شدة	٢٦١
السابعة والعشرون: ظهور الكراهة عليهم إذا بُشروا بالإناث	٢٦٩
الثامنة والعشرون: قتل أولادهم	٢٧٥
التاسعة والعشرون: إنهم يعاهدون على أن يؤمنوا فإذا كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم	٢٨١
الثلاثون: إلقاء العداوة بين المسلمين	٢٩٠
الحادية والثلاثون: زخرفة المساجد	٢٩٩
الثانية والثلاثون: الاختصار في الصلاة	٣٠٥
الثالثة والثلاثون: أنهم زادوا في صيامهم	٣٠٨
الرابعة والثلاثون: أنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم	٣١٣
الخامسة والثلاثون: أنهم يجمعون الكناسة بأفنيتهم	٣١٦
السادسة والثلاثون: أنهم لا يصبغون	٣٢٠
السابعة والثلاثون: الاعتماد على اليد حال القعود في الصلاة	٣٢٣

العنــــــوان	الصفحة
الثامنة والثلاثون: جعل اليد اليسرى خلف الظهر حال الجلوس والاتكاء على راحتها	٣٢٦
التاسعة والثلاثون: العدوى مطلقًا	٣٢٩
الأربعون: التشاؤم بشهر صفر	٣٢٩
الحادية والأربعون: التشاؤم بالبومة	٣٢٩
الثانية والأربعون: ترك الختان كفعل النصارى	٣٣٥
الثالثة والأربعون: ترك الإسلام خوفًا على الملك	٣٣٩
الرابعة والأربعون: اعتقادهم أن الغول تضلهم مطلقًا	٣٤٤
الخامسة والأربعون: جعلهم في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية	٣٤٧
السادسة والأربعون: قولهم لمن أسلم شرنا وابن شرنا	٣٥٣
السابعة والأربعون: أمرهم الناس بالخير ونسيان أنفسهم	٣٥٨
الثامنة والأربعون: جعل العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور	٣٦٢
التاسعة والأربعون: الذبح بالسن والظفر	٣٦٥
الخمسون: معاقرة الأعراب	٣٦٨
الواحدة والخمسون: اتباع المتشابة وترك المحكم	٣٧٢
الثانية والخمسون: حلق القفا لغير الحجامة	٣٨٠
الثالثة والخمسون: القول بقدم العالم وأنه ليس بحادث	٣٨٤
الرابعة والخمسون: قولهم إن الكسوف لموت عظيم أو ولادته	٣٩١

العنوان	الصفحة
الخامسة والخمسون: قولهم إذا رمي بنجم إنه يولد عظيم أو يموت عظيم	٣٩٥
السادسة والخمسون: اعتقاد معرفة علم الغيب بالنظر في النجوم	٣٩٩
السابعة والخمسون: عقدهم لحاهم في الحرب تكبرًا وعجبًا	٤٠٥
الثامنة والخمسون: تقليد الأوتار وغيرها دفعًا للعين ونحوها	٤٠٨
التاسعة والخمسون: تحريم بعض أنواع السمك كالجرى كما تفعله اليهود	٤١٣
الستون: التحليل والتحريم بمجرد الرأي	٤١٧
الحادية والستون: المشي تكبرًا	٤٢٦
الثانية والستون: إرخاء الإزار تكبرًا	٤٢٦
الثالثة والستون: تفضيل بعض الرسل على بعض بمجرد التشهي	٤٣٦
الرابعة والستون: السجود لعظمائهم	٤٤١
الخامسة والستون: التبرك بالأشجار والأحجار	٤٤٦
السادسة والستون: ضربهم المثل	٤٥٣
السابعة والستون: عبادة الله على حرف	٤٦٤
الثامنة والستون: نكاح الاستبضاع	٤٧٠

العنـــــوان	الصفحة
التاسعة والستون: نكاح البغايا	٤٧٠
السبعون: نكاح المرأة العدد الكثير من الرجال وإلحاق الولد بواحد منهم	٤٧٠
الواحدة والسبعون: التوعد بسجن من خالفهم	٤٨٠
الثانية والسبعون: بناء واتخاذ مالا يحتاجون إليه من المصانع عبثًا	٤٨٩
الثالثة والسبعون: الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون	٤٩٦
الرابعة والسبعون: استمالة القلوب بالهدية	٥٠٣
الخامسة والسبعون: الاستهزاء في صورة المدح	٥١١
السادسة والسبعون: تعظيم الأسلاف والأكابر زيادة على المشروع	٥١٨
السابعة والسبعون: معارضة الحق بتعظيم الأسلاف والأكابر	٥١٨
الثامنة والسبعون: جعلهم أتباع الهدى سببًا لاستيلاء العدو عليهم	٥٢٤
التاسعة والسبعون: السفر للحج وغيره بغير زاد بزعم التوكل	٥٣٠
الثمانون: الأمر بالباطل وتحمل ما فيه من العقوبة	٥٣٤
الحادية والثمانون: جعلهم الملائكة من الجن	٥٤١
الثانية والثمانون: أنهم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا	٥٤٤

العنـــــــوان	الصفحة
الثالثة والثمانون: حلقهم لحاهم وتوفيرهم شواربهم	٥٤٩
الرابعة والثمانون: إن تسليمهم بالإشارة	٥٥٣
الخامسة والثمانون: إنهم يظنون بالله ظن السوء	٥٥٩
السادسة والثمانون: إنهم يجعلون من دم العقيقة على رأس المولود	٥٦٨
السابعة والثمانون: استعمال البوق كفعل اليهود	٥٧١
الثامنة والثمانون: الضرب بالناقوس كفعل النصارى	٥٧١
التاسعة والثمانون: التعبد بترك الكلام مطلقًا	٥٧٧
التسعون: إنهم لا يدفعون من مزدلفة حتى تطلع الشمس	٥٨٣
الحادية والتسعون: وصل الشعر	٥٨٦
الثانية والتسعون: الصلاة إلى المشرق	٥٩٠
الثالثة والتسعون: شد الوسط بالزنار	٥٩٤
الرابعة والتسعون: تأخير المغرب حتى تشتبك النجوم	٥٩٧
الخامسة والتسعون: أنهم لا يتسحرون إذا صاموا	٦٠٤
السادسة والتسعون: إخراجهم باعوثًا وشعانين مشبهين بالمسيح	٦٠٩
السابعة والتسعون: الخروج بالمشاعل مع المرأة إذا زفت إلى زوجها	٦١٤
الثامنة والتسعون: عبادة النار كفعل المجوس	٦٢٠
التاسعة والتسعون: اتخاذ أعياد مبتدعة	٦٢٥

العنـــــوان	الصفحة
المائة: اعتمادهم على الحساب في معرفة شهورهم	٦٣٤
الحادية بعد المائة: فعل الزمزمة حال الأكل كفعل المجوس	٦٤١
الثانية بعد المائة: السجود عند طلوع الشمس وغروبها	٦٤٥
الثالثة بعد المائة: لبس المعصفر	٦٥٠
الرابعة بعد المائة: قولهم إن العزل هو الموؤدة الصغرى	٦٥٤
الخامسة بعد المائة: تعبدهم مع التلبس بالنجاسة كفعل النصارى	٦٥٩
السادسة بعد المائة: عدم تقيدهم فيما يأكلونه من الطعام	٦٦٧
السابعة بعد المائة: اختيار الشق على اللحد	٦٧٦
الثامنة بعد المائة: تعليق الأجراس على الدواب	٦٨٠
التاسعة بعد المائة: تغيير خلق الله تعالى	٦٨٣
العاشرة بعد المائة: تبتيك آذان الأنعام	٦٨٣
الحادية عشرة بعد المائة: اتحاد المخلوق بالخالق	٦٩٢
الثانية عشرة بعد المائة: أنهم حملوا العلم فلم يحملوه	٧٠١
الثالثة عشرة بعد المائة: تصوير أنبيائهم وصالحيهم	٧١١
الرابعة عشرة بعد المائة: اتخاذ الكنائس والصوامع والبيع	٧١٩
الخامسة عشرة بعد المائة: التعبد على جهل كفعل الضالين	٧٢٦
السادسة عشرة بعد المائة: إفسادهم في الأرض وتسميته صلاحًا	٧٣٨

العنوان	الصفحة
السابعة عشرة بعد المائة: تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم	٧٤٥
الثامنة عشرة بعد المائة: استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير	٧٥٣
التاسعة عشرة بعد المائة: تعنتهم في السؤال كما في قصة البقرة	٧٥٧
العشرون بعد المائة: الحسد	٧٦٦
الحادية والعشرون بعد المائة: عبادتهم العجل	٧٧٣
الثانية والعشرون بعد المائة: قولهم سمعنا وعصينا	٧٧٩
الثالثة والعشرون بعد المائة: الحرص على الحياة بسبب ما قدمت أيديهم	٧٨٥
الرابعة والعشرون بعد المائة: عداوة بعض الملائكة كجبريل	٧٩١
الخامسة والعشرون بعد المائة: إنكار النسخ كما حكى الله عن اليهود	٧٩٤
السادسة والعشرون بعد المائة: اقتراح الآيات مع عدم الإيمان بها	٨٠٢
السابعة والعشرون بعد المائة: منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها	٨١١
الثامنة والعشرون بعد المائة: كونهم إذا حجوا أو اعتمروا لم يدخلوا البيوت من أبوابها	٨١٨

العنوان	الصفحة
التاسعة والعشرون بعد المائة: الاستقسام بالأزلام	٨٢٤
الثلاثون بعد المائة: عدم مؤاكلة الحائض ومشاربتها	٨٣٠
الواحدة والثلاثون بعد المائة: قولهم إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من دبرها كان الولدُ أحول	٨٣٥
الثانية والثلاثون بعد المائة: استحلال الربا وتشبيهه بالبيع فرد الله عليهم	٨٣٩
الثالثة والثلاثون بعد المائة: قلب الدين على المعسر	٨٤٧
الرابعة والثلاثون بعد المائة: عدم اعتبارهم بما يمرون عليه من الآيات	٨٥٢
الخامسة والثلاثون بعد المائة: التعبير بقلة البيان	٨٦٢
السادسة والثلاثون بعد المائة: عبادتهم الكواكب	٨٦٨
السابعة والثلاثون بعد المائة: استبدالهم الغناء عن سماع القرآن	٨٧٤
الثامنة والثلاثون بعد المائة: نسبة الأنبياء إلى الضلال	٨٧٨
التاسعة والثلاثون بعد المائة: نسبة الأنبياء إلى السفاهة	٨٧٨
الأربعون بعد المائة: التكذيب بالنار	٨٨٤
الحادية والأربعون بعد المائة: أنهم طال عليهم الأمد فقست قلوبهم	٨٩٠
الثانية والأربعون بعد المائة: أنهم يبخلون	٨٩٧

العنـــــوان	الصفحة
الثالثة والأربعون بعد المائة: أنهم يأمرون بالبخل	٨٩٧
الرابعة والأربعون بعد المائة: ابتداعهم الرهبانية	٩٠٧
الخامسة والأربعون بعد المائة: وصفهم بالجبن	٩١٦
السادسة والأربعون بعد المائة: شدة بأسهم بينهم	٩٢٢
السابعة والأربعون بعد المائة: أنهم نسوا الله فنسيهم	٩٢٨
الثامنة والأربعون بعد المائة: النهي عن الصلاة	٩٣٧
التاسعة والأربعون بعد المائة: استحلال البيت الحرام كفعل أصحاب الفيل	٩٤٢
الخمسون بعد المائة: عدم العمل بالعلم	٩٤٧
الحادية والخمسون بعد المائة: قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل	٩٥٤
الثانية والخمسون بعد المائة: محبتهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا	٩٦٢
الثالثة والخمسون بعد المائة: استئثار الرجل موليته لنفسه إذا كانت كثيرة المال ومنعها من غيره من غير أن يسقط لها في صداقها	٩٦٧
الرابعة والخمسون بعد المائة: عدم الرغبة فيها إذا كانت قليلة المال والجمال	٩٦٧
الخامسة والخمسون بعد المائة: توريث الرجال دون النساء	٩٧٢
السادسة والخمسون بعد المائة: وراثة النساء كرهًا	٩٧٧
السابعة والخمسون بعد المائة: إستحلال نكاح ذوات المحارم كفعل المجوس	٩٨٠

العنـــــوان	الصفحة
الثامنة والخمسون بعد المائة: إقامة الحدود على الضعيف دون الشريف	٩٨٤
التاسعة والخمسون بعد المائة: قولهم (إن الله ثالث ثلاثة)	٩٨٧
الستون بعد المائة: استحلالهم لحم الخنزير	٩٩٦
الحادية والستون بعد المائة: نكولهم عن القتال وقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون	١٠٠٠
الثانية والستون بعد المائة: قبولهم الحق إذا وافق أهوائهم	١٠٠٨
الثالثة والستون بعد المائة: تركهم الرجم واستبدالهم به غيره	١٠١٥
الرابعة والستون بعد المائة: تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٠١٩
الخامسة والستون بعد المائة: تفضيلهم الميتة على المذكاة لقولهم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله	١٠٢٧
السادسة والستون بعد المائة: قطع الطريق كفعل قوم شعيب	١٠٣٢
السابعة والستون بعد المائة: الأمن من مكر الله	١٠٣٦
الثامنة والستون بعد المائة: الإلحاد في أسماء الله	١٠٤٥
التاسعة والستون بعد المائة: تعبيد الإسم لغير الله	١٠٥٤

العنوان	الصفحة
السبعون بعد المائة: الإستعاذة بالجن من دون الله	١٠٥٧
الحادية والسبعون بعد المائة: قولهم لما تلي عليهم القرآن (لو نشاء لقلنا مثل هذا)	١٠٦١
الثانية والسبعون بعد المائة: قولهم فيه (إن هذا إلا أساطير الأولين)	١٠٦١
الثالثة والسبعون بعد المائة: إنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله	١٠٦٨
الرابعة والسبعون بعد المائة: خروجهم بطرًا ورئاء الناس وصدًا عن سبيل الله	١٠٧٥
الخامسة والسبعون بعد المائة: افتخارهم بالنحر والإطعام وسقاية الحجاج مع ما هم فيه من الشرك	١٠٨٢
السادسة والسبعون بعد المائة: استحلالهم الشهر الحرام وتحريمهم غيره	١٠٨٨
السابعة والسبعون بعد المائة: التربص بالمؤمنين الدوائر	١٠٩٤
الثامنة والسبعون بعد المائة: أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل	١٠٩٧
التاسعة والسبعون بعد المائة: أنهم يتسرولون ولا يأتزرون	١١٠٦
الثمانون بعد المائة: غسل أولادهم بماء المعمودية وصبغهم كما تفعله النصارى	١١٠٩

العنـــــــوان	الصفحة
الحادية والثمانون بعد المائة: عبادة الصليب وتعظيمه	١١١٥
الثانية والثمانون بعد المائة: ذبح الفرعة	١١٢١
الثالثة والثمانون بعد المائة: ذبح العتيرة	١١٢١
الرابعة والثمانون بعد المائة: التسمي بالأسماء المستكرهة	١١٢٨
الخامسة والثمانون بعد المائة: التسمي بما فيه تزكية	١١٢٨
السادسة والثمانون بعد المائة: إنكار الجن	١١٣٣
السابعة والثمانون بعد المائة: اكتساب المال بالميسر	١١٣٩
الثامنة والثمانون بعد المائة: كونهم يحيون عظماؤهم بقولهم أبيت اللعن وأنعم صباحًا	١١٤٥
التاسعة والثمانون بعد المائة: دخول نسائهم الحمام	١١٥١
التسعون بعد المائة: التألي على الله	١١٥٦
الحادية والتسعون بعد المائة: العلاج بالرقى الشركية	١١٦٠
الثانية والتسعون بعد المائة: تعليق التمائم	١١٦٠
الثالثة والتسعون بعد المائة: عمل التولة	١١٦٠
الرابعة والتسعون بعد المائة: استعمال النشرة	١١٧٠
الخامسة والتسعون بعد المائة: ترك الحيات مخافة ثأرهن	١١٧٦
السادسة والتسعون بعد المائة: أنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات	١١٨٠
السابعة والتسعون بعد المائة: عدم فصلهم في صلاتهم بين الفرض والنافلة	١١٨٨

العنوان	الصفحة
الثامنة والتسعون بعد المائة: تأخير الفطر	١١٩٢
التاسعة والتسعون بعد المائة: أنهم اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً	١١٩٥
المائتين: اشتراؤهم بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً	١٢٠٢
الحادية بعد المائتين: القول بدوران الأرض كقول بعض الفلاسفة	١٢٠٩
الثانية بعد المائتين: القول بثبوت الشمس	١٢٠٩
الثالثة بعد المائتين: أنهم يتدينون في السياحة	١٢١٥
الرابعة بعد المائتين: أنهم يقومون على عظمائهم	١٢٢٣
الخامسة بعد المائتين: الدعاء بدعوى الجاهلية	١٢٢٦
السادسة بعد المائتين: الاشتمال بالثوب كفعل اليهود	١٢٣٣
السابعة بعد المائتين: السدل لأنه من فعل اليهود	١٢٣٧
الثامنة بعد المائتين: تغطية الفم في الصلاة كما يفعل المجوس عند عبادتهم النار	١٢٤٠
التاسعة بعد المائتين: تفضيل العجم على جنس العرب كفعل الشعوبية الذين لا يعترفون بفضل العرب	١٢٤٢
العاشرة بعد المائتين: قولهم إن المسيح قد قتل وصلب	١٢٤٩
الحادية عشرة بعد المائتين: رفع الصوت عند القتال والذكر والجنائز	١٢٥٣

العنــــــوان	الصفحة
الخاتمة	١٢٦١
فهرس الموضوعات	١٢٧٧

* * *